
الشيخ
حياتي البارع
(توفي 1362هـ 1943م)
سياحة في ديوانه
بروفيسور إبراهيم القرشي
الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ ٢٠١٦م

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر- السودان

٨١١,٠٠٩٩٦٢٤ إبراهيم القرشي عثمان، ١٩٥٥م-

إ أ . أ

الشيخ حياتي البارع (ت ١٩٤٣م) سياحة في ديوانه/ إبراهيم القرشي عثمان.- الخرطوم: إ. أ، عثمان، ٢٠١٥م

ص؛ ٢٤ سم.

ردمك :

٣١٢ ص، ٢٤سم.

ردمك ١- ٠٦٦- ٤- ٩٩٩٤٢- ٩٧٨

١. الشعر العربي- السودان- تاريخ ونقد.

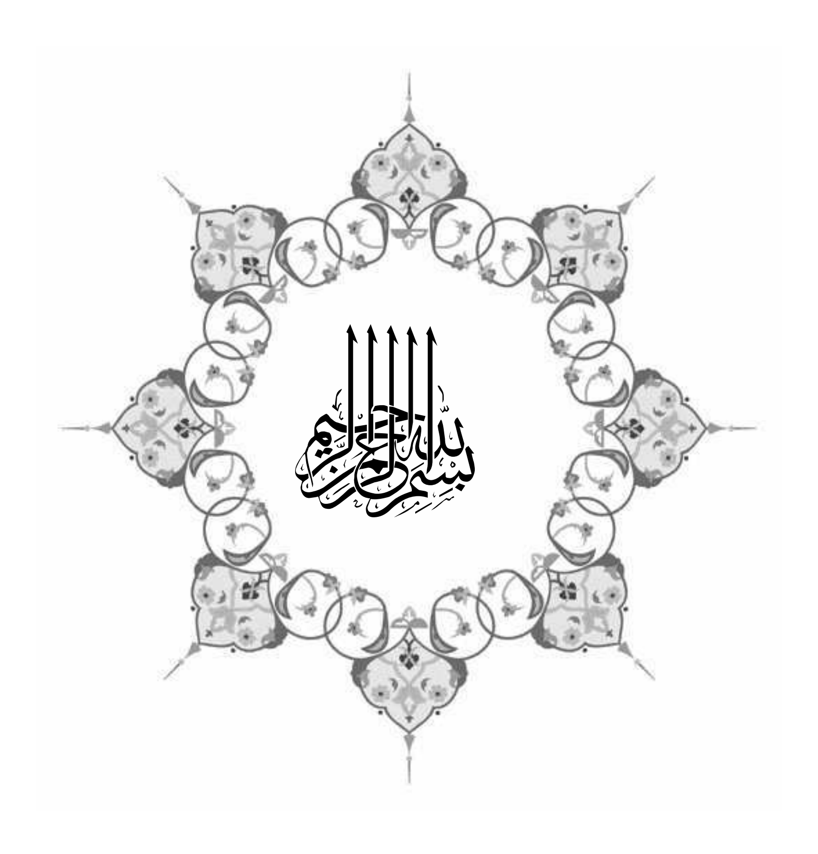
٢. ديوان الشيخ حياتي- نقد.

٣. محمدحياتي الحاج حمد العربي، ١٨٨٧؟.

أ. ديوان الشيخ حياتي

الشكر والامتنان والعرفان لأخي الشيخ **العبيد الشيخ كرار الشيخ ود بدر** زينه شباب المتصوفة الذين يعوّل عليهم في حمل رسالة التصوف، لورعه وتقواه واستقامته وتفقّه ومحبته للمدوح وسعيه الدَّؤوب إلى الاستزادة من العلم ولتواضعه وحسن سيرته وجميل تواصله مع المجتمع. وهو شديد المحبة والتوقير لعمّه الشيخ حياتي، شديد الإعجاب بتجويده وافتنانه، وقد تحمل نفقة هذه الطبعة من الكتاب. فجزاؤه على صاحب المكافأة والثواب جَلَّ شأنه.




بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــداء

إلى الحبيب (ﷺ) وإلى مُحِبِّيهِ

وإلى القائل:

هـــــا حَيَـــــاتي البـــــارِعْ	صـــــــــلواتُو تَـــــــضَارِعْ
بـــــي ســـــهامًا صَـــــارِعْ	في حِيَاضَــــــا كـــــــارِعْ

منه وإليه مع رحمة الله ورضوانه

المحتويات

مقدمة

الحمد لله الذي مدح رسوله وأمرنا بالصّلاة عليه، والصّلاة مدحٌ له (ﷺ). وسخّر عقول الفحول من أمته لنشر سيرته وهديه بالنّظم الصقيل والنّغم الجميل؛ فعليه منه صلاةٌ لا تعد وسلام لا يحد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه؛ وبعد:

فهذه سياحة في ديوان نادر لمحب متيم وشاعر متمكن وناظم موهوب وعالم متبحر، وتاجر يعرف قيمة بضاعته، يُحْكِمُ صنعته ويمتلك أدواتها ويحسن التأتي إليها. يعرف فيمن يقول ولمن يقول وكيف يقول ومتى يقول. ذلكم هو الشيخ محمد حياتي بن الحاج حمد العربي. الّذي لم يدخل في زمرة المادحين مصادفة ولم ينبغ فجأة، وإنَّما أتى على قدر، متقدماً زمانه بكثير ليكون نقطة فارقة وعلامة مميزة في تاريخ المديح النّبوي الشّعبي في السُّودان.

وعهدي بالاستماع إلى المديح قديم إذ ولدت ونشأت في بيت عريق من بيوته، وأخبرتني أمي بارك الله في أيامها أنَّها دفنت سُرَّتي في زاوية من زوايا الديوان (الصالون/الخلوة) وفي باحته ثلاث عشرة شَايَة (مربط) لدواب الضيوف، وخصوصاً المادحين.

وكنت منذ أدركْتُ اتعجب من اثنين، لمن كانوا يؤلفون، وقد عاشوا وسط أمة أميَّة، نعم كان هؤلاء الأميون أطهاراً أتقياء أنقياء أذكياء ولكن هل كانوا يعون ويستوعبون كل الدّقائق التي اطلعنا عليها في ديوان الشّيخ حياتي ومنظومات الشريف محمد الأمين الهندي في علوم القرآن؟ عجبي ما زال مقيماً.

ومن هنا راودتني فكرة تيسير منظوم هذين العلمين الضخمين وتقريبه؛ ففرغت بحمد الله من الأوَّل (قطب القرآن) وهأنذا أقدم للثاني وهو (ديوان الشّيخ حياتي) وعسى أنْ أكون صنعت فيه شيئاً ولو بجمع شتات متشابهاته ووضعها في صعيد واحد لتظهر للقارئ الكريم البراعة والإبداع في أبهى صورهما وتتم المتعة والفائدة. وإنْ تجاوزت ذلك إلى تبيين بعض غموضه وفك بعض رموزه وحل شيء من معقوده وكشف نزر من محجوبه مما عساه يكون غاب على غيري فذلك من فضل الله ونعمته. فإنّ هذا الديوان ليس من الدواوين التي تقرأ ثم ينصرف القارئ عنها إلى غيرها..لا بل يحتاج هذا الديوان إلى دوام النظر وحضور الذهن وصحة العزم وصدق النية وأن يكون المتعامل معه من أهل (الكار) لا يسأم النظر فيه ولا يملُّ الرجوع إليه.

وقد والله ما زلت حين يصيبني السأم والضجر من الاطلاع ألجأ إليه، من بعد كتاب الله، وأنغمس فيه فأجد تفريجاً وراحة. شدَّني هذا الديوان منذ زمن طويل، فكنت دائم

الاستمتاع بقراءته شديد العجب من افتنانه وبراعته ولكني أشفق على أوساط الناس من وعورة أسلوبه وعتاقة لغته على ما فيه من علم جم وسيرة غزيرة فهو مما يعلم اللُّغة والفن والإبداع قبل أن يعلم السيرة التي هي غرضه الأول الأوحد.

هذا وقد كان يضايقني لجوء المادحين المؤدين والمنشدين إلى حفظ قصار القصائد وما وضح معناه وإهمال الطوال الجياد التي هي خلاصة أفكار وعصارة نفْس، ولو أنَّهم حفظوها لسارت على الألسن وتوطأت أكنافها وسهلت على مر الأيام. ولكنهم معذرون فالديوان لا يخلو من وعورة. وما زلت شديد الرّغبة في شرحه قصيدة قصيدة كما فعل الأقدمون في دواوين كبار الشعراء، لما أحسه فيه من متعة وما ألقاه من فوائد وما أجده من براعة صنعة، ثم لما استشعره من صعوبة مادته ومتانة سبكه على فهم كثير من الأحباب. غير أنَّ الديوان بقصائده التي تربو على المائتين بإحدى وثلاثين قصيدة سيطول ويستغرق زمناً. فعمدت إلى شرح بعضه بصورة غير مباشرة وذلك باصطياد الشوارد واقتناص المقاطع التي تحمل معاني سامية - وكله سامي المعنى - وتتبع الإبداع اللُّغوي والبلاغي والفني وغيره، وقد أتعمد اختيار المقاطع التي أحس فيها صعوبة على القارئ العادي بسبب كثرة الكنايات والإشارات أو الإيجاز الذي يقتضيه النّظم ودقة الصنعة أو التداخل في التراكيب وما إليه.

يقع كتابي هذا في خمسة أبواب، في كل منها مجموعة مباحث؛ انحصر الباب الأوّل في سيرة الشيخ المستنبطة من شعره وفيها تقديسه للمديح ورفعة شأنه في نفسه وفيه وقفات عند أهم مصادره وعلى رأسها القرآن الكريم والحديث الشّريف وما أخذه من العلماء وأعلام التصوف.

وتناول الباب الثاني بلاغة الشيخ حياتي وحصرتها في صوره وكناياته وإشاراته ومذهبه في الجناس ولزوم ما لا يلزم.

وتناول الباب الثالث لغة الديوان وما فيها من فصاحة وأصوات وتصريف وما إلى ذلك ثم عرَّج على التراث واستفادة الشاعر منه وتوظيفه لخدمة معاني السيرة.

وعرض الباب الرابع أجزاء من هيكل قصيدة المدح. ولم نخص مفردات السيرة بمبحث مستقل وإن كانت هي غرض الديوان الأوّل لأنَّها ماثلة في كل مثال استشهدنا به.

وتناول الباب الأخير صناعة الرجل وبراعته في صياغة الشعر وله في ذلك أساليب مخصوصة حتى غدا بعضها ظاهرة ملحوظة في الديوان.

وأخيراً ذيلت الكتاب بطائفة من الفوائت والاستدراكات على النسخة المطبوعة منذ أكثر من عشرين عاماً عسى أن يُنْتَفَع بها إن أتيحت إعادة طبعه بإذن الله.

هذا وإنَّ الّذي صنعته بديوان الشيخ حياتي يمكن أن أصنعه، إن فاسح الله في الأيام، أو يصنعه غيري ببقية دواوين شعر المديح النّبوي؛ فإنَّ هؤلاء الفحول جميعاً لم يقصروا في نشر السيرة في زمن كان فيه النشر عسيراً، وكلهم قال وأجاد وأفاد. وقد اختص الله تعالى كلاً منهم بمزية، وأكرمهم جميعاً بفضيلة مدح الجناب الذي لم ينقطع سَيْبُ مدحه منذ حسان بن ثابت إلى يوم النّاس هذا وإلى أنْ يرث الله الأرض ومن عليها.

وقبل الختام أسدي الشكر الجزيل والثناء الجميل لابني العزيز الأستاذ وليد كمال النويري بالمجمع اللُّغوي، الذي طبع كل حرف في هذا الكتاب باقتدار أصيل وصبر جميل وإتقان جليل، مع ذوق وفن وأدب جم، فله من الله الجزاء الأوفى.

وفي خاتمة المطاف فإنَّ هذا جهدي، حصرته في الديوان وحده، إذ لو خرجت إلى مقارنته بغيره لطال الأمر جداً. ولم أعتمد فيما أوردته على جهد سابق وإنَّما هو خلاصة جهدي وعصارة فكري، فإنْ أصبت نلت الأجرين بحمد الله ومنته وإن كانت الأخرى فلن أعدم الأجر بفضله ورحمته. وصلَّى الله وسلَّم على سيِّدي الممدوح وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدّين.

خادم الجناب

إبراهيم القرشي

الخرطوم في ٥/١٢/ ٢٠١٥م

مدخل

قيمة المديح النّبويّ وأهدافه ورسالته:

لا ريب في أنَّ الثناء على الرسول (ﷺ) فرض واجب لا يتم الإيمان إلا به، وأنَّ محبته (ﷺ) هي رأس الأمر وأن اتباعه (ﷺ) هو المحبّة عينها فالثناء مدح، وقد أثنى المولى عزَّ وجل ثم أمر بتعزيره وتوقيره، مثلما أمر بالصلاة عليه في الأمر القرآني الجامع (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) الأحزاب، آية ٥٦.

فمدح الرسول صلاة عليه وتكاد الصلاة على الرسول (ﷺ) تعادل عند أهل السودان مدحه (ﷺ). ثم إنَّ المديح النّبويّ سنة تقريرية فقد مدح (ﷺ) واستمع إلى المدح وأجاز عليه وحضَّ عليه إذ كان وسيلة من وسائل الدّعوة بالتحبيب والترغيب فيها والمنافحة عنها. وفي المديح تعريف برسول الإسلام بفضائله وخلقه وشمائله وأفعاله وأقواله وفضله (ﷺ) على الإنس والجن والملائكة، وأنَّه صاحب الحوض المورود وصاحب الشّفاعة وقد جاء في بعض حديثه (ﷺ): (أنا سَيِّد ولد آدم ولا فخر وأوّل من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وأوّل من يُنفض التراب عن رأسه ولا فخر، وأوّل داخل الجنة ولا فخر... ما بال أقوام يزعمون أن رحمي لا تنفع... ليس كما زعموا إني لأُشفّع وأشْفَع حتى إنَّ من أشْفَع له يُشفّع فَيَشْفَع حتى إن إبليس ليتطاول إلى الشّفاعة) المعجم الأوسط، ص٢٠٣.

وفي المديح القدوة والأسوة بأحوال الرسول (ﷺ) والصحابة في السراء والضراء ليتم حسن الاقتداء. وفيه ذكر جهاده وجهاد أصحابه وهو ما يدعو إلى الحفاظ والدفاع عن حوزة الدين.

والمديح عبادة لما فيه من التوحيد للخالق والإذعان لأمره في الصلاة على حبيبه وفيه من قطوف الفقه والعبادات الكثير علاوة على التوجيه والإرشاد والوعظ والترغيب والترهيب، وفيه مدارسة السيرة وحفظها ونشرها فهو تذكرة مستمرة بها ومُدوّنة حافظة لها.

وفيه التّوسل والالتجاء إلى الله ورسوله في كلّ حين خصوصاً في ساعات الفتن والضيق والشدّة والهمّ وهذا من باب الإنابة إليه تعالى. وفيه التّقرب إلى الله بالدعاء والدعاء مخّ العبادة، وبمحبة رسوله التي هي من أعظم القربات لأنَّ محبته واتباعه من محبة الله تعالى بنص القرآن الكريم: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) آل عمران، آية ٣١.

وفي المديح بركة فالتبرك به (ﷺ) وبالسير على خطى من مدحوه فنالوا رضاه وعفوه، وإذا كان الصحابة قد مدحوه وهم شهود حضرته فما بال من فصلت بينه وبينهم الأزمنة والمسافات فإنَّهم يجدون في هذا المدح وصلاً لحبلهم بحبله، فالتعلق بسيرته وسنته ووصفه وحاله سنة قديمة منذ أن دعا الحسن سبطه رضوان الله عليه خاله هند بن أبي هالة أن يصف له النّبي حتى تعلق الصفة بذهنه وهو الّذي رآه رأي العين. وفي المديح شكر للمولى عزّ وجل وحمد له على إرساله هذا الرسول الأمين على فترة من الرُّسل بشيراً ونذيراً وهادياً وداعيّاً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً لنا معشر المسلمين وللنّاس كآفة.

وفي المديح خدمة للقرآن الكريم وعلومه، إذ يدور المصحف في أشعار المادحين فيطبقون الأحكام، ويقفون على وجوه القراءات، وأسماء السور، علاوة على أنَّ المديح شعر والشعر طريق إلى حفظ اللُّغة وأساليبها وحفظ اللُّغة هو من حفظ الذكر الّذي تعهد المولى بحفظه (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) الحجر، آية ٩. فكأنّ المولى عزّ وجل قيّض للمادحين ووفقهم إلى حفظ اللُّغة بأمداحهم هذه ليكون ذلك سبباً في حفظ الذكر. وينطبق هذا حتى على شعر المديح الدّارج فإنَّ فيه حفظاً للغة أهل كلّ بلد إسلامي لأنَّ لغتهم الدارجة فرع من العربيّة الأم وعاء الذكر الحكيم.

ولا يخفى أيضاً أنَّ المديح مصدر من مصادر دراسة المجتمع وهو تراث أصيل وفيه التاريخ للأحدث ورحلة الحج وطرقها والعمران وما طرأ على كل ذلك. علاوة على الجغرافيا المتمثلة في خارطة السُّودان والحجاز التي يحفظها أهل المحبّة حتى من لم يزر منهم تلك البقاع ولا سلك الطريق إليها عبر أرض السُّودان.

ومن كل ما مضى نستطيع القول بأنَّ ديوان المديح النّبويّ السوداني عموماً هو أدب دين ودنيا يمثل موسوعة ميسّرة اشتملت على السيرة من جميع جوانبها وعلى كثير مما يحتاج إليه المسلم من المعارف والعلوم. علاوة على راحة النّفس واطمئنانها وما يلقاه المحبّ من النشوة بذكر الحبيب والطرب والأنس بالإيقاع المحرِّك والنّغم النّبيل. وقد جاء كل ذلك مضمناً في سياق قصيدة المدح النّبويّ وطرق أدائها.

هذا وبحمد الله قد جدَّ البحث في هذا الباب وصدق الالتفات إليه، ووجد فيه النّاس جداً وعلماً وأدباً ما كانوا يلقون له بالاً، فاهتمت به أجهزة الإعلام وصار أُنس النّاس في

مناسباتهم الخاصّة لما فيه من البركة والبعد عن المآثم، وانفتحت له أبواب دور العلم ومؤسساته فقد أدخلت جامعة الخرطوم مقرر أدب المديح النّبويّ بعد غفلة طالت، وجعلته جامعة الرّباط الوطني مقرراً من مقررات الدراسات العليا وستستمر الصّحوة إنْ شاء الله. ووقفت على عناوين رسائل علميّة عديدة ولابد أن يكون هناك أضعاف ما وقفنا عليه وهي بشارة وأي بشارة. وعسى أن يكون لما أقدمه هنا فائدة، وعساه يلفت الأنظار إلى هذا المنهل العذب.

(راجع مقدمة كتابة مدح الرسول (ﷺ) للبروفسير عبد الله الطيب بتحقيقنا)

الباب الأوَّل:
رسائل المديح ووسائله:

- سيرة الشيخ حياتي من شعره
- قدر المديح عنده
- القرآن
- الحديث
- أعلام المتصوفة

سيرة الشيخ حياتي من شعره

المولد والنشأة:

في المتواتر من سيرة الشيخ أنَّه محمد حياتي بن حاج حمد العربي. وأمه آمنة بنت فاطمة بنت الشيخ العبيد ودبدر - (ودريًا) ولد في أم ضُبَّان سنة ١٢٩٠هـ (١٨٧٢م). واستشهد والده في واحدة من جردات المهدية وكفله جده الشيخ محمد العبيد ود بدر، ثم ابنه وخليفته الشيخ أحمد بلاع جدّ الشاعر.

وقد بنيت هذه الدراسة على الحديث عن الشيخ وشعره من واقع ديوانه. فإذا استنطقنا الديوان وجدناه في ختام كل قصيدة يضع طابع الملكيّة الفكريّة موقعاً مرة بحياتي – وهو أكثر ما في الديوان – وقد يزيد بإضافة (حياتي عريبي) أو (ودحاج حمد) أو (نجل الحاج حمد) أو (حياتي الحاج حمد) أو (حياتي السّندي)، قال مرة (٣٢٨):

حيــــاتِي عِرِيبِــــي بالرَّزْمَـــــة ... صــــلاتُو الجَّابـــا أبْ جَرْمَــــه

بِـــي كَافَّـــة احْمَـــالُو مُلْتَزْمَــه ... وعَنُّـــــو مُفَرِّجَـــــهْ الأزْمَــــــه

وفي (متين يا اللي الرُّسل فايق) (١٧٨):

حيــــاتِي عِرِيبِــــي شُــــوف ظَرْفُــــو ... صــــلاتُو علـــى الكَحِيـــل طَرْفُــــو

حَمَــــالْتُو عَلَــــي ومُنْــــصَرْفُو ... وحِمْــــل الْــــوَادَدُو وعِرْفـــــو

وفي أخرى (٤٤٥):

الــصَّلَوَاتْ لِكُـــوكْ تَمْـــلا الكيـــانْ نِعَمـــاً ... تُرْضـــي المـصطفى القَـدَمَا اشْـتَكَتْ وَرَمـــاً

مِـــنْ وَدْ حَـــاجْ حَمَــدْ حَيَـــاتِي الــدَّابو رَمَـــنْ ... سُـــفُنُو يَنِيـــلْ بِهـــا فيِ الـضَّرَّتِيْن كَرَمـــاً

وهل هذا شعر رجل مبتدئ، أطلق أشرعة سفن الشعر لتوّه؟ ستجد تعليقاتي على مثل هذا التواضع في مواضعها.

وقال في رابعة (٤٨٩):

تُرْضِــــي والخَــــدِيم يَلْــــبَسْ بهـــا خِلْعــــتينْ

نجْـــل الحَـــاجْ حَمَـــدْ حيَـــاتِي في الفَـــايْتَينْ

وفي خامسة (٥٥٣):

صَـــلِّيتْ حَيَـــاتِي الـــسَّنْدِي ... لـــي القَبْـــرُو جَـــايْ لِلْهِنْـــد

خيرَاتَـــا تـــركُض عِنْـــدِي ... تفْـــدَا وتَطَـــوِّل زِنْـــدِي

من هذه المقاطع الخمسة نستنتج اسم الشاعر كاملاً، محمد حياتي السّندي بن الحاج حمد العريبي والأخيرة تصغير (عربي). وفيه إشارة للمسمَّى عليه وهو محمد حياة بن إبراهيم المدني السّندي، عالم في الحديث، ولد في السِّند وتوفي في المدينة المنورة، شرح الكثير من مصنفات العلماء كالترغيب والترهيب للمنذري، وتحفة المحبين وشرح الأربعين النّوويّة وشرح الحكم العطائيّة وغيرها. توفي (١١٦٣هـ – ١٧٥٠م) (الأعلام للزركلي، ١١١/٦). وقد ذكره الشيخ في أكثر من قصيدة، نحو قوله (١٠٣):

وأرْقَى مَراقِي العَمَلْ كالسِّنْدِي وأبو الهَمَلْ

أو قوله مُصرَّحاً بأنه سمَّي عليه (٤١٥):

يَا كَرِيمْ أقْبَلْ نِيَاتي جِلَّني وأكْرِمْ حَيَاتِي

بالأخَصْ حِينْ مَوْتِ يَاتِ وأرْقَى مَرْقَى سَمِي حيَاتِي

وفي صلاة مدحة ثالثة يقول (٤٢٧):

صلاةَ تَسْرِي في عقْبِي تَسِدْ من الخَطَا ثقْبِي

حَيَاتِي السِّنْدي تلحِق بِي بهَا تزين كُنْيَتِي ولَقَبِي

ولا شكَّ أن الشاعر ومن سمي عليه إنَّما هما مسميان على صاحب الاسم والمقام (ﷺ) الذي من تسمى به فاز إن شاء الله؛ لذلك نجد الشيخ يُعَوِّل على تسميته باسم النبي محمد (ﷺ) أكثر مما يُعوِّل على أي شيء آخر، وذلك قوله (١٧٧):

فَكُفْ كُفْ عَنِّي يَا أُنْس عِيُون اَلْجِنَّ والإنْسِ

ولا تَنْسَانِي اكُون مَنْسِي بِكَ اسَّمَّيت فَمَا جِنْسِي

أي أنا تسميت بك ولي في حرمة هذا الاسم ما يغنيني عن الجنس والقبيلة ونحوها وهذا مذهب محمود سلكه البوصيري وكثيرون ممن تسموا بهذا الاسم؟ ولكن ذلك لم يمنع الشاعر من ذكر الجنس والقبيلة لأنّها أيضاً أصيلة ولها نصيب من الشرف. والمعروف أنَّ البدراب مسلميَّة بكرية ينتسبون إلى سيدنا أبي بكر الصديق فلذلك لم يغفل الشاعر هذا المحتد الأصيل فذكره كثيراً، منه قوله داعياً لهم (١٩٠):

آلاف الصلاة الخَضريَّة مِنَّي على حبيب بارِيَّ

بيها حيَاتِي بالبكريَّة بَدْري نفُوز، نفوز باكريَّة

وأعاد هذا الدعاء في موضع آخر قائلاً (١٧٦):

حَياتِي الجِّدُّو ودْ رَيَّة صَلاتُو الِيها عَارِيَّة

بهـــا ذو النِّـــسْبَه البَكْرِيَّـــة يَفُـــوز في الثُّلـــة البَدرِيَّـــة

والإشارة إلى ود رية وهو الشيخ العبيد ود بدر تعيدنا إلى العنصر الأصيل في نشأة الشاعر، فقد تفتحت بصيرته وهو في كنف جده وفي حجر أخواله من بعده. فكان المشرب الرَّوي والمنهل العذب الّذي كان له الأثر كلّه في نشأة الشيخ وتوجيهه، لذلك تراه مقراً بفضلهم عليه وأستاذيتهم له خصوصاً جدّه الذي أكثر من ذكره ونوّع في الإشارة إليه، كما رأيت في (ود ريّة) التي وردت قبل قليل وتكررت في نحو قوله (٣١٦):

مِـــنْ النَّبِـــي واللَـــىْ أبِ ودْ رَيَّـــة المُنُـــو مُنَيِّـــبِ

لا تقولـــو قـــولي مُخيَّـــبِ مَـــنْ سَـــابُو صَـــارَ مُـــسَبَّبِ

يَـــا هَـــازِئِينْ يـــا خُيَّـــبِ

يشير بذلك إلى أنَّه مُؤمَّن ومصون من النّبيّ وود ريّة الذي ينوب عنه في الإرشاد والعلم، والعلماء ورثة الأنبياء. فلا تقللوا من قولي هذا يا أصحاب الخيبة والاستهزاء. فهو يثق في محبة الله لنبيّه والمتصلين به بكل سبب، لأنَّ الله يجلهم ويكرمهم لأجله (ﷺ)، لذلك قال (١٧٩):

كَرَمَـــاً للرَّسُـــول ذُخـــريَّ والجِـــدْ والْـــدِي ودْ رَيَّـــه

وقد يسمي (ريَّا) هذه بالحبوبه كما في جاري عادتنا فيقول عنها (٢١٤):

كَـــــوْنِي مَعْبُوبَـــــا بـــيكم يَـــا قـــايمين دُجَـــا البُوبَـــا

مِـــنْ أبِـــي وأُمـــي واللّـــي حبوبـــه فِـــيْ فيوضَـــاتْكُم تَبْقَـــى مَكْبُوبَـــه

أنا ممتلي حُباً لكم وأريد الصلاح بجاهكم أيها القائمين ظلام الليل الحالك (دُجى البوبا) ورثت محبتكم من أبي وأمي وجدتي وأنتظر أن تفيضوا علي من فيوضاتكم... والحبوبة هي (ريَّا) أم الشيخ العبيد التي ينسب إليها فيقال (العبيد ود ريَّا).

وهو شديد الفخر بجدوده عموماً كما سيأتي وبجده العبيد ود بدر على وجه الخصوص، فهو أستاذه ومربيه يذكر ذلك في مواضع عديدة كقوله (١٢١):

يَمْتَلِـــــي صَـــــدْرِي بـــالعلوم وانْـــوَاراً بِهـــا أذْرِي

الـــشُّبه وانْهَـــض كَـــي أفـــوز بَـــدْرِي في يمـــين أسْـــتَاذِي وَلَـــد بَـــدْرِ

وهو مُربيه كما في قوله (٥٠٠):

سَـــلّكو في الحيـــاة آثـــار مربيِّـــهُ والـــسِّرْ العَظـــيمْ أورِيـــهُ مَخْبِيـــهُ

وهو لحسن اعتقاده فيه ولثقته في قربه من الله يسأل الله أن يكرمه بجاهه فيقول (١٧١):

أشْـــفِيلي جـــوى الـــصَّدُرْ   وعَلَــــــيَّ الرَّحمـــــــه دُرْ

واجْعَلنِـــي رَجـــيحْ قـــدُرْ   كَرَمــــاً لـــي ودْ بـــدُرْ

بل يسأل الله أن ينزل عليه الرحمة والمدد ببركة الرسول (ﷺ) وبركة ود بدر (١٧١):

لحَيَـــاتِي الْخـــير تَـــدُر   مِنُّـــو ومِـــنْ ودْ بـــدُرْ

أي من الرسول (ﷺ) وجده ود بدر.

ويقرنه بالرسول (ﷺ) في موضع آخر قائلاً (٣١٩):

صَـلَوات حَيـاتِي الفَـاخْرَه دُرْ   أو جـــوهراً عَـــازْ في القَـــدُرْ

مِـــنْ الـــنَّبي ومِـــنْ ودْ بَـــدُرْ   في البَـابْ قِلُـوب النَّـاس تـدُرْ

لَـــبَنْ الـــشِّفَا الـــشارْحَ الـــصَّدُرْ

لأنَّ شرح الصدر بالهداية، والهداية باتباع الرسول، وود بدر أحد طرقه إلى الهادي (ﷺ).

ويلقبه بالرشيد في قوله (٣٧٧):

مِـــنْ مَـــدد الرّشـــيدْ   شـــيخ والـــدي شـــيخ بُـــولادْ

مِـــدْ لَـــيْ مَـــدَّهُمْ   مّـــدداً يَـــصِيرْ تِـــيلادْ

فهو شيخه وشيخ أبيه أيضاً.

ولتقديره له وتبركاً يقسم بحياته أحياناً، على طريقة سلفه في قولهم (لولا المربي ما عرفت ربي)، فيقول (٢٦٠):

خَــــرَّ وجَــــاهُو البّـــدُرْ   والله وحــــاتْ ودْ بَـــدُرْ

وترتفع نبرة إعجابه به واعتماده على ما انتفع به منه، فيلقّبه بالأشقر مفتخراً به، فيقول (١٦٥):

هَـــا حَيـــاتِي القَرْقَـــرَا   صَـــنْقَع مـــا دنْقَـــرَا

فُـــوق كـــابُو الْمَـــا قَـــرَا   ودْ رَيَّـــــه الأشْـــــقَرا

ويسأل الله أن يكون هذا الأشقر ورصفاؤه عوناً له في الذهاب والعودة، فيقول (١٤٧):

ذاكَ البّـــــــــــان   وادريـــس وأشـــقَر أمْ ضُـــبَّان

عَـــوْنِي يَكونُـــوا في الـــذُّهْبَانِ   وأيـــضاً في الإيـــاب عُقْبَـــانِ

يريد بالبان الشيخ حسن ود حسونة وإدريس هو ود الأرباب وكلاهما كانا من سلاطين زمانهما في الإرشاد والسير إلى الله، ومعهم جده أشقر أم ضبان وهو ود بدر. والذهاب والعودة هنا في الحج أو في رحلة الدنيا والآخرة.

أمَّا جدوده الباقون وفيهم ود بدر فقد عمَّم وخصص وتكرر ذكرهم وتنويهه بفضلهم ورجاؤه أن يمتدَّ بمددهم، كقوله (٢٧٧):

وارْقَابَـــــا فـــــوق مرْقَـــــى الجـــــدود

وقوله (١٨٨):

آرَثْ ودُودِي بركـــــــات جِـــــــدُودي

وقوله (١٤٩):

إلْقَــى حَيَــاتِي بيهــا مــداد وســـلوك سِــكة الأجـــداد

وقوله (٥٣٦):

بهـــم عَـــسَى أُنْجَـــدْ وأمتـــد مـــدد الجـــدْ

وقد يثنِّي فيقول (٣٧٥):

وأرْقَـــى مـــا رقُـــو الجـــدين والجـــدين

أو يقول (١٤٢):

النَّاجـــــداك أهــل الــدايرة بــل جــدَّاك

وقد يعني بالجدين الأول والأخير وقد يعني جد السبطين (ﷺ) وجدّ البكرية أبابكر الصديق (رضي الله عنه) وعن ذريته.

ولا ينسى أبناء الشيخ ود بدر، ففيهم من رباه وواصل إرشاده كالشيخ أحمد بلاع بن الشيخ العبيد، لذلك تتكرر دعواته له ولإخوانه أبناء الشيخ المربي (٤١١):

دعَوْنَـــاك رَبِّـــي لبِّينَـــا فـــلا تَردُّنَـــا خايْبينَـــا

أبنـــاء الـــشيخ مُرَبِّينَـــا تَقَبَّـــل لـــي قَرَابِينَـــا

وقد دعا لهم دعوة نفيسة تدل على محبته لهم وما يكنه لأبيهم من الوفاء والاعتراف بالفضل، وذلك قوله (٤٤٦):

أَنْجـالْ ودْ بَـدُرْ سَـوْ ديـدنا الآداب والجـود والكـرم مـا يبقـو داب الـداب

والـنَّهج القـويمْ يَمـشوبُو لا الـدَّادابْ واكْفـيهم ضَـرَرْ عَـينْ الحَـسُّود والـدَّابْ

❖❖❖

وَقِّـى عِرْضَـهُم فِـي ذَا الـدَّهر قَـلاَّب وأَحْمِـيهم حمـاء يَغْلِـبْ الغُـلاَّبْ

ضـاعِف خيرهـم لِـي حاجَـة الطُّـلاب والـضَّيِّفْ والعَـشِير والجَـارْ كَـذا الطُّـلاَّبْ

وسترد هذه الأبيات في مبحث الجناس مفصلة مشروحة إن شاء الله.

بل يدعو لأحبابه وأتباعه وأهل العقيدة فيه (٢٦٧):

يــا الرَّســول اضْــمَنْ نَــاس العَقَائِــدْ	فِــي ابــنْ رَيَّــا الْكَــانْ خَــارْق العَوايْــد
سَــوِّهْمْ فِــي حِمَــاكْ مِــنْ أمْ رعَايْــد	آمِنِـــيْن عَـــنْهُم كُـــفْ الـــشدائِدْ

ولـئن ذكـر الـشيخ مـسقط رأسـه وهـو بلـدة (أم ضبـان) فإنـه قطعـاً لـن ينـسى ولم يـنس موطنـه الثـاني (الـصقيعة) وهـي الـتي حـط فيهـا رحالـه وباشـر فيهـا رحلـة العلـم والمديح بعـد سياحة فيما حولها ابتداءً بود النور والحضور ثم الهلالية وقرى العك ورفاعة وما حولها مثل بانت، وغيرها – مما جرى ذكره في مدائحه.

أمَّـا أم ضُـبَّان فمـا أكثـر مـا ذكرهـا، وهـي كمـا أسـلفنا مـسقط رأسـه ومـأوى آبائـه وأجداده ومهد صباه ومربع دراسته ونشأته الأولى، ذكرها في قوله (٤٥٣):

تُنْجِـــي المـــسلمينْ وأهْلِيَّـــة أُمْ ضُـــبَّانْ

وقوله:

أُمْ ضُـــــبَّانْ وناســـــا الفيهـــــا

وقوله (٤١٠):

أُمْ ضُـــــبَّانْ مَرَاكِينَـــــا	الـــسُّودان لا أك وأكينـــــا

السُّودان إلى بلاد غرب أفريقيا التي أشار إليها بـ(أك وأكينا).

ومع أم ضبَّان تكون الدّعوة عامة دائماً لأنها مصدر الإشعاع والهداية، أما الصقيعة التي كانت خاتمة المطاف واختارها الله لمقامه الأخير فقد ذكرها في قوله (٥٢٩):

مِـــنْ هَـــذِي صُـــقَيْعَةِ	رأيـــــتْ في سُـــــويْعَةِ
بارقــــــــــــــاً	سَـــيَّل لِـــي دَمْعَتِـــي
وازدادت ولْعَتِــــــــــي	لا بُـــدْ مِـــنْ نَجْعَـــتي

وذكرها في إحدى صلوات مدائحه (١٦٩):

الـــصَّلوات حَيَـــاتي صِـــنِعْتُو	يَـا مَـنْ شُـفْتُو مَـنْ بـي سمِعْتُـو
تَنْجِـــي وتنْجِـــي لِـــي صِـــقَيِّعْتُو	جَـاتْ بِرجُوعـو جَـاتْ بِرَجِعْتُـو

صلاته بعامة النَّاس:

ذاع صيت الشيخ بتعليم القرآن وعلوم الدين ولكنـه اشتهر بمدح الجناب على صفة خاصة فكان واسع الاختلاط بالناس. لذلك أجرى ذكر بعضهم في مدائحه تخصيصاً وتبريكاً كما في قوله (٣٦١):

اضْـمَن سُـلافةَ الخَـيرْ صَـاحْبَ الخَلافَـة	يُـدْعَى الأمِـين هُنـا ويُـوم الملافَـه
ومَعِيْتُـو والحَفَـدَا وسِـيَمَا الحَلافَـة	حَـاجْ وَدْ حَمَـد وحبِيـب الفِيـكَ تلافَـه

❖❖❖

نَجْـل أَحْمَـد يَحْيَـى كُـنْ ليـهُ مَرْفَـأ	بـي لِـيم حِمَـاكْ عِـزّاً وأمْنـاً وخَرْفَـه
لا يِبَرحـوا عَنْـكَ لَـوْ قَـدْرِ طَرْفَـه	سَـوْ صَـرْفَتُم عِنـدَك بـي ألـفِ صَـرْفَه

فهذه دعوات نفيسات لأناس لابد أن بينه وبينهم وُدّاً وآصرة واشجة وهم أهل محبة بدليل أنَّه وصفهم بأنهم (تلافه) في حب الرسول أي بلغوا درجة التَّلف والحالة المتأخرة كما نقول حين يسمعون سيرة الرسول خصوصاً في ليالي المديح والذكر.

ومن الذين يحرّكهم المديح ويقلب كيانهم ويصدرون حركات وعبارات عرفوا بها أحد أحبابه ويسمى (سعيد جمره) لأنه كان إذا تزاحمت عليه معاني السيرة والمعجزات ومكرمات الرسول، يضيق ويصيح (جمره جمره) فذكره الشيخ في (جمال عيني) في قوله (٣٣٤):

فَهَـاكْ شـوُف ميْـسَرة وضـمْره	وسَـلْمَان يَـا سَـعِيدْ جَمْـرَه
نِمُـو الأزْوَاد نِمُـو العمْـرَه	ومَـنْ أمْيَـاه مُنْهَمْـرَه

وفي قصيدته (يا عُشاق هيا قوموا بنا) ذكر جماعة منهم عباس وبابكر وعلي ود حسن وسعيد وود التاي وبخيت والصديق وسراج، ربما كانوا من زماله وزملائه و أصهاره ممن كانت نفوسهم تحدثهم بالحج في معيَّته. وتطول القائمة ولكن أحببنا التنبيه وسيجد المستقصي عشرات غير من ذكرنا.

متى بدأ الشيخ رحلة المديح؟ وعمَّن ورثه؟

محبة الشيخ للرسول (ﷺ) قديمة تشربها ورضعها منذ صغره في البيئة العامرة بالإيمان والعلم التي مضى الحديث عنها. وقد أشار إلى المحبة المبكرة في قوله (١٦٠):

البريـق تَلَّـف	قلـبي جُـنْح الليـل بالـسَّهل سَـلَّفْ
يـا كـريم ذَا العـام مِنُّـو لا اتخلّـف	بـي الـبي حُبُّـو كلِفْ قبـل مـا اتْكَلَّـفْ

أمَّا رحلة المديح فقد كانت مبكرة كحالة المحبة، ذكرها في قوله:

خَـدَّام الملـوك في الـدنيا مـا ادَّعْتَـر	جلّـو واكرمـو كرمـاً ولـو أبـتر
إيـش حـالي أنـا المـن قمـت مـا فَتَّـر	فـوق عـالي الجنـاب خـدّامو اتكـنتر

إذن تعاقد على خدمة الجناب منذ أن (قام) ونشأ. حتى بلغ في ذلك الغاية والمرام، ولكن ممن أخذ ذلك؟ الجواب في قوله (١٢٣):

بعـــد مــــا نِلْـــتَ | المـــرام فـــوق الـــشَّافْ عُـــلاك قُلْـــتَ
مِـــنْ أبـــي وأمـــي هيلُـــو غـــير غلْتَّـــه | نُمـــتَ فُـــوق جَـــاهو وطُلـــتَ بـــي وُصُـــلْتَ

ويؤكد هذا الميراث المحيِّر في قوله (٢١٥):

حيَّـــــر أفكــــارِي | مَـــدْحُو مِـــنْ وَالـــدِي الرَّسُـــول كَـــارِي
مَـــا ليـــه رحمـــاتُو داري واوْكـــاري | فُوقُـــو اتبَطَّـــرْ وانْلَـــوِي حكّـــارِي

فالمديح كاره واختصاصه وفنّه الذي مهر فيه وحرفته إلتي أتقنها. ورث ذلك من أجداده ومن أمَّه وأبيه. وذاق خيراته التي ملأت داره فأصبح عزّه وعزوته.

ولعله زار سنار أيام الخزان عاملاً أو مادحاً وهي المرة الأولى والأخيرة التي وجدته يحاول فيها الشعر الفصيح، ولم يسلس له قياده أو لعلها كانت لغة زمانه في ذلك الوقت، فوصف أصحاب الحرف والمهن لم يغادر من ذلك شيئاً ولكنه كان يراهم طلاب دنيا، فأكثر من الاستغفار وذم الدُّنيا. ودعا إلى التزوّد للآخرة، ثم مهرها في ختامها بخاتم الملكية الفكرية قائلاً:

مُحَمَّـــد بِحَيَـــاتِي عِـــريبي مـــشتهر | والـــصقيعة مقـــامي وســـكنتي وداري

رواة مديح الشيخ حياتي:

هنالك طائفة مهمة من معاصري الشيخ عرفناهم من جريان أسمائهم في الديوان وهم المادحون المؤدون الذين حفظوا مدائحه وشنفوا بها الآذان فكانوا عوناً في ذيوع مدائح الشيخ وانتشارها، ولما كان الوفاء جبلة وسجيَّة في شاعرنا كان لابد أن نتوقع تخليد أسمائهم في قصائده ليتم الارتباط الأبدي بين الممدوح والمادح وناقل هذا الفن إلى غيره من الناس. فعرفنا أكثرهم من دعائه لهم وتوجيههم وارشادهم وحضهم على هذه السلعة النفيسة، منهم علي ود حسن وسعيد جاد المولى وعباس الخضر وبخيت، وقد أكثر من ذكر الأولين في نحو قوله (٣٢٥):

أدْنُـــو لـــي يَـــا عَلِـــي يَـــا سَـــعِيد | لا تبْقُـــوا مِنِّـــي بَعِيـــدْ بَعِيـــدْ
قولُـــو لِـــي هـــات قُولُـــو لِـــي عِيـــد | امـــداح رَسُـــولاً في الوعَيَـــد
شـــافع وطـــافِي سَـــنا ام رَعِيـــد

ويعيد ذكرهما في أخرى موصياً لهما (١٦٨):

يَــا سَــعِيد عَلِــي ود حـــسن   سِـــــنُّوا الأحبـــــه سَـــــنْ

بمـــــديح شـــافع الأســـــن   في رقابَــــا ارمـــو الرسَـــــنْ

ويذكر جماعة منهم في قصيدة ثالثة داعياً لهم (٢٢٨):

بَخيــت عبــاس حَـــسَن نــيلم   رضــاك يــا كــابي وارضـــيلم

ورحماتـــــــك تَـــــوالُيلم   وشـــد في الـــصّالحات حِـــيلُم

ويوصيهم ويحضهم ويدعو لهم بما وفيناه في غير هذا الموضع بأحسن من هذا.

مصادر علم الشيخ ومعلوماته:

وثّـق الـشاعر مرويـات الـسيرة مـن القـرآن والحـديث وكتـب الـسيرة وأعـلام المتـصوفة وقدماء شعراء المدح وكل ذلـك وغيره أوجزتـه في هـذا المـدخل وفصلته في مواضعه. ولما كـان القرآن الكريم هو أكبر آيات رسولنا وهو أصل الدين وأساسه، كان لابد أن يـصبح هـو المـصدر الأول الـذي يـستقي منـه الـشيخ علومـه ومعارفـه، ويوثـق بـه مروياتـه. وفيـه مـن صـفات الرسـول التي لا يبلغها بشر ولا نبي ولا ملـك، وقد أفـردت لـذلك مبحثاً ولكـني أريـد هنـا فقـط أن أشير إلى أنّ القرآن ماثل في الديوان مثولاً كاملاً، نقلاً وتـضميناً واقتباساً وإشارة ولَفتاً إليـه. وهـو حين يصل إليه يتوقف ويدعو غيره إلى التوقف لأنَّ القرآن هو الغاية القصوى:

- بَعــــد قُرآنُــــو مَــــه يَــــا لِــــسان (٣٣٦)
- مـــِنْ بَعَد الكِتَاب النقصــر (١٩٦) كَفَـى القُرآن وآيَاتُو (٢٣٩).
- أكْبَـر شــيء قُـرْآنُـو (٣٤٥).   مِنْ بَعَـد المَثانــي إنْ قُولــي (٤١٨).
- في المكيَّة والمدنيَّة ممدُوح إنْ نَقول يَا بُنيَّ (١٨٠)

قُرآنـــا مـــدحو في الآيـــات   كَـــسُبْحَانْ وآخـــر الرَّايـــاتْ

وسُـورة الـنَّجْمِ نُـون حاويــاتْ   كَــوَ الـضُّحَى غَايَــة الغَايَــاتْ

فهو ها هنا يشير إلى السور التي تضمنت مدحه ومنها استقى وصدر. ويذكر السور التي يرد فيها الثناء على الرسول وصحابته سورة سورة (مدحو أتت به كم سورة ٤٢٨)، وآية آية، حتى أنك لتحصي من ذلك العدد الذي يطول به البحث. ويشير إلى الآيات وأبعاضها (يوماً عبوساً ٣٠٥)، (يوم نشر الصحائف ٥٦٤) (المدحوة أم مناكب ٢٢٤) ولا تخطئ العين ما صرح به أو اقتبس منه أو ضمنه أو أشار إليه. وفي المبحث المشار إليه كفاية.

أمّا الحديث الشريف فقد نقله من صحاحه، وصرح بذلك (٤٧٢):

يكفـــي والـــشِّفَا والْفِـــيِ الــصَحِيحَيْن   والقـــرآن وحـــاتْ رُوحـــي وعَيْنَيْـــى

وقد يشتمل المقطع الواحد على عدد من الأحاديث كقوله (٣٤٣):

لا فَخْـــرَ يـــا معْـــشَر حـــدِّثْ بنِعْمَـــتْ   مـــولاهُ أثنـــى علـــى القَـــدَماهُ وِرْمَـــتْ

مَــنْ صــلَّى ألــفِ علــي درَجــاتُو عِظْمَــتْ   عَلَــى ســايِرْ الــنِيرَانْ أعــضاهو حِرْمــتْ

ويقول في مدح الصديق (رضي الله عنه) (٤٠٥):

قَـدْ قَـال الرَّسُـولْ مَـنْ لِـي الوجـود سَـبَبْ   مـــا انْــصَبْ فيَّ شَــئْ إلا في صــدرُ صَــبَبْ

نِعـــم أبـــابكر فَـــازْ مِـــنْ إليـــه حَبَـــبْ   وَيْـــل البِيْغَـــضُو رُمـــي في جَهـــنَّم بَـــبْ

فهذه وإن لم تكن أحاديث كاملة فإنَّها أبعاض أحاديث أو إشارة إليها وقد أحصيت منها عدداً بتخريجه في المبحث الخاص بذلك وإنَّما ذكرته هنا دليلاً على أنَّ هؤلاء الرواة في توثيق واع ومستمر لمروياتهم ومنقولاتهم التي يوشحون بها مدائحهم والشيخ حياتي من علماء المادحين وفي صدر قائمتهم.

وعوَّل الشيخ بعد ذلك على كتب السيرة ودلائل النبوة وكتب التاريخ الإسلامي فأشار إليها تصريحاً وتلميحاً، وقد مرَّ بك ذكر (الشفا) للقاضي عياض وهو من أشهر كتب السيرة بعد الصحاح وقد أشار إلى ما جاء فيه بعد أنْ عدَّد طائفة من معجزاته (صلى الله عليه وسلم)، وذلك قوله (٤٧٢):

يكفـــي والـــشِّفَا والْفـــي الــصحيحين   والقـــرآن وحـــاتْ رُوحـــي وعَيْنَـــيْنِ

واعتمد الشيخ عليه رحمة الله اعتماداً كبيراً على إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي، وذكره تلميحاً وتصريحاً في ثنايا قصائده، نحو قوله (٣٩٦):

مـــن آيـــو جيـــبْ الألْبَنَـــا   والـــضَّنْكِ صَـــبْ الأصْـــبَنَا

والبَـــاضْ فـــوق واللِنْبَنَـــا   والمِـــنْ فُراقـــو اتغبَّنـــا

(إحْيَـــا العِلُـــوم) بِـــه انْبَنَـــا

فالضرع الذي درَّ والضيق الذي انفرج والمطر الذي نزل بعد انقطاع (صبنة) والحمام وبيضه والعنكبوت ونسجه والجذع وبكاؤه، كلها من ثوابت معجزاته نقلها من إحياء علوم الدين كما صرح بذلك.

ثم ذكر طائفة من المعجزات في قوله (٥٧):

لِـــــيشْ زوِي الـــــبينِ   أنْــسَا، والْــف الــصِّيد مــاهو غــابيني

والغَمَـــــام والعُـــــود زاد تغـــــبين   والبـــــدور بيهـــا (الإحيـــا) منبـــيني

هذه المعجزات وهي طي المسافات وإلف الصيد وإظلال الغمام وبكاء العود والبدور نزولاً وانشقاقاً ومناجاة كلها مما أنبأه بها الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين.

ويذكر بعض الشمائل والخصائص التي رآها في كتاب إحياء علوم الدين في قوله (١١٩):

الجمِيـــــــــــلْ مَحْيَـــــــــــا   بالحيـــا مملـــوء شـــفت في (الإحيـــا)

أربعـــة وعـــشرون ألْـــفِ جَـــا الْوَحْيَـــا   الـــبَعَضْ منهـــا في صـــفة دحيـــة

وهذا حديث العلماء يذكر فيه جمال محياه كما وصفوه (ﷺ) ويذكر حياءه، فقد كان أشد حياءً من العذراء في خدرها، ثم نزول الوحي عليه أربعة وعشرين ألف مرة ولم ينزل على كل الأنبياء إلا ألف مرة، وكان الوحي أحياناً يأتيه في صفة وهيئة دحية بن خليفة الكلبي. وهذه من شوارد السيرة لم أجدها إلا عنده وعند الشريف يوسف الهندي وود اب شريعة وكلهم من علماء المداح.

ويستمر في توثيق مروياته عن الغزالي فيسأل المستمعين إلى مدائحه (٣٢٨):

بـــآي قُرآنـــو مـــا سمعْتُـــو   ولا (للإحيـــا) طَـــالعْتُو؟

ويضيف أيضاً (٧٧):

بالـــــــصخرتين حكـــــــى   (الإحيـــــا) والرَّحــــــكَ

والعـــــين واليـــــد الزَّحكَـــا   والبَـــــاض كـــــاللّحكى

عَمَـــــــى أعْـــــــيُن الــــــضُّحكَا

وهذا مما يحتاج إلى سفر كامل لشرحه، وهو خروج الطائر من الصخرتين كما حكاه الغزالي ونقله الشيخ، وكذلك الرَّحى وطحنها والعين التي ردّها واليد التي ألصقها والحمام الذي باض والعنكبوت الذي حاك ونسج والعمى الذي أصاب عيون الضاحكين الساخرين كأم جميل زوجة أبي لهب وغيرها.

وتتنوع مصادر علم الشاعر بعد القرآن والحديث والسيرة وكتب العلماء المشاهير الأثبات كالقاضي عياض والإمام الغزالي، ويشير إشارات موجزة لبعض مصادره كما في قوله (٣٤٥):

مَـــا في الـــسِّيرْ يَكْفِـي والفِـي الـــدَّلايلْ   واكْــبر شِـــي قرآنُـــو الأعْيَـــا الأوائـــلْ

والسير كثيرة واسعة كابن هشام وابن إسحاق ونحوهما، والدلائل مثلها كدلائل البيهقي أو حتى دلائل الخيرات للجزولي. ويعود مرة أخرى ليؤكد أن القرآن هو المصدر الأكبر المعجز. وقد يشير إلى الكتب التي استقى منها إجمالاً دون تفصيل كنحو قوله (١٦٢):

مُعْجزاتُو الغُرْ بيها أنبتنا الكُتب منْها الرُّؤية أغنتنا

أو قوله (٢١٢):

وإذلال الشَّاكِي ونَـعْ العُود الكتُبْ حاكيَه

والشَّاكيَه

يعني حنين الجذع وبكاؤه وهو ثابت في الكتب الصحاح، حكته لنا.

أو يذكر المرويات والنقول كما قال (١٥٢):

مِنْ ذا النَّقُول قولاً يقر العينْ يسبي العقول

يملا المسامِع بي وَفْقَ النِّقُول فوق الشّفيعْ يوم النيران تقولُ

وهذا مما يطمئن المطالع لمدائح الشيخ فإنها تقر العين وتسلب القلب وتملأ المسامع لأنها موافقة للمنقول من الأخبار عن الرسول (ﷺ). وسلب العقول إنما يكون بالفوائد الموثقة المؤكدة وبهذا الإبداع في مثل قوله (فوق الشفيع يوم النيران تقول) أي يوم القيامة، يوم يقال لجهنم (وأخواتها) هل امتلأت؟ فتقول: هل من مزيد، وهذا إيجاز الحذف الذي وقفنا عنده في موضعه مفصلاً وبينا براعة الشاعر فيه وخدمته لأغراض المديح.

وامتداداً لرحلة التوثيق يورد الشاعر أخباراً يضمنها مدائحه ويوثّق لها بأنه أخذها من أهل الاعتماد ومشايخ الشأن كما قال(٢٩٧):

الكُونْ بميلادُو استَمَد أمنُو ورَخَا قَالُوا العُمَد

أخذ هذه المعلومة من العمد وهم الشيوخ أهل القول المعتمد يؤكد ذلك في قوله(٣٥٤):

مَا حَلَّ بالغارين طبعاً رَسَخْتُو مَا في الحديية تبوك عن سَادة شِخْتُو

أراد أن أخبار الغار وما صار في الحديبية وتبوك قد تلمذ لشيوخ فأخذ ذلك عنهم. وقال (الحديبة) وحذف الياء ضرورة وقد بينته في مبحث الضرورات الشعرية.

أما أعلام المتصوفة فقد ذكر منهم شاعرنا في هذا الديوان قرابة الستين علماً من مشاهيرهم كابن إدريس والشاذلي وذي النون المصري والحسن البصري والدرديري والأنبابي

والبسطامي وابن الجوزي والشبلي والحلاج، ومن يطول الموضع بذكرهم، وقد فصلتهم في مبحث خاص. ذكرهم راجياً السير بسيرهم أو أن يكون مباركاً مثلهم أو أن يعطى مثل عطائهم أو ينال مقامهم أو أن يمتد بمددهم ونحو ذلك. وهم أحد مصادره الأصيلة لبعض مروياته أو هم أنموذجه وقدوته في السير على آثار حبيبنا (ﷺ).

أما شعراء المدح النَّبوي فقد استفاد الشاعر منهم من لدن حسان بن ثابت وأشار إلى كثيرين منهم حتى وصل إلى معاصريه أو من سبقوهم بزمان قصير. قال وذكر قصور حسان ومن تلاه عن إدراك وصف النبي صلى الله عليه وسلم(١٥٧):

حلـي الأطبـاع كـذا لـسانُو   عظيمـاً خُلْـق مِحْـسَانُ

عَيَـتْ أوصـافُ حـسانُ   حَيَـى الـدِّين قَـوَّى سيـسانُو

وذكر البرعي اليماني وأراد أن يبكي كما بكى وأن يسبك القوافي كما فعل(٣٠):

بعـــد ذا سَـــبْكِي

القـوافي الزَّينـة ولهـا حَبْكـي   فُـوقْ رسـول الله ولى لِمَـا ابْكـي

كـالبَكُو البرعـي   الحنفـي والـسبكي

وسنعرف بهم في مبحثهم الخاص إن شاء الله.

وذكر الورَّاق أيضا في قوله:

صـاحِب الـبراق والاخـتراق   الراقـي راقـي قـال الـورَّاق

ولم ينس أصحاب الموالد المشهورة فهي مصدر وثيق من مصادر السيرة بل هي المصدر الرديف عند شعراء السُّودان قاطبة. قال عن الميرغني صاحب المولد والبرَّاق(٤٥٤):

وأْكـشِفْ لِـي الحجـاب بالحـاءِ والميمـانْ   والـدّالْ ارْقـى مَرْقـى الميرغـني عثمـانْ

وذكر السيد البرزنجي صاحب المولد المشهور(٥٥١):

تَـصْرَع لَهُـم كـالبنج   أمْـدَاحى فُـوق المُنْجِـى

حَامِـل خَطَايَـا و طَنْجِـى   سِـيد رُوحـي والبَرَزَنْجِـى

وذكر من قدماء شعراء السُّودان المادح الأول الشيخ علي ود حليب وآله (بنُو حُميل) في قوله (٣٢٢):

أمـدح نَـبيْ مـدحاً جميـل   تفخـر بِفَخْـرُو بنُـو حُميـل

ومرَّ بهم في في إشارة يعرفها أهل الاختصاص هي قوله (١٩١):

أعْمَــل كــل مَــا هُــو جَميــلْ　　طَرْفَــه عــنْ الــشّرِعْ مــا اميــلْ

وأفْنَـــى واتْـــرك التأميـــلْ　　وافـــرط فِـــي بَنُـــوه حميـــلْ.

أي أفرط وأتوسع فيما اختطه بنو حميل وهم آل الشيخ علي ود حليب رأس مداح الشايقية وقد اشتهر منهم جماعة سوى جدهم ود حليب منهم أبناؤه الحاج والخير والسخي وحمد وإدريس (انظر تحقيقنا لديوان ودحليب) وهم يمثلون مدرسة كان حاج الماحي امتداداً لها بحكم زمالة والده لجدهم ود حليب.

ذكر شاعرنا أيضاً الشيخ عبدالقادر ود جبور المشهور بقدورة أحد أقدم مداح الصعيد وذلك قوله(٤٣٤):

أوْصـــــــــــــل دُورا　　وأَرَىَ خِيَـــــام أزُور بِـــــدُورا

اكَـــرَمْ ذَى كَـــرَم قَـــدُّوره　　وابْلُـــغ لِـــى القِلِيبِـــى بـــدورا

قيل كان يرى الرسول (ﷺ) كثيراً ويرى قبته الخضراء عياناً.

وكانت له مع معاصره الشريف يوسف الهندي مساجلات ومراسلات ومودة وتقدير وأدب، ذكرت في قصة تأخُّره عن الحج، وذلك أنَّه نوى الجوار إذا حجَّ وعارضه الشريف بأن الجوار خير له، والعودة والبقاء في السُّودان خير له ولأبناء المسلمين، وأراد الله إمضاء رغبة الشريف فلم يحج ولكنه نفع أولاد المسلمين نفعاً باقياً بعلمه وبهذا الديوان الذي هو درة دواوين شعر المدح النَّبوي في السُّودان.. ذكر الشيخ حياتي الشريف الهندي في قصيدتين، (الجيدين) و(مرمي بالغرام)، قال في الأولى:

يــا الهنــدِي الــشَّريفْ وارْدَاتْ عَلَــيْ نَغْمَــاتْ　　مِنــكْ وحاسِــمَات قَلْبِــي وعُــرَاي قَاصْــمَاتْ

أبْقَنّــي كَــشَنّ بــالِي أخــير المَــات　　مهمــا مــرّ يــوم يــا الهنــدي لــي ســامَّات

أرجــوك النظــر بــي أعــين الرحمــات　　وابقــى لــي شــفوق أشــفق مــن الأمــات

مــن قــول الرفــق لاطفــني بــي كلمــات　　إن لم تــرتَ لــيّ طــوقني بــي ذمــات

أهــل العــشق، وانــت بــذمتك ذمــات　　كيــف يبقــى الخــلاص يــا الهنــدي في مــن مــات

بـــــي ســـــببك إذا مـــــا الأمـــــة في خـــــصومات

وهذا من رفيع شعر الشيخ وبديعه ومحكمه فيه تداخل المهارة الذي يحتاج إلى بصر وبصيرة وتأمل حتى تنفتح مغالقه، وخلاصته عتاب الأحبة.

وهو الذي ظهر في قصيدته الأخرى بوتيرة أشد ونبرة أعلى (٢٣٠):

أزمَــــنْ فــــضْلَكم مــــستنِّي وأيَّــــام الـــــصبِّا فــــاتنّي
لا بْقِيــــتْ حـــيْ ولا أمـــاتَنّي نغَمَـــــاتْكُمْ ولا افْتَنِّــــــي

❖❖❖

لِيـــه يَـــا الهنْـــدِي بِتْواخِـــدْني بـــالزَّمنْ الطَّويـــلْ تَنْبُـــدْني
رِيـحْ لِـى عِينِـي رِيـحْ لِـى أُذْنِـي قُبَّـــال الغَـــرِيمْ يَاخُـــدنِي

قيل إنه كان ينتظر منه مدداً، وقيل كما ذكرنا قبل قليل أنَّ المدار كان على الحج والجوار والله أعلم وعليهما رحمة الله.

هذا وقد كانت للشاعر مصادر أخرى مكتوبة هي قصائد بعض من تقدم من السادة مادحي الجناب، فإنك إن لم تجده يذكر قصيدة أحدهم صراحة فإنَّ التأثير والتأثر في ديوانه لا يخفى على ذوي المعرفة. فقد صرَّح رحمه الله ببعض قصائد البوصيري كما في قوله بعد أن دعا الله بأن يهبه العلوم الوهبية والنقلية (١٧٩):

مِـــنْ ذلـــك أيـــا بـــاريَّ أنظُـــم لهجـــتي الدريَّـــه
علـــى مَـــنْ مَـــدْحُ في الخـضريَّة والهمزيَّـــــة والمـــــضريَّة

أمّـا الخـضريّة فهـي صلاة مـشهورة، يعرفهـا الـسادة الختميـة وغيرهـم، وأمـا الهمزيـة والمضرية فهما قصيدتا الإمام البوصيري عليه الرحمة والرضوان والهمزية مشهورة سائرة أولها (المجموعة النّبهانيّة١/٧٧):

كيـــف ترْقَـــى رُقيـــك الأنبيـــاء يـــا سمـــاءٌ مـــا طاولتهـــا سمـــاء

وهـي مـن الجيـاد المستحسنات في مـدح نـبي الرحمـات، شـرحت وشـطرت وأنـشدت وسـارت سير الشمس في الأفق.

وأمَّا المضرية فهي التي مطلعها:

يـا ربِّ صـل علـى المختـار مـن مـضر والأنبيـا وجميـع الرسـل مـا ذكـروا

وذكـر قصائد أخـرى منهـا الطيبيـة، ولعلـها للأسـتاذ الـشيخ عبـدالمحمود نـور الـدائم الطيبي أحد عظماء المديح الفصيح في السُّودان وهو بلا شك أحد مصادر شيخنا، ذكر هذه القصيدة في رائعته (قصدي ومناي)، حيث يقول (٢٢٠):

فـــــــوق ذاك نَبيَـــــــا عرَّجْـتَ جِبْـتَ أبْيـات كالطَّيِّبيَّـة
تَـــرْحَمْني خيْـراتَ وتَــرْحَم أبيَّــا والوالـدَة والأقـراب والرَّاضـي بِيَّـا

وقوله (الراضي بيَّ) هذه هي بيت القصيد وحكمة المرشد ونادرة المربي عليه رحمة الله ورضوانه.

هذا ويستطيع الحصيف أن يتتبع التأثير والتأثر بأئمة هذا الشأن في كثير من العبارات التي لا تكاد تخطئها الذاكرة، فأنت إذا سمعت قوله (٣٣٩):

مائة وعِشرُون ونِيفْ ألْفاً ... قِطِرْ مِنْ نُورو يَا جِلفاً

نَوالُمْ كُلُّ غِيرْ حَذْفَاً ... غَرِفْ مِنْ بَحْرو أو رَشْفَاً

أو قوله:

في المائة ألف بحلفاً ... وأربعه وعشرين ألفاً

لالُو والكل نالُوا رشفاً ... منّو أو من بحرو غرفاً

يتبادر إلى ذهنك بلا تردد قول الإمام البوصيري (المجموعة النبهانية٤/٥):

فاقَ النّبيين في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ ... ولم يُدانُوهُ في عِلمٍ ولا كَرم

وكُلّهم مِنْ رَسُول الله مُلتَمِسٍ ... غَرْفَاً مِنْ البَحرِ أو رَشْفَاً مِنْ الدّيمِ

ولن تقرأ قوله في وصف الصحابة (١٢٨):

صَحابتُو النُّدَّر ... كَنَبْت رُبا فُوق خيولاً قُدَّرْ

إلا تبادر إلى ذهنك بلا ريب قول الإمام البوصيري أيضاً (المجموعة النبهانية٤/١٣):

كأنَّهُمْ في ظهورِ الخيلِ نَبْتُ رُبا ... من شِدّة الحَزْمِ لا مِنْ شَدَّة الحُزُم

ولا جرم فإن الميمية المعروفة والمشهورة بالبردة كانت أكثر ذيوعاً من أختها الهمزية وقد سارت بها الركبان وأضحت وِرداً عند القيمان فلا عجب في أن تتساقط ألفاظها في شعر الشيخ تساقط الثمار والجنى الداني. بل ذكرها تنصيصاً مع مجموعة مصادر في قوله (٣٤٨):

لِلْفي الشِّفا والإحْيَا بقلبي حَايصْ ... والْفِي الشَّمائل ثم الفِي الخَصَائِصْ

يَكْفِينِي والبُردَة أبْيَاتَ الخلائصْ ... والغايَة قُرآنُو أعجز كل غايصْ

وليس البوصيري وحده هو مصدر الشيخ وإن كان أكبر أثراً ولكنك تجد آثاراً لكثير من الشعراء، وأمثل بصورة واحدة وردت في قول الشيخ حياتي هي (٣٤١):

سبحان من أسراكْ بأعَزَّ مَحْفَلْ ... وزوَى لعُلْيَاكَ الأعْلاَ واسْفَلْ

لمزيد عَطَاكْ وشَفَاعةً جاهَا رَفَّلْ ... ورجعتَ فرشَكْ دَافِي أيَا المنَفَّلْ

هذه الصورة بتمامها وردت عند الشيخ إبراهيم القيراطي إن لم تكن أقدم منه في قوله في همزيته المستجادة (المجموعة النبهانية ١/١٤٤):

وأتى والفراش يا حار سُخُنٌّ　　　من محلّ قاصي المسافة نائي

أمَّا أخذه عن شعراء السُّودان فإنَّه كثير لا يحصى وبيّن لا يخفى، يقوم على ظاهرة المجاراة، وربما جارى القصيدة الواحدة بأربع قصائد كما في شأنه مع ود اب شريعة. وربما جاراها بالثلاث وبالاثنتين والواحدة، ولن تمضي في الديوان قليلاً حتى تلحظ آثار سلفه من المادحين مثل ود تميم وصالح الأمين وحاج العاقب والدّقوني الكبير ومن دار في فلكهم. وقد أحكمنا ذلك في مبحث المجاراة. ولكنه مع المجاراة كان متفرداً مبدعاً محسناً متفوقاً.

وعلى الجملة فإنَّ هذا لمس طفيف وتطواف على عجل في المصادر التي اعتمد عليها الشيخ في توثيق أمداحه بما أغناها وزادها رونقاً وبهاءً علاوة على تجويده هو وتبحره وتمكنه وملكته المصقولة ومحبته وصحة نيته؛ يضاف إلى كل ذلك التوفيق والفتح فإنَّ المعان موفق. رحمه الله وأحسن إليه.

قدر المديح وعظمته عند الشيخ حياتي

والمديح النَّبوي عنده الشيخ حياتي عقيدة راسخةٌ ورسالة ساميةٌ. لن نسأل أحداً عن منهجه، سنستنطق ديوانه، وفيه ما يذهل العقول مما يصلح أن يكون مدرسة كبرى متفردة لمنشئي المديح النّبوي ومنشديه ومتذوقيه ودارسيه.

دخل الشيخ إلى كار المديح وهو طفل لم يبلغ الرشد (١٦٠):

يــا كَــريمْ ذَا العَــام مِنّــو لا أتْخَلّــفْ   بــي البِحُبُّـو كُلِـفْ قَبْـل مـا اتْكَلّـفْ

كلف وشغف بحب المصطفى قبل أن يبلغ مبلغ الرجال لأنّه رضع ذلك من أبيه وأمّه بلا جدال أو (غلاط)، يقول (١٢٣):

مــن أبــي وأمــي هيلُــو غــير غلْتَــه   نمــتَ فــوق جَــاهُو وطُلْــتَ بــي وصُــلْتَ

وسترى فيما بعد أنه ورثه أيضاً من أجداده خصوصا ودبدر أشقر أم ضبان وأمه ريًّا فصار له ميراثاً، وهو ميراثٌ طالما حيّره، يقول (٢١٥):

حيَّــــــــــــــــــر أفكـــــــــــــــــــاري

مَــدْحُو مِــنْ والــدي الرّســول كــاري   مَاليَـــه رحْمَـــاتو دارِي واوْكَـــاري

فوقـــــــو اتْبَطَّـــــــر وانْلَـــــــوِي حَكْـــــــارِي

إذن هو راسخ القدم في هذا الفن ويتقلّب في خيراته ورحماته في عز وبطر ومنعة. ووالله لئن حَيَّره مدح الرسول فقد حَيَّرني مدحه للرسول (ﷺ) أضف إلى ذلك أنَّه جمع مع الميراث المحبة الخالصة، فهو ممكون بمحبة الممدوح (ﷺ)، يقول (٣٢٢):

مُتْحَـــــــدِّثاً بالنِّعْمــــــــة لا   فَخَــرْ، الغَــرَامْ حَــشَالَيْ مَــلا

فَتَّـــــقْ جِرُوحِـــــي المُـــــدْمَلا   سَــبَى قَلْبِــي والــرُّوحْ كَــامَلا

ملأ الغرام حشاه وأهاج جروحه الساكنة وسبى قلبه وأكمل ذلك بروحه. فلا غرابة لأنه مسكون بهذه المحبّة محبّة المديح والممدوح، يقول (٣٧٠):

الــــــــــصَّلاة كُـــــــــلْ يــــــــــوم

لِــى أمِــين الــسِّرْ صَــفَوَةْ القيُّــومْ   مِــنْ حَيَــاتِي عِــرِيبي ألبهــا مَــدْيُوْم

أصبح الرّجل (مكان سكنة) حيّاً أو فريقاً أو معسكراً تقيم فيه محبة الصلاة على الرسول وهذه درجة من المحبة نادرة واستخدام لُغوي لم أجده عند غيره. وليست محبته وصلاته مرة أو مرتين أو يوماً أو يومين، لا، يقول (١١١):

علـــى المختـــارِ مَـــا دامـــتْ	تُـــصلّي عليـــه مـــا قامـــتْ
وإنْ حـــــسّت وإنْ نَامَـــــت	وإن قعـــــدت وإن قامـــــتْ
وإنْ أكلــــتْ وإنْ صــــامتْ	بـــه تَنِيْـــل كُـــل مَـــا رامـــتْ

وهذا ما يؤكده هيامه، كالذين قال عنهم (٣٠):

بعـــــــــــــد ذا سَـــــــــــــــــبْكِي

القـــــوافِي الزِّينــــة ولهـــا حَبْكِـــي	فـــوقْ رســـول الله ولـــي لِمَـــا أبْكـــي

كـــــالبَكُو البُرَعِـــــي الحنفـــــي والـــــسَّبْكي

وهذه القوافي الزينة المسبوكة المحبوكة على غرار روائع حسان بن ثابت والبرعي اليماني والإمام السبكي - وسيأتي تعريفهم جميعاً – يصوغها بطرب وشوق ولوعة ومحبة وبمواصفات عجيبة تجدها في مثل قوله (٢٧٨):

أمْـــدَح مَـــدِيحاً بـــي طَـــرَبْ	فـــوق مُـــسْنَدِي الـــزَّالْ الكُـــرَبْ
قَلْـــب المـــُحِبْ مِنْـــهُ اضْـــطَرَبْ	وإنْ مـــا صَـــبَرْ يَرْمِيـــه رَبْ

❖❖❖

يَمْـــلا المـــسَامع يَـــا حِـــبرْ	كالـــدُّر مَـــا بِـــسْوَى التِّـــبر
عـــادِمْ الفِكِـــرْ في شِـــنْ خِبِـــرْ؟	والبعْرِفُـــوْ مَـــا بْفُـــوتْ شِـــبَرْ

❖❖❖

مَحْكُـــومْ قَـــوافِي سمِـــحْ سَـــبِكْ	وإنْ جَـــاتْ مَعَـــاجزُو بِتِـــدَّبِكْ
مِنْهـــا العِيْـــون حَـــالاً تَبِـــكْ	فوقَـــا الأصَـــابعْ تَنْـــشَبِكْ

هذا المديح المطرب (فوق) المنجي (ﷺ) يكون المحب أمامه في حالتين، إمَّا الصبر – وهو بعيد – وإمَّا التواجد واضطراب القلب ثم يقع (ناشف). لأنَّه مدح لا يساويه الذهب الخالص يجهل قدره من لا فكر له، أمَّا العاشق فإنّه لا يفارقه ولا يتزحزح عنه ولو شبراً لما يجد فيه من قوة السبك وإحكام القوافي، والعجب العجيب إذا ذكرت المعجزات المتزاحمة في نظمها المعجب فإنَّ المحب لا يملك إلا أن يفرغ مدامع العيون بعصرها بأصابعه وهي صورة ناطقة.

وقد لحظ عليه رحمة الله على نفسه شيئاً من الإعجاب فزجرها قائلاً:

مــــاذا العَجَـــــبْ لله رَجـــالْ	جَالـــتْ كَـــثير في ذا المَجـــالْ
يَـــا حيـــاتي حُبًّـــا وارْتِجَـــالْ	كَـــاسْ المـــدامْ بينَاتَـــا جـــالْ

❖❖❖

مَــــهْ مِـــــنْ هنــــا انــــتر وراك   كــمْ الرّجـــال قالــت بَـــرَاك

ﻓﮯ المــصْطَفَى الــشافْ البَـــرَاك   لــولا الخــزين إتْ مَـــنْ طِــراك؟

نظـر إلى موضـع الانتفـاخ والغـرور ﻓﮯ نفسـه فبعجـه بهـذه اللهجـة الحـادة مـذكراً نفسـه بأنَّ (حوا والدة) وأنك يا حياتي لولا المصطفى من كان سيعرفك؟ ذكره بأعظم خصائص المصطفى ليتواضع وأعظم خصائصه (ﷺ) رؤية البارئ عزَّ وجل عياناً .... الله أكبر.

حض النفس على المديح:

ثم رجع إلى نفسه يحضها على (مدح الدخري الغير شك حاجيك) فيقول (٣٢٤):

يَـــا حَيَـــاتي انْـــتَ أَيَـــا جَـــدَعْ   قُــولْ فــوق نَبِيــكْ سَــوِّي البِــدَعْ

واللائِمـــــــــينْ لَلامَـــــــا دَعْ   الجَنَّـــــة ليـــــكْ، ولِمَـــــن رَدَعْ

نَـــــارْ أم حَجِـــــيمْ فيهــــا انْجَـــــدَعْ

جعـل مدحـه سـبباً لـدخول الجنَّـة لأنـه نـشر لـسيرته وقربـة وتعبـد وصـلاة وتـسليم مـع الحض على عدم الالتفات للائمين لأنه يكيدهم ويغيظهم ﻓﮯ موضع آخر بقوله (٣٥٧):

أحْذَر فَيَا مَحْرُومْ لايمْنَا دَعْنَا   فِينَا إنْ رَأيتْ نَقْصَاً جَاهُو بيَسَعْنَا

ولاحـظ الأسـلوب التراثـي ﻓﮯ قولـه (سـوّي البِـدع) والـتراث مبحـث دسـم ﻓﮯ هـذا الـديوان سيقابلك إن شاء الله.

ثُمَّ تزداد وتيرة الحض على المدح قليلاً فيقول (٤٢٣):

أمْـــدَحِي بالحُــب فاطمــة أبيهَـــا   وادمـــــع العينَـــان كبكبيهَـــا

اطربـــــي العـــــشاق واجلبيهَـــا   وارْمِــي فيهــا سِــهَامْ حــب نَبيهَــا

ثم يبلـغ ذروة الحض على مدح الشافع المقبول (ﷺ) (٢٨٧):

عَقِّــــبْ وشَـــكِّرْ شَـــــافِعَكْ   واطْنِـــبْ وشَـــنِّفْ مَـــسْمَعَكْ

والـــسَّامعينْ، مِـــين يَمْنَعَـــكْ   خَلِّـــي المحبـــيْن تَرْضَـــعَكْ

إنْ شَـــــاالله حَـــــتْ جَـــــبْ تَبْلَعَـــــكْ

يريـد منـه أن يطنـب ويطـوِّل ويطـرب نفسـه أولاً ثـم الـسامعين لأن قاعـدتهم ﻓﮯ ذلـك أنَّ المادح إذا لم يطـرب نفسه لـن يطـرب غـيره... ثـم لا تُبـالِ بعـد ذلـك بإعجـاب المحـبين حتـى إذا ابتلعوك ... وانظـر إلى هـذا الـصوت (جـب) وأثـره ﻓﮯ المعنـى وسـترى ذلـك ﻓﮯ فصل قـادم إن شـاء الله.

وهو لا يريد مدحاً عادياً، إنَّما إبداعاً وبراعة ومدائح محكمة مسبوكة (جناسا طارب) تزين بالدر واللآلئ وفاءً لعظمة الممدوح، وهذا ما لا يكاد يحصى في ديوانه (١٨٥):

أرْجــــعْ يَــــا لِـــسَانِي وجيـــبْ مَـــدْحاً دُرْ جِنَاسُـــوْ عَجِيـــبْ

فـــوق ذُو العِـــزَّة والتَوْجِيـــبْ عنــد الله المجيــبْ يَــا نَجِيــبْ

أو قوله (٣٥٧):

ومَـــدَايْحاً عَـــازّاتْ كالـــدُّرْ سَـــبَكْنَا بــي خــشُوع أبَحْنَاهَــا وذَا الحُــبْ مَلَكْنَــا

وما أكثر ما شبه أمداحه هذه بالدر واللآلئ بل إنها تزري بها ولا تدانيهاحيث قال: (٣٤٣):

لكنُّــو قــال مــدحاً في الوصــلُو وصَّــلْ يُـــزْرِي الجـــواهر والـــدُّر المفـــصَّل

أو قوله (٣٩١):

اليَمْــــدَحُو مَـــدْحَاً عَظِـــيمُ فَـــايِقْ عَلَـــى الـــدُّرْ النَّظْـــيمُ

أو قوله (٣٨٦):

ســـــبابتي قُـــولِي لـــــي لَـــــبْ بيـــك عنـــدي شـــيئاً في العلـــبْ

دُرًّا ثمــــــين عـــــــزَّ وغلـــــبْ جلـــب الخلـــق شِـــمِّن جَلَـــبْ

والـــــشَافُو أبـــــداً مـــــا انقلـــــب

أو قوله (٣٤٣):

انتَخِـــــــــــــبْ دُرراً عـــازه في المقـــدار بـــاللآلي زرنْ

خَاليــــــة مِـــــنْ ألَحَـــــانْ خَاليَـــــــة مِـــــــنْ وَزرنْ

والـــــسِمِع خَبَــــــرا أدَّى حَـــــــال خَـــــــبراً

فهذه مدائح منتخبة عزيزة تزدري اللؤلؤ لجمالها لا خطأ فيها ولا تبعة، من يسمعها لا يملك إلا الاعتراف بجودتها.

وقوله (١٦٩):

أمــــدَحْ مَـــــدحَاً حـــــسنْ يــــزري الـــــدُّر الحَـــــسَن

ويَـــــسُر جَـــــد الحَـــــسَنْ الخُلْقُــــو حَـــسن حـــسن

ومديحه بديع المباني عزيز المعاني لأنه في سيرة الممدوح بالمثاني (ﷺ) (٣٤٠):

مِـــنْ بَعْـــدِ ذَا إنْـــشَا فوقَـــكْ سَـــبكْلُو عَـــازْ المعَـــانِي بَـــدِيعْ في المبْنَـــى شَـــكْلُو

رَامِـــي القلُـــوبْ مَرْمَـــى سَـــجْعُو الحَبكْلُـــو وتَعِـــي المـــسَامِعْ الواعْيَـــة العـــينْ تَبـــكْ لُـــو

قوله (سبكلو) إشارة إلى أنَّه كالذهب فهو الذي يجعل سبائك، ومديحه فوق ذلك لا يزرى بالدر واللآلي فقط بل هو أيضاً يفوق الذهب (٥٣٣):

أمْـــــدَح نَـــــافِي الكبـــــرْ مَـــــدْحاً يَــــزْرِي التِّبــــرْ
شَـــــافِعَ الحَــــيْ والقَبــــرْ رَاحتُـــو الجــــيرانْ تَبــــرْ

وانظر إلى الجناس في (تِبر) الأولى وهي الذهب و(تَبر) الثانية وهي من البر. وهكذا يمضي في الحض على المدح المجود لسمو مكانة الممدوح في نفسه، فيخرج من خزائنه كل نفيس (٥٣٢):

هَــــا حَيَــــاتِي المُــــسْتَطْرَفْ مِــــنْ دُر خَزَايْنُــــو صَــــرَفْ
مَــــا أحْــــلا مَــــا أظْــــرَفْ فَنُّــــو العــــلا الرَّفْــــرَفْ

فهاهو حياتي يصرف الدر المستطرف من خزائنه وما أحلا فنَّه في مدح من علا الرفارف وحجب النور (ﷺ).

أغراض مديحه:

قطعاً هذه الأمداح التي جعلها كالدر واللآلئ والجواهر والتبر بل هي تزري بكل عزيز نفيس، فإنَّ الدافع الأول إلى نظمها هو المحبة والإذعان لأمر الخالق الذي أمر بالصلاة على أفضل المخلوق، والمديح صلاة، فهل هنالك دوافع أخرى أو وسائل يحملها مديح الشيخ حياتي...؟ نعم وألف نعم. أن الشيخ وأحبابه وجميع المادحين يأملون في الجاه الوسيع للممدوح (ﷺ) الذي جعلهم الكريم المنان من أمته وهو بهذه الأمة رءوف رحيم، وهم يرجون رأفته ورحمته يوم لا ينفع مال ولا بنون، يوم يأتون وليس في وِفَاضِهم إلا محبته ولا أرى القلب السليم إلا ذلك المفعم بمحبته (ﷺ)، كما قال الشيخ حياتي (٤٦١):

نَحمْــــد الله حَمْــــداً بالــــدوامْ يُرْضِــــى حيــــثْ أبقَانَــــا في قــــوم النَّبــــي المَرْضِــــي
أبْ فَــــضْلاً عَظِــــيمْ الطَّهَّــــرْ الأرضِ أبْ جَاهــــاً يَــــسَعْ ذُو الطَّاعــــة والعَــــرْضِ
الهيلُــــو الــــشَّفاعَة العامَــــة في العــــرْضِ والحــــوضْ والجِنَــــانْ وزيــــادَة القَــــرْضِ
أبــــشري هــــزي فــــوقْ يــــا أُمتُــــو أَعَرْضــــي أرقــــصي وانكفــــي في حبُّــــو انقرضــــي
وأمْــــشي الطُّــــول بــــالخُيَلاء والعــــرْضِ بيــــك رءوفْ رحــــيمْ مــــا بِرْضَــــى تَنْقَرْضــــي
بِــــي مَــــا يَرْضَــــى فِيــــكْ المــــستعانْ مُرْضِــــى

نعم هم يمدحونه من أجل هذا اليوم أيضاً لأنهم يعلمون أنَّ جاهه وسيع وأنَّه لا يرضى أنْ ينقرضوا وأنَّ الله مُعطيه ما يُرضيه وهو لا يرضى أنْ يدخل أحد من أمته النار في يوم

العرض... العرض على الله أو عرض الأعمال أو العرض على الجنَّة والنَّار. هذا وقد وردت كلمة (العرض) في هذا المقطع ثلاث مرات: الأولى (العرض) ضد الطاعة وهي المعارضة، والثانية (العرض): القيامة، والثالثة (العرض): ضد الطول، وهذا من الجناس الذي يميز هذا الديوان وقد أحكمناه في بابه.

ومعنى الطمع في شفاعة الشفاع ينتظم هذا الديوان كله، لأنَّ الناس إنَّما يدخلون الجنة برحمة الله لا بأعمالهم، والدخول في رحمته تعالى يكون برضا الرحمة المهداة للناس أجمعين (ﷺ). حين يسجد تحت العرش ... فيقال له (سلْ تُعْطَ)... يقول الشيخ حياتي مشيراً إلى هذا الموقف مذكراً بأنَّ مديحه من أجل تلك اللّحظة (١١٦):

فـــــوق رَسُـــــولا التَّـــــنْظُم لآلِيهَـــــا
كَوْنُـــــــــــــو كافِيَهـــــــــــــا
القِيَامَـــــه أَهْـــــوَالا ومَـــــا فِيهـــــا

ثم قال (٨١):

أحـــــي جُـــــوا الحُمَـــــدَا	بامـــــداح نـــــبي المجـــــده
العَـــــمَّ عَـــــمَّ جَـــــدَا	الكـــــونين العـــــصاة نَجَـــــدَا
يـــــومْ نَاجِـــــد النُّجَـــــدَا	تحـــــت العَـــــرِشْ ســـــجدا

وإحياء بواطن الحامدين غرض من أغراض الشيخ لهج به في كثير من مدائحه (٤١٢):

بـــــذِكْرَة طَيِّـــــبْ الأجْنَـــــاسْ	إلاهِـــي النَّحْيَـــا وأَحْيَـــى النَّـــاسْ
أنَقـــــي ألبَابَـــــا مِـــــنْ أدْنَـــــاسْ	وأزِيـــــلْ وسْوَاسَـــــا والخَنَـــــاسْ

وقال أيضاً (١٦٩):

في أمـــــدَاح شَـــــافْع العَـــــصَوْ	أخْلِـــــصْ كالأخْلَـــــصَوْ
في مَـــــلأ أوْ فِـــــي صَـــــوْ	وأحْيَـــــى الـــــدَّنُو والْقَـــــصَوْ

والمديح بلا شك حياة للقلوب يحييها وينقي دنسها ويزيل وسواسها، يحتاج إلى هذا الأثر الفعال المبتدئ والواصل والداني والقاصي والبادي والحاضر لأنه ذكر والذكر جلاء الران (٣٢٧):

أقُـــــولْ مَـــــا شـــــوَيَّه بالزَّايـــــدْ	مَـــــدَايْحاً سَـــــهْمَهَا صَـــــايدْ
تَفِيـــــدْ البَـــــادِي والعَايـــــدْ	ومِـــــنْ مَرْيُـــــود ومِـــــنْ رايـــــدْ

وبالمديح ينال الفوز والرباح:

مــــديحو أســـهر بـــهِ صـــبَّاحي أهـــيم بِـــي صـــوتي والأشـــباحِ
لألقـــــى الفـــــوز وأنيـــــل أربـــــاحِ

والسهر بالمديح هو عادته (٩١):

المـــــديح ألهـــــجْ بِـــــي كَـــيْ أبيحُـــو اسْـــهَرْ بِـــي
واســـــتلِم بِـــــه أرْيِـــــي قَبـــــل أصِـــــير مُنْتَـــــرْبِ

والمديح ضياء الألباب وزيادة للعمل (٣٦):

فـــــوقْ نَبِـــــي الفَايْـــــدَة أثْنِـــي بَرْضـــي أبْيَـــاتْ مُحْكَمـــه وسَـــايْدَه
تَبْقَـــــى للعُـــــشَّاقْ سَـــــايَقه وقَايْـــــدَه تَـــضَوِّي ألْبَابَـــا ولـــي العَمَـــل زَايْـــدَه

ويؤكد في قصيدة أخرى على ضياء ألباب العاشقين، ولكنه قبل ذلك يجعله خلاصاً لنفسه من هواها وعلاجاً لها من الشر المسيطر عليها وفداءً لها مما جنت (٢١١):

مـــــدى الأنفـــــاسْ بالـــــشرور نَاوْيَـــــه هَوَاهَـــــا هَـــــوَى بـــــيّ في الهاوْيَـــــة
فَـــلالَ خَـــلاصْ غـــيرْ تكُـــونْ راويَـــه لأبيـــــاتٍ لـــــي الفنُـــــون حاوْيَـــــة
ولـــــــي ألبَـــــــابْ العَاشـــــــقينْ ضَـــــــاوْيَة

فهو بهذا المديح يطهر نفسه ويصفيها ويقهرها ويملكها يقول (١٦٤):

بأمْـــــــداحْ خـــــــير الـــــــوَرَى الأكْحَـــــــــلْ وأحْـــــــــوَرَا
أكُ صَـــــــافي وأطْهَـــــــرَا وأمْلِـــــــكْ نَفْـــــــسِي أقْهَـــــــرَا
كالـــــــــــشَمْسِ أظْهَـــــــرَا أو زيّ الجَـــــــــــــوْهَرا

وقد ظهر في سماء مدح الرسول (ﷺ) كما قال كالشمس وكالجوهر الفَرْد رحمه الله، بهذا المديح الذي سلاه به وجلاه كما قال في موضع آخر وهو فخور بذلك وحق له (١١٢):

رَحِـــــيم ذُو الرَّحمـــــة حَلاَّنِـــــي بِفَـــــضلُو وجـــــودو دَلاَّنِـــــي
لمـــــدْحَاً بيـــــه سَـــــلاَّنِي وعنـــــد الخَلْـــــقِ جَلاَّنِـــــي

ومع أننا نشهد له بذلك ولا يحتاج إلى تأكيد أو قسم ولكنه أكَّد يقينه في ذلك دنيا وآخرة في قوله (١٠٨):

حيـــــاتي عِـــــريبي أقْبَلْـــتَ عَلَـى النَّبِـي كَـابي مَـا حُلْـتَ
صَـــحِيحْ والله مَـــا قُلْـــتَ مِـــنْ الأسْـــفَالْ بِـــه طُلْـــتَ
وفي دُنْيَـــــاي تَمَهَّلْـــــتَ وفي أُخْـــرَاي بِـــلا غلـــتَ

ويقينه هو الذي يجعله يقول (وفي أخراي بلا غلته) أي بلا مغالطة أو جدال وإنَّما يدفعه إلى ذلك حسن الظن بالشافع المقبول... وهو أهل لشفاعته إن شاء الله بما قدحه في قلوب أحبابه من المحبة والوله بهذه الروائع.

المديح شغله:

وإن سأل سائل هل للشيخ توقيت معين للمديح أو له شغل غيره؟ فالإجابة في قوله (٤٢٥):

بِمَدْحِي العَاشقينْ أسْبي	ويُومي أسهرْنُو أحْسِنْ بِي
أهَالِي الحُبِّ والقُرْبِ	ومَنْ بالمعْصِي يَأمرْ بِي

ومع هذا الاستمرار اليومي يقول في بقية الأبيات:

عَسَى أبْلُغْ بِه أربي	سوى إن كان حي وفي التُّرْبِ

أمَّا الإجابة على بقية السؤال ففي قوله (١١٣):

مدايحو التبقى أشغالي	نبيك علم الهدى الغالي

وصرح بذلك في مواضع لا تكاد تحصى، منها قوله (٤٩٠):

غير أمداح نبيكْ لا حِرَاتَهْ لا تجاره	لا بَشْرَبْ خَمُر لا بَلْوِي لي سِجَاره
مِنْ شانْ الرسولْ لَوْ دربي كنجاره	نجِّني لا أرى النيران ولا نجارا

وقوله مفتخراً بذلك (٣٣٢):

فَخَتِّيتْ بالعَجزْ اسْمِي	ولا فَخْرَ المَدِيحْ قسْمِي
بِقِيتْ تَاجِر بِه رَسْمِي	ويَا فَخْر اللِي بِيْ مَسْمِي

وختم به إحدى صلوات مدائحه (١٤٦):

الصَّلواتْ حَيَاتِي تِجَارتُو	رِبْحُو وثَانِياً كفَّارتُو

وختم أخرى بقوله (١٩٦):

الصَّلواتْ حَيَاتِي صِنِعْتُو	يَا مَنْ شُفْتُو مَنْ بِي سمِعْتُو

نعم التجارة وأكرم بها من صنعة. بل المديح هو بيعه وشراه وحشَّه يؤمن بذلك ويحض إخوانه عليه في قوله (٣٩٦):

يَا مَادِحينْ لا تْغُشَّنَا	هَذِي النُّفُوس بِتْشَّنَا
سَوُّولْنَا بيعْنَا وحَشَّنَا	مَدْح الرَّسول بِي وشَّنَا

يوت، طوَّالي، دائماً، يكون هذا ديدنهم.

بل المديح هنّاه وأغناه وهو حياته كلّها، بما فيها من فرح وطرب وسرور وفأل حسن (٢٣٧):

نَظِـمْ مَـدْحو فَـالِي أو نَثْـرُ   نَـبي الأمّـة الاسمُـو مُـدَّثرُ

أو قوله (١٣٠):

وأفراحـي التَّبْقَـى لَـيْ واعْراسِـي   مَـدَايحو بِـضرب الـدفوف واجـراسِ

بل إنَّ لياليه بمدح الرسول (ﷺ) كأنها أعياد وهو فخور بذلك(٥٦١):

لَيَـالِي أمْـدَاحُو عِنْـدِي كأنَّهـا العيـدانِ   كَفَـايْ شَـرَفاً بهَـا وفخـراً فَيَـا سُـودانِ

وهو في كل ذلك مخلص لله تعالى (٣٣٣):

بِمَـدْحِي الْفِـي القُـرى والحَـيْ

بِـه أشْـوِي العَـشَاقَةَ شَـيى

وامْـلا مِنـه كـلَّ حُـشَيْ

بغـيرْ مَأْكَـلْ غَـدَا وعـشَيْ

لِوَجْـهِ الله لا لِـي شَـيْ

لا يريد إلا الغنى المعنوي وهو غنى النفس (١٧٤):

زِيـنْ قَلْبِـي الْلِنْفَطَـرْ   سَـوْ واردُو كَـالمَطَرْ

كَـيْ أَجْنِـي حلِـي الثَّمَـرْ   بِـه واشْـرَب بِـالعُمَرْ

وغِنَـايْ يَـكُ مُـسْتمر   لا غنايـاً مِـنْ كَمَـرْ

بِـصلاة خَيْـر البَـشَرْ   المبعـد كـلَّ شَـرْ

ليس لأي علة أخرى (٣٧١):

نَمْـدَح مُـصْطَفَانَا الـدُّخْري للحُويَـاتْ   بالـدُّف لا لِعِلَّـة ونَخْلِـفْ الـضَّرْيَاتْ

نُوقِـدْ في قِلُـوبْ العاشـقينْ لَهَبَـاتَ   تَـارَه يَمُوجُـو تَـاره يَعَـسْكِرُوا بثَبَـاتْ

ويذكر ذلك في ختام (نعم الحدوا وساسا) (٤٩٥):

الـصَّلاة مِـنْ حَيَـاتِي الْخَبَّتُـو نَحَاسـا   لا لِعِلَّـة لا دايـر بهـا لحَاسَـه

ترفـع قـدرو تطفـي أشـرارو وانحاسـا   تنجـي المـسلمين بـي اكرامـا نتحاسـى

مدحه لله تعالى ومحبة في رسوله لا يريد بذلك الارتزاق و(اللحوسة) وسترى ذلك أيضاً في وصيته لزمّاله.

خَدّام الجناب:

هذا المديح الذي جعله بيعه وشراه وصنعته وتجارته وغناه وسلواه وهناه، انقطع له انقطاعاً تاماً وصار خادماً للجناب تحت رسم الخدمة لا يريد وظيفة سوى ذلك. لذلك تجد لفظ (خادم وخَدام وخديم) من الألقاب الأثيرة عنده مفردة أو مجموعة (٣٥٢):

خُـدَّامْ جَنَـابُو نَبِيـكْ شَـرَفاً كَفَانَـا لاقِـينْ بِجَـاهُو الرَّاحَـه ونـومْ قَفَانَـا

شَـايل حِمِلْنَـا وكَافَّـة الـشَّايفَانَا فِي هَاهُنَـا ويـوم مَـا يَظْهَـرْ جَفَانَـا

ومَنْ مِنْ الناس لا تشرفه خدمة من خدمته الملائكة وكان جبريل أحدهم؟ وكيف لا يخدم من أراحه وحمل عنه كل ما يقصده في الدنيا والآخرة؟ وقد أطلق على نفسه رسم الخدمة على الصحيح لا مجازاً ولا اسماً (٣٤٣):

خَـدَّامْ صَـحِيحْ رَسْـمُو أَزْمَـنْ تَأَصَّـلْ مَـلا زيـن حَوَانِيتـو مِـنْ أصْـلُو أَصَّـلْ

بل هو تعاقد على ذلك واتكنتر (٩٩):

مِـنْ هَـا هُنَـا اتْكَنْتَـرَا فِي خِدْمَـة الْمَـا افْتَـرَى

وَحِيـدْ الـشَّانْ يـا تـرى شَـانِيهُ هُـو الأبْتَـرَا

واتلجّن (٥٣٥):

سـيد عَجَنَّـا خَـدَمُو اتْلجَّنَـا خَـاتَمَ الرِّسَـالَة ونُـور الدُّجُنَّـه

اللينَـا جُنّـه مـن الأجَّـنَّ

هو الذي دلّلنا (وعجّننا) فأصبحنا ملجنين في خدمة جناب خاتم المرسلين ضياء الحوالك ستارنا وضرانا من النيران الأجّاجة الوجّاجة.

وهو عريق في الخدمة، محسوب ومنسوب للمخدوم (ﷺ) (٥٤٠):

يَـا لَطِيـفْ هَـا انَـا فِي الحَـسَبْ الأعَـزْ فِي الـشَّان والنَّـسبْ

كَـوْنِي لـي خَـدَّام انْتَـسَبْ اعْفَـى عَنِّـي امْحَـضْ مَـا اكْتَـسَبْ

وهو وارث لهذه الخدمة من والده خادم الجناب (٣٧٥):

إيـش حَـالِي أنَـا المـنْ نَـشيتْ خَـدَّامْ خَـدَّامْ الجَنَـابْ والْـدِي مِـنْ الخُـدَّامْ

بـي جَـاه مَـنْ حَبيـتْ إن شـاء الله أصِـير قِـدَّامْ إكْرَامـاً لـشَانُو مَرْكَـزْ العُـدَّامْ

وقد صار بفضل الله قدامياً في الصّدارة، نفعنا الله بما خلّف.

والشيخ شديد الاعتداد بهذه الرتبة وحقَّ له... فإذا كان خادم الملوك مكرماً وغنايهم محفوظاً فكيف به وقد لازم خدمة سيِّد الملوك منذ نشأته (٢٨٢):

إيش حَالِي أنَا المِنْ قُمْ صَغِيرْ	خَدَّامْ شَفِيعْ يوم الوَقِيرْ
مَا صِرْتَ خَدَّاماً لغيرْ	عِنْ غيرُو ما أسْوَى النَّقِيرْ

وما يبتغي خادم كهف اليتامى أخو الحقير من خدمة غيره وهو الشفيع يوم الأثقال، وماذا يريد بالمنزلة عند غيره سواء أكانت نقيراً أو فتيلاً أو قطميراً أو مثقال حبة من خردل هو في جاه العظيم عند ربّه وأنعم به وكفى، يقول (٢٨٥):

خدَّام جَنَابْ نَبِياً لزومْ
لي حِمْلِي قَايم باللزومْ
الهَامَّه لي شَاد ليَّ زومْ
في الغير كُثُرْ مَا لي لِزومْ
بَبْكِيلُو كَالثكْلى اللزومْ

أبْكِ شيخي مادمت اعتمدت عليه بعد الله، ومادمت تحبُّه وتحب صحابته وتقول فيهم (٤٦٤):

أسلك مسلكم لا أفنى لا أغتر	وانرصد اسمي معَهَم باطن الدفتر
وارد خيرهم يكتَرْ عليْ يكْتَرْ	في الحياه والممات فوق جاهُم اتْبَخْتَرْ
والجاه العميم فوق سيدو بتخَتّر	إن كان طايعاً أو عاصياً أشتر
من شان انحسب غنايو يا هَا انتر	من حال البطر والله ما بنتر
غناي الملوك في الدنيا ما ادعتر	جلّو وأكرمو كرماً ولو أبْتَر
إيش حالي أنا المن قمت ما فتّر	من عالي الجناب خدامو اتكنتر

ولا شك أنَّ غناي خادم الجناب (المتكنتر) في خدمته أولى بالإكرام من عند ملك الملوك ثم رسوله من خدام الملوك. لذلك رجع في هذه القصيدة وغيرها يعترف بما ناله من الإتحاف والإكرام وما جناه من خدمته بعد مناجاة مع ربّه (٥٠٤):

غناي الملوك علولو مرتبتو	إن ما أكرمتني بيش طه وجّبتو
وإن عذبتني ما أرضيتو غضّبتو	كوني من صبي خدامو وأحببتُ

❖❖❖

حاشا وكلا لا بنهاية الإكرام	غاية أكرمتني واعطيتني كل مرام
إكراماً له لو فعلي كلو حرام	سويت جسمي لي نار القيامة حرام

ظن حسن واعتقاد جميل وإسلام سمح وإيمان لا يداخله دّخّنٌ بأنه مهما فعل فهو محرم جسمه على النار لأنه مادح الشّفاع... ومع ذلك يحتاط ويدعو (١٨١):

كوننا مصطفاك الأكرم   خدامو بجاهو النُّكرم

من فيضو الوسيع لا نحرم   والنيران علينا التحرم

وهو مع هذه الثقة وحسن الاعتقاد يظل يضفي على نفسه لقب الخدمة جاعلها مدخلاً للدعاء تعبداً (٣٤٠):

خدّام جنابك هاهو اياك أصْلو   امحى كبير ذنبو العاقو ونقصْلو

رحمات رضاك تصبا يوماتي تَصْلُو   سلم يدَا أرَيَا واختملو وَصْلو

ويدعو بهذه الوسيلة أيضاً لأحبابه ومن في خدمته... وخادم الممدوح أحق بالخدمة (٦٢):

قبل إعدامي   عجل إكرامي كوني خدام

للجناب وأكرم   لاجْلُو خُدّامي

في الجيوش سَوْ سَوْ جيشي قدامي

ويظل يتوسل بهذه الخدمة وهي عنده سبب قوي (١٧٥):

إني من طريق السالكين ضليت   في رحاب المعاصي المهلكات حليت

لم أرجع واتوب لكني اتمليت   بي خِدِمْةَ الجناب قَطْ مِنْها ما كَلّيت

متوسل بها من ناسا اسميت   فوق جاها استند خلاي ما هميت

بي بركة نوالا إن شا لله انتميت   في رجالا الفحول بعد الوَخَار ليت

ولا غرابة أبداً في أن يظل بين اليقين والرجاء، فالمؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن. فتارة يطمئن وتارة يشفق، معبراً بلسان حاله عن نفسه تارة وعن أحبابه تارة لأنَّ المادحين لسان حال العاشقين... (٤٠١):

حُورْ الجِنانْ في زمْرتِي   جاتْ تَسْتَبِقْ لي زَوْرَتِي

بأكْوَابْ وكاسْ كاسْ خَمْرَتِي   شوقاً لِذَاتِي ونَظْرَتِي

كوني خَدِيمْ ودْ مُرّةِ

ويجزم أحياناً ويتفاءل: (حاشا خديمو لم ينكب) ولن ينكب من كان هذا حاله ومنواله ودأبه وديدنه إن شاء الله.

ثقته في مديحه:

يطرب الشيخ حياتي ويفخر بما آتاه الله من الملكة التي سلطها على مدح المصطفى لا غيره ثم قد يتواضع وينكسر حين ينظر إلى ذي الجاه العريض الذي أعجز الشعراء من لدن حسّان إلى أن يلقى الله الناس، ثم قد تُحِسُّ شيئاً من المنافسة مع الأقران وهذا حال البشر لكن سرعان ما يغلب عليه تَشَرُّبُهُ بهذه الأخلاق التي جرَّد من نفسه ناشراً لها فيستغفر ويعود إلى طريقته المثلى فيدعو الله أن يسخر له المديح ويلهمه الوارد.

فهو أحياناً يظهر في غاية الانكسار، انكسار التعبُّد، ولكنه في حقيقة الأمر معتمد على ركيزة ثابتة، يقول (٣١٦):

هَـــانِي الـــذُّنُوبْ أرْدَنَّنِـــي مِـــنْ العَمَـــل أبْطَنَّنِـــي

جَاهِـــلْ حَقِيقْتِـــي يَظُنَّنِـــي عَلَـــى شِـــي، وخَلِـــي، لَكِنَّنِـــي

مَـــــادْحَ المُكَـــــرَّمْ إنَّنِـــــي

اعتراف باللسان قد يخدع الجاهل ببواطن الأمور فيظن أنَّ الشيخ (قبة بلا فكي)، يظنه على شي مع أنه لا شيء لديه. ولكن الحقيقة أنَّه لديه كل شيء فهو (مادح المكرم) وهذا عنده وعندنا فيه كلّ الكفاية. ولكن على كل حال هو يعلم والناس يعلمون أن هذا النبي المرسل غاية الناس فيه العجز والعجز فيه إدراك، يقول (٢٩٥):

حَاشَـــا الأمِـــين الكُلّـــو بـــر مِـــنْ تـــبَّ لامَـــنْ قَـــام كِـــبرْ

لا جَـــارْ وَلا مَـــسَّا الكبـــرْ في مَـدْحُو كَـمْ كَـمْ تَـاه حِبِـرْ

مـــا خِبْـــرُوا، والغـــيرْ مَـــا خِبِـــرْ

فمربط الفرس هنا أن فحول المادحين لم يجدوا سبيلاً إلى إدراك كنهه وغايته، والمجوّد فيهم على الساحل لم يصل إلى شيء يذكر ومن باب أولى من هم دونه.

ولكن ذلك لا يمنع كل من أراد الوقوف على ساحل هذا البحر: وقد وقف معهم الشيخ حياتي لا مدعياً خوض البحر ولكن قياساً إلى غيره فقد أدلى بدلوه، فمرة يعتذر (١٢٩):

بعاشي العاشو حسب حيلتي العاشو شمّو دعاشو

أو يقول (٣٢٦):

فبقـــدر حـــالي ولـــو لحـــن متبركـــاً بـــي مـــن لـــي حَـــنْ

قصده التبرك بمن له حنّ العود، ولو كان مدحه ضعيفاً ملحوناً، وحاشاه وهو صاحب المديح المليح واللسان الفصيح الذي حين يدعو الله تكون إحدى دعواته أن يجنبه اللحن في هذا المنهل العذب حيث يقول (٣٣٨):

جَميــــــــعْ حَـــــــالاتُو ينْـــــــــصلْحَنْ

يَجْنِـــــــــي بَــــــــالألوف ريحــــــــا

وإنْــــــــشأ فِيـــــــــه لا يَلْحَـــــــــنْ

بـــــهِ ينيــــــلْ كـــــلْ مــــــا سَـــــمِحَاً

(وإنشاً فيه لا يلحن) يعني إنشاءً وشعراً في المديح سليماً لا لحن فيه ولا خطأ كما قال (٢٢٥):

مِــــنْ دَنْ دَنْ مَـــــدائحُو العَنْبَـــه وحَليّـــــةْ	يَــا لهــا مِــنْ جِنــاسْ مــن عيــب خليَّـــةْ
خَــــــامَرَتْ القِلـــــوُب بالآيـــــات مَلِيَّــــــةْ	فــوقْ مِــنْ أسْــرَى شَــافْ الــذَّاتْ العَلِيَّـــةْ

ثم ترتفع النغمة قليلاً في قوله (٣٢٢):

أمْــــدحْ نَــــبي مَـــــدْحاً جَميــــلْ	تفْخَــــرْ بفخـــرُو بـــني حَمِيـــلْ
والعاشـــــقينْ نَحْـــــوُو التّمِيـــــلْ	طرَبـــــاً ولا سَـــيَّما الزَّمِيـــــلْ

يَفخَـــــــرْ بِــــــهِ الحُـــــــرْ مُـــــو عَمِيــــــلْ

أي ينشيء مدحاً جميلاً يفخر به أهل المعرفة بالمديح وهم الشيخ علي ود حليب رائد المديح النّبوي الشعبي في السودان ومن تناسل منه من بني حميل لأن مدحه أصيل غير زائف. ثم يتدرج نحو القمة حين يقول (٤١٩):

هَــاني حيــاتِي عــالِي الـذكرا	لــــك أهْــديتْ خــروداً بِكْـــرَا
نـــلْ منــــك القَبُـــولْ والفِكْـــرَا	والتّبْجيــــلْ وحَتّـــــى الفِكْــــرَا

أهداه بكراً خروداً من القصائد الجياد. والخرود الليّنة البضّة شبه القصيدة في جمالها بفتاة. و(عالي الذكر) هنا الممدوح (ﷺ)، سقطت ياء النداء قبله (يا عالي الذكرا) لأنّه ناداه ثم أعاد عليه الخطاب (لك اهديت) ولا ينصرف الذهن إلى غير ذلك لدى العارف بمنهج الشيخ حياتي وأدبه.

ثم حين يعجبه سبكه للمعاجز يقول (مني استعير يا مستعير ٣٢٣) وليس ذلك غريباً على من يورد في المدحة الواحدة أكثر من خمسين معجزة (انظر السادات/ ٤٨١)

وربما بلغه من بعض أهل زمانه أنَّه (تزبّب وهو حُصْرُم) ودخل إلى بحر ليس هو ممن يحسنون السباحة فيه... ولكنه منذ أن دخل هذا الكار دخل ناضجاً وولد فيه بأسنانه تحس بذلك في قوله:

يــا مَــادحينْ سمــحْ الكَحَــلْ قــار بالجَهَــلْ حــاسْ بالوَحَــلْ

مَــا لــزم كمَــانْ شــيلْ الرّحــلْ لكــنْ أظــنْ بَــابُورِي حَــلْ

رقَـــــى بالـــــسّلالِمْ فَـــــاتْ زُحَـــــلْ

ولا أرى الجهل هنا إلا صغر السِّن.

ويظهر فخره في صلوات قصائده على وجه الخصوص (٥٤٢):

الــصّلاة المقْبُولَــة أمْ وجَــبْ سَــبْكَها الــصّاغِيلُو اعتَجَــبْ

مِــنْ حيَــاتِي الْبيهَــا انحجَــبْ تنْجِــي حَــالقْ الــراسْ وابْ هَجَــبْ

وقد يأتيك المقطع مشروحاً في مبحث آخر كما قد مرَّ بك أمثال هذا الحديث عن السبك في شواهد هذا الباب. إلا أنَّ المديح المقبول مما يلهج به الشيخ ويرجوه (٣٣٥):

مدايحي التبقى مقبولا وفيها العزه مجبوله أهل الحب يحبولا وفي كسحه اللّيابولا

وقد يطلق يده في الفخر حتى لا يكاد يدع مجالاً لمفتخر كما قال (٢٠٥):

مِنّــــي حَيَــــاتِي تحــــبيرا

الــصّلواتْ مَهَــرْ بِــيرَا صــرْتَ خَــبِيرْ خَبَــابِيرَه

لابِــسْ تَــاجْ دَبَــابِيرَه قَــاطِر القــومْ بَــوابِيره

ومن يدرس هذه الصلوات التي مهر بيرها وأنبع ماءه لا يسعه إلا الاعتراف بتبريزه ولكن روح المنافسه هي التي ربما قادت إلى مثل هذا بين المادحين وهم بشر ويتنافسون في أشرف حقل وهومدح خير البشر وتنافسهم شريف ومشروع وفي مثله فليتنافس المتنافسون لذلك تحس في بعض مجاراته شيئاً من هذه الروح، يقول (٣٤٢):

مَــه يــا لــسانِي بــراق الــشعر لحــت وعلــى الــسماك جــزت وعُــلا ســبحت

ودخلــت حانــات العــز واســترحت وملكــت كــم محــصول كــم منّــو رحــت

أو قوله (٣٤٥):

مــا اعجــزك يــا لــساني كفــاك أطلــت مرمــاك عــزَّ علــى القُرَنَــاء وطُلْــت

لمراقــي الراحــات والعــز وصــلت ومقاصــي الآمــال بنبيــك نِلْــت

وصلوات القصيدتين المقتبس منهما المقطعان، تشعرك أنَّ الرجل يعيش في النظم بكلياته وهو يشعر تماماً بقوة جناسه ومتانة سبكه، فيقول (٣٤٥):

صلوات حياتي عريبي جناسا طاربْ ضوَّت قلوب الناس زي الكهارِبْ

يا سعد من بها لاذْ دَنْ كاسا شاربْ أربا حا كميات لها من يضاربْ

أو قوله (٣٤٢):

صلوات حياتِي عِريبي العازه عَرْبا مَكنَاتَ ضَاريه قِلوبْ الأمة ضرْبَه

نايلْ بها عِزّاً شَرفاً وقُربَه عمْ جَاهَا نجّى الحَي والباقي تُرْبَه

وستلمس مثل هذه الروح في باب الحديث عن صلواته بالتفصيل إن شاء الله.

صرع العاشقين:

ومما يدلك على تجويد مدايح الشيخ أنها تفعل الأعاجيب في العاشقين، تجري دموعهم وتمنعهم الأكل والشرب والنوم، ونحو ذلك، وهو لا يبالي بل يتعمد أن يصل بهم إلى هذا المقام لأنّه قمّة العشق والمحبة ونهاية الهيام والتسامي، يقول (٥٥١):

أسقي العشاقى صبابه واضرب دفو في حبابا

طرباً وأخلي البابا تضرب كضرب ربابا

تصرع لهم كالبنج أمداحي فوق المنجي

أو قوله: (بي سهام مدحي العاشقين أصرع).... أو قوله (٦٥):

مدحاً حذب بنجو وصرع فَقَشْ القلوب فَقْشَ القَرَع

سَرَدْ المحب لامن ترع ماجفَّ دمعو ولا انقرع

صَرْع وتشقيق قلوب وامتلاء وانهمال دموع ... أما الامتلاء فقد عبر عنه في موضع آخر. هو قوله (٣٢٠):

من ذا القوا في اليّسْبُكا بي حضور وبالخشيه أم بُكا

فوق ذو المحامد يلبُكا آياتو طارو اليهْبُكا

علا المحب كالتُّنْبكه

صورة ناطقة معبرة في تصوير شدة الامتلاء يعرفها كل من شاهد ثمرة شجر العُشَر، فهي الغاية في الامتلاء تكاد تنفجر، بل تنفجر من أدنى ضغط عليها وسترى في مبحث الصورة تفصيلاً أكثر إن شاء الله.

وأمَّا امتلاء العيون دمعاً فقد مرت بك بعض صوره، منها أيضاً (٣٠٢):

مـــن ذا امـــدحي شـــافع الخلـــق   بحـــضور وبـــي وجـــه طلـــق

خلـــي القلـــوب التنفلِـــق   والعـــين دموعـــا التنجلِـــقْ

مــــــــن الخَلِـــــــــي والمُعْتَلِــــــــقْ

وقد مرَّ بك قوله:

منهـــا العيـــون حـــالاً تَبـــك   فوقَـــا الأصـــابع تنـــشبك

تشتبك الأصابع لتمسح الدموع او تعصر بقيتها.

ويصاحب حالة الدموع الجارية هذه حالات كثيرة، منها (الاتنخاجَة) وهي بكاء من الأعماق (٥٣٠):

مـــــن ههنـــــا ســــبكي   النحكـــــــي بالحَبْـــــــكِ

مــــــر ناســـــو تَـــــدَّبْكِ   ومـــــــر تِـــــنَّخِجْ تبكــــــي

وهناك حالات أخرى متعددة تنتاب العاشقين عند سماعهم لهذا المديح، منها (٢٧٨):

أمـــدح مـــديحاً بـــي طَـــرَبْ   فـــوق مـــسندي الـــزال الكـــرب

قلـــب المحـــب منـــه اضـــطرب   وإن مـــا صـــبر يرميـــه رب

وهذا الوقوع على الأرض الذي يحدث هذا الصوت المرعب كثير جداً عنده قد يختار له أحياناً بعض المحبين من ذوي البنية الضخمة (أب هامة)، قال (٤٩٢):

نمـــدح مـــصطفاك بـــي همـــة بـــي شـــهامة   بحـــضور المحـــب التلـــدغو أب هامـــة

في قلبـــــو الولـــــوع أو ترمـــــــي بـــــي ســـــهاما

وهو يفخر بذلك كما قلنا، ليست سادية ولا حُبَّاً في التعذيب ولكن لأنها حالة من المحبة والقرب والسمو والوجد يتمناها كل محب صافي القلب، فلذلك قال (٢٦١):

هـــــاني حيـــــاتي انفقـــــع   بـــــي ســـــهمي كـــــم صـــــقع

ذو الحـــــب لامـــــن وقـــــع   في الحـــــلال والبقـــــع

انفقع وفقع غيره في القرى والمدن، وهو فقع محبوب لا يناله إلا أهل المحبة الخالصة. وربما أصابهم بأحوال أخفَّ، ولكنها مؤلمة أيضاً، يقول (٢١٤):

أمـــــدا فـــــوق كـــــابي   مـــن ذا أقـــول تَحْـــتَحْ دمعـــي كبكـــابي

العـــشق ناســـو صـــادا كبكـــابي   مـــن رمـــي ســـهمي وطعـــن كوكـــابي

فهو ينظم المدح المسبوك بالمعاني السامية والمعجزات المتزاحمة فيبكي هو أولاً فيبكي ببكائه وبكلامه أهل العشق فتصيبهم (أم هلاهلا) والتواجد من جراء رمي سهامه وطعن حرابه.

وقد يدخل المحبُّون في حالة جذب يصحون ويذوبون لسماعهم مدحه العذب، يقول (١٧٢):

علـــــى شـــــافع الكـــــذوب	أمـــــدح مـــــدحاً عـــــذوب
يـــــترك ذو الحـــــب جـــــذوب	مَـــــرْ يَـــــصْحَا ومَـــــرْ يـــــذوب

وأخفَّ حالاته لسعة (تشَّة) الجمر وغيبوبة السُّكْر (٦٨):

أمـــــداحي منهمـــــرة	وتـــــك لاطعـــــه كـــــالجمرة
وتخـــــامر كمـــــا الخَمْـــــرة	علـــــى صـــــاحب الحُمْـــــرة

هذا إذا لم تتطور (التشَّة) إلى شيّ وإنضاج كما في قوله (١٢٥):

بـــــي أمـــــداحاً حاويـــــه شـــــي	يتولّـــــد منهـــــا شـــــي
ذا الحـــــب يـــــشويه شـــــي	يَحَمِـــــي الغـــــدا والعـــــشي

ولكن بلا شك فإنَّ اللسع واللَّطع والشيّ والسُّكْر كلها أمور معنوية تعبيراً وكناية عما يعتري المحب من وقع معاني المديح في نفسه وهيامه إلى صاحب هذه الأوصاف والمعاني.

الزُمَّال:

ولا تبلغ رسالة الشاعر (الراوي) مداها ولا تصل هذه المفاهيم إلى المستهدفين إلا من طريق أهل الأداء وهم المادحون (الزُمَّال). ولهم في إبلاغ الرسالة أثر لايخفى ولهم في نفس الشعراء مكانة مكينة. وهم حملة هذه الرسالة إلى سواد الناس يضيفون إليها من روحهم ويُضْفُون عليها من خبرتهم إيقاعاً ولحناً (رواية) وتفنناً وظرفاً وخفة روح، فإذا اجتمعت مع ذلك المحبة والصدق وقصد وجه المولى الكريم اكتملت الدائرة وثارت الثائرة وتوقعنا الحالات التي وصفت في فقرة (صرع العاشقين). لذلك وجَّه إليهم الشيخ حياتي خلاصة نصائحه بعد أن خوّلهم عصارة نفسه في مدح الرءوف الرحيم (ﷺ)... ونوَّع في ذكرهم والإشارة إليهم فسماهم الزمال والزملاء والمداح والمادحين والسبابة والدلالين، وصرَّح بأسماء بعضهم كما في قوله ():

أدْنـــــو لـــــي يـــــا علـــــي يـــــا سـعيد	لا تبقـــــوا مـــــني بعيـــــد بعيـــــد

أو قوله (١٧٠):

يـــــا سَـــــعيدْ علـــــي ود حَـــــسَنْ	سَـــــنُّو الأحِبّـــــة سَـــــنْ

وقوله (١٧١):

يـــا عَلِـــي أوْعَـــكْ تَتُـــرْ   يـــا سَـعِيد لا تْكُـوسْ كُتُـرْ

في أمـــداحْ نَبِـــي الخُتُـــر   لا تَبْقُـــوا لـــي شُـــتُرْ

يوصيهم بالإحسان والاتفاق والطبق...

ثم ذكر مجموعة أخرى في قوله (٢٢٨):

بخيـت عبـاس حـسن نـيلم   رضـاك يـا كـابي وارضـيلم

ورحماتـــك تـــواليلم   وشِـد في الـصالحات حـيلم

ثم دعا لكل واحدٍ منهم دعوة منفردة:

ولـــي الأمـــرُ....   حـسن سمِّـح نفـسو بـاطنو أعمـرو

بخيـت في الطاعـات طـوِّل عمـرو   وعبَّـاس في الكـون أضـرب زمـر

أما علي ود حسن فهو من كترانج وسعيد جاد المولى من الجريف وعباس أحمد الخضر من الحصاحيصا. وذكر طائفة أخرى من ذوي الصلة في قصيدة (النايرة/ ٢٣٢).

وسمَّاهم الزُمّال في أكثر من مدحة وحضهم وأوصاهم ودعا لهم، يقول (١٥١):

أبنـاي يَـا الرَّسُـولْ زُمَّـالي   شِـيلْ أحْمَـالهم وأحمـالي

نِـيْلُم صّـالِحْ الأعْمَـالْ   زي طَيْفُـورْ وأبَـو الهُمَّـالْ

ثمَّ دعا دعوة نفيسة، وطيفور هو أبو يزيد البسطامي الزاهد المشهور وسيأتي ذكره في باب أعلام المتصوفة الذين ورد ذكرهم في الديوان. أمَّا طيفور الدقوني فهو من معاصري الشيخ الشيخ حياتي، ولا أرى أبا الهمال إلا شيخه وجده ود بدر الرشيد.

ثم دعا لهم دعوة أخرى بأداء الحج والزيارة، يقول (١٤٧):

بالحِبَّـــــانْ

والزُمَّـــال في ذا الإبـــانِ   حـــالْ يتوجـــه أُمْ بِيبَـــانِ

في بيُـــوت سِـــكَّة الرُّهْبَـــانِ

دعا لهم بالسفر إلى (أم بيبان) مكة والمدينة، وكلتاهما تعرفان بهذا الاسم، ويكون سفرهم بالقطار، سمى عرباته بيوتاً كما قال الشيخ فرح: (آخر الزمن السفر يبقى بالبيوت والكلام بالخيوت) وسكة الرُّهبان: السكة الحديدية نسبة إلى صانعهيا.

ثم دعا لهم دعوة عذبة حالية في قوله (٢٢٥):

فِي عــين الكَمَــالْ سَــوْ زُمَّــالي طُــرّاً   يَبْقُــوا جَـــوَاهراً أو يَـــاقُوتْ ودُرّاً
لا يِمَّجُـــوا قَـــطْ جَهْـــراً لا وسِـــرّاً   يَــسْقُو أَهــل الغــرامْ دنــاً لــيس مُــرّاً

.وقد يسميهم (زملا) كما قال (٦٨):

صـــلواتْ حيـــاتي تلـــوْ   زُمَـــلاهُ بيهـــا حَلـــوْ
عنـــد الخلـــقِ بـــلْ وعَلَـــوْ   مـــا انمّجـــو إنْ نَزَلـــوْ
شِـــرْبو الهَنِـــي واكَلَـــوْ

يريدهم حلوين (مبلوعين) غير ممجوجين ولا مملين ولا مملولين أينما نزلوا... وقطعاً مدائحه الرائعة هي التي تعينهم على تحقيق هذه الصفات لأنَّ أداءهم خادم لمعانيه.

ثم يبشرهم بقوله (٢٤٢):

عَلَـــى منْهَـــى الأمـــلا   عَـــوّلْ يـــا زُمَـــلا
أحْمَـــالي احـــتَمَلا   واحْمَـــالكُم حَمَـــلا

يا سلام... عوّلتُ على غاية الأمل ومنتهاه يا زملا، رسولنا لكريم، ليحمل أحمالي وأحمالكم.

ويسترسل فِي الدعاء لهم فيقول (٤٩٤):

الـــزُّمَلا المعَـــايْ المُـــسْتَمِي رَاسَـــا   فِي الكـــونْ دُقْ نِحَـــاسَ اضْـــرِبْ لأجْرَاسَـــا
سَـــوِّي أمـــداحْ نَبيـــكْ أفْـــرَاح وأعْرَاسَـــا   بيهـــا الْيَجْـــذِبُوا الـــسَّجَّار ومَرَّاسَـــا

هذه المجموعة التي هو على رأسها يريد لها ذيوع الصيت فِي نشر هذه الدرر وأن يكون المديح هو فرحهم وعرسهم لأنَّ العرس (فرح الفار فِي جحرو) ثم يسأل الله أن يكونوا سبباً فِي هداية أهل المعاصي من أصحاب السجاير والمريسة أكرم الله تعالى القارئ. وفِي أخرى يقول (٤٤١):

الـــزُّمَلا الْبِـــشِيلو والْخَـــدَمْنِي حُـــوَارْ   فـــوق حُلَـــلْ القَبُـــول أكْـــسِيها بـــالأنوارْ
حَجّلُـــم الْبِـــسُم كُمِّـــينْ سُـــوَارْ وســـوار   مِـــنْ بَعـــد الوِشَـــاحْ بالهَيْبَـــة لا البـــوارْ
يَمْـــسِكُو للـــدفوفْ زَيْ طَلْعَـــة الأقمَـــارْ   يَمْـــدَحُوْ مُـــصْطَفَاكْ بـــي حَـــالِي المزمَـــارْ
يـــسْقُوا العاشِـــقينْ مِـــنْ دنَّنَـــا الْلَـــسْ مَـــارْ   سِـــكْرُ بـــلا سَـــكَر ذِيـــكْ خَمْـــرَة الخمَـــارْ

وهـذا حـالٌ يعجـب ودعـاء مـن أب مخلـص لأبنـاء مخلـصين ... لأنَّـه لا يختـار زُمّالـه عشوائياً إنّما هو انتقاء خبير يعرف مقدار ما عنده (ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه) واختيار محبّ يجلُّ هذه الصنعة ويريد لها الإجلال، يقول (٤٣٩):

بـي الـزُّمَلا المَعَـاي الفِـي المـديحْ شُـطَّارْ   حَـاكمِين الرِّوايَـة والطَّبَـقْ والطَّـارْ
وحـسُوسُم مِتِـلْ جـوز القَمَـاري الطَّـارْ   نُبْكِـي العاشـقينْ في سـايرْ الأقْطَـارْ

هـذه صـفة لا تبكـي فقـط، إنَّهـا تـسبب النوسـار والقلـق الـذي يجعـل المستمع لهـم كأنـه ملـدوغ (حـارقو الـسّم)... هـذه الـشطارة المتمثلـة في إحكـام الروايـة وجـودة المطابقـة والانـسجام والهارموني وجودة الإيقاع مع أصوات كأصوات القماري... اللهم ارحـم الشيخ حياتي بقـدر مـا أبدع.

قلت: وقد يسميهم (سبابّة) وهم الذين يبحثون عن الزبائن لترويج السلعة وهـو وصـف أشبه بحـالهم فكلـهم حـريص علـى بـضاعته ويريـد الـربح وصـاحب رأس المـال أحـرص، لـذلك يوصيهم وصايا نفيسة على رأسها الصفاء الذي لا تشوبه شائبة، يقول (٤٩٧):

يـا سـبابتِي شـافع الأُمـمْ كَابَـا   أمـدحُوا بـي صـفاءً خـاتي دُنْكَابَـه
سَـوُّوا العاشـقينْ في قلوبَـا كَرْكَابَـه   خَلُّـوا العـينْ تجـدول ماهـا كبكَابَـه

وهذا امتداد لعذاب العاشقين يبالغ فيه أيضاً في قوله (٣٠٦):

سَـبَّابَتي جُـنْح الهَجَـعْ   لأهَـلْ الغَـرَام سَـوُّوا الوَجَـعْ
واحْمُـوا المَنَـام لـي للاضـطَجَعْ   مَـا بِـيكُمْ ابْ صِـيداً نَجَـعْ
إن شـا الله لا جَـا ولا رَجَـعْ

لا أراح أهـل المحبـة ولا أهـل الـضلال مـع الفـارق بـين تعـب محبـوب وتعـب النجعـة المـا فيـه رجعة.

ويوصي هؤلاء السبابة على تجويد الأداء فيقول (٢٩٨):

سَـبَّابتي وسَـطْ الجِمُـوعْ   بـي أمْـدَاحْ نبـيكُمْ مُوْعُـو مُـوعْ
خَلُّـوا المُحِـبْ يُجْـرِي الـدِّمُوعْ   بـي بَـشاشَةٍ كُفُّـوا الطَّمُـوعْ
بـي مَـدَايحاً فايقـة القِمُـوعْ

هذا هو الحال الذي (يبهدل) الجموع: التمايل والطرب والسَّخاء والمدايح التي تفوق في حلاوتهـا التمـر الجيـد. وإذا اجتمعـت هـذه الثلاثـة فالـدموع هنـا تحـصيل حاصـل يـا شـيخنا عليـك رحمـة الله. وهـي الـصفة الـتي أوصـى بهـا مـن حملـهم اللقـب الآخـر وهـو (المـداح أو (المادحين))، فقال للأولين (٥٤٨):

خِيْـرَة الله في خَلْقُـو   يَـسَعْ العِبَـاد خُلقُـو
مُـدَّاحُو انْجَلْقُـوا   فوقُـو الحِمِـلْ ألْقُـوا

لا تحملوا هم شيء ما دمتم تمدحون من هذه صفته، فتدفقوا وفيضوا ؛ ولا ينجلق إلا الإناء المليء... لذلك استمر في الوصية قائلاً (٤٣١):

يَـــا مَـــادحينْ اتْبَرْسَـــمُوا   في المَــــدْح لا تَتَعَــــسَّمُوا

عَــــدِدْ الليَـــالي تَقَّـــسَمُوا   في قلـــوب محـــبين ارسمُـــوا

والمِثْلِـــي بــــي ســــيفْ احْــــسِمُوا

واليتيم ما بوصوه على البكاء، فهم إذا طربوا وتمايلوا وكانوا خفافاً نشطين يوزعون الأدوار بينهم فإنَّ ليلهم لا يحتمل، ورسم المحبة اكتمل، وسيكون الوقع على مثله في هذه الحالة أشدّ من حسم السيف في العمل.

والله لقد أحسن في كل شيء وسلّم الخبز لخبازه، والفِيهُ انعرفت وسوّى العليه الذي يقول (٩٦):

هَـــا حيـــاتي أمْلالِـــك   الـــصَّلاة وحَلَّالِـــك

جَـــوْهرك غَلَّالِـــك   ألبَـــسِكْ تَلَّالِـــك

سَـــلَّمِك دَّلَّالِـــك

أحكم ما أملاه من المديح الحالي، وزاده بأن زيّنه ورفع من قيمته ووشّاه بالحلي وحلاه وسلمه للدلّال، فهل بقي عليه شيء؟ لم يبق إلا حصاد الثمر وجني الأرباح (٤٤٣):

دلالا بالأقطـــار أغنـــاه ربحـــو   واصـــبح عزيـــز قومـــو سَـــيْ زانَ قُبحـــو

طلعـــت هَـــدِيكْ شَمْـــسُو مـــن بعـــد صُـــبْحُو   وعلـــى الثُريـــا عـــلا ولا غـــادي سَـــبْحُو

هذه النتيجة الحتمية والفوز المبين لهذه الواسطة التي علق عليها آماله في إكمال بقية المشوار ، فإن عملت هذه الفئة (الزُّمال – الزُّملا – السبابة – الدلالين – المداح – المادحين) بما أوصاهم به ربحوا وزانوا وطلعت شموسهم وعلوا على الثريا بل تجاوزوها، ولمثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

ويوجههم إلى السخاء والإخلاص والعفّة وترك الطمع في قوله عن هؤلاء الزُّمَّال:

لا يكـــسرُوا الخَـــاطِرْ فقـــط   لا يَمْـــدحُو شـــان الـــنُّقط

بـــل يـــشرحُوا القلـــب الحقـــط   قـــول يـــا غـــني دَيـــنُمْ سَـــقَط

في قلـــــوبم الإيمـــــان نَقَـــــط

ولكن هل توقف عند ذلك؟ لا، إنَّه صاحب الرسالة، حريص على إيصالها وتبليغها ونجاحها... لم يتركهم على ذلك بل أوصاهم بأن يعرضوا هذه البضاعة النفيسة على أهلها ومستحقيها وألا يكونوا كالذي يلقي الدرر في وجوه الخنازير، ومن ذلك قوله (١٢٣):

أنْشُر الأمداح بي سهامَ أسْهِمْ لي المحب وأفْهِم من يَعِي ويُفهِمْ

إذن ينبغي لهم نشرها بين الأحباب ولمن يفَهْم ويُفْهِم. مثلما قال (وتعي المسامع الواعية). وقد كان قال قبل ذلك (١٥٦):

بَجِيب مدحاً يَعِي الكُرَّاسِ يَخَامِر لي القلب والرَّاسِ

ويُنْسِي العاشقينْ أعْرَاسِ

يريد أن يخص بهذا المدح أهل التكريس في الطلب والعلم والمعرفة يخامر قلوبهم ويخالط رؤوسهم حتى ينسي العريس منهم عرسه!

ومن وصاياه اللطيفة العبارة قوله (٤٩٣):

يَا سبابتي لا تبْقُوا عَرَّامه صيغوا امداحكم وادُّوها من رامَا

خلُّوا العَاشقين دمّاعا تترامَى والنّيران تَوجْ في قلوبا إضْرَامَا

هذه هي الحالة التي مرت بنا من (صرع العاشقين) غير أنَّ شاهدنا هو نشر هذه المدائح على أهل الرغبة فيها. وأبدع في قوله (عَرَّامة) فهي على سوقيتها وقعت موقعاً حسناً يناسب الوصية والنصيحة بألا يصيروا كالسفهاء لأنَّ البضاعة التي يحملونها تحتاج إلى الوقار والرزانة وحسن السَّمْت.

ولمعرفته بطبائع البشر يُوصي زُمَّاله بألا يمتحنوا الناس، فأهل الأنعام والرّحل معروفون بعدم الاستقرار والمديح يحتاج إلى فراغ البال والاستقرار، فيقول (٣٨٦):

مِنِّي خُذُوا افْشُوا بي طَرَبْ خَلُّو الدِّمُوع تَنْزِلْ تَرَبْ

مِنْ المُحِبْ وارمُوه رَبْ إن رُمْتُو تَسْتَلِمُو الأرَبْ

أدُّوا القُرَى لا لِي لِلعَرَبْ

وليس في ذلك تقليل لشأنهم ولكنهم ليسوا أهل تفرغ لمثل هذا الفن؛ علم بذلك خالقهم حين وصفهم في كتابه وهو أعلم بمن خلق. وإنَّما محلّ هذا الأدب العُشّاق المفتونون بحب رسولهم، يقول (٣٩٥):

مِنْ غير رِيَاء أو تَنْتنه أمْدَح مَدَايْحُ مُكَسْتَنا

وأعْمَل عَليها التَّنْتَنَه أدِّيها عَاشِقْ مُفْتَنا

والْيَابَ إنْ شَاالله ما تنا

اسمعوا هذه الأماديح للعشاق المفتونين، وهذا واضح وبه نختم حتى لا يطول المبحث إن لم يكن قد طال، ورغم أنَّ الطول هنا مسوغ لأنَّ هذا الباب هو أصل الكتاب ومع كل ذلك يقول هذا المادح المبدع (٢٥٤):

مَـا أقَـلَّ البُحْتُـو في خَصَايصُو نَبِي حَسَبْ حِيلْتي مَدَحْتُو

أنعم بها من حيلة وأكرم بها من قدرة وأعظم به من إبداع. نعم إنَّ مدائحه في جانب الممدوح لا تساوي شيئاً وقد مدحه الخالق، ولكنها في جانب المادحين هي ذروة سنام الإبداع. وهذا هو الانكسار النبيل الذي تعلموه من تلك الذات التي شاهدوا تجليات جمالها وكمالها وجلالها، فاستقلوا ما عندهم، رغم كثرته وروعته وبركته.

القرآن

القرآن أحد مصادر مادة الشيخ حياتي التي عوَّل عليها تعويلاً كبيراً، ولغة القرآن وألفاظه وأساليبه وتعاليمه وروحه غير خافية في كل هذا الدّيوان لمن له أدنى نظر. فالقرآن هو دستور المسلم، وهو أكبر معجزات رسولنا بل أكبر معجزات الأنبياء كلهم لزوال معجزاتهم بزوالهم وبقاء هذه المعجزة حتى يرث الله الأرض ومن عليها. لذلك فهو الغاية والنهاية. وهو كلام الله الذي مدح فيه رسوله وليس بعد مدح الخالق مدح إلا التبرك والتعبد. ولايكاد يخلو معنى في هذا الديوان من الاستناد إلى القرآن ولا يكاد يخلو سياق فيه من روح القرآن صريحة أو مضمنة. وقد حافظ الشاعر على قداسة نظم القرآن ولكنه نثر أوامره ونواهيه ووظّف تعاليمه ومعانيه بما لا يخفى.

وتكررت عنده الإشارة إلى كون القرآن هو أكبر آيات نبينا (ﷺ) وأكثر من اللَّفْت إلى الاكتفاء به عمَّا سواه، يظهر ذلك حينما يعدد آيات رسولنا ومعجزاته فإنَّه يستريح عند القرآن ويختم به إذ هو الغاية التي لا تُدانى. وقد أشار إلى سوره مصرِّحاً ومكنيِّاً وذكر أسماءها وألقابها وكنى عن بعضها، وتمثل بكثير من الآيات ولكنه كان ميَّالاً للإشارة دون الاقتباس لفصاحة نظم القرآن وعاميّة نظمه، وإنْ حاول ذلك كما سيرد.

ونظرة سريعة في المقطع التالي تشعرك بأنك في بستان ألفاظ القرآن وظلال معانيه:

قال في (بشكر الأعلام) (٤٧٥):

آمينْ قُولوا يَا مَنْ شُفْتُو يَا سَامْعِينْ	يَا بُشْرَانَا بالرَّأى للإِلَه بالعينْ
الدَانِي المُشَفَّعْ شَافِعْ الشَّافْعِينْ	يَا قُومُو العُصَاة جِدْ لينَا والطايعِينْ
بي الجَنَّاتْ وبي الولدانْ وحوراً عِينْ	والغُرَفْ القصُور قُولُوا دَقر يَا عينْ
السُّرر النَّمَارِق مِنْهَا كَهَيَعِينْ	لا سِيَمَا الزَّرَابي وطُوبَى يَا بَارْعِينْ
والكاسْ الدِّهَاقْ المَلْءُ مِنْ كَمْ عِينْ	هِزُّو وكَنْبلُو في عِلِّيينْ راتْعِينْ
مِنْ بَعدْ المتَاعْ تُحظُون بالتَّمْعِينْ	في مَنْ اسْمَا ذَاتْ التِّسْعَ والتسعِينْ

ولن تحتاج إلى أن آخذ بيدك فالأمر أوضح من ذلك، والآيات تدعوك بألفاظها.

قلت: يحيل الشيخ على القرآن دائماً، وهو عنده وعند كل مسلم هو الآية الكبرى والشاهد الّذي ليس بعده شاهد.. تكرر هذا المعنى عنده كثيراً ومنه قوله(١٨٥):

رائي لمبدِئ الذَّرآن	وأعْطَى رضَاهُ بالشوآنْ
وجناتْ كَوثْرو الملآن	وأكبر شاهدْ القرآنْ

رأى ذا العزة جل وعلا الذي ذرأ الخلق وبدأهم وهو المعيد، الذي أعطاه وأرضاه ببلوغ الشأوين، رفعة الدنيا ورفعة الآخرة؛ مثلما أعطاه الكوثر وبيده أكوابه وأباريقه، وكل ذلك وارد في القرآن الشاهد الأكبر على نعم الله على رسوله. وقد درج الشيخ على تعداد معاجز الرّسُول (ﷺ) ودرج أيضاً على أن يختمها بالقرآن الذي هو أكبرها وأعظمها كما قال (١٤٨):

صَـــيدْ الــــبرْ	رامُـــو ومعجـــزة خيـــبرْ
والبَكَـى يُـومْ رَقَـى المنْـبرْ	والقـرآن مَعَـاجزُو أكـبرْ

يريمه الصيد النفور، ويخاطبه ذراع شاة الخيبرية ويبكي لفراقه جذع النخل، وأكبر من ذلك معجزة القرآن، أو ما حواه القرآن مثل رؤية البارئ وانشقاق القمر والإسراء والمعراج وكلها من جلائل معجزاته (ﷺ).

ويعيد ذلك في قوله (٣٤٥):

مـا في الـسير يكفـي والفـي الـدلائل	وأكـبر شـي قرآنـو الأعيـا الأوائـل

وهذا واضح.

ثم يأخذ في التنويع كعادته، فحين مَرَّ في (من شوف مريودي) بعدد من معجزات الرّسُول (ﷺ) التي أظهر تعجبه منها ولكنه ختم بالأعجب فقال (١٨٨):

خـارقْ العوائـدْ سـيدْ كـل سـائدْ	اسْـرَى وجَـا عايـدْ حُبِـي بالفوائـد
قَـرَنْ الله اسمـو وأبـرَّ قـسمو	نُـور كلُّـو جـسمو كالـدُّرِ بـسمو
الـشُّقَ صَـدْرُو الـسَّما شَـقَّ بـدْرو	والـشمس أدرُو، والبيـتِ جـدرو
نَمْـوَ الثريـدُ وسـيفَ الجريـد	والعـوْد أريـد البكـى والطريـد
مَـرأى اللـتين والـسيدتينِ	عجبـاً كـال عـيني والـسفرتين
أعجـب مـن ذلـك قـرآن المالِـكْ	وخمـودْ نـارْ مالِـكْ ولِـوَا الظَّلَّالِـكْ

فههنا نحو عشرين من خصائصه ومعجزاته (ﷺ) لكن أعجبها الكتاب المبين.

ثم ما تزال تنازعه هذه العظمة حتى ذكر إخماده لنار لظى واختصاصه باللوا في ذلك اليوم الموعود. وقوله (لوا الظلالك) أي (الذي ظلَّلَك يا أمتهُ).

ثم يكبح جماح الإحصاء بقوله (١٩٦):

مـن بعـد الكتـاب النقـصُر	عقبـان شـن نقـول في العنـصر

وكما ينوع في المعجزات ينوع كعادته في اسم المعجزة الواحدة، فمرة القرآن ومرة الكتاب كما مر ومرة التبيان ومرة التنزيل ومرة الذكر ومرة المثاني كما قال (٤١٨):

مِــنْ بَعــدْ المثَــانِي إنْ قَــوْلِي فِي المحبــوبْ أيَــا مَــنْ حَــوْلِي؟

بَــلْ قولــو لــي شَــافْ ذَا الطَّــوْلِ وأكْــرِمْ بــي شَــفَاعْةَ الْهَــوْلِ

تدفق لا تحده حدود. ثم يعود إلى كبح جماح العد والحصر فيقول (٤٦٥):

سَــلمان قُــلْ أبَــا هــرة المثــاني كَفَــنْ عــن حــصر المعَــاجِز مَــنْ لكــم عرفــاً

فلا تتعبوا يا أهل المعرفة فإنَّ المثاني وهي آيات القرآن أغنتكم عن العد والحصر والإحصاء.

وما أكثر ما أشار إلى هذا الاكتفاء وحض عليه مخبراً أو مستفهماً استفهام التقرير أو زاجراً نفسه أو مقرعاً إخوانه، كقوله وهو يتقلب في أجواء الحيرة ويحيرنا معه بعد أن ذكر أكثر من عشرين معجزة (١٩٨):

مِــنْ بَعَــدْ البُــرَاقْ يَــا بُلَّــمْ لــيشْ أَنْــسَى العــرُوجْ بالــسُّلَّمْ

والــشُّوف للعَلِــي ألْ لَــهُ عَلَّــمْ أسْــكُتْ ولا تَــانِي أتْكَلَّــمْ؟

❖❖❖

إنْ عُــدْتَ الكَــلام وحَيَــاتُو تَكْفينِــي الــذكر آيَــاتُو

مِــنْ غــيرُو الــشفاعه لــي يَــاتُو والــروع الــسبقْ رَايَــاتُو

فاض وامتلأ وتدفق، فذكر عدداً من المعجزات ثم أحال على أعظمها وهي آية الإسراء والمعراج ورؤية البارئ عز وجل، ثم استفهم: أسكت أم أزيد؟ ثم اندفع فذكر الذكر وآياته ولم يكتمل ما في نفسه مع أنه بلغ الغاية القصوى بمعجزة القرآن ولكنه (هاودنا) وأضاف لنا الشفاعة واختصاص نبينا دون غيره كما أفاد استفهامه، ثم من الذي نصر بالرعْب يسير أمام رايات جيوشه غير حبيبنا (ﷺ)؟.

ويظل يكرر الإقرار بالاكتفاء بالقرآن فيقول (٢٣٩):

كَفَــى القُــرآن وآيــاتُو لياســين طــه وحيَــاتُو

ويضيف (١٠٤):

قُــلْ البــدرين إنْ عَــزل كَفَــى والقــرآن النــزلْ

هذا بعد أن اختار وانتقى و (عزل) في المعجزات ثم ختم بالقرآن الذي نزل.

ويشير إلى القرآن ببعض تقسيماته وأجزائه، وذلك في معرض الاكتفاء أيضاً كما قال(١٠٥):

آيَــاتُو مــن حَــصَّلا يكفينَــا المفــصَّلا

أراد القرآن بقصار المفصل وطواله، بل أشار إلى تقسيم آخر في قوله (٢٥٠):

كَفَــــى قرآنُــــــو آيُــــو وأســـــبَاعُو

وقد يطلب الاكتفاء بالقرآن ولكن يُغْرب في التعبير كما قال (٢٦٣):

كَفَــى مَــنْ آيــو كتَــاب المــيسْ والتــــــسبيعْ والتخمــــــــيسْ

والميس هو خاتمة المطاف أو المحطة الأخيرة، فجعل القرآن هو خاتم كتب الله وهو كذلك. وطالب بالاكتفاء به. وكونه الختام فهذه مزيّة.

وهذه المعجزة الأخيرة مهما وصفها الناس فهم عاجزون لا شك عن إدراك كنهها لذلك قال مرة (٤٤٧):

آيَــــاتْ الكتـــــابْ إدْرَاكَــــا أعْيَانَــــاً

أي: أتعبنا، ولابُد من ذلك. كيف لا وهي كلام الخالق. أعاد هذا المعنى في قوله (٣٧٥):

مِــنْ آي الرّسُــول كَفَــى مُعْجِــز التبيَــانْ مهْمًــا قُلنــا في قــط قولنــا مــو مليــانْ

وهو تعبير بلفظ آخر عن القرآن وتعبير بأسلوب آخر عن العجز عن إدراك ما هيته وكنهه ووصف عظمته. لذلك عمد إلى الاستفهام الإنكاري التعجبي كقوله (٣٥٨):

مــن بعــد قرآنــو وبعــد الــدلائل مــا قــولي فــيمن لــي الغايــات أوائــل؟

والدلائل هي دلائل النبوة كالتي جمعها البيهقي وأبو نعيم وابن الأثير وغيرهم.

ويستمر الاستفهام الإنكاري في غير موضع كقوله (٣٥٦):

بعــد الكتــاب مــا تقــول لــي إذا نَــصَحْتَ؟

وقوله (٣٣٢):

بَعَــــدْ قُرآنُــــو يَــــا روَّاة فَمَــا نُقُــولْ في الحيَــا الأمْــواتْ؟

ثم يردف الاستفهام الإنكاري بالتقريع والتبكيت (١٧٤):

مِــنْ بعــدما الــسورْ مــا نقــول في أيَــا صُــورْ؟

يقرع أحبابه ويصفهم بأنهم أجساد بلا أرواح وهم صور وخيالات، وإلا فهل بعد سور القرآن معجزة؟ وقد يشتد عليهم ويأمرهم بالامتثال فقط كما قال (١٩٢):

والقــــرآن كَفَــــى انْخــــضَعُوا

ثم يوجه الزجر والتوبيخ إلى نفسه ولسانه ويأمره بالتوقف بعد القرآن ولا يبحث عن سواه وقد مر بنا قوله (١٢٦):

والنّـــافر والثكـــل والآي يـــا لـــساني كَـــلْ

وقلنا إما أن تكون (كل) أمراً من (كل يكل) إذا تعب، أو أنه من زجر البقر أكرم الله القارئ فكأنه يقول (كف لسانك الطويل هذا كأنه لسان بقرة) وهي معروفة بطول لسانها الحسي.

وقد يستخدم مع لسانه اسم فعل الأمر كما قال (٣٣٦):

بعــــد قرآنُـــــو مَـــــهْ يـــــا لـــــسانْ؟

أي اصمت أو اسكت فما عساك قائل في الرّسُول بعد الذي قاله القرآن؟

وقد يستخدم الأمر المباشر فيقول ويحسن (٤٨١):

مِـنْ بعـد الكتَـاب يـا لـسَانِي قـفْ أدبَـاً   مـا تقُـول في الرّسُـول وآمنـة بـت وهَبـاً؟

تأدبْ وقفْ؛ إذ ما الذي تأتي به بعد القرآن.. وسمَّى الرّسُول ود آمنة ليعلم المخاطب أنه عزيز من طرفيه، فتأمل!

ولا يأمر الشيخ لسانه ولا نفسه ولا إخوانه وكفى، وإنما يأمرهم بالاكتفاء بالقرآن ثم العمل بما فيه (٤١٩):

وابتـــدأ الـــوحي بـــي اقـــرَا   اكتفـــوا بـــي كتَـــابُو النقـــرَا

ونقرأه لنعمل بما فيه بعد أن نستوعبه أو ننظر بوعي ما قاله في رسولنا كما قال (٤٤٥):

والقـــرآنْ أعُـــوا بالقَلْـــبِ والأذُنـــينْ

يريد أن تعيه أذن واعية يستقر في القلب ثم يتبعه العمل.

وهو لا يني يحض على قراءته لأنَّ فيه كل شيء من خبر الرّسُول (ﷺ) (٤٩٠):

نَبْيَـــاً مَـــا ادَّخَـــرْ في بيتُـــوْ لَـــوْ بَـــارَه   كـــانْ لـــي أُمَّتُـــو والْقَبلَهَـــا جُبَـــارَه

لَـــمْ تَحْـــصِر فَـــضَايْلُو الـــوارْدَه أخبَـــارَا   يَكْفِينَـــا الكتـــاب اقـــروا يـــا أحبـــارا

والخطاب هنا ليس موجهاً للعامة وإنَّما للرَّاسخين في العلم الذين سماهم (أحباراً). و(البارة) عملة تركية قديمة قليلة القيمة شرحت في موضعها.

ولم يكتف الشيخ بذكر القرآن كله عموماً، بمسمياته وأجزائه وأسباعه، وإنَّما كان يفصل ويذكر السور والآيات والقراءات ويوظف الأصوات والذي نتابعه في هذا المبحث هو إطار عام نتقصى به ورود القرآن في شعره أمَّا التفاصيل الدقيقة لسريان القرآن في شعر شيخنا فماثل أمامك في كل شاهد وأنموذج.

ولما أراد عليه رحمة الله أن يقول إنَّ الرّسُول (ﷺ) ممدوح في القرآن عموماً أعيانا تتبعه فمثلنا بما مضى، ثم بمزيد من التتبع يخبرنا أنَّ الرّسُول (ﷺ) ممدوح في القرآن سورة سورة، وآية آية. فبدأ بالكناية والتلميح فقال (١٨٠):

في المكيّـــــــــة والمدنيَّــــــــــة   ممـــــدُوحْ إنْ نقُـــولْ يــــا بَـــــنيَّ

أراد السور المكيّة والمدنيّة وكنى بها عن القرآن كله لأنه إمَّا مكي وإمَّا مدني ليس فيه غير ذلك. وهو يدعو بها أحياناً كما قال (١٩٠):

بالمكيَّـــــــــة والمدنيَّـــــــــة   اصْـــرِفْ عَنِّـــي كُـــلَّ شَـــنِيَّة

ولابد أنَّك لاحظت دقة اللزوم، فقد وَهِمْتُ وقدمتُ المدنيَّة هنا، فلسعني النَّشَاز لأنَّ هذا الرّجل لا يترك اللزوم حتى تدع الإبل الحنين، فرجعت فأخّرت المدنيَّة فتناغمت مع (شنية) كما تناغمت في الشاهد السابق مع (بني) على الجمع وكنت ظنتها (بُني) على المفرد، ويا رحمة الله من إحسان هذا الرجل ودقته!!

نعود إلى سور القرآن التي ذكرنا أنَّها يلمح ويلوح إليها ويصرح بها، ومن التلويح قوله (٢٨٠):

اسْـــتَغْنُوا بـــي قُـــولْ وَدْ مَعَـــدْ   مَـــــادَّاهُ صَـــادْقَاتْ الوَعَـــدْ

(فصادقات الوعد) هُنَّ آيات الكتاب أو سوره، ومن أصدق من الله قيلا ؟

ثم يعود فيسمي السور بعد أن يؤكد على أنه ممدوح فيها سورة سورة كما قال (٤٢٨):

تَهْـــوُاه الطِيـــورْ لا نـــسُورَا   مَـــدْحُو أتـــتْ بـــه كُـــم سُـــوره

وقد يقول قائل: لم خص النسور من دون الطيور ومن أين له أنها تهواه؟ فالجواب بلا اعتساف ولا تشدد ولا تعنت وبخيال الشعراء..لأنه يشبعها من لحوم الكُفار وهذا سبب هواها له.

وقد رأيته يقول إن مدحه أتت به عدة سور، فأكد على هذا المعنى في قوله (٤٨٤):

أنْـــزلْ كَـــمْ وكَـــمْ في مـــدْحُو كَـــمْ سُـــوراً

والإكثار من كنايات العدد هذه كناية عن كثرة السور التي نزلت في ذلك كما سيجيء إن شاء الله.

ثم يفصل هذه السور في بعض قصائده كما قال في (السادات) (٤٨٠):

يَـــا مُحْيِـــي الرُّفَـــاتْ يَـــا دَافِـــعْ الآفَـــاتْ   أدْعُـــوكْ بالقَلَاقِـــلْ ثُـــمَّ والقافـــاتْ

بالْكُرْسِـــي وبـــي يَـــس وبـــي الـــصَّافَّاتْ   بـــي عـــينْ الرِّضَـــا انْظرنِـــي وامْحَـــى الفَـــاتْ

واكْفِينِـــي الهمـــومْ في الـــدُّنْيَا واللّهفَـــاتْ   والكِدْيَـــه الفقـــرْ والأعـــينْ الخَاطْفَـــاتْ

وامْنَحْنِـــى الأمَـــانْ مِـــنْ لَوْعَـــة الخوفَـــاتْ   واشْـــرَحْ صَـــدْرِي بالـــسُّوره امْ تِـــسعْ كافـــاتْ

فهنا مجموعة سور بالتصريح أو الإشارة استعاذ بها الشاعر، أوَّلها المعوذات وهي القلاقل (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) و(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) وقد تزيد بحكم (قل) فتدخل فيها (قُلْ

هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) لأنَّ أهلنا يتعوذون بها فيقولون (يا قل هُو) فإن أدخلت معها (الكافرون) (وقل وأوحي - الجن) فقد اكتمل عقد القلاقل. أما القافات فإن السورة المعروفة بذلك واحدة وهي (ق والقرآن المجيد). أمَّا إذا أراد كل ما يبدأ بالقاف من سور القرآن فهي كثيرة منها (قد أفلح المؤمنون، والقصص والقلم والقيامة والقدر والقارعة وقريش) ولأهل النظر ههنا أقوال ثم استعاذ بالكرسي وهي آية الاستعاذة ولكنها قد تكون إشارة إلى سورة البقرة كلها ثم ذكر يس والصَّافَّات وكنى عن السورة أم تسع كافات وهي إمَّا سورة الشرح وإمَّا سورة الضحى وفي كلتيهما تسع كافات وفي كلتيهما مدح فخيم لرسولنا العظيم (ﷺ). لولا أنَّه قال (واشرح صدري) فدلّ على أنه يريد سورة الشرح وأكد ذلك في قوله في قصيدة أخرى (٤٣٢):

أَثْنِـــــي فوقُـــــوا أشْــــــرَح　　　الْمَمْــــدُوح في أَلَـــمْ نَــــشْرَحْ

وفي قصيدة أخرى يورد ثلاث سور، الأولى في قوله. منها (١٥٠):

هــــب لـــــي أول الأنفـــــال　　　يـــا قـــادر وعـــل اســـفالي

وأول الأنفال أربع آيات اشتملت على كل خير؛ عُدْ إليها واقرأها واستأجر في نفسك؛ فقد بدئت بالتقوى والطاعة وإصلاح ذات البين وختمت بالدرجات عند الله والمغفرة والرزق الكريم.

ثم ذكر سورتين أخريين في القصيدة نفسها في قوله (١٥٠):

قالـــتْ فيـــه نُـــون الغـــالِي　　　والــضُّحَى يَـــا بنُـــون الغـــالي

ما أكثر ما ذكر هاتين السورتين، لأنَّ في الأولى الآية التي عليها مدار أخلاقه وهي أمداح آيات القرآن لأخلاق رسولنا وهي قوله تعالى(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) أما الثانية وهي الضحى ففيها عطاء الله لرسوله حتى أرضاه في الدُّنيا وعطاؤه الموعود حتى يرضيه يوم القيامة وهي قوله (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى).

وفي برق العقيق ذكر أربع سور يتردد ذكرها كثيراً عنده وعند رصفائه لاشتمالها على مدحه (ﷺ)، قال رحمه الله (٩٩):

فِي مَـــدحُو قَـــالْ مَـــنْ بَـــرَا　　　سُــــبحان ونُـــونْ والبَـــرا

والــــــشَّاهِدْ الأَكْبَـــــرَا　　　فِي الـــنّجم وآخـــر بَـــرا

(من برا/مَنْ بَرَاهُ) أي: من خلقه، و(سبحان) الذي أسرى بعبده ليلاً، و(نون) وقد تقدم اشتمالها أمدح ما قيل في أخلاقه من ربه..أما والبرا فمن نوادره ودقائقه لأنه أراد (القلم) وهو الذي (يُبْرَى) لتكتمل الآية والقسم (نون والقلم). أما شاهد النجم فإسراؤه ورؤية الباري وكل

ما جاء في آياتها في قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ (النجم: ١ – ١٨).

هذه هي المنة والمنحة والنعمة والمزية والفضيلة التي تقاصر عنها حتى أُولو العزم عليهم وعلى نبينا سلام الله وصلواته.

ويبقى (آخر برا) وهو آخر سورة (براءة) أو (التوبة) وفيه يقول البارئ وهو أصدق القائلين: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (براءة: ١٢٨ – ١٢٩). مدح رسوله بأسمائه عز وجل فسماه (عزيزاً رءوفاً رحيماً) وجعله (حريصاً) علينا لأنه وصفه في موضع آخر بأنه أولى بنا من أنفسنا (ﷺ)، وسيرد ذلك إن شاء الله.

وقد أشار إلى آخر براءة في موضع آخر وسمَّاه (إتمام) في قوله (٥٢٨):

مَـدَحُو في إتمام بـرا   ذو الحـوض والمنـبرا

مثلما أفرد النجم في قصيدة أخرى فقال عنها (٥٠١):

يكفـي الـنجم في مـدحو ومثانيـه

وقال في مرة مقرعاً أحبابه (٢٣٨):

مُـدِحْ في الـنَّجْمِ يَـا بجْـمُ   رَسُـول العُـرْبِ والعَجْـمُ

وقد قرن النجم مرة أخرى بالضحى فقال (٢٤٥):

مَـدْح المـستعانْ في الـنّجْمِ حَارِيـهُ   مَـا أحْلَـى الـضُّحَى اقـرأ يَـا قاريـه

وما أجمل وما أنبل وما أحلى وما أكمل ما وصفه به في هاتين السورتين.

ووجدته يقرن النجم بالحجر في قصيدة رائية ملتزمة فيقول (٥٤٤):

مـدْح في الـنَّجْمِ والحِجـرِ

فلا تظنن أنه ضايقه النظم فاحتاج فأقحم (الحجْر) كلا ليس الشيخ حياتي ممن يأسره ويقيده لفظ ويمنعه الحركة، وإنَّما في (الحجر) آية من أعظم آيات مدح الله وتكريمه لرسوله إذ تعهد بان يحفظ هذا الكتاب الذي ضم مدحه ولُب ديانته ودستور أمته فقال عز وجل. (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر: ٩) فانظر هذا التوكيد المُغلظ وتأمَّل حفظ القرآن منذ خمسة عشر قرناً وإلى أنْ يرث الله الأرض ومن عليها بلا جدال.

ودعا الشيخ حياتي لنفسه دعوة نفيسة ضمنها سورتين من سور القرآن فقال (٣٦٦):

أغْنَـــى مــــن فقــــرا وأسمى بي جاه الخُص بي اقرأ
حــصتي تكــون لـــي أوَّل البَقــرَه والْقَــى في الـدّارين كامِـل الإقْـرَا

الإقراء: الإكرام. وقد طلب الرجل إكراماً نفيساً، فأوَّل البقرة فيه تطمين الخالق وتأكيده على سمو كتابه الهدى الخالص الذي مدح فيه نبيه الهادي المُخلَص.

وفيه صفات المؤمنين المهتدين قال تعالى: (الم ❖ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ❖ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ❖ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ❖ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (البقرة: ١- ٥).

وقد أعاد السورتين في قَرَن واحد في قصيدة أخرى يقول (٤١٩):

بعــد الرؤيَــة وافْـرَ الإقْـرَا أوتــي، وافتتــاح البقــرَا
وابتــدأ الْــوَحي بــى اقْــرَا اكتفُـو بــي كتــابُو النقــرَا

بعد رؤية ربه جل جلاله أوتي (ﷺ) الإقراء الوافر. وأوتي افتتاح البقرة وهو أولها الذي تقدم. وكان الوحي قد بدأه بسورة (اقرأ). هذا الكتاب الذي اشتمل على كل ما تقدّم فيه عظمة هذا الرّسُول فاقرأوه وتأكدوا من ذلك واكتفوا به.

وهذا القرآن الذي مدح سيد الصّحابة (ﷺ) لم يترك الصّحابة رضوان الله عليهم بل مدحهم مهاجرين وأنصاراً وجماعات وأفراداً لأنَّ مدحهم استكمال لمدح سيدهم (ﷺ)؛ فقد جاء في قصيدة (الإمام عثمان) قوله (٤٥٤):

بَـايَعْ لُـو الـنَّبي سـيدْ بَيْعَـة الرّضـوانْ زوج الــسَّيْدتِينْ التَّعَرفُــو الملــوانْ
نوَّهَــتْ الزُّمَــرْ بــي مَــدْحُو يَــا أخْــوانْ ذُو القَــرْض الحَــسَنْ السَّبْــسَبْ الأكْــوَانْ

هنا إشارتان قرآنيتان لا بل ثلاث: الأولى الإشارة إلى رضاء المولى عن عثمان لأنه من أصحاب بيعة الشجرة. والثانية آية الزمر التي نوهت بعثمان (رضي الله عنه) وهي قوله تعالى: (أَمْ مَنْ هُوَ

قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) (الزمر: ٩). والثالثة كان عثمان (رضي الله عنه) ممن أقرضوا الله قرضاً حسناً.

ولم ينس الشاعر رحمه الله الإشارة إلى فضل عثمان في جمع هذا الكتاب الكريم الذي نال به أعظم فوز، وهو الجمع الثالث، وكان الأول على عهد رسول الله وكان مكتوباً في الجريد والعُسُب واللِّخَاف وما إليها، ثم كان الجمع الثاني جمع الخليفة أبوبكر باقتراح ومشورة الفاروق وبعد تردد من أبي بكر رضوان الله عليهما، والجمع الثالث جمع الخليفة عثمان وهو الذي يعرف به فيقال (الرَّسم العثماني) والمصحف الإمام.

أما إذا تتبعنا أبعاض الآيات أو الإشارة إليها أو مضامينها فذلك جزء من الديوان عظيم، مرَّ بك في معظم شواهد الدراسة ولكنا لن نُخْليه من شيء من التتبع للتمثيل؛ وأوَّل ذلك قوله في (زاد عياي ما كني زين) (٣٦٤):

لا تَقْنطُوا يَا مُذْنبينْ	الرَّحْمَة واسْعَة مِنْ المُبِينْ
إنْ شاءَ تَبْقُوا مُقَرَّبينْ	بَعَدْ الإسَاءَة وبُعْدِ بِينْ

❖❖❖

لاكِنُّ حَبَّا التَّائبينْ	والذَّاكِرِينْ لا اللاعِبينْ
اِجْتَهدُوا وابْقُوا مُرَاقِبينْ	لا تَرْجُوا مَرْجَا الخَائِبِينْ

❖❖❖

كُلُّ امْرِئٍ مَعْلُومْ رَهِينْ	بِمَا كَسَبْ يَا مُنَبِّهِينْ
السَّارُوا سَيْرَاً مُو مَهِينْ	كُونُوا بِهِمْ مُتَشَبِّهِينْ

❖❖❖

دِيمُوا الهيَامْ فِي الحَالَتِينْ	واكْتَسبُوا مَا لي الآيتينْ
لا شَكْ تَنِيلُوا الرُّتْبَتِينْ	والْمُتْعَة أعْلا الجَنَّتينْ

❖❖❖

يَا مَنْ عَلَى أَنَا مُقْبلينْ	مَا سْمِعْتُوا أجْر العَامِلِينْ
أحْمَد خِتَامْ المُرْسَلينْ	صَلُّوا عَليه بِحُبْ ولِينْ

فهذه إشارات لآيات ذكرت أبعاضها أو ألفاظ منها لاتخفى على ذي صلة بالقرآن. وفي حديثه عن يوم القيامة نجد قوله (٣٠٥):

يَوْمَـــــــاً عَبُوسَـــــــاً قَمْطَرِيـــــــر

وقوله (٥٦٤): يـــوم نـــشر الـــصّحَائف والـــسَّرائر تُبْلَـــى

وقوله (٦٢): عُـــدتي وغـــوثي يـــوم كُظَّـــام

وقوله في المعنى نفسه مادحاً الرّسُول (ﷺ) (٧٩):

هـــو المـــروي مـــروي ظمـــا الخلـــق يـــوم كُظَمَـــا

وقوله (٢٥٦): إذا مَـــا النَّـــاس في القيامَـــة ســـكروا

وقوله (٦٧): تَنْجِـــي والأمّـــة في ذِي والـــسّاهرة

وأعادها في قوله:

تنجـــــي وتُنجـــــي الأمـــــم بالـــــساهرة

وفي إرهاصات مولده وابتداء رسالته حبست الشياطين من استراق السمع، فتكررت الإشارة إلى ذلك في نحو قوله(٣٣):

والـــسما مـــن الجـــن انحبـــستْ

وقوله (٥٠٦): والـــسما انحـــرسْ بـــه مـــن صـــعود الجـــانْ

وقوله (٣٩): والـــشهب رمـــت الجـــن ومـــا أصـــعد

ومثلها (٥٤): والـــشهب رمـــت المـــسترق فَـــتْ فَـــتْ

وقد ذكرته في مبحث الأصوات.

وأشار إلى آية المسد بقوله (٥٤٥):

فلأجلُـــو ابْ جَهـــلْ انتـــبْ

وإن أشار إلى الأرض ذكرها بصفتها القرآنية فقال (٢٥١):

ورب الأرض الـــــــــدحاها

أو قوله (٢٢٤): الْمَـــــدْحُوّة أم مَنَاكِـــــبْ

فقوله (الدحاها) و (المدحوة) من قوله ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ النازعات: ٣٠ و(أم مناكب) كُنية للأرض مأخوذة من قوله تعالى ﴿ فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ الملك: ١٥.

ولن تجد صعوبة في رد جميع ما مثلنا به لآياته التي ورد فيها اختصرناه لوضوحه.

ولم يخلُ الرّجل من بصر بالقراءات القرآنية وبدقائق اللغة وبالألفاظ المسعفة حين تتبدل الأوزان والأعاريض... أمَّا القراءات من إمالة وتفخيم وترقيق ونحوه فقد أحكمناها في

مبحث الأصوات. وأما ألفاظ القرآن الدقيقة فنحو كلمة (الرءُوْف) بالمد على وزن (فعول) و(الرؤُف) بتقصير الحركة على وزن (فَعُل) فقد أظهر الشاعر بوزنهما حسن معرفة وولعاً في الاستعمال؛ فالمعلوم عند أهل اللغة أنها ثلاث لغات، اثنتان تقدمتا، والثالثة بتسكين الهمزة بلامد (رأْف) على وزن (فَعْل) وخصصت الأوليين لأنهما قُرِئ بهما في القرآن ووردتا في شعر إسلامي متأثر بالقرآن أوله قول كعب بن مالك الأنصاري كما تمثل به ابن منظور (رأف):

نَطِيعُ نبينَا ونَطِيعُ رَبّاً هو الرّحمن كان بنا رءوفاً

فهذه هي الأولى الممدودة الهمزة مع الضم، أما الثانية ففي قول جرير كما في (اللسان/ رأف):

يَرَى للمسلمينْ عَليه حَقّاً كَفعل الوالد الرَّؤُف الرّحيم

وما أكثر ما وردتا عند الشاعر وقد استخدمهما بدقة ومعرفة كما في قوله في الممدود (٤١٣):

رَءوفَاً رَحمَة الخِلْقُ شَفِيعاً غِيرُو وينْ يَلقُو

وقابلها بـ (شفيعاً) وكلتاهما على عَرُوضِ فعول.

أما القصيرة المد وهي عنده أكثر فمنها قوله (٢٢٥):

مَعلُوم كُل شَي في عليا انتهاه الرؤُفْ الرحيم الفايق بهاه

وقوله (٢٩٢):

حاوي المنن محي السنن رؤُفاً رحيماً ليناً

ولا تصلح إحداهما في محل الأخرى لمكان زيادة الحركة في الأولى ونقصها في الثانية. وقد أحصيت منها العشرات في الديوان لكن يطول بها التمثيل.

وأكثر ما جاءت الإشارة إلى الآيات أو إيراد بعض ألفاظها في الحديث عن أخلاقه (ﷺ) وهي أوسع من أن يحاط بها، منها قوله (٣١):

خُلْقُو جَا القُرآن والرسل منهُ

وقوله:

القرآن مصحح خلقُو خيرة الله الرأى من خلقُو

وقوله (١٢٩):

بزَوْرَة نَبْيَاً كِتَابُو نَعَتْلُو

وكل ما تقدم هو لمس خفيف على أثر القرآن في نظم الشاعر وقد وجدناه بحراً في ذلك، وما سقت ما سقت إلاَّ من باب التمثيل وإلا فالديوان كله شاهد على أثر القرآن الذي يسير على قدمين ثابتتين في جميع نصوص الديوان. استفاد من بلاغته واستعار من فصاحته واستضاء من مشكاته واستند إلى مضامينه ومعانيه فكان لها أطيب الأثر في صياغاته ومبانيه. رحمه الله وأحسن إليه.

الحديث الشّريف

لـن أقـف عنـد الحـديث الـشريف في ديـوان الـشيخ حيـاتي إلا بمقـدار مـا يتمـضمض المتمـضمض وذلـك أنَّ شـعر المديح عمومـاً وشـعر الـشيخ علـى وجـه الخـصوص إنَّمـا هـو سـيرة نبويَّـة منظومـة. فأشـعار إرهاصـات بعثتـه هـي أحاديـث وأشـعار المولـد والمعجـزات والخـصائص والشمائل والجهاد وصفة الصّحابة هي كلها أحاديث وسيرة. ولـن أطيل الكتـاب بالاستـشهاد والتخريج فذلك شأن له مواضعه وأهله وإنَّما أريد لمحة دالة وإشارة عابرة تذكِّر بأنَّ معظم هؤلاء الفحول والشيخ حياتي في مقدمتهم حفظوا القرآن ورووا الحـديث واطلعوا علـى الـسير والتواريخ والموالد ورووا عمن سبقهم وأخذ بعضهم مـن بعض وحفـظ بعضهم أشعار الـسابقين فكانت الخلاصـة هـذه الأشعار الـتي تكـاد تكـون سـيرة نبويّـة منظومـة لمـا رصعوها بـه مـن نقـول السيرة ومروياتها، بألفاظها أو معانيها. فأنت حين تسمع الشيخ حياتي يقول (٣٦):

نِعَـــــــــمْ ودْ عَبْـــــــــدَهْ	الجمـــال والجـــود منتهـــى ومبـــدا
فَـــاهُو مُـــو كَـــلاَّم يحكـــي بالزُّبْـــدَة	والـــضَّلال بوجُـــودُو انْهَبَـــدْ هَبْـــدَه

(ودَ عَبْدَ) أراد (ود عبدالله) ثـم قطـع ولـه في مثـل هـذا فنـون وهـي لطيفـة وحبيبـة إلى النفس. ثم قال (فاهو مو كلاَّم يحكي بالزُّبده) وهـذا هـو موضـع الاستـشهاد وإن كانت بقيـة المقطع لا تخرج من وادي السيرة النبويّة.

ولـن تجد مشقة بل ويسبقك إلى أذنك حديث هند بن أبي هالة، ربيب الرَّسُول وأبصر النـاس بمعرفـة حِليـة الرَّسُول (ﷺ) وصفته، كمـا جـاء في حديث الحسن بـن علـي رضوان الله عليهما الذي هو أحد مصادر المادحين في وصف الرّسُول (ﷺ) مع حديث الكرار وحديث أم معبد الخزاعيـة. جـاء في حديث الحسن (رضي الله عنه)، قلـت: صـف لـي منطقـه؛ فقـال هنـد: (كـان رسـول الله (ﷺ) متواصـل الأحـزان، دائـم الفكـرة ليـست لـه راحـة، طويـل الـسَّكت، لا يـتكلم في غـير حاجـة، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ويتكلم بجوامع الكلم، فَصْلاً لا فُضُول ولا تقصير)، أليست هـذه هي الزُّبدة التي أرادها شاعرنا؟ ناهيك بحديث أم معبد وقولها: (حلـو المنطق، فَصْلٌ لا نَزرٌ ولا هـذرٌ، كـأنَّ مَنْطِقَـهُ خَـرَزَاتُ نَظْـمٍ يَتَحَـدرْن) فقولهـا (فـصلٌ لا نـزرٌ ولا هـذرٌ) هـو الزُّبـدة بعينهـا وشحمها ولحمها.

ومن هذه المنابع صدر الشيخ حياتي بعد أن أرتوى.

ولن يرد على سمعك قوله (٩١):

مَـــــا مَــــــزَجْ بالكـــــذبِ	طَبعُـــــو حِلُّـــــو وعَـــــذْبِ

إلا ذكّرك بما رُوي عنه (ﷺ) أنَّه: كان يمزح ولا يقول إلاَّ حقاً، ودونك حديث عجائز الجنّة، ويا أبا عمير ما فعل النُّغير وغيرها.

وكانت السيِّدة عائشة رضوان الله عليها تقول عن الرّسُول: "كان أملككم لفرسه" أي هو ضابط لنفسه لا يتبعها هواها..وأكثر الشيخ حياتي من ذكره، ومنه (١٢٧):

مَلَـــــــكْ للفَــــــــرسُ وضُــوعُو الكــونْ زَانْ وجُــودُو وغَرْسُــو

بـل أخـرج ألفـاظ الحـديث إلى امـتلاك أشـياء أخـرى علـى قيـاس ملـك الـشهوة كقوله (٣٠٨):

مَالِـــــكْ لفَرْسِــــي والأرَبْ وأثْنَــي ثَنَــاءً بــي طَــرَبْ

أو قوله (٣١٨):

مِلّْتْنَـــــا مَلَكَــــــتْ فَرْسَـــــهَا

أو قوله (٣٨٧):

مَلَــكْ الفَــرَسْ مَلَــك الأَرَبْ بِهَــا فِي الكيَــانْ زُمْــرُو انْـضَرَب

فجعلها في الأدب وفي الأرب. بالراء وحتى في كل ما تشتهي الملة؛ لا شهوة الجنس.

فخرج بلفظ الحديث من السيرة إلى الحياة العامة وما السيرة إلا لتقويم الحياة العامة.

ولك أن تقرأ معي هذا المقطع وأن تقيس عليه وهو قوله (٣٤٣):

لا فَخْـــرَ يَـــا مَعـــشَرْ حَــدَّثْ بِنِعْمَـــةْ مَــولاه أثْنَــى عَلــى الْقَــدَمَاهُ وِرْمَــتْ
مَــنْ صَــلَّى ألْــفِ عَلِــي دَرَجَــاتُو عِظْمَــتْ عَلَــى سَــايرْ الــنِيرَانْ أَعْـضَاهُ حِرْمَــتْ

كم حديثاً اشتمل عليها هذا المقطع؟، وكلّه من الشايع السائر، كحديث الصّلاة عليه (ﷺ) وفضلها أو حديث عائشة وخطابه العجيب لها حين رأت ورم القدمين المذكور هنا: يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً؟ ولن تقرأ شيئاً فيه مكارم الأخلاق نحو قوله (٣٥٧):

حَــوَى حُــسْنُو إحْــسَانَاً خلْقــاً وبِــشْرَاً ومَكَــارِمْ الأخْــلاقْ فَخِرَتْبُــو فَخْــرَاً

إلا تذكرت: (إنَّما بُعِثْتُ لأتُمِّمَ مَكارِمْ الأخْلاق).

وجرب هذا مع مجموعة مقاطع من الديوان اخترتها اختياراً عشوائياً، فلن تخرج من لفظ حديث أو معناه أو إشارة إليه كما قال(٢١٢):

يَفُـــوقْ جُـــودُو المرســـلَة الذاريَـــه كـــــذلك والأبْحُـــــر الجارْيَــــة
نِفُـــورْ الــصَّبيْ كَالغَمَــامْ باريَـــه لمــــوطى اقْــدَامُو الــصُمم تَارْيَــه

وردَّ البـــــي حِجَابَـــــا مُتْوارْيَـــــه

والمرسلة الذارية هي الريح، (والمرسلات عرفا) (والذاريات ذروا) وفي الحديث (كان (ﷺ) أجود بالخير من الريح المرسلة، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان) وتابع بقية الأشطار، فلن تعدم حديثاً أو إشارة إلى حديث.

وقوله (١٦٢):

يَـــالَ بُـــشْرَتْنَا مِـنْ تمـام خمسين خمسة خَـصَّتْنَا

خِـفْ طَهَارَتْنَـا ومحـو سيئتنَا زَادْ قَرِضْـنَا أضْـعَافْ عَـشَرة حَـسَنتنا

... والعِـــرُوجْ واقْـــوَالْ مُوسَـــى ســـرَّتْنَا

ودونك حديث الإسراء والمعراج وما جاء فيه من المنن والعطايا وخطاب رسولنا وموسى عليه السلام في تخفيف فرض الصّلاة ونحوه.

وقوله (٥٠١):

صَـباراً قنُـوع اللُّقْمَـة تَكْفِيـهُ شَـهْرينْ لم تَقـدْ حَـقْ بيتُـو نَـار فِيـهُ

وهذا مشهور من حاله (ﷺ)، وأنَّه أهل بيته لم يروا طعاماً لثلاث وأنَّ النار لم توقد في بيته الشهر والشهرين وهو الّذي خير في أن تكون له الجبال ذهباً.

ووردت بعض الأحاديث في استهلالاته وبعض دعواته كقوله (١٣٠):

مُعَـــافَى أكُ رَاسِـــي وأكـون ديـني عَاضُّـو بـي أضْرَاسِـي

وتَـاج العـز يُلْـوى لـي فـوق رَاسِـي وأرْقَـى مَراقِـي وأرقـى كَراسِـي

وحديث المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها لا يخفى هنا وآخره (عضُّوا عليها بالنَّواجذ).

واسمع معي رحمك الله قوله (٢٥٨):

أطْبَـــاعُو لَيْنَـــه كـانْ إنْ دَعـي المرْضـي مَـا قَـال لأيْـنَ

دُون الرُّسْـل مفـرُود آيَـاتُو بَينـه تَـالف حمـا النَّـافْرات تَبْـرا المزَيْنَـة

وكانت الأمة تأخذ بيد رسولنا (ﷺ) إلى حاجتها... وحتى أحاديث نشأته وإرهاصات نبوته وما روته كتب السيرة وصحاح الحديث في ذلك يُكَوِّن سفراً كاملاً في هذا المنحى. ومن أبيات الشيخ السائرة قوله (١٩٣):

كـان في اليـوم يـشب ود فهُـر كـشباب الـصَّبي الفِـي شـهرُ

يقول ابن هشام في السيرة: (كان (ﷺ) يشبُّ شباباً لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى صار غلاماً جفراً). ونحو هذا لا يحصى.

وعلى الجملة فإنَّ المعجزات كلها على كثرتها إنما هي أحاديث صحيحة، وهي من أكثر ما تداوله رواة المديح والشيخ منهم. وهذا أمر يُعَنِّي تَطَلُّبُه وتَعَقُّبُه. كأحاديث المطر وإرواء الجيوش وأحاديث جابر بن عبدالله ومعجزات الرسول الخمسة في داره وأحاديث إبراء الأسقام والعاهات.

وكانت أحاديث الصحابة مادة لأشعاره أيضاً، فهم عضده ونصرته وهم الذين شادوا معه أركان الملة، لذا وردت فيهم أحاديث عن الرّسُول (ﷺ) لا تحصى مثلما نزل فيهم القرآن. والذي يتأمل مقاطع الصحابة الواردة في هياكل قصائده يجد فيها من ذلك الكثير، ولكني أحيل القارئ الكريم على أربع قصائد مدح فيها الصحابة مدحاً مخصوصاً، وجمعهم في (القلاقل) التي تمثل ديواناً برأسه. أما هذه الأربع فهي التي يقول مطلع أولاها (٤٨٨):

الليله بجيب قول الصديق الحاب بي صفا ذات الرسول أصحب

ويقول مطلع الثانية (٤٥١):

الليله بجيبْ قولاً على الفَارُوق مرحبا سِيدي البهَزْم العُوقْ

وفي الثالثة يقول (٤٥٤):

الليله يجيبْ قولْ الإمامْ عثمانْ مرحبا سِيدِي الملان إيمَانْ

ورابعتها مطلعها (٤٥٧):

الليله بجيب قول الفتى الكرار سيدي سيد محفل الأحرار

وهذه القصائد الأربع من غُرر الديوان ودرره خصص كل واحدة منها لمناقب أحد الراشدين الأربعة وجمع فيها الأحاديث والأخبار والأقوال الواردة في حقهم فيالك من تفصيل ويالك من إبداع ويالك من حسن صياغة وبراعة تفنن وأريحية في النظم وتحري عدالة حتى في توزيع أعداد الأبيات عليهم.

ولك أن تقرأ هذا المجموع المختصر من الأحاديث وتدخل بها على القصائد التي أشرت إليها لترى موقع هذه الأحاديث منها: أما أبو بكر فقد صلَّى بالناس في حياة النبي (ﷺ)كما في البخاري ومسلم. وهو الذي قال له الرسول (ﷺ) أما إنك يا أبابكر أول من يدخل الجنة من أمتي. وقوله (ﷺ) مالأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه إلا أبا بكر فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة. وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر (البخاري).

وقال (ﷺ) عن عمر: (لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب) أخرجه الترمزي وقوله: إن الشيطان لم يلق عمر منذ أسلم إلا خر لوجهه. وإن الشيطان ليفرق منك يا عمر. وقال: عمر بن الخطاب سراج أهل الجنة. وقال (خير أمتي أبوبكر وعمر).

وقال عن عثمان بن عفان عليه رحمة الله: (عثمان حيي تستحي منه الملائكة) و(وعثمان أحيا أمتي وأكرمها) و (ولكل نبي رفيق في الجنة ورفيقي في الجنة عثمان) وقال (اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض). ولما جهز جيش العسرة قال رسول الله (ﷺ): (غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة، وما يبالي عثمان بعدها).

وقال عن علي (رضي الله عنه): (من كنت مولاه فعلي مولاه)، وقال (أنا مدينة العلم وعلي بابها...) وقال له في حادثة استخلافه على المدينة وقد كان رمداً (ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي).

وما من حديث مما ذكرته هنا . على قلة ما ذكرت . إلا وهو مذكور في قصائد هؤلاء الراشدين، وقد عودت القارئ أن أعينه بالبيت وشاهده وأردت هنا أن يتذوق معي القارئ متعة البحث عن موضع الشاهد. والأبيات التي تضمنت هذه الأحاديث فلابد دون الشهد من إبر النحل.

هذا، والحديث عن الحديث الشريف في ديوان الشيخ حياتي هو حديث عن مصدر مهم ومادة ضخمة هي لب الديوان وشحمه ولحمه، عول عليها الشاعر بل إن أدب المديح النبوي كله إنما يقوم على مرويات السيرة وآثار الحبيب وأخباره. وما قصر الشيخ في بيانها ولا تأخر عن إيضاحها ولا تقاصرت أدواته عن بلوغ الذروة في التجويد وارتقاء السنام في الإجادة فجزاه الله عن رسوله ودينه وأمة رسوله كل خير.

أعلام المتصوفة

يورد الشيخ حياتي في معرض الدعاء أعداداً مذهلة من أعلام الرجال على رأسهم سيد الأولين والآخرين ثم صحابته الغُرّ الميامين مع تركيز خاص على الراشدين والمشاهير من أصحاب المواقف والأحداث التي ارتبطت بهم. ولكنه في الوقت نفسه يورد عدداً من أعلام المتصوفة في سياقات مختلفة قلَّ أن يكون تضمنها ديوان قبله. نعم كل المادحين يذكرون أعلام التصوف ولكن ذكرهم يأتي لماماً، إلا من تعمَد جمعهم أو جمع أكثرهم في نص واحد، أمَّا الشيخ حياتي فقد ذكر أكثر من ستين علماً من أعلام التصوف سوى من أجملهم إجمالاً، في بعض السلاسل كالأفراد أو الأقطاب أو الأعراك ومن على شاكلتهم؛ بما يدل على اطلاع واسع وثقافة شاملة.

وهؤلاء إنما يردون في معرض الدعاء، والشاعر يدعو الله ويتوسل برسوله ويتوصل بالصحابة وسلف الأمة وصالحيها طالباً أموراً كثيرة منها قوله في (قل يا فمي ليهم بشكر الآساد) (٤٦٠):

يَا مُحْيي العِظَامْ يَا نَايْ الأنْدَادْ ... ذنْبِي كل يومْ أضْعَافْ عَلَيْ يزْدَادْ

وأورثني الكسلْ في جسمِي والتهدَادْ ... واعْدَمْنِي العَمَلْ مَا خَلَّ في امدَادْ

والفرضْ المحتَّمْ راجِي بِلا استعدَادْ ... أرْجُوكْ بَالنبي ابْ جَاهَاً نَفَى التَحدَادْ

أمْنَحني الرِّضَا والعَفُو والأمْدَادْ ... والتوبَه العفَافْ الجُود والتوَدَادْ

والبسنِي جَلال نور خلعَة الأجدَادْ ... واعطيني مقَامْ السِّنْدِي والبغَدادْ

إلى أن يقول:

وارْزُقني الإقامَة وكثَرة الإيرَادْ ... عينِّي يَا مستعانْ بالسبعة الأفرَاد

ففي هذه القطعة جماع ما يدعو به الرجل وجماع ما يدعو له. ألا تراه توجه بكليته إلى محي العظام ثم رجاه وتوسل إليه بنبيه صاحب الجاه غير المحدود وبصحابته الذين أصلحوا الإفساد أن يلبسه جلال نور آبائه ويمنحه مقام من تسمَى به وإخوانه (السندي والبغدادي) كما سنفصله راجياً من الله أن يعينه بالسبعة الأفراد أيضاً. وقد كان دعا الله في قصيدة أخرى أن ينيله مقاماً آخر بجاه أصحاب رسول الله في قوله (٢٢٦):

أصْحَابُو الأسودْ صدِّيقْ والغضنْفَرْ ... ذُو النورين عَلِي يَا بَرْ ذَنْبِي يُغْفَرْ

بي جَاهُم كمَانْ أحْظَ بحظٍ أوْفَرْ ... وأرْقَى مَا رَقَى جَعْفَرْ وابْنِ جعْفَرْ

فخص من الصحابة بعد الراشدين جعفراً الطيَّار بن أبي طالب وابنه عبدالله. ورجا أن يرقى إلى مقامهم. ولا ينسى أل البيت مفرقين كما في (جعفر وابن جعفر) أو كما في قوله إجمالاً (٥١٥):

واحْبِبنِي مِنْ حَبِيتْ كالسَّادَة أهَل البيتْ

وكله دعاء للتشبه بالصالحين وأهل الفلاح. وربما تناول الرسل السابقين فسأل الله صبر أيوب أو حكمة لقمان كما في قوله متوسلاً بالصحابة (٥٣١):

عَنْ قَادَتِي الأُمَّانْ صَحْبُو ارْضى يَا رَحْمَانْ
بِهِمْ ألْقَ ألْقَ أمَانْ وألْقَى اللِقَا لُقْمَانْ

ونعم ما لقى لقمان فإنَّه أوتي الحكمة وهي خير كثير. أمَّا إذا دلفنا إلى السّادة المتصوفة على كثرتهم في الديوان فسترى العجب في تنوع الطلب، فمرة يريد مقامهم ومرة يريد تقواهم وورعهم ومرة يريد مددهم ونحو ذلك مما سأفصله هنا. ولنبدأ بما رجاه في أول مقطع تمثلنا به في هذا المبحث وهو مقام هؤلاء السادة فالذين أراد أن يرقى مرقاهم جماعة منهم عبدالسلام بن مشيش المغربي في قوله (٢٧٨):

في السِّرْ أجِدْ مَا أسِيرْ بِشيشْ وارْقَى الرَّقَاهُ بَنُو مشِيشْ

ومنهم المرسي أبو العباس في قوله (٥٤٨):

بي حَقْ صَحابتُو أرسي والنَّمْلِكْ الفَرْسِ
بَلْ واليَدُورْ دَرْسِي وأرْقَى الرَّقى المرْسِي

سأل الله بحق الصحابة ثلاث أمنيات نفيسات وختمها برابعة أنفس، وهي أن يستقر، وللاستقرار مقومات، ثم يملك نفسه فلا تغلبه وهذه درجة ثم ينشر العلم وأخيراً يرقى إلى مقام المرسي أبي العباس.

ثم يلحق هؤلاء بثلاثة من أهل الصلاح هم البيومي والفيومي والبوصيري في قوله (٣٦٩):

بإسْمَكْ القَيُّومْ عَنْ قَرِيبْ أرْقَى مَا رَقَى البَيُّومْ
والبُوصَيْرِي ومَنْ يُدَعَى بالفَيُّومْ

يسأل الله أن ينال مقام البيومي علي بن حجازي الصوفي الشافعي شارح الأربعين النووية والحكم العطائية (ز/٤/٢٧٠)، أو كالبوصيري صاحب البردة والهمزية والمضرية وغيرها وكالفيومي المالكي أو الفرضي.

ثم دعا بمقام اثنين من مشاهير المتصوفة متفق على أحدهما مختلف على الآخر وهما في قوله (٣٧٣):

لَـوْ كَـانْ مِـنْ طَرِيـقْ الحَـقِّ مُقْبِّـل لاجْ غِـيرْ بَـاب الرَّسُـولْ مَـا عِنْـدِي تَـانِي مـلاجْ

أكْرِمْنِـي لـشَانْ بَحْبُوحَـة الابْـلاجْ حَـالاً بِـي مَقَـامْ الـشِّبْلِي والحَـلاَّجْ

أما أبو بكر الشبلي البغدادي (٣٣٩هـ) فمشهور بالتنسُّك والصلاح وأما الحسين بن منصور الحلاَّج (٣٠٩) فمع أنه مات قبل الشبلي وكلاهما من بغداد إلاَ أنَّ الناس فيه فريقان فريق اشتدَ فكفَّره وفريق توقف في حاله. وهو وصاحبه على حالة مرضية عند شيخنا كما ترى. ولا يتمنى الشيخ حياتي على تَثَبُّتِهِ ... مقاماً مشكوكاً فيه ولا تضطره القافية مع تبحُره وامتلاكه نواصي القريض.

ثم وسع الدائرة فتمنى مقام السري السقطي وأبي القاسم الجنيد والبغدادي وأضاف إليهم الشبلي مرة أخرى في قوله (٤٥٠):

بيهـا يَنِيـلْ مَقَـامْ الآبَـا والأجْـدَادْ والـسقطِي الجنيـدْ والـشبلي والبغـدَادْ

ولنا عودة إلى مقام آبائه وأجداده.

ثم سأل الله أن يكشف له الحجاب بجاه اسم النبي (محمد) (ﷺ) ليرقى مقام الميرغني عثمان وذلك قوله (٤٥٤):

واكْـشِفْ لِـي الحِجَـابْ بالحَـاءِ والميمـانْ والـدَّالْ أرْقَـى مَرْقَـى الميرغنِـي عُثمَـان

فالحاء والميمان والدال هو اسم حبيبنا (ﷺ).

أما سميه (محمد حياتي السِّندي) فقد أكثر من تمني مقامه ونَـوَّع فيه كقوله (٤١٥):

يَـا كَـرِيمْ أقْبَـل نِيَـاتِي جِلِّنِـي واكْـرِمْ حَيَـاتِي

بـالأخَصْ حِـينْ مَـوْتِي يَـاتِي وارْقَـى مَرْقَـى سَـمِي حَيَـاتِي

وقد ذكرناه في ترجمة الشاعر وذكرنا أنَّه كثيراً ما تمنى حاله كما في قوله (٤٢٧):

حَيَـاتِي الـسِّنْدِي تَلْحِـقْ بِـي بِهَـا تـزِينْ كُنْيَتِـي ولقْبِـي

كما تمنى مقام الصفتي والخرشي والجمل والتستري وشيبان والبصري وذي النون المصري وغيرهم من المشاهير الذين يطول بهم المقام.

وقد تمنى الشاعر - سوى المقام والمرقى - أحوالاً أخرى اشتهر بها سادة المحبين والمتصوفة، فكما تمنى مقام الجنيد والسري السقطي وأبي بكر الشبلي فقد تمنى حالاً أخرى عرفوا بها هي أنهم من المفتوح عليهم فذكرهم وأضاف إليهم معروف الكرخي في قوله (٣٣٥):

كَمَعْـرُوفْ والـسَّرِي هَـبْ لِـي وأبِـي القَاسِـمْ كَـذَا الـشِّبْلِي

كَفَـتْحَهُم يَنْفَـتِحْ طَبْلِـي وينْهَـل فِي القُلُـوبْ وَبْلِـي

ثـم يسأل الله أن ينصلح حاله وينهل عليه وارد المديح وينال التُقى والدين كأبي العباس المرسي وأبي مدين التلمساني وذلك قوله (٣٣٨):

كَـأبِي العَبَّـاسْ وأبِـي مـدْيَنْ وكُـلا مِـنْ تَقِـي وأدْيَـنْ

ويَبْقَـى مِـنْ الـشَّمِسْ أبْـيَنْ وبِـي ألبَـابْ القِلُـوبْ يَحْـيَنْ

وكما أننا لا نشك في تقواه وصلاحه فإننا لا نشك في استجابة دعوته في أنه نال هذا المقام فصار أبين من الشمس عند أحباب الجناب وكم أحيا بروائعه هذه القلوب والألباب.

وسأل الله تعالى أنْ يعطى عطاء الدرديري والأنبابي في قوله (٤٤٦):

مِيـزابْ رحمتـكْ لَـيَّ الْيكُـونْ صَـبَّابْ واعْطِينِـي عَطَـا الـدرديري والأنبـابْ

وأن يحي الليل كالسيد أحمد بن إدريس (٢٦٢):

أحْيـي الْلِيـل كـابْن ادريـسْ بِـي التَّهْجِيـد والتَّـدْرِيسْ

وأن يسرع في المسير على طريق الهداة المهديين كما قال (٤٥١):

صَـحِّحْ تَـوْبَتِي التَّـنْهَضْ وأوَالِـي الـسُّوقْ وأسْـرِعْ فِي المـسيرْ مِـنْ غـير مَهَانَـة وسُـوق

كَالبـسطامِي والبغـدادِي والداسـوقْ واعْمُـر بـالتُّقَى يَـا مـستعانْ لَـيْ سُـوقْ

وأبو يزيد البسطامي من كبار المتصوفة وهو طيفور بن عيسى (٢٦١هـ) وقد ذكره مرة أخرى في دعوة لأبنائه المادحين قائلاً (١٥١):

ابْنَـاي يَـا الرُّسـول زُمَّـالِي شِـيلْ احْمَـالَهُمْ واحْمَـالِي

نِـيلُمْ صَـالِحْ الأعْمَـالِ زِيْ طَيْفُـور وأبُـو الهُمَّـالِ

وطيفور البسطامي أبو يزيد هو غير البسطامي أبو سعيد الذي كان لجوجاً متجاوزاً طبقته وزمانه. أما أبو الهمال فعلى كثرة وروده فما أراه إلا جَدَّه ود بدر والله أعلم.

ويتمنى الشاعر حالة أحد العلماء الفقهاء السالكين وهو ابن الجوزي في قوله (٥١١):

أُحْظَـى بـالفوْزِ وبلـوغ العـوز

حَـايزاً زي ابـن الجـوزي

ولما كان الرجل بكرياً صديقياً كان لابُدَّ أن يتحرى النابهين من سلف أجداده ويتمنى حالهم وقد فعل حين قال (٥٤٣):

أنِيلْ مَا نَالَه البَكْرِي وأسكر في هَواكْ سكرِي
يَشاهْدَك دائماً فِكْرِي في الآصالِ والبكْرِ

وهذه حالة عزيزة من الحضور والمشاهدة عرف بها جده أبو المكارم شمس الدين محمد بن محمد بن عبدالرحمن البكري الصديقي (٩٩٤هـ) من علماء المتصوفة ومشاهيرهم حتى قالوا (وحيثما أطلق في كتب التواريخ أو المناقب أو الطبقات اسم القطب البكري أو البكري الكبير أو سيدي البكري فهو المعني). (٦٠/٧).

وقد دعا أن تسمو أعلامه كما سَمَتْ أعلام بعض الصالحين في قوله (٩٧):

قَوِّي دِينْ إسْلامِي تَسْمَى فوقْ أعْلامِي
زي عِيَاضْ واللاَّمِي

والقاضي عياض صاحب (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) حري أن يتمنى الإنسان منزلته.

وسأل المولى عز وجلّ أن يجني بساتين العمل وذلك في خطابه لنفسه (٣٠٢):

تَجْنِي بَساتِينْ العَمَلْ كَالشَّاذَلِي وأبُو الهَمَلْ
تَسْمِي عَلَى هَامَة الحَمَلْ نِعَمْ الهَنَا تَأتِيكْ جُمَلْ

ثم هفت نفسه إلى الغنى ولابد أنه الغنى الروحي والمعنوي لأنَه قال (٣٢٧):

يَعُودْ لَيْ بالغِنَا فَلْسِي وأسُودْ كَالسَّادْ غِنَا بُلْسِ

فالشيخ عبدالغني النابلسي لم يَسُد بغنى المال والجاه وإنما ساد بالزهد والعبادة والصلاح ومدح الجناب.

وهو يحن إلى لقاء الرسول والاجتماع به كما حنَّ سلفه من الشعراء والمحبين لذلك قال (٣٠):

بعد ذا سَبْكِي القوافِي الزِّينه ولها حَبْكِي
فوقْ رسول الله ولي لِمَا أبْكِى كالبَكُو البرعي والحنفي والسبكي

فهو يبكي طلباً (لِلِماه) والاجتماع به كما بكى البرعي اليماني حتى هلك وكما بكى السبكي صاحب طبقات الشافعية و كما بكى شاعر الشاذلية الحنفي.

وربما ذكر بعضهم في غير موضع الدعاء تبركاً، كما قال (٥٥١):

تَـــــصْرَع لَهُـــــم كـــــــالبنج أمْــــــدَاحِي فُـــــوق المُنْجِـــــي

حَامِــــلْ خَطَـــــايَ وطَنْجِـــــي سِـــــيدْ رُوحـــــي والبَرَزَنْجِـــــي

فهو يذكر البرزنجي لأنه يشترك معه في مدح سيد روحه وحامل هفواته وأخطائه وكم استفاد المادحون من الموالد في نقل صفات الممدوح (ﷺ) وكان مولد البرزنجي من أبرزها مع المولد العثماني وغيره.

ولم ينس أسلافه من متصوفة السُّودان فهم أصله، خصوصاً أجداده فقد كانوا دوحة وارفة في خميلة الصوفية بالسُّودان، لذا أراد أن يرقى مراقيهم فقال (٢٧٧):

أهْـــديتْ حَيَـــاتَي بِـــلا صــــدُودْ صَــــلَواتِي عَـــدْ عِلْـــم الـــودُودْ

تُرْضِـــي الوَجِيـــه نَـــايرَ الخِـــدُودْ بِهَـــا رَاجِـــي لا افــوتْ الحِـــدُودْ

وأرْقَابَـــــا فــــــوقْ مَرْقَـــــى الجِـــــدُود

وهو يرجو من كريم فما عليه إذا دعا بأن ينال مقامهم وأكثر.

ويفصل بعض هؤلاء الجدود ويرجو أن يكونوا له عوناً في الذهاب والإياب اللذين قصد بهما رحلة الحج كما ينص عليه سياق القصيدة، ولكنه قد يريد الدنيا والآخرة وذلك قوله (١٤٧):

ذَاكَ البَـــــــــــــــــــانِ وادريـــــس وأشْـــقَرْ أُم ضُـــبَّانِ

عَـــوْنِي يَكونُـــوا في الـــذُّهْبَانِ وأيـــضاً في الإيَـــابْ عُقبَـــانِ

فالذي بان وظهر هو الشيخ حسن ود حسونة فقد كان مشهوراً ذائع الصيت وأما أشقر أم ضُبَّان فهو جده الشيخ العبيد ود بدر المكنى أيضاً بود ريَّه وقد نصَّ عليه بذلك في قوله (١٦٥):

هَـــا حَيَـــاتِي القَـــرْ قَـــرَا صَــــنْقَع مـــــا دَنْقَـــــرَا

فـــوقْ كَـــابُو المَـــا قَـــرَا وَدْ ريَّــــــه الأشْـــــــقَرا

فهذه غاية الاعتزاز بهذا الجد الذي يرفع الرأس، وهو المفتوح عليه بالعلوم الوهبية التي لم يحصلها بالقراءة والدرس.

أمَّا إدريس فهو الشيخ إدريس ود الأرباب وثلاثتهم قد كانوا من ركائز التصوف في السُّودان.

وذكر من المتصوفة وأهل القرآن جماعة في قوله (٤١٢):

أيَـــا مَـــنْ مَالِـــكْ الأنْفَـــاسْ كَعَبْـــدَ العَـــاطِي والـــدنْفَاسْ

أفُـوزْ وأكُـونْ كَـسَاكِنْ فَـاسْ	وكَالـشَّاعْ بـي أمَانْـة الفَـاسْ

فهـؤلاء ثلاثـة رجـال مـن الـسُّودان مـع سـاكن فـاس وهـو الـسيد أحمـد بـن إدريـس أمَّـا الثلاثـة فهـم عبـد العـاطي ومحمـد بـن إبـراهيم الدنفاسـي والـشريف بـدر بـن مـسكين الخفـي صـاحب قـصة الفـأس. وقـد كـان الأول مـن علمـاء القـرآن والثـاني مـن المتخصـصين في علـم القـرءات ولـه في ذلـك منظومـة مـشهورة معهـم الـشيخ عبـد الـرحمن الأغـبش وكـان رابعهـم الشريف محمد الأمين الهندي وإليهم انتهى علم القرآن والقراءات.

وربمـا أجمـل ذكـرهم كمـا فعـل مـع رصـفائهم مـن غـير أهـل الـسُّودان فـذكر الـسادة الأعراك راجياً أن يمتلئ مثلهم بالبركات في قوله (٧٦):

وامْلانِـي بالبَرَكَـة	كَمِثَـالْ رِجَـالْ عَرَكَـه

ويعود فيفرد بعضهم فيقول (٩٩):

شـكراً بِـلا شَوْشَـرَه	وأنِيـل مَنَـالْ أبْ شَـرَا

وأب شرا هو الشيخ يوسف بن الطريفي المشهور بهذه الكنية.

ولا يتجـاوز شيوخه ورصـفاءه في مـدح الجنـاب ويـسأل الله أن يكافـأ مثـل مكافـأتهم وقـد أعجبـه حـال مـادح الـصعيد الـشيخ عبـدالقادر ود جبـور المـشهور بقـدورة المعـروف بالمـشاهدات والمحبة التي مسحت أشعاره في مدح الرسول (ﷺ) فقال عنه (٤٣٤):

أوْصَـل دُورَا	وأرَى خِيامَـا أزُور بِـدُورَا
أكَـرَم زَي كَـرَم قَـدُورَه	وأبْلُـغْ لـي القِلِيبِـي بِـدُوْرَا

يتحـدث عـن المدينـة النبويـة ببـدورها يريـد أن يـصل إلى ديارهـا ويـرى خيامهـا وبـدورها ويكـرم كمـا أكـرم قـدورة الـذي كـان يـرى قبـة الرسـول الخـضراء بـأم عينـه وهـو في الـسُّودان (الخضرا الشارفا بعيني شايفا). وهو ما يريده قلبه ويرجوه.

ومن المادحين (بنو حميل) وهم آل الشيخ علي ود حليب، ذكرهم في قوله داعياً (١٩١):

أَعْمَـل كُـل مَـا هُـو جَمِيـلْ	طَرْفَـه عَـنْ الـشَّرِعْ مَـا أميـلْ
وافْنَـى واتْـرك التأميـلْ	وافـرط في بَنُـوه حمِيـلْ

يريـد العمـل الـصالح وأن يفـرط ويتقـدم فيمـا فـرط وتقـدم فيـه بنـو حميـل وهـو مـدح الرسول (ﷺ)، فقـد كانـت لهـم في ذلـك الأوليّة ولا نعلـم مادحـاً اجتمعـت لنـا أمداحـه في الحبيـب قبـل الـشيخ علـي ود حليـب ثـم سـار أبنـاؤه وتلاميـذه علـى خطـاه وكـان مـن بـين تلاميـذه حـاج الماحي الذي كان أبوه زَمَّالاً لود حليب.

ولم ينس أيضاً أنداده من المتصوفة المعاصرين، فقد كانت تربطه بالشريف يوسف الهندي أواصر قوية وبينهما أدب المتصوف مع إخوانه ومحبة المسلم الحق لذرية رسولنا (ﷺ). وقد دارت بينهما محاورات قيل إنها بسبب حرص الشيخ حياتي على الحج والجوار وأمل الشريف في عودة الشيخ حياتي لينفع أولاد المسلمين فلم يغير الشيخ حياتي نيته ولا أذن له الشريف بالسفر إلا بالشرط المذكور وبقي كل منهما على ما في نفسه حتى عاجلت الشريف المنية في عام (١٩٤٢م) ولحقه الشيخ حياتي بعد عام في سنة (١٩٤٣م). والذي يطالع قصيدته (مرمى الغرام، ٢٣٠) و(الجيدين، ٤٨٧) يلحظ هذه الروح الصافية والمناجاة البالغة كما في قوله (٤٨٧):

مَمْكُونْ بالغرامْ خَلُّوني يَا لايْمِينْ ... واسألُوا حَالِي عَنْها البِىْ الغَرَامْ عالِمِينْ

إنْ كَانْ جَاهلِينْ قُولُو لي مِنْهُمْ مِينْ ... المرْمى الشريفْ يُوسِف مِنْ الرامينْ

مَا سَوّى الشُّبه هامْ هَيَّمْ الهايمينْ ... أبعد مُهْجتي قَدْ صَادَ بي سهمينْ

مَالك يا شَرِيفْ أحْرَمْتَني النُومينْ ... مَا تخافْ اللهْ في يَا الهندِي صَبري يمين

ضَاعْ واسع الفَضا ضَاقْ بيَّ دائي كمينْ ... مَا طِبِّي ومَا عَافِيتي ليهَا ضَمِينْ

إلا زَوْرَة الخاتِم وعَاقِبْ أمِينْ

يَا الهندِي الشريفْ واردات عَلَىْ نغماتْ ... مِنْك، وحَاسِماتْ قَلْبي وعُرَايْ قَاصْمَاتْ

أبْقَنِّي كَشَنْ بَالِي أخيرْ المَاتْ ... مهمَا مرَّ يوم يا الهندِي لَي سَامَّاتْ

أرْجُوك النَّظَر بي أعْيُن الرَّحماتْ ... وأَبْقى لَي شفُوق أشفقْ من الأمَّاتْ

مِنْ قول الرِّفقْ لاطِفْنِي بي كَلِمَاتْ ... إنْ لَمْ تَرْتَ لَي طوِّقْنِي بي ذِمَّاتْ

أهل العِشْق، وأنتَ بذمَّتَكْ ذِمَّاتْ ... كيف يَبْقى الخَلاص يا الهنْدي فِي مَنْ مَاتْ

بي سَبَبَكْ، إذا مَا الأُمَّة في خُصُومَاتْ

فجعل الشريف رامياً ومرميَّاً وشكا له حاله وضعف صبره وناشده النظر بأعين الرحمة والإشفاق، فإنْ لم يفعل فهو لا مانع لديه من السفر وأن تضيع فرصة أهل العشق بفقدهم لنفحات مديح الشيخ حياتي أو ليتحمل الشريف ذنب حرمان الشيخ حياتي في يوم الخصومة وهو يوم القيامة.

قلت صدق البارئ (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا...) كره الشيخ حياتي حجزه ومنعه من الحج والجوار الذي يكون نفعه له وحده، ولعله إن سمح له بذلك ما كان لأبناء المسلمين أن يتمتعوا بهذا الإبداع لأنَّ (الهوى من النوى) وهذا هو المكروه الذي أنجب محبوباً.. خامرني

هذا الهاجس كثيراً على الرغم من قسوته فكفَّرت عنه مرة بأن نذرت للشيخ حياتي حجَة ووفيت بها - تحدثاً بنعمة الله أسأله القبول - ولكن هل يحتاج صاحب هذا الفيض إلى معروف مثلي؟ هي زيادة خير له، وأنا إنَّما أتعلق بأذياله، وأتبرك وأتمسح بما نال من الفيض الذي سيظل يفعم نفوس أهل المحبة والمعرفة بأدبه والعرفان بفضله، فاللهم تقبَلْه.

وكما نلاحظ فإنَّ الرجل لم يترك صفة حسنة تمثلت في السابقين إلا سأل الله مثلها، وما أعجبه مقام من مقاماتهم ولا حال من أحوالهم إلا دعا الله أن ينيله مثله وأن يبلغه إياه. ومع أنه دعاء والدعاء مخ العبادة فهو أيضاً دليل على تبحره وسعة معرفته وغزارة ثقافته.

الباب الثاني:
بلاغة الشيخ حياتي:

الصورة

الإشارات

الكناية

الجناس ولزوم ما لا يلزم

الصورة

برع الشيخ حَيَاتِي في التصوير بأدواته المختلفة من تشبيه واستعارة ونحوها واستطاع أنْ يرسم صوراً ناطقة أدَّى بها المعاني التي أراد إيصالها على خير وجه.

وفي الدّيوان صور لا تكاد تُحصى مَرَّ بعضها في موضوعات متفرقة كتصويره اخضرار اليبيس وأحوال نار الفرس وفي وصف الصّحابة والبروق والصلوات، أضربت عن إيرادها هنا مخافة التطويل وعمدت إلى إيراد نحو عشرين صورة أردت بها بيان براعته في رسم الصور وتجسيد المعاني بصورة ماتعة معجبة.

وأول ذلك حديثه عن طي الناي، أي المسافات البعيدة التي وردت في صفة مشيه (ﷺ) وأنَّ الأرض زويت له فأُرِيَ مشارقها ومغاربها... قال عليه رحمة الله (١٧١):

مِـــنْ آيُـــو أيَــا بُــصُرْ	الرُّعْـــب والنَّـــصر
والعـــادتْ لِـــي العَـــصُرْ	والنّـــاي رِضـــا بالقـــصر

بدأ بتنبيه أُولي الأبصار والبصائر إلى آياته ومعجزاته وخصائصه (ﷺ) ومنها أنَّ الله نصره بالرُّعب يسير أمامه فيخلع قلوب أعدائه، وأكرمه بردّ الشّمس مرتين في خيبر وصبيحة الإسراء، أما بيت القصيد هنا فقوله (النَّاي رضا بالقصر) أي المسّافات الطويلة يطويها ويقطعها (ﷺ) في زمن قصير ، لم يقل ذلك بأسلوب مباشر بل صوَّر وجسَّد النَّاي والمسافات الشاسعة في صورة إنسان يحس ويدرك فقبل وارتضى أن يكون قصيراً بعد أن كان طويلاً ممتداً. والرضا والرفض من طبع الإنسان لكنه استعمله لما لا يُدرِك فجعلها استعارة ناطقة بمراده. وقد نوَّع في هذه الخاصية بالذات تنويعاً مذهلاً أفردناه بالحديث في باب تداعي المعجزات والخصائص.

ومن الصور الزاهية قوله عن شاة جابر الأنصاري (٤٩٥):

الأمْـــلاكْ تَظِـــلْ لِـــي ذَاتُـــو حراســـه	وأشْـــبَعْ وأرْوَى سِـــيدِي أصْـــحَابُو نِبْرَاسَـــا
وأخْبَـــرْ بِـــي جَـــرَادَه الفِـــي عُقْـــصْ رَاسَـــا	والَمطْبُوخَـــة قامَـــتْ تَرْعَـــى باضرَاسَـــا

تظليل الملائكة له من الحر وحراستها له. وإشباع الصّحابة وإرواؤهم بيد سيدي النبراس والإخبار بكتاب جرادة الذي خبأته في ضفائرها وقد كلفها حاطب بن أبي بلتعة إيصاله إلى أهل مكة، كل ذلك حديث مباشر، أمَّا الحديث غير المباشر فقوله (المطبوخة قامت ترعى باضراسا) لم يقل أحيا شاة جابر بعد أن طبخت ولكنه عبَّر عن ذلك بأسلوب غير

مباشر فقال إنَّ الشاة المطبوخة نهضت وصارت تأكل العشب بأضراسها كناية عن عودتها إلى الحياة بعد ذبحها وطبخها.

ومن التشبيه البالغ قوله (٣٢٠):

مِـــنْ ذا القَـــوا في اليَـــسْبُكا ... بــي حــضور وبــي الخــشيه أم بكــا

فـــــوق ذُو المَحَامِــــد يلبُكَــــا ... آيَــــاتُو طَــــارُو اليَهْبُكَــــا

يَمْـــــــلا المُحِــــــبْ كَالتُّنْبُكَــــــه

سأل الشاعر مولاه عز وجل أن يُجلّي قلبه ليجوِّد القصائد في مدح الحبيب بوعي وحضور وشهود وخشية يصحبها البكاء (فوق) الرسول صاحب المحامد ويضرب طاره أو دفّه بفن وتجويد حتى يمتلئ المحب محبة فيصبح كالتنبكة، والتنبكة هي ثمرة نبات العشر وهي لمن رآها وعرفها أدق صورة للامتلاء، تتفوق على القربة والزِّق ونحوه مما يضرب به المثل في الامتلاء؛ لأنَّ امتلاءها طبيعي محكم قابل للانفجار لطراوتها وشدة امتلائها.

وقد رسم الشاعر لإبليس صورة ناطقة تعبر عن يأسه وخيبته في قوله (٣٢٢):

الوَصْــفُو مَــلأ الكُــونْ فَــرَحْ ... بِــي الخــيرْ حَــلّ ومَــا بَــرحْ

في الأرض والــسّمَا انطَــرَحْ ... وابَــي مَــرّه زم ايــدو ومَــرَحْ

صَـــاح في الجِنُـــود قَـــال ليهـــا أرَحْ

بوصفه (ﷺ) امتلأ الكون فرحاً وانطرح الخير في السماء والأرض ولم يغادرهما، فلمَّا رأى إبليس هذا الوضع الغائظ له أصابه اليأس وأحاطت به الخيبة فقبض يده وركض وصاح في جنوده بأن يتبعوه قائلاً لهم (أرح) فلك أنْ تتصور إبليس في صورة إنسان كان يعيث في الأرض فساداً فلما صدمه نور الرِّسالة يئس ولملم أطرافه ونادى أتباعه وانصرف، فهي صورة ناطقة نابضة وكناية بديعة عن زوال دولته بمجيئ هذا النبي الكريم.

وقريب من هذا تجسيده للخير الذي عمَّ والشر الذي انطوت صحيفته في قوله (١٨٣):

تَهَــــى مِلَّــــة الإشْــــرَاكْ ... والخــــيرْ أصْــــبَحْ رَاكْ

قَــــالْ للــــشُّرُورْ ورَاكْ ... لا تَعُــــودِي تَــــانِي أرَاكْ

جرد هنا الخير والشر في صورة إنسانين، الأوّل وهو الخير أصبح آمناً مستقراً مثل سرب الطيور الذي حطَّ (ركَّ) بعد أنْ كان طائراً، فلما أراحه وأعجبه هذا الاستقرار التفت الخير إلى الشر قائلاً. ارجع من حيث جئت لا تعد ولا أريد أنْ أراك مرة أخرى. فصور الخير في صورة إنسان وكذلك الشر وجعل الأوّل يخاطب الثاني ويحذّره كناية عن حلول الخير وزوال الشر.

وصورة الطيران هذه كثيرة في صور الشيخ لأنَّ الطائر من الصعب الإمساك به إلا أنْ يتحايل عليه بحبالة أو يرمى، لذلك حينما تحدّث عن بعض أيام الشدة التي مرّت بالمسلمين في بلاده دعا قائلاً (٤٦):

يَـــا الرَّسُــــــول أدْرِكْ   أُمّتـــك تِعْبــتْ كَــادتْ أنْ تُـــشْرِكْ

مِـــنْ عَـــدَم قُوتَـــا الغـــير مُتْعَجْـــرِك   والرَّخـــا شَـــلْوح في الوَطَـــا أبَـــى يَـــرِكْ

فجعل الرخاء في صورة طائر أفرد جناحيه للريح وابتعد عنهم ورفض أن يَحُطَّ. وقوله (شلوح) معناه طار بعيداً وخرج عن نطاق سيطرة الصائد وغيره، وهذا أشبه بقوله في قصيدة أخرى (٤٢):

أرْفَـــــــعْ المحَـــــــل   والغَـــلا الـــلازم قَـــارْنُو الوَحَـــلْ

غِيثنَـــا مِـــنْ غثــت الــصيدَه والفحـــل   بالرَخَـــا الطَـــار شَـــال خَـــتَّ في زُحَـــلْ

صورة معبرة عن المحل الذي أصابهم لأنَّ الخير طار وشال وارتفع وحطَّ أو (ركَّ) في زُحل... وهو نجم يُضرب به المثل في البُعد. ولا مُغيث إلا الله بحق من أغاث الصيدة وبعير الأنصاريّ.

ولمَّا رأى الشّاعر أن الطيران أبعد عنه ما يريد وما يرجو عظم هذا الفعل في نفسه فتمناه ليحقق ما لم يقدر على تحقيقه بقدرته العادية، فتمنى أن يطير هو أيضاً ليحقق ما يرجوه، فقال (٣٠٥):

رِيـــشْ لِـــي جِنَـــاحِي الـــنَّطِيرْ   لأرى مَقَـــامْ نبيـــاً عَطِـــير

ذُو العِفَّـــة والكّـــفْ المطِـــيرْ   خامِـــدْ لظَـــى امْ لهبـــاً بِطِـــيرْ

كَافِينَـــــا شَـــــراً مُـــــسْتَطِيرْ

أراد أنْ يكون طائراً موفور الريش ليطير فيرى مقام النَّبي العطير، والعطير قد تكون من صفة المقام أو من صفة صاحب المقام. وقطعاً ليس هناك ريش ولا جناح ولا طيران على الحقيقة وإنَّما هي كناية عن القدرة والاستطاعة والتوفيق ليصل إلى العَفيف صاحب الكف المطير وههنا صورة أيضاً لأنَّ جوده (ﷺ) كان كالمطر وأكثر ومن جوده إطفاء نار لظى ذات الشرر واللهب الذي يتطاير كأنَّه جمالة صُفْر.وصورة اللّهب المتطاير صورة حقيقية.

ولم يكتف الشاعر بإراشة جناحه كالطائر العادي، لا .. إنَّ ذلك لا يعادل ما في نفسه من عزم ولا يطفئ ما في جوانحه من شوق وإنَّما تمنى جناحاً بقوة ألف جناح، فقال (٢٦٦):

أبْقَى فِي الطَّاعات ماهِرْ وخَايِرْ وأكْثِرْ الانْفَاق لِي كُل زايِرْ
يَا كَرِيمْ سَوْ فِيْ رِيشْ ألْفِ طَايِرْ كَيْ أزُور مَلْجَاي نُور البّصَايِرْ

هذا الطائر الذي يعبر قارّات الدُّنيا رغم ما نراه من ضعفه وقلة جرمه لا يكفي شاعرنا جناح واحد منه بل يريد ريش ألف طائر منه، ولك أن تتخيل الصورة والقدرة المترتبة عليها لتقدر حجم أشواق الشاعر.

ولك أنْ تتخيل التصوير بوسائطه البلاغية المعروفة والتصوير بغير وسائط مطلقاً في قوله (٣٣):

الْوضُوعُو رَفَضْ الشّرك دِينُو، ولي مَراتبُو خَفَضْ
مِنْ زَوَايَا الكُون الشرورِ نَفَضْ جَاء بالخير ولي بَكَارْتُو فَضْ

وضوعه (ﷺ) جسَّده الشاعر في شكل إنسان، يرفض هذا الإنسان دين الشرك ويخفض مراتبه فالرفض تجسيد وتصوير، وخفض المراتب صورة، كأنَّ هذا الدين كان عالياً سائداً متمكناً له مكانة ومنزلة، فانخفضت هذه المكانة والمنزلة والمرتبة بميلاد الرسول (ﷺ).

ثم كوَّن صورة أخرى للكون فجعله كالثوب ونحوه فلما جاء هذا الميلاد كان كأنه إنسان أخذ هذا الثوب ونفضه مما فيه من الشرور كما ينفض الثوب من الغبار ونحوه من العوالق. ثم ركب صورة رابعة لهذا الميلاد وجعله كإنسان يحمل وعاء الخير الذي كان مختوماً مقفلاً فيفض ختامه ويفتحه كما تُفض البكّارة أو الختام ويفتح.

وللشيخ حياتي في تصوير مآثر الصّحابة صولات وجولات مررنا بكثير منها في المبحث الخاص بالصّحابة، ولكن لا بأس من وقفة هنا إذ ههنا موضع اختصاص.

ومن أجمل صوره في إشباعهم الطيور من لحوم الكفار قوله (٢٠٥):

صَحْبُو الفُوقُو تعكيفُم والله الجِهَادْ كيفُمْ
والحَدُّو الفَرَقْ سيفُمْ فَمْ الطَائِراتْ ضيفُمْ
كَفُّو شِتَا وخريف صيفُمْ

فأوَّل المقطع تصوير بارع بلا وسائط حيث جعل الصّحابة عاكفين على الرسول (ﷺ) يفدونه بأنفسهم. وأصل التعكيف الانحناء ومن ههنا تنشأ صورة الحماية والوقاية له بأنفسهم من أن يصيبه أذى. وانظر التصوير بلا أداة في قوله (والله الجِهَادْ كِيفُمْ) ليس هو واجب ديني ولا ركن من أركان إسلامهم فحسب، وليسوا مجبرين عليه ولا هو واقع مفروض

عليهم... هو راحة نفوسهم يأنسون به ويرتاحون له راحة (أهل الكيف) والمزاج. ولك أن تتصور الذي يقاتل مزاجاً وكيفاً.

ومن التصوير بلا أداة الشطرة الثانية (والحدُّو الفَرَقْ سيفُمْ) هذا السيف من فرط حدته فإنَّ ضربته لا يقف أمامها شيء من أعضاء الجسد عظماً أو لحماً ابتداءً من الرأس حتى يهوي إلى الفراغ الذي بين الرجلين وهذا هو (الفَرَق) ثم جعل الضيوف الذين يتكفل الصّحابة بإكرامهم صيفاً وشتاءً وخريفاً هم أفواه الطيور... شبه أفواه الطيور بالضيوف ورتّب على الصحابة إكرام ضيوفهم هؤلاء صيفاً وشتاءً وخريفاً من لحوم الكفّار... غاية الإبداع.

ووصف الصّحابة ميدان الشيخ حياتي الذي لا يسابق فيه، اقرأ معي قوله (٣١٩):

صَحْبُو الصِّمُود ما بِنَّسُوا   الطّاهِرِينْ مَاادَّنَّسُوا
ذِكْر الإلَه بِي أتْأنَسُوا   سَجُّوا الكُفُرْ مَا حَنَّسُوا
بالسِّيف لامَنْ ونَّسُوا

أصحابه السادة لا نقدر أبداً أنْ ننساهم، الطاهرين من الدّنس الحِسي والمعنوي. وههنا صورة. وكما وصفهم بأنَّ (الجهاد كيفُم)كذلك فإنَّ ذكر الإله هو أُنسهم... أمَّا سجَّ الكفر بالجيم المثلثة (المعطشة) فهي بمعنى صكَّهم وضربهم عنوة بلا هوادة ولا تحنيس، ضرباً بالسيف حاداً متوالياً متواتراً حتى يأنس به ويصير عادة. ويتجلى لطف الصورة هنا في جعله حركة التقاء السيف بالعظام والصوت الذي يصدر عنه ذلك بمثابة الحديث المتبادل بين السيف وما يقع عليه من أجزاء جسد الكافر. كما قال بعض معاصريه: (ما غيت سيرو لامن سرجو حادث قِدو) جعل شدّه لسير الرّحل والصوت الصّادر من احتكاك السير بالخشب كالحديث بينهما (والقِد بكسر القاف سير من الجلد).

ومن بديع تصويره قوله في حق الصّحابة (٤٩٧):

أصْحابُو الأسُود أرْواحَا مَا نَّابَا   في الله، والكُفر قَاطْعِينْ طَفَا النَّابَا
بِي سِيُوفاً حِداداً تاكُل أجْنَابَا   ورمَاحَاً تَشِيل الكَبْدَه في اشْنابَا

هذا والله الدِّيباج الخَسرواني... تأمَل بذل الصّحابة لنفوسهم بلا مَنَّ وقطع ذكر و(طاري) من يتشدد للكفر، بهذه السيوف التي من فرط حدتها تاكل جنبات أغمادها في حالة السلم، فكيف بها في حالة الحرب!؟ وكون السيف موصوفاً بالأكل فهذه صورة. أمَّا الصورة المحكمة الفائقة فهذه الرِّماح التي تخترق صدر العدو أو ما دونه قليلاً لتخرج من الجهة

الأخرى وقد صار لها شنب أو شارب وذلك لتعلُّق الكبد التي مزقتها على جانبي النَّصل. أصبح للرّمح شارب لأنَّه خرج من الناحية الأخرى للجسد وهو يحمل قطعة من الكبد على جانبيه فشبه الرّمح بإنسان له شارب وهذا تجسيد.

ولمَّا وقف عند وصف الكّرار خاصة، اختصه بصورة تشبه ما يُحكى عنه من فروسية وفراسة، وذلك قوله (٤٩٩):

كُـلْ واحـداً يقُـول أنَـا وَجْهُـو مـا بِيـهُ لِـمَ لا يَكْفِـي مَـنْ خَلَـطْ الحُـصَان بِيـهُ

هذه قوة عجيبة وصورة أعجب... تردّد الكفار من لقاء سيدنا علي (رضي الله عنه)، وكل منهم يحجم عن ملاقاته ويقول (أنَا وجْهُو دَا مَا بَدُورُو) وههنا صورة لأنَّ في الأسلوب كناية عن الخوف من مصير ملاقاته. ولم لا يخافون؟ ألا يكفيهم ما شاهدوه من منظر الفارس الذي خلط لحمه بلحم حصانه؟ وهذا تصوير لضربة فاتكة بشعة.

وله صورة أخيرة في الصّحابة هي عجب في إحاطتها وشمولها وعجب في أدائها وذلك قوله (٢٦٩):

مَـــوْلاي أرْضَ عَـــنْ أصْـــهَارُو قَايمْـــه الليْـــلِ صَـــايمْه نَهَـــارُو
الـــدِّين فَتَقُـــوا أزْهَـــارُو بَـــاحُوا دِمـــاءَهمْ لـــي إظْهَـــارُو

انظر دقة العبارة في قوله عن الصّحابة الراشدين الأربعة (أصهارو) لأنَّ الأربعة قد تزوجوا منه (صلى الله عليه وسلم) أو تزوج منهم فقد أصهر هو (صلى الله عليه وسلم) إلى أبي بكر وعمر في عائشة وحفصة رضوان الله عليهما وأصهر إليه ذو النورين وأبو الحسنين في أم كلثوم ورقيّة وفاطمة رضوان الله عليهن وعليهم. وهذه بلاغة العبارة التي تقوم مقام الصورة. أمَّا بقية الصورة فقوله (الدِّين فَتَقُوا أزْهَارُو) أي فتحوا أكمامها فجعل نشر الدين وإظهاره كتفتيح كم الزهرة وإظهار جمالها وحسنها.

ويلي الصّحابة في ترتيب هيكل القصيدة المادحة مقطع البرق ثم الصّلاة وفي كليهما صور لا تكاد تحصى ذكرنا أكثرها في مواضعها من مبحث البروق والصّلوات ولكن لا بأس من التبرك باليسير ثم الإحالة على الكثير.

ومن تصويره لأحوال البرق وأفعاله فيه قوله (٤٤):

البريـــــقْ خَبَّـــــتْ بِـي مَطَـارْقُو قِلِيْبِـي العيُـونْ صبَّت
الـــسَّفَر لـــي أرْض الحِجـــازْ حَبَّـــتْ رُوحِـي، والأقْـدَارْ ريحَـاً مَـا هَبَّـتْ

جعل البرق أنساناً يحمل (مطارق) وهي العصي الرقيقة اللّدنة ذات الضربات الموجعة فجلد بها قلب المحب، فسالت دموعه غزيرة كالمطر وههنا صورة يؤكدها الفعل (صبَّت) الخاص بالمطر. وأحبّت روحه السفر إلى أرض الحجاز لكن هنالك مانع وهو أنَّ الأقدار لم تهب ريحها وهنا صورة أيضاً لأنَّ الأقدار معنوية والريح حسيّة. أو كأنَّ الأقدار سفينة لم تهب لها الريح التي تدفع بها تجاه الحجاز. والخلاصة أنَّ المقادير لم تسمح.

ومن صور الوهن والضعف المعبرة قوله (٤١):

شُفْتَ جَاي ضَوَّن	البريقاتْ لَيْ، لَيَّ إنْ سَوَّنْ
حَشْحَشَنُّو حشاي والقلب كوَّن	ما فَضَلْ في الرُّوح إلا فَدْ تَوَّن

شبّه البروق بإنسان يحمل سكيناً يقَطّع بها أحشاء الشّاعر وناراً تكوي بها قلبه فلم يبق من روحه إلا خيط ضئيل، والتَّوُّ: هو الفتلة المفردة التي تبقى من فتلات الحبل، وأخوه: هو الزَّو وهو: الزوج. والصورة هنا في غاية الإبداع، ولك أنْ تتخيل حملاً مرفوعاً بحبل مكون من مجموعة فتلات، فتقطعت تلك الفتلات واحدة واحدة ولم تبق إلا فتلة يتعلق بها الحمل في الهواء... هذه صورة الدركان والمقبل على الهلاك وهي صورة ناطقة.

وكثيراً ما يجسد الشيخ البرق ويجعله إنساناً أو فاعلاً ما يفعله الإنسان (٥٣):

حال أخد رُوحِي بالقلب هرول	البريق وَلْوَلْ
لَوْ أبيح سِرْ سرِّي المقال بطولْ	حَشْحَشْ الأمعا والدَّمع جدولْ

فالوَلْولَة شأن الإنسان وكذلك الأخذ والهرولة وتقطيع الأمعاء، كل ذلك تصوير بالاستعارة كما مرَّ بك.

وها هنا صورة لطيفة وتعبير ألطف في قول الشيخ (٥٠):

البريقْ مزَّق في الدُّجَا ظَرْفِي	أسهر الطَرْفِ
رائِي مِنْ دَهْرِي أحْبَابِي نُوعْ صَرْفِ	آه ويَا أسَفِي وانْحِراف حرْفِي

هذا الرَّجل مُبدع، يتمثل لغة أهله وأساليبهم ولا يعجزه أنْ يأتي بها في نظمه في غاية الإسماح والإجادة... فالبرق هنا إنسان يمزِّق في الليل الحالك ظرف الشاعر وليكن ظرفه هذا هو حشاه أو صدره وكلها أوعية كما أنَّ الظرف وعاء. لكن الإبداع الحقيقي في قوله (رائي من دهري أحبابي نوع صرفِ) أي (شايف من دهري جنس طناش) هذا كما نقول (والله جنس قتاتة) يعني أنَّ دهره منصرف عنه أيَّما انصراف لا ينوِّله ما يريد، وههنا أيضاً تجسيد وتصوير للدهر في شكل إنسان.

وقد يصنع من البرق صورة في صلب القصيدة سوى ما اختص به من موضعه في هيكلها يختطفه اختطافاً يبدع فيه كما قال (١٨٣):

وكَتَـــبْ لَنَـــا الأعـــرافْ نَعتُـــو اقـــرُوا يـــا عُـــرَّاف
خَفَـــى سَـــايل الأطـــراف ضَـــيْ بَـــسْمَه الرَّفْـــرَافْ

هذا الرسول المنعوت في سورة الأعراف، أقرأوا نعته يا أهل المعرفة، هذا الرسول الّذي كان (سايل الأطراف) كما جاء في صفته عند ابن أبي هالة وغيره، هذا الرّسول إذا تبسَّم يخفي تبسمه ضي البرق الرّفراف وإخفاء نور الابتسامة لضياء البرق صورة.

أمَّا الصورة في الصَّلوات وخواتيم القصائد فحدثٌ ولا حرج، لأنها كالخرجة والخرجة يطلب لها الإحكام والتجويد والإصابة، قال في إحدى صلواته (٣١٣):

صَـــلَوَاتْ حَيَـــاتِي الرَّجَّحَـــتْ مَلَـــتْ الكَيَـــانْ فُـــوقْ سَـــبَّحَتْ
مِنْهَـــا القِلُـــوبْ اتْفَتَّحَـــتْ لِـــي مـــنْ عَنَاهـــا رَيَّحَـــتْ
والْمَنْـــشِي فُوقُـــو اشَّـــبَّحتْ

تفتح القلوب صورة، ولكن الإبداع في قوله (والْمَنْشِي فُوقُو اشَّبَّحتْ) فلن ينصرف ذهنك إلاَّ إلى صورة الأم من أي حيوان حين تفاجّ أرجلها لصغيرها ليرضع أو حين تحميه ممن يهجم عليه وهي صورة بليغة للرِّعاية أو الحماية اللتين أرادهما المنشي وهو الشاعر من بركات صلواته على الرسول (ﷺ)... وقال في أخرى (٤١):

الـــصَّلاة تَحَـــوِّفْ فُـــوق حَيَـــاتِي الجـــانِي ومتخـــوِّفْ
لـــي عِيُـــونْ قَلْبُـــو المظلمـــة تـــشوِّفْ تنجـــي والأمـــة ولـــي الـــبّلا تـــزوِّفْ

ومربط الفرس في قوله (لي عِيُونْ قَلْبو المظلمة تشوِّفْ) حيث ركب الاستعارة فجعل القلب إنساناً له عيون مظلمة يريد لها أن ترى. تماماً كما قال الحاردلو (عيون القلب من البصلحني رِمدن).

وعلى القافية نفسها يقول في قصيدة أخرى (٣٨):

الـــصَّلاة تَهَيِّـــفْ تنـــدِي أيَّـــامِي الباقيـــة لا تـــصيِّفْ
لـــي حيـــاتِي تَقِـــي تـــصُوبنْ وتليِّـــفْ مِنْهَـــا فِـــي الـــدَّارينْ أبْقَـــى مُتْكَيِّـــفْ

ولا تخفى الصورة في الأيام النّدية والتي (تصيِّف). كما لا تخفى الصورة في قوله (تصوبن وتليِّف) لأنَّ ذلك إنَّما يكون في الماعون. وحتى الكيف فإنَّه يكون بالحسيات لا بالمعنويات كما أراده هو هنا أو في صفة جهاد الصّحابة التي مرّت بك.

وكما يرى النّاظر فإنَّنا رغم ميلنا إلى التقليل من النماذج والإيجاز في التحليل لكن للشيخ براعة مدهشة في رسم الصور بكل أدوات البلاغة المعهودة بل تزدحم الصور في قصائد الشيخ فيكون المقطع كله تصويراً رغم خلوِّه من أدوات التصوير المعروفة نحو قوله (٤٩):

خَـــرَّف الـــصَيْفِ والهجـــير إنْ مَـــرْ يَنْقَلِـــب هَيْـــفِ

والعَجَـــبْ يُـــومْ حَـــلْ بِـــالعَرْشِ ضَـــيْفِ أكْرَمُـــو النـــافِي الكَيْـــفِ بِـــلا كَيْـــفِ

ليس في هذا المقطع تشبيه بأداة ولا استعارة ولا مجاز ولا كناية ولا أدنى وسيلة من وسائل التصوير ولكنك واجد في كل شطر منه صورة، فهذا القحط والجدب الذي تحول إلى خصب مثلما تتحول الأرض من الصّيف إلى الخريف. وهذا الهجير والسَّموم التي تنقلب إلى برد ونسيم عليل. وكان حلوله بالعرش كحلول الضيف الذي يهيأ له المكان ويُعدُّ له القرى ويعود بالإتحاف فأكرم به من ضيف. ثم انظر إلى وصف المولى بالنافي الكيف والهيئة وإكرامه له بما لا يتكيف ولا يتهيأ ولا يوصف. كل هذه هي صور بديعة وإنْ خلت من وسائط التصوير. ومثل هذا كثير وفير عنده رحمه الله.

الإشارات

الإشارات: واحدتها إشارة وهي ضرب من الكناية عن ذات، وقد أفردت مبحثاً كبيراً للكناية بنوعيها: الكناية عن ذات والكناية عن صفة، ولكن الإشارة أكثر اختصاصاً لأنها إما إلى الذات العلية أو ذات الرسول أو ذوات إخوانه من الرسل أو الملائكة أو أشخاص بأعيانهم، وقد أفردتها بالبحث لجمعها في صعيد واحد حتى يتبين الجانب التعليمي فيما اشتمل عليه الديوان من فيض المعارف التي يضيفها إلى حصيلة المتلقي. فنحن نعرف سيدنا موسى عليه السلام باسمه وهو موسى بن عمران، ولكن الشاعر قد يشير إليه بصاحب العصا أو صاحب الألواح أو المُلْقَى وغيرها مما ستراه مفصلاً في الحديث عنه، فتكون الإشارة إليه قد وسَّعت المعرفة به وعلمت المتلقي أموراً كان يجهلها في سيرته كان سيحرم منها لو أن الشاعر عمد إلى المشهور من اسمه فقط. وقس على ذلك بقية الإشارات الواردة في هذا المبحث.

وأول ذلك أن الشاعر يذكر الباري عز وجل بالكثير من أسمائه الحسنى التي نعرفها ولكن للقوم أسماء أخرى للذات العلية سوى المتعارف عليه عند عامة المتلقين. ومن ذلك قول شاعرنا(١٥٧):

يَمِـــين فَاقَـــتْ مَزَايَـــاهُ	الرُّسُـلْ مَـا شَـافُوا عَليَـاهُ
وَحِيــد الفخــر عِــنْ يَــاهُو	كَفَـــت في قَـــدْرُو رُؤيَـــاهُ

أقسم بأنَّ مزايا الرسول (ﷺ) فاقت على مزايا الرسل وأنهم لم يدركوا ما أدركه من المعالي فهو وحيد الفخر عندالله وأشار إلى المولى عز وجل بقوله: (ياهو) وهذا الاسم معروف في السريانية وهو من أسماء الله ولكنه غير شائع إلا عند الخاصة والدليل على أن رسولنا هو صاحب المقام الفاخر عندالله دون سواه هو أنه رآه عياناً وهذا ما لم يقع لأحد من الخلق وهذه الرؤية كافية للدلالة على قدره عند الله (ياهو).

وذكر الشاعر رسولنا بمعظم أسمائه المعروفة لدينا ولكنه فتح آفاقاً بالكناية عن الرسول وبالإشارة إليه ببعض ما يتصل بسيرته (ﷺ) فهو ابن قصي وابن معد وابن كنانة وغيرها ولكنه يضيف جديداً ويعلمنا حقائق أخرى حين يقول (٣٦١):

الْليلَــة لاحْ بَرْقَــاً لِــي سِــتْري هَاتِــكْ	طَرَّانِــي سُــوحَاً فِيــه ابــنْ العَوَاتِــكْ

فالرسول (ﷺ) هو ابن من شئت من الأكرمين من أجداده ولكنك تحتاج إلى وقفة تتعرف فيها العواتك من هنَّ؟ فتذهل حين تجد أنَّ الشاعر يشير إلى حديثه (ﷺ) في قوله: "أنا ابن العواتك من سليم". فالقارئ متى سمع بمثل هذه الإشارة فلن يهدأ له بال إلا إذا عرف

المقصود بها، ولا يصل الإنسان إلى تمام المعرفة إلا بلسان سؤول وقلب صؤول، وخير ما خوطب به الإنسان من ضروب الكلام ما دفع إلى البحث والتأمل وأفضى إلى الفائدة. وأصل العاتكة في اللغة: المرأة المُتَضَمِّخَة بالطِّيب ولا تفعل ذلك إلا كرائم النساء المنتسبات إلى كبار البيوت. والعواتك من سليم هن ثلاث من جدات الرسول (ﷺ): عاتكة بنت هلال أم جدَّه عبد مناف، وعاتكة بنت مرة أم جده هاشم، وعاتكة بنت الأوقص أم جده وهب أبي آمنة. والأولى عمَّة الوسطى، والوسطى عمة الأخيرة. قال ابن منظور: "والعواتك اللائي ولدنه (ﷺ) اثنتا عشرة؛ هؤلاء الثلاث المسميات، واثنتان من قريش، واثنتان من عدوان، وكنانية وأسدية وهذلية وقضاعية وأزدية" (لسان العرب: عتك، والسهل الممتنع للمؤلف: ص٧٠).

فلو قال الشاعر: طراني سوحاً فيه الرسول (ﷺ) أو سمَّاه بأحد أسمائه، لأفاد، ولكنه كان سيحرمنا من هذه الفائدة بذكر هؤلاء النسوة فأضاف إلى محصولنا ما لم نكن نعلم.

وقد يشير إلى بعض الرسل الذين يجمعهم سياق واحد فالمعروف أن أولي العزم هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم، وقد نجد الحديث عنهم مجموعين في أولي العزم وهو مشهور كثير ولكنه يبدع فيشير إليهم إشارة تخصيص فيقول (١٩٢):

فَهُو لِكلِ شَيْ منبعْ ... لِي أمْلاكْ السَّما تَتْبَعْ

غِيرُو منُو السَّرو الأربَعْ ... بِه مَنْ سلَّمُو النّشْبَعْ

فإنْ كانت لأولي العزم مزية وتقدم على بقية الرسل فإن لرسولنا (ﷺ) تميز وتقدم على أُولي العزم، وإلاَّ فمن منهم أسري به وعرج بالسلم ورأى الحق، هذا شرف لم ينله الأربعة وناله خامس أولي العزم وهو رسولنا (ﷺ). فلنشبع ولنتضلع من هذا الفخر.

وأشار الشاعر إلى جبريل عليه السلام بغير المعهود من أسمائه في قوله (٢١٦):

جُودُو البَاحِ ... قَصَرْ عَنُّو، الصَّبي قرْ باحِ

به، وشَافْ فَالِق الإصْبَاح ... بَعَدْ فَاتْ قَادة السُّبَّاحِ

هذا من نماذج التداخل الذي يحتاج إلى علامات الترقيم لبيان مواطن الوقف وحدود الجمل، فقوله (جودو الباح قصر عنُّو) أي لم يستوعب جوده الفضاء مع سعته، وقوله (الصبي قر باح به) أي الصبي أقَرَّ واعترف بأنه رسول. وقوله (وشافْ فالق الإصباح بعد فات قادة السباح) يعني رؤيته لله تعالى، بعد أن ترك الرسل والملائكة السابحين أو المُسَبِّحين وعلى رأسهم قائدهم جبريل تركهم وراءه عند سدرة المنتهى ومضى هو (ﷺ) فرأى ما لم يروا. والإشارة هنا في قوله(قادة السُّبَّاح) وأراها قائد السّباح، فإن كان السابحون هم الملائكة كما ورد في صفتهم

فإن قائدهم هو جبريل فتكون الإشارة إليه. وأشار إليه وكنى عنه بوصف أشبه بهذا لم يتكرر عنده كثيراً في قوله(٣٥٠):

عِلْـم القَلَـم واللُّـوح مِـنْ علمُـو فَـاعْلَمْ أصْـبَر أُولِـي العَـزْمِ وأزْهَـدْ وأحْلَـمْ

وارْفَـع قَـدُر وارْجَـح واعْظَـمْ يَـا أبْلَـمْ طَـاوُوس جنُـود الله في غَـايْتُو مَـا لَـمْ

فقوله (طاووس جنود الله) يعني جبريل عليه السلام وهو رغم هذه العظمة لم يدرك غاية الرسول (ولا لمّ فيها). بل كان دليله وخادمه كما قال (٢٠٢):

جَبْرِيـلْ دَلِيلُـو وخَـادِمْ جَنَـابُو ومُرْسَـالْ جَلِيلُـو

مَـا فَـاتْ السِّدْرَة قَـطْ يَـا خَليـلْ زُجَّ وأتَـى آيـبْ فِي جُـزء لِيلُـو

وأوضح منها ويعضدها قوله (٢٥٤):

كَـانْ سِـرَاهُ لِمَـنْ هُـو يَـالفَخْرُ عَجيـبْ لَـمْ نميِّـز كُنْهُـو

حَـقْ تَقَهْقَـرْ عَنْـهُ الْـوَحِي، وأخِـي لمَّاجَـا اسـتَأذَنْه

فالذي تقهقر وتراجع عن الرسول (ﷺ) ليلة الإسراء هو جبريل لأنه لو تجاوز سدرة المنتهى لأحرقته أنوار سبحات وجه الله. وصرَّح به في قوله (الوحي). ويعضده قوله(٣٤٤):

مِـنْ سِـدْرَة الغَايَـاتْ جِبْرِيـل فُرَاقُـو لمعَـزْ عُـلا مَرْقَـا مَـا الرُّسُـلِ رَاقُـو

ثم ترك ذلك وأشار إلى ملك آخر وهو عزرائيل المكلف قبض الأرواح فإنه لما حانت وفاة الرسول (ﷺ) دخل عليه مستأذناً ومخيراً له في البقاء أو الانتقال فاختار الرفيق الأعلى، وهذه من خصائصه (ﷺ) التي لم يشاركه فيها رسول فقال: (وأخي لما جا استَأْذَنْه) يعني وأخيه عزرائيل يريد أخا جبريل في الملائكة. وأكدها شاعرنا عليه رحمة الله ورضوانه في موضع آخر في قوله (٣٤١):

بالكُـلْ رَجَـحْ وَزْنَـكْ والكُـلّ تَحْتَـكْ يَالخُلْقَـكْ القُـرآن قَـارِنُّو نَعْتَـكْ

بِـالإذْنِ خَـشَّ عَـلاكْ مَـنْ جَـا لمُوْتَـكْ قلْـتَ الرَّفِيـقْ الأعْلَـى بَعَـدْ بُـشْرْتَكْ

ما أبصر هذا الرجل وما أدق نظره وما أروع تعبيره. فقوله (بالإذن خش علاك من جا لموتك) أراد عزرائيل. فأشار إلى هذين الملكين الكريمين بأكثرمن إشارة.. رحمه الله.

أمَّا الإشارات إلى الرسل فحدِّث ولا حرج، وفيها من الفوائد، ما ستراه، فسيدنا موسى عليه السلام كما تقدم هو موسى بن عمران ولكن الشاعر في كل مرة يشير إليه بغير اسمه الصريح وفي كل إشارة إضافة جديدة لمعارفنا عن موسى عليه السلام، نحو قوله (٣٧):

أحْـسَنْ الخِلقـه وأحْـسَنْ الخُلـق رَام لمـا القَـالّو المُـسْتَعَان ألِـق

وهنا فوائد، الأولى أن المشار إليه هنا موسى عليه السلام الذي قال له المولى المستعان في قصته مع فرعون والسحرة(أن ألقِ عصاك) هذا الرسول الجليل من أنبياء بني إسرائيل وهو من أُولي العزم ومع ذلك تمنى أن يكون من أمة محمد (ﷺ) لما علم من فضلها في الحديث الذي خَرَّجه أبو نعيم عن أبي هريرة وذلك أن موسى وجد في التوراة صفة أمة هم الآخرون والسابقون، أَنَاجِيلُهُم في صدورهم يأكلون الفيء يؤتون العلم الأول والآخر ويقتلون المسيح الدجال...إلى آخر الحديث فتمنى على الله أن تكون هذه أمته فقال شاعرنا (رام لِماً) أي تمنى (لِمَاهُ) أي: الاجتماع به من (اللِّيم) وهو ضد الفراق عندنا.

وقد تكرر هذا المعنى كثيراً في ديوان الشيخ حياتي (١١٠):

مَــنْ الــرّام لِيمُــو مَــنْ ألقــو	بــرا، وصَــارْ لِــي البَــدُر فَلقُــو

أي من الذي تمنى الاجتماع به من ألقي في اليم غيره (براه) (ﷺ) كما نقول في عاميتنا. وانفلق له البدر... هو رسولنا (ﷺ). والمشار إليه هو موسى عليه السلام وكررها مرة ثالثة في صيغة قسم قائلاً (٣٢٩):

وأكْــرَمْ وأفْــضَلْ الخَلــقِ	يَمِــينْ رامْ لِيمُــو مَــنْ ألْقِــي

أي من ألقي في اليمّ خوفاً من فرعون وجنوده الذين كانوا يقتلون الصبيان المولودين مخافة ظهور النبي المرتقب وهو موسى فنجاه الله ثم بعثه فيهم.

وأعاد رغبة موسى في لقاء رسولنا (ﷺ) بإشارة مختلفة هذه المرة حيث قال (٢٨١):

رَامْ لِيمُــو صَــاحِبْ الأربَعِــينْ	والــصَّاحْ بِكــى مِــنْ غــير عِــينْ

فصاحب الأربعين الذي تمنى أن يكون مع رسولنا (ﷺ) هو موسى عليه السلام يشير إلى ما جاء في القرآن الحكيم: (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) (البقرة، آية ٥١).

وضم إليها هذه المرة إشارة إلى شيء آخر فزع من فراق رسولنا (ﷺ) وهو الجذع الذي بكى بلا عين ولا دموع كما ورد في الحديث وفيه بكى وخار وشهق وحنَّ وأنَّ إلى آخر الحديث.

وبكل البراعة والتفنن والتجويد والإبداع ذكر الإشارتين بتمامهما في قصيدة أخرى وبأسلوب مختلف فقال(٢١٦):

رَامْ لِيمُــو البكَــا نَــوّاح	كَمَــا رام صَــاحبْ الألْــوَاحْ

عكس هذه المرة فجعل الجذع الذي بكى خوفاً من فراق الرسول وحرصاً على ألا يفارقه أشبه بصاحب الألواح وهو موسى عليه السلام مشيراً إلى قول الله تعالى: (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى

الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ) (سورة الآعراف، الآية ١٥٤).

وظل يذكر (طالب اللِّيم) وهو موسى عليه السلام وينوّع في ذلك فقال مرة (٢١٩):

رامْ لِيمُـــو شَـــقيقْ هَـــارون خـــصص بالتِـسعَة والعِـشْرون

وشقيق هارون هو موسى كما هو معلوم.

وأشار إليه أيضاً بمضمون آية أخرى في قوله (٣٤٠):

بِقَبُـول ثَنَـائي عَليـك لِيـلْ أوْ نَهَـاراً يَـا الْفُقْـتَ نُـوح والقَـالْ آنـستُ نَـاراً

والذي قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً هو موسى عليه السلام يريد قول الله تعالى: (امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى) (طه، آية ١٠). وأشار الشاعر إلى موسى أيضاً بإشارة مستقاة من سيرته وهي قوله في وصف ذات النبي (ﷺ) (٣٦٧):

خَلْفَهَـا الأمْـلاكْ تَمْـشِي يَـا عَمـرَاً فَايقـه عِيـسَى ومَـنْ أُلقـم الجَمْـرَا

والذي أُلقم الجمر هو موسى عليه السلام في واحدة من اختبارات رسالته، وصرح بموسى في موضع آخر ولكنه أشار إلى شيء ذي صلة به يتعلق بالإسراء والمعراج(١٦٢):

في الـــبرَاقْ والمقـــدس مَحَبَّتْنَـــا والعِـــرُوجْ أقـــوالْ مُوسَـــى سَـــرَّتنا

فقوله (أقوال موسى سرتنا) إشارة إلى حديث الإسراء والمعراج لأن الصلاة المفروضة كانت خمسين صلاة، فقال موسى لرسولنا (ﷺ) ارجع إلى ربك واسأله التخفيف فإن أمتك لا تستطيع ذلك فصار الرسول يتردد بين ربه وموسى حتى عادت خمساً ولها أجر الخمسين بفضل الله ومنّته. فإشفاق موسى على أمة محمد هو الأمر الذي سر الشيخ حياتي وهو سارٌّ حقّاً. وهذا ما أشار إليه بالتفصيل في قوله (٣٥٣):

مِـنْ بَعَـدْ مَـا شَـافَتْ عَيْنـا العَلِـيمُ وَرَجَـــع إلى التَّخْفِيـــفْ رَدَّ الكَلِـــيمُ

رِفْقَـــاً بِقُومُـــو وحُبَّـــاً في الحَلِـــيمُ وتمتّعـــاً بِـــي ذَاتُـــو وبُغْيَـــه لِيمُـــو

أي بعد تمتعه برؤية العليم جل وعلا، وقد أعطاه ما أعطاه، وفرض على الأمة المحمدية خمسين صلاة، فرجع (ﷺ) ولما مر على موسى عليه السلام سأله: ما فرض ربّك على امتك؟ قال: خمسين صلاة. فقال موسى: ارجع إلى ربك واسأله التخفيف... إلخ الخبر. فعل موسى هذا رفقاً بأمة الحبيب (ﷺ) ورغبة في التمتع بصحبة هذا الرسول متمنياً مبتغياً أن يكون من أمته.

ومما له صلة بموسى عليه السلام وأشار إليه شيخنا (٥٣١):

نَجَّـــا الَّـــذِي أَلْقُـــوا ﴿ فِي النَّـــارِ ومَـــنْ أَلقُـــوا

فالذي ألقوه في النار هو سيدنا إبراهيم عليه السلام وسيأتي، أما (من ألقو) فهي أحد أمرين: إما موسى عليه السلام وقد ألقوه في اليم، كما مر، أو السحرة لأنهم لما ألقوا حبالهم وسحروا أعين الناس ثم هزمهم موسى بعصاه آمنوا برب موسى فهددهم فرعون بصلبهم في جذوع النخل وتقطيعهم من خلاف فنجاهم الله وهذا أقرب عندي لمراد الشاعر والله أعلم.

ويقويه قوله (٢٦٨):

لَـــوْلا مَـــا البَحَـــر صَـــار فَلْقُـــو ﴿ لِـــي مُوْسَـــى وخِـــروج الأَلْقُـــوا

لأنَّ السحرة لما آمنوا برب موسى وهارون غاظ ذلك فرعون فهددهم كما ذكرنا فخرجوا وهذا معنى قوله (خروج الألقوا).

فانظر - رحمني الله وإياك - كم فائدة أمتعنا بها الشاعر الذي لو أضرب عن الإشارة واكتفي بالاسم المشهور وحده لموسى عليه السلام لحُرِمْنا من هذه الفوائد. وهنا تكمن فائدة فن الإشارة المستفيض عند المداح العلماء وقد برع فيه الشيخ حياتي عليه الرحمة والرضوان.

وصنع الشيخ حياتي مع الذبيحين إسماعيل وعبدالله ما صنعه مع سيدنا موسى وإخوته من الرسل كما سيأتي، فرسولنا (ﷺ) هو ابن الذبيحين وهذه في حدّ ذاتها إشارة كما في قوله(٤٧١):

ويـــنْ مِثْـــل الرَّسُـــولْ ابْـــن الـــذَّبِيحينْ

وأشار إليهما مجتمعين في قوله (٥٧):

قُـــولُ أَبُـــو الأَيْتَـــامْ والمـــسَاكِينْ ﴿ كَـــفَّ عَـــن أبْواتُـــو الـــسَّكَاكِين

يشير إلى جده إسماعيل بن إبراهيم الخليل في القصة المشهورة، وإلى عبدالله بن عبدالمطلب والده في نذر أبيه المشهور.

وقد يفردهما فيذكر أحدهما كما قال(١٢٨):

عَمِـــيمْ جُـــودُو الْـــبر فَـــتَح بَـــاب غَلْقُـــو ﴿ ونَجَّـــى أجْـــدَادُو الـــذَّبِيحْ والأَلْقُـــو

والإشارة واضحة هنا إلى جده إسماعيل الذبيح وجده إبراهيم الذي ألقي في النار فصارت برداً وسلاماً إكراماً لهذا الرسول المنسُول من سلالتهما.

وذكرهما بصيغة الواحد ولكن أرادهما معاً في قوله (٢٠٧):

ألـــصقْ إيـــدْ وَدْ عَفْـــرَا ﴿ وودْعَتِيـــكْ وخُبِيـــبْ والفـــدي مِـــنْ الـــشَّفْرَة

وإلصاق يد معوذ بن عفراء وجبر كسر رجل عبدالله بن عتيك واعتدال صف خبيب بعد الشلل الذي أصابه كله معروف، أما (الفداه أوالفُدِي) من السكين فهو إما أبوه عبدالله أو جدَّه إسماعيل، كلاهما وارد ومحتمل.

وكل ذلك يدخل في اعتقاد الشيخ واعتقادنا بأن كل إكرام صار للسابقين الذين نسل منهم رسولنا (ﷺ) إنما هو إكرام لرسولنا الكريم الذي سبقت له من الله العناية. يتجلى ذلك في مثل قوله(٣٤٣):

لِمْ لا وَهْو النَيَرانْ بِبيَانَا غَالِقْ لَوْلاهُ مَا الخَالِقْ للأشْيَا خَالِقْ

فنجا به إبراهيم ولابنو طالق وكذاك صاحب الجب ولموسى فالق

فجعله (ﷺ) سبباً للوجود وتكوين الأشياء، لذا كانت نجاة جده إبراهيم من النار بفضله ثم أشار إلى الذبيح إسماعيل الذي أطلقه أبوه بعد أن أسلما وتلّه للجبين ثم أشار إلى (صاحب الجب) وهو سيدنا يوسف كما سنفصله. وجعل فلق البحر لموسى فرقين حتى صار كل فرق كالطود العظيم من أجل رسولنا أيضاً. والإشارة إلى (ابن إبراهيم) وهو إسماعيل عليهما السلام تكررت في مثل قوله (٣٤٧):

نَجَّا الخَلِيلْ وابْنُو وبِي عِيسى رَفَعُو والمْتَقَمْ وأيُّوب بِي بَلاه دَفْعُو

فابن الخليل هو إسماعيل الذبيح وهو موضع الإشارة. وستأتيك الإشارة إلى سيدنا يونس بالملتقم كما ههنا وفي أشباه لها. غير أني انبّه القارئ الكريم إلى أن رسم العاميَّة في الديوان أحياناً مما يمكن أن يقلب المفهوم رأساً على عقب إذا لم نحكم التَّدبّر؛ فرسم (بعيسى رفعو) هكذا تجعل رفع الرسول بعيسى وهذا محال وإنما مراد الشاعر (وبي عيسى) أي (وبه عيسى رفعو) أي برسولنا كان رَفْعُ عيسى وهكذا يستقيم. ومثله تماماً(أيوب ببلاه رفعو) وإنما هو (دفع بلاه به (ﷺ) فيكون (بي بَلاه) أي (به بلاه اندفع) فتأمّل! وقد أفردت باباً لمثل هذه الدقائق.

وعمم في أمر الذبيحين أيضاً كما مضى فقال(٣٧٠):

كفُّو أرْوَى القُومْ وألْصَقْ المقْطُوعْ عَافَى كَمْ مَسْقُومْ

ثُمَّ وَالمَيِّتْ إنْ دَعَاهُ يَقُومْ والخَلِيلْ نَجَّا وكَمْ فَدَى حَلقُومْ

فقوله (كم فدى حلقوم) مثل قوله (والفدا من الشفرة) تنصرف إلى جده إسماعيل وأبيه عبدالله وكل من كانت حاله كحالهما، فقد فدى حلقوميهما من السكين أي من الذبح بها.

ويكتمل حديث الذبيحين بحديث سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام فهو والد أحدهما، وقد أشار إليه الشيخ بإشارات عديدة سوى التصريح باسمه إبراهيم ولقبه الخليل، فقال ذاكراً أشهر ما عرف في سيرته وهو إلقاؤه في النار من قبل أعدائه المنكرين رسالته (٤٤٥):

يُـونِسْ مَـا نَجَـا لَـوْلاهُ والألْقُـو   في النَّـار، والبَحَـرْ لِـي مُوْسَـى صَـارْ فَلقُـو

وواضح هنا أن (الألقو في النار) إشارة إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام، أردفها بقوله في قصيدة أخرى (٥٣١):

نجَّـا الَّـذِي ألْقُـو   في النَّـارِ ومَـنْ ألْقُـو

فالأول هو إبراهيم عليه السلام والثاني مر بنا في حديث موسى عليه السلام.

ويوردها بصفة مختلفة في قوله(٣٣٦):

عَلَـى ذِي الرَّاحَـة الطلقـه   الأفـاق في الخُلـق والخلقـه

عِمُـومْ الرُّسُـل لا الملقـى   شَـبِيهُو الكـون ويـنْ بِلْقَـى

فهو (ﷺ) فاق عموم الرسل في الخلق والأخلاق إلى (الملقى) وهو إبراهيم عليه السلام وقد يتبادر إلى الذهن أن الملقى قد يكون (موسى) عليه السلام فهو أيضاً أُلقي في اليم ولكن ينفي ذلك ويؤكد أنَّ المشار إليه هوسيدنا إبراهيم قوله عن ذات النبي (ﷺ) (٣٦٧):

فايقـه عيـسى ومـن ألقـم الجمـرا   نـوح ويـونس والملقـى في الحمـرا

فالملقى في الحمراء - وهي النار - هو سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام.

ويشير إلى سيدنا إبراهيم أيضاً بما وصفه به المولى عز وجلّ في القرآن فيقول(٣٩١):

الفَـاْق عَلَـى مُوسَـى الكَلِـيمْ   إدريـسْ وهَـارُونْ والمِلِـيمْ

وإسْـحَاق وَلِـي أبْ قَلْبَـاً سَـلِيمْ   عِيـسَى ونُـوحْ والرُّسُـلْ لِـيمْ

أراد أنه فاق الرسل أجمعين بمن فيهم إبراهيم عليه السلام وهو المشار إليه بقوله(أب قلباً سليم) أخذها من قوله تعالى: (وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ❁ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) (الصافات، ٨٤).

وأعادها في قوله (٥٣٣):

كَوْنُـو الواسْـطَه الحَلِـيم   الـرَّام لِيمُـو الكَلِـيمْ

نَـجَّ أبْ قَلْبَـاً سَـلِيمْ   وإسْـمَاعِيل والمِلِـيمْ

فالكليم هو موسى كما هو مشهور (وأب قلباً سليم) هو ما أشار إليه وهو سيدنا إبراهيم، ثم ذكر إسماعيل الذبيح صراحة وأشار إلى يونس بالمليم كما سيأتي.

ويشير إليه إشارة مفيدة في قوله(٨٩):

فَـــــاتِح الأقفـــــــالِ　　الخُـــــصّ بالأنْفَــــــالْ

يَــــا وحـــسن الفَـــال　　فَـــاق يَـــا ذا الأقْفَـــالْ

كافـــــــــل الأطفـــــــــال

وكافل الأطفال هو سيدنا إبراهيم الخليل يشير بذلك إلى حديث الإسراء والمعراج وأنه لما أُسري به (ﷺ) وجد إبراهيم الخليل مسنداً ظهره على جدار البيت المعمور وحوله أطفال المسلمين يتعلمون.

وأشار عليه رحمة الله إلى يونس بن متَّى عليه السلام بإشارات عديدة منها الملقوم والملتقم والمليم وذو النون وغيرها؛ جاءت الأولى في قوله (١٤٦):

لَـــوْلاكْ مـــا نَجَـــا المْلْقُـــومُ　　وإسْـــمَاعِيل فَـــديتْ حَلقُومُـــو

والملقوم هو الذي التقمه الحوت كما هو معروف، وهو الملتقم أيضاً وقد جاءت في قوله(٢٨):

المنتقـــــى حَـــالِي الـــنّغمْ　　مـــا سَـــاء قـــطّ ولا انْـــتَقَم

أنـــف الـــشِّرك بـــالحق رغَـــمْ　　نجِّـــى الخَليـــل والملـــتقَمْ

والمعلوم أن سيدنا يونس قد ابتلعه الحوت ثم نبذه في العراء وهو مليم كما جاء به القرآن، فأخذها الشاعر وقال في معرض مدح النّبيّ (ﷺ) (٣١١):

وهـــو إلبـــه انَّبـــذ الملـــيم　　وهـــو الـــشفيع يومـــاً ألـــيم

يعني به وبفضله (ﷺ) صار نبذ يونس من بطن الحوت. وإلى الحوت هذا ينسب سيدنا يونس فيقال ذو النون أي صاحب الحوت، وقد جاءت عندالشيخ في قوله(٣٢٨):

تـــسع للعامـــة أخلاقـــو　　وفـــاتح الـــبر مغلاقـــو

ويعقـــوب وابنـــا اتلاقـــو　　وبـــه ذا النـــون إطلاقـــو

فجعل نبذ النون يونس عليه السلام وهو قذفه في العراء جعله إطلاقاً له لأنه كان حبيساً في جوفه؛ لذلك قال في موضع آخر(١٨٢):

لـــولا الأجـــرو غـــير ممنونـــو　　يـــونس مـــاخرج مـــن نونـــو

وورد ذكر سيدنا يوسف كثيراً خصوصاً في مقام ذكر جمال النبي (ﷺ) الذي كان يفوق جمال يوسف عليه السلام. ولكن ذلك لم يمنع من أن تقع الإشارة إليه في مقام الجمال بأشياء أخرى منها قوله (٤٣٢):

أكحـــل الململـــح بنيـــامين مـــن شـــقيقو اسمـــح

فشقيق بنيامين هو سيدنا يوسف ورسولنا كان أسمح وأجمل منه. فذكرنا بإخوة يوسف وخص بنيامين لأنه أخوه الشقيق دون سائر إخوته وهذه فائدة. وكان من خبر إخوة يوسف كما حكاه القرآن أنهم ألقوه في غيابة الجب ووردت الإشارة إلى ذلك في قول شاعرنا (٣٤٣):

فنجا به إبراهيم ولابنو طالق   وكذاك (صاحب الجُبْ) ولموسى فالق

فنجا بجاهه وبركته وكرامته صاحب الجب وهو يوسف عليه السلام. وقد كانت له في حياته أحداث مؤلمة منها قصته مع امرأة العزيز والتي كانت سبباً في سجنه، وكان من خبرها أنها راودته عن نفسه فلما أبى وأراد الانصراف جذبته من قميصه فانقدّ من ظهره (دبره) فكان ذلك برهاناً على براءته كما فصلها القرآن في سورة يوسف، فالتقطها شاعرنا وقال(٥٤٢):

جُبِل في طينتُو الصّبر   وفاق من قُدَّ من دُبر

أي فاق في الجمال من قُدَّ قميصه من دبر، زاحمه الشعر فحذف لفظة (قميصه) وهي مشهورة وإن كانت البلاغة لا تأباها حتى على هذا الوجه من باب المجاز المرسل بذكره المحل وإرادة الحال.

وأشار إلى سيدنا نوح بأكثر من إشارة فقال(٦٣):

وأصَل الجيران ثُم وارْحَام   فَايق الأرسال لا أبوحام

أي فاق المرسلين إلى نوح عليه السلام وهو أبو حام وأبو سام.

واشتهر نوح عليه السلام بصنع السفينة وهي ذات الدسر كما في قوله تعالى (وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ) (القمر، آية ١٣) فأخذها الشيخ حياتي ونسب الدسر إلى نوح لأنه جالِبُها فقال (١٧١):

نَبْيَاً ذاتو بتَسُر   فاق موسى وذا الدُّسر

فصاحب الدسر هو نوح عليه السلام وأشار إلى شعيب وهود عليهما السلام في قوله(٣١٤):

أدنيني ربٌّ من البعاد   بالفاق أخا مدين وعاد

يشير إلى قول الله تعالى (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا) (الأعراف: ٦٥) وقوله (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا) (الأعراف: ٨٥) فتبين أنَّ أخا مدين هو شعيب وأخا عاد هو هود عليهما السلام وفيه ربط لكل نبي بقومه وتذكير بذلك.

وذكر يحي وعيسى عليهما السلام وأضاف فائدة كبيرة بأنهما أبناء خالات فقال مرة (٢٤٦):

نحمـــــده فيـــا فـــتين عـــد مـــلأ الـــسبعتين

برحيـــــب الـــــرّاحتين ســـيد ابنـــا الخـــالتين

و(ابنا الخالتين) هما عيسى ويحي، وأعاد ذكر عيسى مشيراً إليه بقوله (٢٥٤):

البـــــدور مـــــن محيـــــا تــستحي الفـاق زهــدُ ابـن خالــة يحيــى

وابـن خالـة يحيى هـو عيسى وكـان عليـه السلام مـشهوراً بالزهـد وزاد عليـه نبينـا في ذلك.

ولم ينس شيخنا الصحابة، فحين مرَّ بسيرة سيدنا علي رضي الله عنه التقط منها ما يشير به إليه حين ضايقه النظم عن ذكر اسمه صريحاً فقال(١١٤):

ومـــنْ صـــارت العُقـــاب رايْتُـــو إلهـــي أجمعـــني في حمـــايتو

ومعروف في سيرة الرّسول (ﷺ) أنه كان يسمي أشياءه بأحسن التسميات فسمى ناقته القصواء وفرسه الظرب وعصاته الهراوة وعمامته السحاب ورايته العقاب وقد أهداها لعلي (رضي الله عنه) وكانت سوداء فصارت رايته، فهذا معنى قوله (ومن صارت العقاب رايتو) أي علي عليه السلام.

وأبدع حين جمع المعجزة مع الإشارة في قوله عن علي رضي الله عنه (٢١٩).

يَظِلُّـــو الغـــيمْ سَـــقَى الظـــامونْ شَـــفَى عـــينْ راكـــبْ الميمـــونْ

ومعلوم أن الميمون هو حصان سيدنا علي، قال الشريف الهندي وله مع حياتي مساجلات:

الميمُـــون حـــصانك وانـــت عاليـــه شـــايلْ ذُو الفقـــار والعـــزم ماليـــه

وأشار إليه إشارة لطيفة مضمِّناً ما قاله يوم استشهاد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وذلك قوله (١٤٨):

لـــــــيشْ ســـــــلمان أنــــسى ووالـــد الغلمـــان

والقَـــال يـــوم وفـــاة عُثمـــان النَّـــاس هَـــمْ وأنَـــا همـــان

وهـذا مـن أقـوال الإمـام علـي رضـي الله عنـه المشهورة في ذلـك اليـوم العـصيب. وهـذه فائـدة تاريخية.

ولما مرَّ الشيخ رحمه الله بحليمة السعدية مرضعة الرسول (ﷺ) لم يذكرها باسمها وإنما أضاف فوائد بالتلميح والإشارة، وله فيها وفي زوجها وابنها وبنتها الشيماء كنايات أوردناها في مبحثها نضيف إليها إشارته إلى حمارتها بأسلوب كالكناية في قوله (٣٨٨):

أسَــعد الأُمـــة واســـعد حليمـــةْ   شــــاتَا زَانَــــا والفَرَطَـــتْ ســــليمةْ

واخـــصب أغنامــا وأَغنَاهَـــا ليمــا   بـــالولُود أفـــرح صـــاحب الوليمـــةْ

فالتي فرطت سليمة هي حمارتها التي كانت عرجاء وهذه إشارة، ولا تفوتنك الإشارة المهمة في قوله (صاحب الوليمة) وهو جده عبدالمطلب الذي لما بشّر به فرح وأعتق وعقَّ وأولم وأطعم. وهذا فيض من السيرة غزير أضافه لنا منهج الإشارة الذي اعتمده الشيخ عليه الرحمة.

وأشار إلى جماعة كانت آذت الرّسول (ﷺ) فأعمى الله أبصارهم؛ منهم أم جميل امرأة أبي لهب والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود الكلبي وأبي بن خلف... وذكر أم جميل وهي حمالة الحطب صراحة في قوله:

أُمْ جَمِيـــــــلْ عميـــــــتْ   والاعْـــــدا يـــــوم رميـــــتْ

واستخدم الإشارة إليها في قوله (٣٣٠):

جـــــراده أســـــرار مكــــشوفة   ومــــن آبـــت بـــلا شــــوفا

فالتي أتت مبصرة ورجعت بغير بصر هي أم جميل حين أعماها الله من رؤية الرّسول وهي تحمل حجراً تريد أن تَهْتِمَه به. وقد مرّ به الشيخ صراحة في قوله (٥٤١):

كـفّ شـوف حمّالـة الحطـبْ   كالـــشَّمس عـــادَ الانـــشطبْ

وقد جعل ذلك من معجزاته حين عددها فقال (٣١):

مُعْجِزاتُـــــــــو عَيَـــــــــتْ   مِنَّهـــا غلمـــان جـــابر وشـــاتو حيَـــتْ

صـــاعو والأقـــراص والـــذي عميـــت   والبـــدور والأيكـــات ومـــن دَمِيَـــتْ

فقوله (الذي عميت) هي أم جميل حمالة الحطب امرأة أبي لهب. و(من دَمِيَتْ) إشارة إلى الجروح التي داواها.

أما المجموعة التي سميناها سابقاً من عتاة قريش ومعانديها فهم الذين أشار إليهم بقوله (٥٢١):

والعَمَــــــــى عِيُـــــــون الأسْـــــــفلِين

يعني المتمادين في الباطل الذين ذكرهم وذكر فعلهم ومصيرهم في قوله(٧٧):

بالـــــصّخْرَتين حَكَـــــــى   الإحيـــــا والرَّحكــــــا

والْعـــــينْ واليَـــــدْ الزحْكـــا   والبَّــــــاضْ كَـــــاللّحكى

وعَمَـــــــى أعْـــــــيُن الــــــضُّحكا

وسيمر بك المقطع مفسراً في موضعه ومرادنا منه هنا العمى الذي أصاب الهازئين الضاحكين عليه ممن تقدم ذكرهم.

وأشار إلى حوادث وأشخاص ذكرها أصحاب السّير كابن هشام في مثل قوله (٣٦٥):

أخْبر بموت الغَائبينْ والعِير جَواب الكَاتبين

وقوله (٣٩٤):

بِي العِير وبِي موت القصو أخبر صحيح شافع العصو

وقوله (٤١٥):

قد أتى سَمْح الصِّفاتِ كالّه عنه الواصفاتِ

كالشُّهب أحيَا الرِّفات أنبا بالعِير والوفاة

وخلاصة ما في الأبيات السابقة أنها إشارات إلى حوادث بأعيانها معروفة منها موت رفاعة وعبدالله بن رواحة والنجاشي وكسرى والأسود العنسي وغيرهم كل ذلك خَبَّر عنه النبي (ﷺ) فأشار إليه هنا بقوله (الوفاة - موت القصو - موت الغائبين) (السيرة الحلبية: ٣٩٤/٣).

ومن بديع مقاطعه التي جمع فيها بين الإشارة والكناية عن الأشخاص والأحداث قوله (٣٨٩):

يَكْفِي صَاحب الفِيل شَمْلُو التّبدّد انْصَقَع أريَد والزَّيُّو غدَّد

والمأجر صَاح فرْسُو وتردَّد وابْ جَهْل كل يوم كيُّو المجددْ

فصاحب الفيل إشارة إلى أبرهة الحبشي، والشمل المتبدّد كناية عن الهزيمة والخزي الذي لحق به. (والزّيّو غدّد) إشارة إلى عامر بن الطفيل الذي أصابته الغُدّة فقال عبارته المشهورة (أغدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية) والمأجَّر إشارة إلى سراقة بن مالك الذي استبق قريشاً وجائزتها وخرج خلسة وراء النّبي (ﷺ). أما كيّ أبي جهل المجدَّد فكناية عن تجدد الغيظ والقهر عليه إلى أن قُتِل على غَيّه وضلاله.

فههنا كنايات عن ذوات وصفات وهنا إشارات وكلّها قطوف. ولو أراد الباحث الاستزادة انقادت له أعِنّتها، فمعظم أسلوب هذا الشاعر الفحل إنما بني على التحليق في عالم البلاغة لخلق صور حية ناطقة نابضة حملت معاني السيرة في أرقى قوالب النظم، وعادت بالفائدة على المتلقي بلا شك، ودلّت على شاعر متمكن أيما تمكّن رحمه الله.

الكناية

الكناية هي الوصول إلى المعنى بطريق غير مباشر، وأصلها من الإخفاء وهي قسمان: كناية عن ذات أو موصوف، وكناية عن صفة. وهي محمودة عندهم حتى في التسمية (أكنيه حين أناديه لأُكْرِمَهُ) وهي من أساليب العربية البليغة يصلون فيها إلى المراد بشيء من الجهد الذي يخرج الكلام من العادية إلى الإبداع. والتعبير الذي يأتي بشيء من التفكير أعمق أثراً في النفس من التعبير عن المعنى بالأسلوب المباشر. وهذا الأسلوب عند الشيخ هو العمدة، لم يكثر منه استعراضاً للذخيرة وتلاعباً بالألفاظ وإنما جاء دالاً على تمكّن الشاعر وتبحره وقوة أدواته وعرضه المكين للسيرة النبوية بتنويع يجلي المعاني وفن هو الإبداع ذاته؛ فكنى الشاعر عن الذوات وعن الصفات من البشر والمقدسات والحيوان والجماد والنبات والمحسوس والمعنوي بطريقة خدمت إيصال مفردات السيرة بأسلوب أقل ما يقال فيه أنه ممتع وبديع.

الكناية عن الذات:

من كناياته المطولة في قصيدة (طِبِّي في الخضرا)، كنايته عن ذات الحضرة الشريفة، حضرة رسولنا (ﷺ)، فقال(٣٦٦):

هَـــــــــاكُمْ البِكْـــــــــرَا ‏ ‏ ‏ ‏ الخّـــرُودْ مـــن ذَا يَـــا ذوي الفِكْـــرَة

تَبْهَــت الرَّائِــي وتَرْمِــي غِـير سَـكْرَه ‏ ‏ ‏ ‏ صـــاحَبَتْهُ جِنَـــان سَـــامِعْ الـــذِّكْرَا

فشبهها بالبكر الخرود وهي الشابة اللّينة الجميلة، التي إذا رآها إنسان بهت ووقع من غير سُكر، ثم يشبهها بالبدر والشمس بل يجعلها تزري بهما وتتفوق عليهما:

تـــــــزري بالبـــــــدرا ‏ ‏ ‏ ‏ والـــشمس جـــل البـــاري ذو القـــدره

ثم يفك رمزها ويحل لغزها فيقول:

قـــــول لـــــي هـــــي الحَـــــضْرَهْ ‏ ‏ ‏ ‏ الــشَرِيفَة الفِــي الحجْــرَة والخــضرَا

فايقـــة في الإحْـــسَانْ فايقَـــة في النّـــضْرَه ‏ ‏ ‏ ‏ فايقَـــة في الأخْـــلاقْ كُمَهـــا أضْـــرَا

وقد حدد معانيها (في الحجرة الشريفة والخضراء المنورة)، ووصفها وصفاً لا يتبادر إلى الذهن أنه وصف لغير الذات المحمدية وإلا فمن هو صاحب الكم السابل (الأضرا) غيره (ﷺ). والقصيدة معظمها يسير على هذا النمط وستمر بك أبياتها مفرقة على موضوعاتها.

ومما كنى عنه وكنى عن أمور تتبع له السيدة حليمة السعدية مرضعة الرسول (ﷺ) (٢١٠):

صـــــاحب العلامــــــة النـــــــا في الملامـــــــه

الــــــزال إيلامــــا أنــــــصف غلامـــــا

أزال عن السيدة حليمة وقومها الجدب وقحط السنة الشهباء إذ حلت البركة حين وطئت قدما الرسول (ﷺ) بادية بني سعد، بل قبل ذلك. فالتي أزال إيلامها هي السعدية، وأنصف غلامها ضمرة في الرضاع، قيل إنه (ﷺ) كان لا يرضع إلا من الثدي الأيمن الذي خصصته له، فتلك بذرة العدل عنده منذ صغره وهي التي عبر عنها شاعرنا في موضع آخر بقوله (١٧١):

بـــان عدلــــه في الــــشطر وشــــفت أيــــدي المُطَــــر

وفي كناية أخرى حول الأمر نفسه يقول الشيخ (٤٥):

أخــصب الجُـــرْزا والـــسماء حَــــرَزْ دَرَّ مــن أجلــو الكــان لــضمرة غَــرَزْ

وقد مضى إخصاب الأرض الجُرُز وهو اخضرار الأرض اليباب، لكنه كنى عن ثدي السيدة حليمة بقوله (درّ من أجلو...) أي درَّ اللبن في ثدي حليمة من أجل رسولنا (ﷺ) وقد كان قبل ذلك غارزاً قليل اللبن أو لا لبن فيه يشبع ابنها ضمرة. فقوله (الكان غرز) كناية عن الثدي.

وكنى عن أتان (حمارة) السيدة حليمة بكنايتين لطيفتين، الأولى قوله (٣٨٨):

أسْــعَدْ الأُمَّـــة وأَسْـــعَدْ حَلِيمَـــة شَـــاتَا زَانَـــا والفَرَطَـــتْ سَـــلِيمَة

(والفرطت سليمة) أي أتانها التي كانت عرجاء عاجزة في مشوار الذهاب إلى مكة، لكنها سبقت الركب بعد حملها الرسول (ﷺ) حتى أن نساء بني سعد قلن لها في مشوار العودة حين لحظن سرعتها وسبقها بعد هزالها وعرجها (كأنك يا ابنة أبي ذؤيب قد حملت نسمة مباركة) (سيرة ابن هشام: ١\١٨٦)، وقد كان ولكنهن لا يدرين.

وعبر عن هذه الحادثة في موضع آخر قائلاً:

ألــبن شــاة حليمـــة وفـــكّ إعـــساراً وأطلـــق قيـــد أتانـــا وفـــك نوســـارا

وقصة خصب ديار حليمة ودرور شياهها مذكورة في كتب السيرة، وكنى عن العرج والهزال الذي كانت تتصف به حمارتها بالقيد والنوسار، فكأنها لضعفها وبطئها مقيدة ومريضة، وليس هناك قيد ولا مرض وإنما هو كناية عن العرج والهزال كما ترى.

ومما أطال فيه وتوسع ونوَّع الكناية، قصة حنين الجذع، وهو منبر الرسول (ﷺ) القديم وقد كان جذع نخلة، رأته امرأة من الأنصار كان ابنها نجاراً فعرضت على الرسول (ﷺ) أنْ

يصنع له ابنها منبراً يقوم عليه إذا خطب، في الرواية التي ذكرها البخاري. فتناول شاعرنا أنين الجذع وحنينه وبكاءه وأحواله المختلفة جراء فراق الرسول له في أكثر من كناية، منها قوله (٢٥٣):

طَبْعُو نَافِي الجَبْرَه   الكِبر، رَامْ لِيمُو البَكَى بالعَبْرَه

فقوله (رام ليمو البكى بالعبرة) أي أراد الانضمام إليه والبقاء معه ذلك الجذع الذي بكى بالدموع، وفي الحديث برواياته أنه حنَّ وبكى وثكل وخار وأنَّ وشهق وغيرها.

ومن الكناية التي ورد فيها الحنين (٤٤٧):

الأعْيانْ ردُودا الشّمِس والمَاتُو   والصّيدَه الجَمَل والحَنَّ لِي لماتُو

ردّ الرسول العيون سليمة بعد الإصابة القاضية كعين قتادة وعين الكرار. كما رد الشمس والميت، وأنقذ الصيده والجمل وحنَّ له الجذع وهو الذي كنى عنه بقوله (والحنّ لي لماتو) كما تقدم.

وكرر تمني الليم مع البكاء في كناية أخرى في موضع آخر في قوله(٦٢٥):

البَاض حماهُ البكا رام لِماهُ   السما درَّ ماه والجُدْ كما هو

أشار إلى الحمام في الغار وهطول المطر وملأ البير (الجُدْ) وكنى عن الجذع بقوله (البكا رام لماه).

وقد يكني عنه بكلمة واحدة مستوحاة مما ورد في الحديث الصحيح كما قال(١١٧):

البَعِيرْ والحَنْ   والغُلامْ والضّبْ والعَضُو الرحّن

فأشار (بالحَن) إلى الجذع كما تقدم، أما بقية المعجزات الخمس وهي الجمل الشاكي والغلام والضب المُقرَّان برسالة الرسول (ﷺ) وذراع شاة الخيبرية (العضو) والبدنات (الرحّن) يتسابقن إلى الذبح، فلكل منها عند الشاعر كنايات بديعات سترد عليك إن شاء الله.

وتناول الشاعر بقية الحديث وفيه أن الجذع طلب أن يكون من أشجار الجنة وضمن له الحبيب (ﷺ) ذلك، وسيتكرر عليك ورود هذا المعنى في كنايات منها قوله(٥٢):

والبعير والصيد والمسمم حَتْ   الجذع بي الضمن البراق فرحت

وما ورد هنا يشرحه قوله في موضع آخر (٩١):

هَا ثَنَايْ صَرَّح بِي   فوق رسولِي المحْبِي

ضَامِنْ المُنْتَحْبِ   ظَلَّ هَامْتُو السُّحْبِ

فالمنتحب الذي ضمنه (ﷺ) هو الجذع كما كنى عنه الشيخ الذي وردت عنده الضمانة للجذع أو حتى للبراق في عدة مواضع تقدم بعضها، ومنها قوله هنا (٣٦٧):

والجِذْع ضَامنُو   والأمن أُسرى

(والأمن أسرى) كناية أخرى ستأتيك إن شاء الله.

ويكني عنه بصورة أخرى لا تقل روعة ولطافة عما سبق في قوله (١٨٦):

عجب الصيده والراغي   والكان لي الخطب راقي

الصيدة له معها وقفات مطولات وكنايات بديعات ستأتي، والراغي، بالغين، هو البعير الشاكي. أما مقصودنا هنا فهو قوله: (والكان لي الخُطَب راقي) وأصلها (الذي كان راقيه للخطب) وهو الجذع . وكنايات الشيخ وعباراته يشرح بعضها بعضاً فقد قال في قصيدة أخرى (٧١):

والجِذْع خَاوَيْنَا   بالراغي في البينه

فالمؤاخاة بين الجذع الباكي والبعير الرّاغي لأنَّ كليهما بكى وشكى لرسولنا (ﷺ). ورجع بنا مرة أخرى إلى الجذع الذي ضمنت له الجنة ففاز بذلك في قوله(٥٣١):

قول والبقَالو ضَمِينْ   فَاز غيرُو حنَّ لِمينْ

أي الجذع الذي ضمنه الرسول وفاز، لمن حنّ غير الرسول (ﷺ)؟ فانظر كيف طوّف بنا في حديثه عن الجذع مطوِّعاً وموظفاً ما صحَّ من الروايات فيه قارناً له بما يشاكله مضيفاً إليه حوادث أخرى كلها تنبئ عن عظمة هذا الرسول الكريم ومقدار ما اختصه الله به وما أجراه على يده من مؤكدات نبوته (ﷺ).

وهذا الأسلوب في تنويع ذكر المعجزة أو الحدث وتكراره هو ما سميته في مبحث آخر (تداعي المعجزة) وهو ورودها في عدة مواضع بأكثر من صورة وفي أكثر من أسلوب دون أن يشعرك بسأم أو ملل بل يرسخ لك المعرفة التي يقدمها لك كل مرة في ثوب مختلف ويضفي عليها روحاً متجددة.

يظهر ذلك أيضاً في قصة (الصيدة) التي روتها بعض كتب السيرة مثل دلائل النبوة للبيهقي وبهجة المجالس للصفوري وغيرها. ومن خبرها أن صائداً أعرابياً أو يهودياً صاد ظبية ثم ربطها عند خيمته، ولما انتصف النهار امتلأ وَطَبَاهَا باللبن وكان لها خشفان (جديان صغيران) وراء الجبل. فاستغاثت بالرسول (ﷺ) حين مرَّ بها وكان ما كان... ترجم الشيخ هذه القصة في أكثر من موضع مصرحاً ومكنّياً؛ ومن كناياته قوله(١٣٧):

مِـــنْ أيـــك الـــبرك والقَابـــــضَا الـــــشّرَكْ

(البرك) البعير، (والقابضا الشرك) الصيدة. وقد عبر عن وصفها هذا في موضع آخر بقوله (١٨٠):

فــك الفـــي الـــشّرَكْ ملويّـــة والقـــوم مـــن بهـــامو رويـــه

وكنى عنها بكناية عويصة في قوله (٩٢):

الـــــشكت والـــــتَّلْبي والـــــذي اتوســـــل بـــــي

(الشكت) الطيرة وستأتي، (والذي اتوسل بي) أقرب إلى الجذع أو بعير الأنصاري، أما الكناية التي قصدناها فقوله (التَّلْبي) أي التي امتلأ ضرعها باللِّبأ وهو أول اللبن. فأشفق عليها الرسول (ﷺ) وعلى أخشافها في القصة المذكورة فأخذ أجرها كما كنى عنه شاعرنا في موضع آخر قائلاً (١٧١):

والبـــاكي مـــن الهَجُـــر والفيهـــا أخـــذ الأجُـــر

فالباكي هو الجذع، وهي كناية، (والفيها أخد الأجر) كناية عن الظبية أو الصيدة كما نسميها. لأنه أطلقها ونال أجر عتقها وأجر صغارها.

والذي شكى للرسول من الحيوان كثير منه الظبية والبعير والحُمّرة التي أخذ بعض الصحابة صغارها كما سيأتي. والذي يؤكد أنها شاكية قول الشاعر في كناية أخرى (٢٠٣):

الـــــشاكي الـــــشاكيه وأخـــــشافا المـــــا بيـــــا

فدلت الأخشاف على أن الشاكية هي أمها الصيدة. وقد ذكر إرضاعها للأخشاف في قوله (٨٨):

والـــــشَّاكِي مَـــــالِي أهَـــــمْ
والمُرْضِـــــــــــعَالَه بَهَـــــــــــمْ

وجاء في الخبر أنها قالت للرسول (عذبني الله عذاب العشار إن لم أعد) فعادت ووفت بوعدها، فالتقط شيخنا هذا وعبر عنه بأكثر من كناية منها (٥٥):

والجـــــذع والأوفَـــــتْ بميعـــــادا

وفي موضع آخر(١٠٤):

المَـــا الـــنَّمير والهَطـــلْ والأوفـــت مِـــنْ غـــير مَطَـــلْ

وبتعبير ثالث (٣٣٠):

حَـــنِينْ الجِـــذْع بالرَّزمَـــه ومَـــنْ بالرَجْعَـــة مُلْتَزْمَـــة

كناية عن الصيدة التي التزمت بالرجوع بعد إرضاعها صغارها.

هذا ولشيخنا كنايات عن الصيد عموماً، فقد ذكر في خصائص الرسول (ﷺ) أنه من وقاره لا تنفر منه وحوش البرية وهي التي طبعها النفور، فكنى الشيخ عن ذلك عدة كنايات منها قوله (١٦٥):

النَّـــــــافِرْ دَسْـــــــــتَرا حوْلُـــــو الـــــسَّام واكْتَــــرَى

هذا الرسول الذي باع واستأجر، تألفه النوافر وتبقى حوله كأنها مأذونة بذلك. وستجد كلمة دستور بمعنى الإذن في مبحث اللغة.

وقالها في كناية أوضح من السابقة في قوله (٥١٤):

العَـــــادْتُو الافْتِـــــزَاز يَــــالفْ وَدْ العُــــزَازْ

أي الصيد الذي عادته الفزيز والنفور يألف الرسول ود العُزاز (ﷺ). وقد تلمس هنا روح المادح محمد حسن ود حاجّة في المعاني والقوافي في قصيدته (شوقي لي أرض الحجاز). كما ذكر الصيد في بعض أبياته التي أضربها مثلاً على التداخل المكين في أسلوب الشيخ حتى إنك تستعين عليه بالوقف والترقيم الحذر كي تستقر المعاني في قوالبها كما أرادها الشاعر، وأعني قوله في قصيدة (طِبِّي في الخضرا) التي استهللنا بها هذا المبحث (٣٦٧):

الغمـــام يَبْــرا هامَتَــا، الـــسارحات زيّـــو، يــاحبرا

أعـــذبْ المالحـــاتْ تَفْلَهَـــا، وأبْــرَا الجـــروح، واحْيَـــتْ مَيِّـــت القبْــرَا

وترتيب الكلام كما يلي: الغمام يبرا هامة الذات الشريفة. والسارحات وهي وحوش البر (زيّو) أي مثل الغمام تبرا وتتبع الرسول (ﷺ) ولا تنفر منه وهي موضع الكناية الذي نريده ... ثم قال: يا حبرا، والحبر هو الواسع العلم. ثم إنَّ هذه الذات الشريفة صير تفلها المياه المالحات عذْبَةً حلوة، وهذه الذات الشريفة أيضاً تفلها أبرأ الجروح. وأنها أي الذات، أحيت ميت القبر. ولن تفهم مراد الشاعر أحياناً إذا لم تَتَحَلَّ بصبر وأناة وبصر وتقليب وفحص.

وكنَى الشاعر عن عدد من الحيوانات كان لها في السيرة ذكر، منها البعير الذي مرّ ذكره في بعض الأبيات السابقة، ولأنه يكرر ذكرها لأغراض كثيرة فإنه يراوح بين التصريح والتلميح بالكناية. ولما كان الجمل هو وسيلة التنقل الأولى ومال العرب الذي لا يتقدم عليه مال، ذكره أيضاً مفرداً ومجموعاً بأسمائه الصريحة، منها الجمل والبعير والأوكام والإبل والجمال والنوق وكنى عنه بمثل قوله (٢٠٣):

الـــشَّاكِي الـــشَّاكْيَة وأخْـــشَافَا المابْيَـــه والنُّـــوق البَاكْيَـــة

فالشاكي هو بعير مسعود الأنصاري المذكور في السيرة، كان يجيعه ويدئبه، أي يجهده بالعمل الدَّؤوب ولا يطعمه. أما الشاكية فهي الصيدة وقد مرت بك وأما النوق الباكية فسوف يأتيك خبرها عما قليل.

ويكني عنه أيضاً بالراغي، والرغاء هو صوت البعير عند الغضب والتعب وغيره ذكره في قوله الذي مر بنا في حديث الجذع حين قال (١٨٦):

عَجَبْ الصِّيدَة والرَّاغِي　　　والكَانْ لِي الخُطَبْ رَاقِي

ومر بك هذا البيت، وأردفه في موضع آخر في قوله (٧١):

والجذع خَاوِينَا　　　بَالرَّاغِي في البينة

وهذا أيضاً ذكرناه وقلنا أن سبب المؤاخاة بين الجذع والبعير الرَّاغي أن كليهما بكى واشتكى للرسول (ﷺ).

وقد كنى عنه أيضاً بمصيره الذي صار إليه وهو أن أُتعب وأُجيع وطُرد فقال (٨١):

فَكَّ الّذِي انْطَرَدَا　　　والصّيدَه مِنْ زَرَدَا

فالذي انطرد هو البعير نفسه، والصيده وزردا أو شَرَكها قد مضى ذكره. وأكد الطرد أيضاً في كناية أخرى حين قال (٥١٤):

قُول ضِمِنْ الجَّاهُ فَازْ　　　والعُود كالصّيَدة فَاز

يقول رحمه الله: اذكر البعير الذي جاء للرسول (ﷺ) هارباً من سوء المعاملة فضمن له الرسول (ﷺ) حسن المعاملة وقد قال لصاحبه: (اتق الله في هذه البهيمة) والعود الذي فاز كما فازت الصيدة هو الجذع، فقد فاز بأن بشره الرسول (ﷺ) بأن يكون من شجر الجنة وفازت الصيدة بالعتق من الشّرك ومن الصّياد. وبين (فاز) الأولى والثانية جناس تام يأتي في مبحثه، إن شاء الله.

وذكر عليه رحمة الله النوق أو البدنات الست التي قُدّمت للنّحر فكنّ يتسابقن ويتزاحمن على من يبدأ بها الرسول أولا، ورد ذلك في كتب الحديث وضمنه شعراء المدايح النبوية في أشعارهم. وقد وصف الشيخ أنها جاءت مسرعة واستخدم لفظة (الرّحة) والرحيح هو الجري الوئيد أو جري المثقل (الجكّة) فقال في أكثر من موضع (٩٦):

والأيَاكِي كَذلِكْ　　　والبُدَنْ رَاحّالِك

أي تجري نحوك.. وقال (٥٢):

البُدَنْ رَحّتْ　　　والأيَاكِي الطود خَضّر الحَتْحَتْ

وقال (١١٧):

البَعَيْـــــــر والحَـــــــنْ   والغُــلام والــضَّب والعــضو الــرّحّن

وقال (٤٠):

مـــــن معـــــاجزو أدْرَا   الحَــصَى وابْ ســم والرَّحّــت الجُــدُرَا

وفي سبيل التبرك بأكبر قدر من المعجزات ولكثرتها، يلجأ الشاعر للاختصار والاقتصاد في حروف المعاني فقد حذف واو العطف مرتين (والعضو الرحن) أراد (العضو والرحن)، أي ذراع شاة الخيبرية المسمومة والإبل التي قربت للذبح. وقوله (الرحت الجدرا) أي (والرحت والجدرا) أراد النوق المذكورة والجدار الذي أمّن عند دعائه (ﷺ). والذي حمله على حذف الواو في الموضعين هو عروض الأبيات ووزنها؛ لأنه يختلّ بدخول الواو. وقد فصّلته في بابه.

وقد يورد الكناية بصورة تحتاج إلى معرفة بالسيرة، وهذا الديوان كله إنما بني على أن قارئه مسلم ملمّ بسيرة حبيبه (ﷺ)، وفيه أساليب هي للخاصّة. فاسمع قوله عليه رحمة الله (٢٢٢):

الغَـــــارِينْ والبـــــــضاعَه   واعْجَـــب مَـــا في الرِّضَــــاعَه

الجَوَامِــــــدْ انْخِـــــضَاعَا   والعِـــير والْمِنْهَـــا ضَــــاعَا

وسيرد هذا في موضعه ولكن يهمنا منه قوله (والعير والمنها ضاعا) وذلك أن الرسول (ﷺ) أخبر قريشاً في ليلة أسري به أنَّه لقي قافلتهم التجارية في الموضع الفلاني ومن صفتها أنها يقدمها جمل أورق، وقد ضاع منهم بعير. فلما جاءت العير كان الأمر كما قال. وشاهدنا هنا كنايته عن هذا البعير بقوله(والمنها ضاع) أي الذي فقد من تلك القافلة؟؟ وهذا من دقيق إشارته.

وهذه نماذج فقط، استخدم فيها أنواعاً من الكناية عن الإبل التي ورد ذكرها في سيرته (ﷺ) وهي في الديوان أضعاف ذلك.

وكنى عليه الرحمة عن (الحُمّرة) وهي نوع من الطيور، أخذ بعض الصحابة صغارها فصارت تحلق فوق رأس الرسول (ﷺ) فسأل عن خبرها وأعلمهم بشكواها وأمرهم برد صغارها إليها، وهي واحدة من ذوات الروح التي اشتكت له (ﷺ) فقال شيخنا(٢٨٣):

والأيْكَـــه والبَـــاضْ والحَكَـــتْ   والأيْكَـــــتِينْ والاشْــــــتَكَتْ

يشير إلى سعي الأشجار إليه وإلى الحمام والعنكبوت وحياكته ثم قال (والاشتكت) وهي الحمرة المذكورة في السيرة، وقد أوردها في سياق آخر في غاية حسن التعبير في قوله(١٣٧):

مـــن أيَـــكْ البَـــرَكْ والقَابِـــضَا الـــشَّرَكْ

ثالثـــــــــــــــــــــــــاُ والطَّيْـــــر الانعَـــرَكْ

وابْ سِـــــمْ الأخْبَـــرَكْ والبَـــاكِي مِنْبَـــرَكْ؟

وهذه كلها كنايات وإشارات لخمس من معاجزه (ﷺ) في هذا المقطع: البعير والصيدة والذراع اب سم وجذع النخل الذي كان منبرا، أمَّا الثالثة وهي (الطير الانعرك) فهي الكناية التي نريدها يشير بها إلى (الحُمّرة) المذكورة وإنما وجه الإبداع هنا أنه جعل هذه الطيرة (تنعرك) أي تصوِّت وتروح وتجيء وترفّ بأجنحتها لهفة وولها على صغارها. وقد ذكرنا في مبحث التراث أن (الانعراك) هو تعبير مشهور عن غاية الغضب وهو صورة ناطقة لذلك الطائر المفجوع في صغاره. والأيكة أو الشجرة التي صرح بها هنا كنى عنها في موضع آخر في قوله(١٧١):

الـــضب واب ســـمّ جُـــر والنـــوق والجـــات تجـــر

فالتي جاءت تجر عروقها كما نصّ عليه الحديث هي الشجرة حين دعاها كما في كُتب السيرة.

واستعمل الكناية في نسج العنكبوت على فم الغار وقد مرت بنا بعض الإشارات إلى ذلك ومن كناياته قوله (١٠٦):

آيـــاتو مـــا أجـــزلا منهـــا الحكـــت مغـــزلا

والبـــاض والمُهـــزلا والـــضافا في منـــزلا

أربع كنايات: الحمام، وعجفاء أم معبد (المهزلا) وأم معبد نفسها (الضّافا في منزلا) ثم (الحكت مغزلا) وهي العنكبوت. وكثيراً ما يستخدم معها الحياكة والغزل والنسيج والسياجة ونحوها كقوله (١٠٤):

خُـــذْ مِنِّـــي البَـــاضْ والغَـــزَلْ والجَّـــادَنْ بَعَـــدْ الهَـــزَلْ

(الباض) هو الحمام (والغزل) العنكبوت (والجادن بعد الهزل) أغنام حليمة وغيرها. واستخدم (ساج) بمعنى غزل في قوله(٨٢):

مِــــنْ آيُــــو ود معــــدا العــــــير والبَعَــــدَا
والنُّــوق والجــذع مَعَــدَا الســاج لمــن قَعَــدَا
والخَــــرَّ جَــــا وصَــــعَدَا

وهـذا المقطـع مـن العـويص، يقـول فيـه: مـن معجـزات ابـن معـد وهـو أحـد جـدوده (ﷺ) العير، عير قريش التي أخبرهم بقدومها وانحباس الشمس لها وهو ما كنى عنه (بالبعدا) لأن هذه المعجزة وهي انحباس الشمس تأتي دائماً بعد قصة عير قريش كالمقدمة والنتيجة (والنوق) أو البدنات مرّ ذكرها، (الجذع معدا) أي تخطي الرسول (ﷺ) له ورُقِيُّهُ على منبر الأنصارية الجديد وكان ما كان من أنينه وحنينه (والخرّجا وصَعَدا) القمر. أما (الساج) فهو العنكبوت. ويبقى من العويص قوله: (لمن قعدا) ولن تجد لها توجيهاً إلا ما صار من سيدنا الصاحب أبي بكر (رضي الله عنه) حين مزّق ثوبه وسدّد به ثقوب الغار فبقي جُحر ولم يبق من الثوب شيء فقعد عليه رضوان الله عليه وقاية للرسول (ﷺ) من أن تلدغه حية أو نحوها. وهذه واحدة من شواهد الفدائية عند الصديق استحق بها الفضل والتقدم ودعوة الرسول (ﷺ). وواحدة من غوامض الشيخ حياتي التي لا نصل إليها أحياناً إلا بالإلهام والفتح.

ومن كناياته البديعة عن العنكبوت قوله (٨٨):

مِــنْ آيــو مَــا نَفْهَــمْ الـــضَّنَكِ والمِــبْهَمْ
والأيْكَــاتْ ومَــا أوْهَــم والـــشَّاكِي مَــالِي أهَــمْ
والمرْضِــعَالا بَهَــمْ

الضَّنك: الشدة وقد أزال الرسول (ﷺ) محل السنين. و(المِبهم) وهو الإبهام الذي فاض منه الماء فأروى الجيوش. والشاكي هو البعير والأيكات مر ذكرها، (والمرضعالا بهم) الصيدة كما مر بنا. أما الكناية عن العنكبوت ففي قوله (وما أوهم) والشيء الذي (أوهم) كفار قريش الذين خرجوا في أثر الرسول (ﷺ) أيام هجرته هو العنكبوت. لأنه نسج على فم الغار فلما رآه الكفار قالوا هذا الموضع ما دخل به أحد منذ مدة واستدلوا على ذلك بنسيج العنكبوت وبيض الحمام، فأوهمهم وانقلبوا خائبين وحمى الله الرسول وصاحبه لأنه كان معهما.

نــسيج داود مــا حمــى صــاحب الغــا روكــان الفخــار للعنكبــوت

ومن الغامض الذي كنى عنه في معجزاته (ﷺ) قوله(٧١):

والتــيس والأذْنَــا ودنُــوه للأذْنَــى

التيس، هو تيس عدو الله ابن قمئة، صرح به هنا وستأتيك الكناية عنه بعد قليل. ودنّوه (ﷺ) للذي أدناه منه (قاب قوسين أو أدنى) في المعراج معروف. أمَّا (الأدنا) فأصلها (الأَدْنَاهُ) ومن معجزاته (ﷺ) أنه أدنى البعيد وطويت له الأرض وزويت له مشارقها ومغاربها، فهذا مقصد الشاعر في (الأدناه) أي طي الناي والبُعْد الذي قربه، وسيمر بك مبحث شافٍ في هذه الجزئية إن شاء الله.

وكنى عليه رحمة الله عن تيس ابن قمئة لعنه الله(٥٣١):

مِـــنْ بَعَـــدِمَا المُنْـــزَلْ لِـــي الـــصَّخْرَتينْ عَـــزَلْ
والبَـــاضْ ومَـــنْ لِـــي غَـــزَلْ والعَـــادْ لـــسيدُو خَـــزَلْ

من بعد القرآن وهو المعجزة الكبرى اخترت وانتقيت (عزلت) معجزة الصخرتين والحمام والعنكبوت في الغار ثم (العاد لسيدو خزل) وهو التيس الذي كان ابن قمئة يُضَرِّيه ويحرضه ويطلقه على الناس، فحاول ذلك مع الرسول (ﷺ) فغير التيس اتجاهه من مهابة الحبيب وقصد صاحبه فنطحه وأرداه قتيلاً وخذله. يكرر ذلك الشيخ حياتي كناية وتصريحاً كما قال (التيس الكالح) و(والخزا تيسو في لحظة أزبد) أي الذي خذله تيسه وعاد عليه ونطحه حتى أرداه قتيلا يُزْبِد. وقد عبر عن ذلك بأسلوب طريف في قوله (٨٤):

الأيْكَـــــتينْ طَلَبَـــــا جَـــــاتْ، دَرّت الحَلَبَـــــا
كالـــشَّمسِ العيـــون قَلَبَـــا والتـــــيسِ بالقَلَبَـــــا
واعـــــدا الرُّعـــــب غَلَبَـــــا

دعا الشجرتين فلبت كل منهما نداءه وجاءته تَخُبُّ بعروقها، ودرت الشياه التي مس ضرعها ورد العيون مثلما رد الشمس، والتيس الذي رجع (بالقَلَبا) أي غَيَّر اتجاهه وانقلب فقضى على صاحبه المستهزئ برسولنا العظيم (ﷺ).

وكنى عن أربعة جابر أو خمسته وفيها سخلة وبعير(٣٣٠):

فَهَـــاكْ آيـــاتُو بالرزْمَـــة حَـــنِينْ الجِـــذْعِ بالرَّزْمَـــه
ومَـــنْ بالرَجْعَـــه مُلْتَزْمَـــه ومَـــا كَـــانَنَّ في العزَمَـــه

فقوله (ما كانن في العزمة) يوم دعا (عزم) الرسول (ﷺ) جابر في قِصَّة حفر الخندق المشهورة . كناية عن أربعة جابر أو خمسته المشهورة التي فصلها في قوله(٢٢٨):

مَعَـــاجْزُو المِنَّهَـــا شَـــقْ صَـــدْرُو ذِيـــكْ شَـــمِسْ الـــسَّمَا وَبَـــدْرُو
وَصَـــاعْ جَـــابِرْ نِمُـــو وقِـــدْرُو وشَـــاتُو وابْنَـــا ودَارُو أدْرُوا

هذه معجزات جابر بن عبدالله: صاع الشعير والقدر المبارك والشاة التي طبخت ثم قامت (ترعى بأضراسا). وابناه والدار التي اتسعت وتحقق فيها وعد رسول الله (ﷺ) يوم اشترى منه بعيره. وليت المجال يتسع لمزيد من التفصيل وإنما نعطي إشارات ومفاتيح وفي مبحث (تداعي المعجزات المزيد).

ومما له علاقة بالحيوان الذي ورد ذكره في السيرة حديثه عن الضرع والذراع المسموم؛ أما الضرع فسماه صراحة (ضرع العجوف) و(الثدي) و(الأجدّ) وهو القليل اللَّبن ثم كنى عنه بقوله (٣٦٥):

أحْيـــا الـــشُّهُبْ والُمثْـــرَيين   ثُـمَ الهَـشَمْ والـصَارْ لـبِينْ

فالذي صار لبيناً أي مملوءاً لبنا هو ضرع عجوف أم معبد وضرع السخلة وشياه معاوية بن ثور. أما الذراع والذي يسميه المسمّم ويكنيه بـ(اب سم) والفرق بين الكنية والكناية أنَّ الأولى ما سبق بأب أو أم أو ابن أو بنت. ويسميه العضو والقصير ونحوه.

وقد كنى عنه بقوله (٦٩):

ضِـيفْ آيـة الهجـره   والـسَّمَّتُو الفَـاجِرة

يكنى بذلك عن ذراع شاة الخيبرية، التي يسميها هي نفسها أحياناً ويكني عنها أحياناً كما في قوله: (٨٢):

الـسَّامَّة يـا فُقَـدا   وبنـات لَبِيـد عُقَـدا

والسَّامة التي سمّت الشاة بغرض التخلص من رسول الله (ﷺ) هي زينب بنت الحارث اليهودية الفاجرة التي أخفت السم في الدسم في ذراع الشاة التي شوتها وقدمتها هدية للرسول وأصحابه وهي تخفي ما تخفي، فقال الشيخ(١٠٦):

حَاطِـب ومَـنْ عَـامَلا   ومَـنْ خَبَـتْ مَعْمَـلا

فقوله (ومن خبت معملا) كناية عن زينب بنت الحارث التي أخفت (عملتها السودة) أما حاطب وصاحبته التي عاملها واستأجرها لحمل كتابه فهو ما كنى عنه في الشطرة الأولى. وقد كنى عن كتابها الذي خبأته في قوله (١١٩):

والنَّجَاشِـي العَنْـسِي وخَبِـي جُرَيْـدَة

فخبيء جريدة هو الكتاب، أخبر به رسول الله (ﷺ) وأخبر بالعنسي وجرادة وسنفصل خبرها واسمها وسبب التسمية في غير هذا الموضع (السيرة الحلبية: ١٠٨/٣).

وكنى عليه رحمة الله عن (البُراق) دابة الإسراء والمعراج في قوله (٣٦٧):

والجِـــــــذع ضَــــــــامنُو   والأمِـــــــــنْ أسْــــــــرَا

يكني بقوله (الأمن أسرى) عن ضمانه للبراق في الخبر المروي، ضمن له الجنة كما ضمنها بعد ذلك للجذع.

وكنى، أحسن الله إليه، عن خيول الصحابة في قوله (٣٥١):

أصــحاب نبيــك في البــاس أوْرُوا العجائــب   راكــبين بنــات الــريح ســابقه النوايــب

(وبنات الريح) كناية عربية قديمة عن الخيول الأصيلة.

بل كنى عن الصحابة فيما لا يحصى وسيرد تفصيله في المبحث الخاص بهم ولكنه قال (١٣٤):

الحَابكـــــــــــــــــاك   أصــحابك فنــوا التاركــاك

مـــن ســيف زنــدها الككّــاك   صــــنديد البطـــارق كـــاك

(الحابكاك) أي المحيطة بك لنصرتك، ثم فسره بقوله (أصحابك الذين أعدموا (التاركاك) وهي كناية عن الكفار الذين تركوا النور الذي جاء به. هؤلاء الصحابة بزنودهم القوية كالسيوف غادروا فارس الروم يصيح ألماً كأنه دجاجة. وكلها كنايات في كنايات.

ولم ينس الكفار الطغاة، وما أكثر ما كنى عنهم وسيمر بك ولكن لا يجمل أن نخلي هذا الموضع من ذكرهم للاعتبار فقد كنى عنهم في معرض ثنائه على الصحابة في قوله(٢٤٨):

رضـــي الله عـــن صــحبو النجبــا الأكــارم   فــوق العِتــا القُلَّــبْ شــايلا الــصوارم

كــم كــم فنــوا علجــا فــشفاشو وارم   لله والـــنبي لا لـــي قـــول عفـــارم.

فكنى عن الخيول أيضاً بقوله (العتا القُلَّب) العواتي التي تقلب أكفالها ثم قال (كم كم فنوا علجا فشفاشو ورام) والرئة المنتفخة أو الفشفاش الوارم كناية عن الطغيان والتكبر والغرور الذي اتصف به العلوج وهم أعداء الإسلام من الأعاجم.

وكنى الشيخ عن الغلام الذي أقرّ برسالة الرسول (ﷺ) (مبارك اليمامة) المشهور في حديث (شيصونه)، ونوَّع في وصفه لأنه احتاج إلى إيراده في مواضع عديدة فسماه صراحة الغلام والصبي ونحوها وكنى عنه بمثل قوله(١٩٤):

بـــي الــضَّب قــرَّ والْفِــي حِجْــرُو   والعُــود انْتَحَـــبْ مِـــنْ هَجْــرُو

وقد ورد إقرار الضب برسالته (ﷺ)وكذلك الغلام (الفي حجرو) أي محمولاً صغيراً في حضن أمه. وأكّدها في قصيدة أخرى في قوله(٣٢):

الحـــــــصى ذكــــــــرو والطعـــام والهـــام والعلـــي حكـــرو

(والعلي حكرو) مثل (الفي حجرو) لأن الحجر والحكر لغتان وهو حضن الأم.

ثم أردف ذلك بكنايتين لطيفتين حين قال عنه (٢٨٣):

والبَـــدرِ والـــشُّم جَـــاتْ تبـــر والـــضَّبِ مِثْـــلُ الْمَـــاكِبِرْ

الجبال التي راودته بأن تكون له ذهبا فأبى وردها، و(الماكبر) هو الغلام، كما قال في الثانية (١٠١):

مِثلــك رســول مـــا انْحَبَـــا آمـــن بيـــك المَـــا حَبَـــا

(والما حبا) أي الذي لم يحبُ بعد وهو الصبي أو الغلام المذكور.

ولعل القارئ الكريم يلاحظ أن الشيخ كلما كرر المعجزة أو المفردة من مفردات السيرة أضاف إلى سياقها جديداً وأتى بها في ثوب مختلف قشيب ويكرر ويضيف أخريات.

ومما نوَّع في الكناية عنه الشمس والقمر وهما من آيات الله ومن آيات رسولنا (ﷺ)، فقد ردت له الشمس في حديث خيبر وانحبست لمجيء العير في الخبر الآخر فصرح بها كثيراً وكنى عنها بكنايات عديدة منها (١٨٩):

والـــــــصّخْرَتين إيجَابَـــــــا والبَـــدْر والْفِـــي حِجَابَـــا

استجابت الصخرتان والبدر، والتي في حجابها وهي الشمس، ويوضحها قوله في أخرى (٢١٢):

لِمَـــوْطِي أقْـــدَامُو الـــصمام تَارْيَـــة ورَدَّ البِـــي حجابَـــا مُتْوَاريَـــة

فالمتوارية بحجابها هي الشمس ونوَّع في ذلك فقال (١١٥):

وردَّ الباقيــــــــــة في غلافــــــــــا

وغلاف الشمس هو حجابها. ثم أضرب عن ذلك كلّه إلى كناية أخرى فقال شارحاً (١٧١):

مِـــنْ آيـــو أيَـــا بُـــصر الرُّعْـــــبِ والنَّـــــصُرْ
والعَـــادَتْ لِـــي العَـــصُرْ والنَّـــايْ رِضَـــي بالقـــصُرْ

فالتي عادت عصراً بخيبر هي الشمس، ومن أبرع استعاراته قوله (والناي رضى بالقصر) جرد منه شخصاً وجعله يرضى بالقصر كناية عن طيِّه لبُعده وهذا مفصل في موضعه.

وفي مدحةعسيرة القافية وهي (صاحب العصا) يقول(١٦٧):

شَـــفَى مَـــسُّو الأبرَصَـــا	والّجـــاتْ تَتْوَرّصَـــا
والـــصَّاعْ والأقْرَصَـــا	واللـــي اتْـــوَارى قُرُصَـــا

(واللي توارى قرصها) أي التي غابت وهي الشمس وقد ردَّها الله لنبيه (ﷺ) في الحديث الصحيح. ثم كنى عنها بكناية دقيقة لا ينكشف حجابها إلا توفيقاً أو بكثرة الردّ وذلك قوله (١٠٦):

الأكحـــل الأنجـــلا	نـــورو الحنـــادس جـــلا
والنـــور جبينـــو أخجـــلا	لـــي دُعـــاه مـــا أعجـــلا

أي الشمس التي أخجلها نور جبين الرسول (ﷺ)، أسرعت حين دعاها لصلاة العصر في خيبر.

وكنى رحمه الله عن القمر أيضاً في مواضع كثيرة هذا مع التصريح بأسمائه كالبدر ونحوه فقال مكنياً (١٨٩):

شـــبهو الـــبرا مَـــا صَـــوّر	يَخْجَـــلْ جَبِينُـــو الْـــدَوّر

لم يصور خالقه مثله، جبينه يخجل (الدّوّر) أي القمر الذي أكمل استدارته أو الذي أكمل الدورين وهما الأسبوعان والأسبوع (دور). وقال في موضع آخر(٢١٠):

مِـــنْ العَجَايِـــبْ	سَـــبَقْ الـــضَرائبْ
قُـــولْ والوَجَايِـــبْ	والخـــرَّ وآيـــبْ

فقوله (والخر وآيب) أي الذي خرَّ ثم رجع إلى مكانه، وهو القمر في تدليه وانشقاقه ثم عودته إلى مكانه في الحديث الذي روته جماعة من الثقات وورد قبل ذلك في أوثق مصدر وهو القرآن في (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) (سورة القمر، الآية ١).

وهذه الواو التي بين (الخرَّ) و(آيب) عجيبة لا يصلح الموقع إلا بها لا كما نسمعه عند المنشدين (والخر آيب) لأن (الخرّ) نزول و(الأوبة) صعود وحذف الواو يجعلهما شيئاً واحداً وليس كذلك، فتأمّل!

وكنى عن الميت والموت والقيامة، فقال عن الأول مشيراً إلى إحياء الموتى لرسولنا (ﷺ) (٨٨):

صـــفوة بـــني آدم	الـــروع أمـــامو قـــدم
عـــاد الـــبي الثّـــرى مدمـــدم	زي القطيـــــع أب دم

(عاد البي الثرى مدمدم) أي أحيا المدفون بالتراب وأعاده إلى الحياة مثلما أعاد الحياة للقطيع أب دم وهو العضو يريد به كف ابن عفراء التي ألصقها (ﷺ) فبرئت. ومثله قوله (٣٣٠):

وريّ القـــــومْ وتَمْهِـــــيلا   ومِـــنْ فوقُـــو الثُـــراب هِـيلا

وإنّما يهال التراب على الميت الذي يسميه بنحو اثني عشر اسماً وردت في باب اللغة فاطلبها إن شئت. وقد يكني عنه بالفاني، والفناء والموت واحد، قال:

نَـــامَى الموايـــد زاوي البعايـــد   والفـــاني عايـد قايـد القوايـد

أي الذي فني عاد حيّاً، والقوايد هي القلوب التي قادها إلى كل خير. أما الموت نفسه فقد شحن به ديوانه مذكراً به وموجهاً إلى إحسان العمل قبل حلوله قال مرة (٢١٣):

لـــولا النِّبْـــرَاسِ شِـــنْ قَعَـــري ورَاسِـــي   حِـــصْنِي وحَرَّاسِـــي عِـــنْ دِيَـــرةْ رَاسِـــي

جعل الرسول (ﷺ) حصنه وحارسه عند ساعة موته، فكنى عن ذلك بقوله (ديرة راسي) وهي ساعة تحويل رأس الميت ووضعه في الوضع المعتدل في لحظاته الأخيرة.

أما قوله (شِنْ قعري وراسي) أي: ما قيمتي؟ فابحث عنه في حديث التراث في بابه.

وعلى ذكر الموت والأموات أطال الله أعمار القراء وختم لهم بخاتمة السعادة، يذكر الشيخ أيضاً الجنازة ويكني عنها في معرض حديثه عن إحياء الموتى قائلاً في ذكر معاجزه (ﷺ) (٧١):

مِـــــنْ بَعــــــض خبرتنَـــــا   النَّامْيَـــــــــة والنَّتْنـــــــــه

أي من بعض ما خبرناه وعرفناه، الأقراص التي نمت، أقراص أنس (رضي الله عنه)، وكذلك عرفنا (النتنة) أي الجنازة التي أحياها .. وقال عن أربعة جابر بن عبدالله (١٦٢):

خلِّـــــــي أعيتنـــــــا   مُعْجِزاتُـــو الغُـــر بيهـــا أنبتنـــا

الكتـــب منهـــا الرؤيـــة أغنتنـــا   عـــن بَنِـــي جَـــابِر شَـــاتُو والنتنـــة

الكتب أنبأتنا بكثير من المعجزات تكفينا منها رؤية البارئ عز وجل، فهي تغنينا عن جابر وبنيه وشاته والجنازة التي أحياها (النتنة) أي (المتعفنة).

وأما القيامة، والموت أول الطريق إليها، فقد كنى عنها بكنايات عديدة منها قوله في مدح أبي بكر (رضي الله عنه) (٤٤٩):

فـــاز بالـــسبْقِ فـــازْ أيـــضاً بكـــل كـــسب   وأوَّل فَـــايزٍ يـــوم الـــنقير حُـــسب

فقوله (يوم النقير حسب) أراد يوم القيامة فكنى عنه، وفي ذلك اليوم لا يغادر الحساب مثقال حبة من خردل أونقيراً أو فتيلاً أو قطميراً كما قال تعالى (أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) (الأنبياء:٤٧).

وكنى عنه بكناية قرآنية أيضاً في قوله (٥٦):

في هنا وفي يوم خفّت موازيني   بالجزا الأوفى حِماايْ بجازيني

فقوله: (يوم خفّتْ مَوازيني) إشارة إلى آية القارعة (٦) أراد به يوم القيامة، الذي يكني عنه أيضاً بالساهرة في أكثر من موضع منها(٦٧):

تَمْحِي أوْزَارُو الكّامنة والظّاهِرَة   تَنْجِي والأمة في ذِي والسَّاهِرَة

فقوله (ذي) أي (هذه) يريد الدُّنيا، والساهرة هي الآخرة من قوله تعالى: (فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ) (النازعات، آية١٤). وأعادها في موضع آخر في قوله (٢٥٧):

حَيَاتِي بها يَنِيلْ بَرَكَة قَاهْرَة   تَنْجِي وتَنْجِي الأمَمْ بالساهرة

وفي يوم القيامة الجنة والنار، وكلتاهما قد كنى عنه وسمى النار بأم رعيد وأم سنام وأم لهيب وأم جحيم وأم زفير وأم رعايد ونحوها، ولكنه في حديثه عن نار الفرس مال إلى الإلماح فقال (٦٢):

والقصر هُدّ واللّها أسامي

أراد لنار لأن من أسمائها سوى ما ذكرنا: أم سعير، وذات اللهب والسعير ولظى وجهنم وغيرها.

والصلاة منجية من المنجيات من النار، ذكرها أيضاً في مالا يحصى صراحة وتلميحاً ومن ذلك قوله (٢٩٥):

الشوم به صار منقشر   والفرض من خمسين عُشِر

أي خففت الصلاة من خمسين صلاة إلى عُشْر هذا العدد وهو خمسة. وهو رحمة الله عليه دائماً في فسحة من مضايقة النظم، له سعة وخبرة تجعله يخرج من أعسر مضايق الوزن والقافية بتوفيق عجيب، مثلما قال عن عطاء الله الواسع لرسوله (ﷺ) أيضاً (٤٤٧):

أسرا في الأصب شاف ربُّو آخر ليل   أرضاً بالشفاعة العامة والتقليل

أي تقليل الصلاة كما رأيناه في عَشْرها. وهو دائماً يرتفع إلى الأسلوب الفصيح ثم يتذكر عوام أحبابه فيرجع إلى أسلوبهم في مزاوجة موفقة مثل قوله في الفرض نفسه (١٦٧):

إلصَاقْ المُنْقَصَا   وألبَانْ المعقصَا
وجَرَادَه الفِي عُقصَا   والعِيرْ والنَّقَّصَا

إلصاق المقطوع ودرور العجفاء والكتاب المخبأ في عُقَص الشَّعر (شعرجرادة) والعير التي أخبر بها، ثم (النَّقصا). لقد زاد الرسول (ﷺ) كل خير فما الذي أنقصه، إنه الصلاة نقصت له من خمسين إلى خمس .. ويعالجها في موضع رابع ببراعة لا تقل عما سبق (١٦٥):

شـــوف ضـــمرة وميـــسرة والعـــــود المؤســـــرا

واعجـــب قـــصة ســـرا والجانـــــا بأيـــــسرا

ما الذي رآه ضمرة وميسرة، رأوا الأملاك تُظلله. والعود هو الجذع، وأعجب ما في قصة إسرائه العجيبة الرحمة الملموسة يومياً وهي تخفيف الفرض فجاءنا بأيسرما يمكن وهوالخمس من خمسين تيسيراً، مع بقاء أجر الخمسين ولله الحمد والمنة.

ولما كان البرق مما يتكرر في كل قصيدة تَتْبَعُ هيكل القصيدة المادحة، ولما كان البرق أيضاً من مولهات العاشقين نوَّع في ذكره واستفاد من الكناية أقصى استفادة، فكما صرح عنه كثيراً فاستخدم البرق والبريق والبربريق والبروق والبراق ونحوها أيضاً كنى عنه كثيراً، ومن ذلك قوله(١٨٤):

جُـــنْحَ الـــدجا المعلـــوم أدهـــشني زادنـــي كلـــوم

فما هذا المعلوم المعتاد الذي أدهشه في ظلمة الليل البهيم؟ إنه البرق وهل هناك شيء غيره يقلق المضاجع في تلك الساعة.. ولن تتردد كثيراً في قبول الكناية عنه بالمعلوم هذه لأنه يشرحها في موضع آخر كعادته في كثير من مواد الديوان، إذ قال عنه (٣٧٠):

البريـــــــــق معلـــــــــوم لمعــو أبكـاني أســهرني زادنــي كلــوم

وفي كنايـة أخـرى تـذكرنا بالمـشهور مـن أن الـبرق يَفْتَـرُّ ويبتـسم يقـول شاعرنا (٢٩٣):

جـــنح الـــدُّجَاءِ ضـــواحكاً لامحـــتهن عـــيني بكـــن

فالضواحك هي البروق كنى عنها بذلك لما قدمنا، القرينة أنها في جنح الدُّجى وأنّه لامحهن، وانظر كيف قال (لامحت) ولم يقل (لمحت) كأنه فعل متبادل.

وتسيطر عليه البروق وعلى أمثاله حتى يجعلها تأسره وتملكه(٢٦٥):

في الحالكـــاتِ شُـــفْ مالكـــاتي ضـــيّعت أوقـــاتي في المهلكـــات

الحالكات: الليالي المظلمات، والمالكات: البروق. يؤكد ذلك ويشرحه في موضع آخر (١٤٣):

المالكـــــــــــاك لاحــت عــن قريــب هالكــاك

فــك إيــدك مــن الماســكاك وفُــوت مــن ديــرة الأعكــاك

فالمالكاك كناية عن البروق يؤكدها قوله (لاحت).

وقد يكني عنه باللامع وهي من صفته كما ﯾﮯ قوله (١٣٨):

يـــا لامِـــعْ أُم شَـــبَـكْ   فِـــيْ لا تُـــجْ مَـــضْرَبَكْ

وهذا برق مخصوص لم يسمِّه برقاً ولكن جهته وهي أم شبك، وصفته وهي اللمعان، وفعْلته وهي الضرب المؤلم، كلُّها تدل عليه. وهذه رواية الديوان.

والبرق كما يلمع، فإنه أيضاً يلوح.. وله ﯾﮯ أفعاله وأسمائه وآثاره عجائب نظم وإبداع تلقاك إن شاء الله ﯾﮯ مبحث البروق. ولكنه كنى عن هذا اللائح فقال(٢١٠):

الـــــلاح عَجِيبتُـــــو   لقـــــى ﯾﮯ ضَـــــريبتُو

كيـــف ألقـــى طِيبتُـــو   عُمْـــــرِي واخيبتـــــو

من عجائب هذا البرق اللائح أنه صادف مني مقتلاً أو (لِقَى فِيْ فُرصة). وهكذا هو مع البروق وغيرها، دائماً ﯾﮯ أسلوب متجدد وطريق ممهد مَهْيَع لا عقبة فيه ولا عسر ولا صناعة.

وترد عند الشيخ كنايات متفرقة عن نباتات وجمادات وأحياء وأشياء محسوسة أو معنوية كالكناية بالسورة أم تسع كافات عن سورة (الشرح) والكناية عن آيات القرآن بصادقات الوعد ﯾﮯ قوله (٢٨٠):

اســـتَغْنُوا بـــي قُـــول ود مَعَـــدْ   مَـــادَّاه صَـــادْقَات الوَعَـــد

وكنى عن صحيفة الأعمال أو الكتاب الذي يؤتاه الإنسان يوم القيامة بالمرقوم ﯾﮯ قوله (٣٢٩): **ويداي سلِّما المرقوم.**

وكنى عن علم الرسول (ﷺ) الذي أمر بكتمه مع الذي أمر بتبليغه والذي خُيِّر فيه فقال (٣٦٩):

ﯾﮯ الرُّسُـــل مَخْتُـــوم   مِـــنْ أكـــان غـــيرو   الخُـــصّ بـــالمكتوم

وكنى عن الليل بذي السمير وهو كناية قديمة (٣٠٥):

أبْقِينِـــي كَهْفَـــاً للــــهَمِيرْ   أقْـــرِي الـــضِّيُوف مَـــعَ ذَا الـــسَّمِيرْ

يريد أن يكون كهفاً للضعيف وأن يقري ضيوف آخر الليل (ذو السمير).

وكنى عن النوم بكناية لطيفة ﯾﮯ قوله داعياً لنفسه(٤٩٢):

قَـــوِّى يـــا قَـــوِي إيمانَـــا وإســـلامَا   واحكُـــمْ بِـــي زمـــامْ التقـــوى إبْلامَـــا

والتَّابَـــا الـــشَّرَابْ والجَّالِـــبْ أحَلامَـــا   والقُـــوتْ لا لِعِلَّـــة وارْفَـــع أعْلامَـــا

أراد لها قوة الإسلام وقوة الإيمان وأن تقود التقوى زمامها، وأن تزهد في الشراب والطعام (والجالب الأحلام) أي: النوم وهو الَّذي يجلب الأحلام. وتأمل هذا الاحتياط الواعي، أراد أن تأبى نفسه الأكل والشرب والنوم، ليس مرضاً ولا لعلة أيًّا كانت، ولكن زهداً وتعبّداً لترتفع مكانتها ويعلو شأنها.

وهذا مثل كنايته عن القلب في دعائه أيضاً حين قال(٣٧٧):

يَـا حَـي أحْيَـا وأحْـي قَوائـدْ الأجْـسَادْ   أرْجُـو بِجَـاه نَبِيـكْ مَـنْ للرُّسُـلْ قَـدْ سَـادْ

فقوائد الأجساد هي القلوب لأنها تقود الجسد وتوجِّهُه، وحياتها حياة للجسد وموتها موتُه، يريد إحياءها بهذه السيرة المباركة.

وكنى عن العيون بالكريمات، في قوله (٥٤٨):

هَـاكْ مَـا لأمّـاتُو   وثَـانِي الغَنِيمَـات

كالـشَّمْسِ مِـنْ مَـاتُو   عَـادْ، والكِرِيمَـات

هاك ما اختصت به أمهاته ومنهن حليمة وغنيماتها، وأعاد من ماتوا مثلما أعاد الشمس وكذلك أعاد وردّ العيون كعين قتادة والكرار وغيره.

هذا ما كان من أمر الكناية عن الذوات وبقيت الكناية عن الصفات، ولوضوحها سنمضي فيها بأسلوب الطرق الخفيف ونترك للقارئ إمعان النظر والتأمل فيما أضفاه هذا الأسلوب على الكلام من طلاوة وما أضافه من حلاوة..

الكناية عن الصفات:

تقدم في الحديث أن الكناية تكون إما عن موصوف (ذات) وإما عن صفة. وقد بسطت الحديث فيما مضى عن الكناية عن الذوات الموصوفة، مثل ذات الحبيب (ﷺ) أو الموصوفات الأخرى كالجذع والبعير والغلام ونحوه. ونعود في هذا القسم لبسط الحديث عن الكناية عن الصفات، مثل الخفّة والسرعة وكثرة الذنوب والتواضع والحلم ونحوه. وسأوردها مختصرة بقدر الإمكان حتى لا يطول المبحث.

ومن كنايات الشيخ التي لا تكاد تحصى عن صفات النبي (ﷺ)، ما جاء عن تواضعه (ﷺ) في قوله (٣٧١):

يَحْلِـبْ يَرْفَـا ثوبُـو ويَخْـصِفْ الـنِّعْلاتْ

فقد كان من تواضعه (ﷺ) أنه يحلب شاته ويرقع ثوبه ويخيطه، ويخصف نعله فهذه هي صفة التواضع التي أرادها الشاعر فعبّر عنها بما يدلّ عليها.

ولما أراد وصف سرعة رحلة الإسراء والمعراج صرّح بذلك في مواضع وكنى عنه في مواضع أخرى منها قوله (٣٤١):

سُبحان مَنْ أسْرَاكْ بأعزّ مَحْفَلْ وزَوَى لِعليَاكْ الأعْلَى وأسفَلْ

لمزيد عَطَاك وشفاعةً جَاهَا رفَّلْ ورجعتْ فرْشَك دأفي أيا المنفَّلْ

أسريت وعلوت وأعطيت ما أعطيت ورجعت وكأنك قد قمت من فراشك الآن لأنه ما يزال دافئاً، فقوله (فرشك دافي) كناية عن سرعة المغادرة والعودة.

وفي قصيدة (ظهرت ربوحو) أكثر من كناية، ففي حديثه عن البرق يقول (٢٠٣):

برقاً تَدير رمى سَهْمُو قلْبِي لمزاجِي غَيَّر

كالثّكْلَى الفاقده أنا حالي صَيَّر عازِمْ بالقومه لكن مَهَيَّر

فقوله (عازم بالقومه لكن مهيّر) كناية عن سوء الحال وضعف ذات اليد الذي يُقْعِدُه عن الحجاز.

وقال فيها عن منافسيه (٢٠٣):

لا تَخشَ باسُم ظافر بالمحفل كاسك شال كاسُم

موطى مَداسَك على راس مدَاسُم لا فَخر فاسَك جَب تَاكل فَاسُم

فهو متفوق على أقرانه ظافر وفائز، وكون مداسه على رأسهم هذه كناية عن العُلُوّ وأكل فأسه لفأسهم كناية عن الانتصار والقوة.

وفي حديث البرق الذي لا ينقضي في هذا الديوان يقول (٥٤٨):

بَرقْ الحِجَازْ نَفَشْ قَلْبِي وغَطا انكفشْ

ضَاع عُمْري الما طَفَشْ لا زادْ ولا عَفَشْ

هذا البرق الذي نفش قلبه نفش القطن وهذه كناية عن شدة تحريكه، وكشف الغطاء كناية عن فضحه بالقلق وقلة الصبر، وفي الشطرين الأخيرين يريد السفر بلا استعداد ويتحسر عليه. وفي (القومة) بلا زاد ولا عفش أيضاً كناية عن الاستعجال شوقاً. ومثله قوله عن البرق أيضاً (٣٨١):

شُفْتَ البريقْ خلاَّني أبْلَعْ رِيقَاً بعدْ رِيقْ

أصبحْ حَزين آسِف مَا بِي الفَريقْ حَالي العَلي زَي مَا حَال الغَريقْ

فقوله (خلاني أبلع ريقاً بعد ريق) كناية عن الحسرة والأسف على عدم القدرة على السفر إلى ديار المحبوب (ﷺ). و(ما بي الفريق) كناية عن تعلقه بالحبيب لا يريد سواه من أهل الحي.

وهذا المصير مع البرق كثير في ديوانه، وكلُّه كناية عن الضيق وشدة الشوق والوله مع قلة الحيلة وضعف القدرة مثلما قال (٢٨١):

أعلـــيّ لـــوم إن قُـــمْ شـــرد　　　مـــا دام علـــي ضـــاق الـــزرد

(وضيق الزرد) كناية عن الوله وشدة الأشواق مع ضعف الحال. وأصله من الحبل يربط في العنق ثم يشدُّ حتى يخنق. وكنى عن تبدُّل الحال بميلاد الرسول (ﷺ) بقوله(٥٦):

طَـــــــه يَاسِـــــــينْ　　　في رَبِيـــعْ أول وَضْـــعُو خُمـــسِينْ

شـــينّا يَـــا قـــوُم أضْـــحَتْ بِـــه ســـين　　　والـــشرور زَالـــتْ والخَماسِـــينْ

قوله (شينا يا قوم أضحت به سين) أي صارت شقاوتنا سعادة بميلاد هذا الرسول الكريم، فهذه كناية عن تبدل الحال.

ومن الكناية عن الحال أيضاً قوله (٣٩):

وانْـــدَرِجْ في قُـــومْ مَحْفَـــل الحَـــضْرَه　　　يَنْمَـــا فـــوُق زَرْعِـــي يَجـــازِي بالخُـــضْرَة

وليس ههنا زرع ولا خضرة على الحقيقة وإنما هي كناية عن تحسُّن حاله بانضمامه في سلك أهل الحضرة. مثلما قال (يا كريم زرعي يجازي بالخضرة) (٣٦٦)

وقريب منه قوله:

بَـــــارِكَنْ عُمْـــــرِي　　　وأفْنِـــى في الطَّاعَـــات ينْـــضَرِب زمـــرِي

(وضرب الزمر) كناية عن الابتهاج وأراد به هنا أيضاً أن يشتهر بين الناس ويرتفع ذكره.

وحاول معنى قريباً من ذلك حين أراد أن يدعو في إحدى صلواته فقال(٣٧٠):

الـــصَّلاة كُـــل يـــوُم

لـــي أمـــينْ الـــسِّر صّـــفْوَة القَيُّـــوُم　　　مِـــنْ حَيَـــاتِي عِرِيبِـــي البِهَـــا مَـــدْيُوم

في كـــلا الـــدَّارين ضَـــارياً ليـــهُ خِيُـــومْ

قوله (مديوم) فيه كناية عجيبة؛ فقد اصبح (ديم) وهو مكان السُّكْنَى، كالقرية والحِلَّة والمدينة فهو من كثرة صلاته ومحبته أصبح مسْكَناً ومنزلاً وحيّاً تقيم فيه الصلاة

وتسكن؛ كناية عن مداومته عليها. و(ضرب فلان خيامه) كناية عن الاستقرار، فهو يريد استقراراً وراحة في الدنيا والآخرة (في كلا الدارين).

ولكن كيف ينال ذلك وهو المعترف، هضماً وتواضعاً، أنَّه صاحب مشاكل كثيرة ولكنه يُعَوِّل على رحمة الكريم الحليم(٥٦):

لَـــو تَعَـــابِينِي يَـا حَلِـيمْ، غِـيرَكْ مَـنْ يَلبِينِـي

مُجْرِمَـاً إنِّـي كُتَّـارْ ضَـبَابيني قِيلْنِـي واقْبَلْنِـي واقْبَـلْ قَرَابِينِـي

(وفلان ضبابينو كتار) إذا كان صاحب جرائم وأفعال يؤاخذ عليها. ولكنه رفع أمره للحليم الذي لا يقابل إساءته إلا بالإحسان. لذلك فهو كبير الأمل في محو ذنوبه كلها، وقد عبر عن ذلك بكناية لطيفة حقاً في قوله(٥٠٦):

واسـقيني شـراباً سُـكرو يبقـى مُبَـاْح وأوْزَارِي التَّكُـونِ مِـنْ الـصَّحُفْ بَابَـاح

(وباباح) عبارة الأطفال المشهورة في الشيء إذا نفد وانتهى. فهو يريد أن تمحى ذنوبه كلها وتصبح صحائفه بيضاء نظيفة كناية عن محوها. و(باباح) أسلوب عربي فصيح شرحته في مبحث اللُّغة.

وفي قصيدته (نعم سُكّانا) كنايات كثيرة مليحة منها قول(١١٨):

نَفْـسِي دَرْكَانَـه بَـالمُكُر والغِـش عَـامْرَه دُكّانَـا

قَـدّها يَبـوبِي خَـالِي سُـكّانَه نَاسْـيَة مَـا يكُـوُن تَـانِي ومَـا كَانَـا

نفسه هالكة من جراء المكر والغش الذي يعيش به بين الخلق. و(دكانها عامر) كناية عن امتلائها بذلك. وهي فارغة خالية من الخيرات لذلك قال(قدَّها يبوبي) كناية عن اتساعه، و(خالي سكانه) كناية عن خلوِّه مما يرتقه ويسده، والسُّكانة ما يسد به الثقب من خشب أو قماش ونحوه. أراد بكل ذلك أن نفسه (هلكانة) بسبب امتلائها بالغش والخداع والمكر وخلوها من الصالحات؛ لذلك هو شديد الحرص على الإصلاح ويرى في المديح الوسيلة الناجعة والعلاج الشافي، فيوصي زماله بكناية لطيفة في قوله (١٦٨):

يَـا سَـعِيدْ عَلِـي ودْ حَـسَنْ سِـنُّوا الأحبـة سَـنْ

بِـي مَـدِيحْ شَـافع الأسـنْ في رِقَابَـا أرْمُـو الرَّسَـنْ

(سن الأحبّه) كناية عن شحذ هممهم وحضهم على الطاعات بالتأسي بأخلاق الممدوح (ﷺ) شافع النفوس المسيئة (الأسن: أي اللائي أسأنَ) قودوهم بذلك كما يقاد البعير بالرسن. فقوله (في رقابا أرمو الرسن) كناية عن حسن التوجيه والإرشاد وتقييدها برسن

المديح لأن فيه أخلاق الممدوح الدالة على الصالحات والطاعات وهم بغير ذلك لن يجدوا سبيلا إلى إرضاء الله والجنة؛ الذي عبر عنه في موضع آخر بقوله (٢٧٥):

اسـتَغْفِرُوا ذِنُـوبْكُم كُتَـارْ ... تُوبُـوا انْهَـضُوا هَيَـا يَـا فُتَـارْ

الكَـدْ وَجَـدْ والبِمْـشِي تَـار ... والله مَـا بْـشُمّ الكُتَـارْ

وشم الكتار كناية عن دخول الجنة والتمتع بنعيمها لأننا إذا قلنا إن فلاناً لم يشم رائح كذا (والله ما تشم ريحتة) أي لن تقربه أبداً، و(البمشي تار) أي يرجع القهقري، كناية عن الإعراض عن الصالحات.

وما أكثر كناياته عن الصفات، فهو إذا أراد التعبير عن ضيق ذات اليد الذي يمنع من الرحلة إلى الحجاز قال (٢٥٧):

نَويـتْ القُومَـة القِيُـوُد مُنْطَبْلَـة

وليس هنا قيد ولا قفل، وإنَّما هي كناية عن عدم الاستطاعة.

وإذا تحدث عن الخير الذي فتح الرسول أبوابه قال (٣٣):

جَـاء بِـالخَيرِ ولِـي بَكـارْتُو فَـضَّ

(وفض البكارة) كناية عن (الفتح) والرسول (ﷺ) هو مفتاح كل مغلق. وإذا تحدث عن الصحابة وشجاعتهم وقوة ضربهم قال (٩٨):

تاكـل سـيوفهم نجـم ... في الأعـدا مـا بتـنجم

(أكل نجم) كناية عن الحِدَّة والمضاء، و(ما بتنجم) كناية عن الاستمرار والهمة.

والكناية بأنواعها في هذا الديوان بحر لا ينكث؛ وبالجملة فإن المتتبع للديوان يلاحظ اعتماد الشيخ عليها في تكوين صوره وتلوينها وقد جاءت سائغة ممتعة، ما كاد يترك ذاتاً أو صفة إلا كنى عنها ولولا خشية الإطالة أسهبنا فيها فإنها مما تحتاج إلى الإضاءة. وهي، من بعدُ، تكشف عن شاعر كبير متمكن خدم السيرة التي أحبها وأتقن معرفتها واستخدم في ذلك كل أسلوب بديع وكل تعبير بليغ مفجّراً طاقات اللغة وينابيع البلاغة لهذا الغرض النبيل فأجاد وأفاد؛ عليه رحمة الله ورضوانه.

الجناس ولزوم ما لا يلزم

الجناس هو اتفاق الألفاظ في نوع الحروف وضبطها وعددها وترتيبها مثل (اليابس) بمعنى الجاف و(اليابس) بمعنى (الفارغ) وسيرد التمثيل بها. فإن اختلف تشكيل الحروف أو عددها أو ترتيبها سمي جناساً ناقصاً مثل (حُجَرٌ من حَجَر) أي غرف من الحجر.

أمَّا (لزوم ما لا يلزم) فهو أن يلتزم الشاعر أكثر من حرف في قافية القصيدة لا يخرج عنه، تمكناً واقتداراً، لأنَّ القافية في العادة تقوم على حرف واحد مثل (وطن وفنن وظعن). فالشاعر الذي يزيد ويختار حرفين أو أكثر مثل (بانيها – جانيها – فانيها) فإنَّ ذلك لا يلزمه ولا يشترط عليه إذ يمكنه أن يقول (بانيها – راعيها – قاضيها) فإن التزم واستمر عليه سمي (لزوم ما لا يلزم) وهو أمر يحتاج إلى الملكة المصقولة والمعجم الغني والبراعة في النظم.

أ/ الجناس:

أمَّا الجناس فسأدلف إليه بعد أن أبيِّن أنَّ الشيخ حياتي شديد الفخر بأمداحه؛ وحق له، يجعلها دراً نفيساً لعظمة الممدوح وهو أحق بأكثر منها وأهل لما فوقها، فيصفها بالدر كما تقدم في مبحث (قيمة المديح عنده) أو كما قال (٣٣):

انتخب درراً   عازَّه في المقدار باللآلي زرنْ

خالية من ألْحانْ خالية من زوراً   والسِّمع خَبَرَ أدَّى حالْ خبراً

فهذه المدائح التي تزري بالجوهر والدر خالية من الخطأ والكذب فهي حق وصواب يستخدم فيها أساليب البلاغة التي يعرفها ويحسنها، فقبل أن يذكر الجناس ذكر السجع في معرض الثناء على مديحه وإعزازه له وإعجابه به لا لشيء إلا لكونه في مدح الحبيب (ﷺ) كما قال (٣٤٠):

مِنْ بعدْ ذا إنْشَا فُوقَكْ سَبَكْ لُو   عازّ المعاني بديع في المبنى شَكْلُو

رَامْي القلُوبْ مَرْمَى سَجْعُو الحبَكْ لُو   وتعِي المَسَامِع الوَاعْيَة العينْ تَبك لُوْ

وهذه هي الغاية: الإنشاء المسبوك، العزيز المعاني، البديع المباني سجعه يرمي حبَّات القلوب تفهمه الآذان الواعية فتدمع عيون صاحبها.

ويعيد المعاني السابقة ويدخل الجناس هذه المرة فيقول (٢٢٥):

مَنْ دَنْ دَنْ مَدَايحُو العَذْبَه وحَلِيَّه   يَا لَهَا مِنْ جِنَاسْ مِنْ عَيْب خَلِيَّه

خَامَرَتْ القِلُوب بي الآيات مليَّه   فوق مَنْ أسْرَى شافْ الذَّاتَ العَلِيَّة

وما أرى الشيخ قصد بالجناس إلاَّ معناه الواسع الذي يدخل فيه جناس الاشتقاق في نحو قوله (٤٨):

القَلِـــــبْ مَكْفِـــــي	والـــدَّليلْ واضِـــح مَـــا علـــيْ تكْفِـــي
هـــا عكـــف بالبـــاب يـــا كـــريم عَكْـــفِ	أكفـــني نفـــسي وأكفـــني النَّكْفِـــي

فقوله (مكفي، تكفي، أكفني، أكفني، النَّكفي) هي من هذا الباب، أو يكون أراد التزامه الذي هو ضرب من المجانسة بلا ريب، يدلك على ذلك أنَّه سماه (نظماً جناسه دُرّ عجيب) في قوله (١٨٥):

ارجـــع يـــا لـــساني وجيـــب	مـــدحاً در جناسُـــو عجيـــب
فـــوق ذي العـــزّة والتوجيـــب	عنـــد الله المجيـــب يـــا نجيـــب

فهذه الجيم وأخواتها الياء والباء هي الجناس لا تّفاقها التام في كل شيء – وقد جاء عنده بكثرة الجناس المعروف عندنا كما سيأتي ولكن في لزومياته جناس غَزير عزيز، مطرب يحيي سماعه الكسول ويغسل باطنه (غسول) كما قال (١٩١):

أثْنِـــي ثَنَـــاي علـــى المرسُـــولْ	فـــايق أضْـــعَاف حـــلاتْ عَـــسُولْ
يَحْيَـــي سَـــمَاعْ جِنَاسُـــو كـــسُولْ	يَغْـــسِلْ لـــي جُـــواه غَـــسُولْ

يثني على النَّبي (ﷺ) ثناءً حلاوته أضعاف حلاوة أشكال العسل.

وهو شديد الإحساس بقوة جناسه شديد الثقة في تأثيره في النّاس راسخ اليقين في أثره البالغ كما قال (٣٤٥):

صَـلواتْ حيـاتي عـريبي جِناسَـا طَـاربْ	ضـــوَّتْ قِلُـــوبْ النَّـــاس زَي الكَهَـــارب
يـــا سَـعد مَـــنْ بهـــا لاذ دنْ كَاسَـــا شَـــارِبْ	أريَاحَـــا كميَّـــات لهـــا مـــن يـــضَارب؟

خطا من الثقة واليقين إلى التحدي المعلن، وهذه هي الغاية.

نترك الشيخ هنا ونتتبع في ديوانه الجناس الآخر الذي عرفه البلاغيون، فنلقاه وقد جانس بين اللفظين والثلاثة، جناساً تاماً أو ناقصاً وهو جناس طبيعي ليس فيه تكلف ولا هام به وسرح معه فترك غرضه الذي يعيش فيه بكلياته وهو المدح.

ومما جانس فيه بين لفظتين جناساً تامّاً قوله (٢٢٤):

جَمَّـــلْ نُـــورو الملابِـــسْ	واخْـــضَرْ بمـــرورو يَـــابِسْ
مَـــا سَـــوْ عِـــنْ بـــابُو حـــابس	غَنَـــى عـــدمان بيتُـــو يـــابس

فالجناس التام في قوله (يابس) في الشطرين الثاني والرابع، فقوله (يابس) الأولى بمعنى الجاف من (اليباس) ضد الخضرة. والثانية بمعنى (الفارغ) أو الخالي من المتاع. ثم التزم الألف والباء والسين في الأشطار الأربعة وهو لعمري ضرب من الجناس.

ومنه قوله (٤٤٦):

أنجال ودبدر سَوْ دَيْدَنَا الآدابْ   والجُود والكَّرَمْ ما يَبْقُوا دَابْ الدَّابْ

والنَّهج القويمْ يمشُوب لا الدَّادابْ   واكْفيهم ضَرَرْ عينْ الحسود والدَّابْ

فقوله (الداب) في الشطرة الأولى والرابعة هي موضع الجناس التام، اتفقت في كل شي واختلفت في المعنى إذ الأولى بمعنى (قدر حالهم) والثانية ما يدب على الأرض من المخلوقات المضرة كالسباع وذوات السمِّ من عقارب وأفاعٍ ونحوها. أو حتى الإنسان فإنه يدب ويضر. والتزم مع ذلك الدال والألف والباء في الأشطار الأربعة كعادته في اللزوم كما سياتي بيانه.

وجانس أيضاً في قوله (١٥٢):

تُبرا الجروح   بعد الوصول نمْكُثْ نَغَدَا ونرُوح

في الروضه مَا مَرْ يوم لا من نَرُوح   نُدْفَنْ جوارُ الكَانْ يالفُو الْمَرُوح

وفي (نروح) الأولى من الرواح الذي هو ضد الغدو في الشطرة الثانية و(نروح) بمعنى نذهب كما في الشطرة الثالثة مع المحافظة على (الراء والواو والحاء) في الأشطار الأربعة.

وجانس الجناس المعلوم وجناس الاشتقاق في قوله (٧١):

والتيس والأدنى ودنوه للأدنى

وبين (الأدني ودنوه للأدنى) جناس الاشتقاق إذ الأصل واحد. والجناس التام بين (الأدنى) الأولى والأخيرة، الأولى بمعنى (الأدناه) وهو الناي والبعد الذي قربه وطواه فأدناه أي جعله دانياً قريباً. والثانية (الأدنا) وهي (الأدناه) أيضاً ومعناها (الذي قرّبه) وهو المولى عزَّ وجل فيكون المعنى ودنوه لله الذي قرّبه وأدناه حتى كان كقاب قوسين. وهذا من الدقيق فتأمّله!

ومن الجناس التام قوله (١٤٠):

وأم أخْشَاف   والعُودْ البكاه إنْشَافْ

والبير بعدما الإنشاف   والأعمى المطَوِّل شافْ

(انشاف) الأولى بمعنى (رُئيَ) من (الشوف) وهو النظر، و(الإنشاف) الثانية من (النَّشَاف) أي: الجفاف وانعدام الماء مثلما قال الآخر:

والـــــــبير النّاشـــــــفه صـــــــــارت مُـــــــسَرَّفه

ومن الجناس الناقص في كلمتين قوله (٤٨):

علِّـــــي أصـــــير معْفِـــــي بالـــدوام مجـــبي وزايـــداً ضِـــعْف

واقـــوى في ديـــني واقـــوى مـــن ضَـــعفِ والغنـــا يـــضاجعني ويـــزول شـــعفي

فقوله (ضِعف) و(ضَعف) جناس ناقص لاختلاف ضبط الضاد بالكسر في الأولى والفتح في الثانية واتفاقها في نوع الحروف وترتيبها وعددها. مع التزام العين والفاء في الجميع.

ومثله قوله (٩٧):

زيـــــن وأ بـــــري كِلامـــــي زكّـــــي فعلـــــي كَلامـــــي

قـــــوي ديـــــن إســـــلامي وتـــــسمى فـــــوق أعلامـــــي

والجناس الناقص هنا بين (كِلامي) بكسر الكاف، و(كَلامي) بفتحها، الأولى بمعنى (الجروح) والثانية بمعنى (القول) مع استمراره في التزام اللام والألف والميم والياء.

ومنه أيضاً قوله (٦٠):

فاقِـــد الجـــيرانْ لـــي الـــضيوف مُقْـــري منتهـــى الحـــسن والخُلُـــق مَقْـــري

(مُقري) بضم الميم من القِرى والإطعام أي مُكرِم و(مَقْري) بفتح الميم أي (مَتْلوٌّ) في القرآن وهو قوله تعالى (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ).

أمَّا ما جانس فيه بين ثلاثة ألفاظ فكثير، منه قوله (٣١٥):

أقنـــى وأشـــم نـــون حـــاجبُو صَـــادْ الـــصدرو شُـــقّ بـــلا انفـــصاد

شـــقَّ البـــدر جـــا وثُـــمَّ صـــاد والنّخـــل حـــال بلـــغ الحـــصاد

والـــصيده ضـــيف اللّيهـــا صـــاد

هـذا حـضور مـدهش وغـزارة متناهيـة. (صـاد) الأولى تعـني أن حاجبـه كـشكل حـرف الصاد، أراد الجزء الأعلى المقوس منه، و(صاد) الثانية بمعنى (رجع) من قولهم (الصَّدّه بعد الْمَرْقَـهْ حـارّه) و(صـاد) الأخـيرة فعـل مـاض مـن الـصَّيد (صـاد يـصيد) واحتفظـت الكلمتـان الباقيتان بمقطع (الصَّاد) في (انفصاد والحصاد).

وقال أيضاً (٣٢١):

مـــن آيـــو هَـــاكْ ثـــدياً نـــشوف والـــصيده والـــصاد والخـــشوف

شـــاف ميـــسره ولـــي ضـــمره شـــوف حيـــدر قتـــادة، مثلـــو شـــوف

الأعمـــــى، ســـــلمان شـــــاف لـــــو شـــــوف

(شوف) في االشطرة الثالثة بمعنى (نَظَر ورؤية) و(شوف) في الشطرة الرابعة بمعنى (إبصار) بعد العمى. و(شوف) في الشطرة الأخيرة بمعنى (الشيء العجيب). وبقي مقطع المجانسة ذاته مُلْتَزَماً في (نشوف) وهي بمعنى (جاف ليس فيه حليب). وفي (الخشوف) وهي صغار الصيدة.

وثلّث المجانسة في قوله (١٢٥):

بي أمداحاً حاويه شي	يتولّد منها شي
ذا الحب يشويه شي	يحمي الغدا والعِشَي

(شي) الأولى أراد بها الكثرة والعظمة، والثانية بمعنى يتولّد منها شيء عجيب، أراد الطرب والامتاع و(شي) الثالثة من الإحراق بالنار.

وكاد يثلّث المجانسة في قوله:

أوصل دورا	وأرى خياما أزور بدورا
أكرم زي كرم قدوره	وابلُغ لي القليبي بدورا

فالمجانسة تامة في (بدورا) الأولى بمعنى (أقمارها) والثانية بمعنى (التي يريدها) أمَّا التي كاد أن يثلث بها فقوله (دورا) وهي ديارها، تنقصُها الباء من أولها فقط.

وقد يثني المجانسة بكلمتين أو ثلاث تتكون إحداها من لفظتين كقوله (٤٩):

في صنوف الخير غيرو مَنْ (مَنْ في)	من مكارم أخلاقو الكِبر منفي

فالمجانسة واقعة صوتياً حين تسمع (مَنْ) اسم الموصول موصولة مع حرف الجر (في) وتقابلها بكلمة (مَنْفِي) من النفي فالصوت والحروف هي هي إلاَّ أنَّ الأولى منفصلة والثانية متصلة.

ووقع له هذا في الجناس من ثلاث كلمات كقوله (١٤٠):

ما من شي	إلا حاصرو في المُنْشِي
المنو المدد مَنْشِي	لولا فضلو ما هان شي

فبين (المُنشي) بالضم و(المَنْشي) بالفتح جناس ناقص، الأولى أراد بها المولى عزَّوجل والثانية المفتوحة أراد بها (متكوِّن) وناشيء، وكُلُّه متّصل الحروف، أمَّا المنفصل فقوله (مِنْ شي) حرف الجر (من) مع الاسم (شي) فهي في الصوت كالكلمة الواحدة.

وهكذا يطول الأمر، وهو طويل مبسوط في الديوان والدراسة لمن أحَبَّ تتبعه وتقصيه. وكله لم يشغل الشاعر عن غرضه الذي يدور عليه وهو المدح بل أعطاه ديباجة مشرقة وحيوية طاغية وطعماً متفرداً، رحمه الله وأحسن إليه.

ب/ لزوم ما لا يلزم:

الشيخ حياتي هو شاعر اللزوم والجناس الأوّل في ميدان المديح النّبوي الشعبي في السُّودان غير منازع، وقد سبقه الأقدمون إلى لزوم ما لا يلزم ولكنه كان قليلاً عندهم أمَّا عنده هو فقد التزمه التزاماً كاملاً لم يخرج عنه في طول الديوان وعرضه في قصائده الإحدى والثلاثين والمائتين إلا في شطرتين، وربما كانتا من عمل الرواة أو النسَّاخ كما سأبينه في موضعه إن شاء الله. فالديوان قسمان: مائة وثلاث وثلاثون قصيدة، في كل قصيدة مجموعة من المقاطع أو المربّعات مختلفة القوافي، غير أنَّ المربعة أو المقطع الواحد في نفسه ملتزم التزاماً كاملاً. كما أنَّ في الديوان ثمانياً وتسعين قصيدة، كل قصيدة تتفق جميع مقاطعها أو مربعاتها في القافية مع التزام حرف آخر مختلف قبل القافية في كل مقطع أو مربعة. وأعني بالمربعة ما تَكَوَّن من أربعة أشطار وبالمقطع ما زاد على ذلك وقد أسمي الجميع مقاطع. وغالب قصائد الديوان مربعات وجاءت المقاطع مكونة من خمسة أو ستة أشطار. ما زادت على ذلك إطلاقاً.

أمَّا القصائد المتنوعة القوافي فمثالها قصيدته (زاد عياي ما لي طبيب) وسنختار منها مقاطع متتالية وهي التي مطلعها (٣٦٢):

زادْ عَيَـــاي مـــا لـــي طبيـــبْ   والله غـــير سَـــيِّدْ خُبِيـــبْ

وبعد المقاطع مباشرة قوله (٣٦٢):

يَـا مَـنْ حَلِـيمْ أَنَـا كلـي عيـب   اسْـــتُرني في الـــزَّمنْ التَّعيـــبْ

بـي جـاه نبيـك سـيِّد شُـعِيبْ   هـوِّنْ لـي كـلْ أمـرٍ صَـعِيبْ

❖❖❖❖

أكفـيني شَـرْ صَـايْبَاً يـصيبْ   واجْعَـلْ لـي زيـنْ وافـرَ النَّـصيبْ

أَهْطِـل علـي بـالفور صـبيبْ   نعمَـك أَيَـا نـاي العَـصِيبْ

❖❖❖❖

أَمْـدَحْ مَـديحاً مُـنحكِم   يَجْهَـلْ حَقيقَـةُ المُنْـبكِمْ

بَعَـدْ الـسُّوارْ البَـسْبُو كِـمْ   كيـف بَعَـدُو أخـافْ أوانْـدَكِمْ

❖❖❖❖

مَـــدْحاً جَـــذبْ بَنْجُـــو وصَـــرَعْ فَقَـــشْ القِلُـــوب فَقْـــشَ القَـــرَعْ

سَـــرَدْ المُحِـــبْ لا مَـــنْ تَـــرَعْ مَـــا جَـــفَّ دَمْعُـــو ولا انْقَـــرَعْ

فالتزم الشاعر في المربعة الأولى ثلاثة أحرف (العين والياء والباء) ومضى على ذلك في الأشطار الأربعة في القوافي: (عيب، تعيب، شعيب، صعيب). والتزم في المربعة الثانية ثلاثة أحرف (الصاد والياء والباء) في قوافي الأشطار (يصيب، نصيب، صبيب، عصيب). والتزم في المربعة الثالثة حرفين (الكاف والميم) في الكلمات (منحكم، منبكم، كِمْ، اندكم) والتزم في المربعة الأخيرة حرفين (الراء والعين) في الكلمات (صرع، قرع، ترع، انقرع).

هذا حين ينوع في قوافي القصيدة الواحدة. وهنا في هذا النوع لزوم خفي في جميع قصائد الديوان وهو أن قافية المقطع الأول من القصيدة تأتي متحدة مع قافية المطلع (العصاية) وقد يستمر اتحاد القوافي في مقطعين أو ثلاثة ثم ينوِّع بعد ذلك، وهذا دقيق فتأمّله!

أمَّا القصائد التي جاءت على قافية واحدة من أوَّل القصيدة إلى آخرها فثمان وتسعون قصيدة وفيها كلها التزام داخلي، وذلك أن تكون القصيدة متحدة القوافي وفوق ذلك يلتزم الشيخ حرفاً أو أكثر قبل القافية، ومثاله قصيدته (لهفي وا لهفي) ومطلعها (٤٨):

لَهَفِـي وا لَهفـي لـي أم سـور والخـزين كَهْفـى لا متـى أهْفَـى

والهفى على (أم سور) مدينة الخزين المُدَّخَر، الكهف والملجأ. إلى متى الهفوة والغفلة عنها والاشتغال بغيره؟ وبعد المطلع مباشرة قوله (٤٨):

القَلِـــب مكْفِـــي والـدليل واضـح مـا علـي تكفـي

هـا عكـف بالبـاب يـا كـريم أكفـني نفـسي وأكفـني

عكْـــف النَّكْفِـــي

ويستمر ملتزما الفاء قافية للقصيدة وملتزماً حرفاً مختلفاً قبلها في كل مقطع ومنه:

خـــرَّف الـــصَّيف والهجـير إن مَـرْ ينْقَلـبْ هَيْـف

والعجـب يـوم حـل بـالعرش ضَـيف أكرمـوا النـا في الكيـف بـلا كَيْـف

ويمر ببرقها قائلاً:

أسـهر الطّـرف البريـق مـزق في الـدُّجا ظـرفي

آه ويَـا أسـفي وانحـراف حـرفي رائـي مـن دهـري، أحبـابي، نـوع صَـرفِ

يعني لاقي من دهري جِنِس طَنَاش!!!

ثم يختم بصلاتها:

الــــــــــصَّلاة ألــــــــــــفِ	لَــكْ دوام تَــضَّاعف تــزين هَلْفِــي
لَــيْ حيــاتي تَعَلِّــي وتَبِــرْ حَلْفــي	خــيرا يَقْــدُمْني ويــارْثُو الخَلْفــي

هذه قصيدة بنيت على إيقاع مطرِب ومعان سامية وإبداع أصيل واتحدت القافية في جميعها كما ترى وهي حرف الفاء المكسورة ولكنك تلاحظ أنَّه التزم حرفاً قبل الفاء اختلف هذا الحرف في كل مقطع، ففي المقطع الأول التزم الفاء وقبلها الكاف في (مكفي، تكفي، عكف، النّكفي) ولا يُعْتَدُّ بالياء لأنَّها إشباع والاعتماد على الفاء المكسورة كما في المقطع الذي قبل (البرق): وفيه (الصَّيْف، هيفِ، ضيفِ، كيفِ) فلم ترد الياء ولا يحتاج إليها ولا يعتدُّ بها.

والتزم هنا الياء قبل الفاء كما ترى. والتزم في مقطع البرق حرف الراء قبل الفاء (الطرف، ظرف، حرف، صرف)، والتزم في الختام اللام قبل الفاء (ألف، هلف، حلفي، خلفي) وجانس بين (حلفي وخلفي) وهذا افتنان معجب واقتدار مدهش قليل النّظير، لا يتأتَّى إلا لذي طبع أصيل وصبر جميل وحبٌّ نبيل، لأنَّ كل ما تقدم من افتنان لم يصرف الشاعر ولم يلهِهِ عن غرضه الأساس وهو مدح الجناب الكريم عليه أفضل الصَّلاة وأزكى التسليم.

وكما تقدم فإنَّ في الصنفين التزام تام في حرفين وثلاثة وأربعة وقد تصل إلى خمسة أحرف. أمَّا التزام الحرفين فقد مرَّ بك في الأمثلة المتقدمة كالفاء وما قبلها في جميع مقاطع (لهفي وا لهفي) المتقدمة وأمَّا التزام الثلاثة أحرف فمنه قوله في مدح سيدنا أبي بكر الصّديق في (الليله بجيب قول الصديق الحاب) وفيها يقول (٤٤٩):

موصـــوف بـــالكرمْ والرّحمَـــة والتَّـــذليلْ	والجُــوع والظَّمَــا دَأْبُــو قيَــام الليــلْ
في الآي مَــدْحُو جَــا ذُو الفخــرِ والتَّجليــلْ	شــجّاعاً مهــابْ والقــوم بِقَــالاَ دليــلْ

فواضح لزومه اللام والياء واللام، الثلاثة الأحرف في الأشطار الأربعة وهذا أكثر من أن يستقصي. وأما التزام الأربعة أحرف فمنه قوله في ختام (مين يبا هيكم) (٥٠٣):

الــصَّلواتْ حيــاتي تنــدي وتنــديكم	ترفــع قـــدرُو تــديّ مـــرادو تـــديكم
مـــن نـــار أم جحـــيم تفــداه تفــديكم	لـــي مقـــام الرِّضـــا تـــودّي وتـــوديكم

فالتزم (الدال والياء والكاف والميم) أربعة أحرف، بل التزم خمسة أحرف في معظم أبيات هذه القصيدة كقوله (٥٠٣):

يـــا قـــوم الـــنّبي الـــرحمن مبـــاديكم	بالرضـــا والـــنّعم حلَّـــتْ بـــواديكم

كنـــتم خـــير أمـــة مـــن أجـــل هـــاديكم   والخـــير فـــيكمُ في كفـــوف أيـــاديكم

فالتزم خمسة أحرف هي (الألف والدال والياء والكاف والميم) وهذا كثير عنده، منه قوله في (عرج المنجي خاطينا) (٤٠٩):

أَبَتْنَـــا الـــدَّار سَـــلاطِينا   لَنَـــا وغَـــشَّتْ قَفَاطِينَـــا

بـــــسَاتِينَا وهَوَاطِينَـــــا   ونِـــسَاها وكُـــور شَـــيَاطِينَا

فالتزم خمسة أحرف هي (الألف والطاء الياء والنون والألف) في الأشطار الأربعة وليس قليلاً في الديوان.

قلت: التزم الشيخ ذلك كلّه متى بدأه في موضع، لم يَحُدْ عنه إن كان في حرفين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أحرف، ولم يخرج عن ذلك في طول الديوان وعرضه إلا في موضعين هما قوله في (يا عشاق أرح لي القدرو) كما في رواية الديوان (١٩٤):

نعـــم أصـــحابو راكبـــه الـــشُّقْرُ   ديمـــا يحكـــرو مـــابِنْحَكْروا

صـــالتين في الـــضرب مـــابعقْرو   خلـــوا الجـــوِّ يَعَـــرِضْ صـــقْرو

فقال (يحكروا ما بنحكروا) فخرج من القاف التي قبل القافية إلى الكاف وهي أختها كما نقول (قتل وَكَتَل). ولا أرى الشيخ إلا قال (ما بنحقروا) ثم غيرها من غيَّرها غير مستلطفٍ (الحقارة) صفةً للصحابة. وأنا مع من ذهب هذا المذهب وإن كان (احتقار الكافر) وارداً إذا كان قتله وارداً. وقد سمعت رواية موفقة من أبناء الشيخ حياتي (ديما يحكروا ما بنحقروا) وهي رواية مستحسنة جداً جمعت بين المعنيين. وكنت قلت لأحد المادحين إن (يحكروا ما بنحكروا) أقوى لأن فيها قوتهم ومهارتهم وقدرتهم على العدو الذي يحصرونه أمامهم ويحيطون به ويسوقونه كالغنم، فقال لي، وكان صاحب إلمام جيِّد برواية المديح: (لكن شيخ حياتي كان جاب القاف بجيبا في المربعة كلها) جزى الله خيراً أخانا المادح عبدالله أحمد العجب (عبيدو) فإن له اختصاصاً بالشيخ حياتي. قلت: منهج الشيخ الذي سار عليه ولم يفارقه يقتضي التزام الكاف في كل الأشطار وهو معنى لا بأس به وإن كان الكاف في الشطرة الثانية أمدح: والكاف والقاف أخوات كما قدمت، والمعنيان صحيحان.

والذي يؤيد أن للنُّسّاخ والمادحين أثراً في تغيير بعض ألفاظ الرواة الشعراء أنَّ هذه القصيدة لشيوعها وانتشارها فيها اختلاف في الرِّواية في مواضع عديدة، أوَّلها الذي وقفنا عنده ثم قوله في المربعة نفسها (١٩٤):

خلو الْجَوِّ يَعَرِض صَقْرُو. والمشهور (يحلِّق) مكان (يعرض).

وقوله: **خمراً يضوي قلبُو يَعْمرُو**. والمسموع (باطنو) مكان (قَلْبُو).

وقوله: **والشوم والأيام العُسْرُ**. والمشهور (الليالي) مكان (الأيام).

ولعمري إنَّ المشهور هذا كله أوقع في النفس من رواية الديوان، وكلّه يؤدي المعنى.

أمَّا الموضع الثاني فقوله في (بشكر الآساد) في مقطع طويل (٤٦٢):

عـــاجْبنِي الـــصّحابة الخيلـــهمْ رهـــبَنْ	**لـــي قلـــوب العِـــدَا وأسْـــيافهُمْ ضـــربَنْ**
اعنـــاقُمْ رؤسُـــمْ منهـــا انْـــشَطَبَنْ	**يَـــا صـــاحْ والجِتَـــتْ اتقطعـــن اريَـــنْ**
خلّـــوهُم قنـــاطِرْ والـــدِّمَا جلـــبَنْ	**والطـــايراتْ خَـــوَنْ فـــوق فُـــوقُمْ اتَّلَـــبَنْ**
شِـــبْعَنْ بالهنَـــا في كُـــلَّ مَـــا طَلَـــبَنْ	**نِعْـــمَ الـــصَّفِنَاتْ بالنَّـــصْرِ انْقلَـــبَنْ**
نِعْـــمَ أسْـــيَادِي أنَـــا الفُـــوقُنْ كنبْـــتِ رُبـــىً	**دَقـــرْ العـــينْ حبَـــابُم صَـــدُّوا بـــي وجَـــبَنْ**
بَـــادُوا المـــشركين عَمَّـــاً وخـــالْ وابْنَـــاً	**والمِـــنْهُمْ حيُـــو عقـــولُمْ يمـــين ذهَـــبنْ**
وَلُّـــو مـــدبرينْ واقـــدامهُم قـــرينْ	**الواحـــدْ تَـــرَا يـــدُبْ تَـــارَة تـــارَه خَـــبَنْ**
واتْلَفَّـــتْ يَمـــينْ وشمَـــالْ ومنقلـــبَنْ	**والظِّـــلْ مـــن زوالْ اعْـــضَاهُم اضـــطربَنْ**
لم يَـــدْرُوا العَطَـــشْ والجُـــوع ولا تعبـــاً	**والـــتْهُم همُومـــاً طيَّهَـــا كـــربَنْ**
كِرْهُوهَـــا الحيَـــاة والنُّـــوم عيـــونُم ابـــنْ	**ويْلُـــم بَعْـــدَ ذا النَّـــار لهَـــا حَطَـــبَنْ**

يُـــــسْقَوْنَ الـــــصَّديدْ لا يُخْرَجُـــــون أبـــــداً

التزم الشّيخ الباء قبل القافية وهي النون في عشرين شطرة في هذا المقطع كما ترى ولم يخرج عن ذلك إلاَّ في الشطرة الأخيرة حيث قال (أبداً) والقافية المعتادة صحيحة لا غبار عليها وهي صوت نون التنوين في (أَبَدَنْ) غير أنَّه فارق الالتزام ووضع الدال مكان الباء، وهذا لا يضيره في عمود الشعر ولكنه يخل بالالتزام، وقد ظننت أنَّ الشيخ ربما كان قال (أدباً) فغيَّرها الرواة والنساخ غير أنَّ الفهم الدقيق لا يستقيم بهذا البديل إذ الموضع موضع عذاب لا موضع تأديب والفرق واضح للمتأمِّل! والخبر اليقين في مخطوطة الديوان.

التَّصحيح بناءً على اللزوم:

قلت: إنَّ الشيخ التزم في ديوانه هذا التزاماً صارماً ليس فيه استثناء، حتى في الموضعين اللذين وقفنا عندهما آنفاً؛ لأنَّه لم يثبت لنا أنّهما من عمل الشيخ. وقد استفدت فائدة عظيمة من صرامته في الالتزام وبناءً عليها استطعت بثقة لا يشوبها شك أبداً من تصحيح كثير من الأخطاء التي وقعت في الديوان مما يتعلق بمواضع اللزوم على وجه الخصوص، وسأقف عند سائر الأخطاء والأوهام في مبحث منفصل إن شاء الله.

وأوّل هذه الأخطاء قوله كما في الديوان (٢٥٤):

عـــــن صــــــحابتُو الـــــسَّابِقْ أرضـــى يـــا رحمــن وأعلـــي طـــيبي (الفـــايِقْ)

واعفــــــى هــــــــذا الآبــــــقْ ســـوِّي في الـــدارين ســـهمي ســـهماً طـــابِقْ

فالشيخ كما ترى يلتزم (ألف المد والباء والقاف) وقد سار على ذلك في (السابق والآبق وطابِق) واختلّت الشطرة الثانية حيث ورد في الديوان (الفايق) وهذا لا يستقيم لخروجه عن الالتزام، ولأنَّ (الطيب) لا يوصف بالفايق، وإنَّما الصحيح الذي يقتضيه منهج الالتزام والمعنى هو (العَابق) بالعين مكان الفاء وبالباء الموحّدة تحتها مكان الياء المنقوطة بنقطتين من تحتها. فبذلك يصح الالتزام ويستقيم المعنى لأنَّ (العابق) من صفة الطيب وهي بمعنى الفايح والمنتشر.

وقال في صلاة (ناي الأين) (٧٢):

صـــــــلواتي لا تَفْنْـــــــا لا تبيـــــــــد، وتــــــــسعفنا

بـــــالخير، خـــــيرا تتحفنــــا جمعــــــــاً (توعظنـــــــــا)

وتكفينـــــــــا مَـــــــــا خُفْنَـــــــــا

وواضح هنا (نشاز) قافية الشطر الرابع وهو قوله (توعظنا) وخروجها عن الالتزام والمعنى، ولا أدري كيف هي في الديوان المخطوط ولم أره أبداً، ولكني أراه أراد: تَوَظِّفْنَـا؛ والله أعلم.

ومنه أيضاً قوله (٧٣):

كـــــل الـــــشرور قـــــشر والعِـــــزّ فخـــــرو (نثـــــر)

مــــا مثــــل المـــبرّا بَـــشَر ظــــل تــــاجُو في المحـــــشر

تحتُـــــــو الرُّســــــــل تحـــــــــشر

واضح أنَّ الشيخ يلتزم (الشين والراء) في الأشطار الأربعة، ووقعت المخالفة في الديوان في الشطرة الثانية حيت رسمت (نثر) بالثاء المثلثة وهذا غير صحيح، والذي أراده الشاعر بلا شك هو (نَشَر) بالشين المنقوطة وبها يستقيم الالتزام والمعنى. لأنَّ فخر العزّ يشبّه بالثياب فينشر بالشين. وفي (النثر) إضعاف للمعنى وإحالة. فتأمّله!

وجاء في الديوان (٢٧٣):

أحمــــد جُبَــــارْةَ الْمُنْرَعِــــبْ حَاشَــا الغَــضَبْ حَاشَــا (الزَّغِــب)

حَاشَـــا لأحَـــدٍ مَـــا بْيَعِـــبْ والقُـــوت، ومَـــا بْيَـــشْرَبْ يَعِـــبْ

هذه أنفاس الرّاوي ود الشاعر عليه رحمة الله.

التزم الشيخ هنا (العين والباء) في ثلاثة أشطار (المرعب، مابيعب، يعب)، وجاءت الشطرة الثانية مخالفة (الزَّعِب) بالغين المعجمة وهذا لا يصح معنى ولا يستقيم التزاماً، ولا بد من قراءتها بالعين المهملة كأخواتها (الرَّعِب): ليصحّ الالتزام كما أراده الشاعر، ولأنني لم أجد (الزغب) في لسان العرب بمعنى الظلم وسوء المعاملة. وإنَّما الوجه في كلام العرب هو (الزّعب) بالعين المهملة وهو الدفع والامتلاء والرَّدّ. أي كان الرسول (ﷺ) لا يمتلئ غضباً ولا يدفع أحداً ولا يردّه، وبهذا يستقيم المعنى واللزوم.

ومما صححته بناء على الالتزام قوله في الديوان (٢٨٦):

صُحبُو الصِّمُود ما (بِتْنَهِفْ)	الدين حيوا رغم الأنِفْ
باللامعات جَبْراً عَنِفْ	غَدُّوا الطُّيور في كُلْ صَنِفْ

خَلُّو العِلُوجْ تَجْرِي وتَنِفْ

الشاعر هنا يلتزم (النون والفاء) في (أَنِفْ، عَنِفْ، صَنِف، تَنِفْ) ووقع الخطأ في رواية الديوان في (تِنّهِف) في الشطرة الأولى (بالهاء قبل الفاء) وهذا خطأ في المعنى وإخلال بالالتزام، والصواب (ما بْتِنْهَنِف) و(هَنَفَ) الشيء إذا باعه بثمن بَخْس، أو إذا قلل قيمة الشيء، مسموعة عند كبارنا. وبذلك يصح المعنى ويستقيم اللزوم، ولا شك أن ذلك مراد الشاعر عليه رحمة الله. ولو وجدها البروفسير عون الشريف قاسم لأثبتها مكان قول الرباطابي: (قاموس العامية/ هنف).

دايِر أهَنِّف الراكبو وأَصُدْ لي أهلي

فهذا كلام اليائس يريد أن يبيع جمله هذا بأي ثمن ويرجع إلى أهله.

وفي قصيدته (بشكِّر الآساد) وقعت أشياء عديدة مما نحن فيه، منها قوله (٤٦١):

نعم الصافنات بالنّصر انقلبنْ	نعم أسيادي أنا الفوقن كنبت رُبىً
دقر العين حبابم صدوا بي وجبنْ	بادوا المشركين عماً وخال و(ابنا)
والمنهم حيوا عقولم يمين ذهبنْ	ولوا مدبرين واقدامهم قَرَيَنْ

وهنا أنفاس الإمام البوصيري في (فوقن كنبت رُبى). والشاهد هنا التزام الشاعر في هذا المقطع المكوَّن من إحدى وعشرين شطرة (الباء والنون أو التنوين) والتنوين في عرف العروضيين نون ساكنة فأخل النّاسخ بالتزام الشاعر في موضعين تقدم أحدهما وهو قوله (أبداً) وقد ناقشناه، والثاني هنا وهو قوله (عَمًّا وخال وابناً) فقوله (ابناً) لا يستقيم في الالتزام

لأنَّ (ابنَنْ) نون ونون، وفي الأشطار العشرين التزم الشاعر الباء والنون.. والوجه والصواب هو (أَبَاً) لا (ابناً) وبذا يستقيم الالتزام، بل يستقيم المعنى أيضاً لأنَّ قَرْن الأب مع الخال والعم أنسب من قرن العم والخال مع الابن وأقرب، فتأمَّل هذا.

وفي مقطع آخر من القصيدة نفسها جاء في الديوان (٤٦١):

كم مثل البعير خايف جا آمَنْهُ / والعود البكى رِفْقَاً تَيَامَنْهُ

وَدّته الوحوش والصُّمْ (أطَاعَتْهُ) / والأيكاتْ سَعَن لي حاجْتُو (وَارَثْه)

والثدي الأجْدَ كالحُبْلَى ألْبَنْهُ / سلمان نخلُو دينُو الكانْ تَدَيَّنْهُ

اختل الالتزام في الشطرين الثالث والرابع هنا في مقطع مكوّن من خمس عشرة شطرة. لأنَّ الشاعر يلتزم (النون والهاء) فجاء هذان الشطران بالتاء المثناة من فوق والهاء (أطاعَتْهُ، وارثْهُ) ولو قالها الشيخ ما أباها الشعر ولا العروض ولكن مذهبه يأباها ولابُدَّ من النون، والوجه الصحيح هو (أطاعَنْه، وارَنْه) بالنون قبل الهاء .. ولعلَّ الناسخ اغترّ بالتاء التي في (وَدَّته) في أول البيت فعطف عليها، وهذا لا يلزمه.

هذا، وما دمنا في رحاب هذه القصيدة فإنَّ الناسخ رسم فيها لفظة فيها نظر وهي كما جاء في الديوان (٤٦٢):

وَا وَلَهي على (مهيد) بالرَّواح وغدا

حتى لو وجدت في الأصل المخطوط بهذه الصورة فإنَّ الشاعر يعني بها غير ما ظهر هنا وأصل اللفظة (أم هيد) وهي ذات الهواء البارد، أراد بها الروضة الشريفة كما قال ود حضري: (تصل الرسول في (أم هيد) ونجابا من الوعيد). ورسمها بالصورة التي وردت في الديوان يغير معناها فتصبح (مهيد) تصغير (مهد) وهذا غير مقصود ولا مراد.

ومن دقائق الشيخ في اللزوم أنَّ الحركة الواحدة إذا تغيّرت تعكّر صفو الالتزام وأن الهمزة المخففة إذا حُقّقت تشعرك (بنشَاز) في البيت، ومثال الأخيرة ما جاء في الديوان (٣١٤):

بأتان حليمة كما الجواد / سبق الدواب وأحيا الجواد

ثديها مهما مَرْ بواد / اخضّر والليل اب سواد

ضوَّاه مصباح (الفُؤاد)

في المقطع تداخل التمكُّن والإبداع، فإنَّ حليمة السعدية بعد أن حملت النّبي إلى قومها تبدل حالها، فأتانها أي حمارتها العرجاء سبقت الركب كأنها جواد. ثم إنَّ النّبي الكريم

الجواد أحيا ثدييها وقد جَفّ فيهما الدَّر، وكان (ﷺ) إذا مرَّ بواد مُمْحلٍ اخضر وإذا سار في الليل أضاءه كالبدر... صلى الله وسلم على مصباح قلوبنا.

هذه الأبيات ملتزمة تماماً ولكن ناسخ الديوان رسم (الفؤاد) هكذا مهموزة الواو، وهو القلب. ولا أرى الشاعر إلاَّ أراد (الفوَاد) بلا همز وهو المسموع في العامية وهو الذي يستقيم به اللزوم في الأشطار الخمسة.

ومن الدقيق أيضاً قوله كما جاء في الديوان (٤٣٧):

كُـــفّ اللعـــين لا يغُرَّنـــا	والـــنفس واكـــشف ضـــرَّنا
مـــن المـــآثم عَرِّنـــا	بـــارك معاشْـــنَا و(دُورنـــا)

وانجالنـــا واغـــني فقرنـــا

في الشطر الرابع خروج عن الالتزام، في قوله (دورنا) كأنّه أراد جمع دار، ولا يأباه الشعر. ولكن الوجه أن يكون الشاعر قال (درَّنا) لتتناسب مع الأشطار الثلاثة التي سبقتها وهي كلها مشددة الراء (يغُرَّنا، ضُرَّنا، عَرِّنا). والدَّر هو الخير والموجود والحليب والعطاء والمال. وقد يدعو الإنسان ببركة الدور وهي الديار ولكن الدعاء لمباركة الموجود أكثر.

ومن دقيق الالتزام وعويصه قول الشاعر (٤١٠):

جـــا قايـــد الرحمـــة وعينـــا	صـدع لـي صـدعو صـاد عينـا
لـــي ذَلّـــت بعـــد فرعينـــا	الـــبراق بـــالنَّص تـــوا عينـــا

هذه القصيدة كلها مما يحتاج نظراً دقيقاً في قراءة قوافيها، فالكسرة فيها محضة أحياناً وممالة في أحيان أخرى، والمقطع السابق ممالٌ كلُّه لابد من ذلك. وقد رسمت نهاية الشطر الثاني (صاد عينا) متقاربة الحروف بما يوحي أنَّها كلمة واحدة، وليس كذلك. هما كلمتان: الفعل الماضي (صَاد) والمفعول (عينا) أي عينها. فقراءة الكسرة المحضة تجعل اللّفظ اسم فاعل (صَادِعِين) وقراءة الإمالة تجعلها بكلمتين (صاد + عينا) أي أصاب عين (ملة الضلال) وفقأها (صادها) وذلك حينما أُمر بأن يصدع بالحق فَصَدَع، فصاد عين ملة الكفر.

ومما أفادني في التزام الشيخ أنَّ النّاسخ أورد مقطعاً مكوناً من أربعة أشطار على غير العادة، في قصيدة مخمَّسة في قوله (٣٩٥):

أزْهَـــى الرُّسُـــل قـــدر وامكنـــا	وافـــصَحْ لـــسانْ مُـــو ألْكَنَـــا
سَـــالم الـــصّدر مـــنْ حـــسكنَه	يهـــوى لأهـــل المـــسْكَنه

ثم سكت هنا فانتقلت إلى الصفحة التي تليها فلم أجد بقية المخمسة في الصفحة كلها ثم انتقلت إلى الصفحة التي تليها فوجدتها في صدرها دلني عليها التزام (الكاف والنون) وعليه يكون وضع هذا الشطر في هذه الصفحة (٣٩٧) خطأ وإنَّما مكانها ذيل ص(٣٩٦) ارجعها إلى مكانها واقرأها، تجدها من لفقها ويكتمل المعنى ويستوي الالتزام ويتم عدد الأشطار.

وتنبَّه معي رحمك الله إلى الدقة الفائقة في قوله (قدرُو اْمكنا) أي (قدره) (ﷺ) (أمكن) كأنه أراد: أزهى الرسل وجهاً وأمكنهم قدراً. وأنَّ النّاسخ رسمها (قَدْر وامكنا) وهذه المسافة في الرسم بين الراء والألف تجعل الواو في الأولى ضميراً يقابل الهاء (قَدْرُهُ) وفي رسم الديوان تجعل الواو عاطفة. فالذي نراه أن تكون المسافة في النسخ بين الواو والألف (قدرُو اْمكنا) ليكون المعنى (قدره أمكن) على الوصف، لأنَّ ترك المسافة بين الراء والواو يجعل الواو عاطفة فيكون (أزهى الرسل قدراً وأمكن) والقدر لا يوصف بالزهاء، وإنَّما يوصف بالمكانة؛ فهما وإن لم يبعدا في المعنى إلا أن الوصف هنا أمدح من العطف، فتأمّلْه.

وهذا المبحث على الجملة هو أكبر دليل على قدرات الشاعر البيانية والبديعية، ولو أطلق الباحث لقلمه العنان ما رضي إلاَّ بالمرور على الديوان كلِّه، إذ كلّه على هذه الشاكلة، ولكن ذلك يُضْجِر ويُمِلُّ وفيما مضى تعريف كافٍ وتنوير شافٍ بما بقي.

الباب الثالث:
اللُّغة والتُّراث:

اللُّغة

أصوات وتصريف

الثنائية والتثنية

توظيف التراث

اللُّغة

يزاوج الشيخ حياتي بين الفصيح والعاميّ بصورة مدهشة، وديوانه من الدواوين التي تشرئب إلى الفصاحة بعنق زرافة وتعطو بجيد ظبية حتى إنَّ كثيراً من قصائده وأبياته لو أجريت عليها ضبط العربيّة وإعرابها استوت دون جهد، ولكنه يَثْني عنانها نحو العاميَّة الراقية العتيقة السلسة مراعياً حالة المخاطبين ويجمع بين الحسنيين فيحسن كل الإحسان.

وله براعة في تفجير طاقة اللُّغة حتى إنَّه يستخدم في المعنى الواحد عدداً من المترادفات ينثرها في أشعاره نثر الخبير حتى تحس في كل مرة بالتجديد والتنويع على الرغم من اتفاق المعنى. كما في (الرميس والمرموس والمنرمس والمقبر والمقبور والمترب والمدفون والملحد) وكلّه بمعنى الميت كما سيرد عليك إن شاء الله ... ثم تعجب رغم ذلك من حرصه على تكرار بعض الألفاظ حتى كأنَّه لا يعرف غيرها ربما لأنَّه يرى أنَّ غيرها لا يقوم بما في نفسه كما في ألفاظ مثل (العلوج والضرتين) والفعل (أمعن) حين يكون موجهاً للمولى عزَّ وجل وسترى تعليل ذلك إن شاء الله.

وسترى العاميَّة في أبْهى صورها، تخالطها بحسب طبيعة تكوينها أخواتها من اللُّغات المحليّة من نوبيّة وبجاوية وإن لم يكثر منها، كما ستراها لغة مفتوحة الصدر لما وفد إليها من ألفاظ أهل الحجاز والأتراك والمصريين وحتى الفارسية والأجنبية الأخرى من إنجليزية وإيطالية وغيرها، وسأعرض قطوفاً من كل ذلك في هذا الفصل.

العربيَّة الفصيحة:

قلت يكاد هذا الديوان أن يكون فصيحاً لأنه كما مرَّ وكما يلاحظ القارئ في معظم المواد والشواهد التي تمر به أنها كتبت بعاميّة عريقة قريبة النسب من الفصحى بنسبة كبيرة جداً ولذلك لن نطيل التمثيل هنا عن الفصيح لأنه بين يدي القارئ في النماذج المستشهد بها، ولكنا سنقف عند ألفاظ هي بحسب القارئ العادي مما يحتاج إلى الشرح ومراجعة المعاجم... فألفاظ مثل (الخُرَّد والحنادس والإثمد والرِّيدة والدياجر والدُّجنَّة والأطُّ والمرموس والجلمد والأكتار والقسورة والكلالة والجُدُّ والفشَّاح والمضمحل والدسيس والمنوال والقتور والمديوم) ونحوها... هذه الألفاظ العشرون التي اخترتها عشوائياً - كما يقولون - هي مما أحسُّ أنَّها تحتاج إلى الشرح عند كثير من القراء، وفي الديوان أضعافها مما هو بهذه

الصفة ... فالخرود: المرأة اللَّينة الناعمة والجمع (خُرَّد) وردت في صفة نساء الجنّة في قوله (٣١):

والشّفَاعَة وَذِيك جنّة الخرَّد

والحنادس، مفردها حندس، وهي الظلمة الشديدة ومنها حديث أبي هريرة: كنا عند رسول الله (ﷺ) في ليلة ظلماء حندس. أي شديدة الظلمة (اللِّسان/ حندس) وردت عند الشيخ مفردة ومجموعة .. قال (١٠٦):

الأكْحَلْ الأنْجَلا نُورُو الحَنَادِس جَلاَ

وقال عن المفردة (٣٥٣):

شَمْس الكَيَانْ جَالِي حنْدَس ظَلاَمَا

ويستخدم الكثير من أخواتها مثل الدّيجر والدّياجر والدُجُنَّة والغيهب والحلك وكله بمعنى الظلمة وكله من الفصيح العويص:

- **الليلة لاحْ بَرقاً جُنَح الْدَّيَاجِر (٣٤٥)**
- **خاتم الرِّسَالة ونُور الدّجَنّة (٥٣٥)**

أمَّا الإثمد فهو الكُحل، وهو هذا الحجر الذي يسحق وتكحل به العيون وورد استعمال الرسول (ﷺ) له وحضَّه عليه فهو سُنَّة وكان (ﷺ) يكتحل وهو صائم ويقول: عليكم بالإثمد فإنَّه يجلو البصر. على الرغم من أنه (ﷺ) كان أكحل خلقةً وطبيعةً لذلك قال الشيخ (٥٥٤):

ذُو البَسْط الأحْمَدِي والبِشْر السّرْمَدِي
أكْحَل غير إثْمِدِ ودرالُو الجلمَدِ

فالبسط الأحمدي سيمر بك في مبحث التراث إن شاء الله، والسرمدي هو الأبدي الدائم. (قالوا: الأبدي الذي لا نهاية له، والأزلي الذي بداية له، والأمدي ما بين بداية ونهاية، والسرمدي الذي لا بداية ولا نهاية له) أما الجلمد فهو الصخر، يقال: صخرة جلمود أي صلبة.

- أمَّا الرَّيدة بفتح الراء فهي الريح الباردة وهي الصَّبا، وهي الريح التي خُصَّ بها رسولنا (ﷺ) مع الرعب، ذكرها الشيخ في أكثر من موضع وتفرَّد بذكرها ومن ذلك قوله (٣٤٦):

فهو الخصص بالرِّيد دون كل مرسل

وقال (٣٠٣):

وهــو الخــصص بالرِّيــده، ريــد　　　مَــنْ جــدّو كــان هاشــم الثّريــد

اشتقَّ من (الريدة) جناساً في فعل الأمر (ريد) أي: أحبّ هذا الرسول الذي كان جده كريما مطعما.

- والأطُّ والأطيط الصوت القوي من أثر الحمل الثقيل، قال الشيخ (٣٦٠):

أطَّ الــــسما والأرض كــــدي مــــن ســــناه

أي ملأهما بضيائه، ولفظة (كدي) من دعامات الكلام التي سنقف عندها إن شاء الله.

- أما الدسيس فهو المخفي أوردها مجموعة في قوله (٥٣٥):

كنــــــز الدّســــــائس　　　للرّاجــــــي وآيــــــس

- والمُضْمَحِل الآيل للزوال، استخدمها في دعوة إبليس وغيره (٢٥١):

ضــــاق إبلــــيس بالمحلّــــه　　　ودعــــواه أضــــحت مــــضمحلّة

- والأكتار والكتار هو رائحة القدر الذي يغلي على النار، قال (٤٩٠):

حــــضرات الرّجــــال حــــال أنــــشُق أكتَــــارا

وهذه روائح من نوع آخر، لا كرائحة القدور والشّواء. وتكررت عنده.

- أما المنوال فهو الطريقة في قوله (٤٦٧):

شــــجّاعاً تقــــي والــــصبر منوالُــــو

- وأما الكلالة فهو الضعيف والعاجز والمفتقر، قال عليه رحمة الله (٢٥١):

رحــــب الكــــف ذو انحــــلالا　　　أغنــــى العــــادم كلالــــه

كفه رحيبة محلولة وليست مغلولة، أغنى (ﷺ) العادمين حسّا ومعنى.

- وأما القتور فهو التقليل، والمديوم هو المسكون كأنه (ديم) في قوله (٣٧٠):

مــــن حَيَــــاتي عِــــريبي البهــــا مَــــدْيُوم

وسترد بك مفصلة في مبحث الصيغ والأوزان الصرفية إن شاء الله.

- وأما الجُدّ فهو البئر القديم الخالي أو القليل الماء.. قال الشيخ (٣٤١):

ولــك الــسما أســبوع جــاد بعــد بُخلُــو　　　والجُــدْ كــضرع العجفــه مــلأت لــي خُلُــو

اللّهم ارحم هذا الرجل المحسن بقدر ما أحسن ... أراد البئر القديم ملأت خُلُوَّه مثلما ملأت ضرع الشاة العجفاء شاة أم معبد.

- وأما الفشّاح فهو من القلب المكاني وأصله (الفحّاش)، وردت في قوله (٢١٧):

وتنجـــــــــــي المـــــــــــــدمن الفــــــــــــشَّاح

وهو مرتاد الفاحشة .. والقلب في الفصيحة والعاميَّة كثير، منه العربون والرعبون والغضروف والغرضوف، والصاعقة والصاقعة، وورد منه في الدّيوان أيضاً (٥٤٨):

بَـــــرْقْ الحِجـــــاز نَفَـــــش قلـــــبي غُطـــــا انكَفَـــــشْ

أراد انكشف، إذا خاف وارتاع وتلوَّع، وهي عربية صحيحة وسودانيّة قديمة.

أما الرميس والمرموس، فسأستهل بهما الفقرة التالية.

المترادفات:

قلت: برع الشيخ كعادته في استخدام المترادفات طلباً للتجديد والتنويع وتمكناً وطرداً لسأمة التكرار. وغنى المعجم وغزارة المحصول هي صفة تلازم أسلوب الشيخ دائماً فهو حين تحدث عن إحياء الرسول (ﷺ) للأموات بإذن الله، لم يذكر (الميّت) باسم واحد، بل سمَّاه الرميس والمرموس والمنرمس والمقبر والمقبور والمترب والمنترب والملحد والمدفون، وكله بمعنى واحد. فالرميس (فعيل) من الرَّمس وهو القبر، وقد ورد عنده أيضاً ويسميه التُّربة وهي عربيّة فصيحة. والمرموس (مفعول) والمنرمس (منفعل) كما ترى من مادة الرمس. والملحد من اللّحد وهو (ود اللَّحد) عندنا كأنَّهم تخيلوا اللَّحد - وهو القبر - هو الأب وأن الشق الذي في جانبه حيث يوضع الميت هو ولده فقالوا (ولد اللَّحْد) ثم أخضعناها للساننا. أما المقبر والمقبور فمن القبر والمترب والمنترب من التُّربة، والملحد الموضوع في اللَّحد، والملحد: القبر، قال حسان بن ثابت:

بعـــــــد المغيَّـــــــب في سُـــــــواء الْمُلْحَـــــــدِ

وقال شاعرنا:

ملجانا الحيا المُقبر (٧٣)

وعَوَّدْتَ كم مُتْريا (١٠٢)

والمُلْحَد يا عَجِلْ (٢٦١)

يكفي المنرمس إحياهُ (١٤٨)

الحيا المرموس والعليل يشفي (١٤٨)

وكل مفردة وردت في هذا السياق لها شاهدها في الديوان، ولكن لوضوح الأمر اختصرته.

ولما كان الموت هو نهاية حياة وبداية أخرى، ولما كان القبر هو الجسر الرابط بين الحياتين كان لابد من الاعتبار والحض والتذكير، ولهذا كثر ذكره وذكر مشتقاته ونوّع الشاعر في كل ما يتعلق به، فأفرد وجمع وثنى واشتق واستخدم المترادف لخدمة المعنى ولطرد الملالة والسأم. فجمع التربة وهي القبر (٤٠٣):

- **واتعدى شَالْ ناس التُّرب** (٤٠٣):
- **والورَي في لحد التُّرب.**

وجمع الميتين:

- **أحيا الشُّهب والمتربين** (٣٦٥).
- **العيون منه والمدافين** (جمع مدفون) (٥٧).
- **والمُلْحَدين والمزمنين** (٣١٢).

بل اشتق من التربة فعلاً ماضياً وآخر مستقبلاً فقال:

- **شافع اللّحْيْ والانتربْ** (٣٠٨).
- **راح الشباب والموت قرِب   بيت العفن في بَنترِب**

أي أدفن، وانظر إلى هذا الترهيب في (بيت العفن) وهو المصير الحق.. اللّهم أحسن ختامنا.

ومن التنويع والاستفادة من المترادفات استقصاؤه لأسماء إبليس عليه اللّعنة فهو كل مرة يورده باسم ولكل اسم دلالة .. فاسمه المعروف إبليس والشيطان فالأول الآيس المبلس من رحمة الله فهو (إفعيل) من (بلس) إذا يئس. وسُمي شيطاناً لأنه شطن أي بعد من رحمة الله. وهو اللاهي ولعلها (فاعل) بمعنى (مُفْعِل) لأنَّه يلهي الناس وإن كان هو في نفسه لاهياً أيضاً ويسميه (أبو مِرة) وهو الحبل الذي يقود به تابعيه من المريرة والعرب تسميه (أبومُرَة) بضم الميم وهو الخناس وأبو طورة والعكوف والصّدام والملعون واللعين والرجيم والوسواس فالمجموع اثنا عشر اسماً كلها وردت في الدّيوان. وجمع له ابن خالويه تسعة عشر اسماً نَدَّت عنّي ومصدرها. أما إبليس فهو كثير مستفيض منه قوله (٢٥١):

ضـــاق إبلـــيس بالمحلـــة   ودعـــواه أضـحت مـضمحلة

وقال عن اللاّهي (٢٣٨):

غـــارّني اللاّهـــي   وكـسولاً دائمـاً لاهـي

وقال عن أبي مِرة (٣٠٨):

وأبــــي مِـــرة ســـاق جنـــدو وجَفَـــلْ

وقال ﭬ الخنّاس (١٣٠):

جُـــوه قلـــبي لا يـــرى الخنَّـــاس

وقال ﭬ أبي طورة (٤٢٩):

لِـــيَّ حَيَـــاتِي تمحـــى ســـطورا أوزاري وتكيـــد أب طـــوره

وقال ﭬ الصدّام ﭬ إحدى صلوات مدائحه (٩٨):

صَـــادَفَتْ صـــدّامي وكافَّـــه عنِـــي الـــدَّامي

وقال عن الملعون (٢١٨):

قـــني شـــرْ نفـــسي والملعـــون

وهكذا ينوع فيه ويوردها حسب ما يقتضيه المعنى والوزن، وقد ذكر بعض هذه الأسماء عشرات المرات مثل إبليس وأبي مِرة وإنَّما نمثل هنا تمثّيلاً أوضحنا به قضية المترادف وخدمتها لمنهج الشاعر ﭬ النَّظم.

ومما نوّع فيه أيضاً استخدامه (الفَي والأنفال والغنايم والخمس) وكلّه بمعنى ما يناله المحاربون المسلمون من مال وسلاح ونحوه ﭬ حروباتهم، وهي وإن كانت بينها فروق دقيقة لكن المعنى العام واحد.. قال ﭬ حديثه عن خصائص الرسول (ﷺ) والغنائم واحدة منها: وباقيها أن الأرض جعلت له مسجداً طهوراً كلها، وكانت الصّلاة لا تجوز إلا ﭬ مواضع مخصوصة منها. ومنها نصره بالصبا والرعب، ومنها بعثه للناس عامة ومنها إعطاؤه الشفاعة. وهي الخمسة الواردة ﭬ حديث جابر الذي رواه البخاري. فقال الشيخ (٤٩٤):

حلّـــت لُـــو الغَنَـــايم خِلّـــي أخْمَاســـا

وورد الفَي ﭬ قوله:

يَبْـــرَا الغَمَـــام مـــا بـــبرا فَـــي قبلُـــو الرُّسُـــل مـــا جاهـــا فَـــيْ

(فَـيٌّ) الأولى (ظِـل) ومنها (يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ) (النحل: ٤٨) والأخيرة (الغنايم). من قوله تعالى (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ) (سورة الحشر: ٦). وهذا جناس تام.

وقال عن الأنفال (٨٩):

فـــاتح الأقفـــالِ الخُـــصَّ بالأنْفَـــالِ

وقال ﭬ الخُمس (٢٣٩):

لأجلـــو الفـــرض تقليـــلُ   كمـــان والخمـــس تحليـــل

أراد تقليل ركعات الصلاة المفروضة وتحليل الغنائم. وهذا كما ترى ... في الفقه وفي فقه اللُّغة. ولو حاولنا تتبع هذا أعيانا.

ودعونا نعود لضده فهو أيضاً كثير . وذلك أننا قلنا إن الرجل مع تنويعه قد يستخدم ألفاظاً بعينها يكثر منها كثرة بينة، ليس قطعاً لأنه لا يعرف غيرها، ولكن ربما كان الأداء اللُّغوي الواضح لها أو الدلالات المتعلقة بها أقوى في نفسه؛ ومن ذلك ألفاظ مثل (العلوج والضرتين) والفعلين (أمعن وزان) ومشتقاتهما.

يستخدم الشيخ لفظ (العلج والعلوج) للكفار وكأنه يشتمّ فيها رائحة كونه حمار الوحش وأنه غليظ خشن وربما لاح له معنى (العِلقْ) في كلامنا وهو الرذل الدنيء - وهو منه - قلبنا جيمه قافاً وهو كثير وارد. ولا تحتاج إلى بحث طويل في الديوان فقد أكثر من استخدامها مفردة ومجموعة خصوصاً في مقاطع الصحابة رضوان الله عليهم، اسمع قوله مثلاً:

- شقّوا العلج ما ازّلفوا   واليرغب الدين ولّفوا (٣٠١).
- العلج أب عنقرة   شقوا شق قنقره (١٦٥).
- أفنوا الصفوف والطفَّرو   خلو العلج مشقوق فرو (٢٨١).
- شقوا العلوج بيها النّصف (٣١٠).
- شقوها العلوج بالضرب اثنين اثنين (٤٨٩).
- خلو العلوج تجري وتنِفْ (٢٨٦).
- أفنوا العلوج الطفّروا (٣١٣).
- صنديد العلوج فك الدرب ليه (٤٩٨).

ولاحظ أنَّ هؤلاء العلوج الأقوياء الصناديد الضخام (أب عنقرة) إمَّا هربوا ولهم نفيف كنفيف الضبع، ومنه قوله (فك الدّرب ليه) أي فارق وهرب، وإما أفنوهم عن بكرة أبيهم كما قال (يتموا ولدهم بل خربوا ديارهم) أو أنَّهم (طفّرو) أيضا ومعناه هربوا. وإمَّا واجهوا سيوف الصحابة فكانت النتيجة صنيع الجزارين الذي تراه أمامك في (شقوا شق قَنْقرة . أو شق الفَرُو) أو (شقوا النص أو شقوه اتنين اتنين) فهذا كله دليل فروسية الصحابة وقوتهم وضربهم المُخَلَص (الما فيه حَفَا).

سقت هذا لأنَّ الكلمة استوقفتني بتكرارها، مع أنه كان يصفهم بألفاظ أخرى لا تحصى مفردة ومجموعة مثل (الجلف والدلعان والأطنب) أو مثل الكفر (٣١٩) والأعداء

(٥٢١) والعدا (٣٢١) والنجوس (٢٩٠) والكلاب (٢٨٨) والكُنّد (٥١٢) وهو جمع كنود وهو المنكر الجاحد. والسَّفل (١٢٩) وأهل الشقاوة (١٥٥) والفشفاشا وارم (٢٢٤) وهم المتكبرون المتعالون .. وما لا يكاد يأتي عليه الحصر. وستقابلك أضعاف هذه العبارات في وصف الصحابة إن شاء الله.

ومن الألفاظ التي تكررت عنده بكثرة أيضاً لفظ (الضرتين) ومعلوم أنَّ الضرتين في النساء بينهما عداء وتنافس وتنافر، وقد كَنّى بهما عن الدُّنيا والآخرة لتنافس قلوب الناس عليهما وكلتاهما محل تنافس لخيرهما العاجل والآجل، ومع أنَّ الآخرة خير وأبقى فإنَّ شِباك الدنيا وحبائلها لا تخطئ. وكذلك كنى بهما عن مكة والمدينة لتنافس قلوب المسلمين عليهما وكلتاهما محل الفضل؛ الأولى بالبيت العتيق ومهبط الوحي ومسقط رأس الرسول (ﷺ) وغيره من الفضل وأختها وضرتها المدينة بأنها احتوت مضجع خير البشر حتى قيل إنَّ البقعة التي ضمت الجسد الشريف هي أفضل بقاع الدنيا بلا منافس.. علاوة على أنَّها قبة الإسلام ومُهَاجَر الحبيب ومحل نصرته وفيها مسجده وروضته التي هي من رياض الجنة. والاختلاف عليهما قديم مال فيه الفاروق وابنه عبدالله والإمام مالك والجمهور إلى تفضيل المدينة حتى قال ابن معين (سفرة إلى المدينة أحبُّ إليَّ من مائتي عمرة) أما أهل السودان فإن أكثرهم لا يواري ولايداري حبه للمدينة وساكنها ولا يقلل ذلك من مهابة مكة ومكانتها في نفسه، أعزّ الله مكة وحرسها وشرف المدينة وصلى وسلم على ساكنها. وقد ورد ذكر الضرتين كثيراً في الشعر النّبوي القديم الفصيح، منه قول البوصيري وقد شرحها (النّبهاني ١٥/٤):

فـإنَّ مِـنْ جُـودك الـدُّنيا وضَـرّتها ومِـنْ علومـك عِلْـم اللّـوح والقلـمِ

هذا التنافس بين الدنيا والآخرة وبين البلدين المحرمين لم يجد له الشيخ حياتي ومن سبقه من شبه إلا حالة الضرائر وما يكون بينهما من تنافس على قلب الرجل كتنافس قلوب المسلمين على هؤلاء الأربع. وقد رصدت ورود الضرتين في عشرات المواضع من الديوان منها قوله (٤٦٦):

بيهـا الـضرّتين يقطـع فَيافِيهـا(٤٦٦)

يريد الصحاري التي بين مكة والمدينة، وهو الموضع الوحيد الذي نقطع فيه بأنه أرادهما... وهنالك مواضع تحتمل الدنيا والآخرة وتحتمل مكة والمدينة منها قوله(٣٧٤):

سـيد الـضرتين مـن فيـضو كـلّ خـراج

فمن تأولهما الدُّنيا والآخرة فهو سيدهما بلا جدال. ومن تأولهما مكة والمدينة فهو سيد مكة والحجاز، وسيد المدينة أم سور وسيد مكة وجبالها كما قالوا ومثلها قوله (٣٧٥):

لكن التبرّك منّو أحسن شِي — لولا الضرتين ما أنشأ المنشِي

مَا مِنْ شيءٍ إلا من نورو صار مَنْشِي — حسنا فاق وجوداً حاشَى ماكَنْ شِي

تأمل هذا الجناس التام البديع في أحسن (شي) وماكَنْ (شي) أي ما ادخر شيئاً والجناس الناقص في (مُنْشي ومَنشِي) أو تأمل اللزوم في الأشطار الأربعة. ثم عد بنا إلى ما نحن فيه من الضرتين اللتين أنشأهما المنشئ وتحتملان الأربع: مكة والمدينة والدُّنيا والآخرة لأنَّها كلها من إنشاء المصوّر البديع جل وعلا لأجل الخاتم العاقب الذي جاء بالدين الخاتم العاقب (ﷺ).

أمَّا أكثر ما وردت فيه هذه الكناية فهو الدّنيا والآخرة صراحة كقوله(٥٢١):

الصلاة النبي ضو الرَّتين — جاتكم زاهية في القبلتين

من حياتي الفي الفايتين — فايز بيها في الضرّتين

وهي قطعاً الدُّنيا والآخرة، ولا يفوتنك هذا التاريخ الذي ذهبت آثاره وهو هذا الفانوس (الرتينة) المشهور قديماً، الذي لا تعرفه أجيال الكهرباء، وكم أضاء ليالي المديح، وما يزال يتراءى أمام عيني يشخُر فَيُبَدِّد ظلمة تلك الليالي الحالكة على (تربيزة) عالية (مَشَبَّحَة) كالناقة في وسط الحلقة العامرة والناس حولها. رحم الله زماناً أطلع تلك الليالي وعُمَّارها.

ومنها قوله:

النبي الضرّتين أزماتا منفرجات (٤٨٠)

اللّهم فرِّج عنه وعنا أزمات الدُّنيا والآخرة.

وقوله (٤٧٩):

مونة الضَّرتين لمَّاها في تقيها

والمونة الطعام، والتِّقي جمع تقاة وهي الموضع الذي يجمع فيه المحصول.. ولعله أراد زاداً معنوياً للدنيا والآخرة.

وقوله (٤٤٥):

الصلّوات لكوك تملا الكيان نِعَمَاً — ترضي المصطفى القَدَمَا اشتكت ورَمَا

من ود حاج حمد حياتي الدابو رَمَن — سُفُنُو، يَنِيل بها في الضرتين كَرَمَا

وهذا من المواضع التي استفزَّتني فعلقت عليها في الحواشي قائلاً: (ده على منو؟ سُفُنو رَمَنْ من زَمَنْ!).

وقوله (٢٨٠):

في الـــضرتين قطعـــا جَـــزِم ... تقـــضوا بـــه الأمـــر إن لـــزم

وقوله (٢٤٦):

ذاك نـــــور القبلـــــتين ... وشـــــفيع الـــــضرّتين

وهذا واضح، وهذه القصيدة الأخيرة (قوم يافتين) مبنية على التثنية من أولها إلى آخرها وفيها نحواً من خمسين كلمة مثناة سنقف عندها إن شاء الله في مبحث خاص عن الثنائية مثل (سِنْ سِنْ) والتثنية كما هنا.

ولئن استفاد الشيخ عليه رحمة الله من المترادفات في إقامة الوزن وسلامة العروض ومراعاة المقام بهذا التنويع، فقد خدمه وعيه باللُّغة باستخدام اللُّغات المشهورة في الكلمة الواحدة؛ مثل (الرَّؤُف والرؤوف) بحركة قصيرة أو ممدودة وهما لغتان من الرأفة قرئ بهما في القرآن. والرأفة هي أشد الرحمة وأخصُّ منها. واللّفظان من أسماء الرسول (ﷺ) سمّاه بهما المولى عز وجل مثلما سمى بهما نفسه. وورد بهما شعر العرب، قال كعب بن مالك الأنصاري:

نطيـــع نبينـــا ونطيـــع ربَّـــا ... هـــو الـــرحمن كـــان بنـــا رؤوفـــا

وقال جرير:

يـــرى للمـــسلمين عليـــه حقّـــاً ... كفعـــل الوالـــد الـــرَّؤُف الـــرحيم

وقد فطن الشيخ لذلك واستخدمها بكثرة ظاهرة، ومن الأولى قوله (٣٤٩):

يَـــا قـــوم رســـولكم فـــايق كـــل فـــايقْ ... حَلُّـــوا بـــه ســـاعاتكم والـــدقايقْ

كَوْنُـــوا الـــرؤوف بـــيكم نـــور الموايـــقْ ... جـــاهُو العَمِـــيمْ نجَّـــى المحـــسن وعـــايقْ

ومن الثانية قوله (٢٩٢):

حَـــاوِي المِـــنَن مُحـــي الـــسُّنن ... رَؤُفـــاً رحيمـــاً لينـــا

سَـــخي ذو عفافـــة وهيّنـــا ... محلـــم قنوعـــاً صـــيِّنا

وانظر الصفحات (٢٧٠ . ٣٠٩ . ٣٤٣ . ٣٧٩ . ٤٨٣ . ٤١٣).

وربما استخدم اللّفظة من ألفاظ اللُّغة بتعريفاتها في مقام معلوم على نحو استخدامه الفعل (أمعن) ومشتقاته حينما تكون الرؤية متعلقة بالذات الإلهية، تتبع معي ذلك في قوله (٤٨١):

كَرَمَـــاً للـــنَبي الـــدَّات الإلـــه (أمْعَـــن)   وأرضَـــا بالعَطَـــا يـــا سَـــامعاتْ أوْ عَـــنْ

أراد رؤية النبي لربه عياناً على قول الجمهور في ليلة الإسراء والمعراج. ويظل هذا الفعل ملازماً لهذا الحدث قل أنْ يُستخدم في معناه غيره نحو (نظر ورأى وأبصر) ويميل إلى مصدره كثيراً، أعني (التَّمعين) وهو إدامة النظر وإمعانه وإنعامه والتدقيق فيه، كما قال (٢٠٧):

جَـــــازَ عَـــــلا الــــــسبعينُ   الفـــي قـــاب قوســـين شـــاف إلاهـــو معينـــو

بعـــــــدمَا الــــــــتمعينُ   أرضـــى بـــي شَـــأْوْ وحتـــى قـــرة عينـــو

وفي أخرى (٢٠٩):

بعـــــــدما الـــــــتّمعين   عـــــاد قريـــــر العـــــينُ

وفي ثالثة (٤١٠):

ســـعي الأيكـــات وتـــدعينا   شـــفا العينـــان وتمعينـــا

مجئ الأشجار وتلبيتها وإذعانها لأمره وشفاء العيون، كل هذا من آياته (ﷺ). لكن مما اختص الله به نبيه دون سائر خلقه من الإنس والجن والملائكة أنَّه لم يتح رؤية ذاته الكريمة في الدّنيا لأحد سوى نبينا (ﷺ). فوصفه بالتمعين، أي: رآه وأمعن النظر إليه وأدامه ثم كلمه ربَّه وحبَاه وأعطاه حتى أرضاه.

وخرج به من استخدامه في رؤية الرسول لربه في الدُّنيا إلى رؤية السعداء من الخلق لربهم يوم القيامة وذلك قوله (٤٧٥):

مِـــنْ بَعـــدْ المتَـــاع تحْظـــون بـــالتمعين   في مـــن أسْـــمَا ذات التِـــسْعَة والتـــسعِين

فمتى ما أراد النظر إلى ذات الإله استعمل التمعين ومشتقاته، وقس على ذلك ألفاظاً كثيرة كررها أو استخدمها على صفة بعينها بعد أن أملت عليه قناعته بأدائها اللُّغوي الواضح. مثل (زان يزين) وغيرها مما تكرر في ديوانه للأسباب التي حاولنا تلمُّسها .. قال مثلاً (٥٠١):

الـــصَّلوات حيَـــاتِي النّاميـــة تَنْقِيـــهُ   مِـــنْ دَنَـــسْ الخطـــا (تَـــزِيْن) عُمـــرو باقيـــهُ

وقال (١٠٥):

ياكَـــافي اكْفِينَـــا الـــبَلا   بـــالحَوقَلا الحَـــسْبَلا

أعْمَارْنَـــا مُـــسْتَقْبَلا   (زِيـــنْ) والمِنَّـــا اقْـــبَلا

وهي كثيرة مستفيضة لمن أراد تتبعها، جاءت عنده بمعنى (جَمِّلْ وأصلِحْ وحسِّنْ) وما في معناه، وجاءت في صيغة الفعل الماضي والمضارع وغيره. هذا، وقد وجدت عنده أقدم استخدام

معاصر لكلمة شاعت في أوساط السياسيين والاقتصاديين في عصرنا وهي قولهم (المستدام) بمعنى المستمر الدائم، وردت في قوله (٤٦٣):

والغِنَـا والأمَـان لا تَطُـول عَلينَـا يَـداً   والعَيْش الهَنِي المستدام رغـداً

وهي دعوة نفيسة.

وما وجدته استخدم لفظاً أقلقني إلاّ وصف الرسول (ﷺ) بالوضيع، أي المتذلل، وبمعنى المتواضع واللُّغة والتصريف لا يأباها وهي فعيل بمعنى متفاعل ومثلها (كسول ومتكاسل) والذي جعلها قلقة في موضعها هو أنّها شاعت في الأذهان بمعنى (الذُّل) والمهانة لا بمعنى التذلل والانكسار تعبُّدا كما أرادها الشاعر ولو استبدل بها غيرها لكان خيراً، وردت عنده كثيراً كقوله (٢١٥):

فـاتحْ البِـرِّ   الوَضِيعْ منُّو الكِبر مُتْبرِّي

فـاديَ الفحل ووحشَةُ البَـرِّ   عايد المُرمُوس، الدَّمِي يَـبرِّي

وتكررت في أكثر من موضع دليلاً على قناعته بها، كما في قوله في (الجيدين)(٤٨٨):

النّبي الوَضِيع المرضِي أخُو المِسْكِين

فهي وإن كانت اللغة تجيزها لكن الذوق ينفر منها بعض النفور بسبب ما استقر لها في أذهان العامة.

ويستخدم الشيخ رحمه الله ألفاظاً فصيحة لكنها قد تُشكِل وتَغْمُضُ منها قوله:

بَـرْق الحِجَـاز أثكَـلا   رُوحِـي وأوامِـري أشـكلا

يـا مـن عَلَيْـك مـتكلا   ريهـا أم قـزاز هـيكلا

جعل البرق روحه تنوح كالثاكلة، ورسمت في الديوان (أسكلا) وهو مشكل صوابه (أثكلا) ومثله كثير وسنقف عنده في فصل خاص إن شاء الله. والمتكل: الاتكال والمعوّل وهو فصيح، لكن الشاهد في قوله (رِيْها) يعني (أريها/وَرِّيْها أَرِهَا) اجعلها تنظر لهيكل القبة الخضراء أم قزاز. وهذا مشكل في الصرف أصلاً لأنَّه من أفعال معتلة، يبقى الأمر منها على حرف واحد مثل (عِ من وعى، وشِ ثوبك من وشى ونحوه).

ومما لم أقف عليه بعلم أو اجتهاد وأحسبه فتحاً لوعورته واستغلاقه قوله (٣٦١):

صَلواتْ حَيَاتِي عِرِيبِي القَالْعَة قلْعَة   قَـاطْرَة الأحبّـه إزا، زايـدالَ ولعَـه

قَـال راجياً ألْبَس بِها ألْف خِلعَـه   والْقَابَـا في الـدّارينْ أمنَـا وشـلعَه

جاء الوهم والوعورة من أنَّ الكلمة رسمت في الديوان (إذا) بالذال، ومهما اجتهد المجتهد فهي إما (إذا) ظرف الزمان، وإما (إذاً) الناصبة والتي ترسم بالنون أيضاً (إذَنْ) وكلتاهما لا تخدمان المعنى، ولا يستقيم المعنى إلا بالزاي (إزا) بمعنى (إزاءه) أي بمحاذاته فالصلاة والأحبة (مقطورين) بعضهم بمحاذاة بعض، و(زايدين ولعة) أي أكثر نشاطاً. ويريدون في القيامة أمنا (وتِشِنِّقة طاقية). اللهم اجعلنا منهم!

وقال مجارياً ود سعد (٣٩٥):

عَرِّج عَلى سِيد أبَّنا وسيد أُمّنا الشافْ ربّنا

والمشهور (أبٌ) خفيفة غير مشددة، ولكنه لم يخرج بالتشديد عن سَنن العرب فقد حكى ابن منظور في اللّسان أنّ العرب تقول في (أبْ ويد) = (أبٌّ ويَدٌّ).

ومن المصادر الموهمة التي قد تغلق المعنى على من لا يعرف كيف هي قوله (٤٤٧):

الأعيانْ ردودا، الشمس والماتو والصيده الجمل والحنّ لي لماتوُ
وأب سم والسما إظلال غمامَاتو وأملاكُو وهلول غيثُو ومناماتُو

هذه جملة معجزات، العيون والشمس والأموات هذه كلها ردَّها (ﷺ). والصيده وعتقها، والجمل وشكواه والمنبر الذي حنّ لفراقه، والعضو المسمم، وإظلال السحاب له في الهجير، وكذلك الأملاك ونزول الغيث، ثم مربط الفرس كلمة (منامات) ويحسب بعض النّاس أنَّها هكذا جمع (منام/ منامات) أي: حُلم، ولا صلة لها بذلك وإنَّما المراد: المناماة من النُّمو كالمحاباة والمراماة والمناجاة، ومن معجزاته (ﷺ) أنَّه كان ينامي القليل أي يباركه فينمو ويزيد مثل أقراص الشعير وزاد جابر وماء الركوة وتمر أبي هريرة ونحوه... ويدلُّك عليه قوله في قصيدة أخرى (٣١٢):

والرَّي مَنَاماةْ الضّنين

أي زيادة القليل ونموَّه، وربما جاء الوهم من فتح التاء والصواب أنها مربوطة كالمحاباة والمجاراة والمحاكاة.. هذا وسأعود في فصل خاص إلى دقة الصنعة عند الشيخ وإلى العويص من أساليبه ولبيان ما وَهِم فيه شارحو الدّيوان وأوهموا به مع عظيم تقديري لجهدهم العظيم الجسيم ومراعاتي لصعوبة أسلوب الشاعر ووعورة مسالكه، ولن أنجو من الوقوع في ما وقعوا فيه ولكن لن أعدم من يقوِّمني كما حاولت تقويم من سبقني، وكلنا مجتهدون ونرجو أنْ نكون مثابين.

اللُّغة العاميَّة الدّارجة:

تقدّم في الحديث أن الشيخ يزاوج بين العاميَّة والفصحى بمهارة مذهلة وسترى أنَّ كثيراً من ألفاظه التي تُظن أنها عامية تعود بقليل من الصبر والخبرة والتقليب إلى حظيرة الفصحى بكل يسر وإسماح؛ وإليك هذه الطائفة القليلة العدد جداً بغرض التمثيل والتوضيح لا الحصر وهي: (الطَّر، كتُر، خُتُر، شُتُر، كرتح، يشنح، شلوح، اكشح، تنتح، اتبحبحت، بحباحة، تل، ختل، شلم، وخار، وزق، كَلْبش، ولعة، شلعة). هذه الكلمات العشرون مما لا يشك القارئ في أنَّها من عويص العاميَّة، لكن بنظرة سريعة في معجم لسان العرب يتبين لك أنها كلها تمتُّ إلى العربيَّة بنسب صحيح...

الكلمات الخمس الأوليات وردت في قصيدته (سيد العُمر) في قوله (١٧١):

تحتـــــو الأرســـــال طُـــــرْ	خلفـــــو الأمْـــــلاك تَطُـــــرْ
بـــــانْ عَدْلـــــه في الـــــشّطُرْ	وشـــــفت أيـــــدي المُطُـــــرْ

الرُّسل طُرَّا (أجمعين) تحت لوائه، والملائكة صافُّون من خلفه إجلالاً وتعظيماً وتقديماً لهذا الرسول الذي بان عدله في الرّضاع حيث كان يرفض الرّضاع من الثدي المخصص لأخيه من الرّضاع، ضمرة بن حليمة السّعدية، وأيديه التي هي كالغيث الماطر كم داوت مرضاً وفقراً. والشاهد في قوله (تَطُر) والطَّر عندنا هو العرضة أي استعراض الجيوش وإظهار القوة، وأصلها في العربية التَّجمُّع والترتيب والتقويم، وهو ما يصنع بالخيول والسلاح والجنود في مكان الاستعراض. فتمثل الشاعر الرسول في القيامة وقد صفت الملائكة ورتبت وهو القائد وبيده اللواء وفوقه التاج وله الشفاعة (ﷺ).

ثم جمع الشاعر الكلمات الأربع المتبقيات في بيته الذي يوصي فيه زمَّاله ورواة مديحه قائلا (١٧١):

يَـــــاعَلي أوعَـــــكْ تَتُـــــرْ	يَـــا سَـعِيد لا تكُـوسْ كُتُـــرْ
في أمْـــــدَاح نَبْـــــيَ الخُتُـــــرْ	لا تبقُـــــوا لَـــــيْ شُـــــتُرْ

ومضَى تفصيل أسماء رواة مديحه ووصاياه لهم في مبحث خاص، وهذه واحدة من وصاياه، أراد لهم ألا يتراجعوا وتفتر همتهم لأي سبب من الأسباب، وألا يبحثوا عن وظيفة أخرى غير المدح وأن يكونوا منسجمين متفقين في مدح المختار المختَّر. ونحن هنا أمام خمس كلمات لا أربعاً؛ أما الخامسة والتي لم نذكرها آنفاً فهي الفعل (تكوس) من كاس يكوس، وهي عندنا بمعنى البحث والتفتيش، وفي كلام العرب (كاست الدابة إذا وقفت على ثلاث

قوائم.. وهي في هذه الحالة لن تقف ثابتة مستقرة وإنما تدور حول نفسها، فإذا فعلت ذلك وكاست وافقت المعنى المراد لأنَّ البحث فيه حركة ودوران بل بعض النّاس يستخدم (بدوِّر على الحاجة) بمعنى (ابحث عنها، وأكوس ليها).

أما (تَتُر) فمعناها (تبعد) قال ابن منظور: ترّ الرجل عن بلاده تَراً: إذا بَعُد، وأَتَرَّهُ القاضي: أبعده (اللسان/ ترر) وهو المعنى المتداول عندنا. وأمَّا (كُتُر) فهي عندنا بمعنى (آخر) (هدوها من الدُّواحة باتت كُتُر) ولعلها من الكثرة. وقوله (شُتر) جمع واحده أشتر، وهو المخالف والمفارق غير المنسجم، وأصله في كلام العرب من الاختلاف في العيون وذلك أن تكون إحداهما سليمة والأخرى مقلوبة الجفن. وأمَّا (الخُتُر) من فلان (مختَّر) إذا أعطي كل ما يريد وكل ما في خاطره وهو حال رسولنا (ﷺ) وهي من الخاطر، قلبنا طاءها تاء كعادة أهل السُّودان في مثيلاتها ومنها (ختر وخطر) إذا ذهب و (البتيخ والبطيخ/ والتبيخ والطَّبيخ) وهو كثير مطرد؛ لأن التاء والطاء أخوات يقع فيها الإبدال لتقاربهما في المخرج.

وفي مدحته العجيبة الإيقاع (الشَّذى فوَّح) يستخدم الشيخ طائفة من الألفاظ التي تدخل فيما نحن فيه، منها(٤٣٢):

بالعَطَا مُمنح   مَا بْيغْضَبْ حَاشَى مَا بجنح مَا هَزَل

جُودُو مَا بشْنَح   في الجَدب، البَاغْضُو اسْتَسْنَح وانْخَزَل

لغة عجيبة وإيقاع أعجب ... منح (ﷺ) العطاء الواسع لا يغضب إلا إذا انتهكت محارم الله ولا يظلم ولا يمزح إلا بالحق جوده لا يتقلّص أو يقل كان أجود من الريح المرسلة خصوصاً لأهل الحاجة وفي أوقات القحط والجدب والشدة. باغض هذا الرسول الكريم مشؤوم مسنوح مخذول. والشاهد في قوله (ما بيُشْنح) أي لا يُطال ولا يجاريه في جوده أحد. والشانح في كلام العرب المتطاول. وفيها أيضاً قوله (٤٣٢):

قايداً مفتح   باب الخير والسما الكرتح   وانهمل

يوم أشار قال تح   والهَشَمْلُو جازى واتنتح   وانحمل

هو (ﷺ) القائد الفاتح لما أغلق، وهو باب الخير، حين جاءه الأعرابي يشكو القحط والسنة الشهباء أشار (ﷺ) إلى السماء فأسرع المطر بالنزول (وقال تَحْ) والنبات اليابس الهشيم جازى وجرى الماء في عروقه وامتلأ بالحمل والثَّمر. ونحن في هذا المقطع أمام كلمتين وصوت أما الصوت فقوله (قال تح) وهي من مشهور استخداماتنا نقول (فلان بكى ودموعو قالت تح) حكاية لجريان الدموع، وكذلك المطر حين دعا الرسول انهمر (وقال تح) في الصَّبيب. وسيمر

بـك فـصل كامـل إن شـاء الله في مثـل هـذه الأصـوات وبراعـة الـشيخ في اسـتخدامها. وأمـا الكلمتان، فالأولى قوله: (الكرتح) وهي عربية فصيحة قال في اللسان: كرتح إذا أسرع في مشيه ..وما كان في السماء قدر راحة من سحاب فحين دعا الرسول أسرع السحاب وتجمع ولم ينـزل من منبره حتى أخضل المطر لحيته وبلّلها؛ فلانت عروق النبات اليابس وجازت، وأثمر النبات وانحمل بالجنَى. وتنتح أو دندح وهي الكلمة الثانية في المقطع إذا امتلأ حياة وثمراً.

أما قوله (٤٣٣):

وكـم جـبر أكـسح والـصّياد صـيدتو اكـسح والفحـل

فهذا من معجزاته (ﷺ) فكم جَبَّر من كسير مثل بنت حبيب وصف خُبيب، ولا تنسَ الصياد وصيدته، تذكرهما ومرَّ بهما وبالفحل الهائج الذي برد وفدر حين رأى الرسول (ﷺ) في أحد بساتين الأنصار .. فقوله (أكسح) الأولى من الكساح والشلل وأكسح الثانية من المرور كما قال شاعرهم:

شِـلْوْ حمـار كـسحت عنـه الحُمُـر

أي مرت به وتجاوزته.

ثم قال رحمه الله في صفة البرق(٤٣٣):

الـبرق شـلوح بـي روحـي وصـرت أتوحـوح

البرق قلل راحته وجعله يتقلب فوق فراشه ويتضَوَّر من الألم. و(الوحيح) والوحة والوحوحة إذا قال: أح أح، وهي من الفصيح والعامي الشايع... وتألم من ذلك حتى صاح وثكل ... أما قوله (شلوح) فمعناه فرَّق وأقلق ومزَّق، وهي فَعْوَل من قولهم (شلَّح) التي حكى أهل اللغة كابن دريد والأزهري أنها من لغة السَّواد، وما حزروا، فقد وردت في حديث علي (رضي الله عنه) وكان عربيّاً صليبة. (اللسان/ شلح).

ويقال للطفل عندنا (هذا الشيء بابح) يعني نفد وغير موجود، ومنها اشتق الشيخ عليه رحمة الله قوله(٣١٣):

الليلـة لاح برقـاً شـحت قلـبي ودمـوع العـين حَـتْ

مـن الكـرى اتبحبحـت روحـي المزعزعـة نوَّحـت

أخـذت عـزالاً وصـبَّحت

وقال(٣٣٧):

حيـاتي الحـاج حمـد باحـا صـلاتو الراحـة أرباحـا

ذنـــــوب الأمـــــة بحباحـــــه   وضـــاء في الكـــون مـــصباحا

ففي المقطع الأول (عينه تبحبحت من الكرى)أي أصبح النوم (بَابَحْ) غير موجود، فهو ساهر ومسهَّد، وسيلقاك هذا المقطع في مبحث التراث إن شاء الله. أما قوله (ذنوب الأمة بحباحة) أي تبحبحها: تمحوها (وتقشّها) وهذا مع أنه مما أخذ من كلام الأطفال عندنا كما رأيت لكنه من فصيح كلام العرب؛ قال اللِّحياني: زعم الكسائي أنه سمع رجلاً من بني عامر يقول: إذا قيل لنا أبَقِيَ عندكم شيء؟ قلنا: بحباح أي لم يبق شيء. (اللسان بحح) عجيب!!!

وقال رحمه الله في (لي النبي سمح العلامة(٢٥١):

تِـــــلْ واخَتِـــــلْ بانـــــشِلامه   ونـــوم فـــوق جـــاه أب علامـــه

تِلْ: هِزْ، واختل: تَبَخْتَر، والتبختر هو الخيلاء وهي مكروهة إلا في مواطن الفخر بالدين وبالرسول (ﷺ)، ومشروعيتها في قول الرسول (ﷺ) لأبي دجانة حينما أعطاه سيفه فتبختَر طرباً وفخراً وخيلاء بسيف الرسول فقال (ﷺ): إنها مشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن أو كما قال. والانشلام كما شرحه صاحب قاموس اللهجة العاميَّة هو أن يهوش حتى يفقد توازنه وقال ابن منظور: قال أبو ثروان: سمعت السُّلَمي يقول: لقيت رجلاً يتطاير شلِّمه وشنمه أي شراره) (اللسان/شلم) وعليه تكون الانشلامة في كلام الشيخ هي الحماسة وقَدْلَة أبي دجانة طرباً بصاحب الجاه العميم (ﷺ).

أما (الوخار) فهو التأخر، والهمزة والواو تتبادلان كما في قوله تعالى(أُقِّتت) وبتسهيل الهمزة (وقِّتت). فكذلك قول شاعرنا (٤٤٤):

في رجـــالا الكـــرام بعـــد (الوخـــار) لَمّيـــت

يعني من بعد التأخر أصبح من أهل الصدارة في مدح الرسول (ﷺ) واجتمع بالرجال الكرام و(لمَّ فيهم). وتعيدني كلمة (الوخار) إلى مثيلاتها مما بقي أصله وتغير ميزانه الصرفي، فهي من (أخر) و(وخر) مثل (الحِكار) التي وردت في قوله(٢١٥):

حيَّـــــــر افكـــــــاري   مـــدحو مـــن والـــدي الرسـول كـــاري

ماليـــــه رحمـــــاتو   داري وأوكــــــــــــــاري

فوقـــــو اتبطّـــــر وانلـــــوي حكـــــاري

(وليَّ الحِكار) عندنا كناية عن التمكن وهو أيضاً شد الوسط الدال على الجِد. وأصل الحكار (الحجر)، وهو في بعض لغات العرب كاليمانية (الحكر) صارت الجيم كافاً وهي التي

تحدث عنها المعري في رسالة الغفران، ثم زيدت الألف للجمع كأنهم جعلوا لكل فخذ مع البطن حِجراً وربما كانت من (الحُكار) وهو القيد لأن وضع الطفل على الحجر يمنع الحركة فهو كالقيد.

وقريب منها (النوسار) الذي اختل ميزانه الصرفي عندنا، ولعله هو الناسور المعروف في لسان العرب لأنه جرح فاسد لا يبرأ كلما التأمت جهة فسدت أخرى منه لذلك (الجرحو نوسربَيْ) فيها دليل الاستمرار في الألم والمعاناة..ذكره الشيخ في قوله (٤٩١):

يبراه الغمام أن قام قدم سارا	والأملاك، جبر شاة ضمرة أكسارا
وألبن شاة حليمة وفك إعسارا	واطلق قيد أتانا وفك نوسارا

يذكر حال السيدة حليمة وتبدل حالها وحال بني سعد حين نزل بهم الحبيب (ﷺ) رضيعاً فدرَّت شياهها وزال عسرها وحتى حمارتها العرجاء المتخلفة عن الركب دائماً في رحلة الذهاب إلى مكة أصبحت في رحلة الإياب تسبق الركب حتى قال لها النسوة: يا بنت أبي ذؤيب كأنك قد حملت نسمة طيبة، وقد كان ولكنهن لا يعلمن، وإن كان قولهن صِدْقَ حَدْسٍ. لأن الأتان انعتقت من قيد الهزال وانفك عنها نوسار العرج بصورة لافتة للنظر.

وأما (وازقة) في قوله(١٨١):

كرما شان صلاتو الحالية	رقّينا المراتب العاليه
عشاقو العلينا مواليه	في الخير تبقى (وازقه) وماليه

فالوازق هو الممتلئ، أراد للعشاق أن يمتلئوا من خير الصلاة على الحبيب (ﷺ) ومع أن الكلمة تبدو عامية موغلة لكنها فصيحة عتيقة، أصابها الإبدال بفعل تقارب الحروف، فالمعروف أن الصَّاد والسين والزاي أخوات ويقع بينها التبادل حتى في القراءات القرآنية، فقد قرئت (الصراط المستقيم) و(السِّراط)و(الزِّراط) فوزق أصلها (وسق) والوسق هو الحمل والثقل والامتلاء وهو المعنى الفصيح الذي أراده شاعرنا.

ولا يشك أحد في أنَّ (كلبش) بمعنى (قَيَّد) هي من العاميَّة، وقد جاءت في قوله(٥٣٣):

جود ربيِ بالحلل	من كلبيش الزَّلل

يسأل الله تعالى أن يفك عنه الكلابيش والقيود التي أحكمتها عليه الذنوب لينطلق إلى مكة والمدينة. وهي من الفصيح غير أنها أصابها ما أصاب صويحباتها من تبادل الحروف المتقاربة المخارج وأصل الكربشة بالراء: أخذ الشيء وربْطه، فأبدلنا الراء لاماً كما نقول (ياليت وياريت) و(بلا سبب وبرا سبب).

وأما (الولعة والشلعة) فهما مما يرد في مواطن الحماسة والفخر والاعتزاز، قال الشيخ (٣٦١):

صلوات حياتي عريبي القالعه قلعه — قاطرة الأحبة إزا زايدالا ولعه

قال راجياً ألبس بها ألف خلعه — وألقابا في الدارين أمناً وشلعه

نقول (فلان زايد ولعة) إذا كان في حالة نشوة وطرب، و(فلان شالع شلعة) مثلها وكلاهما من فصيح الكلام من (شلع وولع).

ومما وقع فيه الإبدال أيضاً بسبب تقارب المخارج قول الشيخ(٥٣٢):

شُوفْ زرعي كيف ضبل — وأصبح عاوز السَّبل

فأصل (ضبل) هو (ذبل) ونحن نجعل الذال ضاداً في أكثر كلامنا فنقول (ضنب وضريرة وضكر) ونحوها، نريد (ذنب وذريرة وذكر).

ونجعل الميم باءً أيضاً لأنهما شفويان فنقول (السناب) نريد (السنام) وقالوا (جهنب) يريدون (جهنم) وعلى ذلك قول الشيخ(٥٤٠):

نِعْم نعم القام في الأصب — زار محمد مُبرِي الوصب

والأصب هو الأصم وهو شهر الله (رجب الأصمّ) سمي بذلك لأنه من الأشهر الحُرُم التي لا تسمع فيها قعقعة السلاح. وهذا كثير لا يحاط به.

ومن الألفاظ التي وقع فيها التقديم والتأخير قولنا(الصاقعة والصواقع) وأصلها (الصاعقة والصواعق) وقد قرئ بقولنا في الكتاب الكريم في قراءة الحسن البصري (يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاقِعِ) (البقرة: ١٩) قد وردت عند الشيخ في وصف الصحابة (١٧١):

أصحابو أهل الفَخُرْ — كالصاقعة وكِتْ تَخُر

كما ورد القلب عنده في كلمات أخريات منها قوله (٥٤٢):

الصلاه المقبولة ام وجب — سبكها الصاغيلو اعتجب

من حياتي البيها انحجب — تنجي حالق الراس واب هجب

والهجب والهبج هو النبات، ذكرها ابن دريد في جمهرته ولم يعرفها وهي معروفة في بوادينا شائعة مستخدمة تقوم دليلاً على أصالة عامية أهل السُّودان وعتاقتها؛ قال شاعرهم يصف البطانة:

يا أم هبجا مترقن وبالصفاري مَخَلَّتْ

وقد يستخدم الشيخ ألفاظاً تصنَّف في ألفاظ السُّوقة ولكنها فصيحة كما قال موصياً ومحذراً زماله ورواة مديحه (٤٩٣):

يـــا ســـبابتي لا تبقـــوا عرَّامـــه صـــيغوا امـــداحكم وادوهـــا مـــن رامَـــا

والعرامة والشَّرامة عندنا من الفئات التي تحتاج إلى الهداية، والعرامة من الفصيح مأخوذة من العُرام وهو الشدة والعنف، قالت الشاعرة:

ونُبئـــتُ أنَّ الـــشيخ يُكـــرهُ ريحـــه وفي بعـــض أخـــلاق الغـــلام عُـــرام

وبقيت طائفة أخرى من الأنواع التي استخدمها الشيخ هي مما يمكن أن يسمى عامية سودانية لأنَّ اللفظة عندنا إذا لم تكن فصيحة ولا من ألفاظ اللغات المحلية كالنوبية والبجاوية ولا من الألفاظ الدخيلة صنفت في ما نسميه سودانية حتى نعثر لها على أصل. ومن ذلك: (اللّدايات، العوق، توتل، حسكنة، مبوجن، قنجر، المحاص، جَرَّن، يوت، ميس) هذه الألفاظ العشرة هي قليل من كثير نشرحها تمثيلاً، وربما وجدنا لها لاحقاً صلة بمكونات العاميَّة الّتي صاغ بها الشاعر أمداحه.

أما اللّدايات فواحدتها (لداية) وهي في الفصيح الأُثْفِيَّة وجمعها (الأثافي) وهي ثلاثة أحجار يوضع فوقها القدر وتشب النار تحته..وهي مما يصلى بالنار دائماً، شبه بها الأعداء وجعلهم مثل هذه الحجارة في قوله (٤٦٣):

واعمالنـــا التكـــون ناميـــة بـــلا كَـــسداَ والعـــادوا لنـــا إن شـــالله يبقـــوا لَـــدَنْ

فجمع (لداية) على (لَدَى) كما نقول (تخاية) و (تخا) وهي السحابة الخفيفة. وجعل هؤلاء الأعداء يصطلون بالنار ويحملون الحار. ولم أعرف لها أصلاً. ومن الألفاظ السُّودانية القديمة (العوق)، وهو الجيش، يكثر ذكره في شعر المديح السُّوداني وفي شعر الحماسة ويجمعونه على عيقان وأعواق، وغلط فيه شارحو الديوان وصححناه، ورد عند الشيخ في وصف أبي بكر (رضي الله عنه) (٤٦٧):

شـــجَّاعاً تقـــي والـــصبر منوالـــو العـــوق اب تلـــي هايـــب لُقـــا طوالـــو

يمدحه بالشجاعة وأن الجيش المدجج يهاب لقاء رماحه، رضوان الله عليه؛ والتلي هي المغافر واحدها مغفر وهو ما يقي العنق من آلة الحرب، والطوال هنا الرماح.

ومن الألفاظ السُّودانية قولهم: (ألبل سارت توتال) أي في صف واحد كالقطار في الفصحى وقد ذكرها الشيخ في صفة البرق وهو من سرعته ووميضه وشلعته هنا وهناك كأنه بروق مصطفة.. قال (٢١٥):

البريـــــــــــــــــق ثُوتَـــــــــــــــــــــل

سـهْمُو صَـادْ ذُو الحُـبْ صـادَف المقْتَــل إن سـلم منُّــو غَيْــر شَـكْ يَخْتَــل

نــــارُو مــــا بْتَــــبرَد إن سَــــقُوه التَّــــل

وهذه حالة متأخرة كما يقولون..هذا البرق الذي يبدو كأنه صفّ من البروق قد أصابه في مقتل، فهو إن نجا منه فلن ينجو من اختلال العقل وقد أصبح ظامئاً مُحْتَرّاً حتى لو سقي الثلج فإنه لن يطفئ حَرَّه الداخلي.

ومن ألفاظنا العاميَّة (الحسكنيت) لضرب شائك من النبات فاشتق منه السُّودانيون اسم (الحِسْكِنَّة) وهو الضغينة أو ما يبقى عالقا في النفس، وللعرب نبات قريب من هذا يعرف بالحَسَك، وهو أشبه بالحسكنيت في شوكيته، ولكن وجود النون في اسم النبات السُّوداني أقرب إلى أن يكون (الحسكنة) بمعنى الضغينة مأخوذة من الأخير. وقد وردت في قول الشيخ يمدح سلامة صدر الرسول (ﷺ) (٣٩٥):

ســالم الـصَّدُرْ مــن حَـسْكَنَهْ يهــوى لأهــل المــسكنه

يعني صدره سالم من الضغائن والأحقاد يحب المساكين ويجالسهم (ﷺ). وكثيراً ما نسمع (أم بوجن) في صفة النساء والأبقار، تطلق على صاحب الشراهة والمخلِّط وربما دلت على السمن مع ترهُّل. مرَّ بها الشيخ في وصف الصحابة حين أراد أن يصف نقاءهم وتشميرهم فقال(٣٥٨):

صـحبو الـصمود مـا فـيهم مــن مَبُـوْجَنْ راعـوا العـدا مــن خيلـهم مـاجوا موجـاً

هم سادة خالصين نقيين أصحاب جد أخافوا العدا فماجت خيولهم واختلط بعضها ببعض.

ويقول أهلنا (فلان قنجر) إذا خرج على غير هدى.. وقال شاعرهم:

المــــا يريـــــدا مـــــن أرض الــــشفاعة يقنجــــــر

وهذا سير متخبِّط، أشبه ببرق الشيخ الذي قال عنه (٥١٢):

في جـــــــــنح الــــــــديجر الـــــبرق جرجـــــر شــــايلا

نـــــوم عـــــيني وقنجــــر في قلــبي جرجــر كَيُّــو المخنجــر

صفة عجيبة لهذا البرق الذي لاح ولمع في الظلام الحالك كأنه يخط خطوطاً فاختطف النوم من عيون هذا الساهر الولهان ولم يتوقف بل سار على صورة لا تُدْرَك (قنجر) فيسترد منه ما أخذه فأعقبه كيَّاً معرجاً وهو أشد من الكي المستقيم.

ومن ألفاظ الحرب كلمة (المحاص) وهي أرض القتال وميدانه، لها عندنا أسماء كثيرة مثل الميترة والعيتنوبة والكرنة. وذكرت (المحاص) في شعر الشيخ كثيراً كقوله (٤٦٥):

في وسط المحاص معروفة هم حالم　　　ما بهابوا الضرب في عم وفي خالم

وقوله (٤٤٥):

أصحابو الكرام فوق النحاس هازِّين　　　عِنْ ساعة القتال وسط المحاص بارزين

ولا تفوتنك هذه السودنة حيث جعل الصحابة (يهزوا فوق النحاس) وهي صورة سودانية، قد يكون لهم ما يضربون ولكنه ليس نحاساً، وقد يتحركون إذا ضرب ولكن ما أحسبها هزة أهل السُّودان ولكنه أراد تقريب الصورة.

ولم أجد لها معنى بالنص في لسان العرب ولكن المادة كلها تدل على الضيق والشدة وقيل إن الحرب ما سميت حرباً إلاَّ لاتساع دائرة الشدَّة على الداخلين فيها، تتسع الشدة فتضيق الأرض بما رحبت إلا على الشجاع وصاحب القضية. ولعله أيضاً من المحاص وهو العدول والهروب يفعله الجبان حين تضيق حلقة البطان. وفي واحدة من صلوات مدائحه يدعو الشيخ دعوة مغنية ماهلة فيقول (٤٧):

الصلاة تهوِّن

كل أمراً قاصي ولنا تشوِّن　　　خيرا في الدارين لي أنا تموِّن

وأبقى في قصورا حياتي مُجَّوِّن

المتجِّون هو المتمكِّن في جلسته وأظنه يريد (متكئين فيها على الأرائك). فتجوَّن تمكَّن، كأنَّها مأخوذة من (الجُوّاني) لا (البرَّاني).. غير أن الأبيات اشتملت على كلمة لا يُشَكُّ في أنها عامية وما هي بعامية قولاً واحداً وهي كلمة (تشوِّن) فإن أخذها من الشأن صار المعنى أن تجعل لي شأناً ومنزلة ورفعة، وما أظنَّه أراد هذا المعنى في هذا المقطع لأنه قابله بخير الدارين وبالتموين. وأراها من (الشُّونة) التي هي مستودع الغلّة، وشوَّن الذرة إذا جمعها كوماً أو أكواماً. وشونة الغلال قديمة مشهورة منها أخذ الشيخ أحمد بن الحاج أبو علي اسمه وهو (كاتب الشُّونة) صاحب الكتاب التوأم لطبقات ودضيف الله وإن كان أميل إلى الأحداث التاريخية رحمهما الله، فقد حفظا جزءاً من تاريخنا كاد أن يُفلت منّا مع ما أفلت، وما أكثره!

وقد يقصد بالشونة العامة من الناس، والذوات هم الخاصة وكلتاهما وردت في قول شاعرنا (٣١٧):

بارك باقي عمري الضاع شبابو فوات علّي اسلك طريق السادة الأبوات

واكرم بالدراهم والغدا اب ادوات والبِشر اليسع للشونه والذاوات

أي البِشر والبشاشة التي تشمل العام والخاص، وهذه لا تكون إلا لمن أوتي السَّعة والبسط.

وللشيخ شغف بلغات أهل السُّودان كلها كما سترى، حَيّرتْهُ المعاني التي يريد إيصالها لأحبابه بغزارتها فاعانته مساحة اللغة فاستغلها مفجراً كل طاقة ممكنة، ولم ينس ألفاظ غرب السُّودان التي لها نصيب من الفصاحة أيضاً، فحين تسمع قوله (٤١٢):

تجارتي التنهي من أوكاس واجِدْ في السير لا أتُرْ كاس

تقف عند (لا تركاس) التي يضيعها رسم الديوان وسرعة المادح المتلفظ بها، حتى نتأملها كما سنبينه فيها وفي أخوات لها من الموهمات في فصل خاص. قلت حين تمعن النظر فيها تجده يدعو الله ألا يتراجع (لا أتر كاس) ومرَّ بك أن تَرَّ معناها بَعُد أو رجع (تُرْ شويه) أي وسِّع وارجع. أما (كاس) فهي اسم فاعل من (كَسَّ) والكَسَسُ تراجع الحنك عن أخيه. ففيها معنى التراجع، وربما زاد أهلنا في كردفان عليها فقالوا (كسكس) إذا بعد وتراجع. وهو المعنى الذي أراده الشاعر وهي من الفصيح وردت في شعر عباسي لأبي الشمقمق في قوله:

عهدي به آنفاً في منزل لهم يُكَسْكِسُ الرَّوْثَ عن نقر العصافير

يصف بخيلاً غاية في البخل، يجمع روث الدواب كيلا تنقر العصافير ما فيه من الحبْ. فهو يبعده عن طريقها.

ويقصر أهل كردفان المدّ في (الماء) فيقولون (أما) وربما فعل ذلك بعض أهل البوادي عموماً، وهو أدخل في قصر الممدود المتواتر في العربية، نحو: (البكاء والبكا/ والرضاء والرضا) ومثله (الماء والما). قال الشيخ (٣٩٩):

القدر والصاع والما حَلْ والنخل واخْصَاب الْمَحَلْ

وهذا في حديثه عن بعض معجزاته (ﷺ)، قدر جابر يوم الخندق، وصاع الشعير وما حلّ فيهما من البركة حتى شبع القوم. وحلّى (ﷺ) الماء المالح بتفله في غير ما خبر، والنخل هو نخل سلمان وإخصاب المحل في بادية بني سعد وغيرها. والشاهد في قوله (الما) يريد (الماء).

وربما أطال الشيخ النُّجْعة فاستفاد من المولَّد، في نحو قوله (١٩١):

لــــي عـــلاه الـــبراق أذعـــن   واهتـــــدى بعـــــدما فــــرعن

قال الزمخشري: تفرعن النبات: إذا طال. وتفرعن فلان إذا عصا وتجبَّر كحال البراق حين أراد الحبيب ركوبه فاستعصى حتى زجره جبريل عليه السلام بقوله: ما ركبك أحد أكرم على الله منه، فهدأ وأطاع (بعدما فرعن).

وأعادها وأمعن في التَّوليد في قوله (٤١٠):

لــــي ذلَّـــت بعـــد فرعينـــا   الـــبراق بـــالنص تواعينـــا

اشتق منها مصدراً على الطريقة السُّودانية فقال (فِرْعين) بدل (تَفَرْعُنٌ) كما يقال (كِسّير) بدل (تكسُّر). أراد البراق ذلت وطاعت بعد تفرعنها كما وعَّانا بذلك النّصّ.

اللُّغة النوبية:

النوبية لغة أهل شمال السُّودان، وهي مكون مهم من مكونات العاميَّة السُّودانية وقد انداحت ألفاظها على ألسنة المتحدثين خصوصاً ألفاظ الزراعة وما يدور في فلكها، فدخلت في لغة المديح النبوي وأصبحت جزءاً منها، تكثر مفرداتها لدى شعراء الشمال: ود حليب وحاج الماحي خصوصاً في ألفاظ الساقية التي أصبحت رمزاً للعبادة والاجتهاد فيها، ولا تخلو منها دواوين مداح السافل ووسط السُّودان. وكان للشيخ حياتي منها نصيب، يظهر واضحاً في صلاة قصيدته (قل يا فمي ليهم وشكِّر الأعلام) (٤٧٨):

الـصَّلوات حَيَـاتِي أبْـصَرْ بمَـا يقِيهَـا	مِـنْ كَـمْ كَـمْ وكَـمْ كَـمْ ألْـفِ ناقِيهَـا
فُـوق بَحَـرْ الـصّفَا ضَـارِبْ سَـواقِيهَا	دَنْ تُورِيقَــا عَاشِــقْ سُــلُّباقِيهَا
بــي مَــاء المَحَبَّــة المَــرَوِي سَــاقِيهَا	ســاقي أحْبَابَهَــا لاعِــنْ تَرَاقِيهَــا
خَــدَّامَا الــصَّدُوقْ خَيْرَاتَــا لاقِيهَــا	بــي همَــم الــصَّفَا حاصِــد بَواقيهَــا
جــانِي أرْياحــا مــن غربيهــا شــرقيهَا	منــشيها اســتراح مــن فــيض أناقيهَــا
شــبعان في خــضاراتا وعلاقيهَــا	مونــة الــضرتين لماهــا في تقيهَــا
في الحَيَــا والمَمَــاتْ فــازْ فُــوق بَرَاقِيهَــا	ولابــس حُلّتــا تاجَــا وطواقيهَــا
جــازدرب الــصراط بــي ضــوء برقيهَــا	مــن حَــرْ نــار لظــى الأمــة بْتَتَاقِيهَــا

وفي هذه القطعة طائفة من ألفاظ الساقية والزراعة النوبية: (التوريق والسُّلُّباق والتِّقي والأناقي). (فالتوريق) هو عمود الساقية الأفقي الذي يحمل التّرس الصغير(والسلباق) هو صبي الساقية وهو (الأروتي) أيضاً وهو الذي يسوق بقر الساقية. و(الأناقي) واحدتها انقاية

وهي نحو أربعمائة متر مربع في مشروع الجزيرة تكون قطعتين بين تقنتين وجدول يفصل بين نصف الإنقاية والنصف الآخر. و(التِّقي) جمع (تقاه) وهي مكان تشوين المحصول وعليها (البحضر التقاه بتعشَّى) وكله رمز للعناية بالصلاة على الحبيب (ﷺ).

واستخدم (التَّدان) وهي نوبية تعني النصيب الأكبر في الساقية وهو نصيب المزارع وذلك في وصف زهد الصحابة في قوله (٤٤٧):

يا نعم الصحابة الكُسّر الديدان	باعوها النفوس بي جنة الولدان
أبطالاً أسود في الحرب والميدان	فَلُّوا المشركين ما عندهم تدَّان

هؤلاء الصحابة أسود كاسره اشتروا الجنة بأرواحهم وانقطعوا للجهاد وإبادة المشركين ولم يلتفتوا إلى الدنيا بزراعتها وتجارتها ولم يكن لهم فيها نصيب.

(والديدان) مفردها: دُود وهو الأسد في لغة أهل غرب السُّودان ووسطه (قالوا الدود قرقر حبس الدَّرب) وهو التُّمساح في الشمال كما قال: (ديدان لُجة الموج البياكلوا الناس). وقال شاعرنا (جنة الولدان) والمشهور (جنة الرضوان مثلاً. أجبره على ذلك الالتزام في قوافيه، ولا يمتنع ما قاله لأن الجنة معروفة بأن فيها الحور العين والولدان أيضاً، وطالما أعان الشاعر حسن معرفته وغنى معجمه على الإحسان في النظم وموافقة المعنى.

وفي دعوته النفسية في (قل يا فمي ليهم وشكر الزينين)، استعمل الشاعر كلمة نوبية أخرى هي (الخوسة) بمعنى السكين في قوله (٤٨٦):

من دابَّه ورماح رصاص وسيف خُوَسَنْ	من مكر ومن غدر ومن مَغَساَ

يستعيذ ويسأل الله الحماية من عدد من أنواع السلاح ومنها، (الخوس) جمع خوسة وهي من ألفاظ النوبية.

ومن الألفاظ الشائعة في كلام العامة (الكجانة) بمعنى البغض والكُره، وفلان (مكجن فلان) أي مبغض كاره له، وتنطق بالجيم المعطشة مما يبعدها من الفصيحة، وردت عند الشيخ في قوله (٣٩٧):

لي سوح رسولو الماجنا	فارق ديارو وكجنا

أي كرهها وضاق بها لأنه يريد سوح الرسول (ﷺ) وبلده هذا سوى الألفاظ الشائعة المستهلكة كالعنقريب وخلافه.

اللُّغة البجاوية:

أما لغة البجا في شرق السُّودان فهي الثانية في الترتيب من بين اللغات المحلية التي أغنت قاموس العاميَّة السُّودانية، ولم يكثر منها الشيخ حياتي إلا ألفاظاً مشهورة متداولة في معجم المديح السُّوداني مثل الأوكام، وهو البعير، والمقطع (أو) في لغة البجة يقوم مقام (ال) التعريف في العربية، نحو أوشيك (الشيخ) وأوهاج (الحاج) وأونور (النور) ونحوها ومنها (أوكام) التي كثرت جداً عند شعراء المدح النبوي ووردت مرات عديدة في ديوان الشيخ منها قوله (٦٣):

واضـــــــــــحهْ أحكـــــــــــامِ
بالـــــسلام كالـــصُّم تقـــري آكـــامِ
والـــسحاب إن مـــرْ فُـــوق بِـــرا رُكـــامِ
والجـــذع أبكـــا ولـــي اشـــتكى أكـــام

والأوكام الذي اشتكى هو بعير الأنصاري الذي قيل إنه كان ناضحاً يستخرجون عليه الماء من الساقية وكان صاحبه يدئبه ويجيعه، أي يُجهده بالعمل الدءوب المتواصل ولا يطعمه. وهذه واحدة من معجزاته الثابتة في كتب السيرة أضاف إليها هنا إظلال السحاب له (ﷺ) وتسليم الحجارة الصم والأشجار وغيرها.

وكررها أيضاً في قوله (٢٩٣):

تحتـو الرمـال كـان أدلَجَـنْ فـادي الأُكـامْ واللِّـسجن

أي فادي البعير والغزال الذي حبسه الصَّياد.

وقال في موضع ثالث (٤٢٠):

كـان حيـا شـهب الـسنينُ جـابرٍ شـاتو وبنينـو
واتـساع دارو وضـنينو والأكـام والعـود حنينُـو.

والإشارة بالأكام هنا إلى الجمل الشاكي في بستان الأنصاري، أو جمل جابر بن عبدالله الأنصاري فله أيضاً قصة ، ذُكر فيها هزال بعيره وأن الرسول (ﷺ) نَخَسَهُ فنشِط ثم ساومه فيه واشتراه منه كما ورد في بعض السِّير.

ومع ان عروض المقطع السابق ووزنه لا يمنع استخدام لفظة (البعير/الجمل) لكن هؤلاء الشعراء ربما عمدوا إلى بعض الألفاظ من غير العربية يستعينون بها على إقامة الوزن أو إشاعة روح بعينها في النصِّ وأقلَّ ما في ذلك من الفائدة أنها تبعث روحاً من الودِّ

والحميمية خصوصاً في نفوس أصحاب هذه اللغات المتحدثين بها حين يجدون بعضها جارياً في لغة المديح الشريفة.

واشتق الشيخ حياتي بجرأته وخبرته الكبيرة فعلاً ماضياً من كلمة بجاوية وهو (ويكب) من (ويكاب). والويكاب هو نقيع قصب الذرة الجاف بعد حرقه وعطن رماده في الماء، يستخدم إداماً حادقاً مشهوراً عندنا استعاره الشيخ لوصف السنين الشهباء وجفاف النبات فيها في قوله(٣٢٨):

وغيثـــو والـــنمير الكَـــبْ   وإحيـــا الجُـــرزا والويكـــب

مزاوجة عجيبة بين الفصيح العالي والعامي الموغل، فالمطر وماؤه الصافي الذي انهمر بدعوته (ﷺ) أحيا الأرض الجُرُز وهي التي لم يصبها مطر حتى احترق ما فيها من زرع ونبات فأصبح هشيماً تذروه الرياح وهو (الويكاب) أو القصب الناشف الذي أراده الشيخ، فقال (ويكب) أي صار ويكاباً، وهو مجاز يعني (الويكاب) الذي كان قصباً جافاً محترقاً.

مُفردات حجازية:

الحجاز قبلة أهل السُّودان، ومن نتائج الرحلة الحجازية سوى أداء المناسك وزيارة الحبيب فإنَّ الحجيج يعود محتقباً معه الكثير من أساليب أهل الحجاز ومفردات لغتهم ومن ذلك كلمة (بَلْك) وهي في لغة أهل مكة بمعنى (عسى ولعلَّ) وردت في قوله(١٤٢):

ســـــــلْ مـــــــولاك   بالـــذي بـــاكي في الأحـــلاك

(بَلْـــكِ) ينوِّلـــك ســـؤلاك   المنـــو القِـــسَم واصـــلاك

وتكررت في قوله أيضاً (٤٤٦):

أثـني علـى نبيـك يـا بـر ثنـاءً زيـن   عَلّـي أفـوز بـه (بلـكِ) كمـا الفـايزين

فاستخدم (علَّ) وأردفها وفسرها بـ(بلكِ). ومع أن اللفظة غير شائعة في السُّودان وعلى الرغم من أن الشيخ لم يَرَ الحجاز فإن هذه اللّفظة من أقوى الأدلة على شدة تعلق الشاعر بالحجاز، وقوة حافظته وسلامة ذوقه اللغوي.

واستخدم ألفاظاً أخرى تقوم شاهداً على قوة الروابط بين العاميات العربية وخصوصاً الحجازية. فالمعلوم أن هناك ألفاظاً قديمة في عامية أهل السُّودان يحسب غير المتعمق أنها ليست معروفة في السُّودان مثل (الدِّيرة بمعنى البلد، وواجد بمعنى كثير وطاح بمعنى وقع). والذي يزور الجزيرة العربية أو يقيم فيها ينسب لها هذه الألفاظ ضربة لازب، مع أنها راسخة

الاستخدام وكثيرة الشواهد في عامية أهل السُّودان القديمة؛ ومنها قول الشيخ عن الديرة(١٤٣):

فك إيدك من الماسكاك وفوت من (ديرة) الأعكاك

والأعكاك واحدها عُكْ، وهي مجموعة قرى تحمل هذا الاسم حول مدينة رفاعة، قريبة من الصّقَيْعة بلدة الشاعر. وقال في قصيدة أخرى (٢٨٨):

هانوا الكلاب العادتك زاحوها من (الديرة) تك

يريد الصحابة وإخراجهم للكفار من ديار الإسلام، يسوقونهم كالغنم، تستفيد ذلك من قوله (تك) الصوت المعروف في زجر الغنم، وقد تكون بمعنى (تبْ) أي قطعاً ونهائياً.

ووردت لفظة (واجد) بمعنى وافر وكثير في قوله (١٣١):

وحيد الماجد ومَحَبُوبُو الأعطى خيراً (واجد)

غياث الأمة الشفيع الناجد إذا ما تحت العرِشْ خَرْ ساجد

(ﷺ). فالخير الواجد هو الكثير، وقد قل استخدامها هي وأخواتها في زماننا هذا إلا في بعض جيوب البلاد.

ومن مفردات الحجازيين (الهلل) بعض أجزاء العملة عندهم ورد في قوله(٣١٠):

غير ما أشوف بلد الهلل والرُّبْ وازور ما حي الزلل

والهلله واحد على مائة من الريال السعودي أو الحجازي القديم وأما الرُّبيَّة فستأتي إن شاء الله.

مُفردات مصرية وتركية وفارسية:

جمعت المصرية مع التركية هنا لأنَّ أكثر ماجاءنا من المصريين من ألفاظ غير عربية إنما مصدره الأتراك. وبين الأتراك والفُرس اشتراك في اللُّغة أيضاً. ومن ألفاظ المصريين العربية قولهم (ميّه) يريدون الماء، وربما كان لها وجه من الفصاحة، وجاءت في قوله (١٧٩)

وضعو به الشُّهُب مرميَّه والنار انطفت غير مَيَّه

أي أطفأ نارهم بغير ماء؛ يريد نار الفرس التي عبدت ألف عام فخمدت بظهوره (ﷺ) ومن لغة المصريين أنهم يستخدمون (ال) التعريفية مكان الاسم الموصول، وهو مرويّ عن العرب (من القوم الرسول الله منهم)الذين منهم رسول الله، وهي شائعة عندنا ولكنَّا نخففها وندخلها على الأفعال والأسماء (الزول القام معاك) وعند المصريين (اللِّقام) وليس ذلك دارجاً عندنا ولكن الشيخ استملحه فاستخدمه في مثل قوله(٣٠٨):

كاشــف الهمــوم كاشــف الكُــرب   شـــافع اللّحَـــيْ واللّنتَـــرَبْ

فقولـه (اللّحي) مصرية و(اللّنترب) سودانية وبينهمـا فرق دقيـق فتأمَّلـه! وجـاء بهـا في استهلال إحدى قصائده أيضاً في قوله (٣٧١):

المـــاحي المـــشفَّع في (اللّحـــيْ) والمـــات   يـــا الـــسريت جيتنـــا بالرحمـــات

فـاللّحي في الموضعين (الـذي هـو حـي) خالفهـا في (اللّـنترب) واسـتغنى عنهـا في (المات) و(السريت) بمعنى (الذي مات) و(الذي سريت)، وأحسبه، تخلص به من مزاحفـة الشعر، وكان له أن يقول (الحِيا) كما قال (المات) ويستقيم بها الوزن والمعنى لكننا كما قالوا(الفي البَرْ عوّام).

ومن أساليب المصريين إدخال الشين بمعنى (شيء) في بعض الكلمات مثل (ماعنديش) و(ما عندوش) و(ماليش/ ومالوش) وكلها بمعنى ما عنده شيء وما عندي شيء ومالي شيء وماله شي سمعها الشيخ فأدخلها في قوله(٥٢٠):

الوحيـــد البـــاقي اسمـــو زيـــن   الـــرجيح (المـــالوش) وزيـــن

(مالوش وزين) أي ليس له موازن حساً ومعنى، (ﷺ).

وفي عاميـات المصريين والشوام كثير مـن الألفـاظ المتـأثرة بـالأتراك منهـا قـولهم في العملة (قرش صاغ وصاغ سليم) وكله من التركية، ذكره ود الفرَّاش في قوله: (طريت الصاغ سليم ماهو المكرَّب) وعليها قول شاعرنا (١٧٩):

يـــا مـــن حلـــيم   اغفـــرعظـــيم ذنـــبي   النكـــو ســـاخ ســـليم

في مجمـــــــع الـــــــسادات أجعـــــــل لـــــــي لـــــــيم

والننجـــــــي في هـــــــا هـــــــي ويومـــــــاً ألـــــــيم

وجعلها في أخرى (سَخْ) بلا ألف (٣٩١):

فـــــور وامنحـــــو قلبـــــاً ســـــليم

نقـــــي ونظيفـــــاً ســـــخ ســـــليم

والصاغ في التركية هو التام الكامل. وهي معبرة وفيها مشاركة وجدانية.

هذا وبين الفارسية والتركية اشتراك، فكلمة (عفارم) المسموعة جداً عند كبارنا إذا استحسنوا صنيع أحد، هي جاءتنا من الأتراك وأصولها فارسية ذكرها الشيخ في قوله(٣٤٨):

رضـــي الله عـــن صـــحبو النجبـــا الأكـــارم   فـــوق العِتـــا القُلّـــبْ شـــايله الـــصوارم

كـــم كـــم فنـــوا علجـــاً فَـــشْفَاشُو وارم   لله والـــنبي لا، لا لـــي قـــول عفـــارم

أبدع وأجاد وأحسن وتفنن، في وصف شجاعة الصحابة وقمعهم للمتكبرين المغترين (الفشفاشو وارم) وكان فعلهم ذلك خالصاً لوجه الله ومن أجل نبيِّه لا ينتظرون ثناءً ولا استحساناً من أحد. وعفارم بمعنى (بخٍ بخٍ) أشبه بقولنا (عوافي عليك) حينما يعجبنا تصرّف إنسان.

ومن الألفاظ الشائعة عند المصريين والأتراك كلمة (دستور) يطلقونها إذا أرادوا الدخول على عظيم أو حتى على كل بيت عادي وهي بمعنى الإذن، فارسية الأصل، اشتق منها الشيخ فعلا بمعنى أنِسَ واطمأنّ فقال (١٦٥):

النافر (دسترا) حولُو، السام واكتَرَى
والشمس حين ترى تخجل يا هنترا

هذا الرسول المتواضع الذي باع واشترى وتاجر تشريعاً لأمته، قد رزقه الله المهابة والقبول حتى لدى أشد الحيوانات حساسية ونفورا، فالصيد الذي من طبعه النفور يألف الرّسول (ﷺ) ولا يخاف وهذه من خصائص وقَاره ومهابته (ﷺ).

ومن الألفاظ التركية الشامية المصرية كلمة (داده) وهي المربية والحاضنة وجدتها في كتاب (الاعتبار) لابن منقذ، ذكرها الشيخ في مقطع الصحابة في إحدى قصائده في قوله (١٦٣):

صحبو قادتنا ربي بي جاهن تبقى دادتنا
الدنيَّه، ويوت تَنْمى مدتنا عِن خروج الروح زين شهادتنا

أراد بجاه هؤلاء الصحابة الكرام على ربهم أن تكون الدنيا خادمة له وألا يكون خادماً لها، فهو عازف عنها بدليل أنَّه سماها (الدنية).

ومن الألفاظ التركية كلمة (باره) وهي أصغر وحدة عملة عند الأتراك كالمليم عندنا قديماً، استخدمها في تأكيد زهد النبي (ﷺ) في الدنيا (٤٩٠):

نبياً ما ادَّخر في بيتو لوبارا كان لي أمتو والقبلها جباره

وقد مرَّ بنا هذا المقطع قريباً.

ومن الكلمات الفارسية المحضة كلمة (برذون) بمعنى بَغَل(سليل الحصان والحمار) أو هو الحصان الرديء الأصل، وقد انفرد بها الشيخ ولم أجدها عند غيره. استعملتها العرب. ووردت مؤنثة في قول شاعرهم: (اللِّسان/برذن):

رأيتك إذ جالت بك الخيل جولةً وأنت على برذونةٍ غير طائل

أما الشيخ فقد ذكرها في معرض حديثه عن زهد النبي (ﷺ) وتواضعه فقال (٥٤٦):

قَـــامْتُو عَدِيْلَـــه لَـــيس أكَـــبْ   يَخْفَـــى البَـــدْر والكَوْكَـــبْ

إن شـــــارْ للــــــسماء ســــــكب   بَـــــرَذون أو حِمَـــــارْ يَرْكَـــــبْ

حَاشَـــــا خَـــــدِيمُو مَـــــا بيُنْكَـــــبْ

كان مع جماله وجلاله وفضله يركب الدابة بل كان يركب الحمار والبَغَل، وكل الدواب وكان فوق ذلك يردف خلفه (ﷺ).

وتكررت عنده كلمة (دفتر) وهي أيضاً فارسية بمعنى الأوراق المضموم بعضها إلى بعض وقد عرَّبتها العرب منذ القدم. استخدمها في (الأحرار)(٤٦٧):

واذْكُـــرُوا ربّكـــمْ بالـــذُّل والتِكْـــرَار   يَبْقِـــي اسمـــاءكم في دفـــتر الأبـــرار

وفي (النُدّر) أيضاً (٤٦٤):

أســـلُكْ مَـــسْلَكُمْ لا أفْنَـــى لا أغْتَـــرْ   وانرصِـــدْ اسَـــمِي مَعَهُـــمْ بـــاطن الـــدفتر

ويردفـه بالكـشف أيـضاً وهـو البيـان أو القائمـة الـتي تـسجل فيهـا الأسمـاء والبـضائع والممتلكات ولعل الاستخدام العربي تضافر مع الاستخدام التركي ووردت كلمة الكشف أيضاً كثيراً، منها قوله(٤٧٨):

في كـــشف الـــسعاد انظـــم لآليهـــا   واخـــتم بـــالعتق ســـركيها لوليهـــا

بـل اسـتخدم هنـا (الـسركي) وهـو الـدفتر الـذي تـسجل فيـه المراسـلات والمعـاملات وربمـا لأنه ينظر لعمل رقيب وعتيد وهما الموكلان بالرَّصد فرأى (السركي) وهو دفتر الرصد أقرب إلى المعنى الذي يريده، والمرء إذا نجا مما يرصده الملكان فكأنما نجا من شيء مرصود في دفتر أو سيرك، لذلك تردد ذكره في الديوان نحو قوله (٣٤٨):

صَـــلَواتْ حَيَـــاتِي عِرِيبِـــي المَلْكَـــة جَـــاتْكُم   بالرَّاحَـــة يـــا أَحِبَّـــة وسِـــرْكِي نَجَـــاتْكُمْ

هذه الصلوات المعتبرة إذا جاءت بسركي النجاة فقد جاءت بالراحة الكبرى، وهذا ما يريده لأن (استلام السركي) هو عتق من أهوال يوم القيامة لذلك قال(٣٧٢):

تَـــدِّي سِـــرك عِتقُـــو تَعلَّـــي لـــي الـــدَّرجاتْ

ولابد أن سركي العتق هذا هو الكتاب الذي يأخذه الناجي بيمينه، وهو ماكنى عنه بقوله (٣٠٧):

بيهـــا حَيَـــاتِي بَنَـــي الأمَـــانْ   بَـــدْري اسْـــتلَمْ ســـرْكِي الـــضّمان

هو وأبناؤه فازوا في السابقين وتسلَّموا صحائفهم بأيمانهم وضمنوا العتق من النار بفضل هذه الصَّلوات التي يعوِّل عليها ونُعول معه عليها.

ومن الألفاظ الفارسية التركية كلمة (قُفطان)، وربما نطقت (قُفْتان) والطاء والتاء أخوات، وهي اسم لنوع من ملابس الرجال خصوصاً الأعيان ورجال الدين، جاءت مجموعة في قول الشاعر (٤٠٩):

أبتنا الدار سلاطينا   لنا وغشَّت قَفَاطِينا

بساتينا وهوا طينا   ونساها وكور شيا طينا

يتكلم عن الخداع والغش الذي يظهر به بعض المنسوبين إلى الدين وما هم كذلك فالقفطان شعار الوقار والورع ولكن الشاعر لم يجده كذلك عند المذكورين هنا.

وأخذ الشيخ من اللغة الهندية بعض أسماء الأعداد مثل (اللّك) وهو الألف، والرُّبية وهي العملة المتداولة في شرق آسيا...وعليها قوله (٣٠):

غير ما أشوف بلد الهلل   والرُّبْ وأزور ماحي الزلل

أما اللّك واللكوك والألكاك فكلها مما ورد عنده بكثرة، قال عن المفرد والجمع معا(١٣٨):

يا طير كم أكلّك   آلاف لكوك في لك

يقصد سيف الصحابة، أشبع هذه الصقور بآلاف من جثث الكفار.

ومن اللغات الأجنبية أيضاً الإنجليزية، وقد أدرك الشاعر أيام الإنجليز مثلما أدرك شيئاً من عصر الأتراك فاستخدم كثيراً من الألفاظ المعربة مثل كلمة (ييس) (Yes) بمعنى نعم، قال في (سيد إدريس)(٢٦٣):

بحلول صاحب التكييس   اغتم كسرى من تهييس

قصرو، وملكو منو أييس   ثاني عقب عذابو بئيس

والويل عَمَّمُنْ ناس ييس

بميلاد صاحب الكياسة والفطانة (ﷺ) أصاب الغم كسرى ملك الفرس بسبب تهدُّم قصره وملكه الذي يئس منه، ألم يقل لهم سيصل ملكه إلى ما تحت قدميّ هاتين؟ ثم إن عاقبته بائسة وسيعمهم الويل أو يتعمّمون به، يريد هؤلاء الأعاجم ممن لم يُسلم وهم المقصودون بقوله (ناس ييس). وربما أراد النصارى، فالكلمة من لغتهم.

واستعمل (الكنترة) وأراد بها التعاقد من قولهم (Contract) في قوله (٩٩):

مِــــنْ هَهُنَـــــا اتْكَنْتَــــرَا ⠀⠀⠀ في خدمــــةِ المَــــا افْتَــــرَى

يعـني وقـف نفسـه علـى خدمـة الجنـاب بالمدح، لا يمـدح سـواه وقـد فعـل. وكررهـا في قوله(٤٦٤):

إيــش حــالي أنــا المِــنْ قمــتَ مــا فتّــر ⠀⠀⠀ فــوق عــالي الجنــاب خــدامو اتكــنتر

يريد (اتكنترت) وانقطعت لخدمة عالي الجناب فكيف لا أُكرم.

ومن الإنجليزية أيضاً قوله (مَرَّكَتْ) و(مُمَرِّكاكم) و(كاركو) و(قرافين) و(تلافين) و(البوليس).

الأولى في قوله (٢٥٠):

آلاف الــــــــصلاه المعروفــــــــه ⠀⠀⠀ منِّـــي حيــاتي عــم معروفـــا

(مرّكــتْ) القلــوب بــي حروفــا ⠀⠀⠀ راقـــد عنـــدي خـــير معروفـــا

وقوله (مرّكتْ) من (الماركة) (Mark) وهي العلامة أي إنَّ هذه الصلاة رسمت حروفها كالعلامة عليكم تتميزون بها دنيا وأخرى.

واشتق منها اسم فاعل في قوله (٣٤٦):

وبنـــات أيـــادي العـــزة (مُمَركــاكم) ⠀⠀⠀ وعلــى المراتــب العليــا يــكُ انتكــاكم

يعني أن أصابع وبنان العزة بصمت بنجاتكم وأصبحتم من اهل المراتب العليا المتكئين على نمارق الجنة وأرائكها.

ووردت عنده كلمة (كاركو) في قوله(٢٣١):

الـــصَّلوات حيـــاتي تبـــاركو ⠀⠀⠀ لا تخلـــي القرينـــة تـــشاركو

خـــيرا يعـــم أحبـــا يواركـــو ⠀⠀⠀ عكــساً بالعِــدَا تقــوم (كــاركو)

يريد صلاة توالي أحبابه بخير، أما الأعداء فعلى العكس تشحنهم جوياً كما يتراءى لي من قياسها على قولهم لمن نغضب عليه (سفر البُن، دق وحرِق) يعني تفني الأعداء وتخفيهم عن وجهه. وقد فصّلت هذا في فصل الأعداء.

وأما (القرافين) و(التلافين) في قوله (١٨٧):

الـــــصلوات تلافينـــــا ⠀⠀⠀ ســـابقه سَـــحِبْ قَرافينـــا

في الكــون خــيرا فــاض فينــا ⠀⠀⠀ حيـــاتي أكـــل خريفينـــا

أراد الـصلوات الـسريعة مثـل التلفونـات الـتي تـسبق التلغرافـات لأن الأولى أسـرع وقـد كانت هذه التقنيات قمة السرعة عندهم في ذلك الزمان.

أما كلمة البوليس فهي شائعة معروفة وردت في قوله (٢٦٤):

تَنْجِــــــي الأُمّــــــــة لا البـــــــوليسْ

وليس في قوله هذا أدنى مَغْمَز وإنَّما أراد أن يوم القيامة مما يحتاج فيه الناس إلى الحماية حتى البوليس المعروف في الدنيا بقوة الشوكة وحماية غيره هو يوم القيامة من المحتاجين إلى الحماية.

ومن الكلمات الأجنبية (الكرنتينة) وهي مكان الحجز الصحي للمصابين بالأمراض المعدية فهو يريد ألا يكون كالمحبوسين على هذه الحالة في قوله (٤٨٢):

يــا مــن رحمتــك عامــة الكيــان سـعة   عقبـــان في الـــوطن لا اسَّـــنّى لا اتكـــرتن

أي لا انتظر ولا أحجز عن السفر إلى الحبيب (ﷺ).

ونختم من غير ادعاء استقصاء بكلمة (البرنيطة) وهي القبعة التي استخدمها في وصف هيئة الأعاجم من العلوج والأعداء، تخيلهم كالذين يلبسونها من الفرنجة على زمانه فقال (١٦٨):

كَـــمْ كَـــمْ ألـــف طـــنْ   جـــيش أفنـــو مبرنطـــا

أي أن الصحابة أفنوا آلاف الأطنان من جُثَث هذا الجيش الذي يلبس البرانيط.

وهكذا طال هذا الفصل في اللغة ولا بأس؛ لأن الألفاظ هي خدم المعاني ومرادنا بهذه النظرات أن نرى كيف استطاعت لغة الشاعر بهذا التنويع أن تحمل المعاني النبيلة ومفردات السيرة وأن تصل إلى القارئ بهذا الثراء والغنى والتنوع والطرافة والجدة التي لن تعدم مزيداً من الشواهد عليها في جميع فصول البحث.

أصوات وتصريف

هذا باب أقرب إلى الاختصاص، لا نريد أن نحمِّل فيه عقول عامّة الناس على تعليلات أهل الصرف والصوتيات ولكن النّاظر فيه لن يعدم فائدة وإنْ لم يكن متخصصاً فحكاية الصوت والقُطعة والإمالة والتصغير والاتباع كلها مما عرفتها العاميّة السُّودانية وهي مألوفة شائعة؛ وسأمُّر بها سريعاً.

حكاية صوت الفعل:

حكاية صوت الفعل هي أن نتبع الفعل بصوت يشبه الفعل مثلما نقول: (ضربو طاخ) و(سكتو تِمْ) و(يابس كَرَوْ) ونحوها. وعليها قول شاعر الدوبيت:

شمبانِيهـــا رِيـــشَة قلـــبي (كَـــعْ) قَـــصَّاها

الشمباني هو رِمشْ العين بلغة البجة وأصله السَّهم على التشبيه.

وقول الآخر وأظنّه الصادق ود آمنة:

لَفَـــحْ الـــسَّمْرة وادّلّـــى الـــوعير مِـــنْ ضَـــوْ

رَدَفْ الزَّوعـــــة واتـــصَعَّدْ هبـــوب الجَـــوْ

أنـــس الغـــيرا مَـــا لـــيْ فيْ الـــشّبابات هَـــوْ

خَلَّـــت رِيقِـــي قِرْقِـــدَّهْ ولهـــاتي كَـــرَوْ

فقوله (خلَّتْ لهاتي كَرَوْ) أي يابسة جافة كجلد الجراب إذا حركته صَوَّت. ومجرد سماعك لها يذكرك (بناهي النَّهو ١٦٩) التي وردت فيها ألفاظ كثيرة على هذه الشاكلة منها قوله (١٦٩):

أحيـــا ضـــروعاً كَـــرَوْ　　　والمـــــاتوا تقبَّـــــروا

فـ(الضروع الكرو) هي اليابسة الجافة تماماً كما قال شاعر الدوبيت وهي مشهورة من كلامنا، يقولون (الماعون يابس كَرَو). ومثلها قوله (١٦٩):

إنْ مـــرَّ علـــى الكَـــشَوْ　　　اخـــضرَّ فيـــا أَشَـــوْ

فـ(الكشو) هي حكاية صوت النّبات اليابس.

ومثل (الكَرَو) أيضاً قوله (كَوْ) التي وردت في مقطع واحد بأكثر من معنى في قصيدته (زاد حساري أزمن لي هَوْ)، فقال (٣٩٣):

يـــومْ مَـــا أتَـــى الحَـــاكِينْ حكَـــوْ　　　الحَـــقْ ضَـــرَبْ فُـــوقَ رَاسَـــا كَـــو

أهـــل الــــشِّرِكْ ضَـــجُّوا وبَكَـــوا　　　سَـــوُّوا الفَزِيــزْ مَـــا رَكُّـــو كَـــوْ

ممـــــــا رأوا النَّهَـــــــــر أضْـــــــحَى كَـــــــــوْ

الحـق ضـرب فـوق راسـا، أي أهـل الـشرك. وكـانـت ضـربـة لهـا صـوت ودوي حكـاه بقـولـه (كَـوْ) كمـا نقـول (طقـاهُ كَـو ـ في راسـو). و(مـا ركُّـو كَـوْ) كمـا أقرأهـا (لا) كمـا شُـرحت في الـديوان أي مـا حطُّـوا علـى الأرض أبـداً، فقولـه (كَـوْ) بمعنـى (لا) كمـا عنـد أهلنـا في غـرب السُّودان. أمَّا (كوْ) الأخيرة فهي مثل (كَرَوْ) بمعنى فارغ يابس.

وفي هاتين القصيدتين ألفاظ سترد عليك متفرقة فيما يلي من تحليل.

وهذا الأسلوب من أكثر أساليب الكلام عوناً على سرعة الفهم. وقد أكثر منه الشيخ حياتي وأجاد استخدامه كعادته؛ لم يخلّ بدلالته اللُّغوية ولا خرج به عن وقار المديح النّبوي.

ومما جاء منه استعماله لفظ (جب) بجيم مثلثة ويستخدم في البلـع نقول (بلعو جب) وعليها قولهم في أغنية التراث:

تمــــــسَاحْ ابْ كَبَلُّـــــــو الــــــضارب الليّـــــــة

يَبلَـــعْ جـــب وجـــب لـــي خَـــصِيمُو جِـــدْ ليَّـــا

و جاءت في قوله (٢٨٧):

عَقَّـــــبْ وشَـــــكّر شَـــــافِعَكْ　　　واطْنِـــبْ وشَـــنِّفْ مَـــسْمَعَكْ

والـــسّامعينْ، مِـــينْ يَمْنَعَـــكْ　　　خَلِـــي المحـــبين تَرْضَـــعَكْ

وإن شـــــــالله حَـــــــتْ جَـــــــبْ تبْلَعـــــــــكْ

وفيها تقوية ملموسة للفعل (بلع) وقد يقوي بها الفعل (أكل) والأكل والبلـع قريبـان، قال (٢٠٣):

مـــوْطَى مَدَاسَـــكْ عَلَـــى راس مَدَاسُـــمْ　　　لا فَخْـــر فَاسَـــكْ جَـــبْ تَاكُـــل فَاسُـــمْ

وجاء في سياق ثالث في قوله (٣٨٥):

بـــي الخـــير تَهَاطَـــلْ مـــا انْحَجـــبْ　　　والـــشِّرّ شَخْـــصُو انحـــدّ جـــب

وكله دليل استغراق في الفعل.

ويحكي أهلنا صوت المطر بأصوات كثيرة منها (المطرة صَبَّتْ جَوْ) أو (المطرة قالت جَوْ) و(جاتْ نَازْلَه بَوْ) و(دموعو صبت زي المطر دَيْ) أو (دَوْ) وكله جاء في شعر الشيخ، قال (١٢٥):

كَفَـــــا إحْيَـــــا الوالِـــــدَيْ　　　والمطـــــــــر الـــــــــصَبَّ دَي

ويستعمل للمطر أيضاً لفظة (دَو) حيث يقول (٣٩٣):

أحْيَــــا الَّـــــذين تلحـــــدو　　　بـــدعاه والغيـــث صـــبٌّ دو

وقال عن الدموع تشبيهاً لها بالمطر لغزارتها (١٧٠):

الْـــلاح صَـــبْ دَمْعِـــي دَوْ　　　وأنْـــــــسَانِي الْمَهَّـــــــدَوْ

لاح البرق فسالت دموعه كالمطر شوقاً إلى أرض الحبيب فنسي حتى أطفاله الصغار الذين هم في المهْد.

ويشبه صلاته أيضاً في كثرتها بالمطرة فيعطيها صفتها فيقول (١٧٠):

علـــــى ملجـــا الأذْنبُــــو　　　يُـــوتْ صـــلى حيَـــاتِي بَـــوْ

و(جا نازل بو) تقال للمطر ولكل ما يأتي قوياً سريعاً كما في صفة الطيور على جثث الأعداء في قوله (٨٦):

والطـــير جـــا نـــازِلْ بَـــوْ　　　فـــوقُم شـــبع في البَـــوْ

فدلت (بَوْ) هنا على نزوله مجتمعاً ومندفعاً فحط على جثث القتلى وشبع في الأحشاء (البو).

واستعمل لنزول الرحمات الغزيرة النازلة كالأمطار الصوت (جَوْ) فقال (١٦٩):

مَـــيلادُو حَجَـــا الحَجَـــوْ　　　قَـــالَتْبُو الرَّحْمَـــة جَـــوْ

فيجعلك تتخيل نزولها كالمطر الغزير.

واستعمل شيخنا الأصوات: (رَبْ وبَبْ وتَبْ) الأوّل صوت الرميْ (رَمَاهُو رَبْ) والثاني مثله، وقد يفرق بينهما فيستعمل مع الثانية الفعل (وقع بَبْ) أمَّا الثالثة فتكون للاستغراق (قضاهو تَبْ) وكل ذلك ورد عنده بهذه المعاني؛ فمن الأوّل قوله (٥٤١):

البريـــق مِـــنْ جَـــاي يَـــا عَـــرب　　　ســـهمو صـــاد قلـــبي رامـــي رَبْ

وهذه رمية لها صوت مُدَوٍّ مثلما قال (٢٧٨):

أمـــدَحْ مـــديحاً بـــي طَـــرَبْ　　　فـــوق مـــسندي الـــزَّال الكـــربْ

قَلْـــب المُحِـــبْ منـــه اضْـــطَربْ　　　وإنْ مَـــا صَـــبَرْ يَرْميـــه رَبْ

وأنت حين تسمع (يرميه رب) تتبادر إلى ذهنك صورة الشيء المرمي لا حراك به وهو قطعاً أبلغ من استعمال (رمى) وحده مجرداً.

وقد تأتي (ربْ) لبيان انقطاع الحركة نتيجة الامتلاء فيقولون (وقف رَبْ) كما قال (٤٠٧):

أشْــبَعْ واقيـــف مـــن فيـــضُو رَبْ   زي البـــدار أعـــني القِـــرَبْ

فهـو إذا (وَقَـفْ قِرْبَـه) أعْيَتـه الحركـة تمامـاً، ويضـرب بالبـدرة والقربـة المثـل ﴿ الامـتلاء وقد جمع الأولى على (بدار) ويجمعها أيضاً على (بِدَر) وكله وارد.

أمَّا قولنـا (رمـاه بَـبْ) فهـي أختهـا وقـد أكثـر منهـا أيـضاً لما وجـدها معـبرة عـن المـراد ومضيفة معنى وظلالاً للفعل الذي تأتي معه مثل قوله (٣٠٧):

الليلـــه لاح بَرْقَـــاً خَبَـــبْ   رَمَــى قلــبي بــي نِبْلاتُــو بَــبْ

وتظهر بصورة أقوى ﴿ قوله عن الإلقاء ﴿ جهنَّم (٤٥٠):

نِعْـم أبـا بكـر فـازْ مَـنْ إليـه حبَـبْ   وَيْــل اليَبْغَـضو رُمــي ﴿ جَهــنَّم بَـبْ

وأوضح منها ﴿ قوله (٣٨٦):

الرَّبْعَـــة قـــامْتُو بـــلا كَبَـــبْ   لَمْحَـــة حَوَاجْبُـــو تَـــرْمِ بَـــبْ

و(الكببْ) هو الانحناء والتقويس.

ويفـرِّق الـشاعر تفريقـاً دقيقـاً بـين صـوت المرمـي مـدفوعاً والمرمـي مـن أثـر الـضرب فيستخدم لفظة (لَتْ) الدالة على الوقوع التلقائي ﴿ وصف أفعال الصحابة ﴿ الحرب وذلك قوله (٣٢١):

أصـحابْ نَبِـي مَـا حِـي الغَلَـتْ   عِنْـــد القِتَـــالْ مِثْـــل الظَّلَـــتْ

فُـــوقْ الخِيُـــولْ اتْهَلَّلَـــتْ   خَلُّـــو العِـــدَا تِتْـــرَامَ لَـــتْ

سـيفُم تَقُـــولْ مَـــا خْـــذُو الكَلَـــتْ

وهـذه صـورة معـبرة عـن وقـوع، فيـه شـيء مـن التراخـي واللِّـين، فحـين يقطـع رأس الكـافر يبقـى قلـيلاً ثـم ينهـار واقعـاً فيحـدث هـذا الـصوت المشوب بـصوت ارتطـام الـشيء اللـيِّن بـالأرض. وبين (لَتْ) و(بَبْ) فرق فتأمَّلهُ!

أمَّا (تَبْ) التي تأتي للاستغراق وللقضاء المبرم على الشيء فقد جاءت ﴿ قوله (٤٠٧):

النُّـــورو ﴿ الأحْـــلاك سَـــرَجْ   مَـــلا تَـــبْ سَـــمَواتْ الـــبرَجْ

فملأها تَبْ، أي لم يترك فيها فراغاً وهذا هو الاستغراق. ومثله قوله (٣٨٥):

يـــا ربِّ وامـــحَ الْلِّنْكَتَـــبْ   فِــي صُــحْفِي مِــنْ أوزاري تَــبْ

يريـد القـضاء عليهـا وألا يـترك منهـا ذنبـاً واحـداً. ومثلـها أيـضاً قولـه عـن حُمَّـى أُمِّ مَلْـدَمْ التي أقلقت الناس وأدخلتهم ﴿ أحوال ذكر منها (٤٠٣):

زَاعْتَـــه الكَـــبيرْ غَبَّبُـــو تَـــبْ   خَــلَّ الهــدِم كــل ســاعة تَــبْ

فهذه الحمى لم ترحم الصغير ولا الكبير، وأمَّا الكبير فإنَّه مع قوة تحمله أدخلته في غيبوبة قاضية (غَبَّتْبُو تَبْ) حتى ترك ثيابه وقام عارياً. و(تَبْ) الثانية هنا ليست من الأولى وإنَّما الأخيرة هذه فعل ماضٍ (تَبَّ) بمعنى نهض بسرعة.

وقد يُفَخِّم الناس التاء من (تب) فتصبح (طَبْ) وهي بمعناها تماماً وقد جاءت عند الشاعر كثيراً، منها قوله (٥٤١):

بــي خَلِــي الآبــار مَمْلــي طَــبْ والــضرُوع مِــنْ بعــد القطَــبْ

فجاءت (طَبْ) هنا لتأكيد الامتلاء إلى آخر حد كما في الآبار المذكورة أو ضروع الشياه التي كانت جافة يابسة، وكله بالرسول (ﷺ)، لأنَّ قوله (بي) أي (به) ويعني الرسول (ﷺ).

وقد يستعملون في النزول والوقوع من أعلى إلى أسفل (نَزَلْ تَرَب) وجاءت في قول شيخنا حين قال (٣٨٦):

خَلُّــو الــدِّمُوعْ تَنْــزِلْ تَــرَبْ مِــنْ المُحِــبْ وارْمُــوهْ رَبْ

والنزول ترب كأن فيه قفزاً وهكذا تتقافز الدموع من أعين المحبين المشُوقين.

وقد يأتي الشاعر بالصَّوْت مفرداً وقد يحتاج إلى تقوية المعنى فيكرر الصوت نفسه ومثاله قوله عن الصوت مفرداً (٤٣٢):

والــسمَا الكَــرْتَحْ يــوم أشَــارْ قَــالْ تَــحْ

أراد إشارته للسماء الخالية من السحاب فتجمع وانهمر المطر بشدة عبَّر عنها بقوله (قال تحْ) إذا انهمك وتوالى نقول: (فلان قال تح في البكا). ثم كرره لما عبَّر به عن انهمال دمعه باستمرار، فقال (٢١٤):

أَمْــدَا فــوق كَــابي

مِــنْ ذَا أقُــول تَــحْ تَــحْ دَمْعــي كَبْكَــابي العــشق نَاسُــو صَــادَ كَبْكَــابي

مِــنْ رَمِــي سَــهْمِي وطَعْــنِ كُوكَــابي

ومن المكرر الذي استغنى به عن ذكر الفعل قوله عن الصحابة وسيوفهم (٣٣٠):

صَــحَابْتُو الحَــارتين الكَــف ســيوفُم في العــدا كــف كــف

يعني تخطف رؤوسهم بسرعة فائقة عبر عنها بالصوت (كَفْ كَفْ) وهو شائع في الاستخدام (كــف خطفــو) مثلمــا قــال (فــت فــت) الثانيــة في الــشهب الــتي ترمــي المــسترقين للسمع (٥٤):

دِيــن عِــدا اكبــادم حرَّقــا وفَتْفَــتْ والــشهب رمــتْ المــسترق فَــتْ فَــتْ

فقوله (فّتْفَتْ) الأولى غير قوله (فت فت) الثانية إذ الأولى من (التَّفتيت) وهو التقطيع والبعثرة أمَّا الثانية فهي ما يحدثه صوت الرمي وهي مألوفة عندنا يقولون (فلان مرق فَتْ) إذا خرج بسرعة كما يخرج السهم من الرَّمية.

ومن ألفاظ حكاية صوت الصِّياح والصراخ في قولهم: (كورك قال رَوْ) وهي طريقة معلومة يضغط فيها الصائح بإصبعيه الوسطى والإبهام على شدقيه ثم يصوِّت فيقال فلان (ضرب الرو) أو (ضرب الرور) أو (حلب شدوقو) أو (ضرب الزَّاقِرْ) وكله استفاد منه الشيخ في التعبير عن الحالات التي تنتاب العاشقين؛ فقال عن فرحتهم بالوصول إلى الحجاز (٣٩٤):

سَـــافَرْ مَـــعَ مَـــنْ سَـــافَرَوا	قَطَعُـــوا بَجِـــدَّه وقَـــالُو رَوْ
وَصَـــلُوا وُحَجُّـــوا واكْتَـــرَوا	زِمـــلاً هُمَـــامْ حَـــادُوا وسَـــرَوا

وزَارُوا الوَسِـــيلَة وجَـــاوَرُوْ

أكرم وأنعم بحالهم فرغوا من حجهم واستأجروا الزَّوامل الهميمة وساروا ليلاً يتغنّون فرحاً ونشاطاً حتى وصلوا الوسيلة (ﷺ) زاروه وجاوروه... فقوله (قالو رَوْ) هو صوت صياح الفرح الذي وصفناه.

والشاعر يبشر العصاة بهذا الرسول الكريم ويقول لهم صيحوا فرحاً بالمنجي المخلص فيعيد استخدام (رَوْ) في صيغة الاسم فيقول (٣٠٥):

الوَضْـــعُو زَالْ كُـــلَّ الـــشِّرُورْ	مَـــلأ الكَيَـــانْ نِعْمَـــة وسِـــرُورْ
سَـــرَى خَـــيرُو فَـــأَضْ عَـــمَّ البَـــرُورْ	لا شَـــك وقَانَـــا مِـــنْ الحَـــرُورْ

يَـــا أهـــلْ المَـــسَاوِي أضُـــرْبُو رُورْ

بميلاد هذا الرسول الكريم زالت الشسرور وامتلأ الكون نعمة وسروراً وعم ذلك وفاض في البر والبحر وهو قطعاً حامينا وموقينا من حر نار جهنم فيا أيُّها المذنبون صيحوا فرحاً و(أضربوا الرُّور) و(ضَرْب الرُّور) هو(ضرب الزَّاقِر) و (حلب الشدوق) الذي شرحناه.

ومرَّ بهذا الصوت في إحدى صلواته حيث قال (٤٠٥):

صَـــلِّيتْ صـــلاة ليهَـــا رُور	تَرْضِـــي المُظلَّـــل في المـــرُورْ

فهذه صلاة ليها صوت عالٍ كأنها صلاة بالمزيقة ترضي الرسول الذي يظلله الغيم حين يسير ويمر بالنواحي.

ومن أصوات الأفعال الدالة على السرعة وخفة الحركة قوله (٣٢٥):

الحَبَّـــا يَنْجَـــا مِـــنْ الهَـــرَفْ	والباغْـــضُو تاخْـــدو النَّـــارْ كَـــرفْ

فقوله (تاخدو النار كَرَفْ) كأنها تختطفه اختطافاً سريعاً. وهذه السرعة والخفة تظهر في فعل البرق الذي قال عنه (٤٠٥):

الليلَة لاحْ بَرْقاً خَتَفْ — نوم عيني جُنْح الليلْ تَفْ
زَمَّ الجَنَانْ تفَّاه تَفْ — دَمَّاعي بالخدِّينْ هَتَفْ
وأنَا بالذِّنُوبْ هَانِي انْكَتَفْ

هذا البرق الذي لاح في ظلمة الليل البهيم خطف نوم عيونه بخفة وسرعة (تَفْ)، كما نقول (تَفْ خطفُو) وضغط على قلبه ثم تَفَّاه تفَّاً، و(تف) الثانية هنا مصدر (تفَّ) وهو الدق الشديد مثل قولهم (في الفُنْدُك تفّوني) مثل تفَّ اللحم.

ونحن نقول (فلان جدع الشيء فَنْ) يعني حتى أصدر صفيراً وصوتاً،استخدمها شاعرنا في وصف الكرار في مقطع بليغ جاء فيه (٤٦٨):

كَرَّارْ أمْ لَبُوسْ الرَّوقنْ صَفَّا — برَّز في المحاصْ فوق البِقِلْب الفَنْ
شايِلْ ذَا الفقارْ الوَاسَى لِي العفَّنْ — أبْ ضَرْبَاً مخلّص يألو من كَفّاً
فلَّ المشركينْ جَدَّعْ رؤوسم فَنْ — خلاهم قناطر والدِّمَا بَفَّنْ

في صورة مطولة رائعة، نكتفي منها هنا بصورة هذا البطل الواقف بين الصفوف والريقان المشهورة ضربته يواسي (يساوي) كل موضع فساد في أجساد الكافرين بكف يا له من كف، ضربه مخلّص لا يحتاج إلى معاودة، يضرب رؤوس المشركين التي تعشعش فيها الأفكار البالية المتعفنة فتنفصل (تنجدع) على الأرض حتى تسمع لانفصالها صوتاً (فَنْ) فجعل المشركين بعضهم فوق بعض مقنطرين ودماؤهم لها أصوات وشخير وهو (البَفْ) وهو أيضاً صوت دفعات الدم المندفع من الجروح.

ولا يكاد ينقضي إبداع الشيخ وتفنُّنه في اختيار الأصوات التي كان لها أثر كبير في تقوية معانيه، فإذا تكلّم عن خمود النار بإشارة الرسول استخدم صوتاً مألوفاً فنحن نقول (دخل فلان والجماعة سكتو تِمْ) وفي ألعاب الصبية إذا أرادوا الصمت قالوا (تِمْ الإبرة فيها السِّم) أي الزموا الهدوء. أخذها الشيخ فقال (١٥٤):

جَزْمَاً حَتِمْ
يا مادحُو لا تهتمْ أشرب وتِمْ
كونُو الَبِه كشْف الأرسال خُتِمْ
إن شار إلى النيرانْ تَسْكُتْلُو تِمْ

(تِمْ) الأولى فعل أمر من تمَّ الإناء إذا كان ناقصاً. أما (تِمْ) الثانية فهي الصوت الذي نعنيه، فالنار حين يشير إليها الرسول (ﷺ) تخْمُد وينقطع صوت زفيرها وشهيقها فعبّر عنه بقوله (تسْكُتْ تِمْ).

ومن أصوات النار أيضاً قولنا (النار ولّعَتْ بقْ) وهو صوت اللهب إذا شبَّ دفعة واحدة، استخدمها الشيخ في وصف الحُمَّى (حُمَّى أم ملدم)، فقال (٤٠٣):

فوقْ البَلدْ كَفَتْ الطَّبَقْ نَفَثَتْ وبقَّت نَارًا بَقْ

ولسلاسل الحديد وسلاسل الحلي صوت أيضاً وهو (الشَّلْشَلَة) استخدمها الشيخ في اللنوعين، فحكى صوت الأول في قوله:

شُفْتَ البريق يا أخواني لَوْ مطلوق وقيدِي يَسَوْ شَلَوْ

فقوله (شَلَوْ) هي حكاية صوت حديد القيود التي تُكَبِّلُه.

أمَّا صوت الثاني وهو الحلي وسلاسلها فورد في قوله (٣٠٨):

لابس مِنْ العينَاتْ حُللْ وِشْحَاتْ حُلِيٌّ تَسَوْ شَللْ

وهذا أشبه بقول الشاعر القديم:

تسمع للحُلي وشواشاً إذا انطلقت

فهذه الوشوشة والشلشلة هي حكاية صوت هذه الحُلي والأساور ونحوها.

ونقول: (الجماعة قعدوا رَجْ في الفارغة) إذا اشتغلوا بها وانقطعوا لها، فقالها الشيخ حاضاً على التوجُّه نحو الحجاز بعد الفرج الذي منَّ الله به عليهم بعد الشِّدة فقال (٤٠٧):

النِّيتُو حَجْ قام واندرج خاب القعد في الفارغة رَجْ

واستخدم أصوات الإزاحة والإبعاد للكفار، فقال عن الصحابة (٢٨٨):

هَانُوا الكلاب العَادَتَكْ زاحوها مِنْ الْدِيرة تَكْ

فكأنهم ساقوهم كما تساق الغَنَم، و(تَكْ) وهو صوت زجر الغنم، بل زعزعوهم كما تزعزع الطيور عن الزرع وهو ما جاء في قولهم (٢١٧):

فَنُوا الشِّرْك أبْعَدُو قُوك حَاحِ

فقوله (قُوك حَاحِ) هي عبارة زجر الطير وإبعاده عن الزَّرع وطرده.

ومن أسماء الأصوات الشائعة وإن كان رسمها صعباً قولهم (أكل الشيِ نجم) بصوت كالجيم المركبة في النون، جاء أيضاً في وصف الصحابة فقال (٨٨):

أصْــحَابُو كــانْ يَـــا بَجَــمْ   حـــين يَرْكَبُـــوا المَلْجَـــمْ
الهَــاشْ فِي المحـــاصْ تَــرْجَمْ   تَاكُـــل سِـــيُوفُمْ نَجــــمْ
فِي الأعْــــــدَاء مَــــــا بْتَــــــنْجَمْ

فالسيف (الذي ياكل نجم) دليل على الحدة، وقد عرفت في التراث السُّوداني سيوف بهذا الاسم منها (الجم جم) وهو سيف الأمين ودمسمار العبدلابي، نظر إليه الشاعر فقال (٩٨):

الفَنُوالأعْجَـــــــــــــام   بـــي ام لبُـــوسْ ولجـــام
وابْــــــــــدَرُوا الجمنجــــــــــام

و(الجمنجام) أي الأكّال وذلك لحدته ومضائه.

ولم يترك الشاعر حتى ألفاظ أصوات الأطفال، فالعادة أن يقال للطفل هذا الشيء (بابح) إذا نفد ولم يبق منه شيء. فالتقطها الشاعر فدعا قائلاً (٥٠٦):

واسْــقِينِي شَــرَابَاً سُــكَرُوا يبْقَــى مُبَــاحْ
وأوزارِي التَّكُــونْ مِــنْ الــصُّحُفْ بَابَــاحْ

أي ممحوة بالمرة ، ومَرَّ بك أنَّ هذا اللفظ أصله من فصيح الكلام، قال ابن منظور: وقال اللحياني زعم الكسائي أنَّه سمع رجلاً من بني عامر يقول: إذا قيل لنا أبقي عندكم شيء؟ قلنا: بحباح، أي لم يبق (اللسان/ بحح).

هذه سياحة في حكاية صوت الفعل التي استفاد منها الشاعر ووظَّفها توظيفاً بدراية فاعطت أسلوبه قوة مع ما فيها من الطرافة والذكاء في استغلال طاقات اللغة وتفجيرها لخدمة معاني المديح النَّبوي.

القُطْعة أو الحذف والترخيم:

من أساليب العرب الباقية في العامية السُّودانية أنَّهم يقطعون من الكلمة حرفاً أو حروفاً وهي لهجات ولغات محكية عنهم، وهي نوع من الحذف الذي يقع في الكلام العادي فيسمونه (قُطعة) مثل (الشّم والتَلْ) إذا أرادوا (الشّمس والتلج) أو مثل (يا حارِ ويا مالِ ويا أبا الحكا) المحكية عن العرب إذا أرادوا تخفيف الاسم في النداء وهو ما يعرف بالترخيم فيقولون ذلك ويريدون (يا حارث ويا مالك ويا أبا الحكم) ولعلها مشهورة في بعض قبائل السُّودان كالرباطاب وبعض أهل البوادي . ووقع منها في ديوان الشيخ حياتي الكثير، بل ربما بنى عليها قصائد بتمامها كما سوف نرى.

ومن أمثلة القطعة قوله ﬞ صفة البرق وأثره (٥٥):

ﬞ الـــــــدّجاء نَبَـــــــلْ البريـــق قَلبـــي والـــدمع أسْـــبَلْ

وأضـــرم الـــنيران ﬞ حـــشَايْ بَلْبَـــلْ لـــو سَـقونِي التَّـلْ كبْـدِي مــا بتَنْبَـلْ

أدخله البرق ﬞ حريق وضرام فتك بجوفه فصار محترّاً حتى أنه لو شرب الثّلج فإنه لا يبرد وهذا مثل قولهم (ما بيروى لو شرب البحر). وكررها ﬞ قوله (٢١٥):

البِريـــــــــــــقْ توتَـــــــــــــلْ

سَـهْمُو صَـادْ ذُو الحُـبْ صَـادَفْ المَقْتَـلْ أنْ سِـلِمْ مِنُّـو غَيْـرَ شَـكْ يَخْتَـلْ

نـــــارُو مَـــــا بْتَبْــــرُدْ إنْ سَـــــقُوهُو التَّـــــلْ

وقطع كلمة (لبيك) مرة فقال عن الرسول (ﷺ) (٥٤١):

إنْ دَعَـا لـي شـي قـالُو لَـبْ الـسّمَا أسـبُوع لـي انْحَلَـبْ

والأجَـابْ بـي إشَـارْتُو الطَّلَـبْ والـصخُور أب حُبّـاً جَلَـبْ

هذا الحبيب أب حُبّاً جَلَب الناس من مختلف الجهات، أشار إلى السماء فجادت وإلى الأشجار فانقادت وإلى الأحجار فأجابت. وهكذا هو متى أشار إلى شيء قال له (لَبْ) أي (لبيك) فقطعها للقافية. بل قطعها مرة للمصراع ثم أكملها وأبدع لأنه أتى ببقيتها ﬞ المصراع الثاني وأحسن وأجاد، وذلك قوله (٣٨٦):

سَـبَّابتي قولـو لـي لَـبْ بيـك عِنْـدِي شَـيئاً ﬞ العِلَـبْ

ألا ترى هذا الاقتدار؟ فهو إن تركها أدّت المعنى كما أدته التي قبلها فصار قطعة ولكنه أكملها فصارت قُطعة مؤقتة وما أجودها!!

وفعل ذلك بكثير من الألفاظ نحو (دج) ﬞ قوله (٤٠٨):

قـامْ سـاقُو حِـينْ مَـا الليـل دَجْ نعْـمَ القَـدَمْ لـي بلُـود دَجْ

هذا الرجل يتمتع بثقة غير محدودة ﬞ مخزونه اللغوي وبراعته الأسلوبية حتى إنّه ليغازلك باللفظة وأختها كالمتحدي ولكن أراه يشفق من الغموض فيعود شارحاً ومبيناً فلفظة (دَجْ) ﬞ الشّطر الأول أصلها (دَجَا) وهي من الدُّجى وهو الظلام وهو وقت قيام الرسول (ﷺ)، وتعبده قطع ألفها وأسكن جيمها، ثم ساندها وشفعها بأختها ﬞ الرسم لا ﬞ المعنى، لأن (دج) التي ﬞ الشطر الثاني هي مخففة من (دَجَّ) إذا سار على الأقدام وهم يقولون (أقبل الحاجُّ والداجُّ) فالحاج الحجاج، والداجّ الذين يتبعونهم سيراً على الأقدام. وﬞ اللفظتين مجانسة تامة وفطنة تامة وبراعة تامة.

وقد يحتاج في بعض قوافيه فيلجأ إلى القطعة فتسعفه أيَّما إسعاف، قال (٣٧٦):

الليلَــة البريــقْ مــسَّخْ حيَــاتِي عَلَــيْ | **في نــيرانْ هَــوَا اتقلَّــبْ نَهَــارِي ولَــيْ**

أراد نهاري وليلي فحذف ثلاثة أحرف.

وقال أيضاً (١٧٢):

أسْــــــتُرْنِي أنِّــــــي عَيُــــوبْ | **حَـــيْ مَـــيْ لا أشُـــوفْ نِيُـــوبْ**

فقوله (حَيْ مَيْ) أي حيّاً وميتاً فقطع التاء وخفَّف، يريد ألا يرى النوايب والمصائب حيّاً أو ميِّتاً.

ثم بنى قصيدتين له على هذا الأسلوب وجميع قوافيهما إمّا تصغير أو تخفيف تشديد أو قطع مثنى أو قطع ألفاظ غير المثنى، أعني قَصِيْدَتَيْهْ (سَمْحَ الْمُحيْ ١٢٥) و(عيب شبابي المِنْ صِبَيْ ٢٧٠). فلو تتبعت هاتين القصيدتين وقفت على شواهد براعة في هذا الأسلوب. ومن الألفاظ التي جاءت مثناة مقطوعة قوله في الأولى (١٢٥):

صَــــــلَواتْ قَــــــافيَتيْ | **بَــــــــرَزتْ كَالــــــــدُّرَّتَيْ**

مُلْتَزْمـــــــه بحمْلَــــــتيْ | **في كِلْتَــــــا الــــــضَرَّتيْ**

فقوافيه كلها هنا مما أسقط فيها نون المثنّى. وكذلك فعل في أختها فقال (٢٧٠):

فَــــايْق الرُّسُـــل في الــــصِّفَتِي | **دايــم البِــشِرْ فِـــي الحَـــالَتيْ**

مَــــا سَــــوْ لَمْلْـــبَسْ حُلَّتَـــي | **قَــطْ مــا ادَّخَــرْ قُــوت لَــيْلَتيْ**

أو لَيْلَـــــــه رَحْــــــــبَ الــــــرَّاحَتيْ

فكذلك هنا في أواخر أشطاره التزم حذف نون المثنى.. وقال الصِّفَتي: أراد الخَلْقِية والخُلقية، والحالتي: أراد: العسر واليسر وبقيتها واضحة.

امَّا ما قطعه من غير المثنى فمنه قوله مثلاً (١٢٥):

نَفَـــى حُـــسنُو لكـــل عَـــيْ | **للجُـــودْ والرّحمـــــة عَـــــيْ**

مِــــــنْ آدَمْ لا شُـــــــعَيْ | **والـــــرُّوح معـــــدوم بُعَـــــيْ**

أراد على الترتيب في الأشطار الأربعة: (عيْب، عين، شعيب، بُعَيْد) فحذف حروفها الأواخر. والقصيدتان كما قدمت مبنيتان على هذا اللأسلوب الدّال على البراعة والتّمكن وحسن التأتِي لتصريف الكلام.

التصغير:

من المظاهر الصوتية في هذا الديوان اعتماد الشاعر أسلوب التصغير في بعض ألفاظه والتصغير تغيير صوتي تتولد عنه معانٍ كالتقليل والتحقير والتحسين والتمليح وقد يكون للتعظيم أحياناً. وبالعودة مرة أخرى إلى القصيدتين المذكورتين في المبحث السابق وهما (سمح المحي ١٢٥ وعيب شبابي المن صبي ٢٧٠) قال في الأولى وجمع بين التصغير والقطعة (١٢٥):

صَــــاعْ جَــــابِرْ والجُــــرَيْ والتمــــــــر والقُــــــــرَي
والعَنْـــــسِي كتــــاب جُــــرَيْ واعجـــــب ســــيف الجُــــرَيْ

فـ(الجُري) الأولى تصغير (جراب) فصغرها على (جريب) ثم قطع الباء. و(القُرَيْ) هو تصغير (القرى) وهو الطعام الذي يقدم للضعيف، وكتاب (جُرَيْ) أراد (جُرَيْدَه) وهو تصغير (جرادة) المغنية التي حملت كتاب حاطب بن أبي بلتعة وعرّف المولى رسوله بأمرها. و(الجُرَيْ) الأخيرة تصغير (الجريد)، وهو جريد النخل أراد به سيف عكاشة بن محصن، ثم حذف الدال.

وقال في الثانية (٢٧٠):

يَــــا مَــــنْ لَطِيفَــــاً بــــالجِنَيْ في بطْـــنِ أمِّـــه هَــــانِي نَــــيْ
مــــسيء وفي الطّاعـــاتْ وِنَـــيْ أغفــر لــي زيــنْ طَبْعِــي الــشِّنَيْ

فالجني مصغَّر (الجَنَى) و(وِنَيْ) تصغير (وَنِي) إذا كان متباطئاً متكاسلاً و(الشّنَيْ) تصغير (الشّنِي) وهو فعيل من القُبْح وسوء العمل.

ونظرة في القصيدتين توقفك على عشرات الألفاظ المصغرة كهذه؛ منها (ضُحَيْ، ومُحَيْ، وعُدَيْ، وحُصَي، وعُشَيْ) ونحوها ... وفي الديوان أضعاف هذا مفرقاً أريد به معانيه التي قدمناها.

الإمالة:

ومن المباحث الصوتية الإمالة، وهي أن تنطق الألف بصورة بين الفتح والكسر ولم تكثر عنده وإن لم يخلُ الديوان من أمثلة، منها قوله (٢٦٢):

أُحْجَــبْ مــن عيــون النــيس والجــن وانقــى مــن تــدنيس

فوضع (النيس) ممالة وأصلها (الناس) وهي قراءة أهل السُّودان برواية الدوري عن أبي عمرو بن العلاء البصري. وقد استفاد منها الشاعر هنا في إقامة القافية فجاءت على خير ما يرام؛ لأنّ القصيدة كلها مبنية على الياء والسِّين.

وأمال لفظة أخرى في (من يباهيكم) فقال (٥٠٢):

اعتــــادُوا الـــصّدق قطعــــاً بِتـــاريكم　　　صـــلُّوا علـــى الرّسُـــول دُخـــري ودُخْـــريكم

مـــن نـــار أم لَهِيـــبْ كَمُّـــوّ بيـــضاريكم　　　والفـــردوس لكـــم بالفيهـــا بـــشريكُم

أراد (بشراكم) ولكنها لا توافق القافية فأمالها فاستقامت وهي لغة صحيحة وقراءة قرآنية سبعية نسمعها في (البشرى والكبرى ومآرب أخرى) ونحوها.

واستفاد الشيخ من ظاهرة صوتية نادرة وهي التفخيم والترقيق في بعض الحروف، والمعروف أنَّ التفخيم والترقيق هو تغليظ أو تخفيف يعتري الحرف ولا أثر له في المعنى نحو (الخيرات) بتفخيم الرّاء وترقيقها والمعنى واحد.. إلا عند أهل السُّودان فإنَّ الترقيق يعطينا معنى غير التفخيم في ألفاظ كثيرة وهذا ما لم يطرقه غيري رغم وجوده في عاميتنا، منه (الراحة) إذا فخمت كانت بمعنى الاسترخاء وإذا رُققت كانت بمعنى الكَفّ من اليد. (والربيع) بالتفخيم: الشهر المعروف أو أحد فصول السنة وهو بالترقيق يعني الرفيق والصديق. ومنه (التبرك) المفخمة من البركة والمرققة من البروك للبعير ونحوه، وشاهدي على ذلك قول الشيخ حياتي (٤١٣):

ولكـــينْ عُـــدْنَا نِتْبَـــرَّكْ　　　بِـــذيكْ الـــصِّيدَة والـــشَّرَّكْ

وأخْـــــشَافَا الْبِتِتْعَـــــرَّكْ　　　ومـــنْ أتَـــى بَـــاكِي يَتْبَـــرَّكْ

فيتبرك الأولى من البركة، أمَّا الثانية فمن بروك البعير إذا ناخ وبرك؛ فتأمَّل!

وفي الديوان مباحث صوتية سوى هذه، كلها مما وظَّفه الشاعر لخدمة معاني المديح فجاء بها على المرام مع الطّرافة والتجديد والتجويد.

الثنائية والتثنية

أقصد بالثنائية مجيء اللّفظ مكرراً في أشعار الشيخ لفظاً وراء لفظ كما قال (١٨٢):

يَــا بــر عــن صــحابة طــه   أرضَ وأمــحَ نفــسي خطاهــا
تــسرع فــورِ مــن إبطاهــا   فُــرُشْ القــوم تَطَاهَــا تَطَاهَــا

فقوله (تطاها تطاها) هو ما عنيته بالثنائية وقد قوّت المعنى وأفادت التوكيد، وهو متى كرر أمثالها رمى إلى فائدة ملموسة حتى لو كانت وتِداً أو سنداً للكلمة التي قبلها وسأفصِّله.

أمَّا التثنية فهي الاصطلاح المعروف عند الصرفيين بأن يكون اللفظ دالاً على الاثنين أو الاثنتين مثل (الضرتين والمقلتين والبدرين) ونحوها وسأعود إليها.

أ/ الثُّنائية:

مما يعترف به للشيخ حياتي دون جدال براعته في تشقيق المعاني باستغلال طاقات اللغة وتفجيرها إلى أقصى مدى. والثنائية أحد شواهدنا على ذلك. فإنَّ اللفظ حين يستكمل معناه الطبيعي يردفه الشيخ ويكرره فيتولّد معنى جديد أو يكون عضداً وسنداً للفظ الذي قبله، فعلاً كان أو اسم فعل أو مصدراً أو حرفاً. وكله قد ورد عنده. وقد يزاوج ويكرر جملة كاملة كما قال (٥٣٠):

عِــلْ صَــبْرِي عِــل صــبْرِي   زاد جرحــي مَــنْ يَبْــرِي

وقوله (عِلْ صبري) بمعنى: قلَّ ونفد صبره، ولو رسمت ياءً كما في أصل الفعل (عِيْل) ما أثرت على الوزن لأنها إطالة حركة يحتملها الوزن وسنناقش هذا في ما لاحظناه على رسم الديوان.. ولم يكثر من الجمل إكثاره من الأقسام الأخرى.

ومثال الأفعال وما أكثرها شطر البيت المتقدم:

فُــرُشْ القــوم تَطَاهَــا تَطَاهَــا

أراد أن تسرع نفسه وتترك الإبطاء وتلحق المتقدمين من القوم وتدرك مقاماتهم وتطأ ما وطئته أقدامهم، فالتكرار هنا للتوكيد مرةً بعد مرة كما تقول (حا أمشي حا أمشي) فأكمل وزن البيت دونما إيغال.

ومثال تكرار الأسماء قوله (١١٢):

حَيَــاتِي عِــريبي عَــالاَّنِي   ذنــوبي، ذنــوبي تَــالاَّني

فكرر الاسم (ذنوبي) من باب التوكيد أو الاستنجاد كما تقول (راسي راسي واجعني) وقد تجد لها تعليلاً نادراً في الاستعمال شائعاً في هذا الديوان بأن تجعل الاسم الأوّل للفعل الذي قبله والاسم الثاني للفعل الذي بعده، فكأن التقدير هنا (ذنوبي عالاّني ذنوبي تالاّني).

وقد يطّرد هذا عنده في بقية أقسام الكلام مع الأفعال والحروف وأخواتها فيقول مثلاً (٢٥٣):

وأصـــــحَبَتْنَا سَـــــلامَه يَالَنَـا وحليمَـه يَـالَ يَـالَ غلامَـا

فتعود (يال) الأولى، وهي أسلوب تعجُّب، لحليمه وتتجه (يال) الثانية نحو الغلام أي يال خديجة ويال غلام خديجه.. ويوضحها أكثر قوله في الأفعال (٣٠٤):

صـلَواتْ حيَـاتِي المـي هَلِـفْ ألكَـاك ألـوف في كـل ألِـفْ

بهـا فَـازْ نـتج نَـتَجْ الخَلِـفْ في جَاهَـا يـوم الهـول تَلِـفْ

أهـــل المحبـــة والإلِـــف

فواضح أنَّ قوله (بها فاز نتج) أي الشاعر و(نتج الخلف) أي نجح خَلَفُه، نسأل الله ذلك. فتوجه الفعل الأول لما قبله وتوجه الثاني لما بعده. وأشبه به وضعه كلمة (تارة) بمعنى (مرة) لتتبع الأولى للفعل الذي قبلها وتتبع الثانية للفعل الذي بعدها في قوله في وصف الكفار في المعركة (٤٦٢):

الواحِـد تَـرَا يـدُبْ تَـارَة تَـارَة خَـبَنْ

واثْلفَّـتْ يَمَـينْ وشمَـالْ ومنقلَبـاً

فهذا الكافر الذي أثخنته الجراح في الحرب حالة كئيبة تارة يدب دبيباً لا يقوى على الحركة وتارة يَخُبُّ كالمثقل بالأحمال. فوجه (تارة) الأولى لما قبلها ووجه (تارة) الثانية لما بعدها.

ولك أن تتناول ذلك أيضاً في قوله (٣٥٦):

حُلَـلْ الوقـار لِبْـسَنْ، لِبْـسَنْ حُلاهِـنْ

ومن أمثلة المزاوجة والثنائية هذا المثال البديع في قوله (٤٤٥):

الليلـه البريـقْ شَـالْ شَـالْ كَـرَى العيـنين طرَّانـي المدينـة والبهـا سـاكنينْ

يـا أهـل الغـرَامْ حاكمـات علـي اثـنين عـالِم عـالِم الغيـب خـالق الكـونينْ

فقوله (شال شال) واضح أنَّه مع اتفاق الرسم فإنَّ المعنى مختلف لأنّ (شال) الأولى إذا لمع وتحرّك البرق، أمَّا (شال) الثانية فبمعنى أخذ وسلب منام عينيه وهذا توفيق عجيب. وهذا

الفعل من أطوع أفعال الفصحى والعاميّة، حاول أن تعدد معانيه فإنك ستخرج بنحو عشرين معنى سوى المعنيين المتقدمين منها: التَّمر شال – والجُرح شال، وفلان شال السوق، وشالت البهيمة، وشالت الحنّة، قال المُغنِّي القديم:

التمــر شَــال فَــدَع الجريــدْ   واشَــقَاوة الــشَّال الــصَّعِيدْ

وهذا مما يتعب تقصيه ويمتع. ومنه أو قريب منه قوله في اتفاق اللفظين واختلاف المعنى قوله (٤٠١):

جَــاتْ تَــسْتَبِقْ لــي زَوْرَتِــي   بــأكْوابْ وكَــاسْ كَــاسْ خَمْرَتــي

فالأولى (كاس) بمعنى دار بين الشاربين من (الكواسة وهي الدوران والحوامة) و(كاس) الثانية الإناء أخو الكوب.. ولا يكون الكوب إلا فارغاً كما لا يكون الكاس إلاّ ممتلئاً. وهذا من الدقيق فتأمله!

وفي بقية مربعة الشيخ السابقة بقية مزاوجة؛ في قوله (عالِم عالِم) فاللفظان وإن اتفقا في الاشتقاق ولكنه جعل الأول يعمل عمل الفعل وترك الثاني على اسميته كأنما قال: (يعلم عالم الغيب)، وهذه براعة. وقد يفيد التكرار والمزاوجة المبالغة مثلما قال (٤٢١):

زال ملــك كــسرى وجــاتو داهيــه   والحنيفــة أضــحت ناهيــة ناهيــة

أي منتشرة إلى حدّ بعيد.

وقريب منه قوله (٣٢٥):

أدنــو لــي يــا علــي يــا ســعيد   لا تبقــوا مــني بعيــد بعيــد

أي لا تبتعدوا جداً وفيه معنى الحرص على الفعل أي لا تجلسوا متفرقين مثلما تقول (ما تجِيبا قريب قريب) أي قريب جداً.

وقد يكون التكرار للمقاربة والتّتابُع كما تقول (ماشي ماشي لا مِن وقع) يظهر هذا في قوله (٤٩٧):

الليلــه البريــق منــو القليــب رابــا   خلّــى الــروح تــسامي تــسامي ربرابــة

وهذا تماماً كما نقول: (يهوقي يهوقي لرؤية فلان).

وقد يكون المكرر الثاني مستأنفاً أريد به أمر آخر غير الأول كما في قوله (٣١٨):

لــــي دُعـــاي أجِـــبْ، أجـــب العَجَـــلْ

فهو أراد الإجابة والسرعة فيها وإن كان الفعل واحداً ولكنه أراد به أمرين.

وقد يريد بالتكرار وقوع الأشياء واحداً بعد واحد مترتبة متتالية حاشدة (٥٤):

أجـــــود الأرســـــال أزهـــــدُم وأنـــــصف

تمـــشي خلفـــو أمـــلاك الـــسما صَـــفْ صَـــفْ

وقد يريد الشمول مع هذا التتالي، كما قال (٤٢٣):

ضــوًّا نــورو الأكــوان دَجِيهــا　　　كَــالا بــالأفراح جيهــة جيهــة

ألا تراه أراد كالها وملأها بالأفراح كلها لم يترك جهة.

وقريب منه قوله (٥٥):

الـــــــصلاه تَحْـــــــسِنْ　　　عاقبـــة أمـــري ولـــي عـــداي تَرْسِـــن

البليــد في النـــاس تنجـــي والمُلْـــسِنْ　　　راجــي بيهــا حيــاتي الــضحك سِــنْ سِــنْ

وهذه ضحكة عريضة حتى تبدو نواجزه وتظهر أسنانه كلها.

وقد يكون التكرار للحض والحرص بالإلحاح في الدعاء، كما قال (١٩٧):

بالـــــسر أحـــــشا أحـــــشا قلوبنـــــا

أو قوله (١٥٩):

في الـــــبرور كُـــــلاً أدي أدي إشـــــعار

بـــي انفكـــاك القـــبض ورخـــا الأســـعار

وقد تكون الثنائية لإظهار سرعة الفعل كما جاء في وصف الصحابة مستعملاً صوت الفعل (٣٣٠):

صـــحابتو الحـــارتين الكـــف　　　ســيوفم في العـــدا كـــف كـــف

أي تخطف الرؤوس بسرعة فائقة. ونظيره سرعة رمي الشهب لمسترقي السمع(٥٤):

ديـــن عِـــدَا أكبـــادُم حَرقـــا وفَتْفَـــتْ　　　والـــشهب رمـــت المـــسترق فَـــتْ فَـــتْ

ولا تخفى السرعة في التركيبين معاً وهو من مألوف الكلام عندنا : (شالو كَفْ) أو (مرق فَتْ) فكيف إذا كرره!

وقد يكرر للزجر، والزجر مظنة التكرار فأنت إذا زجرت حيواناً – أعزَّك الله - اختطف شيئاً لن تكتفي بلفظة واحدة وكذلك فعل الشاعر حين جعل الأعداء دجاجاً فقال (٤٥٢):

لله دَرْ عُمَـــر كَـــرْ يـــا علـــوج كَـــرْ كَـــرْ.

إمعاناً في الزجر والطرد.

ويشبه هذا أيضاً حال المتعوِّذ والمتبرئ من شيء فإنه يُكْثِر من عبارات التعوُّذ كما قال عن الكفار في النار ومصيرهم أيضاً (٤٨٢):

لَـــمْ يَلقُـــوا الخـــروْج مِنْهـــا ولا فَـــرارُمْ

كُـــرْ كُـــرْ نَبْـــرَا نَبْـــرَا منُّـــو زِنَّـــارُمْ

وقد تظهر الثنائية في الفعل المضعّف، والمعروف أن الرباعي أوسع معنىً من الثلاثي: فقولك (طَقَّ) ليس مثل (طقطق) فالأولى مرة واحدة والثانية أكثر من مرة، لذلك قال الشاعر في سعة كنف الرّسول وجاهِهِ (١٨٦):

والله إذا الـــــصحف تُنْـــــشَر　　　كُمُّـو علـى العـصاة شَـرْ شَـرْ

ولا شك أن (شَرْ شَرْ) أوسع مساحة من (شَرَّ)؛ لأن الأول في أكبر مساحة وفي أكثر من مكان والثاني في مكان واحد وهذا بيِّنٌ وجلي.

وقد جمعت أكثر من ثلاثين لفظاً من بين اسم وفعل وحرف واسم فعل وصوت كلها على هذه الشاكلة يمكن مراجعتها في الصفحات (٣١، ٤٩، ٧٩، ٨١، ٨٩، ١٠٣، ١١٦، ١٥٨، ١٦٩، ١٧١، ١٧٤، ١٨٩، ٢٤٠، ٢٥٨، ٢٩٤، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٨٢، ٤٣٠، ٤٣٤، ٤٤١، ٤٥٤، ٤٥٨، ٤٨٣، ٥٣٠، ٥٣١). هـــذا وقد يخرج الشيخ من الثنائية إلى الثلاثية وأكثر ذلك في الحروف لأنها أخفّ محملاً، لذلك نرى أكثر تثنيته في الحروف دون سائر أقسام الكلام وفي الأدوات كأسماء الاستفهام مثل (كم) و (مَنْ) وما في حكمها، وبسبب هذه الخفة يكرر مثل هذه الألفاظ مرتين وثلاثاً كما في قوله (١٠٧):

وضـــيعاً حاشـــى مـــا اتكبّـــر　　　ولا اتعظّـــــم ولا اجَّبَـــــرْ

يكـــنس الـــدار مـــا اتغـــبر　　　صَـــبَرْ صَـــبْرَ الرِضـــا وصَـــبَّرْ

شـفى كـم كـم وكـم جـبر　　　أغـاث كـم وكـم وكـم خبَّـر

فهذا نظم لا يخل به التكرار إذا لم يزده قوة وحُسناً. وقد أكثر في هذه القصيدة من تثنية كناية العدد هذه أعني (كم) فثناها وثلثها كما ترى، بل تعدى ذلك إلى تثليث الأفعال وليس كثيراً عنده، ومنه قوله في القصيدة نفسها:

يـــوم مـــا أتـــى يـــا عَـــمْ　　　بـــي الأمْـــن حَـــلَّ نَعَـــمْ

مـــلأ الكـــون طيـــب ونعـــم　　　وازداد ســـــرور وطعـــــم

فـــــاض خـــــيرُو عَـــمْ عَـــمْ عَـــمْ

فكرر الفعل (عَمَّ)، مخففاً ثلاث مرات، وهذا حديث من امتلأ حتى فاض من أثر الفيض النبوي. وهو بلا شك حق وتوكيد. ومن ثلاثياته التي تدل على الفيض والامتلاء أيضاً قوله (٢٤٦):

بـــــي أكـــــواب لاكـــــوبتينْ	نـــــــــشرب مُتْبَنِّـــــــــتِينْ
النهْلـــــــــة بنهلـــــــــتينْ	والعَلَّـــــــــة بعَلـــــــــتينْ
لامـــــتينْ لامـــــتينْ لامـــــتينْ	لاحَـــــــــدْ اللامـــــــــتينْ

وهذا حديث التشوق إلى الزفَّة الأولى للحبيب وورود الحوض والكوثر عليه، وحُقَّ له أن يتشوَّق ويشوِّق.

أمَّا الثنائية في الحروف فحدث ولا حرج، وكُله مما حاول به الشيخ وجهاً ولم يرد عنده عبثاً، فهو إمَّا للتأكيد وإما وتداً لإقامة الوزن وإمَّا للمجانسة وغيرها من الفوائد التي أضربنا عنها حذر الإطالة. وكلّه دليل قوة وتمكن وبراعة يريك أن هذا الرجل ما ترك وسيلةً لإيصال المعنى بإبداع وتفنن وبراعة وفائدة إلا طرقها وخرج من كل ذلك موفقاً كأحسن ما يكون التوفيق رحمه الله.

ب/ التّثنية:

الأسماء لاتكون إلا مفردة أو مثناة أو مجموعة كما هو معلوم. ومن الطبيعي أن ترد هذه الأنواع في كلِّ كلام مركّب، غير أن الملاحظ في ديوان الشيخ أنه احتفى بالمثنى على طريقة خاصة. فقد ركز على كلمات هي بطبيعتها مثناة كالضرتين والمقلتين والعينين والبدرين والدارين وما إليها وقد تناولت نموذجاً منها في مبحث اللُّغة وأذكِّر هنا بقوله (١٢٥):

صَـــــــلواتْ قَـــــــافِيَّتي	بـــــــــرزت كالـــــــــدُّرْتِي
مُلْتَزْمَـــــــــه بحَمْلَـــــــتي	في كِلْتَـــــا الــــــضَرَّتِي

أراد (قافيتين ودرتين وحملتين وضرتين) فثنّى وقطع بعض الحروف.

كما كثرت في الدّيوان المعجزات التي أتت على صيغة المثنى كالمقلتين الصخرتين والأيكتين أو كما قال (١٨٨):

الـــــــصَخْرَتينِ والأيْكَـــــــتينِ	والْمُقْلَـــــــتينِ والْعَجْفَـــــــتينِ
مَـــــرْأى اللـــــتينِ والـــــسيدتينِ	عجبـــاً كـــال عـــيني والـــسَّفْرتينِ

يعـني (الـصخرتين) اللـتين تمخـضت إحـداهما عـن طـائر والـتي لانـت تحـت قدمـه، و(الـشجرتين) اللـتين دعاهمـا فَلَبّتَـا و(المقلـتين) مُقلـة قتـادة بـن النعمـان ومقلـة علـي الكـرار، و(العجفتين) شاة أم معبد وشارف حليمة السّعدية، ومرأى عينيه اللتين رأتا الباري عز وجل وذلك ما لم يتح لأحد في الدنيا غير حبيبنا (ﷺ). (والسيدتين) ما أكثرهما في الخير والشر فقد تكونان خديجة وعائشة رضي الله عنهما أو جرادة وزينب بنت الحارث اليهودية وهذا تمثيل

فقط. و(السفرتين) إلى الشام أو إلى المدينة أو إلى السموات العُلا وكلها حُبْلى بالمعاجز والإكرامات. وكلها عجب يكيل العين ويملؤها حتى تفيض (لامِنْ تَفَضّل).

وفسّر بعضها رضوان الله عليه في قوله (٢٩٨):

نَصفْ الرِّضَاعْ سَرْعَ الأتَانْ ... نَارْ اليَهُودْ والسَّرْحَتَانْ

شُوفْ مَيْسَرَة ضَمْرَة اللتَانْ ... مَا فِي بَدُرْ والغَزْوَتَانْ

والإسْرَا شُوفْ المُقْلَتَانْ

وزاد على ذلك في قوله (٤٧١):

وين مِثْل الرَّسُول ابن الذَّبيْحَيْنِ ... وين غيرُو الّذي جا البَدْرِ نصفين

وين الرَّدَّ غِيرُو الشمْس والعيْن ... واليدِ والرِّجلْ ثُمَّ الغلاميْنِ

والمطبوخَة نَامى الصَّاع زَوَى الْبَينِ ... شاة أمْ مَعْبَد دَرَّرْ وشاتيْنِ

والْمَا النَّميرْ والنَّخلِ والدَّين ... والفَحَلْ الشَّكَى وأمْ الخشوفيْنِ

والبَاكِي البَكَى عجباً لغاريْنِ ... والشُّم البُدَنْ والوَالْدَه طيريْنِ

والعِيرْ والبَعِيرْ قُول والبعيرَيْنِ ... والعَجَبْ اللَهُو اسْماً واسميْنِ

والأسْرَا العروُجْ فخراً لهاتيْنِ ... ذَاك خَرْق الحُجُبْ شُوف الله بالعيْنِ

يُكْفَي والشِّفَا والْفِي الصّحيحيْنِ ... والقُرآن وحَاتْ رُوحِي وعَيْنيني

اثنا عشر لفظاً مثنى منها عشرة ألفاظ لمعجزات هي: (الذبيحين) يريد جَدّيه إسماعيل وعبدالله، وانشقاق البدر معروف و(الغلامين) هما غلاما جابر و (الشاتين) سوى شاة أم معبد هما شاة عبدالله بن مسعود، بل شياه معاوية بن ثور. و(الخشوفين) ولدا الظبية وقد احتاج فثنى المجموع كما أوضحته في مبحث الضرورات. و (الغارين) غار حراء وغار ثور، في الأول شق الصدر وابتداء الوحي وفي الثاني عجائب الهجرة. و(الطيرين) في قصة الصخرة، و(البعيرين) بعير الأنصاري الشاكي الذي كان يجيعه ويدئبه، والبعير المصعب الهائج في بستان الأنصار. والذي (له اسم واسمين) هو البدر لأنه البدر والقمر. وقوله (لهاتين) أي المعجزتين معجزة الإسراء لأنه قطع ما يقطعه الناس في شهرين في مُدَيْدَة وجيزة وعاد والفراش ما زال سُخناً كما عبروا عنه وعبّر عنه هو، ومعجزة فلق السما المكفوف ورؤية الرب ومخاطبته في المعراج. أما بقية الاثني عشر لفظاً المثناة فهي قوله (الصحيحين) يريد صحيحي البخاري ومسلم وقد أقسم على كل ذلك بعينيه ليكمل العدد الذي ذكرناه.

وهـذا ملحـوظ في الـديوان كلـه، ولكنـك قـد تلاحظـه كـثيراً مستفيـضاً في بعـض قـصائده ارجـع إلى قـصيدته (الجيـدين٤٨٧) فقـد أحـصيت فيهـا ثمانيـة وثلاثـين لفظـة مثنـاة كالوقتين والآخنين والنوبتين والخلعتين والمرتبتين وهلمَّ جرا.

وربما حيرك أحياناً فاحتجت الإسعاف في تأويل بعض مثنياته كقوله (٤٨٧):

مِـــنْ آيُـــو النّقُـــول العِـــذقِ والبَـــدْرينْ

وابْلُـــغ مَـــأربي ونهايـــة الكـــرْمينْ

وتحيـــد المكـــاره عـــني والهمـــينْ

فالكرم واحد والهمّ واحد والبدر واحد، ولكنّا لا نخطئ التأويل إذا قلنا أراد همَّ الدنيا والآخرة والكرم الإلهي والكرم النّبوي، والبدر الذي ناغاه في مهده والبدر الذي انشق وهكذا؛ فاللهم أعنّا على عقل هذا الرجل.

وربمـا غُمُـضَتْ التثنيـة عنـده حتـى تحتـاج إلى معاودتهـا كـرّات ومـرّات كمـا في قوله (٤٧٢):

واتْوَجَّـــه رَسُـــولاً بـــي القلـــوبْ أَمِـــنَنْ

وابْـصر قـبرُو ضـيْ واقْـرِي الـسّلام عَلَنَـاً

شـافعْ الْمُـذْنبينْ مِنُّـو اجْتَنِـي مِنَنَـاً

وأنيـلْ مِـنْ ضَـجيعَا مَواهبَـاً وسَـنىً

واشْـرَبْ مِـنْ بقيـع عثمـان خَلِـيصْ لَبَنَـاً

تسألني أين المثنى هنا؟ هو قوله (من ضجيعا) أراد من (ضجيعيه) والضجيعان هما أبوبكر وعمر رضوان الله عليهما لأنهما يرقُدان معه (ﷺ) بجوار القبر الّذي أراد أن يراه جهاراً نهاراً ويسلم عليه وعليهما علناً.. ثم يمضي إلى ثالثهما وهو عثمان (رضي الله عنه) فتأمّل!

أما قصيدته (قوم يا فتين ٢٤٦) فمع أنها أقصر كثيراً من (الجيدين) ولكنها بنيت على التثنية أصلاً فورد فيها نحو ثمانية وأربعين لفظاً مثنّى. نحو قوله (٢٤٦):

مَـــا بـــين الـــساعتينْ	نُكـــرَم غـــير مَـــرتينْ
بطعـــام الـــصحوتينْ	وشِـــراب القهـــوتينْ
وبلَغْنَـــا الغـــايتينْ	وتمـــام الـــراحتينْ
ومَلَكْنَـــا العِـــزّتينْ	وَرَقونَـــا الْـــرُّتبتينْ

وواضح ما أكسبه رنين التثنية الذي زاد موسيقى الأبيات، على خفتها، حلاوة وطلاوة.

توظيف التراث

أعذب الشعر وأقربه إلى النفس ما كانت صوره وألفاظه وأساليبه مأخوذة من البيئة المحيطة بالشاعر، فإنَّ ذلك يوفر قدراً كبيراً من الحميمية يُعين على الفهم ويُولِّد روحاً عالية من التجاوب مع معاني الشاعر ومقاصده. والشيخ حياتي من أذكى شعراء المدح النّبويّ الذين فطنوا إلى هذه المزية وافتَنُّوا فيها وانقادت إليهم أزِمَّة الإبداع فيها، فاستخدم الحِكم والأمثال تضميناً واقتباساً وتلميحاً، وما كاد يترك لفظة من الألفاظ الشعبيّة المتداولة في التعبير عن نوازع النّفوس وخلجات الضمائر، في جميع أحوالها من خير وشر وفرح وكره وحزن وسرور وهَم ويأس وفخر وتحدٍّ وندم وأمل وما إليه، وستجد قدراً مدهشاً من ذلك في الديوان اقتطفنا منه شيئاً في هذا المبحث.

الأمثال والحكم:

في موعظته المؤثرة (خَلِّي الريَاض والمرْتَعْ) يقول الشيخ عليه رحمة الله مخاطباً نفسه (٥٧٠):

مَالِكْ وُمَالْ دَارْ الْخَرَابْ	أطْرِي الرُّقادْ تحت التُّرَابْ
لا تْدِفْقِي مَاكْ عَلَى السَّرابْ	النَّاي طَوِيلْ بِيش تَقْطَعِي

يُحذرها من الدُّنيا ويذكرها بالقبر وردم التراب. وينهاها عن الغفلة والاغترار وأنَّ المشوار طويل ولابد من زاد وماء فبماذا تقطعه وهي غير مستعدة فقال (لا تدْفقِي مَاكْ على السّراب) من قولهم (فِلان دَفَق مُويتُو على الرّهاب)، رأى ما يراه النَّاس نهاراً من انكسار أشعة الشمس على الأرض فظنّه ماء فأراق ما معه من ماء فلما وصل إليه لم يجد شيئاً. وهو مأخوذ من قول الله تعالى (كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً) (النور: ٣٩). والمسموع (الرّهاب) وقال الشيخ (السّراب) وهو الأفصح والأشهر، ولو قال شاعرنا (الرّهاب) لما أباه العروض ولا المعنى ولكنه التزم الرّاء في (الخراب والتراب) فكانت (السّراب) أوفق من (الرّهاب) وإنْ جرى بها المثل عندنا.

ومن أقوالنا في رفع الكُلفة وكسر الحواجز (خلِّي البساط أحْمَدِي) فأخذها الشيخ وسأل الله قائلاً (٣٢٢):

أعَمَالِي زِينَا التُّحْمَدِ	نَوِّر لِقَلْبِي الْمُخْمَدِ
يَا رَبِّ نُوراً سَرْمَدِي	كَيْ أحْيَا وأحْيِي الجَلْمَدِ

وأكُ ذُو بِسَاطٍ أحْمَدِي

يُريد أنْ يحيا بالإرشاد والهداية ويُحيي القلوب القاسية كالجلمود وهو الحجر الصلب وأنْ تكون (الحالة واحدة) بينه وبين أحبابه ليتمكن من هدايتهم ويألفوه.

والناس عندنا إذا كانوا ينتظرون شيئاً مهماً به يتمّ أمرهم، ثم جاءهم هذا الشيء فرحوا وقالوا (تمَّت السياسة). وشيخنا يريد الاجتماع بالرسول (ﷺ) فدعا وقد هيّجه البرق وحرّك أشجانه، فقال (٤٩٥):

الْلِيلَه البِريقْ مَا خَلَّى فِي عيَاسه	قلبِي، ومُقْلَتِي مِنْ الكَرَى إِياسَه
يا مَنْ جَامِعاً لِي الخِضْرْ والْيّاسَا	بِي جَمْعَة نَبِيكْ تِمْ لَيْ أنا سَيَاسَة

ما ترك البرق في قلبي سبباً ولا قوة، ويئستْ عيني من النّوم، فيا من جمعت بين الخضر وألياس عليهما السلام أجمع بيني وبين حبيبي محمد (ﷺ) فتكون بذلك قد (تمّت السياسة) وهي كناية عن نيله منتهى المقصود وبلوغه المراد.

وسمع الشيخ حياتي النّاس يقولون (فِلانْ بِقَى شَامَة في البلد) أي صار من المشاهير الأعيان وأصلها البقعة السوداء تكون في الجسم الأبيض (كالشّامة في الثور الأبيض) فإنَّها واضحة ظاهرة فقال رحمه الله في بعض صلواته (٤٩٣):

الصَّلاه مِن حَيَاتِي النَّايله عُشَّاما	تنْجِي المسلمين لي قُلوبَا وشَّامَه
بيها انْ شا الله يَبْقَى فِي البَلدْ شَامَه	وتَكُفْ عَاقَه العايقينْ وخَشَّامَه

دعوة نفيسة، ببركة الصلاة على الرسول تنيل الناس عشمهم وتنجي المسلمين وتفرح قلوبهم ويصبح بها هو (شامة) علماً في رأسه نار في بلده، وتكفيه شرور المعوقين والخشَّامة وهم الذين ليس لهم شغل إلا الوقوع في أعراض النّاس بألسنتهم (خشومهم).

ثم يرهف الشيخ سمعه، ويسمع الناس يقولون في الجفوة والقطيعة (حرب الحراز لي المطر) وذلك أنَّ الغابة تكون كلها مخضرة يانعة زاهية في الخريف إلا شجرة الحراز فإنها أعواد مغبرة بلا أوراق ولا خضرة، ومن حكم الله البالغة أنَّ هذه الشجرة تدّخر الماء والغذاء إلى ما بعد الخريف حتى إذا جاء الصيف اخضرّت وازدهرت وأورقت. ولكن النّاس حسب تقديرهم ظنُّوا أنّها تحارب الخريف أي تقاطعه فضربوا بها المثل، فالتقطه الشيخ حياتي، وقال (٢٠٥):

مِنْ سُوح مَلْجَأ الجانِي	الْلاح هَيَّجْ أشْجَانِي
لَيلاً نارُو حَالجَانِي	ما جَاكْ يا الحرازْ جانِي

كيف العافْيَه تَرْجَانِي

وهذا أحد آثار البرق أيضاً فإنَّه حين يلوح من ديار الشّفاع والملجأ والملاذ (ﷺ) يُثير كَوَامِن النّفوس فتحترق بالشوق فيصبح حال المحب كحال الحراز، النّاس كلّهم في سرور إلا هو، فكيف يطيب أو ينتظر العافية. وأنْعِم بحاله فإنَّه مشغول بالحبيب بين قوم لاهين منشغلين بأشياء أخرى.

وإذا ضرب أهلنا المثل في التواضع قالوا (فِلان نَفْسُو تِحِتْ مَدَاسُو) أي متواضع ليس بمتكبر ولا شامخ الأنف. فاستفاد الشيخ من ذلك غاية الاستفادة حين دعا قائلاً (٨٩):

وأبقَى يا مُتْعالِ نفْسِي تَحْتَ نِعَالي

غاية الخضوع والانكسار ولكنه انكسار نبيل؛ انكسار تَعبُّد، ووفق الشيخ أيّما توفيق حين قابل ذلك باسم الله (المتعالي) في الشطر الأول ليذكر نفسه ويذكر المريد أن الكبرياء والعظمة والتعالي هي أردية الله تعالى من نازعه فيها قصمه.

ومن أمثالنا المشهورة (العِنْدُو بَلِيْلَة بِعَاشِي بِيهَا) وهذا من باب الجود بالموجود وهي من عادات أهلنا القديمة في التكافل الاجتماعي، فإنَّهم كانوا لا يأكلون داخل بيوتهم وإنَّما يخرج كل منهم إلى مكان اجتماع القوم بما عنده من طعام حتى لو كان بليلة ... اللهم أرحم ذلك الزمان وأهله، وهل سيبقى على وجه الأرض جائع إنْ عُدنا إلى هذه العادة أو قل إنْ أحيينا هذه السُّنة؟ قال الشيخ (١٢٩):

بَعَاشِي العَاشُو

حَسبْ حِيلتي الضَّاق وشَمَّ دُعَاشُو

وهذا من تواضع الشيخ في وصف حاله في نظم المديح، يريد أنَّه يساهم مع مادحي الرسول (ﷺ) بما عنده ولو كان قليلاً. ولكن هل هذا الديوان قليل...؟ حاشى وألف حاشى وقد وجدت نفسي حين مررت بهذا المقطع علقت قائلاً: أريتا بليلتي!! وهي عادة عندي ربما وقفت عندها وفصّلتها لاحقاً إن شاء الله.

ويبدع الشيخ حياتي كعادته في وصف حال المشركين وما أصابهم من فزع وهم وغم من ظهور هذا النبي الكريم بهذا الدِّين الذي أزال وأنهى ملكهم وسفّه أحلامهم حتى طار النوم من عيونهم، والنوم والهم ضدان لا يجتمعان، قال رحمه الله (٣١٨):

الوضَعُو ملأ الكُون سرُورْ أخَذَتْ بِه الأمْلاكْ مِرُورْ

رَفَعْ الخَسِفْ رَفَع الشُّرُورْ غَمَّ وكَبَتْ أهل الغِرُورْ

ما نَامُوا ابْقَالَمْ ضَرُورْ

وهـذا الـشطـر الأخـير مـن مـشهور حـديث أهلنـا قـديماً، فـإنّهم إذا كـان أحـدهـم مـريـضاً فسألوه (أهَا إنْ شَالله نمت؟) فيقول (يَبْقَى لِي ضرور) أو (إنْ شَالله يـضرضرو لـي) يعـني لم يجد حتى المقدار القليل الذي هو كالدواء يذر ذرًّا أو ينثر نثراً على العيون ناهيك بالقدر الكبير. وعليه قوله: يا من خلقت النوم ضَرُور.

وهـذا مـن فـصيح الكلام قلبنـا فيـه الـذال ضـاداً كعـادة أهـل الـسّودان، وهـو دواء معـروف، أصلـه (الـذَّرور) وهـو مـا يُـذر في العـين أو علـى القـرح مـن دواءٍ يـابسٍ (لـسان العـرب/ ذر). ومنـه (الضريرة) وهي عادة وسُنّة وليس هـذا موضـع تفـصيلها. (انظـر عـادات سـودانيَّة أصـولها عربيـة، ص٢٩١ للمؤلف).

وممـا يجـري مجـرى المثـل قـولهم (الـشي ده قَـدّو يَبـوبي) إذا كـان مخروقـاً خرقـاً واسـعاً ظاهراً استعمله الشيخ في وصف نفسه حين قال (١١٨):

نفـــــسِي دَرْكَانـــــا

بـــالمكر والغـّـــشْ عَـــامره دُكَّانـــا قـــدَّهَا يَبُـــوبي خَـــالِي سُـــكَّانه

نَاسِـــيهْ مَـــا يْكُـــون تّـــانِي ومَـــا كَانَـــا

نفسه قدَّها واسع وخالي من (الوشـرة) أو السكانة وهـو مـا يُحشى بـه الخـرق في المركـب ونحوها. وحتى قولهم (فلان دركان) إذا كان في خطر و(دكـانو عـامر) إذا كـان مليئـاً حقـاً أو باطلاً. ومدخل هذه القصيدة كله من الكلام الشّعبي البليغ، ومنه قوله (١١٨):

حِمَلِـــي مُتْـــولِي مَـــنْ فـــدى الـــشَّاكْية كيـــف أخَـــافْ لِـــيش خـــشم الجـــراب واكْيَـــه

مادام الذي فدى الغزالة هو الذي يتولّى حمله وأثقاله يوم القيامة فلمـاذا يخـاف (خـات في بطنـو بطيخـة صيفي) لأنَّـه أوكـى خـشم جرابـه أي ربطـه بـالوكـاء وأحكـم ربطـه بالـشَّفاع (ﷺ) فممَّ يخاف...؟ أنعم وأكرم.

وكان أهلنا قديماً إذا سئل أحدهم عن شخص مات، قال متحسراً: (شال التُّرب) وشـال لها أكثر مـن سبعة عشر معنى في عاميتنـا منهـا شـال هـذه بمعنـى ذهـب. أنـا شـايل الـسوق، أي ذاهـب إليـه (انظـر عفـو الخـاطر للمؤلـف، ص٣٣). وفي قـصيدة (ألطـف بنـا مـن لم تـزول) وهـي توسلية بديعة في وباء الحمى التي أصابت أهل السودان وتعرف بأم مَلْدَم، يقول الشيخ (٤٣):

في الـــرَّاس ضَـــرَبْ طَـــبُلاً انْـــضرَب عُقْبَـــانْ تَقُـــول فِـــي القَلْـــبِ رَبْ

حَـــالاً كَـــلامْ نَـــاسْ انْخَـــرَبْ اليُومُـــو تَـــمْ نَفَـــسُو انْكَـــرَبْ

واتْعَـــــدَّ شَـــــالْ نَـــــاسْ التُّـــــرَبْ

قولهم (نقر طبلو) إذا أزعج صاحبه، و(نفسو انكرب) إذا بلغ غاية الضيق من مرض أو خوف و(فلان كلامو انخرب) إذا هضرب (هذرب في الفصيح). وفي الشطر الأخير كناية واضحة في أنه ذهب إلى أهل المقابر أي مات وأصبح منهم.

ويقولون في السرعة (فلان طار عصار) والعُصار معروف وهو التيار الهوائي المتصاعد والإعصار أشد منه ومن الريح، تقول العرب (إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً). واستثمر الشيخ عليه الرحمة سرعة العصار في وصف الكرار رضي الله عنه الذي حين رآه العلوج وهم الكفار من العجم هربوا من شدة الفزع، قال (٤٥٧):

حَيْدَرة الذي مِنْ أمْرُو صَارْ ما صَارْ   واللهِ العلوجْ مِنْ شوفْتُو طارُو عُصَارْ

هربوا في سرعة العصار حين رأوه لسمعته الذائعة في الشجاعة والبأس.

ونقول للشيء الهائل الضخم المذهل (هان قدر) ولا أدري ما أصلها ولكن الشيخ استخدمها في بيان عظمة قدر الرسول، قائلاً (٣٧٩):

سَامِي القدُرْ

ما الشمس في نُورُو ماذا البَدُرْ   ما الجوهر الفرد الهو هان قدُرْ

ما البرق في بَسْمُو ما الدُّر دُرْ

وما أذكر (الهان قدر) إلا في دعوات الطفولة حين يترامى إلى أسماعنا ذكر ليلة القدر! فقد كانت لنا في ذلك دعوة طريفة لا تليق بالمقام.

ومن الحكم الإيمانية قول أهلنا (المِنْ الله واصْلَة) أدخلها الشيخ في وصف النفس وتوبيخها (٣٥٩):

لي مغْنَم الشَّرِّ في الوقتِ حَاصْلَه   ولمغْنَم الخَيرِ إنْ سُقنَاها ناصْلَه

تَرْضَى الهَزَلْ والجَدْ لِي حِظُوظه فَاصْلَه   مُهْتَمَّه بالرِّزْقِ، المِنْ الله واصْلَه

أمرها عجيب، تسارع إلى الشّر وتتنصّل عن اكتساب الخير، ترضى بالهزل وتتجنب الجد، تحمل هم الرزق مع أنَّ المقسُوم سيصل إلى صاحبه. وهي قريبة من (السايقه واصله).

والناس منذ القدم يبغضون نقل الوشايات والسعي بين الناس إذ لا خير في ذلك لذا عاتب الشيخ حياتي من يفعل ذلك بقوله (٢٧٥):

مِنْ ذلك اعْتَبرُوا اعتبَارْ   هَلْ يَسْتَوِي الفَاجِرْ وبارْ

أو يسْتَوِي الرَّيْحَانْ وبارْ   شِنْ في لكُمْ جِيب الخبّار

لا يستوي البار والفاجر ولا الكاسب والخاسر، فماذا تستفيدون من الغيبة والنميمة ونقل الوشايات (شن في لكم) أي شيء فيه لكم، أي خير يجلبه لكم؟ وكانوا يقولون (الخبارات) و(خبارات أم صبرو) مشهورة عندهم وربما قالوا الآن في هذا الزمان (الشمارات) وكلُّه لا خير فيه.

وكانت عامة مباني أهل السودان مما توفره طبيعة البلاد من الأشجار ونحوها وكان أهمَّ ما في سقف المنزل هو (المِرق) وهو عمود الخشب الكبير الذي يركز عليه بقية خشب السقف (الرصاص) في الاتجاه المعاكس، فإذا انكسر (المِرق) تناثر الرصاص وانفرط نظامه، لذلك كانوا إذا مات السيّد الكريم الذي يعتمد عليه الناس قالوا (اِنْكسَر المِرق واِتْشتّتْ الرَّصَاص) فأشار الشيخ إلى ذلك في قوله:

فيا خِلاي بي انْسَرْقُو ... واكْسِروا ذَا الأمَل مِرْقُو

يريد كسر (مِرق) القعاد والبَطَا من أرض الحجاز.

ومن مشهور أقوالنا (الشِّينَة منْكُورَة) ولا يرضى إنسان بإلصاق الأمر السيئ به، قال الشيخ في وصف الكفار (٤٤٠):

أصْحَابُو الكرامْ واللهِ مَشْكُوره ... فُوق العَادِيَاتْ لَيْلاً وفي بكُوره

في البأس العِدَا لِعْبُوبُمْ الكُوره ... وَلّوا مُدْبِرينْ والشِّينَه منْكُوره

فقوله (لعبوبم الكوره) نهاية الاستهانة، و(الشينة منكوره) لأنَّهم كانوا مكابرين مُتَحدِّين ثم بان لهم الأمر الآن.

ومن دعوات أمهاتنا (يَا الله تكْفِينَا شَر المِحَن والسّاعَاتْ والبلاوِي البِجَن واقْعَات) نظر إليها الشيخ رحمه الله وجعلها جزءاً من دعائه في إحدى خواتيم مدائحه، قال (١٠٦):

أهَدَى الصَّلاه الغَرْبَلا ... يا الصَّافِي مِنُّو اقْبَلا

حياتي ألبيك كَنْبَلا ... اكْفِي السَّاعات والبَلا

ولعلَّها ساعات الشدّة والضيق والكرب. ولا تفوتنَّك (الكَنْبَلة) وهي العرضة المعروفة فرحاً بالرسول (ﷺ).

ومن الدعوات الصالحات أيضاً (فلان إن شاء الله خيرو مادوبو) يسألون الله ألا يكون خيرهم على قدرهم بل يفيض ليشمل غيرهم، لأنَّ من كان خيره على قدره مذموم عندهم حتى قالوا (الداب نفسو قصَّر من نفسو)... فنظر الشيخ إلى هذه الدّعوة وقال (٢٣٢):

أبْــــرِي يَــــا مُهــــيمن قُوبنـــــا   يَـــــا حَـــــي أحْينـــــا اليحيوبنـــــا
مِـــنْ جُـــودَك نَنِيـــل مَطْلُوبنـــــا   مَـــا يكُـــون خيرْنَـــا يـــا بـــر دوبنـــا

أزل عنا حالة السوء وكنى عنها بالقوب وهو مرض كالجرب يتساقط فيه شعر الرأس إذا أصابه، ويسأل الله حياة يُحيي بها الآخرين وأن ينال مطلوبه ولا يكون خيره كما قدمنا.

ومن دعوات التعزية عند الموت قولهم (الله يَاجرْكُمْ في فلان) وقد عَزَّى الشيخ في نفسه حين قال (٣٤٥):

الليلَـــــه لاحْ برْقـــــاًجُنْح الـــــدَّياجِرْ   فَتَّـــتْ جُـــوى كَبْـــدِي ونـــوم عـــيني حَـــاجِرْ
هـــل لـــيَّ مِـــنْ راقِـــي يقُـــومْ بـــي مُهَـــاجِرْ   إنْ لمْ أرَى المحْبُّـــــوب فِـــــيْ الله يَـــــاجِرْ

برق الليل البهيم فتّت كبدي ومنعني النوم وحجره عليَّ، فهل لي من معالج يعالجني بالسفر إلى المحبوب ولا غيره، فإنْ لم يحصل هذا فسأموت قطعاً (والله ياجِرْكم فِيَّ) (والبركة فيكم في حياتي) والله نسأل أنْ يحسن عزاءنا ويعظم أجرنا في صاحب هذه الروائع.

والناس عندنا إذا فرحوا لأمر عام هام قالوا (ضربوا الرور أو ضربوا الزاقر أو ضربوا الكوراك) إذا صاحوا فرحاً وهو (حلب الشّدوق) أيضاً وذلك أن يضغط بأصبعيه الوسطى والإبهام على خديه ثم يصوّت، وهو أشبه بضرب البوري حديثاً، وهو غاية التعبير عن الفرح، استعمله الشيخ حياتي مرتين، في قوله (٣٠٥):

سَـــرَى خـــيرو فَـــاضْ عـــمَّ البِـــرُور   يَـــا أهَـــلْ المـــسَاوِي أضُـــرْبُوا رُورْ

خصَّ أهل المساوئ فرحاً بالشفاع المنقذ (ﷺ) مثلما قال في الأخرى (٢٠٦):

الأرضْ بِمـــــــــــــــــــــــــرورُو   شُـــرِّفَتْ والكـــون كـــالْ زوايـــا ســـرورُو
زال نحايـــــــــــــــسُو شـــــــــــــرورُو   مِلَّـــة الإســـلام فاقْـــدَه ضـــرْب الـــرُّورو

ملأ زوايا الكون بالخير وأزال نحايسه ولم يبق للمسلمين إلا أنْ يصيحوا فرحاً.

والقصائد الجيمية في ديوان المديح النبوي دائماً مجودة، وقد نعود لذلك في فصل بعينه ولكن للشيخ حياتي جيمية شكر فيها الله على زوال الشدة بعد حمّى أم ملدم وردت فيها كثير من العبارات الشعبية... قال فيها (٤٠٦):

- والعيشْ رَقَدْ في الكون رَجْ
- الراَّحة عمَّتْ قُلنـــا قَـــجْ

صـــاحبْ الـــضّيُوف مـــا شَـــافَا لَـــجْ   والبُخْـــــلِ طَقَّـــــابو الـــــدَّلَجْ

أمَّا الشطرة الأولى من قولهم (رقد رج): إذا كثر، مثل قولهم (رقد أم بريش) وقد استخدمها شاعرنا في قوله (٢٧٨):

سوْ رَبٍّ فِي جِنَاحَيَّ رِيشْ والدُّنْيَا تَرْقُدْ لي أمْ بريشْ

كناية عن كثرتها وإقبالها عليه. ورقد بمعنى كثر وتوافر كثيرة عندنا مطردة في الديوان، منها قوله (٢٠٥):

راقِدْ عنْدِي خير معروفا

وقوله (١٩٥):

المعدوم رقد كان عارز

أي توافر بعد أن كان عزيزاً معدوماً

وقوله (٨٤):

خير جابرٍ رقدا فد حاجه ما فقدا

وأمَّا قوله (قلنا قج) فيعني انِهمَاكَهُم في الخيرات والنعيم، وأصل القج الازدحام. وأمَّا قوله (طقابو الدّلج) فطقّ الدّلجة أو دقّها معروف، والدلجة الأرض الصلبة مقلوب (جَلْدَة) فإذا دقها أو طقّها أي وقع عليها فهذا وقوع مؤلم بلا شك، وهو كناية عن النهاية، يقولون (فلان دقَّ الدلجة) إذا سقط في امتحان أو انتخاب ونحوه. وهو حال البخل في بيت شاعرنا هنا... فصاحب الضيوف قبل الانفراج كان إذا رآها لجّ واضطرب وحاول الرَّوغان لضعف الحيلة والعدم، أمَّا الآن فلا لَجَّة ولا اضطراب وإنَّما الذي لجَّ وطق الدلجة هو البخل وسوء الحال.

وللطّق معانٍ أخرى وردت في استعمال الشاعر، منها (طقَّ القيد) أي قفله في يدي ورجلي الأسير، جاءت في قوله (٩٤):

البريق أبْكَاكِ رُوحِي حِنِّي وكَاكِي
مِنْ هَذِي الماسْكَاكِ طاقه فِيكِ مَكَاكِي
قولي ربِّي فَكَاكِي

حديثه عن البروق عجيب مدهش كما سنراه في بابه، ولكنّه هنا يخاطب روحه التي أبكاها لمع البرق فقال لها حِني حنين الإبل وكَاكِي مثل الطيور من فرط هذه الحالة التي أمسكت بك وغلَّقَتْ فيك القيد (طاقة فيك مكَاكِي) والمكية هي القيد وطقها هو قفلها، فاسألي الله تعالى الفَكَاك والخلاص.

وتستطيع استخلاص المثل بسهولة من شعر الشيخ كما في قوله (٣٥٩):

كفـى يـا ذوي العقـلِ، تكفـي الإشـارة ولْنَنْـشُر الأمْـدَاحْ مِـنْ ذا انْتـشارَا

يريد (العاقل تكفيه الإشارة) أو حتى قول العرب: اللبيب يفهم بالإشارة.

ولا يخلو الديوان من الحكم والأمثال العربية الفصيحة التي تأتي عرضاً أو تصريحاً كقوله (١٣١):

بمـا فِي إنـائي نَـضَحْ مـن حـولي وقـار بونـائي

كأنه يشير إلى قولهم (الإناء بما فيه يَنْضَحُ).

ومن أقوالهم: (من كَدَّ وَجَدَ، ومن زَرَعَ حَصدَ، ومن استرَاح رَاحَ) كل ذلك ضمّنه الشيخ فِي بعض قصائده، خدمة لمراميه ومعانيه ومقاصده، مثل قوله (٢٨٠):

قـالوا الفِحُـولْ الكَـدْ وَجَـدْ والْلِّـسْتَرَاح قَـطْ مـا اتَّجَـدْ

وقوله (٢٧٥):

الكَـدْ وجَـدْ والبِمْـشي تَـارْ واللهِ مَـا بْـشُم الكتَـارْ

و(البمشِي تار) أي المتراجع عن الخير، فقد أقسم أنَّ هذا لا يشم رائحة الجنة، لأنَّ الكتار والقتار هو الرائحة وأصله من رائحة القدر الذي يغلي على النار.

ومنه قوله (٥٧٠):

تـسْتَحْوَذِي الخـيرْ بالجُمَـلْ وسَتَحْـصِدي مـا تَزْرَعِـي

ويقولون (عاد فلان صفراً، أو صفر اليدين) إذا عاد خالي الوفاض لم ينل ما يريد. أشار إليها شيخنا فِي قوله عن جود الحبيب الكريم الجواد (٢٩٥):

كَامِـل الحَيَـا جُـودُو الـوَفِرْ مـا رَدْ يَـدَيْ عَـشْمان صِـفِرْ

يعني لا يعود منه صاحب الأمل وهو خالي اليدين.

وربما خرج بنا الشاعر إلى البيئة المصرية بحكم الجوار والمخالطة فنقل بعض عباراتهم الشعبية (٢١١):

محمـد ذُو الطَّلْعَـة الباهْيَـه حَلِـي اللَهْجَـة الْبِـي الـصِّدِقْ نَاهْيَـه

بِوضْـعو الـدُّنيا أصْـبَحتْ زاهْيَـه وأبْطَـل ديـن أعْـدِيَا اللاهْيَـه

وهُـمْ والفيـل راحُـوا فِي دَاهْيَـه

فقوله (راحو فِي داهية) من عبارات المصريين فِي سوء العاقبة تكررت فِي قوله (٤٢١):

زال مُلكْ كسرى وجاتو داهية

وهذه من قولهم (جاتك داهية).

ومن عبارات المصريين الشائعة في السلامة أنَّهُم يقولون هذا الشيء (سَاخ سَليم) أو (ساغ) كناية عن اكتمال الشيء، وأصله العملة الصّماء والمفكوكة، قال الشيخ (٣٩١):

بـــــالعَفُو جُـــــوِّد للمُـــــسْتَلِيمُ   يَـا مَـنْ كـريمْ يـا مَـنْ حلـيم

في أوْلِيَـــاكْ أجْعَـــل لُـــو لِـــيمْ   فَـــوْر وأمْنَحُـــو قَلْبـــاً سَـــلِيم

نَقِـــــي ونَظِيفـــــاً سَـــــخْ سَـــــلِيمْ

المستليم الذي حمل اللّوم، يسأل له الله الكريم الحليم أن يجمعه بالأولياء وأن يكون قلبه سليماً نقياً نظيفاً كهذه العملة، ليست أكساراً ولا (مفكوكة).

ومن ألفاظ المصريين أيضاً (يا جدع) ولعلها عندنا ونقلب دالها ضاداً فنقول (جضع) وردت في قوله (٣٢٤):

يَـــا حَيَـــاتِي إنْـــتَ أيَـــا جَـــدَعْ   قُـــولْ فـوق نَبِيـكْ سَـوِّي البِـدعْ

ولكن في البيت أسلوب آخر لن نتجاوزه وهو قوله (سَوِّي البِدع) وإذا بالغ الإنسان في فعل شيء من خير أو شر قلنا (فلان سَوَّى البدع) أو (سوَّى الما بِشَبَهْ) كناية عن المبالغة.

وربَّما أشار إلى بعض الحكم التي تضمنتها أشعار العربيَّة، كما في قوله (٣٠٠):

(إنْ لم تكونوا أشبهوا)، أراد قول الشاعر:

فتـــشَبّهُوا إنْ لم تكونُـــوا مِـــثلَهُم   إنَّ التَـــشبُّه بـــالكِرامِ فَـــلاحُ

وقد يشير إلى بعض شخصيات التراث العربي المشهورة في بعض جوانبه كأشعب المعروف بالطمع، فضربه مثلاً لنفسه في طمعه في جاه المصطفى (ﷺ) وخيره في مواضع من ديوانه منها (٣٨٢):

أيَّـــامِي ضَـــاعَتْ لـــيْ في المَلْعَبَـــا   لاكِنِّـــي فِيـــكْ طمعـــان زَي أشْـــعَبَا

أو قوله (٤٤٨):

فيـــك يـــا ذا النَّـــوال طمعـــان كـــزي أشـــعب   لَبّيـــكْ لـــيَّ قُـــول يَـــا عَبْـــدي نُـــوم والْعَـــبْ

وقد يورده بصورة لطيفة تدل على براعته في التنويع والتلوين والتجويد في صياغاته كقوله (١٣٤):

أطْمَـــــعْ يَـــــا أشْـــــعَباً   في خيْـــــرو الْمَـــــا صَـــــبَنْ

جعل نفسه (أشعب) على الحقيقة وحضَّ نفسه على الطمع في خيره (ﷺ) الذي لا ينقطع. والصَّبْنَة المدة الطويلة من انقطاع المطر.

الأساليب والعبارات الشّعبيّة:

استخدم الشيخ أساليب وعبارات شائعة تجري مجرى المثل في كلام العامة تجد ذلك مبثوثاً في الديوان، لو تتبعناه كله استغرق ذلك جهداً وحيزاً ولكن سنورد منه طرفاً ونحيل القارئ على الديوان ففيه بدائع وروائع من ذلك. فالشيخ عليه رحمة الله استخدم العبارات الشائعة في الفخر وفي الأمل والحسرة والندم والفرح والكره والسرور والحزن وكل ما يتخيله القارئ الكريم مما تختلج به النفس الإنسانية... فمن توظيف أساليب التراث أنَّ الناس إذا أرادوا تقرير الإنسان والحصول منه على اعتراف يقولون (في ذمَتَكْ) أو (في جناك) أو (في سمّاعاتك ودمّاعاتك) يريدون الأذنين والعينين، وقد جوَّد الشيخ في استخدام الأخيرة هذه حين قال للجمع الذي يحضر مديحه (٤١٥):

يـــا جَمِـــعْ في الـــصَّاغياتِ والعيُـــــون الرَائيَـــــاتِ
في الرُّســـل روُح الحيـــاةِ مثلُـــو جَـــاء أوْ ثـــاني يـــاتِ؟

يعني أيها الجمع (أمرقوا الذمة في أذانكم وفي عيونكم التي ترون بها) فيما عرفتم عن الرسل، هل رأيتم أو سمعتم بهذا الرسول روح حياتنا، هل جاء مثله أو تتوقعون أن يجيء مثله... ووجدت نفسي كالعادة أخذت القلم وعلقت على هذا الموضع: (لا والله يطرشنا ويعمينا لا شفنا ولا بنشوف).

وأهلنا إذا أعجبهم الشيء قالوا (حاجه ما مساخر) أي تامة وافرة فاخرة جادة، وصف بها الشيخ حياتي دين الإسلام لأنه كلُّه جدٌّ وخير محض.. فقال (٢٣١):

ذُو الفخـــر العَلِـــيِّ الفَـــاخِرْ دِينُـــو قـــويم وخـــاتِي مـــساخِر

أي مبرأ من المسخرة، مثلما قال عن هذا الدين وعن الجنة (٣٦٠):

جِـدْ لينَـا بِـي دِينـو الخَـاتِي المـسَاخِر وبِكَـوْثَرُو وجَنَّـاتُو الْمِـي مـساخِر

فانظر إلى (جيد لينا) وهي للبشارة دائماً و(الخاتي المساخر) كما مضى، و(المِي مساخِر) فكلها من قاع كلام العامة ولكن موقعها هنا في هذا السِّياق لا يضاهيه تعبير في الحسن وأداء المعنى.

وإذا أرادوا الأولية والسبق والتَّقدم، قالوا (فلان أوّل نمرة) أخذها الشيخ ووضعها في أكثر من موضع نحو قوله (٤٩٤):

أجْلِـي يّـا ذا البَقَـا أنفـسنَا أدْنَاسَـا زَوِّدا بالتُّقـا بيـكْ واجْعَـل اينَاسَـا
تَمْـلا الطَّاعـة فيهـا وتجمَـعْ أجنَاسَـا تَبْقَـى الآخـرة أوَّل نمْـرَة في ناسَـأ

يريد جلاء النفوس من الدنس والكدر وأن تتزود بالتقوى وأن تكون آنسة بالله تملأ من أجناس الطاعة وبذلك تصبح في السابقين الأولين يوم القيامة.

وأعاد استخدامها في مدح أمير المؤمنين عمر (رضي الله عنه)، فقال (٤٥٢):

مَحْكِي إسلام عُمَر ملأ السَّما بُشَرْ　　يَلْقَى الله أول نِمْرة في المحشَر

أوَّل داخلٍ في الجَنَّة يَا معْشَرْ　　ذا قُول الرسولْ السَّاد لكُلِّ بَشَرْ

ودخوله الجنة أول نمرة من حديثه (ﷺ): (إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ لا يرفعنّ أحد من هذه الأمة كتابه قبل أبي بكر وعمر).

ثم ألحق الشاعر نفسه في هذه الزمرة عملاً بقوله (ﷺ): (المرء مع من أحب) فذكر أول نمرة أيضاً في قوله (٤٠١):

والله أوَّل نمْرتِي　　في زُمُرْتُو فازتْ زُمْرَتِي

هذه الثقة المشفوعة بهذا القسم صادرة عن يقينه في جاه الرسول الموصوف عنده دائماً بالشامل والحايق واللايق والوسيع والوافر فهل يضيق عن مثله وقد أفنى حياته في خدمة سيرته حتى لو كان (أعوجاً كنجاره) حاشى لأنَّ المكرم سوف ينشر فوقه غطاءه كما قال (١٥٢):

طِبي وشِفاي

ذُخْرِي وبَهَايْ مُونْتي وراحَة عَفَاي　　سَنَدِي ورَجَاي وِقْتين يَحْصَل جَفَاي

شَرْكُمْوُ فوقي الكابْ مِنُّو وكَفَاي

وفلان (شركمو فوق فلان) إذا حماه وغطاه وهو ما يريده شيخنا. وقد أردفها بالكاب وهو الغابة الضرية التي يلجأ الناس إليها للحماية ولعلها من (الكهف) وهو ملاذ وملجأ أيضاً. وكلُّه ينطبق على الأمل في جاه الرسول (ﷺ).

ويقولون (فلان قَعَدْ في الفَارْغَة) إذا ذهب الناس لأمر جاد وتخلَّف وتقاعس عنهم، يقول الشيخ (٤٠٧):

النِّيْتُو حجْ قامْ وانْدَرَجْ　　خَابْ القَعَدْ في الفارغة رَجْ

فازْ مَنْ أطاع رقَى لِلْدَرَجْ　　لاجْ مَنْ عَصَا يوم الهَرَج

فالذي قعد في الفارغة والرَّجَّه سيلوج ويضطرب يوم القيامة، أمَّا الطائع فأمره محمود معروف.

ويتجلى الشيخ حياتي في مدح الصحابة ويتسامى في وصفهم جامعاً بين محبتهم وإعجابه بشجاعتهم ومتشرباً تراث أهل السودان في ذلك. ففي قصيدة في مدح الكرار يستخدم عدة أساليب شعبية منها (٤٩٩):

- ما بتملى الألوف إحدى عينيه.
- لم لا يكفي من خلط الحصان بيه.
- كر يا عين دَقُرود عينك ألقيه.
- غنايك أبا السبطين هازيه   سوّد خَتْوَتُو وكازي البكازيه

فالعبارة الأولى من استهانتهم بالشيء وأنه لا يملأ جزءاً من العين ناهيك بملء العين كلها أو العينين معاً؛ لأنهم بالضِّد يقولون (يملا العين لامن تفضِّل) وغاية الاستهانة أنَّه لا يملأ طرف العين. أمَّا خلط الحصان بالفارس فمنتهى القوة في وصف ضرب هذا الفارس، حتى إنَّ الناظر إليه لا يفرق بين لحم القتيل ودمه ولحم الحصان ودمه، خلطهما من قوة ضربته. وسنعود إلى (كُرْ يا عين دُقُر) فهي لا تكاد تحصى عنده، ولكنه دعا على أعدائه والهازئين به دعوة تراثية شعبية شنيعة في قوله (سَوِّدْ خَتْوَتُو وكَازِي البكَازِيهُ) يقول يا أبا السبطين أرجو بجاهك أن تسودَّ خطوة المستهزئ بي، وسواد الخطوة شؤم وتعثُّر وإنَّما الخير في بياضها أو خضرتها. وقوله (كازي) أي عاكس من يعاكسه.

وفي قصيدة (نعم الحدا قطارا) أيضاً جملة من عبارات التراث الشعبي، منها قوله (٤٩٠):

يَا مُجْرِي البحَار أنَا بيرِي لَيْ تَارَا   واسْتُر عورَتِي زِيل حَالِي أقْتَارَا

حَضْرَاتْ الرِّجالْ حَالْ أنْشُق أكْتَارَا   واشْرَبْ دنَّها والْعَبْ بِتَرْتَارا

يسأل الله أن تكون بئره (لاحقه الترى) عينها ثرية فيّاضة، وأن يزيل حال العسر عنه وأن يشم ريح الرّجال الواصلين ويشرب من دنانهم ويسر ويفرح بذلك، ولعب الترتار لا يكون إلا من فراغ، فهو يريد أن يكون فارغاً من الهم يسير على نهج القوم. ولعب الترتار مثل لعب الهوبا في قوله (٢٣٥):

آلاف الصَّلاة المَوْهوبَة   للنَّبي والبَنُون يَزْهُوُبَا

بيها حَيَاتِي يَلْعَبْ هُوبَا   فِي الدَّارين ومن فاهُوبَا

لعب الهوبا، وقلب الهوبا دليل على الفرح الكبير، والفراغ من الهم وتمام المراد فنحن نقول: (يا فلان والله قلبت هوبا) إذا أفلح، ولا فلاح أكثر مما نحن فيه.

وفي القصيدة أيضاً (٤٩٠):

مِـنْ شـانْ الرسـولْ لَـوْ دريـي كُنْجَـارَه نجنِـي لا أرَى الـنيرانْ ولا نجَـارَا

والشائع عند العامة قولهم (هذا الشي أعوجاً كنجارة) أي في غاية الاعوجاج، وأصل الكنجارة حديدة لها رؤوس معقوفة يستخرج بها الدلو حين ينقطع حبله ويرسب في قاع البئر. يضرب بها المثل في الشي الأعوج، فهو يسأل الله بجاه الرسول (ﷺ) ألاَّ يرى النار ولا أصلها حتى لو كان عاصياً مذنباً غير مستقيم.

أما كلمة (كُرْ) التي تستخدم للاستعاذة والبراءة من حالة السوء، فما أكثر ما استخدمها الشيخ، ومع أنَّها من خاصة ألفاظ النساء وعباراتهنّ إلا أنك لا تجد حرجاً في استخدام الرجال لها على طريقة الشيخ حياتي لحسن موقعها ودقة تعبيرها، فحينما تحدث عن حال الحجاج الذين حجوا ورجعوا عوَّذهم من العين وسرته حالهم، فقال (٥٠٩):

كُـرْ مـنَّهم للعـين دَقَـرْ لَـيْ فـالم مـن هـا القَقَـرْ

فوقـك يـا جـالي الـصَّقَرْ اليـضحكوا يقولـوا قَـرْ

وهنا أكثر من عبارة شعبية، الأولى (كُرْ) التي ذكرناها،والثانية (دقرت العين) أي زجرتها وكَفَفتُها من أن تصيبهم بسوء، والثالثة (لي فالم) وهي تمني حالهم الطيبة، والرابعة (جالي الصقر) وهو كناية عن غسل الذنوب ومحوها. والخامسة (اليضحكو يقولوا قر) وهي من قولهم (قالوا قَرْ بالضحك) إذا أكثروا منه.

وأكثر ما يستخدمها أعني لفظة (كُر) في الصحابة وشجاعتهم ومصير الأعداء معهم... وردت مرة في وصفه لسيدنا عثمان (رضي الله عنه) حين قال (٤٥٥):

بِتْهَـابُو العِـدَا تَحْتُـو الأرض بتْـرِزْ حِـينْ رِكْـبَ البتَـاتِي الْفِـي الـصفوفْ بِغْـرِز

كُـرْيَـا عِـينْ دقـرْعِـنْ سـيفُو مَـا فِـي فَـرِز شَـقَّاقْ العلُـوجْ الـصَّافَّه والبيْـرِزْ

قوله (كُر يا عين دَقُرْ) استخدمها هنا لحسرة الكافرين من مصيرهم من هذا الفارس الذي وصفه بعبارات شعبية غاية في التعبير عن الشجاعة منها (تحتو الأرض بتْرِزْ) من قوته وثقل آلة حربه، وقوله (حين ركب البتاتي) وهو الجواد الأصيل الذي يقدل بصاحبه، وأعاذه من العين بدقرها أي زجرها وكفّها لما كانت هذه صفاته.

ووردت عبارة (كُرْ) عنده في سياقات كثيرة كلٌّ لها مدلولها ولكنها لا تخرج من التّبَرُّؤ والتعوُّذ منها (٤٦٦):

قولـوا يـا مـسلمين كُـر نَبْـرَا مـن حـالم

وهنا واضح التبرؤ من مصيرهم السَّيّء.

وكررها في موضع خامس (٤٨٢):

(كُـــرْ كُـــرْ نَبْـــرا نَبْـــرا مِنّـــو زِنَّـــارُم)

تبرأ واستعاذ من نصرانيتهم لأنَّ الزِّنار هو شعارها.

(قولـــوا غـــادي كُـــرْ كُـــرْ بالعـــدد ســـتين)

وهنا جعل لها عدداً لا تقال مرة واحدة فقط كأنها وِرد.

- واستعملها للعدو عامة فقال (٢٨٢):

إلا العَـــــدُو الْمنُّـــــو انْـــــصَرَفْ   مِـــنْ حَـــالُو كُـــرْ أخـــدُو الهَـــرَفْ

فاستعاذ هنا من مصير هذا العدو، وأردف ذلك بعبارة شعبية أخرى هي كالمثل وذلك أنهم إذا قالوا (لا تبرا الهرف) فهذا تحذير من المكان الخطير (الهدَّام) الذي تزل فيه القدم وتتعثر، فإنْ لم ينفع فيه التحذير هلك فقالوا (أخدو الهرف) والغالب أنَّه المكان المتهدم الآيل للانجراف من شاطئ النهر فإذا مشى عليه الإنسان إنهار به وهو كالجرف الهاري الذي ينهار بالإنسان كما هو مذكور في القرآن، قال تعالى: (أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فانهار به...) (التوبة: ١٠٩). وهذا هو الهالك الذي يتبرأ الناس من حاله فيقولون (أديتو الخلا والشدر اليابس) وقد قالها الشيخ بنصها في وصف حال الكفار حين قابلوا جيش المسلمين فقتلوهم شر قتلة وأيتموا صغارهم وأخلوا ديارهم، فقال (٤٧٢):

أديِّتُـــو الخَـــلا حَـــالُمْ يَـــا مُـــصْتَنِتينْ

وأبرز ما تظهر عبارات التراث وأساليبه المعبّرة عند الشيخ حياتي إذا وصف االصحابة والمحاص والميترة ووصف مصير الكفار هناك، يقول عن الصحابة (٢٩٦):

جـــيشْ العِـــدا مِـــنهُم ســـكِرْ   فَلُّـــو وفَنُـــو وقَطَعُـــوا الـــضُكِّرْ

فالفَل والفناء واحد، أمَّا قطع الضّكر فإنَّما هي (ذال) قلبها اللسان السُّوداني ضاداً وأصلها (الذكر) مثلما فعلنا في (ضرور وضريرة) كما مرَّ بك. وقطع الذكر كناية عن الهلاك، أي لم يبق لهم نسل يحفظ ذكرهم. وقد عبّر عن ذلك بصورة أخرى هي كالشرح لهذه في قوله (٤٢):

والعِـــدا العـــادوك ينقطـــع تَـــرَيُنْ

وأصل (الترَب) الذُّريّة، وانقطاعها هو انقطاع ذكر العدو، (وإن شاالله ما تَنُوا) كما قال في موضع آخر. فقد ارتاح منهم المسلمون ووسعوا الطريق للفتوحات، وهذا ما عبّر عنه أحسن تعبير بقوله (٢٩٨):

صُحْبو الصِّمُودْ أُسْدَ الحَرِبْ فوق العِتَا بِعَرْفُو الضَّرِب

بِي سيفاً يَرْمِي الزُّول أرِبْ حَطَبُوا العِدَا وأدُّوا الدَّرِبْ

هؤلاء الأسياد آساد الحروب الذين يركبون الخيول العاتية ويجيدون الضرب بسيوفهم التي ترمي القتيل مقطَّعاً على الأرض، قطعوا هؤلاء العدا كما يقطع الحطب في الغابة فانفتح الطريق أما بالقتل أو بهروب العدو من وجههم.

وهذا أشبه بقوله في موضع آخر (٤٠٨):

صُحْبُو الصّمُود خَلُّو النَّعَجْ راقْدِينْ سَرِير زي البَعَج

شَقُّوا العلجْ بَوُّو انْبَعَجْ فوقُو الصُّقُور والطَّيْر عَجْ

صورة ومصير مزعج للكفّار سوف يقابلك إن شاء الله في وصف الصحابة ولكن الشاهد هنا قوله (خلو النعج راقدين سرير) ومن عباراتنا (ماتوا موت الضان) لأنّه يقع بعضه فوق بعض من قلة الحيلة وسوء التصرف، فيصبح كطيور البجع (البعج) بجامع التزاحم وبياض اللون في كل منهما. (ورقدوا سرير) إذا وقعوا على الأرض. وهذا أشبه بقوله (٤٧٢):

خَلُّوهُم يَمِينْ دا فوق دَا مُتْكَايْتِين

يعني بعضهم فوق بعض مردومين.

كل ذلك من عبارات التراث الشعبي وإن تطاول الزّمان بيننا وبينها.

ويتذوق الشاعر مدح المصطفى تذوق الطعام، لأنه أصبح زاده على الحقيقة، فيصفه بالحلاوة وهو كذلك ولكن بأساليب العامة، يقول (٣١٠):

يَا حَلاةْ صَلاةْ سَمْحَ الكَحَل فَاقَت حلاة عَسَل النَّحلْ

فقولهم (الشي ده يا حلاتو) منها هذه الصلاة... التي أردفها في موضع آخر بقوله (٢٤٢) (والكون حلَّ حَلا) كأنه يقول (جنس حلاة) وفي مرة ثالثة يقول (٩١): (طبعو حِلّو وعذب) ولو قال (حُلْوٌ) لكان طبيعياً ولكن كلام العامة بتشديد اللام (حِلُّو) كأنك تمدها مع التشديد وهو ما يقتضيه الوزن ويوافق الأسلوب الشعبي.

وانظر قوله في الحبيب أيضاً (٣٦٩):

بِالْلّوَا مَبْزُومْ

غـيرُ مـْـنْ كَـان فـوق الحُجُـبْ مَعْـزُوم   لِـي حَبَـا الرُّؤْيَـا الْبَعَـدُ مَـا فِـي لـزُومْ

تأمّل قولهم هذا الشيء (مبزوم لفلان) سمي له وانتهى. ثم جعل الإسراء كأنه دعوة (عزومة) لكن كان المدعو واحداً (ما لازمو غيرو) وأعطاه ما لا يحتاج بعده إلى شيء (ما في لزوم لشي).

وقوله (٥٣٠):

اللِـــي الـــشَّفَاعَة لـــزُوم   بَـسْ بَعْـدُو مـا في لِـزُومْ

وقوله (٢٨٥):

فِـــي الغِيْـــر كُتُـــر مَـــالَىْ لِـــزُومْ

مافي لزوم، لا ضرورة ولا داعي لمن يجيء بعده فقد اكتملت الرسالة والدين، وغيره لا يلزمني، ولا لزوم لي به، و(كُتُر) من قاع العامية وهي بمعنى الجهة الأخرى مثلما قال (يا سعيد لا تكوس كتر) ومنه قولهم (هدوها من الدواحة باتَتْ كُتُرْ) أي في جهة أخرى.

وقولهم (فلان شَهَرُو هَلْ) هذا إذا بدا سعده وحسن طالعه. قالها الشيخ في قوله (٢٨٥):

والحـــقْ بَـــرَزْ فُـــوقْ شَـــهرُو هَـــلْ

وفي التاريخ يقولون أيضاً (هَلَّ) فإذا غاب وانقضى الشهر قالوا (مات)، كقوله (١٦٠):

(**قبل ذا ما يموت   قبل أخو سايق**)، أو (**قبل ذا ما يموت والوراه يهل**) (٤٤).

أي قبل هذا الشهر ينقضي ويدخل أخوه شهر سايق وهو سايق الكرامات أو جمادى الآخرة. ومنه قول الهمباتي: (صَبِيًّاً ما خَتَرْ لامن شهيرو مات) يعني سافر حتى تمت أيامه شهراً كاملاً.

وإذا كان الإنسان متراخياً غير ذي عزم وإقدام رُبّما وصفوه بأنه (نَيء/ نَيْ) كالطعام الذي لم يكتمل نضجه، وهذا في الإنسان مذموم كأنه غير تام القوة والفحولة والعزيمة، فوصف الشيخ نفسه بذلك من باب هضم النفس وإلا فهو من أصحاب العزيمة الماضية الحذّاء وهذا الديوان دليل عليها، وقد قال (٢٧):

يَـــا مَـــنْ لَطِيفَـــاً بـــالجِنَيْ   في بطـــنِ أمِّـــه هَـــانِي نَـــيْ

مُـــسيء وفِـــي الطاعـــات وِنَـــي   أغْفِـر لِـي زِيـنْ طَبْعِـي الـشِّنَي

فوصف نفسه (بالنياة) وأردفها بشناة الطبع وسأل الله أن يزينها وهي أيضاً من الأساليب الشعبية، لأنَّ الشناة في الأصل القُبح، والأخلاق أيضاً تقبح وحاشاه. وكرّر وصف (النياة) هذا في غير موضع كقوله (٢٦٥):

راحـــة حيـــاتي قَايـــلْ نَيـــاتِي ﮲ جُزْئيـــــاتي أو كُلّيــــــاتِي

يعني الرسول (ﷺ) هو راحة حياته ومُقِيله ومُنْقذه ومُخْرجه من هذه الصفة التي يُقرُّ بها علناً وهضما ﮲ قوله (٢١٠):

صَـليِّتْ حَيَـاتِي القَـارْ بِـي نَيَـاتِي لــي خـــيرًا يَـــاتي بالكميَـــاتِ

ولا نياة على الحقيقة بل لا وَنَىً ولا تأخُّر، ولكنه يذكره كما ﮲ قوله (١٣١):

نَـــصَحْ مـــن حــــولي وقـــار بِوَنَـــائي

أي تأخري وتخلُّفي عن المادحين وحاشاه.

ومن أساليب العامة التي تأثرت بمصطلحات الأتراك أو لعلّها، قولهم (فلان ﮲ كشف السُّعاد) وتتكرر كلمة (كشف) كثيراً عنده ويُبْدلُها أحيانا بالدفتر، كما قال (٣٧٨):

تَمْحَـى ذِنُـوبْ صَـحايفُو الكُـل يـوْم عارْجَـه ﮲ كَـشْف الـسُّعَادْ أهـلْ الـشهُودْ دَارْجـه

ولاحظ قولهم (عارجه) وقولهم (حظُّو معرج). وقال أيضاً (٥٢):

وابقـــني بـــاطن كـــشف أحبـــاري

وقال (٤٤):

وابقـــني بـــاطن كـــشفهم واســـقني مـــن فـــيض كاســـمْ مـــــــــــــــــضموم المَتْمُـــــــــــــــــــــوم

و(الكاس المتْمُوم) أيضاً من ألفاظ أهل الشراب، أعاد ذكره بالنص ﮲ قصيدة أخرى. أمَّا الدفتر فقد ورد ﮲ قوله (٤٦٤):

يتْرَسِــمْ اسْــمِي مَعَهُــمْ بَــاطِنْ الــدَّفْتَر

وقريب من مصطلحات الأتراك التي شاعت لدى العامة قولهم (خَتَمولُو وَصْلُو) إذا صادقوا له بالشيء، ومثله سركي الضمان كقوله (٣٠٧):

بَـــدْرِي اسْـــتَلَم سَـــركِي الـــضَّمَان

وورد الأول ﮲ قوله (٣٤٠):

سَـــلِّمْ يَـــدَا أرَيَـــا واخْـــتِمْ لُـــو وَصْـــلُو

أي بلغه ما يريد. اللهم بلغه وبلغنا والقارئ ما نريد بحرمة جناب الحبيب.

ومن أقوال العامّة ﮲ نهاية الشبع وحدّه، (أَكَلُوا لامَنْ أَبُوْ) وردت عند شاعرنا ﮲ أكثر من موضع، قال ﮲ ريّ الجيوش من إبهام الرسول (ﷺ) كما ﮲ تبوك وغيرها (٨٦):

ثُـــمَّ الكِـــرَامْ شِـــرِبُوا مـــن بَهْمُـــو لا مَـــنْ أبَـــوْا

بهمو = إبهامه، و(لامن أبوا) كناية عن الاكتفاء. واستخدمها في وصف الصحابة وكثرة القتلى بمصارمهم (٤١٤):

سِـيوفُم فِي العِـدَا الْتَهَبَـتْ وكَفُّـوا الطَّـائرَة لا مَـنْ أبَـتْ

التهبت: حرت كأنها من اللهب، الطائرة: الطيور.

وتقول العامة (أنا لا أفعل الشِي ده قَبَلْ) أي عديل، أو بالمرة. وعليه قوله (٥٣٤):

وغَـرَامْ نُـورْ القِبـلْ أحْرَمْنِـي النُّـوم قَبَـلْ

وقوله (٢٧٦):

مَـا قَـالُوا فِـيكُمْ انقبَـلْ عنـد الله فُوقُـو ننُـوم قَبَـلْ

وقوله (٣٩٩):

وأبلانِـي مَـا يَنْفَـعْ قَبَـلْ غـير مـا أزُور نُـور القِبَـلْ

وأرى البَقِيـع وأرى الجبَـلْ

وكله من نفس الوادي... وربما استخدموه في الكي كقولهم (سووا ليه الكي قبل) وهذا بمعنى المطبوق لا كقوله عن الصحابة (٣٠٧):

مَـا خَلُّـوا بطريقـاً جلـف والحـي كَـووا كَيَّـاً خَلِـفْ

لأنَّ الكي المخلوف كل خط (محور) في اتجاه، أما القَبَل فبعضه فوق بعضه لإنضاجه، وهو أشبه بالكيِّ المجدّد في قوله (٣٨٩):

وابْ جَهـل كـل يومْ كيُّـو المجدَّد

ويستخدمون كلمة (يابس) لأكثر من معنى، (وقع يابس) مثل (وقع كرتوب) أي جاف ناشف. ويابس بمعنى (خالي) ويابس بمعنى (جاف) وكله ورد عند شاعرنا، فمن اليابس بمعنى الخالي الفارغ قوله (٢٦٠):

مِـنْ قَبْلُـو الكُـون نَعَـمْ يـا بـسْ عَـاوْز الطّعَـمْ

وهنا عبارتان: يابس، وأكّدها بقوله (عاوز الطعم) أي عادم الطعم، لا طعم له. ومنه أيضاً قوله في صفة جود الرسول (ﷺ):

جَمَّـل نُـورُو الملابـس واخـضر بمـرورُو يَـابِس

مـا سَـوْ عـن بـابو حـابس غَنَـى عَـدْمَان بيتُـو يـابسْ

فالأولى اليابس من الشجر وهو الجاف، والثانية اليابس (من الموجود) وهو الفارغ من الطعام والمال ونحوه مما يملأ البيت. أمَّا يابس الأخيرة فهي من يباس الريق وجفافه من العطش والحر والشدة والخوف ونحوه، وقد وردت عنده في قوله (٤١٦):

البريــق مَــا قَــالْ لِــي هَــاتِ اخْتَطَـــــف لمِوَلَّهـــــاتِي

صِــرْتَ أزيــمْ يــابِسْ اللــهاةِ طِبِّــي شــوف نَــاهِي النُّهَـــاةِ

اختطف البرق عيونه وقلبه وكل عضو يقع فيه الوله، فصار يصدر صوتاً كالمرجل ولهاته يابسة (ريقو دقيق) وليس له دواء إلا رؤية ناهي النّهو (ﷺ).

ومن ألفاظ الاستفهام عند العامة لفظة (شِنْ) بمعنى أي شيء وهي كثيرة الورود وبصيغ مختلفة في ديوان الشيخ، منها الاستفهام المباشر (٢١٣):

لــولا النِّبْــرَاسِ شِــنْ قَعَــرِي ورَاسِــي حَــصنْنِي وحَرَّاسِــي عِــنْ دِيــرَةْ رَاســي

والعبارة الأولى كلها تراثية شعبيّة وهي قوله (شِنْ قَعَرِي ورَاسِي)؟ أي ماذا أساوي وهي شائعة (فِلان شِنْ قعرو وراسو) وأضاف إليها قوله (ديرة راسي) وهي كناية عن الموت، وديرة الراس تحويله نحو القبلة ساعة خروج الروح، أو داخل القبر.

ومما وردت فيه للاستفهام أيضاً قوله (٨٠):

البَـــــرقِ لـــــيَّ عَمَـــــا ومَــــــسَّخْ عَلَــــيْ نِعِمَـــــا

الـــــدُّنيا ولذيــــذ دَعَمَـــــا خلانـــــــي كالبَعَمَـــــا

هـــــا حيـــــاتي شِـــــنْ طعَمَـــــا

أي ما طعم حياتي؟ ومتواتر قولهم (شِنْ جِنْسُو) و(شِنْ نفرو) و(شن طعمو)... ولكنه قد يستخدمها مركبة مع من (شمِّن) وهي هنا تعني المعنى وزيادة تعجُّب، كنحو قوله (٣٢٣):

والأطْنَــــبْ ابْ دمّــــاً قِتِـــل سَــــوُّولُو عَـــاد شِـــمّنْ قَتِـــلْ

وهي تقابل لفظة (جِنِسْ) كما نقول (جِنِسْ تِيَابْ) و(جِنِسْ كَتِل) أي كثير وعجيب وقريب من الأولى قوله في المركّبة (٣٣٣):

وذكـــر الغيـــرُو شِمِّنُـــو

وهي بمعنى ما الفائدة منه؟ وما الفائدة التي تعود عليك من ذكر غير هذا الرسول الكريم؟

ويقولون: (الشِّي دَه مَا فيه سَبَبْ) أي ضعيف لا فائدة ترجى منه، وهي كثيرة عند الشيخ وردت في حديثه عن البرق وما يفعله فيه وهي طالما وردت في هذا السياق كقوله (٣٧٠):

الليلَــــــه لاحْ برْقَــــــاً خَبَــــــبْ رمـــى قَلْبِـــي بـــي نبلاتُـــو بَـــبْ

خلانــــــــي زَي زول الــــــــشَبَبْ إنْ كـــانْ حييـــتْ مـــا في سَـبَبْ

غــــــير مــــــا أحـــــج وأرى مـــــــن حَبَـــــــبْ

هذا البرق السريع رمى قلبه رمية لها صوت (مدّوي) فأصبح كمريض الصدر (نَفَسُو يقُومْ ويقَعْ) فإنْ عاش فإنّه ضعيف (ما فيه سبب) غير نافع ولن ينفع إلا إذا حج البيت وزار من أَحبَّه.

وكرره في موضع آخر في قوله (٤٨٥):

الليلَــه البريــقْ مَــا خَــلَّ فِــي سَــبَبَاً فِــي قَلبِـي الولـوعْ يَـا الخِـلْ طَلَـقْ لَهَبَـاً

لم يترك سبباً أو قوة، كما أنّه (طلق فيه لهب) مثلما يقولون (طَلَقْ في أعْضَاي النَّارْ) وهو أيضاً من كلام العامّة ولكنّه بليغ بالغ.

وتسمع قولهم: (الشي دَا تَالَّنِي)، أو (بَاقِي لِيْ تِلْ) إذا كان ثقيلاً عليك ثقلاً مضجراً وكلاهما ورد عند الشيخ، كقوله (٢٤٥):

لاحْ لَـــيَّ البريـــقْ في الليـــلِ خِلاَّنِـــي كالحَاشِـــي الفَـــصِيلْ مِـــنْ أمُّـــو خَلانِـــي

نويـــت بـــالخروج الـــدُّنيا تـــالاني مانعـــاني الإرادة والقـــدرة مَـــا هْلانِـــي

فقال (الـدُّنْيَا تَـالاَنِي) أثقلت خطاه وأقعدته بظروفها السيئة؛ التي أكّدها في قوله (القدرة ماهلاني) وهي من عباراتهم المعروفة، لأنَّ المستطيع يقلق ويتحرك ويخرج أمَّا غير المستطيع فهو (ممهول) لا شيء يدفعه للحراك والخروج. والحاشي الفصيل مضرب مثل عندهم في كثرة الحنين وشدّته.

وفي صلاة هذه القصيدة يقول (٢٤٥):

حَيَـاتِي يَـرُوم بِهـا ينَـادِي مُنَـادِيَّ واتوجّـه قَرِيـب واسْـلَمْ مِـنْ الدِّيَّـة

ومن أشهر عباراتهم في الحج (المنادي نادى، والمنادي ما نادى). أمَّا السلامة من الدِّيـَّة فهي التخلص مما في عنقه.

وفي جو الأبيات وحديث عدم القدرة على السفر رغم الأشواق والحنين، يقول الشيخ (٢٠٣):

بَرْقَـــــــــــــاً تَـــــــــــــــدَيَّر

رَمَـــى سَـــهْمُو في قَلْبِـــي لمزَاجِـــي غيَّـــرْ كـــالثَّكْلى الفَاقَـــده أنَـــا حَـــالِي صَـــيَّر

عـــــــازِمْ بالقومَـــــــة لاكـــــــين مَهَيَّـــــــر

هذا البرق الذي لاح من جهة الدّيار إياها فعل فيه فعائل وعزم على القيام لكنه (مَهَيَّر)

وهـي مـن (انهـار) ووقـع، فهـو واقـع وهـالـك ومنهـك ومتهـايس ومهوسـك وملـكّـك وموحَّـل وغرقان وغاتس لا الطينة وكلها بمعنى العجز عن الحركة.

وحتـى لا يطـول المبحـث – ولعلـه طـال – سـأورد بعـض عبـارات الـتراث الـشعبي وأسـاليبه مقتضبة مختصرة بقدر الإمكان؛ فانظر مثلاً قوله (١١٩):

والنَّسَـج والبَاضْ وكتي ما أتأخَّر: أي في وقته حالاً؛ يريد العنكبوت والحمام.

وقوله (٧٥):

صليتْ حَيَاتِي أنَا تَرْ: وهي من عبارات التحدِّي (عديل كده رجاله).

وقوله (٦٠):

حين أشار لي شي حال أتى دُغري: دون لجلجلة أو تردُّد كالسحاب مثلاً.

وقوله (٣٩٦):

سَوُّولْنَا بِيعْنَا وحَشَّنَا　　أمداح نَبِينَا بوشَّنَا　　لَمَّا الْمَنِيَّة تَقُشَّنَا

وفي الأشطار الثلاثة ثلاث عبارات تراثية في كل شطرة عبارة.

وقوله (٨٢):

والطَـايرَه هَـبْ سَـعَدا　　بمـصارِمْ الـسُّعَدا

الطيور هبت لها رياح السعد بسيوف الصحابة، فقوله، (هب سعدا) من أساليبهم ومثلها (فلان ريحُو هبَّت) إذا سعد بعد شقاء كما قال (٣٨٥):

سـعد الحنيفـة ريحـا هَـبْ

وقوله عن مديحه لسيد الخلق (٣٧٥):

مَهْمَا قُلنا في قَطْ قولنَا مُو مَليّان ـــ من الكلام الفارغ والكلام المليان.

وقوله (٣١٦):

كَـادْ الْلَعِـينْ وَجَّـه التُّـرَبْ　　انْكَـبْ عَلِـى وَجْهُـو انْـضَرَبْ

كاده وانكب وانضرب حقاً هذا المشؤوم، وهم إذا قالوا (يا وجه التراب) أي يا شؤم.

وقوله عن روحه (٣١٣):

رُوحِـي المَزَعْزَعَـةَ نوَّحـتْ　　اخَـدتْ عَـزالا وصَـبَّحَتْ

من قولهم (فلان أخد عزالو وصبح) أي حمل عفشه واتجه شرقاً، طبعاً نحو الحجاز واقرأ قوله (٢٩٠):

لا يَبْقَـى ماعونَـكْ ضَـحِلْ　　في مَـشْرَبُمْ تَنْهَـلْ بِحِـلْ

وتعِــلْ كَمَـــانْ تَــرْبُطْ تَحِـــلْ بِـــي كُحْلَهُـــمْ زِيـــنْ تَكْتَحـــلْ

من قولهم (فِلانْ مَاعُونُو ضَيِّقْ) في العبادة أو الصلاح أو المعاملة، والماعون الضيِّق مذموم وقال الغرباوي (اكِلْكُو حِلُوْ لَكن ما عُونْكُو دَيِّق) ضيِّق. وفلان لا بربط لا بحل مثل قولهم لا بجيب لا بودي أولا بهش ولاينش، فهو لا يريده من هذا النوع.

واسمع قوله عليه الرحمة (٣٦٠):

حـين مـا رآى العـرش اهْتَـزَّ هَـزِ طربـاً بمرقـاه يالـساني خَـزِّن

الرائي هو العرش أراد (حين ما رآه العرش) وخَزِّن عندهم احبس أو ادَّخر حديثك ووفِّره أو قف على جنب (حتى في العربات) وليست بعيدة من تخزين اليمانيّة لأنّه يحبس اللسان عن الكلام.

وتأمل الإبداع في قوله (٢٥٦):

أُوْلـو العَـزْمِ هُـم كمـال بـدايتو سَـرَى رَأى رَبُّـو الكـلامْ هَـدِي غـايْتُو

يعني (ده الكلام) ولو قال (الكمال هدي غايتو) لكان وجهاً جيِّداً.

وقوله (٢٢٢):

بعَـــد الليـــلْ جـــاء سِـــحْرُو الـــبرَّاق فَـــكَّ سِـــحْرُو

علـــي، فِـــي قَلْبِـــي نَحْـــرو هَـــلْ خِـــلاّي طِبَّـــي تَحْـــرُو

قوله (طبي تحروا) أي (دحين عارفين علاجي) وقد جاوبته معلقاً في نفس الصفحة كالعادة: بلحيل نحراه وندراه! هو زيارة المحبوب.

وقوله (٢٢١)

الـــــبرق حـــــافرو

غـــارْ قلبِـــي جُـــنْح الْليـــلْ مِـــنْ يومُـــو ضَـــافْرو

من قولهم: (فلان مَرَتُو ضافراهُو) ومن كثرة (الضفر) في هذا الزمان نمتنع عن التعليق والمعنى أظهر من ظاهر.

وقوله وفيه خفة روح ورزانة ثقة (٢١٥):

الـــــصَّلاه تَتْـــــرَى

مِـنْ حَيَـاتِي عَلَـى الفَـايِقْ الـوِتْرا راجيـاً تَمْحَـى أوزارُو فَـدْ خَـترَه

فوقـــو حَـــيْ أو مَـــيْ تَـــسْبِلْ الـــسِّتْرَا

هذا والله الدُّر والياقوت والعسجد وكل نفيس ... من قولهم عند انقضاء الأمر جملة

(فد ختره) أي بالمرة، أو مَرَّةْ واحْدَة.

وانظر العبارة التراثية الشعبية المختصرة المعبرة(٢٠١):

أضـــــــحت مياهَـــــــــا عــدماً ونــارا اللْهَــا أَلْــفِ يَاهَــا.

في بلاد فارس انعدمت مياه البحيرة، والنار التي عبدت ألف عام كما نقول (من ديك وعيك) او (ياها) (من شافني ياها، تاني ما رجع) ما أبرع هذا الرجل و ما أروع غوصه في بحار العاميِّ ليخرج دُرر البلاغة.

وتأمَّل هذه السّودنة الأصيلة لبعض مشوار الإسراء والمعراج (١٩٢):

وجّبُــوا غَايَـــة التَّوجِيـــبْ وأرضَــى أَوْرَى كَمَــان شِــي عَجِيــبْ

آبْ مِـــنْ عِنْــدو مَــلان جِيــبْ شِـــبهُو الـــدُّنْيا ويـــنْ بتْجِيـــبْ؟

وهذا نظم يفسده النثر.

وهذه الدعوة التي تدل على حسن معرفته بالصعود والهبوط (١٨٠):

بِيهُمْ تَعْلا حالتي النيَّه وتَبْعِدْ عَنِّي كُلَّ شَنَيَّه ... ولكن (يغني المغني وكل حد على هواه)

وقوله (١٦٨):

في الرســل يــا أدوراً أو مـــن اسمُـــو انقـــرن لا آلمتّــو الــرّوح حَــرَنْ كَفَــى مِنُّــو تَــرَنْ تَــرَن

هذه عبارة التراث المشهورة في الوقوف عند الحدِّ الذي يؤدي تجاوزه إلى الهلكة. (ترن ترن في القيف حرن) ومن يخوض البحر سوى الذي خاض بحر السما المكفوف (ﷺ)؟

وقوله (١٥٧):

عَلَـــتْ نيرانُـــو في أجَّـــنْ ومِـــنْ غــيرْ زَورَه مـــا بفِجَّـــنْ

والله كأنّي به يستمع إلى سؤال وجواب إحداهن لإحداهن: وِليدِكْ الحُمَّى مَا فجَّتْ مِنُّو؟ فتُجيبُها: (والله فُوقُو نيرَانْ الدِّهن).

- انظر إلى التعبير عن الأسف في قوله عن أعداء الإسلام (١٥٢):

ضَجّــوا ويكــوا وندمــوا وسفَّوا التُّــراب

وتذكر قولهم: والله ندمان سافِّ التراب.

- وتأمل هذه السّودنة أيضاً لمعجزاته (ﷺ) في قوله (١٤٠):

والأعْمَــى المطــوِّل شَــافْ

مثل قوله: **داوى المرضان زمن**، أي منذ زمن متطاول.

وقوله (١٣٧):

مِـــــنْ أيَـــــكْ البَـــــرَك والقَابِـــــضَا الـــــشَّرَكْ

والطّيْـــــر الانعَـــــرَك وابْ سِـــــمْ الأخْبَـــــرَكْ

هذه هي السَّوْدَنَة، هل قالت كتب السيرة (القَابِضَا الشّرك) أو قالت عن رفيف الحُمَّرة بأجنحتها (الطير الانْعَرَكْ) وهل أوصلت المعنى بأقرب سبيل أم لا ؟

واسمع قوله عن صاحب الشريعة (١٢٢):

لـي الشَـرِعْ تَاجَـر وارْتَضَـى الكـروة

والكروة: الأجرة.

وقوله (٧٢):

تحفظنَـــــا مِـــــنْ مَـــــشْنَى ومَـــــا نْـــــشوف لِجـــان شِـــشْنَهْ

لما فيها من التقدير العشوائي الجائر الذي تقوم به هذه اللجان.

وقوله (٤٧) :

بعـــــدْ ذَا يَـــــالخير فينـــــا خـــــير أعمـــــل

وهي بتمامها كما نقول (يا فلان اعمل فينا خير وافعل كذا وكذا).

وناهيك بقوله (٦٥): **فوق نبيك أضرع** و(**فزنابا غير كَشَرة**) (٦٩).

وغيرها مما أعياني حصره من هذه الأساليب التي زادت هذا الديوان جمالاً على جمال ومنحته كمالاً فوق كمال.

هذا ولم ينقض حديث التراث فقد بقيت كلمة عن بعض مظاهره وأدواته ومفرداته، منها ظاهرة (السّودنة) التي مر بك طرف منها وأصل السّودنة عندي أن تؤخذ مفردة السِّيرة النَّبويّة أو المعلومة منها وتصاغ بلغة أهل السُّودان كنحو ما مضى بنا قبل قليل، فقد ورد في السيرة أنَّ رجلاً فقد بصره زماناً ثم أتى النبي (ﷺ) وكان ما كان، فقال الشاعر (الأعمى المطوِّل شاف) ومنه حديث الحُمرّة التي أخذ بعض الصّحابة صغارها فجاءت ترفُّ فوق النبي (ﷺ) فقال الشاعر (والطير الانعرك) يقال هذا للإنسان حين يظهر غاية الاحتجاج والغضب من حيف لحق به. فأخذ الشاعر المعلومة وصاغها بعبارة يرى أنَّها تقرب المعنى ... ومن ذلك قصة النسوة اللائي ورد ذكرهن في حديث الميلاد وأنهن جئن إلى آمنة وصفتهن كذا وكذا، فتخيل الشاعر أو أراد أنْ يتخيل معه المستمع أنهن جئن يقلن لها (حمداً لله على السلامة) كعادة نساء السودان فقال (١٥٤):

لمحمـــداً

مِـنْ الجنــان حــينْ جَـا جَـنْ خُـرّداً   لـــي آمنـــة بالعافيـــة يَتَحمَّـــدَنْ

لهذا المولود حين ولد جاءت نساء حِسان من الجنّة يحمدن لآمنة العافية. فقالها الشيخ بلغة أهل السُّودان (مشينا نتحمدل أو نتحمد السَّلامة لفلان) أي نقول له حمدالله على السلامة.

ومن ذلك أيضاً أن يسمع الشاعر بسيوف الصَّحابة وأصالتها وعتقها وما تفعله في الأعداء، فيختار من البيئة السُّودانيّة سيوفاً مشهورة لم يسمع بها الصّحابة ثم يجعلها لهم ويجعلهم يحملونها ويقاتلون بها ليقرب الصورة إلى المتلقي المُلِم بسيوف السودان والعارف بأثرها فتكون تلك عنده كهذه مضاءً وأثراً، فاستخدم (أب جقيقة) ، (الدكاكر) و(أب درو) و(الجمجام) وهي سيوف تراثية شهيرة أشهرها الأخير وهو سيف الأمين ود مسمار أحد ملوك العبدلاب، والدكاكر واحدها (دُكَّري) وهي منسوبة ومعروفة بدكاكر نوَّه وهو ودنَوَّه الشنبلي الذي جلبها من شرق السودان قبل مئات السنين ... ومع أنها سودانية كما ترى فإنَّ الشاعر جعلها بأيدي الصحابة لأنَّ أهله يعرفون هذه ولا يعرفون سيوف الصحابة إلا بصفتها التي تنطبق على صفة سيوفهم فقال:

- شايلين ابْ جقيقة الودَّر   حدو المفرق الله ان قدَّر
- حين مَخَّ (اب درو) لا بخاف ولا مَقّقْ (٤٤٩).
- بي أُمْ لَبُوسْ ولِجَامْ   وابْ دُرو النَّجمنجام (٩٨).
- صحبو النّواجِم راكبة أمْ لَواجِمْ   شالوا النجمانْجِم وافْنُوا الأعَاجِمْ (٢١٠).

وستمر بك صور من ذلك إن شاء الله في مبحث وصف الصّحابة عند الشيخ.

والناس في تراثنا الشعبي يعرفون النجوم ويهتدون بها وعليها حسابهم الذي يحتاجون إليه في حِرَفهم المختلفة يعرفونها بأسمائها وأبراجها ولهم في ذلك مختصون يرجعون إليهم فوظّف الشيخ رحمه الله هذه المعرفة في خدمة المديح، فلم يكد ديوانه يخلو من ذكر نجم أو برج مما هو دائر على ألسنتهم استفاد منها في تحديد جهة البرق ونحوه فذكر الجوزاء (٣٥٨) والحوت (٣١٣) وزحل (٣١٠) والثريا (٣١٣) والمريخ (٣٥٤) والسماك (٣٤٢) والجدي (٣٠٥) والعنقريب (٣٠٥) وسعد السعود (٢٧٦) وبقية السُّعود بأسمائها ذابح وبلع ونحوه. قال في بعضها (٢٧٦):

بـــين الجـــدي وبـــين الـــسعود   شـــفت البريـــق يَغَبَـــا ويَعُـــودْ

وسيأتيك تفصيل هذا إن شاء الله مع المواسم والاتجاهات ونحوها في حديثنا عن البروق في هذا الديوان فهي مبحث نفيس متشعِّب.

ولم ينس الشيخ أدوات الزينة وأنواع النسيج وحتى العملة، كلها ذكرت وكانت تخدم قضية المعنى في هذا الديوان. وهي من بعد سجل تاريخي لأنَّ معظم ما ذكر عنده أصبح الآن خارج نطاق الاستعمال وبقي تراثاً وأثراً.

فمن العملة ذكر الدرهم والدينار (٤٤١) والقرش (١٥٩) والمليم (١٥٨) والدمج وهو أقدم ضروب العملة جاء في قوله (٤٠٦):

نَمَـتْ النقـود ذهـب الهمـج وابلـغ كـثير عـوِض الـدمج

وذكر العملة التركية، ومنها (البارة) ولعلها أصغر وحدة كالمليم عندنا لذلك حين مدح زهد الرسول (ﷺ) قال (٤٩٠):

نبيـاً مـا ادَّخـر في بيتـو لـو بـاره كـان لـي أُمَّتُـو ولـي القَبْلَهـا جبـارة

وذكر عملة أهل الحجاز والوافدين عليهم، من ذلك قوله عن مكة (١٢٦):

البلـد الفـيِ البَلَـلَ والـرُّبِّ والهلـل

أو قوله (٥٣٣):

جُـود رَبِّـي بالحَلَـلْ مِـنْ كِلْبِـيشْ الزَّلَـلْ

أرَى مكّـة أمْ قُلَـلْ بلـدْ الـرُب والهَلَـلْ

فالربية عملة الآسيويين من هنود وباكستان ونحوهم، والهلل عملةَ الحجازيين.

ومما ذكره من أدوات الزينة سوى الدر والياقوت والجوهر والذهب بأسمائه كالعسجد والنضار والتبر، وكذلك الفضة وغيرها من المعادن النفيسة، ذكر أيضاً ما يصاغ من ذلك كالوشحات (جمع وشاح) والأسورة والتلال والطوق ونحوه، قال (٤٤١):

الـزُّمَلا الْبـشِيلو والْخَـدَمْنِي حُـوَارْ فـوق حُلَـلْ القَبُـول أكْـسِيْها بـالأنوارْ

حَجّلُـم الْبـسُم كُمِّـينْ سُـوَارْ وسُـوار مِـنْ بَعـد الوِشَـاحْ بالهَيْبَـة لا البـوارْ

أراد لزُمَّاله والذين يرددون الصلاة (البشيلو) ومن خدمه، هؤلاء زيادة على الحلل والكساوي المعنوية من نور وقَبُول ونحوه يريد لهم حللاً حسية ومعنوية يلبسونها منها الحجول والأكمام والأسورة والوِشاحات مكافأة لهم. وذكر هذا المطلوب في دعائه له ولزُمَّاله (٤٣٩):

أمْنَحْنَـا القَبُـولْ فِـي البَـدْوِ والحَـلاّلْ والقُـرَى والبَنَـادِرْ لا يـصِيبْنَا مَـلالْ

بِـي طـوق الخلـوصْ طَوِّقْنَـا والإجْـلالْ   والْبِـسْنَا الوَقَـارْ وِشْـحَاتُو والـتِّلالْ

وليس ههنا: أطواق ولا وشحات ولا تَلاَّل وإنما هي أَلْبِسَةٌ معنوية سأل الله أن يجعلها عليه وعلى زمَّاله خدمةً لهذه الرسالة التي انقطع لها والتي يمثل هذا المقطع أكبر الشواهد على تفانيه فيها وانقطاعه لها.

وذكر أيضاً الحرير والخز والسندس والجوخ، مثلما ذكر ما يصنع منه من ملبس ومنسوج محلياً كان أو مجتلباً، فذكر القوف والعلج والقنجة والكساوي عموماً، وذكر هيئتها والعناية بها، كله في سبيل إيصال المعاني، قال مثلاً (٣٥١):

ارتحـت في الـدارين راحـةً بعـزِّن   ورقـوت فـوق فُرُشـاً عـالْ قُوفَـا خَـزّن

واستخدمها في تشبيه لِينِ كَفِّ الرسول (ﷺ) (٤٠٧):

- لِينْ كفُّو فـاقْ لين العَلَج.

وأوردها داعياً أيضاً في إحدى صلواته (٤٠٨):

- يكسيني سندس مو قِنَجْ.

لأنَّ السندس من لباس أهل الجنة أما القنجة فرخيصة خشنة وهي مما يلبس في الحِداد.

هذا ما بلغه الجهد ولو قصد باحث الاستقصاء لأخرج أضعاف ما أخرجنا ولكنَّا أردنا أن نبيِّن فقط أنَّ هذا الرّجل مثلما عاش في مدح النبي بكلياته وجزئياته كان كل ما حوله حاضراً كحضوره فاستخدمه بمهارة لخدمة المعاني النفيسة التي أمرضته وأعيته وأراد أنْ ينقل حُمَّاها إلى غيره كحالنا تماماً فأمْرَضَنَا معه فإنَّ ما نُحِسُّ به تجاه هذا الديوان لا ينفع فيه إلا الصَّراخ أو (ضَرْب الرُّور).

الباب الرّابع:
في هيكل القصيدة عند الشيخ حياتي:

المطالع والاستهلال

المعجزات والخصائص

الصّحابة

البروق

الصلوات

المطالع والاستهلال

يغلب على قصيدة المديح النّبوي أن يتلو مطلعها مقطع التوحيد المذَكِّر بعظمة الخالق وقدرته وعلمه ورزقه، وغير ذلك من صفاته، لكن هذا المذهب قليل جداً عند الشيخ حياتي استعاض عنه بالدُّعاء والوعظ ولوم النّفس وتبكيتها وذم الدُّنيا وهموم المسلمين.. ومما ورد في ديوانه على مذهب المادحين في الابتداء بالتوحيد قوله (٢٥٣):

لا لَـــي قُـــوَة وحَـــوْلا	إلا بـــاللهِ المُـــسْتَعَانْ ذِي الطَّـــوْلا
حَـــسْبِي نِعْـــمَ المـــوْلَى	النَّـصِيرْ لَـيْ لا لِـي وَكـيلاً لَـوْلا

وقوله (١٩٣):

هَـــاكْ الجَـــدْ	أعْبُـــدْ مَـــنْ لـــك أوْجَـــدْ
لا يَجْزِيـــك أبَـــي أوجَـــدْ	أعْمَـــلْ بـــالخلُوص تُنْجَـــدْ

أمَّا غالب أمداحه فقد استهلَّها بالدّعاء وأحلّ فيها مقطع الدُّعاء محلّ مقطع التوحيد. والدّعاء مخ العبادة وأُس التوحيد ولا يلجأ إلى الله ويدعوه إلا موحِّد، فهو وإن جَدَّد في المذهب إلا أنَّ الالتجاء إلى الله في كل ضروب دعائه إنَّما هو من لب التوحيد، بل هو التوحيد بأسلوب جديد بدأت بواكيره مع الشيخ أحمد ود سعد والشيخ أحمد اب شريعة وأضرابهما.

والدُّعاء في أوائل المقاطع مما يتلو مطالع القصائد في ديوان الشيخ حياتي ضروب وأشكال، منه الدُّعاء لنفسه وأهله وزُمَّاله وأمة المسلمين وركَّز فيه على ذم النّفس وتجنب اتباع الهوى وشحنه بالوعظ والتذكير وشحذ الهمم والنَّهي عن الركون إلى الدّنيا. وشغل الدعاء بالتوفيق في رسالته الأساسية، وهي المدح، مساحة كبيرة في مقاطع الدعاء. وأكثر من الدعاء لتيسير أمر الحج والعمرة والزيارة ولم يُخْلِهِ من ذكر هموم المسلمين والدعاء لهم خصوصاً حين تنزل بهم النّوازل من أوبئة أو قحط أو غلاء. وقد تفنن في ذلك كعادته فكانت افتتاحياته المشحونة بالدعاء هذه تمثل استهلالاً موفقاً ومدخلاً سلساً لقصائده.

أمَّا النّفس فقد شغلت حيزاً كبيراً في استهلالاته، أفردها وجمعها وسمّاها النّفس والقرينة والأمّارة، وزجرها وأمرها وعرض أفعالها وشكاها إلى الله وكشف حالها (٥١):

نفـــسي رَاميَـــالِي	في جـوا الهَاويَـه أفعـالا هَاوْيَـالي
إنْ رأتْ دِرهَـــمْ أو أتَـــى ريَـــالِ	بُغْيَتـــا، في الخـير مَاهَـا سَـاعيَالي

❖❖❖

ناســـــيا لــــــــي وَعِيــــــــدًا	والجمـــع لـــي المـــال رغبتـــا وعيـــدًا
روضـــة الآمـــال فيهـــا هـــي قعيـــدا	يَـــا جَمِـــعْ بالـــدمْ حالتَـــا نعيـــدًا

❖ ❖ ❖

القـــــــــبر ناســـــــــــيه	ظلْمَتُـــو وضـــيقو ووحـــشَتُو القاســـيه
لَـــسْع حَيَّـــاتُو وعَقَـــارِبُو الراســـيه	كيـــف يـــوم أضـــحت في ويقـــت ماســـيه

مصير مفزع ينتظرها فلابد من تذكيرها و(تفديرها) (٥٤):

نَفْــــــسِي انْقَرعِــــــــي	الخَبيـــثْ لا تَهْـــوِي جَنَـــا وتَرْعِـــي
اســـلكي دومـــاً مـــسلك الـــشَّرِعِ	واصـــحبي التّقـــوى والزُّهـــد والـــورعِ

ويواصل الطَّرق (٣٠):

نفـــــــــسي اعْتَـــــــــبري	ارجعـــي وتُـــوبِي قبـــل تنكَبْـــري
مَـــسْلَك التَّقـــوى فُوقُـــو اصـــطَبْرِي	والـــوَرِعْ والحـــقْ قُـــولي لا تبْـــري

ويزيدها تذكيراً بقوله (٩٣):

نَفْــــــسِي مَــــــالِي أراكِ	نَاسْـــــــــــــيه الله وَراكِ
لَـــــنْ تَريـــــه يَـــــراكِ	سَـــــــوءتِك بَـــــاتْرَاكِ
مِـــنْ العَمَـــلْ فَـــاقْرَاكِ	لـــيشْ تَقِلِّـــي حيَـــاكِ
حَفَظتِـــــكْ بَاريَـــــاكِ	أطـــــرِي لِلْرَاجْيَـــــاكِ
يَـــا ونيَّـــه هَيَـــاكِ	قَبْـــل يَـــأتي عَيَـــاكِ
أيـــنَ مَـــنْ تَحْجَـــاكِ	والـــذِّنُوب عَارْجَـــاكِ
خِبـــتِ خَـــابَ رَجَـــاكِ	الغَـــرِيمْ هَـــدَ جَـــاكِ

امْ جحِـــــــيم فَارْجَـــــــاكِ

وهو يصوِّر النّفس تصويراً لا مزيد عليه فيقول (٣٥٩):

مِـــنْ سَـــهْمِةِ الطَّاعَـــاتْ ذي نفُوسْـــنَا جَافْلَـــه	وجيُـــوش أبِـــي مِـــرَّه فـــوقْ ذاتَـــا حَافلـــه
مَـــا الله عنهـــا بغَافِـــل وهـــيَ غافلَـــه	لم تَعْتَبِـــر بِـــالموت وأيَّـــام آفلَـــه

❖ ❖ ❖

لـــي مَغْـــنَم الـــشَّرِّ في الوقْـــتِ حاصْـــلَه	ولمغْـــنَم الخَـــيرِ إنْ سُـــقْنَاهَا نَاصْـــلَه
تَرْضَـــى الْهَـــزَلْ والجَـــدْ لـــي حِظُوظـــه فَاصْـــلَه	مُهْتَمَّـــه بـــالرِّزقِ المِـــنْ الله واصْـــلَه

❖ ❖ ❖

أَعْيَتْنَــا فيهَــا الحِيلَــه أبَــتْ الفِطَامَــه وأمْــواجْ هَواهَــا هَــوَى بِنَــا الْتِطَامَــا

مُغْتَــرَّه بالفَانْيَــه الْمَــسْمُومْ حطَامَــا لَــمْ تَــذْكُر الحُطَمَــه وحَــرْ احْتِطَامَــا

ووصفها في غير ذلك بأوصاف تُطِيرُ القلب فزعاً وهو يحكي عن نفسه هضماً ولكنه يوجه الرسالة لعموم المتلقين لمديحه من الأحباب. ثم يأخذ في الدعاء لها بالهداية (١٩٣):

اسْــتُر يَــا جميــلْ الــسِّتْرُ عَبْــدَك الــنَّفِسْ لا تْبُتْــرُو

أي لا تقطعه عن الطاعات. ويستمر (٤٩٤):

أَجْلِــي يَــا ذَا البَقَــا نفُوســنَا أدْنَاسَــا زوِّدا بــالتُّقَى بيــكْ واجعَــل ايناسَــا

تمْــلا الطَّاعَــه فيهــا وتجمَــعْ أجْناسَــا تَبْقَــى الأخْــرَه أوَّل نمــرَه في نَاسَــا

ويتواصل دعاؤه (٤٦٤):

الــنَّفِسْ المــسِيئة الطَّامْحَــة تِتْفَــدَّرْ وأعْمَــالِي التطيــبْ مِــنْ قبــل مَــا اتْحَــدَّرْ

وأبدع في استخدام الفعل (تتفدَّر) كأنها تغلي وتفور حتى تطمح وتسيل كالقدر على النّار. وأبلغ منه قوله (من قبل ما اتحدَّر) والتحدر رقدة خروج الرّوح.

ويسأل الله السيطرة عليها كما شرحناه في فصل الكناية في قوله (٨٩):

ابقــى يــا متعــالي نفــسي تحــت نعــالي

مذعنــه وتابعــالي واحمــني وارعــالي

ويسميها القرينة وهو أحد أسماء النّفس ويسأل الله أنْ يحول بينه وبينها (٢٠٤):

بــيني وبــينْ قَرِينْتِــي حيــلْ دَومَــاً جِــسْمِي يَبْقَــى نَحِيــلْ

هَــايِمْ مُــسْتَعِد لرَحِيــلْ دَار الآخْــرَه غــير تَوْحِيــلْ

ويستطرد في تذكيرها وتخويفها (٩٥):

يَــا قَرِينْتِــي مَالِــكْ فِي مَجَــال ضَــلالِكْ

تُهْــتَ شِــنْتِ اعْمَالِــكْ الحَيَــاة الغَارَّالِــك

عَــنْ قَرِيــب تَفْنَالِــكْ

القَبُــر لمآلِــكْ مِــنُّ عَــادْ كيــفْ حَالِــكْ

يَــا خَبيثَــه هُنَالِــك لا مَفَــرْ ولا لِــكْ

حِيلَــةً فَاكَالِــكْ

إنْ أجِبْــتِ سُــؤالِكْ بَرْزَخِــك يَحْلالِــكْ

حَــسْبَما أعْمَالِــكْ الْمَفَــازْ بِــه يَالِــكْ

عِلِّــيينْ هنْيَالِــكْ

ويسميها الأمّارة، ويعني أمرها بالسوء لا بالخير ويشكو حالها إلى الله (١١١):

إلاهـــي أمّـــارتي مُتْعَاليَـــه وللقُـــرآن لَـــسْ تَاليَـــه

ولا وِرْدْ الـــصَّلاه مُواليَـــه ولا تَايْبَـــه ولا مُبَاليَـــه

مِـــنْ الطَّاعـــات طُـــرْ خَاليَـــه وفي صـــنوف العِيُـــوبْ ماليَـــه

ويتكرر ذكرها (١٨١): الأمَّـــــارة لِعبـــــتْ بينَـــــا

وأيضاً (٣٠٢): أمَّـــــارْتي مَـــــا أجْهلـــــكْ

وكذلك (٣٢٩): إلاهِـــــي أمَّـــــارتي أسْـــــحَقْ

قلت ويستعمل النَّفس مفردة كما مضى وقد يجمعها كثيراً ليعمم الخطاب لإخوانه ولكنه خطاب يذيب الصخر (١٦١):

نِفُوسْـــــنَا النّتْنَـــــه بـــي آمـــالا الفَاسْـــدَه غرَّتْنَـــا

تبعنـــا قايـــدَ أعْنَتْنـــا هَواهَـــا بـــه في لَظَـــى أهْوَتْنَـــا

بَاغْـــضَه صَـــلْحَتْنَا رضـــاهَا التَّـــام في مَـــضَرَّتْنَا

الحَـــسَدْ والـــبُغض الجَفَـــا الْفِتنَـــه الكـــبر والحقـــد انْجِبَالْتنَـــا

مِـــنْ مُـــصيبتنَا الـــصحيح نَـــابَ ونَرْضـــى كـــذْبتنَا

النَّمِيمَـــة الغيبـــة أيَّ لَهْجَتْنَـــا المكـــر والغـــش طَاوْيَـــه نِيَّتْنَـــا

ايْـــنَ طِيْبَتْنَـــا الـــسُّحت مَـــا دامْ صَـــارْ مَعِيـــشَتْنَا

والرِّيَـــا والآخـــره أعْمـــال فاتَتْنَـــا في الحيـــا كِعِـــبْنَ كيـــفْ إنْ مُتْنَـــا

داحـــضَه حُجَّتْنَـــا حـــينْ مَجِـــي الأمْـــلاكَ وَسْـــط حُفْرَتْنَـــا

مَـــا لَنَـــا أعْمَـــالاً مِنْهـــا نَجَّتْنَـــا طـــال عـــذَابْنَا بِهَـــا وطَـــايْلا وحـــشتْنَا

يـــوم قِيَامَتْنَـــا والـــصُّحف تُنْـــشَروا فَـــضِيحَتْنَا

ناطْقَـــا بـــي الأعـــضا الخجْلَـــه كَالَتْنَـــا لا مَفَـــرْ لَنَـــا ويـــن ســـلامَتْنَا

وأذكر هنا بانسياب بعض ألفاظ القرآن بسلاسة في شعره (داحضة حُجتنا) و(الصحف تنشر) و(لا مفرَّ لنا).

ويقترن بحديث النّفس الذي اختصرناه جداً، حديث الاعتراف بما جَلَبَهُ عليه اتباع هذه النفس وهو ضرب من هضم النّفس أراد به أن يكون أنموذجاً وأسوة لأحبابه يقرنه دائماً بالدعاء لله تعالى بالخروج من حبائل النّفس وغوائلها (٤٨):

القلـــــــبْ مَكْفِــــــــي والــدّليل واضِــحْ مَــأ عَلــي تكْفــي

هــا عكـف بالبـاب يـا كـريم عكـفِ أكْفِـني نفـسي وأكْفِـني التَّكْفِـي

انظـر هـذا الجنـاس الـضارب الطـارب وتكـرار مـادة (كفـى) ومـشتقاتها هـذا التكـرار الشّجي... فالقلب المكفي المغلق والشاهد الكافي هو حالته التي هو عليها. فيسأل الله أن يكفيه نفسه، لأنَّ ذلك إذا تحقق فسيكفي غيره ويرشدهم.

وفي أحد استهلالات (القلاقل) يقول (٤٦٤):

عمْـرِي بالأسـف في الطَّاعَــة مــا بـدَّر في الطغَــى والمَلاهِــي المُفْــسداتْ وَدَّرْ

وانْتَحــلْ الجـسم مــن الـدنوبْ جَـدَّرْ والعــيش الهَنِــي بعــد الـصَّفَا اتْكَــدَّرْ

والحـالْ ضَـاقْ بـيَ وزرعـي الخَـصِيبْ عـدَّرْ أرْجـوك يَـا كَـريم مَـنْ لـي الكيـانْ قَـدَّرْ

بــالنّبي والــصّحابَه النَّــصَّرُوا النُــدَّرْ الــنَّفِسْ المُــسيئة الطَامْحَــه تِتْفَــدَّرْ

وأعْمَـالِي التَّطِيــبْ مِـنْ قبـل مـا اتْحَـدَّرْ وأشْـرَبْ مـنْ كـؤوس أهـل الفيُـوضْ والـدَّرْ

❖❖❖

أسْــلُكْ مَــسْلَكُم لا أفْنَــى لا أغْتَــرْ وانْرَصِـدْ اسْـمي معهُـم بـاطِنْ الـدفتَرْ

وارِدْ خيرهُـــمْ يَكْتَــرْ عَلَــى يَكْتَــرْ في الحَيَـا والممـاتْ فـوق جـاهُمْ اتْبَخْتَـرْ

والجـاه العَمِـيمْ فـوق سِـيدُو بتْبَخْتُّـرْ إنْ كـــان طايعـــاً أو عاصـــياً أشْـــتَرْ

مِــنْ شــان انْحَـسَبْ غنَّــايُو يَاهَــا انْتَـرْ مِــنْ حَــال البَطَــرْ والله مَــا بَنْتَــرْ

غنَّــاي الملــوكْ في الــدُّنْيَا مــا ادَّعْتَـرْ جلُّــوا واكْرَمُــوا كَرَمَــا ولــو أبْتَــرْ

إيــشْ حَـالِي أنَـا المِـنْ قُمْـتَ مـا فَتَّـرْ مِــنْ عَــالِي الجِنَــابْ خَــدَّامْ اتْكَنْتَــرْ

وقد مضى شرح بعض هذا المقطع العجيب في (قدر المديح) عند الشيخ. وبقيته واضحة مبينة عن غرضها. وأنبّه على بعض أساليبه المعبرة كقوله (النفس الطامحة تتفدّر). وينشد بعض المادحين (زرعي الخصيب عدَّر) وهي لعمري أوقع لأنَّ العدار زرع كاذب.

ومن أبيات هضم النّفس المعبرة قوله (٣٦):

مَــــا اســــتمر يُـــومِي بُغْيتِـي الأكْـلِ الـشُرْبِ والنَّـوْمِ

لا صَـــلاة لا قِيـــامْ لا ولا صـــومِ وَا ضَـيَاعْ كـبرى الأبْطَـا مِـنْ قـومي

الجَهــــــلْ تـــــومِي والهَـوَى اسْـتَعبدني وبـاح سـومِي

في مرَاتـع الـشّر والبطـال حُـومِي في بحَـار الغيـبْ والخطَـا عُـومِي

ثم يسأل الله التوبة والأوبة إلى طريق الحق.

ومن أروع أبيات هضم النّفس قوله (٢٧٢):

مِتْزَيِّـــي بـــي دِيـــنْ الكِـــضِبْ   مُتْلَبِّـــــساً بــــه مُخْتَــــضِبْ
عِيـــشْةَ الكَهَانَـــة والجّـــضِبْ   وإنْ مَـــسَّنِي الــضُّرْ حَـــالْ غِـــضِبْ
ضَـــيَّعْت عُمْـــري أنـــا في اللعـــبْ   وا شُـــومْ حَظِّـــي ولُـــومِي عِـــبْ
عنـــد الخلائـــقْ طُـــرْ كِعِـــبْ   في الله والنَّبِـــي مَـــا تِعِـــبْ
مـــن الـــذِّنُوبْ جِـــسْمِي جِـــرِبْ   واسْـــوَدَّ قَلـــبي جُـــوَى وخِـــرِبْ
راحْ الـــشَّبَابْ والمـــوتْ قِـــرِبْ   بيـــتْ العَفَـــنْ في بَنْتَـــرِبْ
مـــن المَلَـــكْ ويـــنْ الـــدَّرِبْ   خِلِّـــي البِحِـــلْ مِـــنْ الـــضَّرِبْ
إن لمْ أُجَـــبْ صِبـــرْ في كَـــرِبْ   وإنْ كـــان أُجِـــبْ نِعْمَـــة وطِـــرِبْ

هذا سوى (هضمياته) العجيبة اللُّغة كقوله (١٦٦):

مـــوْلاي عبْـــدَكْ عَـــصَا   ومَالْكَـــاهُ الفَلْقَـــصَه
بَـــانْ شـــيبُو وعصْعَـــصَا   وشَـــارَفْ شـــيلْ العَـــصَا

ثم دعوة من جنس كلمات الهضم السابقة (١٦٦):

عَمَـــى ذَنْبُـــو الْمَـــا انْحَـــصَى   الأكْثَـــرْ مِـــنْ الحَـــصَى
بـــي جَـــاه الحَصْحَـــصَا   الحـــق، يَتَمَحَّـــصَا

لغة وإبداع وفوائد، بجاه الذي حصحص الحق بمجيئه أسألك أن تُمَحِّصني وتُنَقِّيني من الذّنوب والتبعات.

هذا سوى (٢٣٨):

غَـارَّني اللاهِـي كَـسُولاً دائمَـاً لاهِـي   أعمَـالي ذايبَـه بـالله

أو قوله (٣٦٢):

يَـا مَـنْ حَلـيمْ أنـا كُلِّـي عيـبْ   اسْـتُرني في الـزّمن التعيـبْ

أو قوله (٦٢):

قَـــارْ بـــإبْرَامِي   مـــن طريـــق الحـــق، ربِّـــي لـــي رَامِـــي
لـــي الهـــوان هـــواي، صَـــيَّرْ إحرامِـــي   أرجُـــو مـــن فـــضلك مَحْـــو إجْرَامِـــي

معترف بتحوله عن طريق الحق، وهواه رمى به في الهوان وصيره محروماً ويسأل الله محو جرائمه التي ترتبت على ما سبق.

ويبالغ في التقليل من شأن نفسه وعمله في أخت هذه القصيدة (٩٧):

مَرْبِـــــي أكْلــــي حَـــــرَامِ　　　والمعاصـــــــي مرامـــــــي
صـــــار بـــــذا إحرامـــــي　　　ربِّ عفـــــو اجرامـــــي
بـــــــالنَّبي وإكرامِـــــــــي

والرَّجل بارع في التعبير عن نفسه والتعبير عمن يتبنَّى حالهم ويتحدّث بلسانهم. فما الحلّ له ولهم من هذه الحالة المتردية؟ الحل هو اللجوء إلى الله تعالى والإلظاظ في الدعاء والتعلُّق بصاحب الحوض المورود ووعد الشفاعة الموعود فينتهج منهج الوعظ لنفسه ولإخوانه في كثير من استهلالاته ويحض على الدعاء والتقوى والصلاة على الرسول (ﷺ) (٣٤٦):

أدعــوا كَريمَــاً حَــي سَــامِع نــداكُمْ　　　قـــال أينمـــا كنـــتم كنـــتُ معـــاكُمْ
خـــافُوا اتقـــوا يمـــلأ بالـــسِّر وِعَـــاكُم　　　ويعـــين رضـــا لـــيلاً أوْضَـــى رَعَـــاكُمْ

❖❖❖

فَعَلَـــى نبَـــيٍ صَـــلُّوا وديِمُـــوا بُكَـــاكُمْ　　　يَظْهَـــر لكُـــمْ شـــأناً يُحمـــد زَكَـــاكُمْ
وبَنَـــانْ أيَـــادِي العِـــزَّة مُمَرِّكَـــاكُمْ　　　وعَلَـــى المراتـــب العُلْيَـــا يَـــكُ انْتِكَـــاكُمْ

ويمضي في الوعظ في (قاموا الرباعة) وينبه على أمور مهمة منها (٢٥٨):

هَيَـــــا يَـــــا رباعـــــــه　　　خَلُّـــوا الـــشَّبَع بِلْحِيـــل والاضِّـــجَاعَه
يَبْقَـــى التُّقـــى زَادْنَـــا ذِكْـــرَ المجاعَـــه　　　بـــالحزِم والعـــزِم وصـــبر الـــشَّجَاعَه
دِيمُـــــــــوا الـــــــــسَّراعَه　　　في الطَّاعـــه والانْفَـــاق غـــير انْهرَاعـــه
زِيلُـــو الـــشُّبَه جَمْعَـــاً واعنُـــوا الوَرَاعَـــه　　　سَـــوُّوا الخِلُـــوص يَـــا قُـــوم بِـــذر الزِّراعَـــه
صَـــــــــف الجَمَاعَـــــــــه　　　لازْمُـــوا الزمُـــوا وكونُـــوا في الـــرَّبْ طَمَاعَـــه
وأيـــضاً مـــدائح الخـــير والُـــو اســـتماعا　　　بالحُمَّـــــدْ الأيـــــام والانْجِمَاعَـــــه

يدعو إلى الإقلال من الطعام، فالبطنة تذهب الفطنة، والذاكر مُخِفٌّ، كما يدعو إلى ترك النوم العميق واجتناب الشّبهات ولزوم الطاعة والانفاق وصف الجماعة ومديح الخير لأنَّ فيه مثل هذا التذكير.

ويعظ إخوانه وعظاً رفيقاً شفيقاً ويذكرهم بالرجال الذين عمروا أوقاتهم بالطاعات فيقول في هذه القطعة المؤثرة (٢٧٥):

أحْــسَن لَنَــا أخْـوَانِي البَــدَارْ	في الطَّاعَـــة قبَّـــال الـــوَدَار
بَـــاقِي العُمُـــرْ لا يـــروح فـــدارْ	الــــدُّنْيَا دار والآخــــره دَارْ
اســـتغفَرُوا ذِنُـــوبْكُم كُتَـــارْ	تُوبُـوا انْهَـضُوا هَيَـا يَـا فتَـارْ
الكَــدْ وَجَــدْ والبِمْــشِي تَــارْ	والله مَـــا بْـــشُمْ الكتَـــارْ
شُــوفوا الرِّجــال أهــل العمَــارْ	كيــفْ شَـمَّرُوا قَبْـل الــدَّمَارْ
صَـانُوا النِّفُـوس واسْـقُوها مَـارْ	وصْـلُوا ارْتَـوُوا وجَنُـوا للثِمَـارْ
مــن ذلـــك اعْتَبْـرُوا اعْتِبــارْ	هَــلْ يَــسْتَوِي الفَــاجِرْ وبَــارْ
أو يَـــسْتَوِي الرَّيْحَـــان وبَـــارْ	شِــنْ في لكُــم جيْــب الخَبَــارْ
افْتَكْـــرُوا مـــوتْكُم افْتِكَـــارْ	قُبَّـــالْ رَفِـــيقْكُم يَـــأتي كَــارْ
مــا بِــدِّي فُــسْحَة بِقــى النَكَــارْ	مِـــنْ الولـــد مَـــنَّ البكَــار
بَعَـــدْ الفُـــرَاقْ مِـــنْ الأهَـــلْ	سَـــمْح البِمُـــوت انْ أمَّهَـــلْ
لكِنُّـــو مَاشـــي عَلَـــى جهَـــلْ	لَـــمْ يَـــدْرِ أمْنـــاً أو ذَهَـــلْ

عمد هنا إلى ضرب المثل في (الكد وجد) ومال إلى التراث، وقد مرّت بعض هذه الأبيات في مبحث التراث. ومن مقاطعه التي اشتملت على ضرب المثل واستنطاق التراث قوله (٢٨٠):

يَـــا غَـــافلينْ خَلُّـــوا الـــصَّدَدْ	توبـــوا انهـــضوا مـــن الهَـــدَدْ
صُـومُوا اسْـهَرُوا والُـوا العَـدَدْ	عَـــسَى عَـــلَّ تُحْظُـــوا بالمَـــددْ
قـــالوا الفِحُـــول الكَـــدْ وَجَـــدْ	واللِـــسْتَرَاحْ قَـــطْ مَـــا انَّجَـــدْ
سُـــبْلْ الطَّريـــقْ سِـــيرُوبو جَـــدْ	لاتْعَـــاينُوا لـــي أبْ أو لـــي جَـــدْ
اســـتغنُوا بـــي قـــول ود مَعَـــدْ	مَـــادَّاهو صـــادقاتْ الوَعَـــدْ
نِعْـــم البَـــذّلْ جَهْـــدُو اسْـــتَعَدْ	قبَّـــالْ حِلُـــول يـــوم الوَعَـــدْ

ويركِّز على التنبيه من الغفلة على نفس النّمط السابق (٣٠٠):

يَـــــا غـــــافلينْ اتْنَبَّهُـــــوا	خَلُّـــــوا الطّعـــــام وَجَبَّـــــهُ
والمَـــــا المبَـــــرَّدْ عَبَّـــــهُ	والعُـــــرْسِ والمـــــالْ حُبَّـــــهُ

إن لم تكونُـــــــــوا اشَّـــــــــبَّهُوا

أَطْـــــرُوا المَـــــاتِ ولَحْـــــدَهُ	وأَطْـــــرُوا الحَـــــشِرْ والْبَعْـــــدَهُ
واطـــــرُوا المهَـــــيْمِنْ وَعْـــــدَهُ	كُـــــلْ زُولْ عَلَـــــى مَـــــا عِنْـــــدَهُ

لا يَجْــــــــزِ وَالِــــــــدْ وَلَــــــــدَهُ

كَفَـــى وَعْظِـــي إنْ كَـــانْ تَقْبَلُـــوا بالتَّوبَـــــه بَـــــادْرُوا واقبلُـــــوا

مِـــنْ قَبْلِـــي بَـــابَ يَطَبِّلُـــوا واسْـــتَغْفِروا الهَـــوَى كَبِّلُـــوا

سُــــــومُوا النُّفُــــوسْ لَهَـــــا سَـــــبِلُوا

ويجمع الشيخ مقطع التوحيد مع مقاطع الوعظ فيقول:

أوْلالْنَـــــا فَـــــــالأوْلَى طَاعَتْنَـــــا لـــــي الْمَـــــوْلى

ذِي القُـــــوَّة والحَـــــــوْلا والعِـــــــزَّة والطَّـــــــــوْلا

يَـــــا اخْــــوتِي الجُمْــــــلا هَـــــلْ تَرْضُـــــوا وَعْظِـــــي أمْ لا

النَّــــــصْفَا مِـــــنْ عَمْلَــــــه والنَّجْتَهِـــــــــدْ نَمْـــــــــلا

مَـــــا أشْـــــوَمْ الطَّــــــالِحْ العَـــــــابِسْ الكَــــــــالِحْ

حَـــــقْ سَـــــادَ مَـــــنْ فَـــالِحْ إنْ كَـــــانْ عَمَـــــلْ صَـــــالِحْ

وله في (العيب شبابيات) وعظ يذيب القلوب، ولا يجمل اختصاره وابتساره هنا فاطلبه في فواتح تلك القصائد.

ووقف الشيخ عند الدُّنيا طويلاً ونهى عن الركون إليها (٣٥٢):

احفظنـــا يَـــا حـــافِظ واحفـــظ أســـومنا واصـــحِبْنا بـــالعفو وعافيـــة جـــسومنا

الـــدُّنيا لا تـــبرح عنّـــا وتـــسومنا والآخـــره تبقـــى تجـــاره ونـــاهي ســـومنا

ويسأل الله ألا تشغلهم الدنيا وألا يتعلقوا بها (١٠٥):

الــــدُّنيا لا نَــــرْغَلا لا تمـــس يـــدانا اعقُـــلا

وأعمالنـــــا لا تـــــرغلا وألبابنـــا بيـــك أشـــغلا

(الدنيا لا نرغلا) هذا من الكلام الفصيح إذ جاء في اللسان أن (رغل) معناها رضع في غفلة، لا كما ذهب إليه شارحو الديوان. وقوله (أعمالنا لا ترغلا) أي لا تصيّرها أخطاءً وهو أيضاً من الفصيح، قال في اللسان: أرغل: أخطأ ووضع الشيء في غير موضعه.

ويكني الشيخ عن الدنيا بقوله (المتاعا قليل) و(المُلْهيه القسّاعة) قال على الأولى (١٩١):

أزهَـــدْ فِي الْمَتَاعَـــا قليـــلْ وأطْـوِي الجـوف وأقـيم الليـلْ

أعْمَــل كُــل مَــا هُــو جَمِيــلْ طَرْفَــه عَــنْ الــشَّرِعْ لا أَمِيــلْ

وصرح بالدُّنيا ثم كنى عنها في قصيدة واحدة في قوله (٢٤٩):

يَـــا مَـــوْلاي هَـــبْ لـــي أنفاعـــا الـــدُّنَا، وانجـــى مـــن آفاعَـــا

أهْـــرُبْ مـــن جـــوارا رفاعـــه لـــي كـــاب الأمـــم شـــفاعا

أذر الملهيــــــــــة القــــــــساعة　　　مـــا أســـتَنَّ لـــو فَـــدْ ســـاعه
أوصـــل قـــبرو شـــافع الـــسّاعه　　　وأبـــرد نـــار هَـــوَا اللّـــساعه

فقال (الدُّنا) وسأل الله أن يهبه أنفاعها وأن يكفيه (آفاعها) أراد أفاعيها وحيَّاتها. وأبدع في قوله (أهرب من جوارا رفاعه) لأنَّ الهروب يكون إلى الوطن لا منه إلا إذا كان الموطن الذي يراد الهروب إليه هو الموطن الذي يأرز الإيمان إليه كما تأرز الحية إلى جحرها وهو المدينة النبوية. أمَّا الكناية الثانية ففي قوله (أذر الملهية القساعة) أي أترك الدنيا الملهية التي تصُدُّ عن الآخرة وتقسع.

ومما جعله مناط الدعاء في مطالع قصائده وفواتحها ولهج به وأكثر منه سؤاله المولى عزَّ وجلّ أن يفتح له أبواب المديح وييسِّر له الاشتغال به والانشغال به عن غيره كقوله (٣٣):

يَـــــا كَـــــريم ســـــــهمي　　　عَـــلِّ في الـــدَّارين واكفـــني الـــتُّهَم
وسِّـــع أخلاقِـــي أرْزاقـــي والفهـــم　　　وَارْدِي في الأمـــداح يَبْقَـــى ديمَـــا هَمِـــي
أجلِـــــي قلبِـــــي عَمِـــــي　　　مـــن نـــوال نعمـــاك أولينِـــي الـــنِّعَمِ
سَـــوِّ في الألـــسن والقلـــوب طعمِـــي　　　واشـــبع العُـــشّاق مـــن لذيـــذ دعمِـــي
انتَخِـــــــــــــــب دُرراً　　　عـــازَّة في المقـــدار بـــاللّآلي زَرنْ
خاليـــه مـــن ألحـــان خاليـــه مـــن زوراً　　　والـــسِّمع خَبَـــرَا أدَّى حـــالْ خـــبرا

وجعل سؤاله للتوفيق في المديح جسراً لغرض آخر مهم وهو (حسن الخروج) من الاستهلال إلى لُبِّ القصيدة وسأقف عنده لاحقاً.

ثم يقول مصرحاً منذ البداية بالدعاء لهذا الأمر (٩١):

يَـــا كَـــريمْ زيـــلْ حُجْـــبي　　　حِـــتْ رِيَـــائِي وعُجْبِـــي
والحَـــسَدْ ريـــد وجْبِـــي　　　كُـــل شـــيء ثَمَـــرُو أجْبِـــي
والمـــــديح ألهـــــج بـــــي
كَـــيْ أبيحُـــو أســـهَرْ بـــي　　　واسْـــتَلِمْ بـــه أربـــي
قبـــل أصـــير مُنْتَـــرِبِ　　　واسْـــقِني مِـــنْ شُـــرْبِ
أَهْـــل الـــصَّفَا والْقُـــرْبِ

ينشر هذا المديح ويسهر به إخوانه ويحقق به أربه ووطره.

ويرجع بنا إلى النفس الأَمَّارة، سائلاً الله إماتتها لأن في إماتتها إحياء القلوب (٣٣٣):

إلهـــي يـــا مميـــت يـــاحي بنـــورك ضـــي جنـــاني محـــي

ومِيــتْ أمَــارْتِي واحْــي لِحَــي بمَــدْحِي الْفِــي الْقُــرَى والْحَــيْ

ولاحظ التناسب الدال على الحضور التام، فقد سأل الله باسميه (المميت الحي) لأنه يريد منه أن يميت نفسه الأمارة ويحي جنانه ليحي أهل القرى والمدن.

ثم يستمر موضحاً غرضه من هذا المديح الذي هو حياة القلوب (٣٣٣):

بــه أشْــوي العَــشَاقَة شَــيْ وأمْــلا مِنْــهُ كــلَّ حُــشَيْ

بغــيرْ مَأْكَــلْ غَــدَا وعــشيْ لِوَجْــهِ الله لا لــي شَــيْ

❖❖❖

بقَلْــب صَــافِي نَــاقِي سَــليمْ ولا أقْــصُدْ بــه مَلِّــيمْ

سِــوَاكْ والمــصْطَفى يَــا عَلِــيمْ حَبِيبَــكْ دُونْ خَليــلْ وكَلــيمْ

أراد أن يحيي هذه القلوب وأن يصبح هذا المديح بعد ذلك هو أكلها وشربها. فيصحُّ توجهها إلى الله تعالى. وقطعاً هو يبذل هذا الجهد مع من يعي ويفهم ويُفْهِمُ غيره من أهل المحبة (١٢٣):

دائمـــــاً لا أهِـــــمْ لا اشــتغل بــي دينــار ولا درهــم

أنــشر الأمــداح بــي ســهاما أســهم لــي المحــب وأفْهِــمْ مــن يَعِـي ويُفْهِـم

يحقق كل ذلك وينجزه بماذا؟ (١٨٨):

بمـــديح عـــارز كالـــشمس بـــارز في القلـــب غـــارز وأبكـــى الغـــوارز

وهذا أوجز وصف وأبلغ تعبير، لأن مديحه نادر عزيز، ظاهر كالشمس ينغرز في القلب فتسيل العيون الجامدة الغارزة من قوة أثره وحسنه وهو كذلك.

وهو لا يني يربط بين التوبة والنجاة وبين المديح فيقول مخاطباً (٥٤):

عجلــي التوبــة ســوّي مــا ينجيــك وامــدحي الــدخري الغــير شــك حاجيــك

فالمدح عنده نجاة وحماية، وهو كذلك. وهو ما يكرره كثيراً كقوله عن نفسه ووقوعها في الهاوية وأنها لا خلاص لها إلا بالمدح (٢١١):

مـــدى الأنفـــاس بالـــشرور نَاويَـــه هَواهَـــا هَـــوَى بـــيَّ في الهَاويَـــه

فَــلالَ خــلاصْ غــير تكــون راويَــه لأبيـــــاتٍ للفنُـــــون حَاويَـــــه

ولـــــي ألْبَـــــابْ العاشـــــقينْ ضَـــاويَه

لأنَّ الممدوح هذا هو صاحب الزُّلفَى والقرب من الله (٣٩):

أمْـــــدًا غــــــير كُلْفَــــــه ... بـــي محبـــه ورغبـــه بـــلا سُـــلْفَه

فـــوق رســـولاً كـــل النفـــوس مَالْفَـــه ... كيـــف لا وهـــو الخُـــصّ بالزُّلْفـــه

وهو صاحب الشفاعة المستحق لهذا المدح (٩٣):

أمـــــــدحي اليرفــــــاكِ ... الــــــوفي الكافــــــاكِ

الــــــــشافع الفَكْفَـــــــــاكِ

ومن الموضوعات التي شغلت استهلال الشيخ حياتي لقصائده وافتتاحياتها بالدعاء، سؤال المولى أن ييسِّر له الحج والعمرة والزيارة والجوار، شغل هذا المطلب عدداً من افتتاحيات قصائده منه قوله (٦٨):

يـــــا مـــــن لـــــك الأمـــــرا ... عَنِّـــي اكـــشف الغَمْـــــره

بالحجـــــــه والعُمْـــــــره ... وبيكـــــــه والـــــــسَّمْرا

والمرضِـــــــــعَا أم ضـــــــــمره

جعل الحجة والعمرة كاشفة لما يغمر نفسه من هموم. وصرح بالحج والعمرة وكنى عن الكعبة بالسمراء وأراد سواد كسوتها؛ والعرب تطلق السمرة والزرقة والخضرة على السواد. وكنى عن الحبيب بالذي أرضعته أم ضمره وهي حليمة السعدية.

ودعا في واحدة من أخوات هذه المدحة (وهنَّ تسع من إيقاع الهمباتي) فقال (٧٩):

مــــــولاي في الــــــسُّلَمَا ... ابقـــــــيني والعلمــــــا

وارفعـــــني علــــى علمــــا ... مــــن فتنــــة الظُّلمــــا

اخـــــرجني غـــــير ألَمَـــــا

أرى مكـــه ذيـــك حرمَـــا ... ومدينــــــة الكُرَمَـــــا

عَلِّـــي أُحْـــظَ بـــي كَرَمَـــا ... وانفـــك مـــن الغُرمَـــا

وإهانــــــــة الــــــــصُّرما

وفي أخرى يقول (٣٠٨):

هـــب لـــي متـــاع رزقـــاً مـــريح ... والـــزم لبابـــك واســـتريح

وانظـــر قريـــب ذاك الـــضريح ... وأنْـــشُقْ بـــأنفي مِنُّـــو ريـــح

ريحـــــاً يَطِـــــبْ قلـــــبي الجـــــريح

وفي ثالثة (٤٣٤):

يــــا مــــن تــــدري ... حُـــب ملجـــاي مزعـــزع صـــدري

ســـهّل لـــي أســـافر بـــدري ... مـــن قبّـــال حمـــامي وحـــدري

أي من قبل الموت وضجعته.

وقد يطيل في الدعاء كما في القصائد التي اقتبسنا منها ما سبق وقد يختصر الدعوة كقوله (١٨٣):

مــــولاي زيـــن كـــبري	جرحـــي الـــدميم أبـــري
قبــــــال أرى قـــــبري	أرى نـــــــا في الكــــــبر

وقوله (٥٤٥):

اجعـــل ســـفرتي في رجــــب	لــي شــفّاعي أحــدى نُجــب

وقد لا يكون الاستهلال دعاءً بل يكون حَضًّا وطلباً لإخوانه أو شحذاً لِهِمَمِهِم للتوجُّه نحو الحبيب كما قال (١٥٤):

قـــــوم يَـــــا طبيــــــبْ	أعْـزل جُمــال ســاوْيَاتْ عاجبــه اللبيــبُ
فوقــا النَّـشيدْ نركــب نَعْنَــا الحبيــبْ	مَـــرًّا جَـــرَي ومَـــرًّا زحَّـــه وخبيـــبُ

أو قوله (١٥٢):

مَـــــنْ لَـــــس كَـــــسُوحْ	في الـــسِّكَه سِكْـــسِبْريسْ قـــوم النَّـــسُوحْ
نَجْفَــا البَنُــون والمــالْ نقــصُد لــسُوحْ	الأرسَـــلُولُو ولـــي إدَّانـــي الفَـــسوحْ

وقد يقرّع نفسه ويبكتها على التباطؤ من السير إلى المحبوب كما في افتتاحية (الحجيج يا ناس بالسّلامه) (٣٨٨):

أيُّهــــا المغـــــرُور إبْطَــــاك مَلامَــــه	مِـــنْ خيَـــارْ النَّـــاس نُـــور الظَّلامَــــا
أعْنَـــا سِكْـــسبريسْ خُـــش بالـــسَّلامَة	واقْـصُد المرْسُـولْ صَـاحبَ العَلامَــه

وقد يخلط الحض بالطلب والاعتراف والدعاء في آن واحد كما فعل في (برق العقيق لاح كحل) حيث قال (١٠٣):

يَـــا خـــلٍّ دَعْ لُـــومِي خَـــلْ	ممَّـــا بـــي حَـــلَّ ودَخَـــلْ
قلــــبي المفتُـــون اســــتَخَلْ	طِبِّـــي في شُـــوفة امْ نَخَـــلْ

❖ ❖ ❖

مَـــا نِعْنِـــي العيـــبْ والخَجَـــلْ	والـــذنب الفِـــيَّ انْكَجَـــلْ
هَـــبْ لـــي مَـــولاي بـــي عَجَـــلْ	زَورَة أَمَـــــانْ الوَجَـــــلْ

هذا وقد ذكرت في أول المبحث أن الشيخ كما نوع في أسلوب الدعاء نوَّع في من دعا لهم، نفسه وأهله وأحبابه وزماله والمسلمين، وقبل أن يختصّ نفسه بالدعاء اختصها بالوعظ والإرشاد والتقريع واللوم افتتح بذلك معظم (العيب شبابيات) كقوله في إحداها(٢٩٤):

يَا حياتي ثُوبْ وارْجع كِبِرْ　　إنّي اَرَاكْ مَا بتَعْتَبرْ
في الدِّينْ مَطِل اقْبِلْ وبِرْ　　الموتْ يجيكْ بَعَدُو الشِّبرْ
والدَّمْر بالطوب والقَبِر

الأقْرِبُونْ وأهَلْ الحفِرْ　　وأهَلْ الوِدَادْ منَّك تَفِرْ
بَعَدْ الإلِفْ صَارَ النِّفِرْ　　خَلُّوك بِي بيتْ مظلم زفِرْ
مَمْلُوء عَقَارِيَاً تدَّفِرْ
يَا ذَا أتُوكْ مُنْكَر نَكر　　بالمرزَبَة وحَالْة النَّكِرْ
مَاذا الجَواب إيه تِفْتكِرْ　　إنْ كان أجِبْتَ بمَا ذُكِرْ
نُعْمَاك والا أمْرَكْ عِكِرْ
حّلَّ العَذّابْ قّبْل النَّشِرْ　　بكَ والعَذَابْ يومْ الحَشِرْ
كيفنْ خلاصَكْ يَا أَشِرْ　　حينْ الصَّحايفْ تنَّشِرْ
ويَجِبْ عَليكْ في النَّار حَشِرْ
ما بْتَرْحَمَكْ لا يَا فَجِرْ　　مِينْ يَرْحَمكْ لَكَ مَنْ يَجِرْ
إنْ طَالْ عليك فيها الهَجِرْ　　لا وَاق لا رَاقِي الحجِرْ
صَارْ يا جريء وينْ وينْ تَجِر

وقال في أختها (٢٨٧):

يَا حيَاتي خَلّي تمتُّعكْ　　في الدُّنيا قَطْ ما بنْفَعكْ
راجيكْ يومَاً بِبْشَعَكْ　　في الهَامَه شَمْسُو بتَصْقعَكْ
والنَّار حمُوهَا بقطعكْ

وفي ثالثة (٢٨٩):

ياحياتي مالك مُنْشَتِل　　في الدنيا هاهِ الباقيَة تِلْ
قوِّ العَزِمْ مِنْهَا انَّتِلْ　　أفْتِل عَليهَا الرَّاي فَتِلْ

سَــــــوِّيلَ عَـــــــادْ شِـــــــمَّنْ فَتِـــــــلْ

جُــــودْ بالـــــدَّراهِم والأكِـــلْ	والـــــرُّوح فــــلا تـــسْأم تَكِـــلْ
لا تَنْيَـــا حَـــالْ فيـــكْ تَنْحَكِـــلْ	تحْتَــال عليــكْ بــي كُــلْ شَـكِلْ

تَحْــــــلا تَعُـــــــودْ لَـــــــك بالنَكِـــــــلْ

الفَانيــــــه معدومــــــة العَقِـــلْ	مـــنْ حَـــالْ إلى حـــالْ تَنْتَقِـــلْ
تَعَلَـــى الـــسَّفِلْ والعَـــالْ تَقِـــلْ	هَقَلَـــتْ لِكَـــمْ خُوجَـــاتْ هَقِـــلْ

بعـــــــــد التَّرَفُّـــــــــــه والـــــــــصَّقِلْ

كـــم في العبَـــادْ غَـــرَّتْ نَـــدِل	أضْـــحَى بزُخْـــرُف مُنْبـــدلْ
ناســـي المَـــاتْ يَبْغِـــي ويَـــدِلْ	ناسِـــي القبُـــرْ نَاسِـــي النَّـــدِل

ناسِـــــي الوقُـــــوف عنـــــد العـــــدِلْ

ناسِـــي الـــوَزِنْ لـــو كَـــانْ تِفِـــلْ	نَاســـي الـــصِّرَاطْ آه يَـــا غَفِـــلْ
ناســـي الحِـــسَابْ نَاسِـــي النَّفِـــلْ	ناســـي الـــصُّحُفْ قُـــول الأفِـــلْ

ناسِـــــي الجَـــــزَا وشـــــيبْ الطِّفِـــــلْ

وبعد أن أشبعها لوماً وتأنيباً وتقريعاً وتبكيتاً وتذكيراً وتنفيراً رجع يدعو لها (١٥٦):

وقـــف ذو العيـــبِ والإجنـــاحِ	ببابـــكْ يـــا المهـــيمنْ نَـــاحِ
يَـــرُومْ مِنْـــكَ الـــسَّمَاحْ ومنـــاحِ	وسَـــوْ في جنـــاحُو ألـــفِ جنـــاحِ

❖❖❖

عَـــسَى يـــشُم نَفْحـــة الإصْـــلاحِ	ويُنْقَـــل مِـــنْ لَـــدَى الإطْـــلاحِ
ويُـــدْرَج اسمُـــو في الـــصُّلّاحِ	أهَـــالِي الخَـــشْعَة الْفُـــلّاحِ

وليس في دعائه لنفسه حرج فإنَّ لنفسك عليك حقاً، ثم إنَّ من أدب القرآن قول إبراهيم عليه السلام (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ) فبدأ بنفسه. يقول أهل النظر لأنَّه إذا دعا فاستجيبت له دعوته كان حرياً أن تقبل منه دعواته للآخرين.

ويظهر التضرع والخشوع والإخبات والتذلل لله تعالى (١٧٧):

مُحـــرَّم فيـــه يـــا الفـــايق	عَيَـــايْ وقـــد ذهـــب سَـــايق
قريـــب فـــرَّج علـــي ضَـــايق	بـــصَحَّة جـــسْمي والمـــايق

❖❖❖

لفـــضلك راجيـــاً تـــايقْ	وإنْ أكُ مُـــذنباً عـــاتقْ

وإن يَــكُ طَبعِــي مُــش لايــقْ   أغِـــثني بجَاهَـــك الحـــايقْ

ثم ينوع في الدعاء لنفسه، مرة بالغنى ومرة بالقناعة ومرة بالبركة ومرة بسعة الرزق وغير ذلك كقوله (٧٦):

يَـــا نَـــايِ الـــشُّرَكَا   في الـــسُّكْنه والحَرَكَـــه

أَكْفِينِـــي الـــدُّنا شـــرَكا   واملانـــي بالبركـــة

كمثـــال رجـــال عركـــه

وقوله (١٦٤):

أَبْقِـــيني مَـــنْ تَـــرَى   القُـــومْ في دَفْتَـــرَا

بـــي جَـــاه الْمَـــا افْتَـــرَى   زِيـــلْ قلبِـــي مَـــا اعْتَـــرَا

ويدعو ويطيل ويلح في الدعاء لنفسه (٩٩):

يـــا مـــنْ لطيـــفْ في الجـــرى   الطُـــف بـــي مـــن جَرْجَـــرَه

سَـــوْ قِـــسْمَتي الفنْجَـــرا   في الطَّاعَـــة لا المهْجَـــرَا

أجَنَّـــبْ الْمُنْكَـــرَا   والغَـــشِّ والمكَـــرَا

أذْكـــر وأجَـــا في الكَـــرَى   مِـــنْ خمـــر القـــوم أسْـــكَرَا

سُـــكْراً بـــلا شَوْشَـــرَا   وانِيـــلْ مَنَـــالْ ابْـــشَرَا

والأمْـــنِ في المحْـــشَرا   آمـــين أيـــا معْـــشَرَا

آمين آمين آمين.

ويتوسع في الدعاء لنفسه فيقول (٣١٨):

هـــب لـــي الأمَـــانْ مـــنْ الـــذّهل   يـــا ربّ واكْفِـــيني الـــضَّهَلْ

خَلقنِـــي بَـــالخُلُق الـــسَّهَلْ   أنْقـــذنِي مِـــنْ بَحَـــرْ الجَهَـــلْ

واسْـــقِينِي بـــالكُوز والكَهَـــلْ

أغفِـــرْ خَطَـــايَ الْلِنْـــسَجَلْ   واتْـــرُكْ سـبيلْ ديـــنْ الـــدَّجَلْ

وافـسِحْ لِـي في الطَّاعَـة الأجَـلْ   وارْفَعْنِـــي بالاسْـــم الأجَـــلْ

لـــي دُعَـــاي أجِـــبْ أجِـــبْ العَجَـــلْ

بلِّغـــني غايَـــاتْ الأمَـــلْ   لـــو كُـــلُّ عيـــبْ فيَّ انجمَـــلْ

واكْـــرمني كَرَمَـــاً بالجُمـــل   لأجـل الـنَّبي ابْ جاهـاً شَـمَلْ

إنْ كـــان عَمَـــلْ أو مَـــا عَمَـــلْ

ودعا لأبنائه (٣٧٧):

بَـارك ابنـاي بركــة لا يَعِيقَـا فـسَاد ... واعطــيهم تجــارة لــن تبــور بكــسَاد

ودعا لإخوانه (٥٠٠):

اصْــفَحْ يَـا كَـريمْ عَبــدكْ مــسَاويهُ ... واصــفَحْ ثانيــاً أوزارْ أَخَاويـــهُ

ودعا لزماله وأكثر من الدعاء لهم (٢٢٥):

في عــين الكَمَــال ســو زُمَّــالي طُــرّاً ... يَبقُـــو جـــواهراً أو يـــاقوت ودُرَّاً

لا يَمَّجُــوا قــط جهــراً لا وسِــرَّاً ... يَــسْقُوا أهــل الغــرام دنَّــاً لــيس مُــرَّا

أما دعاؤه للجميع وللأمة وللإسلام والمسلمين فحدث ولا حرج، بل أفرد الأمة بقصائد كاملة جراء ما وقع بها من بلاء أو نوازل مثل قصيدته (٤٠٣):

الطُــفْ بنَــا مـــن لم تَــزُولْ ... مـــن الوبـــا المـــا خلّـــى زولْ

يريد حمى أم مَلْدَم التي حصدت الأرواح في بعض السنين.

وله في الغلاء في بعض السنين دعاء أيضاً (٤٢):

الخليــــــل شــــــكا لـــــي ... مـــن مجاعـــات كـــثرت ســـكلي

يــا كــريم قُــتَّ ويــا الخــزين تكلِــي ... زيــل عــن الأمــة الكــرب والنكلــي

أرفـــــــــع المحـــــــــلِ ... والغـــلا الـــلازَمْ قـــارنُو الوحـــلِ

غيــثن مـــن غثــت الــصيده والفحــلِ ... بالرخــا الطــار شَــال ختَّــا في زُحَــل

كيــــــــــف لا نطْمَــــــــــعْ ... في عُــلا جاهــك لــي شــتاتن اجمــع

مــا جنينــا اسمــح مــا نقــول أسمــع ... هـــب لنـــا الخـــيرات والـــشرور أقْمـــع

بــــــــالقرش والــــــــبُنْ ... والإدام والعـــيش غيثُـــو لا يـــصبُنْ

عجـــل الراحــــه واكفنـــا كَعَـــبُنْ ... العـــدا العـــادوك ينقطـــع تَـــرَبُنْ

وما أكثر ما استخدم ضمير الجمع في دعائه كما في كثير من فواتح قصائده نحو (٤٧٥):

يــا واسْــعَ الكَــرَمْ أسِــعْنَا بــالإحلامْ ... والعفُــو والرِّضَــا قَوِّينَــا في الإسْــلامْ

حسن الخروج:

من مظاهر التجديد في ديوان الشيخ أنَّه قلل من استخدام ألفاظ (الثناية) الصريحة مثل (ثنيت وأثني) وهي التي اعتاد المادحون الفصل بها بين أبيات الافتتاح وصلب القصيدة

فوردت عند الشيخ في قصائد قليلة ولكنه استعاض عنها ببراعة فائقة في حسن الخروج من الاستهلال إلى صلب النَّص. ومما استخدم فيه (الثناية) قوله (٨٩):

أثْنِـــــــي بــــــــالعَلاَّلِي عَزَّنِــــــــي وجَلاَّلِـــــــــي

وقوله (١٩٠): أثْنِــــــي عَلَـــــى الرَّســـــول دُخْـــــريّ

وأيضاً (٨٥): أثْنِـــــــي عَلَــــــــى الـــــــشَّكَرَوْ

وقوله (٢٠٤): نَثْنِـــــي لمـــــن عَلِـــــي التعويـــــلْ

ولكنه كثيراً ما يخرج من الاستهلال إلى بقية القصيدة ببراعة فائقة دون استخدام ألفاظ الثناية كما في قوله مثلاً وهو ما يزال يدعو (٢٩٧):

في الطَّاعــة اصـير فَحْـلاً تِلِـب واجلـبْ عِمـوم النَّـاس جلِـبْ

واتــوقَّى لــي راحــة الغِلِــبْ هــبْ لــي الأمَـانْ مِـنْ الـسَّلِبْ

وأجْمعـــــني بـــــي صَـــــافِي القلــــبْ

الحُــبُّ لــي العُــشَاقْ سـلبْ مـن الغـروب كـمْ كـمْ جلـبْ

بـــي دمعهـــا المـــايقينْ قَلَــبْ وا غُلـــبي آهْ إنْ مـــا انْطَلَـــبْ

ورأيـــت ضـــريح مُـــوفي الطَّلـــبْ

ولعلّ القارئ الكريم يلاحظ الربط بين آخر جملة في الدعاء (واجمعني بي صافي القلب)

وأول جملة (الحبُّو لي العُشَّاق سلب). ومثله قوله (٤٣٠):

عِنْـــد المـــديح اتنظمُـــوا واسْـــخُوبُو لا تَتْعظمُـــوا

ســيدكم حــضَرْ مَــا أعظمُــوا عنــد الرَّسُــول هنــا عظمُــوا

ويــــــوم الخلائِــــــقْ كُظَّــــــمُ

شــافع الجميــع مــنْ أُمْ حمُــو لــولا الرَّسُــل مــا اترحَّمــوا

بـــابُ الملائكــــة بتزحمـــو خـــادمين جنـــابُو وكـــانْ حَمُـــوا

وظلُّـــوا النهـــار مَـــا شَـــافْ حمُـــو

وقوله (٧٩):

هـــب لـــي رســـولي لمـــا والختمـــه بـــي الكلمـــه

غايـــات مـــأربي اســـتلما لا أخـــــط لا أنظلِمـــا

لا لســـــــــــــــــــــــــــــاني يَنْبَلِمَـــــــــــــــــــــــــــــا

في أمـــــداح نـــــبي العظمـــــا هـــــو المُـــــرْوي مُـــــروِي ظمـــــا

الخلـــــــــــــــــــــــق يـــــــــــــــــــــــوم كُظَمَـــــــــــــــــــــــا

الوضـــــع يـــــا خُـــــدما بـــــي النَّـــــار صـــــار عـــــدما

واركـــــان الـــــشرك هـــــدما وأبـــــي مـــــره انـــــصدما

وأجـــــــــــــــــــــــرى الـــــــــــــــــــــــدموع دَمَـــــــــــــــــــــــا

فأنت تشعر في كل ما تقدَّم، ومثله كثير، أنه ما احتاج إلى الثناية وانتقل من الدعاء إلى بقية موضوعات القصيدة دون أن يشعرك بانقطاع بل كان يخرج بسلاسة مشهودة.

وبهذا النهج سار في جميع الديوان مازجاً الدعاء بالالتجاء إلى الخالق جل شأنه مبصِّراً إخوانه ومذكِّراً نفسه جاعلاً منها أسوة وقدوة وأنموذجاً، مجدداً في فواتح القصائد مهيئاً نفوس السامعين إلى ما يلي الافتتاح من مدح ووصف وغيره، فجمع بين التجديد والتجويد والإفادة.

أ/ المعجزات:

المعجزات هي آيات الله الباهرة التي اختصّ بها رسله إكراماً وإنعاماً وتثبيتاً، وكان لرسولنا (ﷺ) القدح المعلَّى فيها، وله فوق ذلك فضل ومزية إذ انتهت معجزات إخوانه من الرُّسل بانقضاء حيواتهم وبقيت لرسولنا أكبر معجزاته قرآناً يتلى وكتاباً معجزاً خالداً حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

والمعجزات جزء أساسي في هيكل قصيدة المدح النَّبوي الشعبي والفصيح، قلَّ أن تخلو منها قصيدة طالت أو قصرت، وهي كذلك في ديوان الشيخ حياتي، ما خلت منها إلا قصائد قليلة كقصيدة وصف رحلة الحج (يا عشاق هيا قومو بنا/ ٢٣٢) و(واتجري من الطافت رجال الليل/ ٥٥٨). وقليلات معها.

وباب المعجزات في هذا الديوان هو باب التبحر والبراعة والتفنن الذي لا يكاد يدانيه باب، بذل فيه الشاعر الوسع وما فوقه حتى يجلِّيها في أبهى صورها، فأوجز وأطنب وجمع وفرَّق، وصرّح وألمح وطوى ونشر وأطال وقصّر فأحسن وأجاد وأفاد. وأتعب من جاء بعده خصوصاً الباحثين والدَّارسين. وما نقصت المعجزات عن سبع في قصائده وقد تزيد حتى تصل إلى خمس وخمسين معجزة في القصيدة الواحدة. وحدث ولا حرج عمَّا بين هذين العددين.

ولأنَّ المعجزات ترد بكثرة في شواهد هذه الدراسة آثرت الاقتصار هنا على ما يبين منهجه فيها وبسطت ذلك بعض البسط، ثم عمدت إلى تزاحم المعجزات أو تداعيها في قصائده المختلفات وأفردتها بشيء من التتبع لأنَّ في ذلك براعة لا تنكر، فقد تذكر المعجزة في كل قصيدة أو في أغلب قصائد الديوان ولكنها في كل مرة تأتيك في سبك متفرد ولَفْقٍ مختلف وطعم خاص، وفي ثوب من نسج آخر.

وقد درج على تسميتها (بالمعجزات) و(الآيات)، وقد يجمعها على (آي) ويسميها (معجز) ويجمعها على (معاجز) فهذه خمسة أسماء؛ وقد يوردها دون أن يسميها كعادته في التنويع الذي يدل على الغزارة، قال (٣١):

مُعْجِزَاتُـــو عَيَـــتْ	منهـا غلمـان جـابر وشـاتو حيَـتْ
صَـاعُو والأقـراصْ والـتي عَمِيَـتْ	والبـدور والأيكـات ومـن دَمِيَـتْ
الحَـصَى ذكـرُو	والطعـام والهَـام والعَلـي حَكـرو
والغَمَـام والنّـاي طيُّـو افتكـرُو	والنّخيـل كيـف يَبْقَـى الحمـام نكْـرُو

فذكر هنا ست عشرة معجزة، سيرد عليك تفصيلها.

وقال(١٩٨):

هَــاكْ مِــنْ مُعْجِــزُو الهَامْيَــاتُ　　　وارْوَى بهــامو كـــمْ مِيَّـــاتُ
والعَيْنَـــان كَـــذا الـــدَّامْيَاتُ　　　والنُّـــوقْ جـــابرٍ آيـــاتُ
أغْنَـــامْ ضَـــمْرَه شَـــاةْ امْ مَعْبَـــدْ　　　والبّـــاضْ والحَكَـــتْ يَـــا عُبَّـــدْ
لَـــوْلا سُـــراقَه كَـــانْ اتأبَّـــدْ　　　عَـــامِرْ غُـــدَّ وانْـــصَقَعْ أرْبَـــدْ
مِـــنْ بَعْـــد البُـــراق يـــا بُلَّـــمْ　　　لِـــيشْ أنْـــسَ العـــرُوج بالـــسَلَّمْ
والـــشُّوف للعَلِـــي ألْ لـــهُ عَلَّـــمْ　　　اسْـــكُتْ ولا تـــانِي اتْكَلَّـــمْ
إنْ عُـــدت الكـــلامْ وحَيَـــاتُو　　　تكْفِـــينَ الـــذِّكر آيـــاتُ

فالهاميات: الأمطار، والمئات التي رُويت من إبهامه في تبوك، والعينان: عين قتادة وعين الكرار، والدّاميات: الجروح، والنُّوق الستة التي استبقت للقربان وآيات جابر الأربعة أو الخمسة (العدد إذا وقع صفة جاز تذكيره وتأنيثه)، وأغنام ضمرة أو أغنام أمه حليمة في بادية بني سعد، وعجوف أم معبد التي درَّت في قصة الهجرة، والباض: الحمام، والحكت: العنكبوت، وسراقة قصته مشهورة صبيحة الهجرة، وعامر بن الطفيل وأربد بن قيس أصابت الغدة الأول وأهلكت الصاعقة الثاني. ثم أضاف إليها خصائصه (ﷺ) البراق والإسراء والعروج ورؤية الحق وختمها بالمعجزة الكبرى القرآن والشفاعة والنصر بالرعب، فهذه إحدى وعشرون معجزة في أربعة مقاطع.

وهذا من مواضع مزج المعجزات بالخصائص، ومثله قوله (١٢٨):

أفَـــــــــاق بـــــــــالحَلفِ　　　مائـــه وعـــشرون ألْـــف وأربعَـــه ألـــفِ
كمـــرأى أمَـــامُو يَـــرَى للخَلْـــفِ　　　أتَـــت لـــي أمـــر البُـــدَن تَزْدَلْـــفِ
قَلَـــــــبْ طَيَحَـــــــانَ　　　الـــشمس جـــاتُ الأيْكَـــتين فرحـــانَ
أتـــان أم ضـــمره وشَـــيَاها أحَـــانَ　　　الملـــك حِـــينْ نَـــام هَـــابُّ بالريحـــانَ
فَمَـــــــا في التَّجْـــــــرَه　　　ومـــا في سِـــرَا والبقـــت في الهجْـــرَه
ومـــا لـــي جـــابر عجيـــب الأجْـــرَى　　　ومَـــا لـــي أبْ جهـــل وعُرابـــي الأجْـــرَه

وفي المقطع أيضاً شاهد على الطي والنشر في أسلوبه في إيراد المعجزات، فمثال النشر هنا وهو التصريح بالمعجزة: البدن وردَّ الشمس (وإن أغرب في وصفه بقوله [قلب طيحانا الشمس] أي ردها بعد غروبها) ومجيء الأيكتين كما في حديث جابر، وحمارة حليمة وشياهها، أما الطي

وهو الإشارة للمعجزة دون تفصيل ففي قوله: فما في التجرة، وما في سِرا إي إسرائه، والبقت في الهجرة، ومالي جابر ومالي اب جهل وعرابي الأجرة. فأنت هنا تحتاج إلى تفصيل وتحديد لا كما في المقاطع السابقة... فالذي حصل في التجرة كثير منه إظلال الغمام والملائكة وحديث الراهب وميل الأشجار بغصونها نحوه (ﷺ) والثعبان والفحل وما في حكمه. وما في الإسراء والمعراج كثير أعظمه رؤية الرب وحديث البراق وطي المسافات ونحوه. والبقت في الهجرة أمور: منها عجفاء أم معبد ولحوق سراقة بن مالك بهم وقصة الغار والحمام والعنكبوت ونحوها، و(مالي جابر) لجابر أشياء هي معجزاته الخمس القدر والصاع والسخلة والأبناء والدار. أما مالي أبي جهل والإراشي وهو عرابي الأجرة فخبرهما طويل كما ذكره ابن هشام في السيرة. أما أبو جهل نفسه فما أكثر ماله مع الحبيب (ﷺ).

ومن أمثلة الطي والإشارة إلى المعجزة من بعيد أيضاً قوله (١٤٠):

الأدَّنْ..................................	مـــــن آيَـــــاتُو والــــــرُّدَّنْ
واللّنْــــــــــــــشَق كالولـــــــــــدن	مبــسوط مـــن مجــي جــداً.

❖❖❖

وأم أخـــــــــــــــــــــــــــشاف	والعـــــود البكـــــاه إنـــــشاف
والـــــــبير بَعْـــــــدَما الإنـــــــشاف	والأعمـــى المطـــوِّل شـــاف

الأدَّن: الأشجار والأحجار التي أدت التحية، والرُّدَّن: العيون، عين قتادة وعين الكرار، واللنشق: البدر، كالولدن: الصخرتان، وأم أخشاف: الظبية التي فكّها من الأَسْر، والعود: المنبر القديم، والبير الناشفة معروفة، والأعمى المطوِّل الذي عاد إليه بصره هو فديك السلماني.

وما حيَّر الشيخ حياتي أمر كما حيَّرته المعجزات فحيَّرنا معه، فمرة يطيل ومرة يوجز ومرة يسردها حتى يصل إلى خمس وخمسين معجزة ثم إذا جاء عند القرآن المعجزة الكبرى توقّف ودعا إلى التوقُّف. ثم يعود فيذكرها بالعدد (آياتو هاك منها أربعين ٣١٢) ثم لا يشفي ذلك ما في نفسه فيعود إلى ذكرها بالجملة أو بالجمل، ثم لا يكفيه ذلك فيلجأ إلى (التعزيل٢٠٠). ثم يسأل المحبين (كفى ولاّ أزيد ٣٧٢) إلى آخر أساليبه في معالجة هذا الفيض المتدافع الذي فعل فيه وفينا ما فعل وسأمثل له.

أما ما تجاوز فيه الخمسين فهو في إحدى (قلاقله)، (قل يا فميّ ليه وشكر السادات) حيث يقول (٤٨١):

ويـــن شــبه الرســـول في المرســلين جمعــاً	فـــاقم في الخَلـِـق والخُلــق فـــاق قطعـــاً
وأحْلاهُـــمْ كـــلامْ وأحْلاهُـــمْ طَبْعـــاً	وازْكَـــاهُمْ فِعِــلْ وأطْيَـــبْ أصِــلْ فرعـــاً
وأسْـنَاهُمْ فَخَـرْ واكْثَـر تَبَـعْ سَـمْعاً	ميـــزانْ ارْجَحُـــم واحْـــسَنُمْ صُـــنْعاً
والـــشَّمْس انْحِبـــاسَ رِدُودا والـــوَجَعَنْ	والـــشُّم ســـعْيهَا والايْكَـــتِينْ طوعـــاً
والطَّـــيْ والغَمَـــامْ والنَّـــافِراتْ تِـــبْعَنْ	والـــشَّاكي الغـــزال أخْـــشَاف مـــا رِضْـــعَنْ
وأبْ سَـمْ والحـصى والـضَّبْ بَكَـى جِـذَعاً	والطفـلْ الـسَّبع والهَـامْ جِـدِى الفَـرْعَنْ
والـــرَّيْ والبطـــونْ المخمـــصاتْ شِـــبْعَنْ	وأمطـــار الـــسَّما جَـــادَتْ صـــحيحْ سَـــبْعاً
والعـــيرْ والـــبعيرْ يـــاللْبَراق أذْعَـــنْ	والاسـرَا العـروج خَـرقْ الحُجُـبْ عَـنْ عَـنْ
كَرَمـــاً للنَّبِـــي الـــذَّاتْ الإلـــه أمْعَـــنْ	وأرْضَ بالعَطَـــا يَـــا سَـــامِعَاتْ اوْعَـــنْ

❖ ❖ ❖

زَادْ أبـــوُهِرَّة والحُبْــل العِجَـــافْ حَلَـــبَنْ	والجـــدْ والثَّـــدي والمـــدمياتْ قَطَـــبَنْ
والأَعمَـــى الكـــسِيرْ واحْيَـــا مَـــنْ انْتَـــرَيَنْ	وإحيـــاء الـــشُّهب عَـــوْد الـــذي انْـــشَطَبَنْ
والـــسارحاتْ كـــذا الأمـــلاكْ ومَـــنْ حَجَـــبَنْ	ذُو التــيسِ وسُــراقَه انْحَــلْ بَعَــدْ تَعَــبَنْ
عـــامِرْ واريـــدٍ زَوْجَـــة أبـــي لَهَبـــاً	وام الـــشِّيمه شَـــافَتْ كَـــمْ وكَـــمْ عجبـــاً
سِـــعْدَتْ واغْتَنَـــتْ واحْزَانَهـــا ذَهَـــبَنْ	وامْ الزَّهْـــرَه فَـــازَتْ يَـــالَ مِـــنْ وَجَبَـــاً
ضَـــمْرَه ومَيْـــسَره ســـلمانْ بلـــغ أربـــاً	وآيـــاتْ جـــابرٍ والخَمْـــسَة انحَـــسَبَنْ
مــن بعــد الكتــاب يــا لــساني قــف أدبــاً	مــا تقــول في الرســول ود آمنــة بــت وهبــاً

وهذا التطويل يفسده التفصيل، والمواضع يشرح بعضها بعضاً. وأسلوب التَّأدب مع القرآن كلام الخالق هو ديدنه، إذ ليس بعد مدحه مدح وإنما هو تعبُّد وتبرك. لذلك يكرر هذا الأسلوب ويظهر هذا الأدب والاحتياط دائماً وأبداً كما قال (٢٢٦):

آيـــات الكتــــاب تكفـــــي لمـــــن يعيهـــــا

وقوله (٤١٨):

مِـــنْ بَعَـــد المثَـــانِي إنْ قَـــوْلِي   في المحْبَـــوبْ أيَـــا مَـــنْ حَـــولِي

وقوله (١٩٨):

إنْ عُـــدت الكـــلام وحيـــاتُو   تكفـــيني الـــذكر آيـــاتو

وهذا كثير عنده، وهو حق إذ ليس بعد الحقّ إلا الضلال.

وبلغت المعجزات خمسين ونحوها في (قل يا فمي ليهم وشكر النُّدر ٤٦٥) وخمسين في (قل يا فمي ليهم وشكر الأعلام ٤٧٦). أما ما نصَّ عليه بالعدد فقوله في (طاب زماني وعش ملي) (٣١٢):

جِيدْ لِينَا يَا قُومُو اجْمَعِينْ ... غيرُو مِنُّو الشَّافْ المعِينْ
غيرو منو اللى الرحمة عين ... طمع سخاهُ الطامعينْ
آياتو هاك منها أربعينْ

جابر شويهتو والبَنِين ... والضَّرْعِ زَيْ شُهْبَ السَّنِينْ
والرَّيْ مَنَامَاتْ الضَّنِين ... والمَلْحَدِينْ والمزْمِنِينْ
والْفِي أحُدْ والْفِي حُنِينْ

الأَيْكَه والنُّوقْ والعَنَنْ ... والشَّاكِي والغِيرُ اذْعَنَنْ
والهَاطِلاَت والألبَنَن ... والايْكَتِيْن والْلِنْجَنَنْ
والْحَنَّ بَاكِي ومَنْ دَنَنْ

الضَّبِّ وابْ سَمْ والطِّفِلْ ... والمقْلَتِيْنْ بَعَدْ القَفِلْ
والرِّجْلِ واليَدْ يا غَفِلْ ... والمدْمِى والحِلاَ بالتَفِلْ
والشَّمْسِ مِنْ بَعَدْ الأفِلْ

مَافِي الرِّضَاعْ مَا فِي التَّجَرْ ... نَطْق الحَصَى ولِيْن الحَجَرْ
ظِلْ الغَمَامْ ظِلْ الشَّجَرْ ... والبَاضْ ومَنْ لِي الغار حَجَرْ
والوَلّدَنْ وهَلُمَّ جَرْ

وتُحِسُّ بعد كل هذا الإحصاء الدقيق أنَّه لم يشبع ولم يرتوِ، والدليل قوله في ختامها (وهلم جر) وهي العبارة التي يذيل بها الكلام الذي له بقية.

ثم يرى أن العدّ لا يكفي فيلجأ إلى الجملة بعد المفرَّق (القطاعي) فيقول (١٢٦):

هاك آيُو بالجمل الصِّيده والجَمَلْ ... والعينْ والعينْ شَمَلْ والتِّيس ومَا عَمَل
العِذْق والنخل والعجفه والفَحَلْ ... والثدي الما بَخَلْ والدار لها حين دَخَلْ
الغيمْ واللِّنْعَكَلْ والضِّبْ والْلِتَّكَلْ ... والنَّافِرْ والثَّكَلْ والآي يا لِسَاني كَلْ

عجيب عجيب: الغزالة والبعير الشاكي وعين علي وعين قتادة وتيس ابن قمئة الذي عاد إليه (بالقَلَبا) فقضى عليه وتظليل الغيم والغمام، و(اللِّنعكل) هي الحُمَّرة حين أخذ بعض الصحابة صغارها ..والضب وإقراره برسالته و(الثّكل) هو جذع النخلة قيل (خار وثكل وحن وأنَّ

وشهق) في روايات الحديث المختلفة. ثم المحطة المقدسة التي هي عنده وعندنا خاتمة المطاف والميس هي القرآن (الآي)، فيا أيها اللسان احبِسْ كفاك فقد كَلَلْتَ. وقوله (يا لساني كَلْ) إشارة (بعيييدة) وهي أن البقر مشهور باللسان الطويل وكلمة (كَلْ) هي كلمة زجْرٍ معروفة تقال للأبقار. فإن يكن أرادها فليست غريبة منه ولا علينا والله أعلم به.

ثم يعود إلى الإجمال في قوله (آياتو هاكم بالجمل) في (شبابي الضاع لعب) ويسوق أكثر من ثلاثين معجزة في قوله (٢٩٨):

مَا مِنْ شَي إلاَّ (فِي) انْجَمَلْ	مَنْهَى الكَمَالاتْ والأمَلْ
آيَاتُو هَاكُمْ بالجُمَلْ	مِنَهَا العِيُونْ والانْدَمَلْ

والانْجَنَا سَاعة العَمَلْ

النَّافراتْ والجَامِحَاتْ	والمَارِحاتْ والمَالِحَاتْ
ثُمَّ العِجَافْ والوَرَقُ حَاتْ	والنَاحْ كَزَيْ النَّائحَاتْ

والضَّنْكِ والهَمَى يَا نُحَاتْ

عَوْدَ الرجِلْ والْيَدْ وَرد	ذُو التِّيس سُرَاقَةَ مَنْ طَرَدَ
عَتَقْ البَعِيرْ والفِي الزَّرَدْ	ظِلْ الغَمَامْ طَيْ البُرَدْ

والبِيْر كَمَا الثَّدِي انْسَرَدْ

نَصْفْ الرِّضَاعْ سَرْعَ الاتَانْ	نَارْ اليَهُودْ والسَّرْحَتَانْ
شُوفْ مَيْسَرَا وضَمْرَه اللَتَانْ	مَا فِي بَدُرْ والغَزوَتَانْ

والإسْرَا شُوفْ المُقْلَتَانْ

ويلاحظ الناظر في هذا الكتاب أنني أتوق شوقاً لشرح كل مفردة فيه ولكني أخشى الإطالة، ومع ذلك تأسرني الأشياء المجملة فاضطر للوقوف عندها وأدع ما أراه قريب المنال أو لعله. فقوله: (العيون) أصبحت معروفة عين قتادة وعلي الكرار وفديك السلماني ونحوهم. و(الاندمل) هو الجرح، وما أكثر الجراح التي دملها (ﷺ) حساً ومعنىً. و(الانجنى ساعة العمل) هو نخيل سيدي سلمان الفارسي و(النّافرات): وحوش البر. والجامحات: البراق وبعير الأنصار المصعب و(المارحات) النوق والصيد. والمالحات الآبار والمياه المالحة التي حلاها بريقه أو بما ألقى فيها. والعجاف: شاة أم معبد، وشياه حليمة السعدية وشياه معاوية بن ثور، و(الورقو حات) الشجر الهشيم والأودية في السنة الشهباء، و(الناح كزي النائحات) هو الجذع، و(الضنك): الشدة في السنة الماحلة و(الهمى) هو المطر. فهذه اثنتان وثلاثون معجزة.

ويتكرر هذا الأسلوب كما في قوله (هاك آيو يا الخِلْ بالجمل ٣٩٩) ونحوها.

ولا ينقضي أربه بأسلوب بعينه فيوالي التنويع ويترك كل ما سبق ويلجأ إلى الانتقاء والاختيار و(العزل) فيقول (١٠٤):

خُــذْ مِنِّــي البَــاضْ والغَــزَلْ والجَّــادَنْ بَعَــد الهَــزَلْ
قُــلْ والبــدرين إن عَــزَلْ كَفَــى والقُــرآن النَّــزَلْ

ذكر هنا أربع معاجز، وذكر قبلها أربعاً، وهذا على سبيل (العزل) والانتقاء والاختيار، ثم وقف عند الموقف الذي لا يتجاوزه وهو القرآن أنعم به وأكرم. ثم ينوع فيسمى (العزل) باسم مرادف وهو(التعزيل) فيقول (٢٠٠):

هَــاكْ آيُــو بالتَعزيــلِ الإســرا والتَّنْزيــلِ
رؤيَــا العَطَاهَــا جَزيــلِ وشَــفَاعَةْ الزلزيــلِ

وهذا أدخل في خصائصه (ﷺ) فذكر منها الأربع العُظْمَيَات وهن الإسراء والمعراج، والكتاب العزيز، ورؤية الباري عز وجل (العطاها جزيل)، وشفاعة يوم الزلزلة. وهذه الأربع هو كثير الوقوف عندها، وهي حقاً من أكبر آياته وقد جمعها هنا ولكنه فصلها في مواضع، منها قوله (٧٥):

عنــدِي لــك الأكــبر شُــوف العَلــي البَــرْ

وقد مرَّ بك ذكر بقيتها مفردة، وهي القرآن والشفاعة والإسراء والمعراج فيما لا يكاد يحصى. ثم يستطرد في (زيارة الإكليل) مصمماً على التنويع والانتقاء، لا الجمع والإحصاء ولا الإجمال فيقول (٢٠٠)

آيَــاتُو ذُو التَّنْكِيــلِ أعِــي قَــدْرَهَا وتــشكيلِي
مَــا كَــان لــصاحب الفيــلِ والفــي التَّجَــر يَكْفِــي لِــي
والهِجْــرَة يَــا مُنَــافِلِي اقْفِــل فَمَــكْ تَقْفِيــلِ

فالتشكيل تنويع في عرض المعجزات وهو ضرب من التعزيل.

وقوله (اقفل فمك تقفيل) تعيدنا لحواره مع المحبين وتجرده لأهل الاعتراض، وهم المقصودون هنا. أما الأحباب فلا يخليهم من الاستشارة ولا يحرمهم من الاستزادة فكثيراً ما يسألهم كما قال (٣٧٢):

مِــنْ آيُــو الغزالــة خــشُوفا والبَــدنَات والتِّــيسْ والــشَّمِسْ والــسِّدْرَة والآنَّــاتْ
جَــابر مُعْجِزاتُــو الأرْبَعَــة البَايْنَــاتْ والبَــدْر العِــذِقْ (كَفَــى ولَــلا أزِيــدْ يَــا غُنَــاتْ؟).

أو قوله (١٩٨):

مِـنْ بعـد البُـراق يَـا بُلّـمْ	لـيشْ أنْـسَى العـرُوج بالـسُّلّمْ
والـشُّوف للعَلِـي ألْ لَـهُ عَلَّـمْ	اسْـكُتْ ولـلا تَـانِي اتْكَلّـمْ

بعد الإسراء والمعراج ورؤية الله العلي الذي علمه (ألّهُ علم) علوم الأولين والآخرين اسكت أم أواصل؟ ما يزال العطاء وافراً وفضاءات القول مفتوحة.

والمريدون لا يشبعون، لذلك نجده يخاطبهم قائلاً (٣٢٨):

بـآي قرآنُـو مـا سمعتُـو	ولا للإحيـا طـالعتُو
كفـاكم جـابر أربعتُـو	وسـلمان إن بقـى شـبعتُو

وظني هنا أنه أراد (إن بقى ما شبعتو) ويمكن حملها على لغة أهل السافل (إن بقى آشبعتو) وكله تقريع وباب يطرقه للتنويع وإيصال المعجزة.

هذا حاله مع المتلقين، أما مع نفسه فهو مدّ وجزر واندفاع وتراجع بتواضع. ومثال الاندفاع قوله (٣٥١):

أشـهد إلـه النّـاس يـا مَـن مـدحتُو	وتـر الكمـال في الكـل والكـل تحتُـو
مـن ههنـا بـاب المعجـز فَتَحْتُـو	بـالأجرا في رضـاعو درُوجـو وسـرحتو

ولو اكتفى بالذي أجراه الله على يد الحبيب في هذه المرحلة من عمره لكان فيه غُنية وكفاية.. إذ في الرضاعة قصة حليمة السعدية وإخصاب واديها وصلاح حالها وقومها وعدله، والذي حدث في دروجه وهو بداية مَشْيِهِ وتحركه وخروجه للرعي منه شق الصدر وإظلال الغيم ونحوه.

والشاعر مع تواضعه يحس بنفاسة بضاعته وعظيم فتح الله عليه فتراه يتحدث عن شعره وعن تزاحم المعجزات بكل فخر كما في قوله (٢٧٨):

محكـوم قـوافي سمـح سـبك	وإن جـات معـاجزو بتـدّبك
منهـا العيـون حـالاً تَبـكْ	فوقَـا الأصـابع تنـشبك

(تدّبك) يركب بعضها فوق بعض لكثرتها وتتزاحم، ويطلق هذا الفعل خصوصاً على سرب العصافير الذي يتدافع على مكان الحَبِّ. وسرعة انشباك الأصابع فوق العيون لمسح الدموع صورة بليغة.

وأما مثال التَّراجع فقوله (١٩٦):

يـا أهـل الإنـشا إنْ أطنبنـا	في المعجـز قليـل الجِبْنـا

يعني يا أهل الإنشاء والشعر والمدح إننا مهما أطلنا وأطنبنا فالذي ذكرناه من معجزاته قليل. فهو لعظمة هذا الممدوح يستقل ما أتى به هو وإخوانه مادحو الجناب لأن العجز والتقصير هو شأن كل من يتعاطى مدح من مدحه الخالق، على الرغم من عباراتهم الجامعة المانعة في أن العجز والتقصير إدراك في مدح من كان خلقه القرآن (ﷺ).

ثم يعود مرة أخرى إلى الفخر والاعتزاز بنفاسة البضاعة التي يحملها فيقول (٢٠٢):

إيـــــــساع الــــــــــضَّنْكِ	وبكـــاء الجـــذع مــــن غـــير فَنَــــكِ
وبُـــروء العاهـــة هـــاكم مـــن بَنْكـــي	يـــا مــضارب شـــيلو وضـــارب أهـــل الزنـــكِ

نعم هذه حقائق لا تصنَّع فيها ولكنه امتلأ فخراً بعظمة المعجزات وامتلأ سروراً بجودة النظم وحُسْن التوفيق فمزج فخراً بفخر و(طلع من علبو) وتحدّى بحق وجدارة؛ كما شرحناه في توظيف التراث.

ثـم يتراجـع بطريقـة هـؤلاء القـوم أصـحاب النفـوس المنكسرة لله خـشوعاً وتعبّـداً فيقول (٢٧٨):

مــــاذا العَجَــــبْ لله رِجَـــــالْ	جَالـــتْ كَـــتِيرْ في ذا المَجَـــالْ
يَـــا حَيَـــاتِي حُبَّــاً وارْتِجَــالْ	كَـــاسْ المـــدَامْ بيناتَـــا جَـــالْ

❖ ❖ ❖

مَـــهْ مِـــن هُنَـــا انْتَـــر وَرَاكْ	كَـــمْ الرِّجَـــالْ قَالَـــتْ بَـــرَاكْ
في المـــصطفى الـــشَّاف البَـــرَاكْ	لَـــوْلا الخَـــزِينْ إتْ مَـــنْ طِـــرَاكْ

وهـذا جـواب علـى نغمـة قديمـة تغنـى بهـا في بعـض مـواطن فخـره بخدمـة الجنـاب (من حال البطر والله ما بنتر - النُّدَّر ٤٦٤) وهذا من حقه أيضاً. لأنَّه إذا افتخر وبطر بالحبيب وبخدمة الحبيب وبما أكرم الله به الحبيب فالحق معه، وإن افتخر بما أتاه الله وفتح عليه به في نقل هذه السيرة إلى إخوانه فذلك من باب (وأما بنعمة ربك فحدث). وإن تواضع ورجع فذلك من أخلاق الممدوح التي رضعها مع لبان أمه من قوم رضعوا التواضع قبله ... لذلك كثر عنده مثل

قوله (٣٨٤):	مَـــهْ يَـــا لِـــسَانِي كَفَـــاك لـــو كـــان وجيـــب
وقوله (٣٥١):	طلـــت المبَـــاني كفَـــاك يَـــا لِـــسَاني خـــزِّن
وقوله (٣٤٧):	مَـــا في بـــدُرْ أُحُـــدٍ رجـــع ورائـــي

فأنت تلاحظ هذا المدّ والجزر في إعجابه بما وفقه اللغة إليه وهو مُعْجِبٌ حقّاً ولكنَّه إذا صفت نفسه وأصغى إلى صوت العقل والواقع يرى ما أتى به إلى جنب عظمة الممدوح لا يساوي شيئاً. ونكسب نحن في حالي المد والجزر والقبض والبسط الكثير من الفوائد من هذا الجنى الداني من ثمرات المباني والمعاني.

هذا، وإن في تكرار المعجزات - التي شغلت من الديوان حيزاً كبيراً ومن حظ القصيدة نصيباً وافراً - فوائد ملحوظة، منها ترسيخ المعلومة والتحدث بالنعمة والثناء على هذا الرسول الكريم والحمد لصاحب العطاء، وغير ذلك. ولكن فيها سوى ذلك نشر للمطوي وإيضاح للمجمل وشرح للمبهم وهذا حال الديوان كله فإن بعضه مما يشرح بعضه ويعين على فهمه ..ونمثل لذلك بقوله (٣٧):

من معاجزو اقرار الصبي والضب والظبي المدرار

والصويع والشا والنمير، وإدرار الضروع وأبو هرة وعلي الكرار

فهنا إشارات موجزة لعشر معجزات، منها قوله (إدرار الضروع وأبو هرة) التي جاءت مفسرة في موضع آخر في قوله (١٢٢):

لي الضرُوع جَوَّدْ والعَجَب لِي أبُو هِرَّة الجُراب زوَّدْ

فخطا خطوة في توضيح إدرار الضروع بقوله (الضروع جوَّد) وهو يريد امتلاء الضروع بالدّر وهو اللبن في عجوف أم معبد وشياه حليمة ونحوها وقد فسر ذلك وأوضحه في مواضع أخرى، ولكنه حلَّ لغز (أبو هرة) بقوله: و(العجب لي أبو هرة الجراب زود) فما جاء مطوياً في القصيدة الأولى جاء منشوراً هنا فعلمنا منه مباركة الجراب فقد زوَّد (ﷺ) أبا هريرة ببضع تمرات في جراب فكفته زماناً.

وللأبيات الدالية السابقة بقية منها قوله (١٢٢):

والأجاج حَلاًّ وأبرى للدوَّد

أراد بقوله (أبرى للدوَّد) شفى الجروح التي يسميها أحياناً (الداميات ١٩٨) ويسميها (الموقحات) كما في قوله (٥١٢):

نطق الرحات والضَّبْ وحاتو شافيا

الموقحات والمالحات والبالحات

أراد: شافياً الموقحات أي الجروح التي حملت القيح وهو الصَّديد. وهو قريب من قوله (الدَّوَّد) أي الذي دخله الدود، وقد يشير إلى الجرح بقوله (الاندمل) أي الذي شفي وبرأ.

وأما (الأجاج حلَّ) فرغم أنه سماها (المالحات) هنا لكنه عاد إليها في موضع آخر قائلاً (٣٣٩):

ضـــــــروع الهـــــــازلات ألـــــــبن   بتفلُـــــو المـــــرّ صــــــار عَـــــذْباً

فشرحها وشرح ما تقدم من قوله (الضروع جوَّد) و (إدرار الضروع).

ثم تراه يقول (١٤٠):

الأدَّنْ

مـــــــــــــن آيَـــــــــــــاتُو والـــــــــــــــرُّدَّنْ

ثم يفسِّره بقوله (١٨٤):

الجامــــــــــــــــــدات ردَّن   والباســـــــــــــــــــقات أدَّن

أراد في الموضعين أنَّ التي ردَّت السلام هي الجوامد وأن التي أدت التحية هي الأشجار الباسقة، هذا إذا ضبطت الراء بالفتح. وهذا متفق مع ما جاء في أخباره (ﷺ) بأنه إذا مرّ بالأشجار حيَّته وإذا مرَّ بالأحجار ردَّت عليه التحية فشرح البيت الثاني ما جاء موجزاً في البيت الذي قبله وقد يشرحه بأكثر من هذا في مواضع أخرى.

وبالجملة فإن في تكرار المعجزات فوائد جمة أهمها هذا الملمح الذي أشرنا إليه في عجالة وهو شرح بعض أبياته لبعض ولو تتبعناه لاقتضانا ذلك استقراء الديوان كله، وسيرد عليك بعضه مبثوثاً في ثنايا الكتاب وفي بقية هذا الباب؛ فتأمَّلْه.

ب / تداعي المُعجِزات

أعني بالتداعي تكرار ذكر المعجزة المعينة في أكثر من قصيدة، وتسلسل ورودها المتكرر الملحوظ، ولكنه لا يكررها بلفظها إلا قليلاً وإنما ينوّع في ذلك فيوردها متى ما كررها بلفظ مختلف وأسلوب مغاير لأن الشيخ يلتزم هيكل القصيدة التقليدي في معظم الديوان، ويحرص في كل مرة أن يضيف المعجزة إلى أخريات مختلفات. وهو كما مر بك قد يورد في القصيدة الواحدة أكثر من خمسين معجزة، لا تقل قصيدة من سبع معجزات ولا تكاد تخلو قصيدة من معجزات. وهذا الأسلوب له فوائد؛ أولها استمرار التذكير بعظمة هذا الرسول المكرم بهذه المعجزات، وأنت إذا لم تقابلك المعجزة في قصيدة المخبوت مثلا قابلتك في أختها من قصايد الإيقاعات الأخرى. وهذا التداعي والتكرار يشرح بعضه بعضاً، كأغلب شعر الشيخ؛ فإذا قال (يبرا المَروح) وأشكلت عليك وجدتَ شرحها في قصيدة أخرى ذكرت فيها المعجزة بلفظ آخر كأن يقول (النافرات تبرا) أو (إيلاف نافر الصحر) ويعني وحوش البر. وبهذا التداعي تظهر لك قدرة الشاعر على التنويع وتطويع اللغة، وهو دليل على التبحّر في السيرة وغزارة المحصول وسعة الخيال وقوة الملكة والقدرة على طرد الملالة والسأم المصاحب للتكرار. وهذا التكرار يشمل المعجزات والشمايل والخصائص والإرهاصات وقصة الميلاد وغيرها من مفردات السيرة. وسأورد في هذا المبحث نماذج مختصرة وأخرى مستقصاة شيئاً ما..، تدلك على ما تقدّم؛ منها البدنات التي قربت للذبح، والغلام الذي أقرّ برسالته (ﷺ) والصيدة وأخشافها وأربعة جابر أو خمسته، وغاية الرسول التي لا تدانيها غاية واخضرار اليبيس، وطي الناي، كل ذلك من باب التمثيل علاوة على ما قدمنا من معجزاته وخصائصه في الأبواب السابقة، بل هو أسلوب ينتظم الديوان كله تستطيع ملاحظته وإن لم يجمع في صعيد واحد.

البدنات:

أما البدنات فقد ورد في بعض كتب الحديث أن ستّ بدنات قرِّبت من الرسول (ﷺ) ليذبحها فتزاحمت وتسابقت إليه أيتها يبدأ بها وهي متواترة في ديوان المديح النبوي في السودان ذكرها ود تميم في قوله (مدت له الإبل أعناقا لي القتل). فذكر شاعرنا قصتها في أكثر من قصيدة وبأسلوب مختلف في كل مرة وهو ما سميته التداعي. قال في (حسري واحسري) (٦٠):

قَاصِـــــــــــــــــر البحْــــــــــــــــرِ	عَــنْ عَطــا يُمْنَــا والــنَّمِيرْ مَحَــرِي
والــــصُّمم والنُّـــوق جَـــاتْ إلى النّحْـــرِ	تَـــستَبَق، وإيـــلاف نَـــافر الـــصَّحرِ

فذكر قصور البحر عن بلوغ عطاء يده اليمنى (ﷺ)، والحجار الصماء التي لانت تحت قدمه و(النُّوق التي جاءت تستبق إلى النحر) وكان يألفه الصيد وهو نافر الصحراء والشاهد هنا النوق وتسابقها إلى الذبح وبأيّها يبدأ كما ورد في الخبر.

ثم يتوالى التنويع في إيراد هذا الخبر، كما قال (١٥٣):

والسِّت بُدن كَادنْ يتقصّصنْ

ثم يؤكد العدد والفعل في قوله (٢٠٣):

والسِته اللي رِقَابَا تَاكْيَهْ

وفي موضع رابع (٢٤١):

مَا بَلغْ النُّهات له حَدَّاً	آيُو، أشبع بِمُدٍّ جنداً
والأقراص كمثله غَدَّن	والبُدنْ الأتَنْ يَطَّرْدَنْ

وفي موضع خامس (٤٩٧):

والنُّوق جَات تَرِح لِي النَّحر فَارحابَا

والرّحة والرحيح هو الجري والركض، وقد وصف هذه النوق بأنها فرحة بذلك ونعتها بذلك في أكثر من قصيدة كما قال (٥٢):

البُدَنْ رَحَّتْ	والأيَاكِي الطود خَضَّر الحَتْحَتْ

فذكر البدنات وتسابقها ورحيحها وأضاف إليها أشياء أخرى جاءته (ﷺ) كالشجرة والجبال ونحوها، أما (خضّر الحَتْحَتْ) فستقابلك في حديثنا عن اخضرار اليابس له (ﷺ).

ويعيد ذلك في قصيدة أخرى (٩٦):

الشّوِيِّة نَمَالِكْ	والسَّمَاءِ هَمَى لِكْ
بَدْرُو ادلالِك	والأيَاكِي كَذَلِكْ

والبُدَنْ رَاحَّالِكْ

وقد يذكر البدن فقط، أو النوق وحدها وهكذا ولا يلتبس (١٧١)، فإذا أراد نوقاً أخرى ذكرها بصفتها كما قال (٢٠٣):

الشّاكِي الشّاكِيَة وأخْشَافَا المَابْيَه والنُّوق البَاكيَه

والشُّمْ والسِّتَّه اللِي رِقَابَا تَاكْيَة

فتبين هنا أن النوق الباكيه هي غير النوق (الستَّه اللي رقابا تاكيه)، وقد يطلق الفعل وحده دون ذكر النوق أو البدن أو الإبل أو الجمال وغيرها فيقول (الرَّحن) كما قال (١١٧):

البَعِيرْ والحَنْ	والغُلامْ والضَّبْ والعضو، الرَّحّنْ
والخشوف والصيد والبدن فِرْحَنْ	والهَمَى، العجفة، البير والمطْحَنْ

وأسلوب دارج عند الشيخ أن يعطف بلا حرف عطف إن اضطره النظم، وتلاحظه هنا حيث أسقط واو العطف لدلالة السياق عليها فقال في الشطر الثاني (والعضو الرّحن) أي والعضو والإبل التي جاءت ترح رحيحاً. كما أسقط الواو مرتين أيضاً في قوله: (والهمى، العجفة، البير والمطحن) وهي واضحة مكان الفواصل التي تراها في المربعة أعلاه وهي كثيرة في الديوان فصلتها في مبحث الضرورات.

ولعلك تلحظ تنويع المعجزات في كل مرة مع المعجزة موضع الحديث كما ههنا، وقد يكرر معها بعض المعجزات كما فعل في (الأياكي) فقال: (والبدن رحَّت والأياكي...)، أو (والأياكي كذلك والبدن راحَّالك، أو (البدن والنوق والأياكي سلام ٢٥٤). وهذا أسلوب يريك أن الشيخ حياتي يعيش مع النَّظْم بحضور مذهلٍ مدهشٍ محيِّر؛ عليه رحمة الله ورضوانه.

الغُلام والضَّب:

فإذا انتقلت إلى التداعي في معجزة أخرى وجدت ما وجدته في سابقتها كما في معجزة الغلام الذي أقرّ برسالة الرسول (ﷺ) وعرف في كتب الحديث بحديث شيصونه ومبارك اليمامة ذكره الشيخ صراحة وتلميحاً وكناية كما في قوله (٣٧٤):

بي الضَّبْ والغُلامْ قَرَّنْ بِغَيْرِ لجَاجْ

أي أقرَّ به الضب كما في الحديث المروي عن سيدنا عمر وكذلك أقرَّ به الغلام كما مر.

ويؤكد ذلك في قوله (٦٣):

تَفلُو مرهامِ	واعذب المُرَّات قَرْ به الهامِي
والغُلام والضَّبْ غير أوْهامِ	والفحل ذَلَّ ومثلُو هَمْهَامِ

تفله (ﷺ) شفاء ومرهم، وتفله جعل الماء المالح عذباً، وأقرَّت برسالته الهوام والغلام والضب بلا وهم أو شك؛ وزل له الفحل الصعب العاصي وكذلك الأسد . والشاهد هنا إقرار الضب والغلام.

وقد يجعل الغلام الذي أقر به رضيعاً كما قال (٣٧٨):

نَطْــق العُــضو والــضَّبْ والرَّضِــيعْ والهَــامْ

وقد يجعله طفلا كما في قوله (٥٥٥):

بـــي الطِّفْـــلِ قَـــرْ والــــضَّب

هذه كلها كلّمته (ﷺ)؛ العضو وهو ذراع شاة الخيبرية، والضب والطفل الرضيع والهوام.

وقد يجعل الغلام صبياً كما قال(٣٧):

مِـــنْ مَعَـــاجزُو اقـــرارْ	الـصَّبي والـضَّب والظَّبِـي المـدرَارْ
والـــصويع والـــشَّا والـــنمير، إدرارْ	الـضروع، وأبـو هـرة وعلـي الكـرَّار

فذكر إقرار الصبي وهو الغلام برسالته، وتلاحظ تلازم الغلام والضب في النماذج الأربعة السابقة لأن فعلها واحد وهو الإقرار برسالته (ﷺ). مع التنويع في بقية المعجزات كما في المقطع الأخير، وفيه علاوة على إقرار الصبي والضب، قصة الصيدة الحافلة الضرع التي صادها اليهودي وصاع جابر وشاته، والماء الذي صار عذباً نميراً بعد أن كان ملحاً أجاجا وإدرار الضروع كما في شاة أم معبد وشياه حليمة السعدية وغيرها وجراب أبي هريرة وعين الكرار الرّمدة وهلمّ جرا.

ثم يفزع شاعرنا بعد التصريح إلى الكناية والتلميح فيصف الغلام بما يدل عليه قائلاً (٣١):

الحَــــــصَى ذكــــــرُو	والطعـــام والهَـــام والعلـــي حكـــرُو
والغمَـــام والنّـــاي طيُّـــو افتكـــرُو	والنّخيـل كيـف يبقـى الحمـام نُكـرُو

فقوله (العلي حكرو) كناية عن الغلام، والحِكر هو الحِجر وهو حضن الأم، وقد ذكره أيضاً في قوله (١٩٤):

بـــي الـــضَّبْ قَـــرَّ والفِـــي حجْـــرُو

أي أَقَرَّ بِهِ الغلام المحمول في حجر أمه، مثلما سماه الصبي والرضيع ونحوه.

ولا يُعجِز الشيخ حياتي النظم ولا تَعْسُرُ عليه القوافي ولا تضيق آفاقه عن الابتكار والتنويع فيكني عنه مرة أخرى بقوله (١٠١):

مِثْلَـــك رَسُـــول مَـــا انْحَبَـــا   آمــــن بيـــكَ المَــــا حَبَـــا

و(الماحبا) أي الذي لم يَحْبُ بعد وهو الرضيع، أكده في قوله(٢٨٣):

عَــــوْدَ الــــشَّمِس والمُنْقَبِـــرْ   والرِّجْـــلِ واليَـــدِ يَـــاحبرْ

والأعْمَـــى والـــصَّارْ مُنْجَبِــر   والبَـــدرِ والـــشُّم جَـــاتْ تِبِـــرْ

والـــــــضَّبْ مِثْلُـــــــو المَـــــــاكِبِرْ

ردت له الشمس بعد الغروب والميت المقبور، والرِّجل المكسورة واليد المقطوعة والأعمى الذي أبصر والبدر الذي خرَّ وصعد والجبال التي جاءته تريد أن تكون له ذهباً فردَّها، ثم أَقَرَّ به الضب مثلما أَقَرَّ به الطفل (الماكِبِر)أي: الذي لم يكبر بعدُ.

الغزالة:

أما حديث الصِّيدة والصياد الّذي روته كتب دلائل النبوة كالبيهقي وغيره فحدِّث عن البحر ولا حرج؛ فقد سماها الصيدة والصويدة والغزال والظبي وكنى عنها بما لا يكاد يحصى وأبدع غاية الإبداع في ذلك. أما التصريح فقوله (٤١٣):

ولاكِـــينْ عُـــدْنَا نِتْبَـــرَّكْ   بِـــذِيكْ الـــصِّيدَة والـــشَّرَّكْ

وأخْــــــشَافَا البِتْعَـــــرَّكْ   ومَـــنْ أتَـــى بَـــاكِي يَتْبَـــرَّكْ

أراد العودة إلى التبرك بقصة الصيدة (الظبية) والصائد أو الشّراك اليهودي أو الأعرابي كما في روايات الخبر، وقصة صغارها (أخشافا) واحدهم خِشْف وهو في الظباء مثل السخل في الغنم. وقوله (تتعرك) غاية البلاغة في وصف هذه الصغار الجائعة أما الذي أتى شاكياً يتبرك فهو البعير. ولن تفوتك ملاحظة (يتبرك) المفخمة في الشطرة الأولى وهي من البركة، وتختلف تماماً في عامية أهل السودان من (يتبرك) المرققة التي في الشطرة الرابعة وهي من البروك والتنويخ وهو رقود الجمل. وقد أحكمت هذا في الدراسة الصوتية في باب اللغة.

ويصغِّر الصيدة كما في قوله (٩٠):

كالـــــــصُّويده هَجَـــــالِي   العُـــودْ، ومَـــنْ هُـــو حَجَـــا لِـــي

والبَـــــدُر هَـــــدَا جَـــالِى   والبَكَـــــى الأنْجَـــــــالِ

عَـــــــــادَ باســـــــــتِعْجَالِ..

عجيب .. عجيب، يقول سرَّني وأمتعني ترضيته للجذع (العود) مثلما أرضى الصويدة وفكها من الشرّاك. كما سرني من حجاه وفداه (حجا لي) وهو بعير الأنصاري أو من حجاني أنا وخلَّصني. والبدر، هذا هو جاء للرسول (هدا جا لي) ورجع . وجابر بن عبدالله الذي بكى أنجاله وقد ماتوا فأحياهم الرسول بإذن الله وباستعجال كما في بعض الأخبار. و(الهجا بمعنى الشبع والسرور) من فصيح العربيَّة ولا يعرفه غير أهل السُّودان. وهذه إحدى مزايا هذا الشعر الفخيم الذي حفظ لنا اللُّغة مثلما حفظ لنا السيرة.

ووصف الغزالة ووصف ضرعها الحافل في قوله (٤٦٥):

والضَّبْ للرَّسُولْ أفْصَحْ كَلام قَايِلْ وابْ سم والغُلام والصّيدَة الشَّايِلْ

كل هذه الأشياء كلمته، الضب والغلام كما مرَّ بك، وذراع شاة الخيبرية الذي أخبره بالسم المخبأ فيه، مثلما كلمته الصيدة الشايل أي الممتلئة الضرع التي تريد العودة إلى أخشافها وقد صرح بهم في قوله (١٦٠):

والبكَى، الصِّيدَه أخْشَافَا والصَّائدْ

فجمع هنا الصيدة وصغارها والصياد، وأعاد ذكرهم في قوله (٣٠٢):

الشَاكِي الشَاكْيَه وأخشَافَا المَابْيَه

أي التي أبت الرضاع والرسول مرهون. ثم كنَّاها بصغارها هؤلاء في موضع آخر قائلا(١٤٠):

وأم أخْشَافْ والعُودْ البُكَاه انْشَافْ

والبيرْ بَعَدْما الإنْشَافْ والأعْمَى المطوِّل شَافْ

ثم عاد إلى الكنية بالأخشاف والخشوف ولكنه اضطر فثنَّى المجموع فقال (٤١٧):

والفحل الشّكَى وأم الخَشُوفين

لأن الخشوف جمع خشف وإنما يثنَّى المفرد ولكنّه احتاج كما بينته في مبحث الضرورات.

وسمَّاها (الظبي) صراحة في قوله (٣٧):

الصَّبي والضَّب والظَّبي المدرارْ

وهذا كقوله (الصيدة الشايل) أي المملوء ضرعها لبناً ودَرَّاً.

وسماها (الغزال) في قوله (١٧٦):

لَطِيفْ قولْ الغَزَالْ بَالْمَرْ وقول أخْشَافَها إنْ مَرْ

قالت الغزالة: عذبني الله عذاب العشار إنْ لم أعد. ورفضت صغارها الرضاعة. ثم مضى في التلميح والكناية عنها فقال (٣٣٠):

ومـــن بالرجعـــة ملتزمــــه   ومــــا كــــانٌ في العزمـــة

والالتزام بالرجوع هو من كلام الظبية، وما كانن في العزمة هي أربع جابر أو خَمْسُه كما سيأتي. ونوَّع في ذكر التزام العودة في قوله (٥٥):

خَـــــــرَّق العَـــــــادَة   خـــضَّر البيـــدا وزاوَى أبْعَـــادَا

والــشّمِس كاليــدْ والرِّجــل عَـادَا   والجِـــذع، والأوْفَـــتْ بميعَـــادَا

اخضرار البيداء وزوي أبعادها سيأتي عما قليل، وعودة الشمس واليد والرجل كلّه قد مر بك أما (الأوفت بميعادا) فهي الظبية التي ذهبت لأخشافها ثم عادت ولم تتأخر ولم تماطل فأشار إلى ذلك بأسلوب آخر في قوله (١٠٤):

والأوْفَـــــتْ مِـــــنْ غـــــير مَطـــــل

ثم أردف الإشارة إلى ذلك في موضع آخر (٥٣٥):

الجـــــــذعِ ضـــــــمنُو   والجَـــــــات لوعـــــــدُو

ضمن للجذع الجنة، وضمن للصائد عودة الصيدة التي أوفت وجاءت في موعدها. وأشار إليها وكنى عنها بإشارة لطيفة ضمن إشارات لطيفات في قوله (٨٨):

مِـــنْ آيُـــو مَـــا نَفْهَـــمْ   الـــــضَّنْك والمُـــــبْهَمْ

والأيكـــاتْ ومَـــا أوْهَـــمْ   والـــشّاكِي مَـــالي أهَـــمْ

والمُرْضِــــــعَالا بَهَــــــمْ

فمن آياته ومعجزاته ما فهمناه ومنه الضنك والشدة والسِّنين الشهباء التي فرّجها، ونبع الماء من إبهامه (المبهم) فأروى به الجيش، والشجرات التي جاءته تخُبُّ كما في حديث جابر والعنكبوت الذي نسج فأوهم كفار قريش ليلة الهجرة. والبعير الذي شكى ما أهمه وأن صاحبه كان يجيعه ويتعبه بالعمل، ثم الظبية (المرضعالا بَهَم) والبهم هو أخشافها الرضيعة، فتأمَّل الإبداع.

ويسميها (وَحْشَة البْرْ) كما في قوله (٢١٥):

فَـــــاتِحْ البِـــــرِّ   الوَضِـــيع مِنُّـــو الكبْـــر مُتْبَـــرِّي

فَـــادِيَ الفَحْـــلِ ووحْـــشَة البَـــرِّ   عَايــدْ المرْمُـــوسْ، الـــدَّمِي يَبَـــرِّي

الله أكبر من براعة هذا الرجل... يقول إن الرسول (ﷺ) هو فاتح خزائن البر، وهو المتواضع الذي تبرأ منه التكبُّر، وهو الذي فدى الفحل المنهك وفدى الصيدة (وحشَة البرّ) وهو الذي أعاد الميت (المرموس) إلى الحياة بإذن الله وهو الذي يبرئ الدَّمي أي المجروح.

ثم يعود إلى قصة حبس الصيدة وسجنها عند الأعرابي أو اليهودي فيقول مشيراً (٢٩٣):

فَـــــادِي الأوْكَـــــام واللّنـــــــسجَنْ

فالأوكام هو البعير كما في اللغة البجاوية، والذي انسجن هو الغزال، الذي صرح بسجنه في قوله (٣٩٦):

فـــــكّ الغَـــــزال مِـــــنْ مَـــــسْجَنَا

ويسمِّي الصيدة بالرهينة أي المرهونة المحبوسة، في قوله (٥٧):

كالرّهينَـــة أنجـــد كـــم مـــراهين   بالـــصُويع أشـــبع قُومُـــو والهـــينِ

فهو (ﷺ) كما أنجد الصيدة المرهونة وفك أسرها، أنجد أيضاً وفك كم مرهون كما في قصة سلمان الفارسي الذي كان مرهوناً ومكاتباً لدى بعض اليهود.

ويستمر في الحديث عن الصيدة والصياد والشَّرك فيقول (١١١):

وفـــــكّ مِـــــنْ الـــــشّرَك صِـــــيدَه

ثم ينوِّع كعادته ويبدع كأصله فيقول في هذا الصَّدد (١٨٠):

فـــكّ الفِـــي الـــشّرك ملويـــة   والقُـــوم مِـــنْ بهـــامُو رَويّـــه

وقال (ملوية) لأنها مربوطة والمربوط يحاول الفكاك والتَّخلُّص فإذا فعل ذلك انلوى فيه الحبل. ويُرْدِفهُ بأسلوب آخر وفي نفس المعنى بقوله (٨٢):

فـــــكّ الّـــــذِي انْطـــــردَا   والـــــصّيده مـــــن زردا

فالذي انطرد هو البعير الشاكي، والزَّرد هو الشرك الذي وقعت فيه الصيدة.

ثم نختم ببعض العويص من حديث الصيدة وهو قوله (٩٢):

الـــــشَّكَتْ والتَّلْبـــــي   والّـــــذي اتوسَـــــل بِـــــي

والجَـــــواد انحـــــل بـــــي   واب جَهـــــل بالغُلْـــــب

آبَ منُّـــــــــو الكَلُـــــــــبِ

يتنفس الشيخ إبداعاً وتفنناً ويرسل نفسه على سجيتها فلا يأبى عليه معنى ولايعجزه تعبير. تأمّل آخر شطرة في هذا المقطع وكيف استوى سبّ أبي جهل بلا جُهْد. (أبوجهل الكلب رجع من الرسول بالغُلْب) ثم تأمّل الإشارات المختصرة العجيبة في قوله (الشكت) وهي طائر

الحُمّرة التي أخذ بعض الصحابة أفراخها كما في الخبر، فجاءت ترفُّ فوق النبي وكان ما كان. أمَّا (التَّلْبي) فهي مما لا يتسنَّى مُغْلَقُهُ إلاّ بالتوفيق والفتح والإلهام وأرجو أن أكون قد أصبته، وذلك أن الصيدة كانت مرضعة وذات أخشاف صغار، وأن أول اللّبن عندنا هو (اللّبَا) يكون غليظاً لأيام ثم يَرِقُّ، فسماها (التَّلْبي) أي التي امتلأ ضرعها باللّبأ، فهي التي تلبي أو تجود على صغارها بهذا (اللِّبا) وهو في الفصيح مهموز (اللّبأ) فتأمل!!.

آيات جابر:

جابر بن عبدالله الأنصاري، أبو عبدالله الصحابي الجليل، راوي حديث الرسول (ﷺ) وصاحب قصة الخندق المشهورة، فقد كان الصحابة يحفرون الخندق برأي سلمان الفارسي استعداداً لملاقاة قبائل العرب التي تحزبت عليهم، فاعترضتهم صخرة شكوا أمرها للرسول (ﷺ) فتناول معولاً ورفع يديه الكريمتين ليفلقها فرأى جابر أن الرسول (ﷺ) يعصب حجراً على بطنه من الجوع فانسحب خلسة إلى داره وسأل زوجه أم عبدالله عمَّا في الدار من طعام فقالت ما هو إلا صاع من شعير وهذه السخلة فقال لها اذبحيها واطحني واعجني أملاً في أن يدعو الرسول ورفقة قليلة من أصحابه، فلما أخبر الكريم الجواد (ﷺ) نادى في أهل الخندق وهم نحو ألف قائلاً: يا أهل الخندق إن جابر بن عبدالله قد صنع لكم (سُوْرًا) وهي المأدبة بالفارسية، فضاقت الأرض بما رحبت على أبي عبدالله فطمأنه النبي ومضى معه إلى داره ونظر في الطعام وتفل وبارك ودعا الناس عشرة عشرة فأكلوا وشبعوا والطعام باقٍ بل قال لهم الرسول: كلوا ولا تكسروا عظماً فلما فرغوا دعا الله للعناق أو السخلة فقامت ودعا له بالبركة في داره، وتضيف بعض الروايات أن غلامين لجابر سلفاً وأخبرت أم عبدالله الرسول فدعا لهما فحييا وعاشا. ونِشأت من هذه الحادثة أربع أو خمس معجزات تنسب لسيدنا جابر هي: نمو الزاد، الصاع والقدر، ورجوع الشاة والغلامين إلى الحياة ومباركة داره.

تناول المادحون هذه الكرامة لجابر والمعجزة للرسول وتوالى ذكرها وتداعى في ديوان الشيخ حياتي بما أعياني حصره ولكني جمعت من ذلك طرفاً صالحاً. فهو يسميها أربعة جابر وخمسة جابر ويذكرها منجمة أما معجزة واحدة في القصيدة أو اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً حسبما يتحمله السياق، وقد يكني عنها أو يشير إليها بالعدد أو يوردها مجملة أو يفصلها، كل ذلك وراد مستفيض في الديوان. ومن إشاراته الموجزة قوله (٨٤):

سَـــلْمَان نخيلُـــو جَبَـــا   ولجَـــــابر العَجَبَـــــا

ثم يتقدم قليلاً نحو الإيضاح فيقول (٤٣٨):

شَــــاة أم مَعبــــــد حيَّنـــــا   جَـــــابِر مَعـــــاجزُو معيَّنــــه

وحيّنها أي ملأ ضرعها وهو من فصيح كلام العرب.

وقريب من ذلك قوله (١٩٨):

والعينـــــان كـــذا الـــداميات   والنـــــوق جَـــــابرٍ آيـــــاتُو

ثم يكني عنها فيقول (٣٣٠):

ومـــــن بالرجعــــة ملتزمـــــه   ومــــا كـــــانن في العزمــــة

والملتزمة بالرجعة هي الصيدة، والعزمة هي مأدبة جابر أو (عزومته) وكانت فيها المعجزات المعنيَّة.

ثم يذكرها بالعدد فيقول (٥٣١):

نَـــادَى الأيَـــاكِي أتَـــنْ   دُور لِــي الــسَّمَاء هَـــتَنْ

زَي بَـــــدُر نَافِلــــــةَ   تَكْفِينَـــــا وارْبعــــــةَ

أي تكفينا من معجزاته أربعة جابر.

وقد يعمم فيقول واصفاً تمام الحال في دار جابر في ذلك اليوم (٨٢):

خــــير جَــــابر رقَـــــدَا   وفَــــدْ حاجَـــة مَـــا فَقَـــدَا

هذا كلام العوام وسبك الخواص وقد بينته في مبحث التراث.

أو يعيد ذلك المعنى بعبارة أخرى قائلاً (٥١٦):

جَـــابِر يــــومْ مَــــا صَــــبيتْ   مَـــا افْقَــدتُو شِــي في البيـــتْ

أي إن جابراً يوم توجهت إليه باركت له كل شيء فلم يفتقد شيئاً.

وقد يبارك القصيدة بمعجزة واحدة مع المحافظة على التنويع فيقول مرة (٤١٠):

مَعَـــاجزُو الأعْيَـــا تَقْنينـــا   فمنهــــا النّاميــــة تغْنِينَـــا

لإشـــــباع الثّمانِينَـــــا   وزوجَــــة جَـــابر ابنِينَـــا

والنامية هنا هي أقراص أنس (الخمسة الغدّت) لأنها مقيدة بإشباع ثمانين أما صاع جابر إذا تبادر لك فإنه أشبع المئات إذ في الخبر أنهم كانوا نحو ألف. والشاهد هنا إحياء ابني جابر، فذكر واحدة فقط من معجزات جابر المنسوبة إليه.

وذكر أخرى في قوله (١٢٦):

والثــــدِي المابخَــــلْ   والـــدّار لهَـــا حـــين دخَـــلْ

أراد مباركة دار جابر، وما حلَّ فيها من النعيم حسب وعد النبي الكريم (ﷺ).

ثم حلّق بنا وأغرب ليذكر واحدة أخرى من آيات جابر ولكنه أتى بها في سياق عويص من الضرب الذي لا يتسنى إلا بالفتح، تأمله قبل أن تقرأ شرحي، وأعني قوله(٢٤٣):

البَـــــرْ يَـــــالفُو كَـــــلا　　　حَـــــامْ فُوقُـــــو وعَكَـــــلا

للعُـــــود حَـــــنْ ثكـــــلا　　　ونَمَـــــا صَـــــاع الأُكـــــلا

لما علم الشاعر أن النافرات حيواناً وطيراً كانت تألف الرسول ولا تنزعج كعادتها، اختار منها طيراً معيناً يشير به إلى كل الطيور وهو طير (الكَلاَ)، طائر أسود يعرفه أهل الجزيرة وجعل هذا الطير يألف النبي الكريم ويعكف فوق رأسه،. أما حنين العود أو بكاء الجذع فهو معروف لم اختره ضمن ما اخترت لكثرته وكثرة حديثه ببراعة عنه وقد خشيت الإطالة. أما الشاهد فقوله (نما صاع الأكلا) أراد نمو صاع جابر حتى كفّى الآكلين.

وقد يذكر في القصيدة اثنتين من معجزات جابر كما قدّمتُ، ومنه قوله (٥٥٢):

كأمَـــــامُو يَنْظُـــــر خَلفُـــــو　　　عَـــــافَى المَرَاضَـــــى التِّلْفُـــــو

والـــــصّاع يَكْفِـــــي الألْـــــفُ　　　وأحْيَـــــا الـــــصّبيين حَلْفُـــــو

أراد صاع الشعير وابني جابر كما ورد في الأخبار.

والشيخ وأهل السير والمادحون ينوعون في تسمية شاة جابر المطبوخة التي أُحييت، فيجعلونها نعجة وشاة وعناقاً وعبوراً وسخلةً وكله وارد ومحتمل، اختار منه الشيخ العناق فقال (١١٤):

عنـــــاق جَـــــابر فيـــــا طفيـــــلُ　　　حَياهـــــا وبَـــــارك قليلُـــــو

ويُلِحُّ عليَّ بيت حاج الماحي (عُقُب جابر حيالو عبور). والمهم أن المذكور هنا معجزتان العناق ومباركة الزاد القليل.

والشاعر يراوح في اختيار المعجزات حتى حين تكون اثنتين كما قال(١٨٢):

كُـــــل الخـــــير حَـــــاوي فنُونُـــــو　　　جَـــــابِر أحيَـــــا شَـــــاتُو بنونُـــــو

فذكر الشاة والبنين. ثم ذكر الشاة والدار في مجانسة لطيفة في قوله (٤٩١):

جَـــــاتُو الـــــشم دَهـــــب والله مَـــــا دَارَا　　　زوجـــــة جَـــــابر شُـــــوف شـــــاتَا شُـــــوف دَارَا

شُـــــوف لَيْلَـــــة عرُوجـــــو العَـــــزَّ مِقْـــــدَارَا　　　حِـــــينْ شَـــــافْ العَلِـــــي وجَـــــا مِنُّـــــو بَالـــــدَّارَا

وأنت أيها القارئ الكريم (شوف) إبداع هذا الرجل في قوله (جا منُّو بالدارا) فهل تجد أبلغ منها في أوبة الرسول (ﷺ) من تلك الرحلة المباركة رحلة الإسراء والمعراج وقد طابت نفسه ورأى ربه وأكرم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؟ فماذا يريد بعد

ذلك؟..(جا منو بالدارا) أي بالتي أرادها في الدنيا والآخرة. اللهم ارحم الشيخ حياتي وأحسن إليه كما أحسن إلى نبيك وأحبابه.

ويعيد ذكر الشاة ومعها نمو الزاد بعبارة أخرى في قوله (٥٢):

أحْيَـــا شَـــاة جَـــابِر نَـــامى لِـــي قَـــدْرُو

وهذه خامسة المعجزات، وهي صاع الشعير والقدر الذي بورك ما فيه وإحياء الغلامين ثم إحياء العناق ومباركة الدار. فكأنها خمس إذا فصل فقال الصاع والقدر وأربع إذا جمعها فقال الزاد لأنه يشمل القدر والصاع، وهذا من الدقيق فتأمله.

وقد يذكر الشيخ ثلاثاً من معجزات جابر في القصيدة الواحدة مع حفاظه الشديد على التنويع الذي يظهر البراعة ويدفع السأم والملالة كما في قوله (١٩٦):

يـــا أهَـــل الإنـــشَا إنْ أطْنَبْنَـــا في المعْجِـــزْ قَليـــلْ الْجِبْـــنَا
شَـــاةْ جَـــابِر وصَـــاعُو الأبْنَـــا والمَطـــر الهَمَـــى في الـــصَّبْنَه

فذكر الشاة والصاع والأبناء وهذا مفصَّل في تركيز المعجزات عند الشيخ وهو مبحث دَسِم. وكرر ذلك بالحرف في موضع آخر مع تغيير ملحوظ في الصياغة في قوله (٤١٨):

جـــابِر صَـــاعُو شَـــاتُو بنيِنُـــو

أو قوله:

والـــصَّاع البـــنين والـــشّأ ومـــا انلحـــدن

وشرحها في قوله (٣١):

معجزاتُـــــــو عَيَـــــــتْ منهـــا غلمـــان جـــابر وشَـــاتُو حيَـــتْ
صَـــاعُو والأقـــراص والّـــذِي عَمِيَـــتْ والبـــدُور والأيكـــاتْ ومـــن دَمِيَـــتْ

والصاع شيء والأقراص شيء آخر وكلاهما بورك فيه. أما التي عميت فهي أم جميل امرأة أبي لهب وبقية المعجزات المذكورة هنا واضحة.

وذكر المعجزات الأربع اختصاراً وأكثر من ذلك، ثم عددها من بعد، أما ذكرها عدداً ففي أقواله(٣٧٢): جَـــابِر مُعجزاتُـــو الأربعـــة البَايْنَـــات

وقوله (٣٥١): وكَـــذَا أرْبعَـــة جَـــابِر والنُّـــوق كلامَـــا

وقوله (٣٣٦):

لآيَـــاتْ أبْ جَهَـــلْ خَـــابِر وسَـــلْمَان وارْبعَـــةْ جَـــابِر

ويداعب المحبين ويهيج أشجانهم بقوله (٣٢٨):

بـــآي قُرآنُـــو مَـــا سمعتُـــو   ولا للإحيَـــــا طَـــــــالعتُو
كفَـــاكُمْ جَـــابر أربعتُـــو   وسَـــلمَان إن بقَـــا شـــبعتُو

كأنه يقول: ألا تشبعون؟ ألا يكفيكم القرآن ولا ما جاء في (إحياء علوم الدين للإمام الغزالي) فإن كان لابد فتكفيكم معجزات جابر الأربع، وسيرة سلمان الفارسي وما فيها من عجب كقصة نخله الذي أثمر في عامه وقطعة الذهب التي لا تساوي شيئاً فتباركت ووفت بِدَيْنِهِ. بل العجب في مجيئه من أرض فارس إلى أرض الحرَّتين وهي المدينة باحثاً عن الحقيقة وذاق في سبيل ذلك ما ذاق حتى استُرِقَّ وبيعَ واشْتُرِي ثم أعتقه الله وبارك فيه حتى صار من آل البيت (سلمان منَّا آل البيت) فكان الرسول (ﷺ) سابق العرب وسلمان سابق الفرس وصهيب سابق الروم وبلال سابق الحبشة ورفعهم الله فوق القروم الجبابرة فله الحمد وله المِنَّة. (سيرة ابن هشام،١/٢٠٢).

ثم يفصِّل الأربعة كما في قوله (٤٧٦):

سَـلْمَان فِي نَخِيلُـو وديِنُـو شَـافْ عَجَبَـاً   جَـابِر شَـاتُو يَـالَ وابْنَـا يَـالَ نَبَـاَ
صَـاعُو ودارو يَالَـه اتْزَحْزَحَـتْ طَرَبَـاً   عَـامِر غُـدُّ وارْبَـد فَـوْرِ صَـار هَبَـاً

ما أعظمك من نبي وما أروعك من شاعر! تقدم الحديث عن سلمان وعجائبه ثم ذكر أربعاً من معجزات جابر هي الشاة والأبناء والصاع والدار التي توسَّعت (اتزحزحت) فيالها من معجزات ويالهم من صحابة مكرمين. أما عامر فأصابته الغدة وأما أربد فأحرقته الصاعقة بدعاء الرسول عليهما.

ثم أعاد ذكر الأربعة نفسها بأسلوب آخر في قوله (٤٢٠):

كَـان حيـا شُـهْب السـنينُ   جَـابرٍ شَـاتُو وبَنِينُـو
واتـــساع دارُو وضَـــنِينُو   والأُكَـام والعُـودْ حَنِينُـو

فنوع بذكر اتساع الدار ونمو طعامه الذي كان قليلاً (ضنيناً).

أما الإشارة إلى معجزات جابر بالخمسة فقد كثرت عنده، إلا أن الأربعة أكثر ذكراً. ومن المواضع التي ذكر فيها الخمسة عدداً قوله (٣٨٩):

أمّ مَعْبَـد شُـوفْ شَـاتَا الوَجِيبَـه   مُعجِـزَاتْ جَـابِر الخَمْـسَة جِيبَـا

وربما تبادر أن قوله في (السادات)(٤٨١):

وآيَـاتْ جَـابر والخَمـسَة الانْحَـسَبَنْ

من هذا الباب، وليس كذلك، لأن وجود واو العطف يلزمنا بأن تكون الخمسة سوى آيات جابر وهو كذلك، أراد بها أقراص أنس بن مالك الخمسة المشهورة ولو حذف الشاعر الواو تساوق الأمر مع ما نحن فيه. وقد فصل هو هذه المعجزات بما يدلّ عدداً على أنها خمسة في مواضع عديدة منها قوله (٣٥٤):

ولجـــابرٍ صَـــاعاً شَـــاة وقِـــدْرَاً   دَاراً وغِلْمَانَـــاً بِـــذَا حِطْنَـــا خُـــبراً

فأفاد بأنه أحاط بها خبراً وهي خمس عنده ههنا. وخمسٌ في قوله (٣٦٧):

جَـــابر ابْنَـــا وشَـــاتُو ونمُـــو القِـــدْرَا   والـــصُّويع والـــدَّار شَـــرَّفَتْ قَـــدْرَا

وقال أيضاً (٤٢٢):

لـــي بـــنينْ جَـــابِر شَـــاتُو قـــدرُو   صَـــــاعُو دارُو المتَّـــــسْعَة أدرُوا

وقد دَرَيْنَا؛ جزاك الله عنا خيراً. ومرَّ شرحه وبَيَّنا الجمع بين الخمسة والأربعة.

ويدخل الواو العجيبة هذه فتحدث فصلاً مُبيناً بين الأشياء وقد ناقشتها في مبحث دقة الصَّنعة لدى الشيخ، وقد جعلت هذه الواو الأربع خمساً في قوله(٢٢٨):

وصَـــاع جَـــابِر نِمُـــو، وقِـــدْرُو   وشَـــــاتُو وابْنَـــــا دَارُو أدْرُو

فالصاع نما كما قال ود اب شريعة والقدر نما ولكنه هنا ذكر القدر مجرداً ونسب النمو إلى الصاع وأنها أيضاً تباركت أراد نمو الصاع ونمو القِدر والشاة والأبناء والدار فتلك خمسة كاملة. فإذا قال الزاد أراد الصاع والقدر فصار العدد أربعة، فاعلم.

وعلى الجملة فإنني ما أطَلْتُ في هذا المبحث إلا لأُبين دقة هذا الرّجل وبراعته وتعمدت انتهاز السوانح لشرح ما قد يعسر على بعض مطالعي الديوان. ولو أراد الباحث التقصي ههنا لخرج بكتاب مفرد مستقل في معجزات جابر أو أخواتها. ولابد أنَّك لاحظت التجويد والتنويع حتى لتشعر في كل مرة أن الكلام جديد مستأنف مع أنه هو هو، وهذه هي البراعة.

اخضرار اليبيس:

من الثابت في سيرته (ﷺ) أنَّه أحيا بدعائه السنين الشهباء المجدبة، وفي قصة الأعرابي الذي وجد الرَّسول يخطب يوم الجمعة فقال له هلك الزرع والضرع... كما في بقية الخبر فما نزل الرّسول من منبره حتى أخضل الماء لحيته. ووجدت في بعض الآثار أنَّه حين مر بخيمة أم معبد مج بريقه على شجرة عوسج فاخضرت، ولما حلّ ببادية بني سعد وهو رضيع أخصب واديهم بعد المحل ونحو ذلك... ونزول المطر وزوال المحل وإخصاب الوادي يغير وجه الأرض من اليباس إلى الخضرة. ذكرت كتب السيرة ذلك وأكثر من ذكره المادحون وافتنَّ في ذلك

الشيخ حياتي أيّما افتنان، وعبَّر عنه كعادته بتنويع وإبداع فذكر إحياء السنين في قوله (٢٢٦):

إِحْيَـــاء الـــشُّهُبْ واليَـــابِسْ تَهَـــوْتَنْ

أراد إحياء السنين الشهباء الكالحة القاحلة، كأن الأرض شهبتها نار فأحرقت ما فيها، وسأعود إلى اليابس المتهوتن. وأعاد هذه الصفة في قوله (٤٧٦):

عَــذْب المالحــاتْ شُــهب الــسِّنِينْ خَــصَبَنْ

أي أخصبت السنين الشهباء.

ويوضح ذلك في قوله (٥٤٠):

أخْـــــصَبْ الأعْـــــوَام الجـــــدُب

ثم وصف الأرض في تلك السنين بأنها (جُرُز) أي لم يصبها مطر، ولا نبات فيها فقال (٤٩٢):

والجُـــرْزَا حِيَـــتْ وافْـــترَّتْ أكْمَامَـــا

أي: حييت الأرض الميتة وتفتحت أكمام أزهارها.

وهذا النوع من الأراضي يعرف عند أهل السودان بالحَدَب، وهو الأرض الخالية من الغطاء النباتي، فالتقطها الشيخ حياتي معادلاً بها لفظة (الجرُز) في مواضع، منها (٣٨٦):

اخـــضرَّ بمـــرُورُو الحَـــدَب وأحْيَـا المـواتْ وأحيَـا الجــدب

وقال (٥٤٦):

واخْـــضَرْ بِـــي مَـــشْيِهُ حَـــدَبْ

والحدب والجدب والأرض الموات كلها مما أحياها بدعوته لما نزل بها المطر كما في قوله (١٧٣):

بـــدُعَاهُ حَيَـــا الجـــدُوبْ بِمَـــشي اخـــضرَّتْ حِـــدُوبْ

دعا فأحيا الأرض المجدبة بإذن الله، ومشى على الأرض الجرداء فاخضرَّت. ثم زاد في قوله (٤٧٦):

والحَجَـــرْ انْفَجَـــر واخْـــضَرْ ريَـــا حـــدباً

فأضاف إلى الحدب كلمة الربا، والأرض إذا كانت حدباً ومرتفعة كانت أشد جدباً، ثم زاد في الارتفاع إمعاناً في الجفاف والجدب فقال(١٠١):

أنْجَـــل كَحِيـــلْ وأهْـــدَبا فوقَـــكْ ذُبَـــابْ مـــا دَبَـــا

خَـــضَّرْ رُبَـــا الدَّبْـــدَبَا واخْـــصَبْتْ لِـــي المجْـــدَبَا

ربا الدبدب أي الأرض المرتفعة، ومنها الدَّبَّة وهي المكان العالي، كل ذلك خَضَّره (ﷺ) وأخصب الماحل المجدب بدعوته.

ثم وصف هذه الأرض بأنها كانت أودية ميتة نخرة، فقال(٢٧٦):

إن مـــــرَّ بَـــــالوَادِي النَّخَــــرْ   فِي حينُـــو مَـــاحْ والبَـــدْر خَـــرْ

والذي يموح هنا ليس الوادي وإنما المقصود نباته في حينه اخضر وماح. وقد يكون في قوله (الوادي النخر) مجاز الحذف، كأن المراد الوادي الذي نخر السوس نباته. وعلى الجملة فإن إحياء الأرض والأودية والحدوب والجدوب والجراز والرُّبا والدِّبادب كله من المجاز المرسل؛ لأن الذي يحيا إنما هو النبات الذي ينمو في تلك الأنواع من الأرض، فذكر المحل وأراد الحال في النماذج السابقة، ثم عاد من بعد وفصل هذا الحال وبَيَّنَهُ وصرح به كما في قوله(٥٢):

خَـــــــــــــضَّر الحَتْحَـــــــــــــتْ

أي اخضر ببركته النبات الذي انحتت أوراقه.

ويُبعد المرمى ويوغل في العاميَّة الفصيحة فيقول (٥١٤):

مــــــن آيُــــــو الكــــــاوَة جَــــــازْ

أي من معجزاته أن النبات (الكاوه) أي الجاف، جازى بالخضرة، كما في قولهم (القَاوَى نَاوَى) أي الذي كان يابساً قوياً أصبح ليناً نَيَّاً. وترد عنده المجازاة في الدعاء كما قال: (ياكريم زرعي يجازي بالخضرة) ومنه (الجزُو) في المراعي وهو النبات المخضر.

وقد يسمِّي هذا النبات الذي اخضر بالهشيم كما سيأتي، أو (الرميم) فيقول (٤٣٨):

والــــــرَّمَّ مَــــــاحْ غُــــــصنُو انْتَنَـــــى

أو (٧٧):

والــــــرَّمْ حِيــــــا انْلَّبَكَــــــا

يعني النبات الذي (رَمَّ) أي جف وأصبح رميماً، اخضر وماست أغصانه وتثنت والتصقت أوراقه بعضها ببعض.

وقد يصفه باليابس أي الجاف فيقول كما في الشطر الذي مرّ (٢٢٦):

إحيَــــاء الــــشُّهُب واليَــــابِس تهــــوتن

وتهوتن أي بالغ في الخضرة

أو يقول (٥٤٦):

لــــي اليَــــابِسْ تَمَلَّــــى رُطَــــبْ   والْتَقَطَــــتْ يَــــدَاهُ حَطَــــبْ

أي: اليابس اخضر للرسول وامتلأ بالثمار والرّطب، وقد تأتي اليابس بمعنى الفارغ وقد يَتَأوّله متأول بنخيل سلمان الذي أثمر في عامه، ويفهم هذا الاحتمال من مجانسته اللطيفة في قوله (٢٢٤):

جَمّــــلْ نُـــورُو الملابِـــسْ   واخْـــضَرْ بمـــرُورُ يَـــابِسْ
مَاسَـــوْ عِـــنْ بَـــابُو حَـــابِسْ   غَنَـــى عـــدمانْ بيتُـــو يَـــابِس

اخضر النبات اليابس بمروره (ﷺ)، والبيت اليابس أي الفارغ من المتاع ونحوه، وهذا جناس تام، ثم انظر رحمك الله إلى بلاغة الشيخ في قوله (جمل نورو الملابس) أي كان (ﷺ) يزيّن الملبوس ولا يزينه الملبوس لنوره وجماله (ﷺ)، (وماسَوْ عن بابو حابس) أي ليس له حاجِب يحجب عنه أصحاب الحاجات.

وشبيه باليابس قولهم (المنحطب) أي الذي صار حطباً، وقد وردت عند الشيح في قوله (٩٢):

أثمَـــــرْ المُنْحَطِـــــبِ   والثَّـــدِي مِـــنْ قَطـــبِ
وألْـــصَقْ المُنْـــشَطبِ   وكَـــمْ أغَـــاثْ مِـــنْ خَطـــبِ

فاليابس الذي صار حطباً اخضر وحمل الثمار، ومثله الثدي القاطب اليابس وهو ضرع عجوف أم معبد. وإلصاق المقطوع والإغاثة من الخطوب هي ديدنه (ﷺ).

وأتى بالمنحطب في صورة فعل فقال (٨٦):

أحْيَـــا مَـــنْ احْتَطَبُـــوا   والمَـــاتُو انتربـــوا

أحيا الشجر الميت الذي احتُطب منه مثلما أحيا الذين ماتوا وقبروا كابنة حبيب المذكورة في بعض مصادر السيرة.

ولم يكتف باليُبْسِ والجفاف لدرجة الاحتطاب ومضى أبعد من ذلك فجعل ذلك الشجر المذكور قد جفّ ويبس حتى نخره السوس فقال (٣٩٢):

شَـــارْ لِـــي الـــسّمَا صَـــبْ دور مُـــدِيمْ
الـــسُّوسُو ضَـــرَّ زَمَـــنْ قَـــدِيمْ   إنْ مَـــرْ بِـــه اخْـــضَرْ والأدِيـــمْ

ذكر هنا إشارته إلى السماء ودعوته التي أعقبها المطر الذي دام أسبوعاً حتى شكى الناس منه، فاليابس الذي ضربته السوسة حتى أصبحت (تَضَرِّي) أي يذروها الريح اخضرّ بمروره (ﷺ) وكذلك اخضر أديم الأرض وهو وجْهُها.

وأعاد ذكر اب سوس في موضع آخر وزاد في صفة اخضراره فقال (٥٥٥):

بـــي الطّفْـــلِ قَـــرْ والـــضب   جَرْجَرْلُـــو أبْ سُـــوسْ وضَـــبْ

أي النبـات الـذي جـف حتـى دخلـه الـسوس، اخـضر فجرجـر عروقـه وأغـصانه وحمـل الوضيب وهو الأوراق أو (الصَّفَقْ) كما نسميه. ثم اكتفى بالإشارة إليه فقط فقال (١٦٥):

الـــــصُّم والجَرْجَــــــرَا   والنُّـــــوقْ والجَرْجَــــــرَا

فالـصُّم الحجـارة الـتي لانـت لـه، و(الجرجـر) الأولى وهـو النبـات الـذي نمـت فروعـه وأغصانه أما (الجرجر) الثانية فأراد بها البعير الذي جاء يجرُّ جرانه أي رقبته أو يهْدِر ويرجِّع الصّوت في حلقه كما في الخبر.

أما أكثر ما سمّى به النبات وهو في هذه الحالة فلفظ (الهشيم) وهو اليابس المتهلّف، وقد يـسميه (الهشَم) بـلا يـاء أي الـذي تهـشمت فروعـه وأغـصانه وأوراقـه مـن شـدة الجفـاف، وهـو لجفافه يضرب به المثل فيقال (كالنار في الهشيم) تكرر هذا اللفظ كثيراً في الديوان ولكنه كان يشفعه بوصف مختلف في كل مرة فقال عن الهشيم (١٩٤):

إنْ مَـــــرْ بالهَــــــشِيمْ شَـــــالْ ثَمْـــــرُو

وقال (١٩٧):

إنْ مَـــــرْ بالهَــــــشِيمْ شَــــــال أوْرَقْ

ثم قدم وأخر فقال (٦٦):

بالهَــــشِيمْ إنْ مَــــرْ يَخْــــضَرْ ويعلّــــفْ

ويعلّف أي يحمل الثمر، والعُلّيف عندنا هو ثمر شجر السيال، أطلقه على الثمر كلِّه.

وقال (٥٤٠):

بِـــــي الهَــــشِيمْ اخْــــضَرْ والحَـــــدَبْ

ووصفه بما توصف به الأرض فقال (٤٨٤):

والجُـــــرُزْ الهَــــشِيمْ أغْــــصَانُو اتْقَلَــــدَنْ

واتقلاد الأغصان هو تعانقها ولا تتعانق إلا إذا كانت لينة خضراء مكتسية، ولا يتعانق اليابس لجفافه وتباعد بعضه عن بعض ولخلوه من الأوراق.

أمـا (الهَشَم) بـلا يـاء بعـد الـشين وهـو الـذي انهـشم مـن اليـبس والجفـاف فقـد جـاء في قوله (٤٦٥):

والنَّــــايْ والهَــــشَمْ فَرَّاعُـــــو انْعَـــــنَفَنْ

وقوله (٤٤٠):

والنَّمَـــا والهَـــشَمْ أغْـــصَانُو مُنْلَبْكَـــة

انعنفن: امتلأن بالأوراق، ومثله منلبكة أي التصقت بعضها ببعض، ولا ينلبك إلا اللَّيِّن المخضر وهذا كلّه مثل (اتقلدن) التي مرت قبل قليل. أما الناي فهو طي المسافات البعيدة و (النما) هو الطعام وقد يصف (الهشم) بأوصاف أخرى فيقول (٤٩٥):

إن مـــر بالغمـــام يـــبرا، الهـــشم ماســـا عـــاد الـــشمس عـــصراً بعـــد إدماســـا

إن مرّ الرسول (ﷺ) بالسحاب يَتْبَعُهُ (يبرا) ويظلّه، واليابس كما مرّ اخضرّ وتمايل (ماس). وردّ الشمس بعد الدماس وهو الظلام أي بعد مغيبها.

ووصفه أيضاً بقوله (٤٣٢):

والْهَـــشَمْلُو جَـــازَى واتنـــتَحْ وانحَمَـــلْ

أي الذي هشم وجف اخضر وامتلأ وانحمل بالثمار لأجل الرسول (ﷺ).

وقد يذكره غُفلاً دون صفة فيقول (٣٦٥):

ثُـــمَّ الهَـــشَمْ والـــصَارْ لَـــبِينْ

فالهشم هو كما مرّ بك، و (الصار لبين) هو الضرع الذي امتلأ باللَّبن وهو كثير.

فهذه سياحة بليغة في معجزة واحدة، أبدع الشاعر في التعبير عنها بأساليب مختلفة متنوعة وببراعة متناهية كعادته عليه رحمة الله.

غاية الرَّسُول (ﷺ):

اختص الله تعالى رسولنا محمداً (ﷺ) بما لم يؤته أحداً من العالمين، لا الرسل ولا الأنبياء ولا الملائكة المقربون ولا البشر. فهو خاتم النبيين وأولهم (كنت نبياً وأدم بين الماء والطين) وهو أوّل من تنشق عنه الأرض يوم القيامة وهو صاحب الوسيلة والفضيلة والشفاعة والمقام المحمود والحوض واللواء والكوثر، وهو الذي رأى المولى بعين رأسه وحباه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وجعل أمته خير الأمم وأكرمه بالقرآن المعجزة الخالدة وقد زالت كل معجزات الرسل بزوال عهدهم. وبما لا تحتمله هذه العجالة. فبلغ بذلك الغاية القصوى التي ينتهي عندها كل كمال لأنه بدأ من حيث انتهى غيره.. هذه الخصائص أسرت المادحين ومن بينهم الشيخ حياتي الذي جعل هذه الخاصية واحدة من مداراته وتحدث عنها مصرحاً وملمحاً ونوع في ذلك تنويعاً مدهشاً تتابعه فيما يلي، ونبدأ متدرجين بقوله (٣٨٩):

جُـــزْءِ مِـــنْ نَيْلُـــو نَيْـــلَ الكَوامِـــل

وقوله (٢٥٤):

الْمَواهبُـــــو سَـــــنِيَّة ... كـل شـي غـايْتُو أخلاقُـو قُرآنيـة

عـــزَّ شِـــبْهو نَبِـــيَّ ... عـنْ مَبَـادِي عُـلاه الْمَعَـالِي ونَيَّـة

وقوله (٣٥٣):

غَايَـات عُـلا عَـازَاتْ عَلَـى كُـلِّ طَائِـلْ

فجعله (ﷺ) غاية الغايات، ثم يتصاعد الثناء والتنويع فيقول (٤٦):

كـــل غَايَـــة خـــير في عُـــلا اكْتَمَلَـــتْ

ويعيد ذلك مع إضافة (٢٠٧):

كُـــلَّ شَـــي هُـــوَ غَـــايْتُو ... حَـارْ جَمَـالْ حُـسْنُو لا نُهَـىً لِنِهَـايْتُو

العَمِيمَـــــه ولايْتُـــــو ... للخَلِـقْ طُـرَّاً يكْفِـي جُـزْءِ كِفَـايْتُو

ويستخدم الشيخ الغاية والمنتهى والمعنى واحد، وله في النهايات كلام طويل كقوله (٢٩٨):

مَـــا مِـــنْ شِـــي إلا في انْجَمَـــلْ ... مَنْهَـــى الكَمَـــالاتْ والأمَـــلْ

كل شيء انجمل وانحصر فيه وكل كمال ينتهي عنده وكل أمل يقف عنده. لأنه كما قال (٢٣٩):

انْتَهَـــــتْ فِيـــــه النهَايَـــــاتُ

وعبر عن ذلك وأجزل وأجمل في قوله (٤٩٦):

مَنْهَـى كُـلَّ شـي مـا خـلَّ في صُـوَابَه ... مِـنْ فيـضُو الرُّسـلُ والأنْبَـا رَوَّابَـه

وهذا من الكلام السُّوداني البليغ .. يريد أنَّ الرّسول (ﷺ) انتهي إليه كمال كل شيء، لم يترك في ذلك ولا أقل القليل ولا قدر صؤابه؛ والصؤابة هنة بيضاء تلصق في رأس الشعرة من شعر الرأس وهي بَيْضُ القمل يضرب بها المثل في قلة الشيء وضآلته. وفيض الرسل والأنبياء هو (راوبة) من فيض الرسول الغزير، وأصل (الروابه) جرعة اللبن الحامض يروَّب بها اللبن الحليب.

ثم يتقدم في الوصف أكثر فيقول (٣٤٤):

مَـا مِـنْ شِـي إلاَّ نُهَـا فِيـه انْتِهَـاهُ ... مـا الـشَّمْسِ في ضُحَاهَا مَـا البَـدْرِ هَـاهُ

مَـا الكُرْسِـي مَـا العَـرْش عِظَمُـو وزُهَـاهُ ... في الكَامِـلْ الإنْـسَانْ الفَـاقْ بَهَـاهُ

كل هذه المخلوقات العظيمة من حيث تنتهي عظمتها تبدأ عظمة الإنسان الفائق البهاء رسولنا (ﷺ).

ثم يفصل ويصرح بأنَّ النهايات كلها هي بدايات رسولنا (ﷺ) كما في قوله (٣٢١):

كُـــلْ النِّهَايَـــاتْ مُبْتَـــدَا   والمُهْتَـــدِي بِـــه اهْتَـــدَى

وقوله (١٢٣):

مُنْتَهَـــى الأَرْسَـــال في الكمـــال بَـــدْيُو

فلأنه الختام والمبتدأ فإن نهايات غيره هي بداياته. لذلك فإن كل غاية قاصرة عن بلوغ غايته كما صرح بذلك في قوله (٤٠):

سِـــيدي، والغَايَـــاتْ قَاصْـــرَات عنُـــه

وكما جعل النهايات مبتدأ له فقال (٣٥٠):

حَـــد مُنْتَهَـــى الغَايَـــاتْ بـــدءاً لغَـــايْتُو

أيضاً يجعل الغايات بداية لغايته كقوله (٣٨٩):

منتهـــى الغايـــات بـــدءاً لغـــايتو   خـــاتم الرســـل الســـادت ولايتـــو

فأنت ترى تنويعاً وتلوينا للعبارة ولكن المعنى هو هو. كما في قوله(٢٢٢):

والغايَـــــــاتْ مبـــــــدا غَـــــــايتُو

ثم يستخدم الاستفهام الإنكاري (٣٥٨):

عَـــذْب الطَّبَـــائعْ كَـــانْ حُلْـــوَ الـــشَّمَائِلْ   في فَخْـــر عُلْيَـــاهُ انْتَهَـــتْ الفَـــضَائِلْ

مِـــنْ بَعْـــدِ قُرْآنُـــو ويَعَـــدْ الـــدَّلائِلْ   مَـــا قُـــولِي فِـــيمَنْ لـــي الغَايَـــاتْ أوَائِـــلْ

ماذا أقول بعد القرآن وثنائه على هذا الرسول والدلائل وما جاء فيها من معجزات وخصائص هذا النبي الذي صارت غايات الرسل ونهاياتهم هي بداية غايته وأولها...يريد دائماً أن رسولنا ابتدأ في الكمال من حيث انتهى الآخرون.

ثم ينوع الأسلوب والمعنى كما هو فيقول (٣١)

حُـــــــسنُو حَـــــــارْ كُنْهُـــــــو   خُلْقُـــو جَـــا القُـــرآن والرُّسُـــلْ مِنْـــه

صَـــادر الغَايَـــاتْ مِـــنْ مَعَادِنْـــهُ   والْـــرَّأى الجبـــار غـــيرُو مَـــنْ مَـــنْ هُـــو؟

تحيرنا في كنه حسنه وماهيته فهو معدوم النظير، أخلاقه جاء بها القرآن ومن أخلاقه جاءت أخلاق المرسلين. كل غاية وكمال ينتهي فيه (ﷺ) والدليل على ذلك أنه رأى الجبَّار بأم عينه وهذا مالم يَتَأتَّ لأحد قط غيره (ﷺ).

ويتكرر المعنى في قوله (١٠٠)

منُّــــــو الغَايـــــــاتْ مـــــــــصدرا

لم يحدد بل أجمل كل الغايات مثلما قال (٣٥٣):

غايـــات عُـــلا عـــازات علـــى كـــل طائـــل

ثم يقف قليلا ليفصِّل فيقول، إذا كانت للرسل مَزِيَّة على سائر البشر، ولأولي العزم مَزِية على سائر الأنبياء والرسل، فإن لسيدنا رسول الله (ﷺ) مَزِيَّة على أولي العزم. ذكر ذلك في قوله (٢٥٦):

أُولُــو العَــزْمِ هُــمْ كَمَــالْ بِـدَايِتُو سَــرَى رَأى رَبُّــو الكــلام هَــدِي غَـــايْتُو

وقد مرّ في مبحث التراث، ومثله قوله (٤٥٥):

مَنْهـــى أُولـــو العَـــزْمِ أول بـــدايتُو

أي أن الدرجة القصوى التي وصل إليها أولو العزم هي الدرجة الأولى التي بدأ بها كمال رسولنا (ﷺ). ويعبر عن ذلك بأسلوب بليغ في قوله (٣٥٣):

البَــاع أُولِــي العَــزْمِ مَــا بــداني شِــبْرو في الخبْــرُو شِــنْ خــبروا؟ مَــا أبْهَــى كِبْــرُو

أراد أن يقول: أولو العزم مجتمعين لا يساوي قدرهم جزءاً من قدر الرسول (ﷺ) فعبر عن ذلك بالباع والشبر، والباع مسافة ما بين نهايتي اليدين حينما نمدهما أفقياً، والشبر هو مسافة ما بين الإبهام والسبابة إذا مددناهما أفقياً أيضاً ولا مقارنة لأنَّ الباع أضعاف الشبر. ثم يستفهم في الذي خبره هو ما الذي خبره أولو العزم؟ أي ما الذي عرفوه قياساً إلى الذي عرفه؟ قطعاً المسافة بعيده لأنه (ﷺ) أوتي علوم الأولين والآخريين، فكيف يخبرون ما خبر؟! وهذا قريب من قوله أيضاً (٢٢٥):

بَـــاعْ المُرْسَـــلينْ مِـــنْ طُـــول شِـــبْرُو قَاصِـــف

ثم جمع الباع وزاد مسافة البعد في قوله (٤٨٤):

وأبْـــوَاعْ الرُّسُـــلُ مِـــنْ شِـــبْرُو بُـــونْ قَـــصَرَنْ

لم يكتف بالباع المفرد بل جمعه، ثم جعل المسافة بوناً شاسعاً وليس بعداً عادياً. وهذا كما قال (٣٧٥):

غَايَـــاتْ الرُّسُـــلْ أهَـــلْ الْكَمَـــالْ بَـــدْيُو

أو قوله (٣٦٠):

أوُلـــــوْ العَــــزْم غَايَاتَـــــا مُقَـــدِمَاتُو

أي أنَّ خاتمة مطاف الرُّسل هي مقدمة بداية رسولنا (ﷺ).

أو قوله (٣٤٦):

غَايَــاتْ أُولِــي العَــزْم العليــا أوَايْلُــو

وهنا زيادة، لم يقل الغايات وحسب إنَّما الغايات العليا.

وقد شبه الرسل الكرام كلهم بمن فيهم من أولي العزم وحالهم مع الرسول (ﷺ) بالبحر وروافده، فجعله البحر الخضم وبقية الرسل هم أيادٍ أو روافدٍ من تيار ذلك البحر الخضم ...لأنَّ اليد في كلامنا هي الرَّافِد. فقال وأبدع (١٨٢):

الرُّسُــلْ الكِــرَام وأخْيَــارُ   هُــمَّ أيَّــادِي مِــنْ تيــارُو

وهكذا يطول الأمر وهو قابل لو أردنا، ولكن المراد بيان إبداع الرجل في التعبير عن الخاصية الواحدة بأساليب مختلفة في كل مرة حتى تلقاك هنا إن لم تقابلك هناك ولكنها متى قابلتك فإنها ستأتيك في ثوب قشيب وشكل آخر، وهذا هو الإبداع.

طَيِّ النايْ:

ههنا فصل عجيب في تداعي الخصائص والشمائل والمعجزات في هذا الديوان فجَّر فيه الشاعر طاقات اللغة واستغلها إلى آخر ما تحتمله من التشقيق والتفريع وهو حديثه عن طي الناي، أي تقريب المسافات البعيدة. وقد ورد في حديث مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنه طُويت لرسول الله (ﷺ) الأرض فأُرِي مشارِقها ومغاربها وكان الصحابة فيما رواه أبوهريرة (رضي الله عنه) لا يستطيعون مماشاة النبي (ﷺ) لسعة خَطْوِهِ، وكان من صفته أنه إذا مشى أسرع. فعمد الشيخ إلى هذه الخاصية ونوّع في الحديث عنها مستخدماً عدداً من الأسماء والمصادر والأفعال التي تدور حول هذا المعنى مع إسماح وإجادة وعبارة بليغة، أوردت منها نحو ستة عشر اسماً وسبعة أفعال ومصدرين. فذكر الناي وهو البعد وأكثر ذكره غير مقترن بشيء في قوله (١٠٠):

شَــاةْ ضَــمْرَه مَــا أجْبَــرَا   والقَاطَّــة مَــا أثْبَــرَا

والعَجَفَــه النَّــاي والْبِــرَا   والنــعْ يــوم المنــبرا

وقع هكذا مجرداً (الناي) مع خمس معجزات أخريات درور شاة ضمرة وامتلاء البير (القاطَّة) وعجفاء أم معبد والغيم الذي تبعه والجذع وحنينه. وأراد بالناي المسافات البعيدة.

ثم تقدم قليلاً وذكَّر به ضمن مجموعة معجزات أخريات مختلفات، فقال (٣٢):

والغَمَــامْ والنَّــاي طَيُّــو افتكَــرُوا

أي تذكر مع ما مضى تقريبه للمسافات البعيدة (طي النَّاي).

وقال في كنايته البديعة التي شرحناها في مبحث الكناية (١٢٦):

والنَّـــــــــاي رضـــــــا بالقـــــــــصْر

جسَّد النـاي فجعلـه إنسانا رضي بـأن يكون قصيراً بعد أن كان فسيحاً طويلاً. أراد أنَّ المسافات الطويلة البعيدة تصبح لرسول الله (ﷺ) قصيرة قريبة.

ثم أتى به في أدب لطيف في قوله (٤٧٦):

وإظـــلال الغَمَـــام والنَّـــاي دَنَـــا أدَبَـــاً

فجعل النّاي ينطوي ويقصر تأدباً مع الرسول (ﷺ)، وهذا طريف وهو حقّ.

ثم يوضّح المعنى أكثر فيقول (٢٧٣):

ظَـــــلاّ الغَمَـــــام والنَّــــــاي قـــــرب

صار البعيد قريباً، ومثله قوله (٢٩٥):

والنَّـــــــاي بِـــــه إنْ مَـــــــرْ قِــــــصِرْ

أي الأرض الشاسعة إن مرّ بها تقصر مسافتها.

ونوّع في الفعل والمعنى واحد في قوله (٢١١):

كريمــــه أخلاقُــــو الفَــضُلْ حَاوْيَـــا خُطَــاه النّـــاي البَعِيــدْ زَاوْيَـــا

واقترب هنا من الحديث المروي في ذلك والفعل في (زُوِيتِ الأرض) ثم رجع إلى أسلوب قومه فقال (٣٥١):

ظِـــلْ الغَمَـــامْ والنَّـــايْ طَـــيْ انْفِجَـــاجْتُو

وانفج الشيء وتفاجَّ إذا تباعد ، ومنه الآية (مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) (الحج: ٢٧). وطي الانفجاجة هو تقصير المسافة المتباعدة.

ثم ترك الناي واستخدم القاصي والقَصِي والبعيد ونحوه فقال (٣٤):

والقليـــــلْ نَـــامى، القَاصِــــي نَـــــايُو قِـــصِرْ

يعني: الشيء القليل ناماه، أي جعله ينمو ويزيد، والقاصي أو البعيد قَصر بُعْدَه.

ثم سماه (القَصِي) وهو (فعيل)، كالقاصي، فقال (٢٦٦):

وارثُـــو الأيكـــات، قَـــرَّبْ بُعـــادُو القَــصِي، والمـــات كالــشمس عـــادو

الشجرات سترته حين أراد قضاء حاجته، وقرب بُعْد البعيد وردَّ الشمس والميِّت. ثم صغَّر فقال (القُصَي) لما كان سياق القصيدة مبنياً على التصغير والقطعة كما بَيَّنْتُه في مبحث الأصوات، فقال (١٢٥):

مِــــنْ آي ابْــــن قُــــصَيْ إيـــــلاف نِفُـــورْ الـــصَّيْ
والغـــيم طَـــيْ القُـــصَيْ والـــضَّبْ كَـــذَا والحُـــصَىْ

من معجزاته إيلاف النافرات وهي وحوش الصَّيْ وهو الخلاء، أو هو (الصَّيْد) ثم قَطَعَهُ. ومنها الغيم وإظلاله والضب ونطقه والحَصَى وتسبيحه. ومعها (طي القُصي) وهو تقريب القاصي البعيد.

وانتقل بعد ذلك إلى (البعيد) وهو أخو الناي والقاصي وأخواتها، واستخدم معه فعلاً طريفاً فقال (٢٠٩):

في الكُتُــــبْ أبْــــصَرْ آيُــــوْ لَــــمْ يُحْــــصَرْ
بالرُّعْــــبْ مُنْــــصَرْ والبَعِيــــدْ انْــــصَرْ

رأيت في الكتب أن آياته ومعجزاته لا تحصر، كما رأيت أنه منصور بالرُّعب، ورأيت أن البعيد انصرَّ وتقبَّض واجتمع له أي صار قريباً، وهو أسلوب لطيف بليغ.

ثم استخدم أخاً آخر للأسماء السابقة وهو (البَيْن) أي البُعْد، فقال (٥٧):

لـــــيشْ زَوِي البَـــــيْنِ أنْسَا، وإلــف الــصِّيدْ مَــا هُــو غَــابِينِي

لماذا أنسى واحدة من معجزاته الظاهرة وهي (زوي البين) أي تقريب البعيد وطي المسافات.

ثم يختم بما يحتاج إلى أعمال الفكر والتأمُّل وهو من الدقيق وذلك قوله (٧١):

والتـــــيس والأدْنَـــــى وَدنـــــوه للأدْنَـــــى

والتِّيس هو تيس ابن قمئة الذي عاد القهقرى (بالقلبا) على صاحبه فقضى عليه.

أما الشاهد ففي قوله (الأدنى) الأولى والثانية. وهي في الموضعين أراد بها (الأدناه) أي الذي أدناه. الأولى الناي الذي أدناه وجعله قريباً. والثاني دنوه (ﷺ) وقربه من الذي أدناه وهو المولى عز وجل حتى صار كقاب قوسين أو أدنى.. وتلخيصة: التيس و (الأدناه) وهو البُعد، وقربه من الذي (أدناه) وهو المولى عز وجل، فتأمَّل!

والبُعد الذي طواه وقرَّبه في النماذج السابقة إنما هو في المسافات التي تطوى على ظهر الأرض، فانصرف إليها وإلى أخواتها ونسب البعد إليها ثم تفنن في التعبير فقال (٢٢٤):

المــــدْحُوَّة أمْ مَنَاكِـــــبْ تُزْوَالُــــوْ مَــــاشْ وراكِــــبْ

والمدحوة هي الأرض، من قوله تعالى: (والأرض بعد ذلك دحاها) (النازعات: ٣٠) ، وأم مناكب من قوله تعالى: (فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا) (الملك: ١٥).

ثم عاد بنا إلى الحديث (زُويت لرسول الله الأرض) فقال هذه الأرض تزوى له (ﷺ) وتقرّب له مسافاتها ماشياً أو راكباً.

ولما كانت الصحراء أرض متسعة ممتدة أدخلها هنا في هذه الخاصية فقال (٤٩١):

زَاوِي البيـــدَا حَـــايي نجـــودَا وأغْـــوَارَ

أي طاوي مسافات الصحراء ومحيي مرتفعاتها ومنخفضاتها. وأعادها في قوله (٢٥٧):

أَغَـــاثْ الـــصَّيْدَه الجِـذِعْ رَامْ لِيمُـو وَزوَاهَـا البيـدَا

وهو واضح كالذي سبقه.

ثم استخدم مرادفاً للبيداء وهو (الفلاة) ونسب الطي لها في قوله (١٨٠):

كَـمْ آيَـاتْ لَـهُ سمويَّـه يَـا زيـدْ والفَـلاة المطْوِيَّـة

أي الأرض الخلاء التي قطعها فانطوت له أبعادها، كالأرض التي بين مكة وبيت المقدس. وسماها (الفيافي) وهي كالبيداء والفلاة فقال في أكثر من موضع (٧٤):

هـاكْ طَـي فَيَـافِي البَـرْ والأنبَـا يـومْ خَيْبَـر

أي هاك من معجزاته طي مسافات البر وتقصيرها وكلام العضو المسمَّم يوم خيبر.

وأشبه بها قوله (٤٢٢):

أحْكِـي مِـنْ آيَـاتُو الجَوَائِـدْ طَـي فَيَـافِي الـسّبْعَة البَعَايـدْ

أخرجنا الشيخ هنا من الأرض إلى السماء وهذا أوضح مثال على تقريب المسافات وذلك أنه طوى المسافات السحيقة بين مكة وبيت المقدس وبين الأرض والسموات السبع في آيته الكبرى وهي الإسراء والمعراج. والمعلوم أن الفيافي هي المسافات الممتدة على الأرض فاستعارها هنا للمسافات التي قطعها بين الأرض والسماء في تلك الليلة المباركة وعاد وما يزال فرشه دافئاً، كما مرَّت الإشارة إليه في مبحث التراث.

واستخدم أيضاً (الفَجَج) بالتحريك وهو المكان المتباعد كما مرّ بك فقال (٤٠٧):

رَامُـو النّفـورْ يَطْـوِي الفَجَـج عَـافى الكَـسِيرْ حَـلَّ الأَجَـجْ

فالفجج والتفاجُّ السَّعة، وقد يكون أراد (الفجاج) فاحتاج فحذف الألف كما فعل في القافية التي تليها وهو قوله (حلّ الأجج) وأصله (الأُجاج) وهو الماء المالح الذي جعله حُلواً عذباً. وقد قاله بعد ذلك وهو قوله (٣٧٤):

وأشْــبَعْ وأرْوَى واحْيَـا المـاتْ طَـوَى الأفْجَـاجْ

والفجاج والأفجاج جمع فج، وقد مرّ بك قبل قليل.

ثم سمى هذه المسافات (أسواح) وهي جمع (ساحة) وقد تجمع على (سُوح) ووردت الأسواح في قوله (٢١٧):

عَلَـى هَـامْتُو الـسحاب مَـوَّاحْ　　　إذا مَـرْ تَنْزِوِيلُـو اسْـوَاحْ

ثم لجأ إلى مقاييس المسافات ومنها البريد وهو اثنا عشر ميلا، فجمعه على بُرُد وقال (٢١٥):

يَنْزَوِيلُـو إنْ مـرّ البَعِيـدْ بُـرْدُ

أي البعيدة أمياله ومسافاته ينطوي له ويقرب. وأعاد ذلك في قوله (٨٢):

بـي كـل شـي انفـردا　　　وطُهْـر الأرض وردا

مـن شـانو وزوي بُـرَدَا

فقد ورد أن الأرض جعلت طهوراً من أجله وكذلك انزوت له أميالها المتباعدة الممتدة.

واستخدم مع البُرَد (الطي) في قوله (٢٩٨):

عتـق الـبعير والفـي الـزّرد　　　ظـل الغمـام طـي البُـرَد

الذي في الزرد هو الغزال المسجون، وطي البُرَد هو ما نحن بصدده وهو تقريب المسافات.

وتوصف المسافات بأنها فسيحة أي متباعدة، وتكرر عنده ذكر (الفسيح) وجمعها على (فسوح) و(فسح) فقال (١١٤):

ويزوالُـو الفَـسِيحْ ميلُـو

الأميال الفسيحة تطوى له وتقرّب، ومثلها (٤٨٤):

يَطوالـو الفَـسِيحْ يَهْوَنُّـو مِـنْ نَفَـرن

ووضّحها أكثر بقوله (٢٤٤):

والنَّـاي الفَـسيحْ تزوالُـو أمْيَـالُو

ثم جمعها في أسلوب بديع في قوله (١٥٢):

نجفـا البنُـون والمـال نَقـصد لـسُوحْ

الأرْسَـلُولُو ولـي أدَّانَـى الفَـسُوحْ

وهذا أسلوب آسر ، أراد أنهم يهجرون أموالهم وأولادهم ويتوجهون إلى ساحات من أرسل إليه وتدانت له المسافات السحيقة، يريد رحلة الإسراء والمعراج.

ولك في ختام هذا الجزء أن تعيد التأمُّل في إبداع هذا الرجل الذي أراد أن يتحدث عن (طيّ النـاي) وهـو مـن خـصائص رسـولنا (ﷺ) فجـاء بـذلك في ثلاثـين أسـلوباً . وتزيـد قطعـاً مـع التقصي . إذ أننـا لم نـأت بكل مـا قالـه. ولكـن فيمـا قالـه وفـرة وغـزارة تـدل علـى ملكـة واقتـدار. والمبحث كله بَلْه الديوان كلّه يقوم شاهداً على ذلك، رحمه الله وأحسن إليه.

الصّحابة

أهل السُّودان أهلُ شجاعة وفروسية، تعجبهم صور البطولة والشجاعة، ولهم في الحماسة أشعار تهز النفوس وتطرب وتدفعهم إلى ساحات الموت غير مبالين ولا هيَّابين، وهم أهل محبة لرسول الله (ﷺ) ومحبة لصحابته ليس فيها مثنوية. وقد وجد المادحون في شجاعة الرسول (ﷺ) وأصحابه وفي جهادهم ميداناً واسعاً للقول فجالوا وصالوا فيه، وكان الشيخ حياتي في مقدمة المجوِّدين الْمُتَفَنِّنِين في هذا الميدان. أفرد كل واحد من الصّحابة بقصيدة عصماء في ديوانه، وزاد الكرار قصيدة، ثم جمع الأربعة الراشدين في قصيدة (الأحرار) وعمم ذكرهم في (القلاقل) بما يصلح أن يكون ديواناً برأسه. ولم يُغْفِل ذكرهم في قصائد الديوان إلا في اثنتين وعشرين قصيدة من مجموع قصائد الديوان التي بلغت مائتين واثنتين وثلاثين قصيدة وربما كان إغفال ذكر الصّحابة في بعض القصائد هو من عمل الرواة أو النساخ. وسماهم الصّحابة والأصحاب والصحب والخلفاء وكنى عنهم بأهل العزم وأهل الجوائد والحابكاك ووصف شجاعتهم وفروسيتهم وآلة حربهم، ونقلنا إلى ساحات القتال حتى كدنا نراهم أمامنا وعدد مآثرهم بما لا مزيد عليه كما ستراه مفصلاً إن شاء الله.

وكان غرض الشيخ تمجيد الصّحابة وإبراز جهادهم وما بذلوه من النفس والنفيس في سبيل توطيد دعائم الإسلام، وإنزالهم منازلهم دون غلوٍّ أو تفريق بين أحد منهم. أراد بذلك قدح جذوة الجهاد وغرس صور البطولة في نفوس الناشئة فأبدع صوراً عجيبة وحشد المعارف والأخبار فأفاد وأجاد.

وعلى الرغم من أن الصورة النمطية التي رسمها تاريخ السيرة للصّحابة هي كما قال الشريف يوسف الهندي رضوان الله عليه:

الـــصديق للكـــلام والفـــاروق للخـــصام ذوالنـــورين
للقيـــــــــام والكـــــــــرار للّطـــــــــام

لكنك تجدهم في ساحة القتال سواء لا يتأخّر منهم أحد، ثم ينفردون في السِّلم كل بما اشتهر عنه.

وقد سمّاهم الشيخ حياتي كما تقدم الصّحابة والأصحاب والصحب والخلفا والأصهار وخصّ الأربعة الراشدين ولكنه حين يخصهم لا ينسى إخوانهم كقوله (١٢٤):

أرْضَ يَـــــــا ديَّـــــــــانْ
عَـــنْ صـــحابتُو عِمُـــومْ سَـــــــامِحْ المـــــديانْ

ويغلب عليه وصفهم بالصحبة:

- صـــــاحبتو الـــــدّمرُو الـــــشِرك (١٧٦)
- صـــحبُو الأســـود مَـــا فـــيهم مـــن مبـــوجن
- أصـــحاب نـــبي مـــا حـــي الغَلَـــتْ

وهذا أوسع من أن يتابع، نمثل له بمقطع واحد من القلاقل (٤٧٢):

عَـــاجْبنَّي الـــصّحابة الطّـــاوِيين بـــايتينْ … عـــاجبني الـــصّحابة الْلِـــي الـــسيُّوف لاتِّـــينْ

عـــاجبنِّي الـــصّحابه الفـــي الـــضَّرِب صـــالتين … فـــوق ضـــهر الخيـــول متـــل الجبـــال ثـــابتين

رُوس المـــشركينْ زَيْ الـــورق حـــاتِّينْ … خَلُّـــوهم يَمِـــينْ دا فـــوق دَا مُتْكَـــايْتينْ

واحـــدينْ فَـــدْ تِلـــتْ واحـــدينْ عَلَـــى تِلْـــتين … واحـــدين بالحتَـــتْ واحـــدينْ عَلـــي فِقِـــشْتينْ

صُـــبَراً بـــالألوف لاميَّـــه لا مِيـــتينْ … كفُّـــوا الطـــائراتْ فـــيهُم كِـــلا الـــوقتينْ

والمأسُـــور كـــثيرْ والبِـــي الـــسَّهَلْ شـــاتِّينْ … تَـــارَة يـــرحُّ تَـــارَه يَـــدُبُّ متَّـــاخْتِينْ

والظِّـــل مِـــنْ زَوالٌ فَـــسَّخْ الـــرَّاحتينْ … يبقـــالهُمْ ســـهَرْ فِي النُّـــومْ ولـــو ســـاعتينْ

بـــالجُوعْ والظَّمَـــأ وبالنّكَـــد ميـــتينْ … تَبْكِـــي نِـــسَاهُمُ مُتْفقِّـــدَه الحـــالتينْ

واطفـــالُم تَـــنِينْ لا ليلَـــه لا ليلْـــتينْ … والنَّـــاروَا علـــيهُمْ مِنهـــا ويـــن فَـــايْتِينْ

فِي طِبَـــقْ أسْـــفَلا طبقـــاً عَلَـــى طبقـــتين … لا خِـــفْ لا سَـــمَاحْ لا خـــرُوج وربَّ الـــتِينْ

أديِّتُـــو الخَـــلا حَـــالُمْ يَـــا مُـــصْتَنْتينْ … قُولُـــوا غَـــادِي كُـــرْكُـــرْ بالعَـــدَدْ سِـــتينْ

هذه لوحة مرعبة للحالة التي وقعت على المشركين من سيوف المسلمين. وانظر إلى قوله (لاتِّين) وهي دليل إعجاب الفارس بسيفه فيهزه إعجاباً به.

ثم صورة تساقط رؤوس الكفار كما يتساقط ورق الأشجار، وما أبلغ قوله (مُتْكَايتينْ) أي يطيح بعضهم فوق بعض، وانظر التقطيع المخيف في البيت الرابع، ما بين قطع متطايرة وأجساد انقسمت قسمين، وقوله (صُبَرا) يعني أكواماً من البشر كأكوام الغلة من حبوب وقطن وقش ونحوه - لا كما ذهب إليه محققو الديوان - وقوله (شاتِّين) نهاية التعبير عن تفرق الشمل والمتَّاختين كالتخوت والألواح ينجرون على الأرض. واستخدم التثنية في ثنايا هذه الصور فقال (كلا الوقتين) أراد الليل والنهار، والرَّاحتين (بواطن الأقدام) وتفقد نساء الكفار للحالتين الأولى التي كانوا عليها والحالية التي آلوا إليها. أما العدد (ستين) فهو كالسبعة وكالأربعين له مدلولات واستخدامات في التراث (في ستين داهية).

ويسميهم الخلفاء(٢٠٩):

الأُسُــــــــود خُلَفَـــــــــا	مـــــــا ﭬ مِـــــــنْ بَلَفَــــــا
ســـــــــيفهم تَلَفَــــــــا	العـــــــــدا التُّلَفَــــــــا

لا يتحولون عنه (ما ﭬ من بلفا) وأتلفت سيوفهم الأعداء (التُّلَفا) جمع تليفة وهو الذي لا فائدة فيه.

ويبدع ﭬ وصفهم وهو يخاطب الذات الشريفة (٩٤):

الأســــــــود خلفـــــــــاكِ	النّـــــــصّروك حلفــــــــاكِ
الـــــــسيفهم ســــــــفاكِ	يـــــا طيـــــور كَفّـــــاكِ

ﭬ كِلـــــــــــــــىَ الأُفـــــــــــاك

الأسود أهل النصرة أصحاب السيف الذي سفك دماء الكافرين فأشبع الطيور وكفاها من كُلَى وأكباد وشحوم ولحوم أهل الإفك والضلال.

وقد يجمعهم ﭬ شطرة واحدة:

صـــدِّيق والفَـــرَقْ عثمـــان علـــي الكـــرار

ويذكر الأربعة بأسمائهم الصريحة مرة وبالكنايات والألقاب مرات (٤١٦):

بالـــــصديق أجمـــــع شـــــتاتي	بـــــالْفَرَقْ زِيـــــلْ انبتـــــاتي
بـــــالتّلا عجِّـــــل بَتَـــــاتي	بـــــالبِكُر هَـــــبْني الزَّتَـــــاتِ

فالذي يتلو هو عثمان والذي يكُرُّ على الأعداء هو الكرار علي. وبقية البيت وردت ﭬ مبحث التراث.

ويقول (٥٠١):

يـا نعـم الـصديق صـدق مقـال فيـهُ	واب حفـــصه الـــشهر الـــدين خافيـــه
والتــــالي البِعَــــرْف الآي ومــــا فيــــه	واب رســـوة البكُـــر العـــوق يفافيـــه

وهنا يعود إلى تصنيف الشريف الهندي (الصديق للكلام والفاروق للخصام) وعثمان للقرآن والكرار الأسد أب رسوة الذي يفاﭬ العوق أي يفني الجيش ويشتت جمعه.

وهذا قريب من قوله (٣٧٤):

نِعْـمَ الـصَّدَّقُو الْفِـي الـدِّينْ قَـوِي وزَعَّـاجْ	والْفَـــارُوقْ عمـــر اللّـــي العِلُـــوجْ بَعَّـــاجْ
عُثمــانْ ملجَــأ الــضُّعفَا الزَّمَــانْ إنْ عَــاجْ	والكَـــرَّارْ بَـــرْزْ كَاسْـــر اللِّـــسُودْ اب عَـــاجْ

أضاف لعثمان (رضي الله عنه) حلمه وشفقته وعطاءه حين يشتد الزمان، وركز على الكرار الذي شبهه بالأسد الكاسر ولقبه بأب عاج كما لقبه قبل قليل بأب رسوة وكلها من ألقاب الأسد. وقد يكني عنه فيقول:

ومـــــن صـــــارتْ العقـــــاب رايتُـــــو

وهو الكرار لأنَّ النبي عقد له اللواء براية سوداء عرفت بالعقاب.

وقد يخص الراشدين وحدهم فيقول (٢٩٣):

يـــا رب ارض رضَـــاك حَـــسَن — عـــن قـــادتي القـــادُو الرَّسَـــن

الأربعـــة الجـــافو الوَسَـــن — الأقرضـــوك قرضـــاً حـــسن

العـــزو ديـــن جَـــدَّ الحـــسن

وسمَّاهم مرة باسم دقيق يدل على إحاطة معرفة وبراعة نظم في قوله (٢٦٩):

مـــولاي أرضَ عـــن أصـــهارو — قايمـــه الليـــل وصـــايمه نهـــارو

الـــدين فتقـــوا أزهـــارو — بـــاحوا دمـــاءهم لاظهـــارو

والمعلوم أن الراشدين الأربعة كانوا أصهار النبي صلى الله عليه وسلم: فقد تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم السيدة عائشة بنت الصديق والسيدة حفصة بنت الفاروق وزوج بناته رقية وأم كلثوم لذي النورين والزهراء لأبي الحسنين. فكلهم أصهاره وصدق حين وصفهم بالصائمين القائمين المجاهدين الباذلين دماءهم لإظهار الدين.

وما أكثر ما كنى عنهم كقوله (١٤٠):

النُّـــــــــــــــــوَّاب — صـــحبو الـــسَّيفا لَـــسْ هـــواب

في البـــاس نَـــصَّروا الأَوَّاب — نـــصراً أرضـــى لـــي التَّـــواب

وهم الذين نابوا عن الرسول وخلفوه وإخوانهم..وقد كنى عنهم أجمعين بقوله (٣٨١):

أهـــــل الجوائـــــد — في الحـــرب أُسْـــداً خارقـــه العوائـــد

كـــم أفنـــوا ألوفـــاً بالـــسيف الكايـــد — كفّوهـــا الطـــايره شـــحماً بالزائـــد

وكنى عنهم أيضاً بقوله (٣٨١):

أهـــــــلْ العـــــــزِمْ — صـــحبُو الأسُـــود في البـــاس مَـــا بتنهـــزِمْ

افنـــوا العـــدا القُلَّـــب قطعـــاً جَـــزِمْ — كفُّـــوا الطيـــور شِـــبْعَنْ في مَـــا لـــزِمْ

ثم قال (١٤٣):

الحابكَـــــــــــــــــــاك أصـــحابك فنـــوا التاركَـــاكْ
مـــن ســـيف زنـــدها الكَكَّـــاك صـــنديد البطـــارقْ كَـــاكْ

ولـو تتبعـت مـصير البطـاريق والعلـوج والأُفّـاك وبهجـة الـصقور والطيـور وشبعها ممـا يلزمهـا وجدت العجب وبانت صورة الصّحابة وما فعلوه في أعداء الدين.

وهـو في حديثـه عنهم يتـدرج مـن الترضـي عليهم والتوسُّل بهـم والـدعاء بـأن يبقـى في (كشوفاتهم) إلى وصف شجاعتهم ودورهـم في إظهـار الـدين وتثبيت أركانـه، ثـم تـزداد الـوتيرة وتشتد حتى تبلغ الذروة في دقة الوصف والغاية في الإمتاع والقمة في الإبداع.

ونبدأ معه عليه رحمة الله من الدعاء لنفسه بجاه الصّحابة الأمناء (٣٢):

عـــن صَـــحابتُو أمـــني أرضَ يـا رحمـن بـيهم ألْهِمْنِـي
الـصواب والحكمـة تلازمـني والـشهادة إذا المـوتْ يحـازمنِي

فجعلهم أمنه، وهم كذلك، وتوسل بهم لينال الصواب والحكمة وقد كان.

وأراد أن يكون معهم وبينهم (٥٢):

أرضَ يـــــــا بــــــــاري عـن صـحابتو بهـم أَقْبِـلْ إدبـاري
بـي سمـات الخـير شـيع لأخبـاري وابقـني بـاطن كـشف أحبـاري

يـسأل الله بجـاه الـصّحابة أن يتحـوّل (إدبـاره إلى إقبـال) وأن يـشيع ذكـره بـالخير وأن يرصد في باطن (كشفهم) ولا نشك في أن كل ذلك قد كان بإذن الله؛ لأنه أقبل على الله بإخلاص وقضى حياته في مدح رسوله صلى الله عليه وسلم، ولأننا لم نسمع عنه إلا خيراً ومن كـان هـذا شـأنه فحـريّ أن يتحقـق بـاقي دعوتـه. لـذلك لـيس غريبـاً عليـه أن يجعلـهم أمنـه وحصنه وخيره وأمانه (٩٢):

صَـــحبُو كَاشْـــفِينْ غُلْـــبي حـــصْني يَـــا جَاهِـــلْ بِـــي
خــــيرُمْ اتمهــــل بــــي ال بِهـــمْ نِـــلْ طُلْـــبي
والأمــــانْ مــــن ســــلْب

ويمضي أكثر من ذلك في قوله (٩٠):

صـــحبو راحـــة بـــالي مـــونتي مونـــة أشـــبالي
كـــل شـــي واهبـــالي مـــن شـــرور حاجبـــالي
ونِكْلـــــهْ لـــــي اليابـــــالي

جعلهم راحة باله ومونته ومونة عياله، بل وهبوا له كل شيء وحجبوه من الشرور وهم نكال لأعدائه، وكل ذلك لايكون إلا بمحبتهم واتباعهم وفي ذلك رضا الله ورسوله، فهم السبب لا المسبّب. وإنما المسبِّب الخالق.

ثم يتدرج في شكرهم على المنة التي لهم في عنق كل مسلم وهو قوله (٦٠):

صَحبُو يَا فُكْرُ   أشْكرُم في الآصَال والبكر

أظهرُوا الإسلام قوّوا لا نُكر   دمّرُوا جيش البَغْي والمكْر

وهذا نداء موجه لكل متفكِّر بأن يشكر هؤلاء الصّحابة صباحاً ومساءً لإظهارهم الدين وتقويته بإفنائهم جيوش البغي والضلال. لأنهم فعلوا كل ذلك لوجه الله (٢١٢):

صَحَابتُو الغُرّ الكرَام فانيه   لوجه الله الكريم عانيَه

لالِي مَال أو بنُون تانيه   أسَاسْ الإسْلام صحيح بانيَه

ثمار الخير بالكمال جانيه

فَنَوْا لوجه الله وقصدوا رضاه، لم يلووا أعناقهم لمالٍ ولا بنين ووضعوا الأساس الصحيح للإسلام واجتنوا ثمرات الخيرات.

ثم انتقل إلى وصف شجاعتهم (٧٧):

أصْحَابُو فوق سمكَا   سيفًا، وفَنَى الهُمَكَا

يا طير أعيالى فمك   يا جيشم أعدمك

سَال كالسيول دمك

صورة مخيفة لهذا السيف الذي سمك وارتفع عالياً ثم انقضّ على هؤلاء المنهمكين في الباطل فأباد جيوشهم حتى سالت دماؤها كالسيول فشبعت الطيور حتى تَعِبَتْ وكَلّت من كثرة لحوم المهزومين.

ثم ترتفع الوتيرة في صورة مشابهة على نفس الإيقاع الهمباتي فيقول (٨٠):

أصْحَابُو سيفًا رَمَى   أعدا العلُوج فَرَمَا

لا بَرْجَسْ ولا انبرمَا   زَال الطيور قَرمَا

لي البايْتَه مَا صَرَما

وهذه صورة ناطقة لهذا السيف الذي فرم العلوج بضرب ليس فيه تردد ولا تراجع فمن فرط كثرة جُثَث الأعداء فإن الطيور شبعت وزالت شهوتها للّحم الطري الطازج وما احتاجت إلى لحوم بايتة (تاكُل فرِيش بس) وتزداد الوتيرة أكثر فيقول (٨٢):

أصْـــــحَابُو فــــوق أعــــدا   زَىْ صـــــاقعة الرعَـــــــدَا

والـــشاف خيلــــهم ارتعـــدا   والطـــايره هَـــبْ ســـعدا

بمــــــــــــصارم الـــــــــــسُّعدا

الـصاقعة مـبيرة مبيـدة مهلكـة، وهـؤلاء الـصّحابة يرتعـد ويرتجـف مـن يـرى خيـولهم لأنهـم كالصواعق، أمَّا الطيور فقد هبَّت عليها رياح السعادة بما تفعله صوارم هؤلاء الفرسان.

وفي صورة أخرى مفزعة مليئة بالحركة المُرْعِبة يقول (٨٤):

أصْـــــحًابُو مَـــــنْ غلَبَـــــا   كالأســــد في الكَلَبَـــــا

في الحــــالِ ســــيفم إشّــــلبَا   والطـــــير اتَّلَبَـــــــا

فـــــــوقم عـــــــوى اتقلبَـــــــا

وهـذه مـن أبـدع الـصور .. ينفـي أولاً أن ينهـزم الـصّحابة أمـام أحـد ! لأنهـم كالأسـود الضارية الجائعة التي وصلت إلى درجة الكَلَبِ والسُّعار من فقد اللحم..فهي في هذه الحالـة لـن تـرى شـيئاً حَيَّـاً إلا انقـضَّت عليـه، وكـذلك حـال هـؤلاء الـصجابة ففـي لحظـات اختطفـت سيوفهم رؤوس الأعداء وترامت الجثث فتساقطت عليها الطيور وأقامت سوقاً من فوقها له جلبة وضجيج.

وقوله (اشّلَبَا) غاية في التعبير عن سرعة التقطيع، أعاده في قوله (٨٦):

أصْـــــحًابُو حـــــين رِكْبُـــــوا   جـــــيشْ العِـــــدَا اشَّـــــلَبُوا

بــــالبِيْض والــــسُّمُر حَطَبــــو   والطــــير جَــــا نَــــازِلْ بَــــوْ

فــــــوقُم شــــــبع في البَــــــوْ

تقاسموا جيش العدا بخفة تطير القلب، وأعملوا فيه البيض وهي السيوف والسمر وهي الرماح فما تركوا حائماً. نزلت الطيور كوابل المطر فشبعت من أجواف هؤلاء اللئام بما فيها من كبود وكلاوي وقلوب وأمعاء وهذه مكونات (البو) وهو تجويف البطن..وانظر إلى الصوت (بَوْ) وأثره في تقوية المعنى، وقد مرّ في مبحث الأصوات. ولا تنس قوله (حطبوا) جعل الكفار كالأشجار تحتطبهم سيوف الصّحابة..

ويتكرر منظر فرحة الطيور وانبساطتها في قوله (٩٦):

يــا طيــور أشــكالك   كــفَّ تــل ختَّالــك   وانبــسط أكالــك

كفّى أشكال الطيور كلها، ونزل الصقر المتبختر وانبسطت بقية الطيور.

ومن أبلغ تعبيره عن اكتفاء الطيور هذا قوله (٢٠٥):

صَـــحبُو الفوقُـــو تعكـــيفُم   والله الجهـــــاد كـــــيفُم
والحَــــــدُّو الفَـــــرَقْ ســــــيفُم
فــــم الطــــائرات ضـــيفُم   كفــو شـــتا وخريــف صــيفُم

جمع هذا البيت فأوعى من الفصاحة والبلاغة.. فالتعكيف حماية ووقاية واستمرار، وأن يكون الجهاد هو (الكيف) فهذه النهاية في الإحسان وقد مررت بها. وهم يحملون سيفاً لا يتوقف حتى يقسم الجثة نصفين..وأبدع ما فيه أن يجعل فم الطيور هو الضيف فيقوم بإكرامه وإطعامه وإشباعه طول السنة (خريف. شتا. صيف).

أما صور العلوج والبطاريق في ساحة القتال فهي مريعة مرعبة منها (٤٠٥):

أصـــحابك الراكبـــه الـــشُّقُرْ   كَــر مِــنَّهم يَــا عــين دَقُــرْ
يَرْضُــوا الجهَــاد يَرْضُــوا الفقــرْ   غــدوا الطيُــورْ غــدوا الــصقُر
في الـــــــشَّقُو والرَّاقِـــــــدْ مقُـــــــرْ

صورة الفارس المشقوق نصفين مريعة، أما (الراقد مَقُر) فهو الذي شُقَّتْ بطنه وسال ما في جوفه من أمعاء ونحوها وأصبح جوفه فارغاً (بَوْ) مثلما قال (٢٣١):

هامــــــاتُمْ بُطـــــونُم فاقْعَـــــه

فإذا انفقعت البطن صار (بَوْ/ مَقُرْ). وأصل (المَقُر) الحفرة العميقة المظلمة ولا تكون إلا جانبية ثم تمتدّ.

أما المشقوق نصفين فقد ذهب الشاعر إلى أنه انقسم قسمين متساويين وهذا دليل قوة الضارب ومضاء سلاحه وهنالك أشياء كثيرة يضرب بها المثل في ذلك منها (٣٠٧):

مـــا خَلّـــوا بطريقـــاً جلـــف   شــقوا النِّــصِفْ مثــل الــضِّلف

وقوله (٢٨١):

افنُـــوا العِلُـــوج الطفـــرُوا   وخَلُّــو العِلــج مَــشْقُوقْ فَــرُو

وقوله (١٦٥):

المـــــا بتتـــــواقرَا   الـــدين عـــزو انقـــرَا
والعلـــــج اب عنقـــــره   شَـــقوا شـــق قنقـــرَه

فشق الظِّلف وشق الفرو وشق القنقره هذا كله الشَّقُّ قسمين متساويين تماماً وهذا دليل الضرب المخلَّص وهو الذي قال عنه (١٦٧):

ابْ دِرْعَـــــاً يَبلُـــــصَا   رَمُـــوا شِـــقُّو مَخلَّـــصَا

وهذا هو الضرب الذي وصفه بأبرع وأبدع صور الديوان في قوله (١٦٧):

صَــحابتُو الــدمروا الــشركِ	ســــيُوفهمْ في العِـــدَا أركِ
تَـــشُق الهَامـــة والــبرك	والأمَعَـــا ومـــشبك الـــوَرْكِ

ضربة نزلت في خط مستقيم: الراس والصدر والبطن وملتقى الفخذين، فهذا صنيع الجزارين بلا شك. وما كان ضربهم هذا في عامة الجنود، بل في قادتهم وأمرائهم من أهل الكبر والعجرفية؛ فالواحد منهم حين يقابل الأسود يكون مصيره هو ما مضى (١٨٨):

صــــحبو النــــوادر	أســــداً تبـــادر
كـــم علجـــاً هـــادر	فنـــوا، الله قـــادر

وأخف ما يفعله هؤلاء الصّحابة الفرسان في هؤلاء الأعداء هو قوله (١٧٨):

كَفُـــوا والله يـــا عمـــرِو	علـــى روس العـــدا الجمـــر

أمَّا غاية ما فعلوه بهم بعد الأوصاف البارعة التي مرت فهو الفناء الذي قال عنه (١٠٠):

أصْـــحابو مـــا أغـــورا	الأشـــد مـــن القـــسوره
ســيفُم عـــدا كَـــدْروا	والبُـــوم فَـــرّخ في أدْوُرا

وإذا فرَّح البوم في الديار وتوالد فهذه كناية عن أنها أصبحت خالية خاوية فارغة كفؤاد أم موسى.

والشيخ لا يكتفي بإيراد هذه الصُّور مجردة، بل يشفعها بالقسم المغلَّظ وباليمين الذي ليس فيه مثنوية وبالطلاق المُحَرَّج (٣٠٧):

أصْـــحَابْ نبـــيكم بـــالحلف	حَـــدُّوا الـــرؤوس كَـــمْ كَـــمْ ألـــف
أصْـــحَابُوا ركْبُـــوا ودَفَـــرُوا	في العُـــوق يمـــينْ مَـــا قفـــرُوا (٢٨١)

وقوله (٢٧٩):

أصْـــحَابْ نبـــيكم يَـــا أولاتْ	علـــي طلاقـــاً بـــالتلاتْ
افنُـــوا العِـــدَا الـــدّقُوا الـــتلاتْ	إلا الّــــذي للكلمــــه لاتْ

أو قوله:

صَــحْبُو الــصمُودْ أَهَــلْ العــزمْ	عَلـــي طَـــلاقْ البـــتْ جَـــزِم
خَلُّـــوا العِـــدَا رَاقـــدِينْ رَزِم	في البـــاس شـــداداً والأزم

وهذا كلام الواثق المطمئن لا الشاعر المهوِّم.

أما إذا سألت عن آلة الصّحابة التي نفذوا بها كل هذا الدمار في الكفار فإنما سألت خبيراً فقد برع الشيخ حياتي في وصف كل ما يتعلق بذلك من سيوف ورماح ودروع وخيول ومحاص ونحوه.

أمَّا السيوف والرِّماح فما أكثر أسماءها عنده، وقد مزج بين السودانية والعربية وجعل الصّحابة يحملون السودانية حتى يقرب الصورة للمتلقي، فذكر اِب درو واب حقيقة والجم جم والهاري وغيره من الصفات المعروفة في سيوف الصّحابة أصلاً فقال وجمع كثيراً من آلة الحرب (٣٧٢):

أصْحَابُو الأسُود الخيلهم شَادات	شايلينْ السُّمُر والقُطَّع الحاداتْ
فرسان القتال الشقو الخودات	في الله كم فنوا وكم خرقوا العاداتْ

فذكر الرماح السُّمر لأنها تكون من القنا وهذا لونه، وذكر السيوف القاطعة الحادة وذكر الفرسان والخودات وهي أغطية الحديد أو الجلد يُوقَّى بها الرأس من الضرب وكان قبل ذلك وفي أوَّل البيت ذكر الخيول المسرجة ولكن بلغة أهل السودان (شادَّات) والشديد والشِّداد هو ما يوضع على ظهر الدابة فيركب عليه.

وأعاد بعض هذه الآلة في موضع آخر إذ يقول (٣١٥):

نِعْمَ الصَّحَابَه أَهَلْ الْوِدَادْ	عَزْمَاتْهُم في الله شُدَادْ
حَدُّوا رِقَابْ أَهَلْ الصَّدَادْ	بالمرْهَفَاتْ هُنَّد حدَادْ

يَا زيد والسُّمر اللدَادْ

فالمرهفات الهندية الحداد هي السيوف، والسمر اللِّداد هي الرماح من قولنا (عود لَتِيْت) إذا كان أَصَمَّ ثقيلاً عند هزته أو عند (لَتَّتِهِ) واللَّتَّه واللَّدّة واحد وهما اختبار صلابة العود وقوته.

ومن أجمل صور السيوف والرماح عند الشيخ قوله (٤٩٧):

بي سيوفاً حداداً تاكُل أجنَابَا	ورِمَاحَاً تشيل الكبده في اشنَابَا

وهذه من أكثر الصور إبداعاً وروعة عنده، فقد كنى عن هذه السيوف الحادة بأنها من فرط حدتها، لا يكاد شيء يمس جنبها إلا أكلته، حتى القراب (الجفير) فإن من شأن السيف الحاد أن يفعل فيه ذلك. أما تمام الصورة الرائعة فهذه الرماح التي لها زوائد في جنباتها (كالكوكاب) فتعلق بها الأكباد فتكون كالشوارب في الناس. هذه غاية التجسيد لأنه جعل لها أشناباً كالإنسان.

وذكر البيض جمع أبيض في قوله (٣٤٢):

أصْـحَابْ رَسُـولَكْ رَاكْـبِينْ البِتَـاتَنْ مُـتْهَلِّلِينْ شَـايْلِينْ بِيـضَاً لِتاتَـاً
جـيشْ العِـدَا إنْ أَلّـف حتُّـوا انحتاتـاً أُسْـدَاً غَوالِـبْ لَـمْ يَخْـشُوا بَتَاتـاً

(البِتَـاتَنْ) هـي الخيـول توصـف بـذلك إذا كانـت ضـخمة قويـة متمرسـة علـى الاستعراض. ثم ذكر هؤلاء الفرحين المستبشرين الذين يدخلون المحاص وكأنهم يدخلون إلى احتفال (متهللين) وهم يحملون السيوف البيض (اللّتيته) وهي الثقيلة وهذا ممدوح فيها. فيحتّون بها جيوش العدا مثل حت ورق الشجر ولا يبالون بعددها ولو بلغ الآلاف.

ومن أسماء السيوف والرماح أيضاً اللامعات وهي السيوف. جاءت في قوله (٢٨٦):

صَـحْبُو الـصمود مـا بْتَنْهَنِـفْ الـدِّينْ حَيـوا رَغْـم الأنِـفْ
باللامِعَـاتْ جَبْـرَاً عَنِـفْ غَـدُّوا الطيـوْر في كُـلْ صَـنِفْ
خَلُّـوا العِلُـوجْ تَبْكِـي وتَنِـفْ

وسَيَمُرُّ هذا البيت في تصويبات نسخة الديوان في مبحث اللزوم والجناس، والشاهد فيه اللامعات، وذكر الهندي في قوله (٢٨٨):

بَـاعُوا النفُـوسْ لـي نَـصرتَكْ بالهنْـدِي أحيُـوا مَلكتـكْ

وذكر الصوارم والمصارم: الأولى في قوله (٣٥١):

بـصَوارم حـادات أفنُـوا الكتائـبْ

ووردت المصارم في قوله (٨٢):

والطـايره هـبْ سَـعَدَا
بمـصَارمْ الـسُّعَدَا

وقد مرَّ ذكره.

وذكـر الـسِّنين وهـذا مـن أوصافه العربيـة والـسودانية وإن كـان المسنون عنـد العـرب أكثر، في قوله (١٩٨):

أصْـحَابُو الـسِّنينْ لَتّـوهُ

واللتّة هذه ملازمة لمن يمسك السيف بيده إن كان من أهل الدراية والخبرة.

أما (أب جقيق) و(أب جقيقهَ) فما أكثر ما ذكره مع (اب درو) فقال (٤٤٢):

شـايلين اب جقيـق القـاطع البتـار خلُّـوا الأعـدا روسـم تلعـب الترتـار

(مدردرقه) على الأرض، والقاطع والبتار من صفات السيف وأسمائه أيضاً.

وقال (٤٣٥):

صَـــــــحبُو النُّــــــــدر   راكــبينْ فــوقْ خيــولاً قُــدّر
شـــايلينْ اب جقيــق الــودّر   حــدُّو المفــرق الله اْنْ قَــدّر

أمَّا (اب درو) فجاء ذكره في قوله (٣١٣):

رِكْبُــوا العَــواتِي ودَفَّــرُوا   سَــلُّوا اب درُو مَــا جَفَّــرُوا

أي لم يحفظوه في (جفيره) وهو (قِرابه) أو جرابه، فهو مسلول حاضر دائماً، وذكر مع هذه السيوف واحداً من أشهر سيوف أهل السودان وهو (الجمجم) من قولهم (اكلوجم) بجيم مركبة فيها نون لا يضبطها الخط، وهو سيف الشيخ الأمين ود مسمار أحد ملوك العبدلاب وأشجع شجعانهم. ذكره الشيخ مرة مجموعاً في قوله (٢١٠):

صَــحْبُو النَّــواجِم   راكبَــه ام لَــواجِم
شــايْله الجَمــاجِم   وافنــوا الأعَــاجِم

وأفرده مقروناً باب درو فقال (٩٨):

بــي صَــحَابتُو نجَــامِ   فــصحا بعــد بجــامِ
الفنــوا الأَعجــامِ   بــي ام لَبُــوس ولجَــام
واب درو الجَمَجِــــــــــامْ

وأبدع ههنا كعادته، لأن قوله (نجام) واحدهم ناجم وهو الناجح البارز المشهور وهم كذلك. وقوله (فصُحا بعد بجام) أي الذين فَصَّحهم الإسلام بفصاحة القرآن وبيان الرسول الذي كانوا يتعجبون منه. وإفناء الأعاجم معروف أما (أم لبوس ولجام) فهي الخيول، واللبوس هي دروع وأغطية تكون على الفرس والفارس وقاية. أما (أب درو الجمجام) فهو السيف الأكّال من فرط حِدّته. وحين وصف الشيخ هذه السيوف أعجبته صفة هذا السيف فأطلقها على سيوف الصّحابة (٨٨):

تاكُــلْ سِــيُوفهُمْ جَــمْ   في الأعْــدَا مَــا بتِــنْجَمْ

فهذه كناية عن الحدة والمضاء، أما سرعة قطع هذه السيوف فقد بالغ حيث جعلها كالريح الصَّرْصَر في قوله (٢٥٩):

صُــحبُو العَناصِــرْ   كُـلْ واحـد مِـنْهُم لِركَـابُو عَاصِـرْ
لا بخَــافْ ولا بدكْــدِكْ ديــن الله نَاصِــرْ   فــوق العِــدَا ســيُوفهم زي الــصَرَاصِرْ

ووصف هذه السيوف وصفاً بليغاً معجباً في قوله عن أحدها وأرادها كلّها (٣٣٧):

صـــــحابتو الـــــسيفهم فرِّيـــق　　　معـــشّى ويـــدري فـــاك الرِّيـــق

بكـم كـم كـم ألـف بطريـق　　　وكـم كـم كـم ألـف رقريـق

فهذا سيف مختص (بالفَرَق) وهي مفارق الرؤوس، فهو يفرِّق بين الرؤوس والأجساد. ولا يستريح في غمده من كثرة ما يُقَاتَلُ به، ينام على قتال (مَعَشَّى) ويصحو على قتال (فاك الريق) (وفكة الريق) أول طعام يأكله الإنسان صباحاً. و(الرقريق) الذي قصده هنا هو الشاب الحديث السن الذي يترقرق فيه ماء الحياة، (الصبي) كما نقول، وهو أخطر لعُرَامه وحماسته.

وقد يصف هذه السيوف أوصافاً يطول بها البحث وهي ترصّع الديوان منها قوله:

- ســــــيفُم تقـــــول ماخـــــدُو الكَلَـــــتْ
- حـــين شـــدّ وركـــب اتيـــامن القرمـــان (٤٨٦)

والكلتان والقرمان كلاهما المشتهي اللّحم.

أمَّا الخيول وهي أيضاً من وسائل الحرب التي يحتفي بها السودانيون، ينسِّلونها ويؤصلونها ويتوارثونها فقد احتفى بها ديوان الشيخ وقد شحن بها قصائده كقوله (١٣٢):

صـــــحابتو الــــصُلّب　　　أســـوداً راكبـــه العـــواتي القُلّـــب

ومثله قوله وقد جوَّد فيه (٣٤٨):

رضـي الله عـن صـحبو النجبـا الأكـارم　　　فـوق العتـا القُلَّـب شـايلا الـصوارم

كَـمْ كَـمْ فنـوا علجـاً فـشفاشوا وارمْ　　　لله والـــنَّبي لا لا لـــي عَفَـــارمْ

أراد عواتي الخيل التي تقلب أكفالها وهذا ممدوح فيها. وقد مرّ شرحه فيما تقدم من أبواب وأحسبه في الكنايات.

وذكرها بصورة أوضح في قوله (١٢٦):

والله فَنُـــوا الـــسَّفَلْ　　　بـــالرمح وابْ كَفَـــلْ

وأب كفل هو الحصان الضخم.

ووصفها بأوصاف القرآن الكريم في قوله (٣٧٦):

رِكبُـوا الـصَّافناتْ الحَاشَـا مَـا اتلقَّـن

وقوله (٣٧٦):

فـوق العَاديَـاتْ والموريـات قَـدَحاً　　　بـي البـيض الحِـدَاد لفحُـوا العِـدا لفَحَـاً

وقال في قوتها أيضاً (٣٤٥):

أَسَـد الأسُـود صَـحبُو الرَّاكبَـه الـبلاوي الـصَّابرينْ فِي البَـاس وعلـى الـبلاوي

أَحَـدُمْ وريـي شَـالْ النَّـصر لاوي كَفّـوا الطيـور فِي اعـدا كَبـدَه وكَـلاوِي

فهذا الجواد من قوته وفرط شوقه للركض يحوم في مربطه ويحاول الفكاك. هذا كله في أصالتها وقوتها، أما ألوانها فقد ذكر بعضها في قوله (٣٣٩):

صَـحْابتُو الـزَّي جَبَـل أحـداً علـى ظهـور الحمـر رُبْـداً

فهذا ثبات عجيب على ظهور هذه الخيول ذات الألوان الحمراء والربداء والرُّبدة لون فيه غُبرة. وهو قريب من الأشقر الذي ذكره في قوله (١٩٤):

نِعْـم أصْـحَابُو رَاكْبَـه الـشُّقْرُ دِيمَـا يَحَكْـرُوا مَـا بِنْحَقْـرُوا

صَـالْتينْ فِي الـضَّربْ مَـا بْعَقْـرُوا خلُّـوا الجَّـوِّ يَحَلِـقْ صَـقْرُو

فالشُّقْر هي الخيول التي في لونها حمرة صافية، وذكرها في قصيدة أخرى في قوله (٣٨٤):

رَاكبَـه الـشُّقُرْ صُـحْبُو الـصمودْ مـنْهم يَـا عـينْ دَقُـرْ

رِغبُـوا الجِهَـادْ فِي الله رِغبُـوا الفَقُـر والطـائرات كَفُّوهـا حِـدَيْ صَـقُر

وحين أراد وصفها بالسرعة فزع إلى وصف العرب الأقدمين فقال (٣٥١):

رَاكْـبينْ بَنَـاتْ الـرِّيحْ سَـابْقَة النَّوَايِـبْ

فما كاد الرجل يترك شيئاً من آلة الحرب المستخدمة في ذلك الزمان إلا أدخلها في المدح حتى تكتمل الصورة، حتى النحاس الذي يثير الحماس قال عنه (٣٩٢):

بَـرزُوا ونِحَاسـهُم دَقْ رَزِيـمْ

هذا وقد وصفهم بسوى أوصاف الشجاعة والحرب، فقد كانوا معروفين بذلك ولكنهم أيضاً عرفوا بصفات أخرى كثيرة لم تَفُت على الشاعر كالزهد في الدنيا كما قال (٥٠٧):

عـاجبني الـصّحابة الكلـهم فُـرَّاس الـدين عـززوا عاضِـنُّو بالأضـراس

خالـصين فِي الجهـاد ضـاربين فرايـة الـراس مَـابِينْ الحيـا والمتعـة والأعـراس

ونختم بنموذج أخير من آخر (القلاقل) وهي قصيدة (الجيدين) التي يقول فيها (٤٨٩):

نِعـم الـصَّدَّقُو وأبـي حَفْـصَة الاثْـنينْ ذي النَّـورينْ وحَيْـدَرَ والِـدْ الحَـسَنَينْ

أسْـيَادي الثَّقـاتْ الأسْـهرُوا العَيْـنينْ فِي رِضـا المـستعانْ مـا رِغْبـوا مَـالْ وبَـنِينْ

رِغبُـوا الآخْـره مِـنْ الـدُّنَا فَـانينْ بَـاعُوا لـي النفُـوس بالجنَّـة الـزِّينينْ

أوْلادْ المعـزَّه الفـي الجِهَـاد بيـنِينْ سـلْ عَـنْهُم بَـدُر سَـلْ سـلَ أُحُـدْ وحُـنينْ

هــلْ خلُّــوا العِــدَا في ديــارهم ســاكنينْ	أو خلُّـــوهُم نَامَـــتْ لهُـــم عَيْـــنينْ
لا وحــاتْ روحـــي أنَــا بــادُوهُم الخَــايْنِينْ	بــي سُــمر القَنَــا بالهنــدي مَاضِــي سَــنينْ
شَــقُّوهَا العلُــوج بالــضّرب اثــنينْ اثــنينْ	والبـــاقين ســـبُوهم صَــارُوا مَرْهُـــونينْ
وأرواحُـــم بقَـــتْ مَـــا فيهـــا إلا ضَـــنينْ	والـــتْهُم كُرُوباتـــاً ســـنينْ في ســـنينْ
والجـــارِينْ عَطَـــشْ مـــاتُوا بـــين الـــبينْ	ونـــساهُم تَحِـــنْ حَنَّـــتْ فَـــصِيلْ وتـــنينْ
وأطْفَـــالُمْ أسَـــافَا يَبْكُـــوا مَحْـــزُونين	مِـــسْخَتْ عيـــشَتُمْ جِيـــاعْ وظَمْـــانينْ

مِـــــنْ هَـــــذِي الحيَـــــاه والْفيهَـــــا قَنْعَـــــانينْ

ومع هذ الاقتصار الذي فرضه عليّ الاختصار فإنَّ وصف الصّحابة عند الشيخ حياتي يمثل سِفراً ضخماً قائماً بذاته في هذا الفن، ولا سيما (القلاقل) فقد حوت من أوصاف الصّحابة الكثير. فإذا أضيفت لها القصائد الخمس التي اختصهم بها علاوة على ما قدمناه هنا وما تمثلنا به في أبواب الدراسة المختلفة، كان هذا كتاباً كاملاً يندر تكرار مثله عند من مدحوا رسولنا (ﷺ) قديماً وحديثاً.

البُرُوق

البرق في الأدب العربي بعامة وفي أدب المديح النّبويّ والشعر الصوفي بخاصة هو ظاهرة أدبيّة لا يتجاوزها النّاظر في هذا الأدب. والبرق برقان: الظاهرة الطبيعية المعروفة المرتبطة بالأمطار والسحب وبرق الأنوار الذي لا يتهيأ إلا لأهل المحبَّة والتَّجلِّي. والبرق هو محرِّك الأشواق لأنَّه منذ الأزل عرف أنَّه بشير خيرٍ خصوصاً عند أهل السُّودان الّذين ارتبطت حياتهم بالزرع والضرع اللَّذين يعتمدان على المطر أساساً. ثم من حكمة الله أنَّ أهل السُّودان هواهم وحبهم في الشرق أي شرق المالح وهو الحجاز بلد الحبيب (ﷺ) ومسقط رأسه ومهبط رسالته في مكة ومضجعه في المدينة. والعادة أنَّ البرق يلمع من كل جهة، لكن أهمها وأنفعها عندنا هو الَّذي يلمع من جهة القبلة أو الشرق فهو صادق ليس بِخُلَّبٍ، ومتوقَّع الخير، وأنَّه يلمع من جهة البيت العتيق وقبر الحبيب، فاجتمع لهم بذلك الحسنيان: البشارة بالخير وهو المطر والتذكير بالبشير (ﷺ) علاوة على الشوق إلى أداء الفريضة والشوق لزيارة الحبيب (ﷺ). لذلك تجد البروق والنسائم التي تهب معها مرتبطة في أذهان أهل المحبة دائماً بالمحبوب (ﷺ). ولا تكاد قصيدة فصيحة أو دارجة تخلو من ذكر البرق حتى أصبح ذكره جزءاً أساسياً في هيكل قصيدة المدح درج على ذلك المادحون كلُّهم، وكان الشيخ حياتي أعلاهم قدحاً في هذا المضمار، ولم يشتمل ديوان من دواوين المديح النَّبويّ في السُّودان مما اطّلعنا عليه مثل الّذي اشتمل عليه ديوانه ولا داناه أحد في التشقيق والتفريع في الحديث عنه مع الإجادة والبراعة كعادته.

استخدم الشيخ البرق بلفظه مفرداً ومثنى ومجموعاً، مصغراً ومكبراً، نكرةً ومعرفةً، مضافاً ومقطوعاً، كما استخدمه بكنيته أو صفته أو بالإشارة إليه أو بشيءٍ من سببه. وذكر أحواله وأشكاله وأفعاله، ثم آثاره في نفوس المحبين، وحدد أوقاته ومواسمه وأزمنته وعيَّن الجهات التي يلوح منها والأماكن التي ينسب إليها ولم تخل من ذكره إلا قصائد معدودة، وربما كانت مقصودة أو أنَّ مقاطع البرق مفقودة من عمل الرواة والنساخ. وضمَّن الشيخ كل ذلك لواعج المحبين وأشواقهم إلى مقام الحبيب بما جعل مقطع البرق من خُدَّام قصيدة المدح النبوي المخلصين. يزيد دواخل المحبين اشتعالاً بما مضى في أجزاء القصيدة من مدح النبي وآله وصحبه ويهيج أشواقهم إلى المنعوت بتلك الشمائل ولا تهدأ ثائرتهم إلا بالصلاة الختامية التي ربما كانت هي الأخرى فاعلة فيهم فعل البروق.

أَسماء البروق وكناياتها وتوابعها:

قلت ذكر الشيخ حياتي البرق بأسمائه مفرداً ومثنىً ومجموعاً ومصغراً في إحدى عشرة صورة (برق، بارق، براق، بريق، بريريق، برقين، بارقين، ، بروق، بَرَّاق (جمع) بارقات، بريقات) هذا سوى الكنايات والصفات التي ذكره بها، والغالب ورود ذكر البرق في موضعه التقليدي من هيكل القصيدة بعد الصحابة وقبل الصلاة الختامية، ولكنه قد يخرج من هذا التقليد ويستهل به بعض قصائده فيجعله مطلعاً (صلاة / عصاية) كما في قصائده الأربع المشهورات: (برق العقيق جرجرا) و(برق العقيق عبعبا)، (برق العقيق لاح كحل) و(برق العقيق ولولا). أو يرد في حشو القصائد في سياق التشبيه العادي مثلما قال في صفة أسنان الرسول (ﷺ) وأنوار فمه (ضَيْ ثغرو فاق برق الدماس).

أما بروق الخواتيم فقد استمر فيها على نمط واحد وهو ورودها في مقطع مختصر في موضعه من هيكل القصيدة، ولم يلجأ إلى الإطالة إلاَّ في (القلاقل) وهي قصائده المبدوءة بقوله (قُل يا فمِي ليهُم) ونمثل لها بمقطع واحد من قصائده الثمانية في ذلك، وهو مقطع البرق في (قل يافمي ليهم بشكر النُّدَّر) (٤٦٦):

الْليلَـــة الحِجَـــاز بَراقُـــو لا سِـــعْنِي	والـــرُّوحْ زَعْزَعَـــا وفي قَلْبِـــي وَجَّعْنِـــي
واجْـــرَى مُقْلَتِـــي شَـــالْ نُـــومِي ودَّعْنِـــي	مِـــنْ دُور الـــوطَنْ والْفِيـــه اقنعْنِـــي
ذَكَّرْنِـــي المَنَاسِـــكْ مَكَّـــة ذِيـــكْ أعْنِـــي	ذَكَّرْنِـــي الوفـــودْ ظَعْنَـــاً بَعَـــدْ ظَعْـــنِ
ذكَرنِـــي الرّسُـــولْ والآلْ ومِـــنْ يَعْنِـــي	ذَكَّرْنِـــي الـــصّحَابَة يَـــا لائِمـــي دعْنِـــي
مَمْكُـــونْ بـــالغَرَامْ سُـــلطانْ ضـــاجعْنِي	آه واحـــسرتِي مـــنْ دَهْـــرِي تَعْتَعنِـــي
والـــرّاس اشـــتعلْ شـــيبْ شـــيبُ فجعنِـــي	واللُـــومْ زاد عَلَـــى أرْدَعْنِـــي رَادِعْنِـــي
إنْ لم تَـــسْمحْ الأيـــام وتجْمَعنِـــي	بـــي مَحْبُـــوبي أنَـــا جـــازْ قَتْلِـــي لا طعْنِـــي

ثم استمر في بقية الديوان على منهجه، ومنه قوله في (طه الصفوح) (١٥٥):

البَـــــرِقِ لاحْ	في الليـــل مِـــنْ البـــاقِي وقـــت الفَـــلاحْ
جَـــرَّحْني في جـــوفي مُـــو جِـــرَاحْ ســـلاح	طِبِّـــي وشِـــفَاي زَوْرَة زَيْـــن المِـــلاح

فذكر البرق وتوقيته وفعله فيه وعلاجه من ذلك زورة كامل الحسن (ﷺ) وسيأتيك تفصيل الأوقات والأحوال والآثار ونحوها.

وذكره نكرة في قوله: (ليست في الديوان المطبوع):

الْليلَــــــة لاحْ بَرْقَـــــاً شَـــــكَلْ   رَمَــى سَــهْمُو ‫في‬ قَلْبِــي انْحَكَــلْ

مِــــنْ العَلَـــيْ لَحْمِـــي انّكَـــلْ   أعلـــيّ لـــومْ إنْ كَـــانْ ثَكَـــلْ

إنْ مَـــــا شِـــــرب إنْ مَـــــا أَكَـــــلْ؟

حالـة متـأخرة...لاح الـبرق كمـشي المقيَّد (يقـع ويقـوم) وثبَّـت سـهمه ‫في‬ قلبـه (انحكل) فنحـل جسـمه وهـزل وصـاح وامتنـع عـن الأكـل والـشرب شـوقاً إلى المحبـوب، فهـل عليـه لـوم؟ حاشى وكلاّ .. هذا أمر لا ملام فيه، يعرف ذلك أهل الغرام الّذين قال عنهم (٣٢٨):

خَلِيلـــيْ البَــيَّ مِـــنْ كَرْفُـــو   خَلـــيَّ الحـــبِّ مَـــا بَعَرْفـــو

وقد يصغِّر البرق على (بريق) (٤٣١):

شُــفْتَ البريـــقْ ضَــيْ مَبْــسَمُو   نــوم عِينِــي ‫في‬ الحَــال قَــسَّمُو

أ قوله (٣٨):

البريـــــــــقْ طَـــــــوَّلْ   لمغُــو سَــارَقْني مِــني مَــا اتْحَــوّلْ

بالقريحــــة علـــيْ بالقتـــل عَـــــــــــــوَّلْ   هَــلْ لِــي هَــلْ مِــنْ رَاقٍ فَيَــا قُــوَّلْ؟

يريـد رُقيـة تعالجـه وتنقـذه مـن قتـل الـبرق لـه، ولا رقيـة إلا التوجُّـه والوصـول إلى الرسول (ﷺ).

وقد يصغّر ثم يثنِّي كما قال (٥٧):

البـــــــــــــريقْينْ   أدهـــشنْ فِكْــرِي أبكـــنْ لمـــا يقيْنِـــي

رِيـــح صِبَــا الوَصْــلِ شُــويّه سَــارقِينِي   مِـــنْ بلاديـــني بِـــشيشْ أمْرقيْنِـــي

يريد الخروج خفية، من بلاديه، بلده الصغير الصقيعة وبلاده الكبرى السُّودان.

وقد بصغَّر ثم يجمع، كما قال (٤١):

شُــــــفت جَـــــاي ضَـــــوَّن   البريقْـــات لـــي، لـــيّ إن سَـــوّنْ

حَشْحَـــشَنُّو حـــشايْ والقلـــب كَـــوَّن   مـــا فَــضَلْ ‫في‬ الــرُّوحْ إلا فَــدْ تَــوّنْ

والله هذا هـو الـدّيباج الخـسرواني والنـسيج الأسـكندراني، تقطَّـع الحـشا وانكوى القلب ولم يبق ‫في‬ الروح إلاّ خيط واحد، تقطعت بقية الخيوط المكونة لحبل الـروح وهـذه صـورة دقيقـة ستقف على شرحها ‫في‬ موضع آخر (فَدْ: فرد أو واحد. تو: خيط واحد (والتَّوْ ضد الزَّوْ).

وذكره بصيغ المثنى (٢٢٨):

رأيـــتْ جُـــنْح الـــدُّجى بَـــرْقين   ســـبنْ نُـــوم قَلْبِـــي والمَـــايَقين

وجمع البرق في قوله (٤٦):

الـــــــــــبرُوق نَبَلــــــــــتْ قلـــبي جُـــنْح الليـــلْ نَـــارا فيْ هَبَلَـــتْ

لم يفـــدْ نُـــوحِي وأدْمُعِـــي الهَطلَـــتْ غـــير أرَى طَيْبَـــه الرَّاحـــة مَـــا حَـــصَلَتْ

ويحكي عنها وعن أفعالها، وقد يخاطبها(٤٢٤):

يَـــا الـــبرُوقْ عـــينيَ بشْبِـــشِيْهَا هَـــا حَيَـــاتِي ورُوحِـــي انعِـــشِيهَا

أسْـــبِنِي وامْعَـــاي حَشْحِـــشيهَا النَّمُـــوتْ طيبـــه أبْطيـــتْ مَـــشِيهَا

افعلـي أقـصى مـا عنـدك حتـى لـو أمـوت فأنـا أسـتاهل لأنـي أبطـأت ولم أزُر طيبـة المختار (ﷺ).

ويستخدم (البراق) صيغة مبالغة على (فعَّال) أي الكثير اللمعان كما في قوله (٢٤٨):

يَـــا الـــبراق قَلَّلـــت صَـــبْرِي مِـــنْ صِـــغَري ولا هـــذا كُـــبري

يَـــا رُوحِـــي بالجُثّـــه أهَبْـــرِي واجِهِـــي الخـــير لا شـــك تَجُبْـــري

لا إله إلا الله .. محمد رسول الله .. الخروج ولو خِلسة (هبرة) بحثاً عن الخلاص وجبر الكسر. والذي يدلُّ على أن (البرّاق) للمفرد أيضاً قوله (٤٢٩):

الـــبرّاق عمـــل في شـــوره خلّـــى حـــشاشتي منـــشورة

قطَّع مصارينو. أحشاءه (حشاشتي). واستعمال الأفعال (قلَّل وعمل وخلّى) يتَّجه للمفرد.

وقـد يـستخدم (الـبراق) جمـع (بـرق) كمـا نقـول (الجبَّـال) جمـع (جبـل) وذلـك قوله (١٩):

بَـــرَّاق الـــدجا المدَنِيَّـــة أبكـــت مهجـــتي وعـــينيَّ

فقوله (المدنيَّة و أبكت) دلَّ على أنه جمع (برق).

وقد يصغر براق على (بريريق) مثلما صغَّر (البرق) على (بريق) وذلك قوله (٧٤):

بعـــد البهـــيم أدجـــر شـــفت البريريـــق جـــر

في قلـــبي المحـــاور جـــر أهلـــي وعيـــالي هجـــر

هَـــــلْ فيَّ مَـــــن يُـــــؤجر؟

سؤاله وجيه ... رغم التصغير فإن مفعول البرق ظلَّ هائلاً؛ كواه بالمحاور، والمُحْور حديدة معروفة للكيْ بالنَّار، فهجر أهله وعياله، فهل من راغب في الأجر يحقق له رجاءه بزورة المحبوب؟ هو في حالة لا يعرفها إلاّ من جرَّب وقد عبَّر عن ذلك أروع تعبير حين قال (٣٢٨):

بعـد مــا الليــل دخــل ظرفــو   بريريـــق طيبـــه جـــاب عَرْفُـــو

خليلـــي الـــبيَّ مـــن كَرفُـــو   خلـــيّ الحُـــبِّ مـــا بعرفـــو

يا خليلي، إن الذي أصابني من شم أعراف البرق لا يعرفه ذو القلب الخالي من المحبة. وكما استخدم البرق والبراق، استخدم البارق فقال(٥٢٩):

مِـــن هَـــذِي صَـــقيعتِي   رأيـــــتْ في ســـــويعَة

بَارقَـــــــــــاً   ســـيِّل لِـــي دمعتِـــي

وازدادتْ لـــــــوْعَتِي   لابُـــد مِـــنْ نَجْعَتِـــي

وأكَّده بقوله (٢٠٨):

البريـــــــقْ البـــــارِقْ   مبلـــي خلانـــي والـــسما والطـــارق

جــــود علـــــيْ بالفــــارقْ   يـــاكريم أرنـــي الحبُّــو في الجــوف حــارق

أقسم بالسماء والطارق أنَّ هذا البارق أبلاه وأضناه حين ذكَّره الحبيب الذي أحرق الجوفَ حبُّه. وأن الفارق والمفقود عنده والذي يسأل الله أن يجود به عليه هو رؤية الحبيب (ﷺ). وقد يجمع البارق على (بارقات)، وقد يثنيه كما في قوله (٥٢١):

جُـــنْح اللّيـــل رأيـــتْ بَـــارْقينْ   أبْكَـــنْ قَلْبِـــي والمَـــايقِينْ

ولا يكتفي هذا الشاعر الذي يتدفق بحر شعره، بصيغ البرق الصريحة المتعددة التي أوردناها مختصرة فيما مضى، بل يفزع إلى الكناية والوصف حتى يستوعب فيض المشاعر المتدفق، فيلمّح ويكني ويشير ويستخدم الصفة الملازمة فيمدنا بصور أخرى للبرق وما يفعله في نفوس المحبين، كقوله (١٣٨):

يَـــا لامِـــعْ أمْ شَـــبَكْ   في لا تْـــتُج مَـــضْرَبَكْ

مَمْكُـــونْ مِـــنْ عقرَبَـــك   يَـــا مَـــنْ عَليـــك سَـــبَكْ

ألفــــــــاني انتَبــــــــكْ

فقوله (لامع أم شبك) أي البرق الذي يلمع من جهة أم شبك وهي حجرة الرسول (ﷺ) أو سهوة عائشة التي ضمت جسده المبارك. ولاحظ هذه (التجة) أي الضربة العنيفة، أو لسعة العقرب التي سببها هذا البرق. والصورة مفصلة في غرضٍ آخر من أغرض هذه الدراسة.

ولمّا كان الرفيف من صفة البرق استفاد منه الشاعر وسماه به كناية عنه فقال في وصف البروق (١٤٠):

الـــــــــرّفَّنْ   منهـــا أميـــاقي مـــا جَفَّـــنْ

خيبــــهْ أقـــدامي مــــا خَفَّـــن   زارن بعــــــد مـــــــا وفَّـــــنْ

هـذا مـن بـاب الكنايـة أو حـذف الموصـوف وإقامـة الـصفة مكانـه وأصلـه (الـبروق الـرفّن) أسالت دموع أمياقه (عيونه) وتحسر على خيبة أقدامـه الـتي لم تسارع بالزيارة للحبيب بعد أن (تُوفِّي) مناسك الحج. وفيه أيضاً حذف في (وفّن) سيقابلك في بابه إن شاء الله.

واستفاد من الصفة نفسها في وصف البرق المفرد فقال (١٩٢):

جَــوَى قَلبِـــي رَمَـــى الرِّفْرِيـــفْ   في آنٍ ولاهُ خَرِيـــــــــــــــفْ

عادة تكون البروق في الخريف وبرقه الرفريف هذا أي الكثير الرفيف رمى داخل قلبه في غير أوانه أوْ إبانه؛ وهذا برق خاصْ.

وشاعرنا ضعيف أمام البروق، تفعل فيه فعل السِّحر، وتمتلكه امتلاك الأسْر، وهذا ما عبر عنه بالكناية عنها بقوله (١٤٣):

المَالْكَـــــــــــــــــاكْ   لاحَــتْ وعـــن قَرِيـــبْ هالْكَـــاكْ

فِـــكْ إيـــدَكْ مِـــنْ المَاسْـــكَاكْ   وفُـــوتْ مِـــنْ دِيـــرَةَ الأعْكَـــاكْ

هذه البروق التي أصبحتَ مملوكاً لديها ستهلكك عما قريب إلا أن تترك المشاغل وترحل من ديرتك وبلدك، و(الأعكاك) واحدها (عُك) وتطلق على مجموعة من القرى التي حول رفاعة جهة الصقيعة بلدة الشاعر.

وأكَّد معنى الامتلاك هذا في موضع آخر حيث يقول(٢٦٥):

في الحَالْكَـــــــــــــاتْ   شـــــــف مَالكَـــــــاتِي

ضَــــــيَّعْت أَوْكَـــــــاتِي   في المُهْلِكَـــــــــــــاتْ

وربما كنى عن البرق بواحدة من صفاته المشهورة وهي (اللَّوحان) كما في قوله (٢٠٥):

مِـــنْ سُـــوحْ مَلْجَـــأ الجـــانِي   اللَّـــــاح هَـــيَّجْ أشْـــجَانِي

وهذا الوصف كثير عنده كقوله (١٧٠):

الـــــلاَّح صَــــبْ دَمْعِــــي دَوْ   وأنْــــــسَانِي المَهْـــــدُو

أسال البرق اللائح دمعه كالمطر ووصفه بحكاية الصَّوت (دو) وهذا أسلوب تفرَّد فيه الشيخ خصصته بفصل لأهميته، وأجاد حين جعل ذلك البرق ينسيه أطفاله الصغار الذين لم يغادروا المهد. وهم ألصق بالقلب، ونسيانهم يدل على انشغاله الشديد بغيرهم وهو المحبوب (ﷺ).

ولأنَّ هذه الصفة واضحة في البرق كررها كثيراً في الكناية عنه كقوله(٣٩٢):

الـــــلاحَ هَبَّـــــا لــــــي نَـــسِيمْ

أو قوله (٣٨٤):

الــــــــــــلاَّحْ دَهَــــــــــــجْ

وقوله (٢٢٦):

الـــلاَّحَ جَـــابْ رِيحـــة الـــدُّعَاشْ	كَرْفُـــو الُمحِـــب زادُو انْتعَـــاشْ
أنْـــسَى البنُـــونْ أنْـــسَى المَعَـــاشْ	طَـــارْ نُومُـــو أَوْلاَ الارْتَعَـــاشْ

والمثْلُـــو فَـــاتْ مَـــا قَـــالُوا عَـــاشْ

والشاعر كأنه في حرب مع هذا البرق كلاهما يبحث عن نقطة الضعف والغفلة في صاحبه تجد ذلك في قوله (٢١٠):

الـــــلاَّح عَجيبتُـــــــو	لِقَـــــــى في ضَـــــــرِيبْتُو

وجد فيه الفرصة لضربة قاتلة فباغته بها...

وحتى تطمئن على أن المقصود عنده هو البرق لا غيره يستخدم الشاعر اللفظ الصريح مصحوباً بهذه الصفة التي أقامها مقام الموصوف في الأمثلة السابقة إذ يقول (٢٥٥):

البريـــــقْ الـــــلاَّحْ يَـــــا	مَبْلِـــي خَلانِـــي بـــين أمُـــوتْ أو أحْيَـــا
مَـــــالِي هَـــــوْ في النَّاحْيَـــــة	يَـــا كَـــرِيمْ أرِنِـــي الفَـــاقْ جَبِينُـــو الـضَّاحْيَة

يا سلام ... تركه هذا البرق بين ميت وحي، ليس له رغبة في البقاء في البلدة أو الناحية التي هو فيها. فقط يريد من المولى أن يريه صاحب الجبين الذي فاق ضياؤه الشمس وقت الضُّحى، (ﷺ).

وقد يكني عن البرق بالولوال... والولولة كثرة الحركة في فزع، وعليها قوله (١٤٨):

الولــــــــــــــــــوالِ	شُـــفتُو واعْتَرَتّـــي أحْـــوَالِ

ولأنَّ فعل البرق واضح معروف مشهور فهو يسميه (المعلوم) أي هذا البرق هو ذو فعل معلوم متى رآه أهاجه وفعل فيه ما اعتاده معه فيقول (١٨٤):

جُـــــنْح الـــــدُّجَا المَعْلُـــــومْ	أدْهَـــشْنِي زادْنِـــي كلُـــومْ

ولا يذهب ذاهب إلى أن (المعلوم) من صفة (الدجى) أبداً، وإنَّما في ذلك الوقت وتلك الساعة الشديدة الظلمة ظهر هذا البرق المعلوم فأدهشه وزاد جروحه.

وليقطع الشك أكد في قصيدة أخرى على ما أكدناه هنا فقال (٣٧٠):

البريـــــــــقْ مَعْلُـــــــــومْ   لمْعُــو أبْكَــانِي أسْــهَرْنِي زَادْنِــي كِلُــومْ

فدلَّ هذا على أن المعلوم هو البرق ليس غيره.

والناس يصفون البرق بأنه يضحك ويبتسم ويَفْتَرُّ، وقد يعكسون فيشبهون الضحك والأسنان والتبسم بالبرق ولمعانه، فأخذ الشيخ المعنى الأول وسمَّى البروق بالضواحك، بجامع أنهما يفترّان كلاهما فقال(٢٩٣):

جُــــنْح الـــدُّجاءِ ضَــواحِكاً   لامحـــــتهن عينَـــي بكـــــنْ

فهو حين لمح هذه البروق الضاحكة بكت عيناه شوقاً للحبيب. وقال (الدُّجاء) ممدودة والأصل أنها مقصورة (الدُّجى) اضطره الوزن ولنا في ضراير ديوان الشيخ حياتي مبحث خاص إن شاء الله.

وقد يُشبِّه البروق بالرماح والسهام والسيوف فكلها تطعن وتجرح وتقطع ثم يحذف الموصوف وهو البروق ويقيم الصفة مقامها فيقول(٢١٧):

ليـــــــــلْ أرْمَـــــــــاحْ   رَمَـــنْ قَلْبِـــي الملـــوَّع مَـــاحْ

فليست هنالك رماح حقيقية رمت قلبه الملوَّع، وإنَّما هي بروق فعلها أشبه بفعل الرماح وجعل وقتها الليل لتأكيد الاستعارة.

وفوق كل ما تقدم فإنَّه إن لم تكن هنالك بروق بأسمائها الصريحة أو بكناياتها وصفاتها فإنَّ النّار تظل مشتعلة في قلبه كما قال (٨٦):

مِـــــنْ بَعـــــدْ مَـــــا رَقَـــدُوا   نَـــــار الغَــــــرَام وَقَـــــدُوا

في قَلْبِـــي اللـــي قَبْـــرُوا حَـــدُوا   خَلُّـــــــــونِي كَالفَقَـــــــــدُو

الزَّوْجَـــــــــــــــة والوَلَـــــــــــــدُو

فههنا برق ولا برق، فالصفة هي صفة البرق والفعل هو فعله والوقت هو وقته والأسباب والنتيجة هي النتيجة فهو وإنْ لم يذكر البرق فقد أصبح المتلقي متهيئاً لتقبل صفة البرق وفعله وإن لم يذكر صراحة.

وقد يردف مع البرق النّسيم لأنَّه من سببه، لأنَّ البروق يتلوها المطر والهواء البارد، فالشاعر أحياناً يذكرهما معاً وربما استغنى بالنّسيم عن البرق لأنه لا يكون إلا به أو بسببه. ومن المواضع التي مزج فيها بينهما قوله (١٠٨):

رأيـــتْ بَـــرقْ الغِـــويرْ لائِـــحْ   أتَـــانِي نَـــسيِّمُو الفَـــائِحْ

وصِـــــرْت متيّمـــا نَـــائحْ   وقَلبِـــي مِـــنْ الوَلَـــه مَـــائِحْ

مَتَـــى أزُور مَرْكَـــز الـــدَّائِحْ   إلهـــي وعِنْـــدُو أكُـــون طَـــائِحْ

أو قوله (٢١٢):

نِسيمَاتْ بَرِقْ السَّحَر دَاوْيَهْ		سَبتْ رُوحِي والقِلِيبْ كَاوْيَه

هذه النِّسيمات التي حركها برق السَّحر ممرضة، ولا تكون داوية إلاَّ من الداء لأنَّ النّسيم هادئ ليس له دويّ. والدّليل أنَّها سبت روحه وكوت قلبه ولا مرض أكثر من هذا. ثم لاحظ المزج بين السبب والمسبب (البرق والنُّسيمات) وتصغير النُّسَيِّم والنُّسيمات يجعلها أرقُّ من النّسيم فهي أكبر أثراً وأكثر تأثيراً. وطبيعي أنْ يأتيه النّسيم أو النُّسيمات بعد أنْ رأى البرق لأنَّ الأوّل من سبب الأخير ولكنه أحياناً يقيم النَّسيم موضع البروق دون أن يذكرها اكتفاءً بها إذ أصبح من المعلوم ضرورة أنَّه لا نسيم بلا برق غالباً. فاكتفى بالنَّسيم لملازمته البرق فإذا قال (٢٨٨):

فَاحْ النّسِيم مِنْ سَهوتَك		حَرَّك عَلي شُوق رَوْضَتَك

فكأنَّما البرق غائب حاضر، إذ لا يأتي هذا النَّسيم من الرَّوضة إلاَّ إذا حرَّك البرق السحاب فنزل المطر وفاح النَّسيم بالضرورة. إلا أن يكون النَّسيم رمزاً مثلما يكون البرق رمزاً. وربما كان الأمر غير ذلك، وكان النَّسيم بنفسه هو الفاعل ما يفعله البرق دون أن يتلازما، وذلك أن الفجر مشهور بنسماته الباردة العليلة وإن لم يكن هناك برق، ولكنهما على كل حال يتفقان، البرق ونسيم الفجر، في تحريك المشاعر وهذا كثير عنده، منه قوله (٢٣٩):

صّبانِي الفَجر نسَّامُو		الضّحُوك في الشِّدَة بَسّامُ

حسمني المصطفى حُسَامُو		ودْ عينَيْ كَرَا سَامُو

أخير منِّي الأَتَا السَّامُ

صلى الله وسلم على الضحوك في الشدائد، البسَّام الّذي كان جُلُّ ضَحكه التبسُّم؛ فهذا النَّسيم الذي أتاه في تلك اللحظة هو نسيم ساكن الرّوضة الفوّاحة (ﷺ). وهذا المقطع عويصٌ شرحناه في بابه فأغنى عن الإعادة هنا.

وهذا النَّسيم قد يأتي في الفجر كما مرَّ وكما في قوله (٦٩):

جَانِي النّسِيمْ فَجْرَا		ودَمْع الْعِيُونْ أجْرَى

وقد يكون ليلاً كما قال (١١٢):

إذا مَا الْلَيلْ جَنّ جَانِي		نَسِيمْ الحُبُّ أشْجَانِي

وهذا ضرب آخر من النَّسيم البارد كنسيم الفجر ولكنه نسبه إلى الحب وهو عليل لطيف أيضاً.

وقد ينسب النَّسيم إلى جهة معينة كما يفعل بالبروق كما سوف ترى فيقول (٩٨):

مِـــــنْ قُبَـــا النَســـامِ　　　عرفُـــو لِــــي حــــسَّامِ

صِـــــرْ ضَـــجِيعْ عَــــسَّامِ　　　طِبِّـــــي يَــــا رَّسَـــامِ

زَوْرَة البَــــــــــــــــــــسَّامِ

فهذا النّسام أتاه من قُبا وهذا مجاز وحقيقة؛ فهو مجاز لأن قبا بعض المدينة النبوية فذكر البعض وأراد الكل، وهو حقيقة لأن قبا من مرابع ساكن المدينة التي مرَّ بها وكان له فيها ما كان، ثم النَّسيم الَّذي يمرُّ بقبا لابدَّ أن يكون قد مرَّ بالمقام الشريف أولاً ثم غشي قبا ومنها إلى ما شاء الله. و(صِر ضجيع عسّام) أي أصبحت (مَهْدُودْ الْحيلْ) لا أقوى على الحركة (جِسْمُو مَعَسَّم).

وقد لا يرتبط النَّسيم بجهة أو بزمن بل يجعله مطلقاً كما قال (٢٤٦):

فَـــاحْ نـــــسَّم نَـــسْمَتَينْ　　　جَـــرَى دَمْــــع المُقْلـــتَينْ

لَـــــمْ أجِـــــدْ الْـــرّاحتين　　　غِـــــيرْ حَجَّــــة وزَوْرَتـــــينْ

والتثنية هنا ليست تلاعباً بالألفاظ ولا اضطرار شاعر كما بينته في مبحث الثنائية في الدّيوان لأنَّ هذا الرَّجل مفتوح عليه، وهو يعي ما يقول: فقوله (نسمتين) نسمة حسِّية وأخرى معنوية، ودمع المقلتين تثنية على الحقيقة وهما العينان، و(الرّاحتين) البدنيّة والنفسيّة، والزورتين زورة مكة وزورة المدينة. اللهم ارحمه وافض علينا مما أفضت عليه حتَّى تتسنَّى لنا مغَالِيقهُ.

أماكن البروق واتجاهاتها:

كثيراً ما ينسب الشيخ حياتي بروقه إلى أماكن بعينها كالحجاز وطيبة وأم رخام ونحوها أو إلى اتجاه بعينه كالشرق أو القبلة ونحوهما وقد يستعيض عن ذلك بأشياء نبسطها في ما يلي من هذا المبحث.

فقد تجد البرق عنده مجرداً غير منسوب إلى بلد أو جهة كقوله(٥٢٦):

البَـــرِقْ سَـــيَّل دَمْعِـــي المَحَيَّــلْ　　　خَـــسْرَانْ شَــبَابِي وشَــيْبِي المَخَيّــلْ

مَــــا عَــــبَّ شَـــيَّل عَلــــي سُـــوحُو مَيَّـــلْ

(دَمْعُو مَحَيَّلْ) يعني (عَلَى الهَبْشَة) ينهمر لأدنى إثارة. وشيبه صورة وخيال لم يعتبر به لأنَّه لم يتجهز ويميل نحو سوح الحبيب. فالبرق هنا مجرد من الجهة والمكان وهذا قليل عنده. والغالب أنْ ينسب البرق إلى بلدٍ أو جهة مثل الغور أو الغوير مصغراً وهو الإقليم الذي يقع فيه

الحجاز بلد الحبيب وهو غور تهامة وضده النجد وهو المرتفع من الأرض. وذكر الغوير في شعر المديح كثير مستفيض وهو ملحوظ عند الشيخ في قوله (٢٩١):

بَــرْق الغِــوير خَلاَّنِــي أَمِــلْ   جَــاءنِّي طَلْقَــاتْ الحمِــلْ

مَــالِي نَــصِير صَـبْرِي كَمَــلْ   مَــولاي مَتَــى أحْــدَا الزِّمَــلْ

وأنْظُــر ضَــرِيح كَــابْ الهمِــلْ

وحالة الطلق والمخاض عند المرأة هي مضرب المثل في شدة الألم، وما جرَّبنا الموت ولكنَّا رأينا المقابر.

وقد يأتيه هذا البرق مصحوباً بالنَّسيم فيكون أوقع أثراً كما قال (١٠٨):

رأيــتْ بَــرْق الغِــوير لائِــحْ   أتَــانِي نــسِّيمُو الفَــائِحْ

وليس أي نسيم وإنما هو نسيم بارد بدليل أنَّه صغَّره (نُسَيِّم) فصار ألطف.

وأكثر ما ينسب البرق إلى الحجاز عموماً كقوله:

الْليلَــــة الحجــــاز براقــــو بــــسامة (٤٩٣)

الْليلَــــة الحجــــاز لاح برقــــو واتــــوارى (٤٩١)

بــــرق الحجــــاز خلانــــي أمِــــلْ (٣١٩)

لاح بــــرق الحجــــاز يــــا عمــــرو (١٩٤)

بــــرق الحجــــاز هبــــالي (١٥١)

بــــرق الحجــــاز نبــــلْ (٥٣٩)

وقد يخصص موضعاً في الحجاز كما قال (٤٣٨):

بَــرْق العِــشَاءِ شَــمَال مُنَــى   مُــذْ لاحْ رُوحِــي اتْيَامَنَــا

وقد يمازج الحجاز العام ببعض بلاد الحجاز تخصيصاً كما قال (٥١٤):

مِــنْ طَيْبَــة الحِجَــازْ   البَــرقْ قَلْبِــي جَــازْ

و(جاز) هنا اسم فاعل من جَزَّ يجزُّ إذا قطع الشيء بآلة كما يجز البرسيم والقصب والصُّوف، وما أكثر ما ذكر طيبة ذاتها ناسباً البرق إليها كقوله(١٨٠):

بــرَّاق طَيْبَــه غيَّــبْ بِــيّ   عِنْــدُو الــرُّوح بِقَــتْ مَــسْبِيه

دعْ لا يمــني جَاهِــل بــيَّ   أنَــا مَمْكُــونْ بِــشوقُو نبيَّــا

أدخله براق طيبة في غيبوبة، أو فعل فيه أموراً أخرى كما قال (١٤٦):

بـــراق طَيْبَـــه فَتّـــتْ كَبْـــدِي   مَـــوَّع قَلْبِـــي ليـــل بالنّبـــد

جُـــودْ بـــالزُورَة لـــي يَـــا مُبْـــدِي   قُـــولْ مَـــأْذُونْ أمِـــشْ يَـــا عَبْـــدِي

موَّع أي ذوَّب، والنّبد: الطعن، وسترى تفصيله في آثار البروق على المحبين.

وقد ينسب الراوي رحمه الله البرق إلى المدينة النّبويّة المنورة بأسمائها العديدة كما مرَّ بك في (براق طيبة) وما أكثرها عنده... ثم ينوِّع فيقول (١٩٦):

بَـــرَّاق أُم رِخَـــامْ أدْهَـــشْنِي   أبْكَـــانِي وعَمَـــانِي أطْرشْـــنِي

واحَـــسَرِي الأمَـــلْ غَاشَـــشْنِي   مَـــا شَـــافْ طَيْبَـــه حَـــالِي المَـــشْنِي

فأردف (طيبة) بأم رخام وهي حجرته الشريفة وروضته العطيرة وقبته المنيرة، وأمَّا (المشني) فهو مثلما نقول (المايل) وهو البالغ السوء. وما أكثر ما كنَّى أهل السُّودان مدينة الحبيب حتى وصل عدد الكنى إلى نحو ثلاثين، منها غير ما ذكرنا: أم شباك وأم سور وأم نخل وأم نخيل وأم قزاز وأم قُلة وأم أشياء كثيرة كلها مذكورة عند شيخنا، والأخيرة وردت مجموعة في قوله (٣١٠):

الْلِيلَـــــة لاحْ بَـــــرْقِ أُمْ قُلَـــــلْ   رَمَـــــى سَـــــهْمُو فِيْ زَادْ العِلَـــــلْ

كيـــفْ بَعْـــدُو أعِـــيشْ وأجِـــد الحلـــل   غـــير مَـــا أشُـــوفْ بَلَـــد الهَلَـــلْ

والـــــرُّبْ وازُور مَـــــاحِي الزّلَـــــلْ

وكنية المدينة المنورة بأم قلل أو أم قُلَّة سُودانيَّة قولاً وفعلاً لأنَّ الشيخ عجيب المانجلك (الكافُوتة) أحد أكابر ملوك الدّولة السِّناريَّة حين حج إلى البيت العتيق حمل معه تاجاً من الإبريز وهو الذهب الخالص أشبه بالقلة ألبسه رأس قبة الحبيب (ﷺ) فعرفت عند أهل السُّودان بذلك. وقد فصلت الخبر في موضع آخر. أمّا قوله الهلل والرُّبْ، فالأوَّل من عُملة أهل الحجاز النّقديّة والثاني هو عملة الآسيويين. وقد ذكرته بالتفصيل في مبحث التراث في هذا الديوان.

والمدينة تسمَّى (الشام) عند أهلنا لأنّها في اتجاه ذلك البلد ولأنَّ العرب يقولون (الشامي) لكل ما هو شمال (واليماني) لكل ماهو جنوب، كما قال ود سعد (للقبرو شام وشروق يا حاج نوينا). فلذلك نسب الشيخ البروق إلى هذه الجهة فقال (٤١٠):

بـــــرُوق الـــــشّامْ سَـــــكَاكِينَا   لنَـــــا وشـــــجَّت تَبَاكِينَـــــا

ثم يمضي الشيخ فينسب البرق إلى كل ما له سبب أو صلة بالمدينة النّبويّة فيذكر وادي العقيق وهو أحد أودية المدينة المنورة في قوله(١٠٦):

بــــرْق العَقِيــــقْ أثْكَـــــلا   رُوحِــــي وأوامــــرِي أشْــــكَلا

يَــــا مَــــنْ عَليــــكْ مــــتكلا   ريهَــــا أُمْ قَــــزَازْ هــــيْكِلا

البرق الذي يلمع من هذه الجهة المباركة أثكل روحه، وجعل أموره مشكلة فهو يدعو من عليه التكلان أن يُري روحه هيكل أو بنيان القبة أم قزاز. وهذا المقطع مشروح في مشكِل الديوان.

ويعيد ذكر (العقيق) في قوله(١٠٢):

بَــــرْق العَقِيــــقْ عَبْعَبَــــا   في قَلْبِــــي النّــــار تَلْعَبَــــا

تلعبها أي أشعلها ..ويثلث ذكر العقيق في قصيدة ثالثة قائلاً (١٠٠):

بــــرْق العَقِيــــقْ جَرْجَــــرَا   دَمْعِــــي المحيَّــــل جَــــرَى

يَــــا عَــــالِم بِــــي مَــــا جَــــرَى   أصــــبا المــــنيرة كُجــــرا

جرجر هذا البرق رسمه أو وسمه أو محاوره في قلب المحب، فسال دمعه الذي ينتظر أقل إثارة (محيَّل = علي الهبشة). يريد أن يصل الحجرة ذات الستور المنيرة لأن فيها منى الروح (ﷺ).

ويمضي شاعرنا في التنويع فيذكر القبلة، وهي مشهورة بخيرها فيقول (٢٥٧):

بريــــــــقْ القِبْلَــــــــة   نَــــشَقْ نــــسْمُو نَــــارُو في مُنْهَبْلَــــه

نَويــــتْ القُومَــــه القِيُــــود مُنْطَبْلَــــه   في رِجْلِــــي صِــــرْتَ أنِــــينْ كَــــالحُبْلى

قَرِيــــــــبْ يَــــــــا كَــــــــريمْ ريــــــــحْ جَنَــــــــانِ المبْلَــــــــى

شمَّ نسمات برق القبلة فاشتعلت فيه النار، نوى القيام ولكن ظروفه تطبل القيود في رجليه والنتيجة أنين كأنين الحامل ..يا كريم يا فراج.

ويعيد ذكر القبلة بصيغة أخرى في قوله (٥٧٣):

الْليلَــــة البريــــقْ مِــــنْ جِهــــة القَبلِيّــــة

أبْكَــــى لمقلــــتي واعْــــضَاي بقَــــتْ مَبْلِيّــــة

فارقــــتْ الفَريــــقْ عَــــاد في الأهَــــل شِــــن لــــيَّ

هَــــبْ لِــــي يَــــا كَــــرِيمْ زورَة رَسُــــولِي وَلــــيّ

ما عاد له في أهله شيء أو غرض، بعد أن حرّكه برق هذه الجهة المحبوبة.

وقد ينسب برقه إلى سوح الحبيب بعامة، والسوح جمع ساحة، قال (٢٠٥):

مِـــنْ سُـــوحْ مَلجَـــأ الجَـــانِي اللّـــــاحْ هَـــيَّجْ أشْـــجَانِي

لِـــــيلاً نَـــــارُو حَالَجـــــانِي مَـــا جَـــاكْ يَـــالحَرَازْ جَـــانِي

كيـــــــف العَافيَـــــــة تَرْجَـــــانِي

ليس لمثله عافية ما دام أشبه شجر الحراز، تخضر الغابة كلها وتبقى شجرة الحراز كالحة مُغْبَرَّة وهذا حاله بين الناس كما فصلته في مبحث التراث.

ثم يضرب الشاعر عن كل الجهات وينسب البرق إلى من هاجت الأشواق وسالت الآماق وضربت الآفاق لأجله وهو الحبيب (ﷺ) قال في ذلك (٢٥٩):

الْليلَـــــــــــــة بَرْقُـــــــــــــو أسْـــهَرْنِي وامْرضـــنِي وطرّانِـــي شَـــرقُو

إنْ مُـــــتَّ أو عِـــشتْ مَـــاكني فَرْقُـــو يَـــا أخْـــوانِي ضـــقْ بالحيـــل أنَـــا بَـــيْ أمرقُـــو

غاية الشوق ونهاية الإبداع في التعبير، ممكون من فراقه حيَّاً أو ميّتاً فيستجدى في شفقة متناهية إخوانه ليخرجوا به نحو طبّه وعلاجه (ﷺ).

وبعد أنْ يستنفد الشاعر ما شاء الله له من الأماكن والمواقع لا تَقْنَعُ نفسه بذلك ولا يقف طموحه هنا بل يفزع إلى الجهات والاتجاهات يفرغ فيها شُحْنات غرامه التي ولَّدها البرق فيقول (١١٤):

رَأيـــــــتْ الـــــــشَرْق لاحْ بَرْقُـــــــو

أو يعمد إلى النجوم التي تكون جهة الشرق والتي تكون في نطاق امتداد بصره ومحط نظره فتوافق جهة الحبيب فيقول مثلاً (٢٧٦):

بـــين الجَـــدِي وبـــين الـــسِّعُودْ شُـــفْتَ البريـــقْ يَغَبَـــى ويَعُـــودْ

أو قوله (٣٠٤):

الْليلَـــــة لاحْ برقـــــاً غريـــــب بـــين الفـــرُوق والعنقريـــــبْ

خلاَّنِـــــي زَي زولْ الـــــسَّريب يَـــــاربِي بَـــــالفَرج القَرِيـــــبْ

جُـــــودْ واكْفنِـــــي شَـــــرْ الـــــضّرِيبْ

فبين الجدي والسّعود امتداد النظر إلى الشرق، وكذلك حال الناظر بين الفروق والعنقريب، فهو إذا نظر إليهما فكأنه ينظر إلى القبلة وامتدادها وهو البيت العتيق والقبر الشريف.

ثم يضرب عن كل ذلك ويستخدم لفظة غاية في الوضوح في تحديد الاتجاه مع أنها غاية في الإبهام .. وذلك قوله (٥٤١):

البريقْ مِنْ (جَاي) يَا عرب   سَهْمُو صَاد قَلْبي رَامِي رَبْ

أو قوله (٤٢٢):

البروق مِنْ (جَاي) لِيّ لاحَتْ   مِنْ نَسِيمْ أرْيَاحْ طَيبَة فَاحَتْ

أو قوله (٣٩٠):

البريقْ مِنْ (جَاي) طيب طيبَة جَايبْ   أبْكَى قَلْبي أبْكَى عِيُونِي الوَجَايبْ

كالرّمش يَا ربْ سَابِق النّجايبْ   أصْبَا روضَاتُو الفِيهَا العَجَايبْ

أو قوله (١٩٨):

شفْ مِنْ (جَاي) بِرُوقْ في الجَنَّه   جَابَن لي نَسَايم الجَنَّه

أو قوله(٥١٩):

شفْ بريقَاً (جَاي) ليل خَبَبْ   والعِينَانْ دِمُوعِنْ صَبَبْ

فلفظة (جاي) في المقاطع الخمسة في غاية التنكير إذا وردت غير مصحوبة بإشارة أو متبوعة بنظر، ولكنها في المقاطع الخمسة هذه في غاية التعريف إذ ليس هنالك جهة سوى (الشرق) ينصرف إليها الذهن، فهي على ارتفاع درجة التنكير فيها هي في غاية التعريف لا تحتاج شرحاً ومتى ما قال البرق (من جاي) وما أكثر ما استخدمها فإنه يعني جهة الحبيب لا غيرُ.

توقيت البروق ومواسمها وأزمانها:

نسب الشيخ حياتي عليه رحمة الله البرق إلى المواسم عامة وإلى الشهور والأيام والليالي، وخص الليل بساعاته المختلفة وأردفه بالسحر والفجر، كل ذلك يقوم دليلاً على أنَّ البرق يلازمه في جميع أوقاته أو أنَّه صاحب ولَهٍ مستمر وحضور دائم وتعلقه لا ينقطع بذات الحبيب (ﷺ) ومرابعه. ونال الليل النّصيب الأوْفَى لأنَّه وقت الذكر والعبادة والتأمّل والخلود إلى النّفس وما ترتاح إليه، وهو لا يرتاح إلاّ إلى ذات الحبيب (ﷺ) ولا يهدأ إلا إذا كان في حضرتها دائماً.

وقد يأتيه البرق في غير زمانه ويراه في غير إبانه دليلاً آخر على التعلق المستمر والانشغال الدائم كما قال (١٩٢):

جَوَىْ قَلْبي رَمَىْ الرفْريفْ   في آن ولاهُو خَرِيفْ

خالف هذا البرق العادة إذْ جاءه في غير وقت الخريف. فيكون هذا برق الأنوار المحمدية، ولكن بقية بروقه هي في مواسمها المعتادة (٣٠١):

الـــبرقْ لاح وكـــتْ الرُّشَـــاشْ   شَـــافُو المُحِـــبْ مِـــن حِينُـــو شَـــاشْ

والـــروحْ بقـــتْ في انْقِـــشَاشْ   بعـــد المـــشَافْ جَـــاهُو الطَّـــشَاشْ

عَـــافِيتُو لِـــيمْ صَـــاحب البـــشَاشْ

وقت الرشاش هو مظنة البروق وهو بواكير الخريف وتباشيره. وللمحب مع برق هذا الموسم حال كما ترى سنجمعها مع مشابهها في آثار البروق على المحبين. ويذكر وقتاً لعله يكون في أواخر الخريف مع دخول الشتاء، وهو قوله (١٦٥):

وَكِـــتْ التّبَنْقَـــرَا   لاحْ بَرقَـــاَ قَرْقَـــرَا

قَلْبِـــي، وعينِـــي أفْقَـــرَا   شَـــال نُومَـــا وصَـــنْقَرَا

فالتبنقرا ريح شتوية باردة، والبرق الّذي لاح في أوانها نكت قلبه، وأفقر عينه من الدموع من كثرة البكاء وسلب نومها وجعلها مجافية النّوم أو الاضطجاع (مصنقرة) وهذا فعل المتحيِّر، سحبه على العين تجريداً وتشخيصاً فأعطى صورة ناطقة.

ومثله البرق القِلّيني، وهو برق (الكَتْمة) وتوقف هبوب الريح، وهذا أشد وقْعاً على النّفس إذ ليس معه ما يشغل عنه إلا الترقُّب؛ لذلك قال عنه (٥٥٣):

البَـــرِق لاحْ قَلِـــيني   أبَـــى سَـــهْمُو مَـــا يخَلِينِـــي

رِيـــحْ الـــصّبا عَـــامْلينِي   بالوَصْـــلِ لا تْقلينِـــي

يريد الوصال لا (القِلا) وهو الجفاء.

وقد يذكر البروق التي تكون في شهور الحج أو شهور الاستعداد له كما قال (٤٤٢):

الْليلَـــة الْبريـــقْ في ثَـــانِي الأفْطَـــارْ   جَـابْ مِـنْ جَـاي نَـسِيماً لـي القَلِـبْ فطَّـارْ

والأفطار شهران، الفطر الأوّل وهو شوال والفطر الثاني هو ذو العقدة ويليهما شهر الحج الأكبر. فبرقه هذا في ذي العقدة (ثاني الأفطار) وهو مشوِّق جداً نسبة لدنو دخول شهر الحج.

وقد يثور الشوق عنده مبكراً أكثر من هذا منذ شهر جمادى وهو الذي يعرف عندنا بسايق أو سايق الكرامات كما قال (١٣٢):

بريقَـــاتْ سَـــايقْ   أطَـارنْ نـومْ القَلِـبْ والمَـايقْ

وقد طار نومه مبكراً لأنَّ هذه شهور نصف السّنة، ولكن أقرب منها لوقت الحج والزيارة بل هو وقتها ما جاء في قوله (٤٢٩):

البَـــرّاقْ عَمَــــلْ فِــــيْ شُـــورَه   خَلَّــــى حَـــــشَاشِي مَنْــــشُورَهْ

في الـــــشّهر القَبُــــلْ عَاشُــــورَا   مَــا سمــعْ الــدّهرْ لَــيْ شُــورَهْ

والشهر الذي فيه عاشوراء هو المحرم، والشهر الذي قبله هو ذو الحجة، شهر الحج. إذن هو يتحسَّر على الدهر الذي لم يسمع (شورته) ويطلق قيده في ذي الحجة ويزور الحبيب (ﷺ).

وقد ينسب شاعرنا البرق إلى اليوم وساعاته مثلما نسبه إلى المواسم والشهور وأكثر ما يستخدم كلمة (الْليلَه) وهي عندنا بمعنى (اليوم) بنهاره وليله كما قال (٤١٤)

الْليلَـــــه البـــــرُوقْ ضَـــــرَبَتْ   قلبِيــــيْ والــــدموع سَــــكَبَتْ

أو قوله (٣٧٢):

الْليلَـــة الحِجَــاز بَراقُــوْ لــي تَاشَّــاتْ   شَــالنْ نُــومْ عِيُــونِي الكَبْكَــبَنْ بَاشَــاتْ

والتَّشُّ بالنّار كما هو معلوم، أما البشيش فهو التدفق الشديد وانهمال الدمع. ونسبة البرق إلى (الْليلَه) لا تكاد تحصى، وهي مصحوبة بتنوع مطرد كقوله (٤٠٨):

الْليلَــــــــــــة لاح برقـــــــــــــــاً سَـــــــــــــــلَجْ (٤٠٨)

الْليلَــــــــــــة لاح برقـــــــــــــــاً بـــــــــــــــرد (٢٨١)

الْليلَــــــــــــة لاح برقـــــــــــــــاً جلــــــــــــــــد (٢٨٤)

وجسف، وطلع، ونحو ذلك مما سنفصِّله في أفعال البرق لاحقاً.

ثم يتدرَّج فينسب البرق إلى الليل وساعاته، ابتداءً من دخوله ساعات الغروب(٢٥٢):

لاحْ لــــي بريـــقْ المغَــــارِبْ   لــــسَعَتنِي معَــــا العقَــــارِبْ

لا أغْـــــرَابْ لا أقَــــارِبْ   نَفَعُــــــونِي ولا مَــــــشَارِبْ

ولا ينفعه إلا شيء واحد وهو الخروج به نحو بلد الحبيب (ﷺ).

ويمضي متدرِّجاً في ساعات اللَّيل فيذكر العشاء مكبراً ومصغراً.

فيقول (٤٣٨):

بَــرْقْ العِــشَاءِ شَــمَالْ مُنَــى   مُــــذْ لاحَ رُوحِـــي اثْيَامَنَــــا

أي ضمَّ روحه في يمينه ولابد أنَّه سيصطحبها معه.

ثم قال في أخرى (٢٣٧):

عِـــــشَيْ لاح البريـــــقْ ألَّـــــم   جـــرى دمعـــي وفَمِّـــي اتـــبلَّم

والعشاء الوقت المعروف، وتصغيره يدل على أنه ما بقي منه إلا القليل مثلما نقول (العصير) وذلك أدخل في وقت العتمة والظلام وأدخل في ثلث الليل المعروف بثلث الرجال وهذا لا يكون إلا بعد نوم العامّة غالباً.

وقد يحدد ذلك الليل ويربطه بأحد أيام الأسبوع ولابد أنْ يكون هذا اليوم هو يوم الجمعة لأنَّه اليوم الّذي تكون فيه زيادة الذكر وزيادة العبادة والصَّلاة على الرَّسول (ﷺ) وبرقه أشدُّ تأثيراً من بروق بقية الأيّام لما تقدم من أسباب، قال عنه (١١٠):

بريْقَـــــاً لاحَ ليـــــل جُمْعَــــــه   سَـــطَع في قَلبـــي كَالـــشّمْعَة

وحَـــشْحَشْ يَـــا بـــني الأمْعَـــا   دَهَـــشْ أفْكَـــارِي والـــسَّمعَا

ثَكْلـــــت وسَـــــالتْ الـــــدّمْعَا   ولم آنـــس بحَـــال جَمْعَـــــا

ومع أنّه يوم اجتماع على الذكر والصّلاة لكنه لم يأنس بأي جمع فيه لما أصابه من جراء ذلك البرق.

والليل نفسه درجات عند الشاعر، يتضح ذلك في نسبة البرق إلى الأوقات التالية(٣٣٤):

بعـــد مـــا الليـــل ســـجا عـــرّف   بريريـــــق أم رخـــــام جَـــــرَّف

وقوله:

- **بعد ما الليل سجا وعقب** = سكن وكاد ينقضي وهذا أهدأ أوقاته.
- **بعد الليل ما أدجر** = أظلم.
- **بعد الليل ما هوَّد** = ذهب أكثره.
- **بعد ما الليل دخل ظرفو** (٣٢٨) = تمكن
- **بعد ما الليل دعا الكرفيس** (٢٦٤): آخر الليل وفيه البرد والنوم العميق.

وقد يصفه بصور أخرى تبين تفاصيل الليل وساعاته ووصف شدة ظلمته إذ كلما كانت الظلمة شديدة كان البرق أوضح وأظهر وأكثر تأثيراً.

كما قال (٣٤٥):

- **الْليلَة لاح برقاً جنح الدياجر** = في شدة الظلمة.
- **جنح الدّجنه رأيت بعَيْ** (٢٧١) أي بعيني.
- **في جُنح الديجر البرق جرجر** = (٥١٢).

- **جنح الدجاء ضواحكن (٢٩٣):**
- **برق الدجا اتعرجنا (٣٩٨):**
- **بعد البهيم أدجر (٧٤):**

فالدياجر والديجر والديجور والدجنة والدجا والدماس والبُهْمَةُ كلها الظلمة الشديدة وبرق الظلمة واضح لامع حتى إنه يشبه به أسنان الرسول (ﷺ) حين قال:

ضَيْ ثغرو فاق برق الدَّماس

ويستخدم الكناية أيضاً كما بيناه سابقاً في نحو قوله (١٦٨):

براّق العَسْعَسَنْ	**أبْكَنِي وجَرَّسَنْ**

أي براق اللّيالي (العسعسن) أي اللائي أظْلَمن ظلاماً شديداً، من قوله تعالى: (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ) (التكوير: ١٧).

ومثله أيضاً (٢١٣):

بَرقْ الحَوالِكْ	**لي قَلْبي مَالِكْ**

والحوالك الليالي المظلمة تماماً كقوله(٢٦٥):

في الحَالِكَاتْ	**شف مَالكاتِي**

وقد مضت معظم هذه الأشطار في مواضع أخرى، وإنما نريد هنا الوقوف على تنويعه في إضافة البرق إلى ساعات الليل على اختلافها بما يدلُّ على سهره في جميعها.

ويظل يتابع ساعات الليل ويلاحق برقها حتى يدخل به في وقت السحر فيتحدث عن بروقه أيضاً كما قال (٣٣٩):

بريقَاتْ السّحرْ لِعْبَنْ	**بقَلبي وامتلا غُلباً**

أو قوله (١٨٩):

سِحْر البِرُوقْ البَارْقَهْ	**والله للجُوف حَارْقَهْ**
اجْمَعْ كَريمْ بالفَارْقَهْ	**رُوح المُحِبْ جَاتْ مَارْقَهْ**

غاية الضِّيق حتى كادت روحه تزهق (جات مارقه).

وإمعاناً في استغلال الوقت والظرف واحتياجاً إليه ينوع في ذكر الأوقات وتنفعه معرفته اللغوية والصرفية فيفجر طاقات اللغة إلى أقصاها، فحينما استخدم السحر ووجده كثيراً نوَّع فيه باستخدام القطعة وهي أشبه بالترخيم الذي ربَطُوه بالنداء، فقال (٢٦١):

شُوف برّاقاً سُحَيْ	**مِن سُوح سَمِح المحي**

وأصل (سحي)= (سُحَيرا) فحذف راءها ترخمياً وتنويعاً في الاستخدام.ثم تدرج إلى الوقت الذي يلي السحر، أو هو هو حين قال (٣٦٨):

قَبْـــــلِ مَـــــا الفَجْـــــرَا البريـــقْ رَاعنِـــي والـــدَّمِعْ أجْـــرَا
يَــا كَــرِيمْ لامْــتينْ هَــذه الهَجْــرَه عِــنْ قَرِيــبْ أرنِــي مَكّــة والحُجْــرَه

حتى يصل إلى الفجر ويكثر من ذكره، مصحوباً بالبروق كما مضى أو بالنَّسيم كما قال (٦٩):

جَـــانِي النَّـــسيمْ فَجْـــرَا ودَمْـــع العِيـــونْ أجْـــرَى

ومع تقارب المعاني والإيقاع لكنك تحسُّ تنوعاً واضحاً، يجعل الشاعر مهما تزاحمت عليه الصور فهو في مندوحة عن التكرار الممجوج والإعادة المِلَّة.

أشكال البروق وأنواعها:

مثلما لبروق الشيخ أماكن واتجاهات ومواسم وأزمنة وتوقيت، أيضاً لها أشكال وأنواع وألوان، وكل ذلك يدلُّ على شدة التَّحري والتَّتبُّع، هذا سوى أفعالها وآثارها التي سترد عليك وشيكاً إن شاء الله. فالبرق عنده يظهر بأشكال وأنواع منها قوله (١٨٢):

الـــبرقْ المنـــوّع شُـــفْتُو جُـــنْح الْليـــلْ والنُّـــومْ عُفْـــتُ

فقد يكون منوّعاً في لونه أو في حركته ونحوها، وقد يكون منوَّعاً في تأثيره، وعليه كقوله (٤١٨):

البَـــرِقْ المنـــوّع نَبْلُـــوْ رَمَـــى قَلْبِـــي الملـــوَّع قَبْلُـــوْ

فالنبل هنا قد يكون من حركة البرق وسرعة لمعانه وقد يكون من النبل الذي يرمي القلوب لأنَّه أعقبه بقوله (رمى قلبي الملوّع قبلو) يعني كما نقول (قلبو ما ناقص). فهو معرض للنبل والطعن واللسع وكل صفة مؤلمة، بل معرض لغارات خيول البروق.

كما قال (٢٢١):

البَـــــرقْ حَـــــافْرُو غَـارْ قَلبِـي جُـنْح الليـلْ مِـنْ يومُـو ضَـافْرُو
دورْ الــوَطنْ كُلُّــو أصْـبَحْتَ نَــافْرُو يَــا أخْــوانِي ضِــعْ بالحيــلْ أن بِــيّ سَــافْرُوا

فكل ما يفعله البرق هو موطّن نفسه على حدوثه (من يومو) أصلاً وعادةً، لكن الذي لا يستطيع توطين نفسه عليه هو الصبر، لأنَّ كل ديار الوطن لا تسعه من شدة الشوق ولا يحتملها، لذلك يأتي التَّوسل الدَّايم (أنا بيّ سافروا) هذا هو علاج الضيق والضياع الوحيد.

وقد يكون تنوّع البرق في ألوانه خصوصاً عندما تشتد الظلمة ويتمكن الليل (٤٢٠):

بَعَـــدْ مَـــا الْليـــلِ تَجـــوَّنْ   شُـــفْتَ بَرْقَـــاً جَـــاي مَلَـــوَّنْ
طَـــار نُـــومِي وقَلبِـــي كَـــوّنْ   الهـــرُوب إنْ رَبِـــي هَـــوّنْ

حين تمكن الليل وتوغَّل في الهدوء والظلمة رأى هذا البرق الذي يظهر كل مرة بلون لكنه هذه المرة خطا خطوةً جريئة بعد أن فقد الأمل في الضراعة والتوسُّل لإخوانه بنحو (أنا بي أمرقو) أو (أنا بيَّ سافرو) أو (هل لي من راق) أو بغيرها كما سترى لأنه في هذه المرة قلبه (كَوَّن) أي (دبَّر) الهروب إن سهّل الكريم.

ولفرط تتبعه للبروق ومعرفته بها يعرف العادي منها وغير العادي، لذا يقول(٣٠٤):

الْليلَـــه لاحْ برقـــاً غريـــب   بـــين الفـــرُوق والعَنْقَريـــبْ

فهذا برق غير مألوف، غريب في جهته أو شكله أو فعله، لكن هو كإخوانه: (خلاني زي زول السريب) مثل المصاب في صدره (نفسو قايم) وهذا يؤكده قوله(٣٠٧):

الْليلَـــه لاحْ برقـــاً خَبَـــبْ   رَمَـــى قَلْبِـــي بـــي نَبْلاتُـــو بَـــبْ
خَلاَّنِـــــي زَي زولْ الـــــشّبَبْ   إنْ كَـــانْ حِييـــتْ مَـــا في سَـــببْ
غـــــيرْ مَـــــا أحِـــــجْ وأرَى مَـــــنْ حَبَـــــبْ

وزول الشّبَبْ هو المصاب بالتهاب الصدر، هو دائماً في ضيق نَفَس ومعاناة.

ولا ينسى البروق البعيدة، فهو يرعى البروق كمن يرعى النجوم قال (٣١٧):

الْليلَـــه لاح برقـــاً بعيـــد   وأقـــنعني مـــن دور الـــصعيد

وأتخيل الياء من كلمة (بعييييد) ممطولة ممدودة إلى أقصى مدى.

حركة البروق وأفعالها:

البروق عند الشيخ حياتي تستحق كتاباً برأسه؛ لأنه ما ترك شيئاً يتعلق بها إلا وقف عنده، فتكوَّن بذلك معجم مدهش في الألفاظ وحصيلة معجبة من الصُّور؛ فعلاوة على ما مضى من حديث غني عن أزمانها ومواسمها واتجاهاتها وما إليه فإنَّ التقصيّ والتتبع - على صعوبته - يبرز القدر المذهل من الأفعال التي استخدمها الشاعر ويصور بصدق حال المحبين إزاء هذه الأفعال المقلقة للبروق.

للبرق في نفسه حركات، وله في المحبين أفعال وله فيهم آثار، يصعب إحصاؤها وتصنيفها، وسنحاول هنا إبراز ما يتيسر منها. فالمتتبع للبرق عند الشاعر يجده يظهر في صور عديدة عبر عنها بالأفعال: (برق ـ لمع ـ طلع ـ صدر ـ حقص ـ خبب ـ توتل ـ ولول ـ تَدَيَّر ـ

اتعرجن) فهذه مجموعة أفعال وصور كلها تدل على أنه شاهد البرق وهو في هذه الصور، وجاء الوصف في صيغة الفعل الماضي في قوله (٥٥٠):

بــــــرقْ الحِجـــــاز بَـــــرَقْ   قَلبِـــــي وغَطـــــا انْحَـــــرَقْ

أو:

البَـــــــــــــــــرقْ لاحْ   في الليـــلْ مِـــنْ البـــاقي وكْـــت الفَـــلاحْ

أو يجمع الفعلين (لاح وبرق) معاً توكيداً على الظهور والرؤية (٣٦٣):

الْليلَـــــــــه لاحْ بَرْقـــــــاً بَـــــــرَقْ

أو يستخدم الفعل (لمع) وهو من صفات البرق الأصيلة ويستخدمه في صيغة الفاعل .. جاء الفعل مع البروق مجموعة في قوله (٤٦٩):

الْليلَــــــة الحجـــــاز براقـــــو جـــــاي لمعـــــن

وجاء على صيغة اسم الفاعل في قوله(١٣٨):

يَـــــا لامـــــعْ أمْ شَـــــبَكْ   في لا تـــــتجْ مَـــــضْرَبَكْ

وقد يظهر البرق ويغيب فيعبر عن ذلك بقوله (٤٩١):

الْليلَـــــــة الحِجَـــــــازْ لاحْ بَرقُـــــــو واتْـــــــوَارَى

أو قوله (١٠٤):

بَعـــــــــدْ البريـــــــــقْ لاحْ أفَـــــــــلْ

فهو في تتبع مستمر له في حالي ظهوره واختفائه، ولا ينسى وهو في هذه الحالة وصف البرق حين يظهر أو يغيب، كيف كان ظهوره فيقول (٥٣):

البريـــــــــقْ ولـــــــولْ   حَـــالْ أخـــد رُوحِـــي بالقلـــب هَـــرْولْ

والولولة دليل العجلة والسرعة مع إفزاع للرائي. وليس هذا مجرد ظهور أو لمعان كما في قوله (٣٢٣):

الْليلَـــــة لاح برْقَـــــاً طَلَـــــعْ   صـــبح الجَـــدِي وسَـــافِل بُلَـــعْ

الطلوع والظهور أمران عاديان غير مصحوبين بحركة كما في قوله (٣٢١):

الْليلَـــــه لاح برقـــــاً حَقَـــــص   زوّد علـــــي لامـــــن رقـــــص

فالفعل (حقص) فيه حركة شديدة ودوران وهذا أشبه بقوله(٢٠٣):

برقـــــــاً تـــــــديَّر   رمـــى سـهمو قلـبي لمزاجـي غـير

وهذا البرق لزم جهة واحدة صار يدور فيها كالحاقص وهو الذي يدور في مكانه وأصل (التديُّر) التجمُّع. وقد تكون الحركة تثنياً وتلوياً كما قال (٣٩٧):

بـــــرق الـــــدجا اتعرجنـــــا   شـــــفت وقلـــــيبي اتجننـــــا

فالتعرجن هو التلوي والتثني، وقد تكون الحركة متتابعة، برق في إثر برق حتى كأنه صفوف متراصة وهو الذي قال عنه (٢١٥):

البريــــــــــــقْ توتَــــــــــلْ   سَــهْمُو صَــاد ذُو الحُــب صَــادف المقْتَــل

فصار يظهر البرق في تقارب وكأنه (توتال) وهو الصف من الناس أو الظباء يسير بعضها خلف بعض كالقطار. وذلك لسرعة رفيف البرق وتواليه فيظهر كأنه بروق متراصّة.

وقد يتصوره يخب خبباً كما تخب الإبل وذلك في سرعة وصعود وهبوط كقوله(٣٠٧):

الْليلَـــــه لاحْ برقَـــــاً خبـــــبْ   رَمَـــى قَلــبي بِــي نِبلاتُــو بَــبْ

أو قوله (٨٤):

بـــــرقْ الحِجـــــاز خَبَبَـــــا   طَـــــرّا القَلـــــبْ حُبَبَـــــا

أراد (خَبَّ) إذا تحرك كتحرك الإبل في خببها وهو ضرب من سيرها فيه قوة وسرعة.

وكل هذا يختلف عن مثل قوله (١٥٣):

وِكْــــــــــتينْ صــــــــــدَرْ   البَــرِقْ آخــر الليــل دَمْعِــي انْحَــدَرْ

فالصدور ظهور، ولكن لاتتبعه حركة كالحقصان والتعرجن والخبب، ولكنه مع ذلك مؤثر كما سترى في آثار البروق لاحقاً.

وشاعرنا لغزارته وسعة أفقه يصل إلى هذه المعاني والأوصاف من طريق الفعل أو من طريق المصدر مع تنويع مذهل. وقد مضى استخدام الأفعال أما المصادر التي استخدمها لحركة البرق فهي (النبل والنحت والنفل والكتل والبرق والزَّرق والخبت) ولكل مصدر من هذه المصادر معنى يدل على حركة البرق وهيئته فإذا قال(٣٢):

البريـــــــــــقْ بَرْقُـــــــــــو   حَــشْحَشْ الأمْعَــا والــضلِوع زَرقُــو

فقوله (برقو/برقه) أراد لمعانه وبريقه، و (زرقو/زرقه) أراد طعنه كما يطعن الرُّمح وكررها بنفس الترتيب والدلالة في قوله(٢٠٩):

البريـــــــــقْ برْقُـــــــــو   عَـــــــالّني زَرْقُـــــــو
حَـــــالِي مِــــــنْ فَرْقُـــــو   مَارضَـــــه نَـــــاسْ برقُـــــو

فلمعان البرق آذاه بالطعن، كأنه حين يبرق يطعن طعن الرمح في قلبه فيعلّه. و(برقو) الأخيرة إشارة إلى المحبين القادمين من غرب إفريقيا وغرب السُّودان.

أما النَّفل فهو الضرب بغرض التسوية، حينما يمسك الإنسان بمجموعة أعواد أو حزمة (قش) يريد تسوية رؤوسها فيضربها بجسم آخر مستعرضاً حتى تستوي الرؤوس فذلك هو النفل. (وكان هذا مستخدماً في بناء القطاطي والكرانك بنبات النال، والآلة المستخدمة هي المنفالة) والخلاصة أنه ضرب فيه خشونة وعَصْر ومضايقة.

واستخدم المصدر (كَتْل) في قوله (١١٩):

البريـــــــقْ كَتْلُــــــــو   للمُحِـــبْ روّع أنْبَـــا بـــي قَتْلُـــو

و(كتلو/ كَتْلُه) هنا ليست من (قتل) بالقلب المكاني، بدليل قوله (بي قتلو) في نهاية الشطر الثاني، وإنما (الكَتْل) الاستمرار والسرعة وهي كذلك في لسان العرب، فلان (كَتَل) إذا مضى مسرعاً، لذلك قال نافياً أن يكون (الكتل) هو (القتل) كما يتبادر (١٢٩):

بريقَـــــــاً كَتْلُـــــــو   هَـرَدْ أمْعَـاي لُــبْ جَـوَاي فَتَّتْلُـو

فهذه سرعة لمعان مع استمرار، هرّأت أمعاءه وفتتت لُبّه، فلو كان قتلاً ما أحسّ بما بعده إذ لا يضير الشاة بعد الذبح سلخها. فتأمّل!

واستخدم (النحت) مصدراً أيضاً ليبين أثر البرق في قوله(١١٧):

البريـــــــقْ نَحْتُــــــــو   في جَـوَى قَلْبِـــي البيَّـــى صَـــرَّحْتُو

فالنحت هنا كالنخس والنكت، ولكنه مرتبط بالحجارة والأجسام الصلبة، فكيف إذا كان في القلب؟ هو مؤلم حقاً.

واستخدم المصدر (النبل) أيضاً في قوله (٦٦):

البريـــــــقْ نَبْلُــــــــو   سَـهْمُو صَــادْ ذَا الحــب مَبْلِــي مِــنْ قَلبُــو

وكرر المعنى مع اختلاف الصياغة (١٨٦):

الليـــــلْ الْبريـــــقْ نبْلُـــــو   رَاعْ قَلبِـــي الـــسَّقِيمْ قَبلُـــو

فجعل للبرق نبلاً كنبل السهام، وقلبه أصلاً (ما ناقص) كما نقول؛ فهو (مبلي من قبلو) و (سقيم قبلو) فصار ألماً على ألم.

واستخدم (الخَبْت) وهو الضرب أيضاً في قوله:

البريـــــــقْ خَبْتُــــــــو   ســهْمُو صَــاد قَلْبِــي النّــومْ حَــارَيْتُو

فالخبت هنا كالنَّبْل أعلاه هما مصدران لحركة البرق وكلاهما مؤلم. وقد يستخدمه في صيغة الفعل، جاء ذلك في قوله (٤٨٢):

الْليلَـــــة الحجـــــاز براقــــو جــــاي خَبَــــتَنْ

أثر البروق في الشاعر والمحبين:

هذه حركة البروق في نفسها مفردة، يتبعها التأثير الذي تحدثه في المحبين، وهناك حركات أخرى للبروق ربطها الشاعر مباشرة بأثرها في المحب، سواء في قلبه أو عيونه أو كَبِدِهِ أو روحه أو أحواله العامة ونحوها. وكان للقلب نصيب الأسد لأنه موضع المحبة والعاطفة المشبوبة، فلنتأمل وبصبر أفعال هذه البروق في الأعضاء وغيرها..أما القلب فقال فيه(٣٧٢):

الْليلَــه البريــقْ حــالج لقلــبي إحْـلاجْ صِــرْ واهــي العظــام لم أنتفــع بعــلاجْ

غــير زورة طبــيبي المــالي غــيرو مَــلاجْ ناويبــا، المــآثم خاتَّــهْ فُــوقِي إسْــلاجْ

صورة بديعة، البرق حلج قلبه، والحلج أحد أمرين الضغط والفرم الشديد كما في حلج القطن حتى ينبسط وتنفصل بذرته، أو الضغط حتى تنفلت ولا يمسكه شيء كالصامولة (الحالجة) فهي لا تربط ولا خير فيها. وبقية الصورة أنه مصمم وعاقد النية على الزيارة ولكن الذنوب تمنعه من ذلك وتضع على رقبته خشبة كخشبة ثور الساقية تثقل كاهله وتمنعه من الحركة.

أو أن هذا البرق يرمي قلبه بالسهام وهذا كثير عنده منه قوله (٥٥):

في الــــدجاء نَبَــــلْ البريــــقْ قَلبِــــي والــــدّمْع أســــبلْ

أضــــرم الــــنّيران في حَــــشَاي بَلبــــلْ لــو سَــقُونِي التّــل كبْــدِي مــا بْتِنْبَــلْ

أصابه البرق بنبل في قلبه أشعل فيه النيران وابتلاه بشدة ظمأ لو أنَّ كبده الحرى صُبَّ عليها الثلج، لم تنطفئ تلك النار ولا برد الحر ولا ذهب الظمأ.

ويبرع الشيخ في التنويع، ولا يسير على وتيرة واحدة في النظم وفي استجلاب الصور والمعاني فيستخدم الاستفهام المتبوع بالإجابة(١٢٥):

البَــــرِق إن سَــــوَّى لَــــيْ لَــــوّى قَلــــبي حيَــــاتِي لَــــيْ

والله مِــــــنْ العَلَــــــيْ الحِلُــــو مَــــسخَان عَلَــــي

هذا العضو الحساس وهو القلب يلويه البرق كليِّ الثوب المبتل ويعصره، فهو من جراء ذلك يذوق الحلو ماسخاً لا طعم له.

وقد يسحن البرق ذلك القلب ويغربله كما جاء في قوله (٢٧٩):

الْليلَــــه لاح برقـــاً نخــــل   قلــبي الولــوع زام واســـتخل

أعلـــيّ لـــوم إن انـــدخل   مــا دام بعيــد مــن أم نخــل

أن يَسْحَنَ البرق قلبه ثم يغربله، تلك غاية الألم، لذلك ليس غريباً أن يزيم ويصدر صوتاً ويفقد صوابه، بل ليس غريباً أن (يندخل) أي يصاب بالجنون ما دام بعيداً من المدينة أم نخل.

وقد يجلده البرق جلداً مبرحاً (٤٠٨):

الْليلَــــة لاح برقـــاً ســـلج   قلــبي الولــوع ود عــيني لج

مَــا بِــنْفَعَنْ فيــه العلــج   غــير مــا أزور سمــح الفلــج

جلده البرق حتى زاغت عينه عن موضعها واضطرب إنسانها ولجَّ، فصار لا ينفع فيه العلاج وعلاجُه معروف دائماً وهو الزورة لسمح الفلج.

وكثيراً ما يستنطق الشيخ المطالعين والسامعين لشعره كأنه يشهدهم على حاله (٢٨١):

الْليلَــــة لاح برقـــاً بـــرَدْ   قلــبي وحــشا كبــدي انْهَــرَدْ

حنيـــت حـــنين الانفـــرَدْ   أعلـــيّ لـــوم إن قُــمْ شَــرَدْ

مـــــا دام علــــــي ضـــــاق الــــزَّردْ

ولا تجد نفسك إلا متعاطفاً غاية التعاطف معه، لأنه يظهر في حالة تثير الإشفاق وتحرك كوامن النفوس، فهذا القلب الحساس بردته مبارد البرق فتآكل وانهرد باطن الكبد، فأصبح يحن حنين الحاشي المفصول من أمه وهو مضرب المثل في الحنين، فما دامت حلقات الزرد انشدت على حلقه فهل عليه لوم إن هرب إلى ديار المحبوب... أبداً لا لوم ولا تثريب.

ويمضي في وصف حال قلبه مع البروق، ولا يكاد يترك فعلاً معبراً عن ذلك (١٦٠):

البريــــــــقْ تلّــــــــفْ   قلــبي، جــنح الليــل بالــسهل سـلّف

يــا كــريم ذا العــام منــو لا اتخلــف   بــي البحبــو كلــف قبــل مــا اتكلــف

غاية الضراعة والتوسُّل بمن أحبه منذ أن كان صغيراً بأن لا يتخلف عن زيارته هذا العام ليرتاح من هذا البرق الذي أتلف قلبه وجعله يهيم في الليل البهيم ويبكي كما تبكي المرأة المفجوعة التي فقدت عزيزاً لها..وسلَّفت المرأة إذا كانت تبكي وتعدد محاسن الفقيد وهي تجيء وتذهب، وغالباً ما تحقب يديها من خلفها أو تضعهما على رأسها في صورة حزينة.

والدعوة إلى الهروب والشراد والنجعة عنده لا تحصى (٢٩٩):

الْليلَـــــه لاح برقـــــاً هــــــرد   قلـــبي وعزيـــز النـــوم طـــرد
حنيـــــت حـــــنين اللنفـــــرد   واحـــسري إن مـــا قُـــمْ شَـــرَد
بالـــــــسكة أو فـــــــوق أب غُـــــــرَدْ

مرّ هذا المعنى قبل قليل، ولكنه زاد عليه كعادته، الوسيلة التي يستخدمها في الهروب وهي السكة الحديد أي بالقطار . وقد أدرك زمانه . أو على بعير له (غُرَد) وهي الأحزمة التي يُشد بها الرَّحلُ في وسطه ومن خلفه.

ولكنه أحياناً يتمنى لو أنه يستعجل فلا ينتظر راحلة ولا زاداً كما قال (٥٤٨):

بــــــرق الحجــــاز نفـــــش   قلـــبي وغُطـــا انكفـــش
ضـــاع عمـــري المـــاطفش   لا زاد ولا عفـــــــــــــش

والنَّفْش يكون للقطن وله عصا مخصوصة، وحال قلبه كذلك، ضرب ونفش حتى انكشف غطاؤه، فهو يرى أن عمره قد ضاع لأنه لم يهرب مستعجلاً غير ملتفت إلى زاد أو متاع.

والبرق عموماً له مع قلبه أحوال وأفعال تقدمت منها تسعة وهي: حلج. نبل. لوى. نخل. سلج. برد. تلّف. هرد. نفش، واستخدم معه غير ما مضى مجموعة أفعال منها (شحت، نقب، جلجل، سبى. مكن. ختف. روّى. تشَّ. كوى. ولّد. وقد) فهذه عشرون فعلاً مع القلب فقط أوردها في صور رائعة معبرة مثلت لبعضها وأضربت عن كثير، لا لعدم أهميته ولكن أتوخّى وروده في أغراض أخرى.

أما حال العيون مع البرق فحدث ولا حرج، إذ بالضرورة أن ما يحرك القلب ويؤذيه تتجاوب معه العيون وتُسْعِدُه بالبكاء والدمع والسهاد وقلة النوم ونحوه، يظهر هذا التلازم في قوله(٤٠٥):

الْليلَـــــه لاح برقـــــاً خَتَـــــفْ   نـــوم عـــيني جُـــنْح الليـــل تَـــفْ
زمَّ الجَنَــــــان تَفَّــــــاهُ تَـــــفْ   دمَّــــاعي بالخـــدين هَتَـــــف
وأنـــــا بالـــــذنوب هـــــاني انكتـــــف

خطف البرق نوم العيون بسرعة فائقة حكاها بالصوت في قوله (تَفْ) تعبيراً عن الخفة والسرعة ولم يكتف بذلك بل (تَفّ القلب تَفّا) أي دقّه دقاً كما يُسْحَنْ البُنّ ونحوه من النواشف، ويكون (التَّفُّ) للأشياء الغضة كاللحم (في الفندك تفّوني). فهرب النوم من العيون وهتفت الدموع بالخدين أي سالت بلا انقطاع، ولا علاج لأنه مقيد بقيود الذنوب.

وهروب النوم هو قلّته التي عبر عنها في موضع آخر بقوله (١٢٤):

البريـــــــــقْ قلـــــــــل   نــوم رهــين الحــب ملّلُــو وكلّــل

غيّــر أحوالــو بــاح دمــو وحلّــل   راجــي بــي زورة كــابي اتبلّــل

قلل نومه وأصابه بالملل والكلل وأباح دمه وغير أحواله .. والعلاج هو الزورة.

ويصف دمعه بأنه ينزل ويسيل بأدنى إثارة فهو (محيّل) أو (على الهبشة) كما قال(٥٣٦):

الـــبرق ســـيل دمعـــي المحيّـــل   خـــسران شـــبابي وشـــيبي المخيـــل

مـــا عـــبَّ شـــيل علـــي ســـوحو ميّـــل.

والشيب المخيل هو الشيب (الخيال) الذي لا عبرة فيه ولا عظة ولا فائدة، فلو كان مفيداً لحضّه على الاستعداد والسفر إلى سوح الحبيب (ﷺ).

والـدمع عنـده موصـوف بالـصفة الـسابقة أحيانـاً وموصـوف بـالغزارة أحيانـاً كقوله(٥١٦):

الـــبرق لـــي طلّيـــتْ   في فَـــضْلَهْ مـــا خلّيـــت

دمعـــي الغزيـــر هلّيـــت   فـــوق نـــارك اتقلّيـــت

ومع البكاء الذي لم يترك فيه ولا في جسده بقية هو أيضاً سهران لأن الباكي مسهد والمسهد لا ينام، ولا يجتمع النوم والبكاء، لذلك قال ((٤٩):

أَسْـــــــــهَر الطَّـــــــــرْفِ   البريــقْ مَــزَّق في الــدجا ظــرفي

ومزّق ظرفه أخرجه من غلافه كقولنا (أخرجه من علبه) وهو نتيجة المضايقة حتى يخرج من مألوف عادته. لأنه فقد الصَّبر من توالي البروق عليه ومن طول إبطائه من زيارة الحبيب، وهذا ما عبَّر عنه بقوله(٦٠):

البريـــــــــقْ صـــــــــبري   قلّلـــو ونـــومي واضـــياع كـــبري

يــا كــريم قبــال مــوتتي وقــبري   جــود علــي بــي زورة حَجَــايْ جَبْــرى

وكيف تنام عيون جلدها البرق وقلبها من مكانها الطبيعي (٢٨٤):

الْليلَـــــه لاح برقـــــاً جلـــــد   قَلَـــبْ العيـــون ماهـــا اتْقَلَـــدْ

خلانـــي كالفاقـــده الولـــد   نـــار الهـــوى فيهـــا انخلـــد

لابـــــــد أفـــــــوت رِدَّ البلـــــــد

والمِتْقَلِدْ عندنا هو المتوالي، كحال دمع الأم التي فقدت وحيدها ولا علاج إلاّ بالبعد عن البلد والقرب من ذاك البلد.

ثـم وصـل الـبرق بـالعيون إلى نهايـة المطـاف معهـا إذ سـبب لهـا العمـى ولم يكفـه سـيلها وانهمارها وانهمالها وانقلابها وسهرها وسهادها، قال (٨٠):

الـــــبرق لـــــــيّ عمـــــــا ومـــــــسَّخ علـــــــي نعمـــــــا
الـــدنيا ولذيـــــذ دعمـــــا خلانـــــــــي كالبعمـــــــــا
هـــــا حيـــــــاتي شـــــــن طعمـــــــا

تعبير بليغ عن حالة عيونه مع البرق حتى أوصله إلى غاية جعلت الحياة بلا طعم ولا فائدة مسيخة مليخة فما الفائدة منها؟

ولم تسلم روحه من المصير الذي لاقاه قلبه وعيونه وكثير من أعضاء جسده وقد ذكر الـروح كـثيراً لأن مـا يـصيب القلـب والعيـون إذا كـان فيـه خـروج الـروح فهـي بـين كـدّ وجهـد ومسامـاة وزعزعة كما قال (٤٨٢):

الْليلَــه الحجــاز براقــو جــاي خــبتن والــروح زعــزعن قلــبي الولــوع نــبتن

فجمع بين زعزعة الروح وطعن القلب إذ التَّنْبيت هو الطعن المتقارب.

وكثيراًما يجمع بين القلب والروح لتلازمهما أيضاً لأن القلـب إذا توقف خرجت الـروح .. فقـال (٤٩٧):

الْليلَـــه البريـــقْ منُّـــو القليـــب رابـــا خلّـــى الـــروح تـــسامي تـــسامي ربرابـــا
بالأســف الــشديد خــشمي امــلا تــرابا إن مـــا زر ريـــاض أم قلـــه مِحْرَابَـــا

تغير القلب وتكدره جعل الروح في وضع عجيب عبَّر عنه بأسلوب أعجب وذلك أن قوله (تسامي تسامي) كقولنا (تهوقي) أو تتوق إلى الخروج. وتكرار الفعل على مـا فيـه مـن ضعف لا يشبه (تنازع أو تخرج) ثم التكرار في ربرابا يعطي معنى الاضطراب والضعف ومحاولة الخروج ساعة بعد ساعة من جراء فعل هذا البرق.

ثم لاحظ صورة الخيبة التي رسمها بصورة تراثية هي الأخرى معبرة بليغة (خشمي مّلاَ تراب) لأننا نقول للخائب (التراب في خشمك) إن لم تفعل كذا.

وهـذا الـبرق قـد يجعـل الـروح في صـورة قريبـة مـن الماضيـة حـين يُفْقِدُها التركيـز وذلـك قوله (٤٣٣):

البريـــــــــقْ شـــــــــلوح بـــي روحـــي وصـــرت أتوحـــوح

بل هو قد يسمِّمها ومعلوم القلق الذي يعتري المسمم إن لم يقتله السم، قال (٢٣١):

مالـــــك يـــــاالبريقْ سممـــــت   روحـــي النـــوم علـــي حرَّمـــت

إن ســـــــامحتني اتكرمـــــــت   وإلا إن حكـــــــم ســــــلمت

ألا تراه في غاية الخضوع والاستسلام والتوسُّل إلى هذه البروق، لا يملك مقاومتها ولا يقدر على التخلص من قبضتها؟!

وإذا كان القلب موضع العاطفة والعين مسيلها والروح تحيا بحياة القلب فإن عضواً آخر من الجسد معروف بأنه محل الشفقة والعطف والحنان وهو الكبد حتى إنَّ الأم إذا فقدت عزيزاً من أولادها قالوا تفتت أو انفطر كبدها. وكذلك حال شاعرنا فإن البروق فعلت بكبده ما يفعل الفقد بكبد الأم كما قال(١٤٦):

بـــــراق طيبـــــة فتـــت كبـــــدي   مـــــوَّع قلـــــبي ليـــــل بالنَّبـــــد

أو قوله (١٦٧):

لاح برقـــــــــاً رصَّـــــــــــــصا   ليـــــــل كبـــــــدي وفَصَّـــــــصا

فكأنَّه أصابها بالرُّصاص من قوة نبله ثم قطعها وجعلها فصوصاً أو شرائح وهذا مؤلم.

وقد يجد الباحث في الديوان أشياء أخرى وأعضاء من جسده أثَّر فيها البرق ولكن نكتفي بهذا القدر لنختم بأثر البرق في شخصه على الجملة، وهذا في ذاته مبحث عريض سنعمد فيه إلى الاختصار أيضاً. ولك أن تتأمل معي هذه الأشطار والصور التي تضمنتها بلا تعليق:

. الْليلَة البريقْ شَنَّ عليْ إغارتو (٢٢٦)

. البرق بي حين يمر يسكرني بلا خمر (١٧١)

. الْليلَه البريقْ أدخل علي وجعين (٤٨٩)

. الْليلَه البريقْ ما خلَّى فيْ سببا (٤٨٥)

. براق طيبه غيّب بيَّ (١٨٠)

. الْليلَه البريقْ مسخ حياتى عليْ (٣٧٦)

. من برق الحجاز والخضرا   شِطْتَ يمين بعد ما الخُضْرَه (٤١٩)

بعد أن كان شاباً زاهياً كالغصن، جفّ وشاط وذبل.

. من البريقْ صر منجمر (٢٩٦).

ومن الصور الناطقة التي تبين حالة الضيق التي تعتريه من فعل البروق قوله (٣٢٣):

الْليلَـــــه لاح برقـــــاً طلـــــع   صُـــبْح الجَـــدِي وسَـــافل بُلَـــع

نبـــل القلـــب وسْـــطَ الـــضُلَع   طـــــرد الكـــــرى وزاد الولـــــع

والحِلُّـــــو لـــــي أنـــــا مـــــا انبلـــــع

وقوله (٣٦٣):

الْليلَـــه لاح بَرْقَـــاً بَـــرَقْ　　　شـفت وحـشا كبـدي انحـرق
أعلـــيّ لــوم إن انـسرق　　　مـن البلـد بـي شـيش مـرق

وقوله (٥٥٠):

بـــرق الحجـاز بـــرق　　　قلــبي وغطـا انحــرق
ضـاع عمـرى في الفـرق　　　لامــت ولا مــرق

وقوله (٣٢١):

الْليلَــة لاح برقـاً حقــص　　　زوَّد علـيْ لامــن رقــص
بهـل العيـون لـي قلـبي قـص　　　أعلـيّ لـو إن كـان نقـص
أو شـبت أو ضـهري انعقـص

وقوله (٢١٥):

البريـــقْ توتـــل　　　سـهمو صـاب ذا الحـب صـادف المقتـل
إن سـلم منـو غـير شـك يختـل　　　نـارو مـابْتَبْرُد إن سـقوه التـل

وقوله (٣٨١):

شُـــفْتَ البريـــقْ　　　خلانـي أبْلَـع ريقـاً بعـد رِيـقْ
أصـبحْ حَـزِينْ آسِـفْ مَـا بـي الفَرِيـقْ　　　حَـالِي العَلـي زَي مَـا حَـال الغَرِيـقْ

وقوله (٣٤٨):

الْليلَـه لاحْ بَرْقَـاً مَـا خَـلَّ خَافْيَـه　　　في صَـدْري وابْكَـانِي النُّـوم عـيني جَافْيَـه
هَـلْ لَـيَّ مِـنْ رَاقِ تَفْلاتُـو شَـافْيَه　　　غـيرْ زَوْرَة الْمَحْبُـوبْ مَـا بَلْقَـى عَافْيَـه

وقوله (٣٤٢):

الْليلَـه لاحْ بَرْقَـاً خلانـي أطانـب　　　مِـنْ قَلْبِـي ذَا المـسْلُوع ومِـنْ الجَوانِـبْ
هـلْ لِـي مِـن راقْ يَـك فيـه جانـبْ　　　مِـنْ الأقَـارِب أو مِـنْ الأجَانِـبْ

وقوله (٣٥١):

الْليلَـه لاحْ برقـاً فرْتـق سِـيَاجِي　　　خَلاَّنِـي ازيـمْ ولْهَـانْ زَايـدْ هِيَـاجِي
هـل لـيّ مِـنْ راقْ يَلفـي احْتِيَـاجِي　　　لـي وزورة المَحْبُـوبْ نُـورْ الْـدَيَاجِي

وقوله (٣٥٨):

الْليلَـــه لاحْ بَرقَــاً هَتَـــكْ الغَــرايمْ	**خلاَّنِــي طُــولْ الليــلْ ولْهَــانْ وزَايــمْ**
وجيُــوشْ هَــوَى الْمَحْبُــوب أنَــا لــي لَــزَايمْ	**غــير زُورْتُــو مَــا بطِبَّنَّــي العَــزَايمْ**

وقوله (٣٦١):

الْليلَــة لاحْ بَرقَــاً لــي سِــتْرِي هاتِــكْ	**طرَّانِــي سُــوحاً فيــه ابــن العَواتِــكْ**

هذا سوى التساؤل الشجي المثير للإشفاق عليه:

- **أعلي لوم إن كان ثكل   إما شرب إمّا أكلْ**
- **أعليّ لوم إن اندخل (٢٧٩)**
- **أعلي لوم إن قم شَرَدْ (٢٨١)**
- **أعلي لوم إن كان نقص   أو شبت أو ضهري انعقص (٣٢١)**

❖وسوى استجداء العطف من الأقارب والأجانب:

- **هل لي من راق (٣٨)**
- **هل فيّ من يؤجر (٧٤)**

❖**وسوى إظهار المرارة والضعف والمعاناة:**

- **الحلّو لي أنا ما انبلع (٣٢٣)**
- **ما فضل في الروح إلاّ فد تَوّاً (٤١)**
- **صرت أنين كالحبلى (٢٥٧)**
- **جاءني طلقات الحمل (٢٩١)**
- **خلاني أطانب (٣٤٢)**
- **روح المحب جات مارقه**

وغير الاستنجاد:

- **أنا بي أمرقو (٢٥٩)**
- **أنا بي سافروا (٢٢١)**

وغير ذلك من الصور المؤثرة التي رسمها الشاعر لبيان الأثر الذي تتركه البروق فيه وفي المحبين. وقد أوردتها مختصرة لأنها مرّت في ثنايا هذا المبحث وغيره وإنما جمعت بعضها هنا لأذكّر بها.

وهكذا يطول الأمر، وفيما أوردناه دليل على أن مبحث البرق هو تلخيص لجيوش هوى المحبوب التي تلازم الشاعر، وهو من جهة أخرى دليل على البراعة والتمكن الذي يميز شاعرنا، فالحديث عن البرق حديث عن ظاهرة واحدة، وبقدرما تحدث عنها وأطال وأطنب لم يكرر نفسه ولا أصاب القارئ لشعره بملل أو كلل، وأبدع صوراً نادرة في الحديث عن هذه الظاهرة قلّ أن يقوم له نظير فيها. رحمه الله وأحسن إليه.

الصَّلوات

الصّلاة هي المقطع الأخير في هيكل القصيدة النّبوية المادحة، يضمنها الشاعر دعاءه وصلاته وسلامه على رسول الرّحمة ويذكر اسمه فيها تبركاً وتوثيقاً، وهي غير ملتبسة مع المطلع أو العصابة التي تسمى أحياناً (صلاة) حينما يقولون (شيل الصلاة) فذلك شيء وهذا شيء ولكن فيه لطيفة، فكأنهم حينما سموهما صلاتين كأنهم ينظرون من بعيد إلى قبول الدعاء حين يكون بين صلاتين فأرادوا أن تكون القصيدة والحالة هذه مقبولة كلها.

والصَّلوات في ديوان الشيخ حَيَاتِي هي محط إبداع ومجال تفنن وموضع تجويد، سكب فيها عصارة تجربته فجاءت متنوعة ناضجة مليئة بالطرافة والجدة. وتجويد الاستهلال والختام هو مما يحسب للشاعر. ولم يكن (رصيد) الشيخ حَيَاتِي من ذلك إلا ضخماً متنامياً.

وتتبُّع صلوات الشيخ لتحليلها وتصنيفها واستخراج الفوائد والنّكت منها يحتاج إلى صبر طويل فهو من الذين اتخذوا المديح شغلاً وصنعة وتجارة وكفارة كما قال (١٤٦):

الصَّلوات حَيَاتِي تجَارتُو	رِبحُو وثَانياً كَفَّارتُو

وهي صنعته التي يرجو بها النّجاة له ولأهل بلدته (الصِّقَيعَة) (١٩٦):

الصَّلوات حَيَاتِي صِنِعْتُو	يا مَنْ شُفْتُو من بي سمعتُو
تنجي وتنجي لي صقيعتُو	جات برجوعا جات برجعتُو

ولو تتبعنا فقط الأفعال التي أراد من الصلاة إنجازها لاستغرق ذلك وقتاً، مثل:

الصَّلوات حَيَاتِي تجُبرو (١٩٤) .... وتباركو (٢٣١) و... تجلُّو (٤١٨)، وهكذا وقد أحصيت في هذا الصدد عشرات الأفعال الماضية والمضارعة والأمر كلها مما توّج بها الدّعوات التي اشتملت عليها صلواته وسأعود إليها، ولكني قبل ذلك أقول إنَّ الرّجل في صلواته ما كان يختص نفسه بالدعاء ولكن يدعو لأهله ولأهل بلدته وللأمة وللمسلمين أجمعين، وهذا ما لا يطاق تقصيه، نسوق عليه بعض الشواهد كقوله عن نفسه (٣٢):

الصَّلاه الطَايلَهْ	تقضي أوطَارِي وللكرَبْ زايلَهْ
لي حَيَاتِي تكُون بالنِّعَم كَايلَهْ	ثُمَّ تكْفِينِي النايبَه الهَايلَةْ

والنايبه الهايلة هي المصيبة الكبيرة. وقوله (الصّلاة الطايلَه) أطلق العشرات من الصِّفات مثلها سأعود إليها إن شاء الله. لكن الدّعوة هنا خاصّة، مثلها قوله في دعوة خاصة أخرى (٣٥):

الـــــــصَّلاة الغَابطَـــــــــة تَمْحَـــى أوْزَارِي اللّـــي العَمَـــلْ حَابْطَـــه
لــي حَيَــاتِي تــسَوْ كــل يــوم رابطَــه مِـــنْ مَواهـــب الخـــير والحَـــسود نابطَـــه

الغابطة من الغبطة وهي السرور الخالي من الحسد. امَّا الحسود فقد دعا أن تركله وتبعده هذه الصلاة بقوله (نابطه) وربما قال بعضهم (ناطه) ولا تستقيم ولا يقبلها الروي لالتزام الباء قبل الطاء، ثم إنَّ (النَّطّ) قد يعد عقوبة ولكنها خفيفة لأنَّ الخير سيتعدى هذا المدعو عليه ولكن (نابطة) فيها عقوبتان، تجاوز الخير له ثم الرّكل.

ومن صلواته الطريفة التي دعا فيها لنفسه خاصّة قوله (٢٩٩):

صـــلواتْ حَيَـــاتِي اتعـــاقبنْ خيراتـــا بـــالعيش واللّـــبنْ
كَـــدِي والإدام الماصـــبنْ الـــشاي قهـــوات الجـــبنْ
ثمْراتـــــا في الكـــــون انجـــــبنْ

فهذه صلاة دنيوية عملاً بالتوجيه القرآني (وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) وكان الرجل محسناً مضيافاً وكان العيش واللبن والشاي والبن هي الحياة ثم قال (كَدِي والإدام الماصَبنْ) أي الملاح الذي لا ينقطع، وقالها بفرحة لأنَّ الكريم طروب يغُمُّه العدم، لذلك فإنَّ من دعواته النفيسة (واستُر عِرْضِي في الكُبْسَه الضيوف إنْ جات ٤٨٠). فلا غرابة إذا أكثر من ذكر العيش واللبن لأنّهما في ذلك الزمان هما ستر العرض مع الضيوف، ذكرهما في مواضع كثيرة منها (٣٧٦):

الـــصَّلواتْ حَيَـــاتِي في أمَانَـــا يَعِـــيشْ بيهـــا أعْمَـــالُو تـــصْفَى مـــن سُـــوسْ تُـــرابْ وعـــويشْ
أمـــواتْ القِلُـــوبْ تَحْيِيهَـــا بـــالتَّنْعِيشْ تَمْــــلا بيتُـــــو دوْمَــــاً بـــي اللـــبنْ والعـــيشْ

ولغلاوة العيش وأهميته شبه حال أعماله بحال العيش النقي النظيف فإنّما يكون السوس والتراب والعويش فيه لا في غيره. وإن وجد مع العيش واللبن المصروف فتلك الغاية كما قال (٥٤٨):

صَـــلواتْ حَيَـــاتِي تــــرُوف أحْبَــــــابُو بـــــــالمَعْروفْ
يرقُـــــدلُو خـــــيرا ابْـــــروفْ مِـــنْ عـــيشْ لَـــبنْ مَـــصْرُوفْ

وتروف وأب روف كلها من الخصب وبه سمي الرِّيف.

وما كانت هذه الوفرة التي يطلبها له في نفسه وإنَّما كانت لستر العرض بلا شك ولا كانت دعواته مقصورة على نفسه أبداً فقد كان يدخل أهله وأحبابه وأتباعه والأمة والمسلمين في معظم دعائه، كقوله (٢٢٩):

صـــلاة تطـــرب الـــسَّامعينْ عَلَــى الــشّاف الإلــه بــالعينْ

حَيَــاتِي يَفُــوز بهــا يَـصِير عــينْ وتَنْجِـــي أحبـــابُو والتّـــابعينْ

وقد علقت على (يصير عين) بقولي: (صار عيناً من زمان)، وهو كذلك وهو أشبه بقوله (٤٩٣):

تَنْجِـــي المـــسْلمينْ لـــي قلُوبـــا وشَّـــامه بيهـــا إنْ شـــالله يَبْقَـــى في البلـــد شَـــامَة

وواضح دعاؤه لأحبابه والتابعين والمسلمين أولاً وآخراً، وقال مرة (٥٥٩):

الـــصَّلواتْ حَيَـــاتِي الفَـــايزَه بـــي أَهَلُـــو في هَـــاهِي وهِنَالـــكْ بيهـــا انمهْلُـــو

تَنْجِـــي المـــسلمين وتـــتمْ نَقَـــاصْ كَهَلُـــو تَرْفَـــع شـــانُو فـــوق تَرْفَـــعْ بـــلا وجَهَلُـــو

دعا بالمهلة والسعة لأهله في الدنيا والآخرة وشمل المسلمين و(ترفع) الأولى من الرفعة أمَّا (ترفع) الثانية فبمعنى تدفع بالدال أي تزيل بلواه وجهله وتدفعهما. إمَّا الدعاء للأمة فإنّه لا يني يكرره وهو من أكثر شعراء المديح حملاً لهموم الأمة ومن أكثرهم دعاءً لها (٣٣٧):

حَيَـــاتِي الحَـــاجْ حمـــد بَاحَـــا صـــلاتُو الرَّاحْتُـــو أرْيَاحَـــا

ذنـــوبْ الأمَّـــة بجْبَاحَـــا وضَـــاءْ في الكُـــونْ مـــصْبَاحَا

وبجباحة أي تبحبحها وتمحوها. ويطلب لهم النجاة في الدُّنيا وفي الآخرة (٦٧):

الـــــصَّلاة المَـــــاهره مِـــنْ حَيَـــاتِي علـــى والـــد الطـــاهره

تمحُـــو أوزارُو الكامنـــة والظـــاهره تَنْجِـــي والأمـــه في ذي والـــساهرة

أي في هذه الدنيا وإذا هم بالساهرة أي يوم القيامة.

ويخص المسلمين بدعوة نفيسة في صلاة ظريفة (٣٣٩):

حَيَـــاتِي عِريبِـــي قَالْـــبَ الفَـــنْ ألـــوف أهَـــدى الـــصَّلاه أم ظرفـــاً

تَكُـــون للمـــسلمين وقفـــاً وحـــصناً واقيـــاً كهْفَـــاً

وهـذه الـصَّلوات الـتي يـدعو بهـا لنفسه أو لغيره هـي ضـروب وأشكال.. وقد مـرّت بـك الصّلاة الطايلة والغابطه والفايزة، ووصفها بعدة أوصاف من هذا النّوع منها: الصّلاة الماهرة والحرفية والتلدة والوابله والكامله والخايرة والسايدة والهَتْنَا والرّسمية والرّاسخة والمقبولة كما قال (٥٤):

الـــصّلاه المقبُولـــه أم وجَـــبْ ســـبكها الـــصاغيلو اعتجـــبْ

مَـــنْ حَيَـــاتِي البيهـــا انْحَجَـــبْ تَنْجِـــي حَـــالِقْ الـــرّاس وابْ هَجَـــبْ

ويضيف النايلة والمطربة والوافرة والفاخرة والبرمكية، والحبلى وحلوب، والموهوبة والمحروزة والمعروفة والنامية رفَّاية، والملكة، والعازة، هكذا بالتعريف، وقد ينكِّرها فيسميها (وافية ووجيهة ونامية ومصنفرة وعاطرة وزاهية وحَلِيَّة ووافرة، وماهرة ومضاعفة ومهدية وخليصة ومتوالية وكتار، وشرح هذه الأوصاف يخرج بالبحث عن حدوده لكثرتها ولكن عزاءنا أنَّها واضحة إلا القليل نحو قوله (١١٧):

الصَّلاة التَّلْدَة ... لي حَيَاتِي تَقِرْ عينُو بالوَلْدَه

تَحْينِي تَفَجِّر مُهْجَتِي الصَّلده ... تَحْمِني في أيْ أيٍّ ما بلْدَه

فالتَّلدة هي التليدة العريقة لا كما شُرِحَتْ في حواشي الديوان. والمهجة الصلدة هي القاسية يريد لها أن تكون لينة متفجرة تستجيب إذا دعتها دواعي الطاعة.

أمَّا الخليصة النّامية فهي واضحة ولكنه أحاطها بما يحتاج إلى توضيح وهو قوله (٢٨٦):

صَليتْ صَلاة غير كُلَفْ ... نَامية وخليصَه ماهَا لَفْ

تَرضِي الأليفْ المُؤتلَفْ ... بِهَا أنْجَا أنْجَا مِنْ التّلفْ

واسْلكْ حَيَاتِي أثَر السّلفْ

هي صلاة خالصة، ليست (مكلفتة) ولا ملفوفة على عجل. وتظهر براعة الرجل في التكرار المفيد في (بها أنجا أنجا من التلف) أراد نجاة عامة بالفعل الأول ونجاة من التلف بالفعل الثاني وقد ذكرنا في مبحث الثنائية أنَّه لا يكرر عبثاً أو تلاعباً بالألفاظ أو اضطراراً. وختم المقطع بأسلوب عَادَلَ فيه التكرار بالحذف لأنّه قال: (واسلك حياتي) و أراد (وأسلك أنا حَيَاتِي أثر السلف) والمضارع هنا أوجه من الأمر في (اسلك) وهو محتمل؛ فتأمّله!

ومع وضوح قوله (٢٦٩):

الصَّلوات كُتَّارْ مُتْواليَه ... لي مَسنَد حَيَاتِي التَّاليه

مِنِّي حَيَاتِي حَالْيَه وغالْيَه ... أرْقَابا المرَاقِي العَالْيَه

قد يشكل قوله (حَيَاتِي التالية) وأقرب توجيهاتها (حَيَاتِي الأخرى) التي تلي الحياة الدنيا.

ولما استنفد الأوصاف منكّرة ومعرّفة أو كاد مال إلى أسلوب العجب والتعجُّب فقال (٣٠٧):

صَلّيتْ صلاةً شِي وكَمَانْ ... جاتْ بالرَّخا وسِتْر الزّمَانْ

جاتْ بالشَّرفْ جَاتْ بالأمَانْ ... بيها حَيَاتِي بَني الأمانْ

بَدْرِي اسْتَلمْ سيرْكِي الضّمانْ

فقوله (صلاة شي) أي (صلاة حاجة فاخرة) ثم حذف الواو اضطراراً بين حَيَاتِي وبينه ولا بُدّ من تقديره لأنّ الدعوة بدون الواو تجعل (بني) بدل بعض من حَيَاتِي فيتوجه الأمان لبنيه فقط، وهذا لا يتناغم مع الشطرة الأخيرة لأنه هو الذي استلم صك الأمان مبكراً يوم القيامة.

ويبقى قوله (٢٢٦):

آلاف الصّلاة الفاخره وبرْمَكيَّة　　مِنِّي حَيَاتِي جات لاب ريحَاً زَكيّة

تَنْجِي الْمسلمينْ تبقَى لي تكيّة　　وترْفَع شَانِي في الرُّتبْ المَالِكيَّة

ففيه طرافة، لأنّ البرمكي عندنا هو الظريف (الفِيِّز) الكريم وجميلٌ جَعْلُه الصلاة (تكيَّة) يستمر أجره كلما طَعِمَ منها أحد. وأما الرتب المالكية فالتفقُّه على مذهب الإمام مالك والترقّي فيه.

وقد أردفها بأخرى فاخرة ولكنها نفيسة لأنّه قال (٣١٩):

صلواتْ حَيَاتِي الفاخره دُر　　أو جوهراً عاز في القدر

من النَّبي ومن ود بدر　　في ألباب قلوب النّاس تَدُر

لبن الشِّفا الشارح الصَّدُر

هذه صلاة بليغة ودعوة خليصة أدخل فيها جاه جده (ودبدر) افتخاراً به مع صاحب الجاه الحايق اللايق لذلك أحاطها بهالة من البلاغة في استعارته المرشحة المركبة، حيث جعل القلوب أناساً ثم جعل لها ألباباً وجعل هذه الصلاة المميزة تُدِرّ فيها لبن الشفاء وليس للقلوب ولا للألباب ولا للشفاء لبن وإنما هو المجاز... وكان المرام أن ينال الناس الذين يحبهم شرح الصدور ببركة هذه الصلاة.

وكما وصف الشيخ صلواته بالطايلة والكاملة والوابلة ونحوها، فإنه من شدة احتفائه بها وأمله فيها وفخره بها يسميها كما مرَّ ويكنيها كما سترى. فأطلق عليها عشرات الكنى منها (الصلاة أم ظرفاً) التي مرّت قبل قليل ومنها (٩٤):

هَا حَيَاتِي الاعترف　　صلى الصّلاه ام شرف

من فيضا زين غرف　　في هاهي وام غُرف

(زين) كلمة استغراق، (أكل زين ونام زين حتى قام لينا) مع مدّ الياء ومطِّها. وبانَ شرف صلاته هذه لأنها أفاضت عليه بكثرة في الدنيا وفي الآخرة حيث الجنة ذات الغرف.

ومن فرط خير هذه الصّلاة ونفعها أنّها كالنيل في إبانه يفيض فينفع القريب منه والبعيد (٩٩):

الــــصّلاة ام نــــيلا عــــام ســــرب فــــاض علــــى الحَــــلاّل والعــــرب

مــــن حَيَــاتِي الكــون مــا لْيَــا رَبْ جاهــــا جــــوَّه نــــاس التُّــــرب

مرّ بنا استخدام أسماء الأصوات مثل (رَبْ) حكاية لصوت الامتلاء المتناهي، وقد امتدّ نفع هذه الصلاة حتى شملت أهل القبور فنالهم من فيضها جاهٌ وشأن.

وأعجبه هذا النفع فأعاده في قصيدة أخرى حيث قال (٥١٠):

صــــلاتُو ام نــــيلا دَفــــر عــــامَّ المقــــيم والطَّفَــــر

تبقــــالو دومــــاً خفــــر تكــــوي الحــــسود والكفــــر

وقوله (دفر) في وصف الفيضان أقوى من (سرب) وإن ساندها بقوله (عام) من العموم أو من (العومان) والسباحة وقابل أهل الحلاّل هناك بالمقيم هنا والعرب الرحل قابلهم بـ(طفر) لأنّهم أهل تجوال وحركة وأرادها حرساً للفريقين (الظاعن والمقيم) وغيظاً لفريقين آخرين هما الحساد وجاحدي الفضل.

ولشيخنا صلاة طريفة من طَرَفَيْها – من أولها وآخرها – قال فيها (٩٤):

الــــصّلاه امْ هَكْهَــــاكِ العَــــمْ حَيَــــاتِي بَهَــــاكِ

زاهيــــاً بزُهــــاكِ لاقيــــاً مَــــشْهَاكِ

ونَــــامَ فــــوقْ جَاهَــــاكِ

أم هكهاك، كأنّها (أم عطاء كثير) من (هاك) وهي اسم فعل في الفصيح بمعنى خذ وهو المتداول في عاميتنا. والهكُّ عند العرب أشياء كثيرة منها المطر الغزير فمن هنا وههنا أتانا معنى العطاء الوافر الذي يعم بَهَاهُ الشاعر وغيره. ولكن اللطيفة هي قوله (نَامَ فوقْ جاهاك) وقلنا في مبحث الثنائية والتثنية أنَّ بين الشاعر والتثنية غراماً واضحاً ظهر هنا في (الجاهين) وهماً قطعاً جاه الصّلاة وصاحبها (ﷺ) في الدنيا وجاهه في الآخرة. لأنّه يعني هذا المعنى ويعيه وكرره في صلاة أخرى في قوله (٤٢٤):

الــــصَّلاة ام جــــاهينْ فــــزْتَ بيهــــا أفرحــــت بــــالخط كاتبيهــــا

راقــــي فــــوق أعــــلا منــــصبيها واســــتلم في أيْــدَيْ مــــا رَبيهَــــا

ولا شك أن الجاهين هما فضلها في الدنيا وفضلها في الآخرة، وإن أفرحت ملك الحسنات بزيادة محصوله فقد أفرحت كاتب السيئات براحته من التسجيل والرّصد. وإن أراد الشاعر ومن يملي عليه فذلك وجه في الكاتبين. واسحب المنصبين على الدنيا والآخرة أيضاً.

هذا ويوقعك الشيخ في حيرة من أمر الاختيار، فإن عزمت الاقتصاد والاختصار راودتك كل صلاة ودعتك بطرافتها لعرضها، انظر مثلا الجدة والطرافة النادرة في قوله (٤٠٩):

الصَّلاه أم كهربْ لي الملوكا عرَبْ

نَوَّلَت مأربْ فارجه هَمْ وكُرَبْ

تامل الكناية اللطيفة عن أرض الحجاز بالتي (ملوكها عرب) والتعلقُّ بعرب الحجاز أهل الرسول العربي قديم مستفيض. وهو من فرط ثقته في صلواته وقبولها لا يظهر لك في صلواته في هيئة الداعي الراجي، وإنّما هيئة المتحقق الواثق (نوّلت مأرب فارجه هم وكرب) فعلت ذلك وفرغت، ثقة في الله ورسوله ثم في بركة صلواته هذه. فتتبع هذا الملمح عنده فإنّه دليل حسن ظن بل دليل يقين.

وتَعْمَد وتَتَعَمَّد تجاوز بعض صلواته اختصاراً خوف الإطالة فيناديك بعضها بِرِقّتهِ وصدقه (١٥١):

آلاف الصَّلاه أم إقبالِ للنّبي من خُلاصة بالي

بيها حَيَاتِي تَقوى حبَالِي في هاهي، وغداً طُوبَالي

صلوات ذوات قبول ورضا وجمع القبول على (اقبال) مع غرابة الجمع للمبالغة، أو هي ذات اقبال وإقدام لا تتأخر عن ضريح المصطفى (ﷺ). وانظر قوله (خلاصة بالي) وما فيه من خلاصة المحبة، ثم المنطق السديد في قوة حباله في (هاهي) أي الدنيا، فإن قويت حسن عمله وزان وكان في غدٍ (في الآخرة) من أصحاب (طوبى لهم وحسن مآب).

وهو إن رقّ طبعه ولان جسده فإنّ هذا لا يمنعه من الخشونة إذا دعا الموقف فهو متأهب للحالتين وهذا شأن المؤمن القوي... قارن بين الصّلاة الفائتة وبين قوله (٩٨):

الصَّلاه امْ خُدّامِ لي هنا وقِدّامي

صَادَمتْ صَدَّامِي كَافَّه عَنِّي الدَّامِي

والبَلا الهَدَّامِ

حتى لا يغتر المُغتَر من الحساد والمعوقين، فإنَّ الرجل ليس من أهل اللحم الحلو الطري دائماً فهذه الصّلاة التي تمثله لها خُدَّام، إن كانوا من خدام الجناب أو خُدّاماً آخرين فإنّهم لا يفرطون في حياطة صاحبهم، يصادمون إبليسه وشيطانه (الصَّدَّام) ويكفُّون عنه كل ضرر وكل بلاء.

ومن الصّلوات الطريفة قوله (١٠٦):

أهْـــدَى الــــصّلاه الغَــــرْبِلا　　　يــــا الـــــصّافي مِنُّـــو اقْــــبَلا

حَيَــــاتِي الْبِيـــــكْ كَنْـــــبَلا　　　أكفـــــي الــــسّاعات والــــبلا

وقفنا في مبحث التراث عند هذه الدعوة العجيبة (أكفينا شر المحن والساعات والبلاوي البجن واقعات) لكن الجميل هو هذه الرقصة والكنبلة التي لا تكون إلا من مسرور مفتخر وحق له أن يكون هازّاً بالنبي فرحاً مفتخراً؛ لذلك لمّا أهداه الصّلاة انتقاها وتخيرها ونقّاها وصفّاها (غربلا) ثم وفق جدا في أنه جعل هذه الصّلاة المصفّاة موجهة للصّافي فوافق المدح الممدوح (ﷺ).

أتراها بعد هذا لا تقبل؟ أنا لا أراها إلا مقبولة وفوقها ألف قبلة من الحور العين.

ومن الصّلوات والدعوات التي أَسَرتني فعلّقت عليها قوله (٣٩٧):

صــــلواتْ حَيَــــاتِي اللّونـــــا　　　توصــــل ذَخِيرتُــــو بـــــلا وَنَــــى

تَــــأتي بعِتْقُـــــو مُعَنْوَنَـــــا　　　تلـــــكَ وهُنَـــــا يتَمَوَّنـــــا

بهــــا قلبُــــــو يبْقَــــــى مُدَوَّنَـــــه

علقت قديما على حاشية هذا المقطع بقولي: (وقد كان) فالذي خبرناه من الرجل أن قلبه مدوَّنة فعلاً للقرآن والحديث واللغة والتراث وللسيرة النّبوية والسير والأخبار والرجال. وقد تلونت معارفه مثلما تلوَّنت صلواته هذه.

ويظهر لك تلوين هذه الصلاة في ألوان المستفيدين منها كما قدمنا، ونزيده وضوحاً هنا بقوله (٣٩٠):

الـــصّلاة الظّلّـــتْ لنَـــا في الهَـــواجِرْ　　　فيـــضَا فَـــاضْ في الكُـــون ضَـــوَت الـــدَّياجِر

مِـــنْ حَيَـــاتِي الـــصّار بهـــا أغْنـــى تـــاجر　　　تَنْجِــــي تَنْجِــــي النّــــاس بــــاراً وفــــاجر

فهي ظل في الحرور ونور في الديجور، وقد مضى قوله (الصّلوات حَيَاتِي تجارتو) وأكد هنا على أنها رابحة وقد صار بها أغنى تاجر... ثم صادفت منه رضاً فجعلها تعُم الناس البار منهم والفاجر، وقد سيجيء في مبحث (الأعداء) أنّه يتسامح مع العصاة وأهل الفسوق

والفجور ويرجو لهم الصلاح ولكنه لا يقبل كلمة مع أهل الحسد ومضمري العداوة، ولذلك قال (٧٨):

صـــــلوات حَيَـــــاتِي هَكَـــــا بيهـــــا الـــــشرور دَهَكَـــــا
واللِّـــــي حُرْمَتُـــــو انتهكـــــا يـــــا عِرِيبِـــــي جوَّهـــــك
جـــــاه جهجهـــــك

فأصحاب الشرور ومنتهكو الحرمات، ليس لهم معه وجه أبداً كما بيناه. وأحد أسلحته عليهم هذه الصّلوات المتضمنة أمثال هذه الدّعوات. فصلواته هذه (تتشبح) فوقه (تَشَبُّح) الأم فوق صغارها كما قال:

صَـــلواتْ حَيَـــاتِي الرّجحـــتْ مَلَـــتْ الكَيَـــان فـــوق ســـبّحتْ
منهَـــا القِلُـــوب اتفتحـــتْ لـــي مـــن عنـــا لهَـــا ربحـــتْ
والمنـــــشي فوقُـــــو اشـــــبّحتْ

غاية الحياطة والحماية، تماماً كما تفعل الأم حين تغطي صغارها من مكروه أو هي كالسائمة التي تتشبَّح فوق صغيرها لترضعه. وهذه من صلواته البديعة.

ولا ينسى أن يدخل في ألوان الطيف هذه والديه ومربيه وزملاءه وعصباه وقُسَماه. فقال عن الوالدين:

صـــلّيت صَـــلاة تَرْضِـــي لـــكْ يَـــا طَـــه حَـــالاً توصَـــلَكْ
قـــول لـــي عَلَـــيْ لا هـــمّ لـــك والرَّبتَـــكْ والـــربَّ لـــكْ
وأهَـــــلْ الـــــوِدَادْ والآلـــــو لـــــكْ

فذكر التي رَبَّتْهُ وهي أمه وجدته وأهل الوداد و(الآلو لك). والذي ربَّاه أبوه وجده وَجدُّه الثاني، وأهل الوداد ومن يعود إليه وينسب ويحسب عليه.. ولا حظ الحضور المدهش، لم يختر أي فعل لهذه الصّلاة إلاّ الفعل المتعلق بالوالدين وهو الرضا (ترضي لك).

وقال عن الزُّمال(٨٦):

صَـــــلَواتْ حَيَـــــاتِي تَلَـــــوْ زُمَـــــلاه بيهَـــــا حَلَـــــوْ
عِنْـــد الخَلِـــقْ بَـــلْ وَعَلَـــوْ مـــــا انمَّجُـــــوا إنْ نَزَلُـــــوْ
شـــــربو الهَـــــني وأكَلَـــــوْ

دعوة نفيسة للزمال بالقبول حين يتلون هذه الصلوات، يخفّون على قلوب الناس ويَحْلَوّوُن في نفوسهم ويعلون ولا يكونون ممجوجين ولا مستثقلين يشربون ويأكلون الهني.

أما عصباه وأرحامه وأقاربه فقد نالهم من الطَّيب نصيب في قوله (٨٤):

صَلَوات حَيَاتِي صَبَا خيرا، وصبا عُصَبَا

وأرحامُو، وشَفَا وُصَبَا راحوا بريح صبا

وأعلامو فوق نَصَبَا

أراد ان يتوجه خير هذه الصّلوات إليه وإلى أقاربه وأرحامه وأن تزيل أسقامهم وأن تكون عليهم برداً وسلاماً ورفعة.

وفي أخرى يدعو لهم بخيرات إضافية فيقول (٨٠):

صلواتْ حَيَاتِي سَمَا نورا الخفا البَسَما

نَمَا خيرَا الشرُورْ حسما بسَطُو وبَسَطْ قُسما

وسم الكعيب وسَمَا

فأضاف إليهم هنا أنّ يعلوهم النور الذي يخفي ضوء البروق وأن ينمو خيرهم، وينحسم وَيَتَبَّدد شرَّهم ويكونوا ظاهرين يحملون علامة تميزهم. وقد سماهم هنا (قُسَما) وهم الذين يقاسمونه القرابة مثل (العُصَبا) فالواحد من هؤلاء (قسيم) ومن السابقين (عصيب) والجمع على وجهه الصريح تماماً.

ولعلك لاحظت استخدام الفعل الماضي في الباقة التي تقدمت من الصّلوات: (غربلا، لوَّنا – ظلت – رجحت – تلوا – صبا – سما...) تتبعه في المخطوط تحته في متون المقاطع السابقة!!

وله بصيغة المضارع أضعاف هذه الصلوات، ولفعل الأمر نصيب، كل ذلك من أجل التّلوين لكسر الرَّتابة واجتناب التكرار وقد وفق في ذلك كل التوفيق.. ومن صلواته التي جاءت بصيغة الفعل المضارع (٥٥٧):

الصلاة تَكْرُب حِزامو

وفي المقطع فعلان مضارعان آخران. وقوله (٤١٦):

الصلاة تغفر فواتي تهدني أَسمحْ سُواتي

تصُب علي الخير تواتي لي تريح من انخواتِ

مرّبنا هذا المقطع في مبحث اللغة ولكنك تلاحظ اشتماله على ستة أفعال مضارعة.

وقوله (٣٣٤):

حَيَاتِي الحاج حمَدْ تَرْفَا صَلاتُو الفِي الزَّمَنْ طُرْفَه

تَكُونْ لي وللورا خرفه تَشِيلْ مُنْصَرْفُو والغَرفَه

وفيه ثلاثة أفعال مضارعة. وجعل دعوته خريفاً له ولخلفه، تحمل هم العيش والمصروف.

وقوله (١٨٨):

ها حَيَاتِي البَارِعْ صلواتُو تَضارِعْ

بي سِهَامَا صَارِعْ وفي حياضَاً كَارِعْ

ههنا البراعة، المضارع الصريح واحد (تضارع) ولكن اسم الفاعل (صارع وكارع) يفيدان المضارعة أيضاً، تأمّل ذلك.

وقوله (٦٤):

الصَّلاة تَرامي يُوتْ سُفنْ خيرا وتحكي بي غرَامِي

لي بهايْ عِندو تَعَجِّلْ إكْرَامِي لي حَيَاتِي تَزِينْ تَرْمِي مَنْ رَامِي

خمسة أفعال مضارعة، واسم الفاعل (رامي) سادسها في المعنى.

وقوله وقد أبدع (٤٤):

الصَّلاة تَمْهَلْ كافّة الأمة والفَرَج تَبْهَلْ

قَبْلِ ذا مَا يَمُوتْ والوراه يَهَل لي حَيَاتِي أنَا تَسَهِّل وتشهِّلْ

وفيه ستة أفعال مضارعة. وقد مرَّ في مبحث التراث.

وقوله (٤٢٧):

صلاة تَسْرِي في عُقْبي تَسِدْ مِنْ الخَطَا ثُقبي

حَيَاتِي السِّندي تلحقْ بي بها تَزِينْ كنيتي ولقبي

وههنا أربعة أفعال مضارعة.

ومن صلواته التي لا يجمل أن أخلي الكتاب منها وهي في سياق المضارع قوله (٣٨):

الصَّلاة تهيِّفْ تندي أيَامِي الباقية لا تصيِّف

لي حَيَاتِي تقي تصُوبِنْ وتليِّف وبيها في الدارين يبقى متكيِّف

وارتفعت وتيرة المضارع هنا لتصل إلى سبعة أفعال وثامنها اسم الفعل (متكيِّف). وقد وقفت عند هذا المقطع في أصوات الأفعال. لكن ألا تتأمّل معي قوله (متكيّف) وما حَوَاهُ!؟

وقال (٤٧):

الـــــــــــصلاة تهـــــــــــــوِّن	كـــل أمـــراً قاصـــي ولنـــا تـــشوِّنْ
خـــيرا في الـــدارين، لـــي أنـــا تمـــوِّن	وأبقـــى في قـــصورا حَيَـــاتِي متجـــوِّن

وفيـه أربعـة أفعـال وخامـسها اسـم الفاعـل (متجـوِّن). تأمـل الفعـل (متجـوِّن) والجلـسة المطمئنـة داخـل القـصور. ألم تعجبـك هـذه (الانفـشاخة والتِّفرْشِـخَة) بطـن قـصور الجنـة لهـذا المحب المبدع. والله لكأني أنظر إليه في ظلال خمائلها الوريفة.

ثم قال (٤١):

الـــــــــــصلاة تحــــــــــــوِّف	فـــوق حَيَـــاتِي الجـــاني ومتخـــوِّف
لـــي عيـــون قَلبُـــو المظلمـــة تـــشوِّف	تَنْجِـــي والأمّـــة ولـــي الـــبَلا تـــزوِّق

وفيـه خمـسة أفعـال مـضارعة. أوّلهـا بمعنـى تحـيط وآخرهـا بمعنـى تزيـل وتُبعـد، وفي الشطر الثالث صورة بلاغية عجيبة، طلبها في مبحث الصورة في شعره.

ولم ينس فعل الأمر ولا أهمله وسأمثل بمقطعين حتى لا يطول الأمر؛ أولهما قوله (٦١):

الـــــــــــصلاة انهمـــــــــــري	مـــني لـــي كـــابي وبـــاطني أعمـــري
واكـــرميني حَيَـــاتِي أنجـــزي أمـــري	وأســـكري العـــشاق مـــن لذيـــذ خمـــري

وفيه خمسة أفعال أمر.

وثانيهما قوله (٥٨):

الـــــــــــصَّلاة أعنـــــــــــيني	ديمـــــا بـــــالخيرات والطمـــــانين
وامنحـــــيني حَيَـــاتِي الأمـــانين	وأقـــضي حاجـــاتي وأقـــضي ديـــنين

وفيـه أربعـة أفعـال أمـر، وقـد طـوع فيـه اللغـة لقوافيـه ولم يبعـد، فكأنـه جمـع الطمأنينـة علـى طمـانين بعـد أن حـذف الهمـزة أو أراد الطمأنينـة وحـذف الهـاء والمعنـى واضـح. ثـم جمـع الأمـاني فـصارت جمعـاً متناهيـاً (أمـانين) كـ(أفـانين) جمـع (فَـنَن) وهـو الغـصن أو أنـه أراد (الأَمانَيْن) بالتثنية يريد أمان الدنيا وأمان الآخرة وتؤيده حركـة مجـرى (دَيْنَيْني) فهـي مثنـاة بـلا شـك أراد بهـا ديـن الخـالق وديـن الخَلْـق أو ديـن الـدنيا وديـن الآخـرة. وليـست عـادة متلئبـة للشيخ أن يفارق الالتزام في أدق صوره، ولعله أنصف هنا ونَصَفَ فجعل الشطرين الأولين على مُجرَى والأخيرين على مُجْرى وهذا دقيق فتأمّلهُ.

لكـن بعـد هـذه الـسياحة في الأفعـال، ألم يلاحـظ القـارئ الكـريم تمكُّـن هـذا الرجـل وحضوره وبديهته في النّظم؟ ألم تُلاحظ تناغم الأفعال الماضية وتواردها في المقطع الذي تبدأ صلاته بالفعل الماضي، وتواتر وتوالي الأفعال المضارعة في المقطع الذي تبدأ صلاته بالمضارع

وكذلك فعل الأمر؟ عُد إلى هذه الأفعال التي سوّدها النّاسخ ـ بيّض الله أيامه وأجزل مثوبته وضاعف أجره ـ ومع التركيز على تناغم الأفعال ظل مِقْوَد الشعر بيد الشاعر لم تُفلت منه لغة ولا مفردة ولا دعوة ولا مدعو له. هذا والله الفتح والتوفيق وهذا والله هو عشق الصناعة وغزارة الطَّبْع وهذه هي المحبة وهذا هو الإحسان. اللهم أنت المكافئ فأعطِ الشيخ حَيَاتِي حتى تُرْضِيَه.

ولم تنقضِ ألوان صلواته، ولا انقضى تفنُّنه فيها حتى دخل بنا في تشكيلها كقوله (٢١٧):

صَــــلاتُو أحْلِيَهــــا لابْـــــسَه وشَــــاحِ	الرَّشَّـــــــــــــــــــــــــاحِ
وتَنْجِـــــــي المــــــدمن الفَـــــــشَّاحِ	حَيَـــاتِي تنَـــامِي خـــيرُو الـــشَّاحِ

مرَّ هذا البيت في مبحث اللُّغة، ونكتفي منه بشكل هذه الصّلاة المتحلية بالوشاح.

وننتقل إلى أخرى عجيبة الشكل في قوله (٣٦٣):

صَــــليتْ صَــــلاةً انـــــشبَكْ	فيهـــا الـــسّلام مثـــل الـــشَّبكْ
بهـــا أَنْجَـــا أنْجَـــا مِـــنْ الـــشِّبَكْ	واسْـــلم حَيَـــاتِي إن انتبـــكْ

صلاة اقترن السلام وتعلق بها تعلق الأشياء بالشَّبك، وكأنه أراد من طرف خفي ألا تتعلق به المشكلات كتعلق هذا السلام بالصلاة لشدة الاقتران وعدم الفَكَاك وأن يسلم من الخطر والدرك.

وهو قد لا يشير كثيراً إلى شكل اقتران الصلاة بالسلام إذ غالباً ما تأتي صلواته مجردة، وقد يقول (الصلاة أقران ١٨٤) فكأنه يشير إلى اقترانها بالسلام، وقد يصرح به كما قال (٤٢٢):

الـــصَّلاه وتـــسليما الْمَـــسَيّد	لـــي نـــبي الخـــيرات المؤيـــد
مـــن حَيَـــاتِي عِرِيبِـــي المهيَّـــد	كـــل مـــا مـــر يـــوم بيهـــا عَيَّـــد

سلاسة نظم معجبة وانسياب جاذب وتوقير لا يُحَدُّ وفرحة مستمرة، لا قطعها الله. وأعجب من كل هذا قوله (الْمَسيَّد) ولا أراه إلاّ أراد صلاة وتسليماً يسبقهما لفظ السيادة المستحق تقديراً وتوقيراً لسيدنا رسول (ﷺ). لا كما يفعل أجلاف البشر الذين يجرّدونه من ذلك وهو القائل (أنا سيّد ولد آدم) وعليه لا يكون مجرّدوه هؤلاء من بني آدم، فليختاروا جنساً ولْيَخْتَارُوا إليه!!

وقد يُشير إلى صورة قديمة عفَا عليها الزّمن ولكنّها تُثير الحنين وتُذكِّر بخُضْر السنين لكل من مرّت به هذه الصّورة في قوله (٥٢١):

الـــصَّلاة الْـــبي ضَـــوْ الـــرَّتينْ جَـــاتْكُمْ زَاهْيَـــه ﻓِ القِبْلَـــتينْ

تعود بك هذه الصّلاة إلى عمق الماضي البعيد وإلى روعة الاحتفاء بالحبيب على قدر الحال ولكنه كان أجود المتاح وكان نادراً وعزيزاً لا يجودون به إلا لمثل هذه المناسبة. أذكر (الرتينة) ﻓِ تلك الليالي الحالكة الظلمة. ﻓِ ريفنا الوريف، وهي ترسل ضوءها العجيب وقد تربعت على (تربيزة) عالية صنعت لها خصيصاً تتشبح تلك (التربيزة) وسط السّاحة كناقة رَءُوم تفاجَّت لتُرضع فصيلها. ونحن والفراشات نتقاسم المدى حولها نزاحم المادحين ومن استبدّ بهم الطرب النّبيل... يا الله!!

ثم ينتقل بنا من ضياء الساحات إلى ضياء الصَّلوات نفسها (١٧١):

صَـــلواتْ عَـــالِي القَـــدر كَالـــشّمْس أو البَـــدرْ

وهذه غاية الضياء. وقد مرَّ بنا قوله: (الصلاه أم كهرب)... والتي فسرها بأنها تضيء القلوب مثلما تفعل الكهرباء، وقد أدرك الشاعر زمانها، فقال ﻓِ معرض فخره بمدائحه وحُقَّ له (٣٤٥):

صَـلوات حَيَـاتِي عِريبِـي جنَاسَـا طَـارِبْ ضَـوَّتْ قِلُـوبْ النَّـاس زَي الكَهَـارِبْ

يَـا سَـعَد مَـنْ بهَـا لاذْ، دن كاسَـا شَـارِبْ أريَاحَـا كِمْيَّـاتْ، لَهَـا مَـنْ يُـضَارِبْ؟

إحساس بقوة جناسه المطرب الذي يجعل أشعاره تضئ القلوب كما تفعل الكهرباء وقد أعاد هذا ﻓِ قوله (١٢٩):

صَـــــلاتِي حبَابَـــــا كَهَـارِبْ تَـضْوِي القِلُـوب ألْبَابَـا

تُضيء دواخل القلوب.

وللشيخ حَيَاتِي صلوات بالمزّيقة وهو بها ﻓِ غاية الطرب يقول ﻓِ إحداها (٣٥٨):

صَـلواتْ حيـاتِي عِـريبي الفارطـه فرطـه تابعاهـا تـشريفات كـم ألـف أُرْطَـه

فَاكـّـه العبـاد جمعـاً مـن كـل وَرْطَـه وعليهـا مـا خَلَّـتْ فَـدْ حَبّـه قرمطـه

ثم تأمل معي الأشطار التاليات (٤١١):

حَيَـاتِي عِرِيبِـي انـسحبت صـلاتُو المطريـه العجبـتْ

الـــصّلاة مِـــنْ حَيَـــاتِي الخبّتُـــو نِحَاسَـــا (٤٩٥)

صـــلّيتْ صَـــــلاةً ليهَـــــا رُورْ (٤٠٥)

بهـــا (الـــصّلاة) ﻓِ الكيـــان زمـــرُو انـــضرب (٣٨٧)

فالنحاس والمزمار من أدوات الموسيقى المعروفة، أما (الرور) فهو طرمبيت العشاق، يعزفونه (بحلب الشدوق) حين تطربهم الأنغام وتضايقهم المعاني وقد شرحته في الأصوات فاطلبه.

وللشيخ صلوات بناها على نفي الصّفات غير المرغوب فيها كقوله (٢٤١):

- **صلوات خيري لا ينردَّن** = يرجو قبولها
- **علي صليت بلا تهليس** (٢٦٤) = صلاة بلا ضعف ولا هُزال
- **أَهْديت حيَاتي بلا صدود** (٢٧٧)= مقبولة
- **صليت صلاة مي لفق** (٣٢١) = متماسكة النّسج.
- **صلواتي لا تفنى لا تبيد وتُسْعِفْنا** (٧٢) = باقية.
- **حيَاتِي الجدو ودريه=صلاتو الميها عاريه** (١٧٦) = أصلية.
- **صليت صلاة غير كلف=نامية وخليصة مِيْهَا لَفْ** (٢٨٦) = **مُحْكَمَة**
- **صلوات حيَاتِي المي هلف ألكاك ألوف في كل ألف** (٣٠٤)= ليست جافة يابسة لا روح فيها، بل هي لينة طرية ندية.

وصلاته الأخيرة هذه تقودنا إلى عدد الصّلوات عنده، فالعادة عند المادحين أن يصلّوا عليه (ﷺ) بعدد وبلا عدد. وهو هنا يجعلها (ألكاك ألوف) أي (آلاف الآلاف في ألف). وهو إنّما يريد استقصاء كثرة الصلاة عليه، (ﷺ).

وأشمل صلوات المادحين – والشيخ منهم – ما كانت بعدد علم الله فتلك الغاية إذ (لا يحيطون بشيء من علمه) جلَّ شأنه، ومن ذلك قوله (٢٨١):

أهـديت حيَـاتِي الحـاجْ حمـدْ صَـلواتي عـد علـم الـصَّمَدْ

تَرْضِـي الـصفي الطبعُـو انْحَمـدْ تفـتح بَـصيرتي مـن الرَّمَـدْ

وأرْقَاريَـا فـوق مرقـى العمَـد

وقوله (٢٧٧):

أَهْـديتْ حيَـاتِي بـلا حـدُودْ صَـلَواتِي عَـدْ علـم الـوَدُود

وقد صدق؛ لأنَّ علمه جلّ شأنه لا تحده حدود.

ومن صلواته التي لا تكاد تحصى تلك التي يجعلها دائمة مستمرة كأن يقول (١٧٠):

علـى ملجـا الأذْنَبـو يـوتْ صـلَّى حيَـاتِي بـو

صلاة دائمة (يوت) ومنهمرة (بَوْوْوْوْوْوْ) كالمطر.

وقوله (٤٩٨):

الـــــصَّلاة والـــــسّلام مَـــا شَعْـــشَعَنْ آيـــتينْ

يريد الشّمس والقمر وهما من آيات الله؛ ولا ينقطع نورهما وضياؤهما في الكون.

ومن طريف صلواته قوله (٣٧٠):

الـــــصّلاة كُـــــل يـــــوم لـــي أمـــين الـــسِّر صـــفوة القيُّـــوم

مـــن حَيَـــاتِي عِـــريبي الْ بهـــا مـــديوم في كـــلا الـــدّارين ناصـــبه ليـــه خُيـــوم

صلاته كل يوم.. والطريف أنّه أصبح (ديماً) لها أي (حي أو فريق) تسكنه وتستوطنه؛ وقد مرّت في مبحث اللُّغة.

ويستمر في الصّلاة المستمرة:

صـــــليت حَيَـــــاتِي مـــــدى الـــــزمن (٢٩٣).

صـــــلواتي للإكليـــــل هـــا حَيَـــاتِي ضـــي أو ليـــل (٢٠٠)

- **الصّلاة من حَيَاتِي النَّامية كالمدرار (٤٥٩).**
- **الصّلاة من حَيَاتِي النَّامية غير حسبان (٤٥٣).**

ومن الصلوات الشّاملة تلك التي نصَّ على أنّها غير محدودة ولا معدودة وهذا لا يكاد يحصى عنده منه قوله:

- **الـــصّلاة مـــن حَيَـــاتِي المـــا لهـــا تحـــداد (٤٥٠)**

غـــــير تحـــــداد صـــليت والـــسّلام يـــزداد (١٤٩)

- **غـــير تعـــدادصـــليت والـــسّلام ازداد (١٤٠)**
- **صـــليت حَيَـــاتِي بـــلا عـــدد (٢٨٤)**
- **دوام صـــليت بـــلا حَـــصْرِ (٤٥٥)**
- **صـــلواتاً غـــير عَبـــر (٥٢٥)**

ولم يشبعه هذا التعميم ولا أَرْواه، فعاد يلتمس الكثرة فيصلي بالجملة لا بالمفرق ويخطو خطوة نحو الإحصاء فيقول (٣٢٨):

حَيَـــاتِي عِريبـــي بالرزمـــة صـــلاتُو الجابـــا أب جزمـــة

لـــي كافـــة احمـــالو ملتزمـــة وعنُّـــو مُفرِّجَـــهْ الأزمـــة

فإنْ يَكُنْ أراد (الرزمة) التي هي أخت (الحِزْمة) فذلك وجه وهي غير معدودة.

ومن الصّلوات عير المحصية تلك التي تكون بعدد الرّمل والحصى ونحوه كما قال (٧٥):

صـــليتْ حَيَـــاتِي أنـــا تَـــرْ   عـــــدَّ الرمـــــال واكـــــتر

لـــي مـــن فوقـــو بتـــبختر   قـــــسماً بـــــه لا أنْتَـــــر

لا أخـــــــــشى لا ادعـــــــــتر

وهذه صلاة المتحدي كأنه يرى أمامه من يناكفه فتحداه (رجالة وحمرة عين) كما مرّ في مبحث التراث (يقدل) فوق الحبيب لا يتراجع ولا يتعثر (حازم/ وعازم ولازم) و(إيَّا كَدِي).

ومن صلواته الطريفة في هذا المنحى (٣٦٧):

الـــصَّلاة تكـــرار مـــا في الـــدّفاتر   لـــي الرّسُـــول تنجـــي الطـــاع والمـــشاتر

مـــن حَيَـــاتِي ينيـــل خـــيرا المُـــواتِرْ   في الـــديار تكفـــي شـــر الـــدّعاتِر

لم يحدد دفاتر البشر أم الملائكة ولا زمانها ولا مكانها، جعلها مفتوحة تعم الطائع لرِّبه والمخالف. واضطر فجمع وقال (الديار) جرفه تيار العموم هذا وهو يريد الدارين؛ الأولى والآخرة.. اللهم أكفنا شرَّ دعاترهما.

ومما لا يحصى نعم المولى عزّ وجلَ، وقد صلى بعددها في قوله (١٥٣):

صـــــــلواتي عَـــــــدْ   نِعَمَـــكْ فيـــا موجـــود علـــى ود معَـــدْ

ثم خطا الخطوة قبل الأخيرة للإحصاء، إذ كل ما مضى لا يُعَد، فقال (١٠٨):

بَعَـــدْ مَـــا دَارتْ أزْمَـــانِ   ومَـــا هَبَّـــتْ نُـــسَيْمَانِ

ومَـــا شَـــالْ تِـــينْ ورُمَّـــانِ   ومَـــا الليـــل قَـــامُو قيمـــانِ

صـــلاةُ الله رحمـــــنِ   عَلَـــى سِـــيدْ نـــوح ولُقْمَـــان

هذه نفحات الشيخ ود سعد عليه رحمة الله ورضوانه، وهي كثيرة لطيفة حنينة، وفيها حميمية لذكره للقوم كقوله (١١٢):

بَعَـــدْ مَـــا في البحَـــار مَالْيَـــه   سَـــفِينْتِي تكـــون مَلِـــي وخَاليَـــه

وعَـــدْ مَـــا القـــوم سَـــرَتْ تَاليَـــه   ومَـــا جُـــرِدَتْ سِـــبَحْ بَاليَـــه

صَـــــلاةُ الله مُتْوَاليَـــــة   عَلَـــى ذِي النِّعْمَـــة الحَاليَـــة

صلى الله وسلم عليه بعد سفن البحار ماليه وخاليه، وبعد الذاكرين بِسَبَحهم (مسابحهم) التي أبلاها وأخلقها الجرد المتوالي، وفي ثالثة هذه القصائد الأخوات وهُنَّ أربع، يقول ويتدفق وينساب (١١٠):

بعَـــــد الخلـــــقِ وأقــــوَالا	وعَــــــدٍّ تقلُّـــــب أحْـــــوَالا
وعــــــدّ أرزاقــــــا تِمــــوالا	وعَـــــدَّ القَطْـــــرِ مَـــــا وَالَـــــى
صَـــــــلاةُ الله تَتْــــــوَالَى	عَلَـــى مَـــنْ بِـــرُّو لـــي وَالَـــى

أشهد الله ما لقيت سلاسة كسلاسة هذا الرجل ولا أريحية كأريحيته، ينساب كلامه انسياب الماء في الجدول المخدوم.

ثم أختم هذا المنوال بقوله في الجيدين (٤٨٩):

الـــصّلاه والـــسَّلامْ مَـــا شَعْـــشَعَنْ آيـــتينْ	مَـــا لاحَـــنْ بِـــرُوقْ مَـــا صـــبَّ مَاهَـــا هَـــتِينْ
مَـــا نَبـــتْ النَّبـــاتْ مـــا أثْمَـــرْ شَـــجَرْ لا الـــتِّينْ	مَـــا غرسَـــتْ حبُـــوب أو غيرَهـــا الحـــارْتِينْ
مَـــا امْـــتَلأتْ ضِـــرُوع أو عَـــاوَدَ الكِـــرْتِينْ	مَـــا دَارْ الطَعَـــامْ والـــشُّرْبِ في الـــوَقْتينْ
تِعْـــدَادْ الخِلُـــوق الأحْيَـــا والمِيْـــتِينْ	تِعْـــدَادْ النجـــومْ يُـــضْرب عَلَـــى سِـــتِينْ
تِعْـــدَادْ الحَـــصَى والرَّمْـــلِ في الحَـــالْتينْ	لـــي وَالـــدْ البَتُـــول الزَّهْـــرَا والأُخْـــتِينْ
تُرْضِـــي والخَـــدِيمْ يَلْـــبَسْ بِهَـــا خِلعْـــتِينْ	نَجْـــل الحَـــاجْ حَمَـــدْ حَيَـــاتِي في الفَـــايْتِينْ
يُحْـــسَب واصْـــدِقَا الْفِـــي الـــوِدَادْ ثَـــابْتِينْ	بـــي جَـــاه الـــصَّلا إنْ شَـــالله في النُّـــوبْتِينْ

نُحْظَــــــى بالرِّضَـــــــا ونَرْقَابَـــــــا مَـــــــرْتَبْتَينْ

لا إلـه إلا الله محمّـد رسـول الله!! تأمّـل الكثـرة وتأمّـل الثنائيـة البديعـة وتأمّـل صـفاء هـذه القريحة وجودتها وتفكّر في نعمة الله على هذا الرّجل زاده الله شرفاً في الدّنيا والآخرة. يصلي ويسلم على الحبيب (ﷺ) متى ما أنار القمر ومتى ما أضاءت الشمس وهذا مستمر لا ينقطع كما مرَّ بك، وبعدد ما لاحت البروق وأعقبها المطر، مطلقاً غير محدود بزمان ولا مكان وبعدد ما نبت نبات وما أثمر شجر إلى شجر التين، مطلقاً غير مقيّد، وما غرست حبوب أو غيرها مما ينبت غير مقيد. وما امتلأت ضروع البهائم درّاً أو انقطع درُّها، فجفت وتكرتنت أي تَقَبَّضَتْ وانكمشت وصارت (كرتوب). وما دار الطعام والشراب صباحاً ومساءً وهذا لا ينقطع ولم يقيده بدنيا ولا آخرة. صلاة وسلاماً بعدد الخلق الحي والميت. وبعدد النجوم مضروبة في سِتِّين وهو العدد الذي يتبادر دائماً (ستين كلمة وفي ستين ونحوها). وتعداد الرمل والحصى في حالتيه مجتمعاً أو مفرقاً (مكوّم أو مبعثر). كل هذا لوالد الزهراء البتول رضوان الله عليها وعلى أخواتها وخَصَّ (رقية وأم كلثوم) لمكان الإمام عثمان (رضي الله عنه) ولم تكن زينب المهاجرة

رضوان الله عليها، التي أجار النبي من أجارت بأقل منهن منزلة ولكنها مضايقة النّظم أحياناً. صلاة وسلاماً يرضي الحبيب (ﷺ) ويُلْبِس الخديم (حَيَاتِي نجل الحاج حمد العربي وأكرم به) خلعتين دنيوية وأخروية أو حسية ومعنوية. ويكون في الفايتين على الصراط دون توقُّف أو وَجَل هو وأصدقاؤه أهل الوداد الثابت، كلهم وبجاه الصّلاة يحظون بالرِّضا ليلاً ونهاراً ويرتقون الدّرجات دنيا وآخرة. وقد وقفت مع هذه القصيدة في مبحث التثنية والثنائية وهي عجب من عجائبه عليه رحمة الله.

وفي ثنايا هذا التّعميم الدّال على العجز عن الحصر والإحصاء يتسرب العدد أحياناً وليس قليلاً في حقيقته ولكنه قليل قياساً على قدر الحبيب (ﷺ)، وكان الشاعر قد أوصى نفسه فيما أوصاها بقوله (٢٣٩):

كَفَاكْ الدُّخْري صَلِّيلُو حَيَاتِي بغير تَقْلِيلُ

فاستخدم الألف والآلاف واللكّ والألكاك واللكوك وهما بمعنى واحد كما مرَّ في مبحث اللُّغة فقال مرة (٥٠):

الصَّلاة ألْفِ لَكْ دَوام تَضاعف تَزين هَلفِي

فكأنّه أحس بقلة الألف فأردفها بالديمومة والمضاعفة (ألف لَكْ) أي (ألف ألف) داعياً أن يزول يباسه وتزدان حالته .. وقال (١٨٠):

- آلاف الصلاة المحضية.
- آلاف الصلاة أم اقبال (١٥١).

الأولى خالصة صافية والثانية مقبولة، وزاد ثالثة وزاد آلافها في قوله (١٨٢):

آلاف الصلاة وتتْنَامَى لي الدَّرّْ حَليمَه أغنَامَا
هَاهُ حَيَاتِي جَابَا ونَامَا فوقَا ويَرْقَى فوق سنَامَا

يحاول توليد العدد ومضاعفته بأي صورة، لأنَّه يرى كل عدد قليلاً في حقِّه (ﷺ) ثم تطاوعه اللُّغة وتنقاد له الأساليب: (لي الدَّرّْ حَليمَه أغنَامَا) هذا بدل ماذا؟ لا تقل لي (بدل الغلط) فتلك تسمية جائرة ههنا، هذا بدل الإحسان. وانظر اليقين، لا حُسْن الظّن، في قوله (جَابَا ونامَا) وما عليه ألاَّ ينام؟!

وبالغ في (بشكر الأعلام) حيث قال (٤٧٨):

الصّلوات حَيَاتِي أبصرْ بمَايْقِيهَا مِنْ كمْ كَمْ وكُمْ كَمْ ألْفِ نَاقِيهَا

ولك أن تتبع صلوات القلاقل هذه فإنها عجب من العجائب.

أمَّا اللكوك والألكاك فحدّث ولا حرج، قال مرة (٢٥٥):

الـــــــصَّلاه المحْـــــــــرُوزَه ... لـــي الـــذخيره ألْكَـــاكْ طَـــه عَـــزَّ طِـــرُوزَا

وقال (٢٧٤):

صَـــلِّيتْ حَيَـــاتِي الْمُنْكَلِـــبْ ... أَلْكَـــاكْ علـــى صـــافِي الْقَلِـــبْ

وهذا نَفَس ود الشاعر عليه رحمة الله.

وقال (٤٤٥):

الـــصَّلواتْ لِكُـــوكْ تَمْـــلا الكَيَـــانْ نِعَمَـــاً ... تُرْضِـــي المـــصطفَى القَـــدَمَا اشْـــتَكَتْ وَرَمَـــاَ

ثم أضاف إليها الكرَّات:

لِكُـــوكْ كـــرات الـــــصَّلاة الوافيـــــه

ثم جمع اللكوك والآلاف في قَرن فقال (٣٠٤):

صَـــلَواتْ حَيَـــاتِي المِـــيْ هَلِـــفْ ... أَلْكَـــاكْ ألـــوف في كُـــلْ ألِـــفْ

بهـــا فـــازْ نـــتج نَـــتَجْ الخَلِـــفْ ... في جاهَـــا يـــومْ الهـــول تَلِـــفْ

أهَـــــــلْ المَحَبَّــــــــة والأَلِـــــــــفْ

فاللّهم اجعلنا منهم بحرمة الصَّلاة.

بعد كل هذا التلوين والتشكيل والتفريغ والتشقيق والتفنن أحسَّ الشيخ بأنه تقدم بين أهل الصلاة على الرَّسُول (ﷺ) ولا بُدَّ أن يكون على قدر هذه التَّقْدِمة، ورغم أنَّ عظم المسؤولية يدفع به أحياناً إلى هضم النفس (٢١٠):

صَـليتْ حَيَـاتِي القَـارْ بِـي نَيَـاتِي ... لَـــيْ خَـــيرًا يَـــأتي بالكِميَّـــاتِ

وقد يبدي بعض الهم من هذا الحمل (٢٩١):

أَجِـــدْ الْمفَـــازْ بِهـــا وانْجمـــلْ ... وتْريحْنِـــي مِـــنْ هـــذا الحِمِـــلْ

لكنه سرعان ما يعود معتزاً مفتخراً ملتزماً بحمل الرّاية (٣٥٦):

صَـــلَواتْ حَيَـــاتِي عِرِيبِـــي الـــسرِيلَتْلُو ... تَـــلَّ وخَتَـــلْ بيهَـــا وفُـــوقْ سمَّخَتْلـــو

مهَلَـــــتْ لِكُـــلِّ أحبَـــابُو ومَهَّلَتْلُـــو ... لاكِـــينْ رَهِـــينْ الحُـــبْ بَاحَـــتْ بقَتْلُـــو

فإذا استشعر عظم المسؤولية وهو شغله الشاغل استعان عليه بالصلاة نفسها (٥٧):

الـــــصَّلاة تكـــــرب حزامُـــــو ... تَلْتَـــزم حِمْلُـــو الْتِـــزَامُ

وقوله (٥٣):

الـــــــصَّلاة تَحْمِـــــــــل ... كُـل أحمـالي ولـي الجـروح تَـدْمِلْ

لـــي حَيَـــاتِي تَـــزِينْ والأهـــل تَـــشْمِل   تحمـــــــني دومـــــاً لـــــيَّ لا تهْمِـــــلْ

ثم يتوكل على الله ويتقدم مخاطباً نفسه (١٤٦):

يَـــا حَيَـــاتِي يـــا ذَا الوَحْـــل   الـــــزمْ شــــيل الرَّحَــــل

صــــلواتك ليهـــا حَـــلْ   كـــي تـــسما علـــى زُحَـــلْ

وتجاوبنا أهازيجه من أعماق الديوان (٢٤٨):

الـــصَّلواتْ وافـــرة وحليـــة   لـــي ذُو التـــاج والأفْـــضَلية

وأيضاً:

صَـلواتَكْ أحْلَـى مِـنْ القُمَـعْ   مَلَـتْ القِلُـوبْ مَلَـتْ الـسَّمَعْ

وكذلك (٣١٠):

يـا حـلاة صـلاة سَـمْحَ الكَحَـلْ   فَاقـتْ حَـلاةْ عَـسَلْ النَّحَـلْ

خِـيرَا انْتَـشَرْ طَـرَدْ الْمَحَـلْ   بيهَـا حَيَـاتِي يَـصِيرْ فَحَـلْ

ويَـــــشْمَخْ عَلَـــــى هَامَـــــة زُحَـــــلْ

وإذا صار فحلاً، وقد كان، كما علَّقتُ عليه في الحواشي قديماً، فإنَّ عليه واجبات (٣٢٤):

يَـا حَيَـاتِي إنـت أيَـا جَـدَعْ   قُـولْ فـوق نَبِيـكْ سَـو البِـدَعْ

فتجيب عليه بعض صلواته (٣١٩):

مِـــني حَيَـــاتِي المؤَصَّـــل   جــــاتكم دُرَّاً مفـــــصَّلْ

والذي جاءنا (دُرَّاً مفصَّل) قد يكون الصلوات في خواتيم المدائح (٣١٩):

صَـلواتْ حَيَـاتِي الفَـاخِره دُرْ   أوْ جـوْهَرَا عَـازْ فِـي القَـدُرْ

وقد تكون المدائح، والمعنى واحد، لأنَّ المديح صلوات والمديح كله صلاة، والصلوات مدح لأنَّ الصلاة تُطْلَق ويراد بها المدح وهي في الحالتين موصوفة بقوله (٣٣٥):

مَـدايحي التَّبْقَـى مَقْبولـه   وفيهـا العِـزَّه مجبُولـه

أهَـالي الحُـبِّ يحبُـولا   وفي كَـسْحَه اللِّـي يـابُولا

إذن مدائحه وصلواته لإتقانها وجودتها وتفردها جلبت فخرها وشكرها لنفسها بنفسها. وهي أصلاً صِيغَتْ لأهل الوداد والمحبة وأصحاب العقول لأنَّ هؤلاء هم من يعونها أمَّا أهل الجفاء والغلظة والطفطفة ففي كَسْحَة بل في ألف داهية.

ومن هنا تظهر الثقة ونغمة التميز والتفرد والتقدم والريادة المستحقة التي ربما شابتها أو مسحتها غلالة من التحدِّي المستحق في رأينا... فإذا أردنا أن نحكم على صلواته التي

هي بعبارة أخرى مدائحه، وقد لخّص ذلك في بعض خواتيمها، فهل سنوافقه على أحكامه؟ أنا أقول مقدماً نعم سنوافقه (ونبصم بالعشرة) فقد مرَّ بنا قديماً قوله:

يَـا مـضارِب شِـيلا وضَـارب أهَـل الزِّنْـكِ

أي نافس بها ولا تتردد فأنت الرابح.

وأعاد ذلك في بعض صلواته (٢٥٥):

الـصَّلاه المَحْـرُوزَه	لـي الـذخيرة ألْكَـاكْ، طَـه عَـزَّ طِـرُوزَه
مِـنْ حَيَـاتِي بِـرُوزَا	نَاهْيـه في الأكـوان يَـا مـضَارِب رُوزَا

روزا أي: اختبرها وامتحنها. ويمضي في النغمة ذاتها بأبلغ وصف لصلواته ومدائحه عموماً (٣٥١):

صَـلَواتْ حَيَـاتِي عِرِيبِـي الـسِّيفَا ضَـارِبْ	لَـسَعَتْ قِلُـوبْ النَّـاس زيْ العَقَـارِب
وكـّـزَي عَـصَا مُوسـى الْفِيهَـا المـآرِب	يَـا مَـنْ جَهِلْـتَ بهـا سَـلْ مِـنْ مُجَـارِبْ

إذن اختبر بنفسك، واسأل المجربين.

وكما قال من قبل:

بيهـا في الـدارينْ أبْقَـى مُتْكيِّـفْ

وهذه غاية الرضا عنها، فإنَّه أعاد هذا الرضا في صورة أخرى (٣٦١):

صَـلواتْ حَيَـاتِي عِرِيبِـي القَالْعَـة قلْعـه	قَـاطْره الأحِبَّـه إزَا زَايْـدَالا وَلْعَـه
قـال راجِيـاً ألْـبَسْ بهـا ألـف خِلْعَـه	وألْقَابَـا في الـدَّارين أمْنـاً وشَـلْعَه

غاية الثقة، في هذه الصَّلاة التي أقلعت بحماس وهي تصطحب الأحبة في معيَّتها وتزداد حماساً واندفاعاً متجهة نحو الحبيب، آملة في مكافأة سنية (ألف خلعة) كأنه ينظر من طرف خفي إلى ما يخلع على المادحين، وأشرفه بُرْدة كعب بن زهير السّلمي. ويلقى بعد ذلك أمناً وشَلْعة و(تِشِنِّقة طاقية).

ومن حق مثل هذه الصّلوات أن تكون رائدة قائدة (٤٢٠):

الـصلاة المرقاهـا طايـل	قـاطرهْ بـابور القبابـل

وهي ريادة بجدارة وشيء من التحدي (١٨٩):

هـاهي الـصلاه الجـات عـاطره	ضـاريه المُـضَارب شـاطره
بهـا فـاز حَيَـاتِي المـاطره	بـابورا للقـوم قـاطره

الماطره: التي أمطرته بخيراتها. و(شاطرة) هذه عجب من عجائب الشيخ، فهي إمَّا من الشطارة والنجاح فتتغلب على المضارب المنافس، وإما تضرب المضارب فتشطره أي (تقسمه النُّص) وهذا قضاء مبرم. حتى توجته صلواته خبير خبراء الصلاة على الرسول (ﷺ)، فطر بئرها ومَهَرَه وحفر حفيرها، ونحن معه ونوافقه بثقة كثقته في قوله (٢٠٥):

مِنَّـــي حَيَــاتِي تحْـــبِيرا الـــصَّلواتْ مَهَـــرْ بِـــيرَا

صِـــرْتَ خـــبيرْ خَبَـــابيرَه لابِـــسْ تـــاجْ دَبَـــابِيرا

قَـــاطْر القُـــوم بَـــوابيره

اللهم ارحمه فإنَّه عارف بقدر نفسه، وقد عرفناه، وأنت أعلم به مِنَّا، فأجزه عنّا خير ما جزيت شاعراً جَوَّد وأبدع وأمتع، وفكّر وعبَّر فذكّر وأسْكَرَ؛ ولا تعليق!

الباب الخامس:
أساليب وظواهر:

- دقة الصّنعة
- الضرورات
- التداخل
- الدعائم
- التقريع
- الأعداء
- المجاراة

تذييل: فوائت واستدراكات

دقّة الصَّنْعة

أوتي الشيخ حياتي من دقّة الصَّنعة خيراً كثيراً. وكان يحسّ بذلك ويتذوقه، لذلك يقول (٤٩٤):

النَّعـــرف مَجَـــالاً وأبْقَـــى هَنْدَاسَـــا   لا أبْخَـــل بِهـــا لا اسمَّـــى دَسْدَاسَـــا

حُبَّـاً ﻓ الرَّسُـولْ اللّـي الحُجُـبْ دَاسَـا   أنْـــشُرَا إنْ وَضَـــحْ مَعْنَاهَـــا أوْ دَاسَـــا

يسأل الله أن يمهر ﻓ المديح ويعرف مجالات معانيه ومبانيه ويهندسها وينظمها للناس لا يبخل بذلك محبة ﻓ الرسول (ﷺ) وينشرها بين الناس إن وضحت لهم أو خفيت وغمضت؛ فهذا حديث الذي يحسّ بأنه يتعمق ويتبحر أحياناً فيأتي بالعويص الذي لا يتيسَّر لكل الناس، ليس تكلفاً بل طلباً للإحسان والتجويد لذلك يكثر من المطالبة بنشر هذه الأمداح بين ذوي المحبة والفهم والإفهام (١٢٣):

أنْـــشُر الأمْـــدَاحْ بـــي ســـهامَا أسْـــهِمْ   لـــي المُحِـــبْ وأفْهِـــم مـــن يَعِـــي ويُفهِـــمْ

ويركز على ضرورة الوعي والفهم كثيراً كما ﻓ قوله (٢٧٣):

مـــن بعـــد ذا إنـــشا فوقـــك ســـبكلو   عـــاز المعـــاني بـــديع ﻓ المبنـــى شـــكلو

رامـــي القلـــوب مرمـــى ســـجعو الحبكلـــو   وتعـــي المـــسامع الواعيـــه العـــين تبكْلـــو

تعمدت رسم هذه الأبيات كما ترى لأنك إذا لم تحسن تفكيك تراكيب هذا الرجل غمضت عليك معانيه وفاتك خير كثير. فهو بعد أن سبك إنشاءه فوق الحبيب ﻓ معان عزيزة ومبان بديعة الشكل لدرجة أنه رمى القلوب من جمال سجعه المحبوك، والشعر بهذه الصفة إذا وجد سامعاً واعياً لابد أن قلبه سيعيه وأن عينه سوف تذرف الدمع. وقوله (تَبكْلُو) بقرينة العين التي قبلها يقصد بها (تبكي له). وهذا النموذج ليس شيئاً قياساً إلى غيره من المعاني التي شَطَّ مرماها ﻓ ديوانه.

وتبدأ الوعورة عنده أحياناً من الصياغة والسبك، وقد مرَّ بك أنك إذا لم تحسن وضع علامات الترقيم فإنك لن تصل إلى المراد. ومَرَّ بنا قوله (٣٥):

يَـــا مُهَـــيْمِنْ عَـــنْ   صـــحبُو أرض، بهـــم أَهْـــدِ قَلبِـــي، ظعَـــنْ

ﻓ المعَاصِـي، خُطَـاي طَـاوعني سـعَنْ،   واليَـد والعـينْ واللـي لَـيْ سمعـنْ

فأنت لو حذفت علامات الترقيم تداخلت الألفاظ وغمضت عليك المعاني.

وإذا تدبرت قوله (٢٧٣):

أحْمَــــد جُبَــــارة الْمُنْرَعِـــبْ   حَاشَــــا الغَـــضَبْ حَاشَــــا الزّعــــــــــــــب

حَاشَــــا لأحـــدٍ مــــا بْيَعِـــبْ   و(القــوت) ومــا بيــشرب يَعِــبْ

وجدت قوله (والقوت) كأنها لا تمُت بصلة إلى ما قبلها ولا إلى ما بعدها، حتى تعيد القراءة والتقليب فيتّضح لك أنه يريد (لم يعب (ﷺ) أحداً ولم يعب القوت). قالوا ما عاب صلى الله عليه وسلم طعاماً، إذا اشتهى الشيء أكله وإن لم يشتهه تركه كما وجده. فهذا الحذف الذي يحتمله السياق ويدل عليه إذا لم تحسن تقديره ضاع المعنى.

وسأدخل بالقارئ الكريم إلى نماذج من دقة الصنعة التي خفيت معها المعاني إلا لمن يتدبر ويبصر ويعاود ويتأمل ويعلق المعنى في الذهن. قال ابن خالويه (أنا منذ سبعين سنة أبحث عن معنى الجرِشّى) وهي النّفس فأي صبر هذا وأي ذاكرة وأي همة هذه، نحتاج إلى همم مثلها لفك غوامض شيخنا والتي منها قوله (٨٢):

مــــن آيُـــو ود معـــــدا   العــــــــير والبعــــــدا

والنــــوق والجـــذع معـــدا   الـــساج لمـــــن قعــــدا

والخَــــــــرَّ جَـــــا وصــــــعدا

تأمَّل البيت قبل أن تقرأ شرحي له...لا تُذكر العير إلا ويُذكر بعدها حبس الشمس صبيحة الإسراء والمعراج. (والجذع معدا) أي حين تعداه الرسول (ﷺ) وتجاوزه إلى المنبر الجديد. والخر ونزل ثم صعد راجعاً هو القمر. لكن ما الساج لمن قعدا؟ الساج هو العنكبوت الذي نسج وساج بيته على فم الغار، والذي (قعد) هو سيدنا أبوبكر فإنّه حين أنفد ثوبه في تسديد ثقوب الغار وبقي جُحْر كبير، خاف أن تخرج منه حية تؤذي الرّسول (ﷺ) فقعد فوقه؛ ثم دعا الحبيب ليدخل. هذه هي الفدائية التي جعلت الرسول (ﷺ) يدعو بأن يُعْطى مقام الرسول (ﷺ).

وفي قصيدته (طاب زماني وصار لي عيد) أشياء من هذا القبيل فقد جاء فيها (٣٢٦):

آيـــــات كتــــابُو قرأتهـــــا   جــــابر معــــاجزو شملتهــــا

مــــالي حليمـــــة وبِنْتَهـــــا   مــــالي خديجــــة وبِنْتهــــا

مــــــالي الــــــصديقة وبنتهـــــا

فحليمة معروفة وبنتها الشيماء أخت الحبيب من الرضاع. وخديجة معروفة وبنتها سيدة نساء الدنيا والآخرة الزهراء، أما الصِّدِّيقة بنت الصديق رضوان الله عليها فإنَّها لم يكن

لها بنتٌ ولا ولد فما المراد إذن؟ ما أراه إلا أراد (بِنْتَها) بمعنى (بَيَّنْتُها) وأوضحتها يعني منزلتها ومكانتها من النبي (ﷺ) وأمته. ولا تَنْسَ الجناس التام هنا في الكلمات الثلاث (بِنْتَها).

ولم يمض طويلاً في القصيدة نفسها حتى نَفَحنا بمعضلة ولغز آخر في قوله (٣٢٦):

صُحْبُوْ الصِّمُودْ مَا بْتِنْغَلِبْ في الحَرْبِ ويِنْ البِنْقَلِبْ
هَانُوا العِدَا إهانَةَ الكَلِبْ في الْكَاكَةِ والفَارْس اب قَلِبْ
كَفُّوا الطِّيُورْ شَحماً (كَلِبْ)

وقد مر شرح هذا البيت، ولكن بيت القصيد قوله (كَلِبْ) تأمّلها قبل أن أفيدك بما فتح الله به عليَّ وهو أنه يريد (شحماً أبيض كاللِّب) مثل اللِّب، لِبّ الرغيف ونحوه. عجيب أمر هذا الرجل!

ومن غرائبه قوله (٣٦١):

صَلواتْ حياتي عريبي القَالعَه قلَعَهْ قَاطْرة الأحبَّه (إذاً) زايْدَالاَ وَلَعَهْ

هكذا في الديوان، وبهذا الرسم لن تصل إلى معنىً تحته طائل في البيت. ولن يستقيم البيت إلى إذا صححنا رسم قوله (إذاً) وجعلناه (إزَا) إي (إزاءه) يعني بمحاذاته. أعد قراءة البيت الآن لتعرف المقطور إزاء الشاعر معه ووبمحاذاته وفي رفقته، وهم الأحبة.

أما قصيدته (عرج الْمُنْجِي خاطينا) فإنها مما لا ينقاد إلى الفهم ولا يُسْمِحُ إلاّ بطول النظر ومعاودة التأمل، ومنها قوله (٤٠٩):

- (بساتينا وهواطينا) - هكذا رسمت في الديوان ولابد من فصل، فإنَّه أراد (هواء/ طينها) أي نسمات تربتها المُبلّلة وقوله:

- (حياتنَ شَنْ انتَنَاسينا) - هكذا رسمت في الديوان ولابدَّ من إعادة رسمها ليكون (حياتنا شِنِي إنْ تَنَاسينا) الحبيب (ﷺ) أو ما قيمة حياتنا وما طعمها إن تناسينا الممدوح...وهي لهجة شائعة عندنا ومأثورة عن العرب وعليها قول الأعرابية التي أطالت بناتها الحديث مع غريب، فقالت لهن (أَفِي السَّوَتِنْتُنَّ؟) أي (أَفي السوأة أنْتُنَّ) فجعلت إطالة الحديث مع الغريب سوءةً، وهي كذلك.

وفي القصيدة قوله (٤١):

- صدع لي صدعُ صادعينا - هكذا رسمت ولابد من فصل (صاد عينا) لتكون (صدع لي صدعو صاد عينا) أي صدع صدعه وأعلن أمر دينه فأصاب عين الملة الضالة.

ويقول الشيخ في واحدة من (القلاقل) (٤٦٣):

والعَـــادُوا لنَـــا إنْ شَـــاء الله يبقُـــو (لَـــدَنْ)
نَرْقَابَـــا عُـــلا الفـــردوس لـــيس عـــدَنْ

تجتهد حتَّى يَحْتَرَّ دماغك للوصول إلى مراده من كلمة (لَدَن) ولن تصل إليها إلا بالتوفيق ومساعدة ذخيرة التراث السوداني فإن (اللداية) عندنا هي (الأُثْفِية) والجمع لدايات أي (الأثافي) وهي الحجارة التي توضع عليها القِدر (الحلَّة) للطبخ. يريد أن يكون الكفار لدايات في النار فإن من شأن هذه الحجارة أنها تحمل الحار وتصطلي بالنار دائماً وأبداً.

ويَحار بك الدليل حين تقرأ قوله (٢٤٣):

الـــبر يَـــالفُو (كـــلا)	حـــام فوقـــو وعَكَـــلا
لـــي العـــود حـــن ســـكلا	ونمـــى صـــاع الأوكـــلا

هكذا رسمت في الديوان وفيها خطآن: الأول في (سكلا) وصوابها أن ترسم بالثاء (ثَكَلَا) وإن كان أهل السودان ينطقونها سيناً، وقوله (الأوكلا) هذه الواو مقحمة مخِلة وصوابها (الأُكَلاَ) جمع (آكِل). أما موضع الشاهد فقوله (البَرْ يالفُو كَلاَ) فإن ذهبت إلى (الكَلا) بمعنى الحشيش والعشب لم تجد من السيرة دليلاً على ذلك ويمنعك أكثر قوله (حام فوقو وعكلا) فإن الكلأ لا يحوم ولا يعكل. ولن يتوجه المعنى ولا يستقيم إلا ذهبت بقوله (كَلاَ) إلى النوع المعروف من الطيور وهو طائر (الكَلاَ) الأسود المعروف عندنا يكون في الغابات وحقول الذرة. ذكره شيخنا مجازاً وأراد به جميع جنس الطير لأنه ورد في الأثر أنه حام فوق الرسول وظلله وشكا له وقصَّة الصحابة والحُمَّرة مشهورة.

ومن العويص أيضاً قوله (٩٢):

الـــشكّت (والـــتَّلبي)	والـــذي اتوسّـــل بـــي
والجـــواد انحـــل بـــي	واب جهـــل بـــي الغلـــب

آب منـــــــــو الكَلْـــــــــب

فقد يظن ظانٌّ أن (التّلبي) المقصود بها (التِّلْب) وهو الجمل، وقد شكا للرسول (ﷺ) ولكن ضبط الديوان واضح (التَّلْبي) ويمنع هذا الظن قوله (والذي اتوسل بي) وهو البعير. فيلزم أن نحاول وجهاً آخر يستقيم به المعنى ولن يسعفنا إلاّ الفتح الرباني وتراث اللُّغة، فإن (التلبي) كما بان لي هي الغزالة لأنها جاءت حافلة (محينة الضرع) تشكو الصائد للرسول. واللبن في أوله يسمَّى (اللَّبأ) فتكون (التّلْبي) هي التي امتلأت (باللّبأ) وهو اللبن بعد الولادة يكون غليظاً مغذيّاً عدة أيام ثم يرجع إلى صورة اللبن وطبيعته.

وتنشأ الصعوبة غالباً من رسم الديوان كما في قوله (٥٠٤):

اب كَفّـا يَـصُدّ النـار لـسانا (انتـار)

ورسمها غير الملبس هو (إن تار) أي إن ثار لهب النار يصده كف الرسول (ﷺ).

وقوله (٤١٢):

وأجـد في الـسير (لاتُرْكـاس)

وصواب رسمها (لا أَتُرْ/ كاس) أي لا أرجع القهقرى وقد مرّ شرحه.

وقوله (٩٠):

هَـا حيَـاتِي نيـال فُـزْبهـا وهنيـا لـي

وصحة رسمه: ها حياتي (أنا يالي) أي يالي من الذي جاءني من الفوز وهو أسلوب تعجُّب.

ومنه قوله (١٠٩):

بلحظـات الرِّضـا والَ لكـي إيمانـا يقـوالاَ

ومعناه (والِها) من الموالاة كما يقال (البنت نادَ) أي نادِها.

ومثلها قوله (٤٩٠):

يَـا مُجْـرِي البحـارْ أنَـا بـيرِي لَـيْ تَـارَا

أي تاريها، أي اجعلها لينة وألحقها بالثَّرَى (الثَّرى) وهو التراب اللِّين وهو مظنَّة الماء.

ومن ذلك أفعال الأمر التي تبقى على حرف واحد إذا كانت معْتلَّة مثل (أَرَى . يُرِي) فالأمر منها (أَرِ) فإذا حذفت الهمزة بقي على الراء وحدها فإذا أسند إليه كان كقوله (١٠٦):

يـا مَـنْ عليـك مـتْكَلا (رِيهَـا) أمْ قـزاز هَـيْكَلا

أي (أَرِها، ورِّيها) هيكل القبة الخضراء أم قزاز، يدعو لنفسه.

وأحياناً يكون لتغيير الحركة الواحدة خطر كخطر تغيير الحرف لقوة تأثيرها في المعنى فأنت إذا مررت بقوله (٣٦٨):

عـن قريـب أرنـي بكّـة والحجـرا

فأنت بين أن تضم الحاء أو تفتحها أو تكسرها، وكُلُّه جائز ومتوجه، فهي بالضم (الحُجرا) أو(الحُجرة)، وهي الحجرة الشريفة، (والحِجرا) بالكسر هو حِجرُ إسماعيل

و(الحَجَرا) بالفتح هو الحجر الأسعد أو الأسود. غير أن الضَّم أوفق ليجمع بين رؤية مكة والمدينة، فتأمّل!

وقد تتأتى الصعوبة والإشكال من التوفيق في التأويل وعدمه، فقول شيخنا (١٤٧):

حـــــال يتوجَّـــــهْ أم بيبـــــان   في بيـــــوت سِـــــكَّة الرُّهْبـــــان

لا يتجه معناه إلاّ إذا أوَّلته (القطار) بقرينة (السكة) أي الحديد، كما قالوا (آخر الزمن السفر يبقى بالبيوت) ومخترعوها هم النصارى وهم أهل الرهبنة.

وقد تقرأ قوله (٨٧):

كَـــمْ كَـــمْ قِـــرَاهُ بَـــرَمْ   والـــــشِّرْك شَخْـــــصُو فَـــــرَمْ

فتحتار فيها طويلاً حتى تهتدي إلى أنه ربما أراد أن سخاء الرسول وجوده وإعطاءه إعطاء من لا يخشى الفقر هو الذي (برم) وحوَّل وغيَّر رأي كثيرين كما ورد في يوم حنين وقد مرَّ ذكره.

وفي قصيدته (نعم سكانا)، لم يقصد بالسكان إلاّ أهلها وساكنيها ولكنه حين دخل في النص يقول في استهلاله شارحاً حال نفسه (١١٨):

نَفْـــــــــسِي دَرْكَانَـــــــــه   بـــالمكر والغـــشْ عَـــامْرَه دُكَّانَـــا

قَـــدَّها يَبُـــوبِي خَـــالِي سُـــكّانَه   نَاسْـيَة مَـا يكُـونْ تَـانِي ومَـا كَانَـا

فالسكانة هنا هي (الوشرة) أو مايُسَدُّ به ثقوب الخشب. وهذا أمر تُسْعف فيه اللغة. وقد سكت المحقق عن شرح كثير من الغوامض ولا يلام فذلك مبلغ جهده بارك الله فيه وأعظم أجره.

وقد تنجم الصعوبة من سعة علم الشاعر حين يجمع بين أمرين يبدوان متناقضين ثم إذا أمعنت وتدبرت أمكنك الجمع بينهما واستقام المعنى كحديثه عن معجزات جابر بن عبدالله التي يجعلها مرة أربعة ومرة خمسة وهي تحتمل العددين وقد مررت به في تداعي المعجزات فاطلبه إن شئت.

حروف الجر:

ومما يحتاج إلى تأمُّل استخدام حروف الجر مع الضمير، فالشايع أننا نقول (فيَّ، لي، بي) نريد (فيهِ، لهُ، به) كما تقول (لي كم يوم ما ظهر)، أي له، و(الشيء ده في كلام) أي: فيه كلام. و(أنا أفخر بي)، أي به. وهذا كثير في الديوان، منه قوله (٢٩٠):

صَـــلَّى ونَحَـــرْ صَـــامْ كَـــان يَـــصِلْ   (فيَّ) الخَـــيرِ والجُـــود مُنْحَـــصِلْ

أي (فيه (ﷺ) ينحصل ويتحصل وينحصر الخير والجود).

وقوله (٣٤٧):

تـــتراءى (في) الجـــدران والله جِـــسْمو خفـــى لامـــع الـــبرّاق إن فَـــرّ بـــسمو

وهذه في غاية البلاغة لو تدبرتها، أراد أن جسمه (ﷺ) تتراءى فيه الجدران لجماله وضيائه. ويقويه ويؤيده الفعل (تتراءى) أي الحيطان هي التي تظهر وتنعكس صورتها على جسده. فإذا عكست ذهب المدح بالمرة وصار للحيطان، هذا إذا قلت (يتراءى جسمه في الحيطان) فهذا يعني أنها هي اللامعة وينعكس عليها جسمه هو لأن كل شيء لامع تنعكس عليه الصور حتى لو كانت قبيحة؛ أيا كانت. وهذا من الدقيق جداً فتأمله!

وفي القصيدة نفسها يقول الشيخ (٣٤٧):

وَتَـــر العَطَـــا الْمَخْبُـــوء الْمنْجِـــي شَـــفْعُو مَـــا مِـــنْ شِـــي إلاَّ مَنُـــوطْ بـــه مِنْـــه نَفْعُـــو

نجّـــا الْخَليـــلْ وابْنُـــو وبِعِيـــسَى رَفْعُـــو والمُلْـــتَقَمْ وَأيُّـــوبْ بِـــبلاهُ دَفْعُـــو

وهذا من خطأ الرسم الواضح، الذي يحيل معنى الشطرتين الأخيرتين تماماً، لأنك بهذا الرسم تجعل رسولنا (ﷺ) (بعيسى رفعه) أي رُفع هو بعيسى، وأيوب ببلاه هو وهذا لايستقيم وإنما الوجه أن تقول وترسم (بي عيسى رفعو) أي (به) (ﷺ) ولأجله كان رفع عيسى، و(أيوب بي بلاه رفعو) أي (به) (ﷺ) ولأجله كان دفع البلاء عن أيوب وهذا هو الاعتقاد.

وعليه فإن رسم البيت ينبغي أن يكون هكذا:

نـــجَّ الخليـــل وابنُـــو وبـــي عيـــسى رفعُـــو والملـــتقم وأيـــوب بـــي بـــلاهُ دفعُـــو

أي به (ﷺ) رفع عيسى، وبه (ﷺ) دُفع بلاء أيوب على نبينا وعليهم السلام.

أما (لي) فوردت في قوله (١٦٨):

فـــوق مَـــنْ مَـــنْ (لـــي) الجـــدر أمَّـــــن، وأتـــــى البـــــدر

أراد فوق من أمن (له) الجدار.

إيجاز الحذف:

من نماذج دقة الصنعة والتعبير الموجز مذهب الشيخ في الإيجاز أو ما يعرف بإيجاز الحذف؛ وذلك أن ينتهي الكلام وله بقية معلومة لم تذكر اكتفاءً بما ذكر؛ منها قوله (١٤٠):

الأَدَّنـــــــــــــــــــــــــــــــــ مـــــن آيـــــاتو والـــــرُّدَّنْ

واللّنـــــــشقّ كالولـــــــدن   مبـــسوط مـــن مجـــي جـــداً

فالأدن أراد بها الأدّن التحية كالأشجار والأحجار .. وهذا مذكور في الحديث وفسره في قوله (٣٢٦):

حَيَّـــا الــــــشَّجر حَيّـــا الــــسّلام

والسلام هي الحجارة. أما الرُّدَّن فهنَّ كثر منهنَّ الشَّمس والعيون (عين قتادة وعين علي الكرار) ورجل ابن عتيك وكفّ ابن عفراء وفي القصيدة نفسها يقول (١٤٠):

الــــــــــــــــــرّفَّن   منهـــا أميـــاقي مَـــا جَفَّـــن

خيبــه أقـــدامي مَـــا خفّـــن   زارن بعـــــــدما وَفَّـــــــن

(الرَّفن) يعني البروق، وقوله (بعدما وفَّنْ) أي بعد ما (وفَّنْ الحجة) وأوضح منه قوله (١٧١):

الــــضّب واب ســـم جُـــر   والنُّـــوق والجَـــاتْ تَجُـــر

(جُرْ) ماذا؟ (وجات تَجُر) ماذا؟ جُرْ النَّم والقصيد، و(الجات تَجُر) هي الشجرة التي جاءت تجر عروقها وأغصانها. وحتى النوق فإنها جاءت تجر جِرانها وتَمُدُّ أعناقها.

وقال وحذف الخبر اعتماداً على الخبر الذي سبقه (١٩٧):

يوســـف مـــن جمـــالُو وظرفُـــو   قاصـــر والمـــسك مـــن عرفـــو

يعني (المسك قاصر) أيضاً من طيب عرف الرَّسُول (ﷺ).

وهذا شبيه بما مرَّ بنا في المبحث السابق في قوله (٢٧٣):

حاشَـــا لأحـــد مـــا بْيعِـــبْ   و(القـــوت) ومـــا بيـــشرب يعِـــبْ

لا يعيب أحداً ولا يعيب القوت وقد شرحناه.

وله موضعان حذف فيهما وأجاد في (عيب شبابي الما وصل) في قوله (٢٩٠):

صـــلّى ونحـــر صـــام كـــان يـــصِلْ

يعني كان يصل الأرحام (ﷺ). والموضع الثاني قوله (٢٩٠):

خَـــفَّ الفـــروض مـــن التِّقِـــل   آذنـــو الملـــك حتـــى نُقِـــلْ

أي: نقل إلى الرفيق الأعلى.

وقال داعياً (٣٩١):

أهـــدي الـــصراط المـــستقيم   مـــن العمـــل مفلـــس عقـــيم

في بيـــت هـــوى الـــشيطان مقـــيم   أنقـــذه بـــي جـــاه (المقـــيم)

واشـــــفي ايــــا شـــــافي الـــــسقيم

فقال (المقيم)، أي المقيم السنة أو المقيم الدين والحق والصلاة.

وقال في (طاب زماني وعيشي عاد) (٣١٥):

وافـــى العـــدِل غـــير اتحـــاد　　　رامـــو النفـــور مـــا منِّـــو حـــاد

ردّ اليـــــدِ وذو الالتحـــــاد　　　همـــى لـــي الـــسما بعـــد انجحـــاد

والعـــــود بكـــــى يـــــا عاشـــــقو (حـــــاد)

قوله غير (اتحاد) أي غير ميل عن العدل. وذو الالتحاد أي المُلْحَد في اللَّحد وهو المقبور وجانس بين (حاد) في الشطر الثاني بمعنى (مال ونفر وفرّ) و(حاد) في الشطر الأخير بمعنى (حادي) جمالك أو سُقْها نحو الحبيب. وهذا هو موضع الشاهد حيث أوجز وحذف (النياق) أو الإبل أو القوافل والتقدير (يا عاشقو حادِ جمالك).

وقال في صفة قامة الرسول (ﷺ) (٣٦٥):

أَنْجَـــــلْ وازَجْ الحَـــــاجبِينْ　　　نَـــافي القَـــرَنْ والقَامَـــة بَـــيْن

أراد والقامة (بين بين) أو (بين الطويل والقصير) كما جاء في حديث هند بن أبي هالة.

وقال في (ربنا لا تردنا) مجارياً ود سعد (٣٩٦):

أحْيَـــا الثـــدِي وكَـــمْ كَـــمْ سَـــنه

أي أحيا ثدي حليمة الأجد، وأحيا كم سنة شهباء جدباء ممحِلة قاحلة.

وفي (طاب زماني وصار لي عيد) مرّ قوله (٣٢٦):

فبقـــدر حـــالي ولـــو لحـــن　　　متبركـــاً بـــي مـــن لـــي حَـــنْ

أي متبركاً بمن له حَنّ العود أو الجذع.

وقال عن الكرار رضوان الله عليه (٤٩٩):

شَـــهَّى الكـــافرين النَّـــوم حاليـــهُ　　　نَـــسَّى الواحـــدْ أهلُـــو أبْنَـــا ومَاليـــهُ

حِـينْ شـــاف اب زنـــود حيـــدَر أكـــانْ ليـــه　　　تَهْوَابُـــو الأرض إن كـــان بخلّيـــهُ

والشاهد في قوله (أكان ليه) وهذا كما نقول (كان ليه مراد الأرض تغطس بيه) فحذف كلمة مراد وتقدير الكلام (كان ليه مراد تهوى به الأرض) وهذا من البديع.

وأوجز في قوله (٥٣٣):

في الـــــصبر أجمـــــلُ　　　والزهـــــد اســـــتكملُو

منّـــو الأرســـال ملُـــوا　　　مرصـــــاد اليـــــأملُو

الأرسال ملوا من ماذا؟ من خيره وفضله وهديه (ﷺ).

وقال في (القاموا مصبحين) وجَوَّد (٥٣٥)

حـــــزب الله ســـــــعدو	القومـــــــو ســـــــعدوا
الجـــــــذع ضـــــــمنو	والجـــات لـــــي وعــــدو
والقاصـــــــي بُعــــــدو	إن قـــــولي بَعــــــــدو؟

قوله (والقاصي بعدو) ماذا فعل به؟ طواه وقَرَّبه (ﷺ) وهو يعني النَّاي أو البعد والمسافات البعيدة قرّبها وطواها ولكنه لم يقلْهُ، إيجازاً. وفي المقطع أكثر من مجانسة منها (بُعْدو وبَعْدُو) الأول الاسم ويريد به (الناي) والثاني الظرف.

ومن أبلغ إيجازاته وأجملها قوله في (طه الصفوح) (١٢٥):

مــــــن ذا النَّقُـــــول	قـولاً يقـر العـين يـسبي العقـول
يمـلا المـسامع بـي وفـق النقـول	فـوق الـشفيع يـوم الـنيران تقـول

النيران تقول ماذا؟ يقال لها هل امتلأتِ؟ فتقول هل من مزيد؟ ولاحظ الجناس الناقص ين (النَّقول) و (النِّقول).

ومن جميل إيجازه قوله (٥١٤):

صَــــلوات حيَـــاتي الهَـــازْ	بهـــا عنــــد الانتهَـــازْ
الخاتمــــة يَــــا مــــن هَـــازْ	يلقابَـــــا والجهَـــــازْ

أكمل وأطنب في الأوَّل وهو قوله (الهازبها) ويعني الصَّلاة، لكنه رجع فأوجز واختصر في قوله (يا من هاز) أي (يا من هاز بيك) ومفتخر ومعتمد عليك.

ونختم بدعوته اللطيفة لإخوانه (٤٠٩):

هَلُمُّـــوا إلـــيَّ راسِـــينَا	ولا تَبقُـــولِي تَارْسِـــينَا
نَـــصِيرْ مِـــنْ خِـــيرَا آيْـــسِينَا	ونَلُـــوذْ بـــالزَّال خَمَاسِـــينَا

يريد إخوة رزينين زاهدين لا تغرهم الدنيا فيقول لهم (خَلُّوا الترسي والجري وراء الدنيا) دعونا نؤيس من خيرها ونلوذ بالرسول (ﷺ) الذي أزال شدتها وعنفها يشبهها برياح الخماسين.. والشاهد أنه حذف الدنيا وقال (من خيرا) ولم يذكرها وهو من أسلوب القرآن.

استحالة الحذف والإضافة:

بلغ الشيخ حياتي من دقة الصنعة أنَّ شعره لا يقبل الزيادة ولا الحذف ولو في حركة واحدة ناهيك بزيادة الحروف والتقديم والتأخير أو إقحام حروف المعاني أو نقصها، كل ذلك مؤثر غاية التأثير تدركه الأذن المرهفة ويأباه المعنى الذي يعالجه الشيخ. والأمثلة لا

تكاد تحصى ذكرنا كثيراً منها في المباحث الماضية وسنجمع بعضها في ملاحظاتنا على الأخطاء والأوهام والتطبيع الذي وقع في الديوان في ذيل هذه الدراسة إن شاء الله.

وأبسَطُ الأمثلة التي أبدأ بها هنا هو تغيير الحركة، وقد مرَّ بنا قوله (٣٦٨):

عــــن قريــــب أرنــــي بكــــة والحجــــرا

وقد جاءت غُفْلاً في الديوان لم تضبط (الحاء) وقلنا إن الأوفق أن نضم الحاء فتكون (مكة والحُجره) فنجمع بين مكة والمدينة التي فيها الحُجرة الشريفة مضجع خير البشر (ﷺ). أما فتح الحاء وكسرها فإنهما يحصرانِ الرؤية في مكة وحدها لأن (الحِجْر) هو حجر إسماعيل وهو من أجزاء الكعبة في مكة (والحَجَر) هو الأسود وهو من الكعبة أيضاً ويأباه التزام السكون في جيم (الفَجرا، أَجْرى، الهَجْرا) بل وفتح ما قبل الجيم في الكلمات الثلاث، وهذا لزوم كامل.

ومنه قوله في (زاد عياي مالي طبيب) (٣٦٣):

أصْــــحَابُو خَــــاتْيينْ النَّقَــــقْ اسْــقُوا العِــدَا الحَنْــضلْ بَقَــقْ

خَلُّــــوهُمْ رَاقْــــدينْ شِــــقَقْ كَفُّــوا الطِّيُــور كَبْــدَه ووقَــقْ

هنا خطأ ظاهر في إسكان الميم من (خَلَّوهُمْ) كما في الديوان والصواب تحريكها بالضّم والإشباع (خلّوهُمُ) لابدَّ ليستقيم الوزن (مستفعلن مستفعلن). وقوله (كبده ووقق) لم يتجه عندي والوجه أن يكون (كبداً وِقَقْ) لتتناغم مع (شِقق) وليستقيم المعنى وهو يريد كبداً زِنَتُه ثقيلة (بِالْوَقَّه) وهي وزن قديم معروف عندهم وجمعها (وِقق).

وفي الشطر الثاني وردت لفظة (بَقَقْ) وضبطت بالفتح وهذا لا يتجه إلا إذا أراد اسم الصوت من (بق يبقُّ) إذا كرع وتجرّع. ولو ضبطت بضم الباء لأصبحت (بُقَق) جمع (بُقَّه) وهي الجرعة ولا يَبْعد عندي أنه أرادها.

ومن أمثلة التقديم والتأخير التي أخلت بالوزن ولا أراها من عمل الشاعر ما جاء في (برق العقيق عبعبا) وصورته (١٠٢):

أعــــلا الرُّسُــــل منْــــصبَا مَنــــصُور بــــالروع والــــصبا

كَــــمْ كَــــمْ أبْــــرَا مُوصَــــبَا والمُــــدْمي واللِّنــــصَبَا

وعلى هذه الصورة لايستقيم وزن الشطر الثالث، ولا يستقيم إلا بتقديم (ابرا) لتكون بين (كم وكم) فيقال: (كم أبرا كم موصبا) وبذلك يستقيم الوزن (مستفعلن فاعلن) ويصح المعنى.

ومثلها قوله في (عيب شبابي الما وِصِل) (٢٨٩):

جُــــودْ بالـــدّراهِمْ والأكِـــلْ	والـــرُّوحْ فَـــلا تـــسْأم تَكِـــلْ
لا تَنْيَـــا حَـــالْ فيـــكْ تَنْحَكِـــلْ	تَحْتَـــالْ عليـــكْ بـــي كُـــلْ شَـــكِلْ

تَحْـــــلا لَـــــكْ تَعُـــــودْ بالنَّكِـــــلْ

الاختلال في الشطرة الخامسة، إذا لا تصح بهذا الترتيب وإنما تستقيم إذا قدمنا الفعل (تعود) على الجار والمجرور (لك) فيكون ترتيب الشطرة:

تحلا تعود لك بالنكل ـ مستفعلن مستفعلن

وفيها شيء ولكنّه أقل مما في رواية الديوان.

ولواو العطف خطر كبير في الديوان، فإن خروجه من السياق أو إقحامه فيه بغير وجه يمثل نشازاً بيِّناً، منه قوله في (محي الرُّفات) وصورته كما في الديوان (٤١٥):

يَـــا جَمِـــعْ في الـــصاغيات	والعيـــــون والرائيـــــات
في الرســـــل روح الحيـــــاة	مثلـــو جـــا أو تـــاني يـــاتي؟

أبداً والله لا جا ولا بجي..ولكن موضع الاستشهاد هنا هو (العيون والرائيات) هذه الواو التي في الديوان مقحمة، لأن (العيون والرائيات) شيءٌ واحد. مثلما نقول (في سماعاتك ودماعتك وفي نظرك) وهكذا.

والواو التي أقحمت هنا نقصت في المربعة التي سبقت هذه في القصيدة نفسها وصورتها في الديوان (٤١٥):

الوضـــــوعُ الكائنـــــات	زانَ حَفَّـــلَ يـــا غُنَـــاتِ
دمّـــــر أديـــــان الـــدُّنات	عُبَّـــــد الـــلات المَنَـــاة

فالواو هنا ضرورية بين (اللات والمناة) لأنهما شيئان وليسا شيئاً واحداً كما قال تعالى (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ❖ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى) نقص الناسخ واواً هنا وزادها في المقطع السابق ولو عكس لاستقام الأمر. ثم لو كان الأمر لي لرسمت هذه المربعة هكذا:

الوضـــــوعو الكائنـــــاتِ	زانـــا حَفَّـــلا يـــا غنـــاةِ
دمَّـــــر أديـــــان الـــدُّناةِ	عُبّـــــد الـــلات والمنـــاةِ

لأن (غناة ودناة) جمع تكسير، المفرد من الأول (غاني) مثل (قاضي) والمفرد من الثاني (دنيء).

ومما جاء صحيحاً في الديوان ويحرِّفه المؤدون قوله (٥١٥):

زورة كِـــــسَا والبيـــــت	هَـــــبْ لـــــيّ والتثبيـــــت

وينشده المادحون (زورة كساءَ البيت) وهذا غير مستقيم لأنه يجعل الزورة لمكة فقط بل يجعل الزيارة لكساء البيت وهذا بعيد إلاَّ على سبيل المجاز المرسل.

والصحيح كما في الديوان (زورة كسا والبيت) أي زورة كساءه المطروح على قبره في الحجرة الشريفة أطلقه وأرادها. ليجمع بين مكة والمدينة. وهذا كقوله في الديوان وأخطأه الناسخ (١٢٦):

عِيــلْ صَــبْرِي مَتَــى الْحَلَــلْ لِــــيْ مكـــــة أمْ قُلَــــلْ

هكذا، فينحصر الحل في زيارة مكة وحدها لأنَّه جعل (أم قلل) بدلاً منها ووصفاً لها..ولا يصح ذلك ولابدّ من الواو ليشمل مكة والمدينة أم قُلَّة أو أم قلل، ومشهور الكنية للمدينة لا مكة فالصواب إذن (لي مكه وام قلل). إلا أن يكون أراد بالقُلل (الدوارق) فهي فيهما معاً.

ومنه هذه الواو المقحمة في قوله (٥٥٢):

تَقْــرِي الــسّلام وا حجــارُ والمــــــستجيربُو أجـــــارُو

فالواو هنا مقحمة والمراد (تقريه السَّلامَ أحجارٌ). ولابد من حذف الواو حتى لو ظن معتسف أن المراد (السِّلام) وهي الحجارة فإنه لا يصح لأنه يعطف الحجارة على الحجارة وهذا محال.

ومن المواضع الدقيقة البديعة قول الشاعر (٢١٠):

مــنْ العجايــبْ ســبقْ الــضرايبْ قُــلْ والوجايــبْ والخَــرَّ وآيــبْ

قوله (الخَرَّ وآيب) لا يحتمل حذف الواو بتاتاً، لأنّه يريد القمر الذي خَرَّ نازلاً ثم صعد وحذفك الواو مُرْبِكٌ ومحيل للمعنى، إذ كيف يخرُّ صاعداً، وإنّما يخر نازلاً، فتأمله!

وقد شرحت في تداعي المعجزات كيف وقعت الواو موقعها في قوله (٢٢٨):

وصـــاع جـــابر نمـــو، وقـــدرو وشــــــاتو ابنــــــا ودارو أدروا

أراد نمو صاع جابر، والقدر والشاة والأبناء والدار فهذه الخمسة وكان حين ذكر أربعة جابر وخمسة جابر كأنما تناقض وقد بينت هناك ألا تناقض فاطلبه في باب المعجزات.

وأختم بخطأ دقيق وقع فيه الناسخ في موضعين من الديوان لأدُلَّ على أن ما يريده شاعرنا فليس لنا أن نجتهد في تغييره لأنه دارس مستوعب يعي ما يقول ويعرف متى يقول وكيف يقول. أعني قوله في (من سوح صفوة الرحمن) (٢٢٧):

بـــي ليـــل كـــز في الأصـــم وأصـــب وأعــــلام الهــــدى نَــــصَبْ

وميــــــزاب المــــــراحم صَــــــبْ وكـــم بالراحـــة أبـــرى وَصَـــب

رسم لفظة (الهدى) مقصورة هكذا يخل بالوزن هنا، وقد ذكرت في مبحث الضرورة أن الشاعر يجوز له قصر الممدود ومدَّ المقصور إذا احتاج، ولا يستقيم عروض هذا البيت إلاّ بمدِّ (الهدى) لتكون (الهُداءِ) مثلما مدّ كلمات كثيرة احتياجاً. ومثلها وأختُها، وقد ذكرتها في المبحث المشار إليه، قوله في الديوان (٥٥):

في الـــــــدُّجَى نَبَـــــــلْ البريـــق قلـــبي والـــدمع أســـبل

وقلت هناك إن القصر هنا يُخِلُّ بالوزن، ولابُدَّ من مدّ (الدجى) ولكنها رخصة للشاعر رغم أنّها مخالفة صرفية. اقرأهما الآن ممدودتين ولاحظ الفرق والاتزان.

وهكذا يطول هذا المبحث، الذي أردت أن أُنبِّه فيه إلى دقة الشيخ في صياغاته التي لا تقبل الاجتهاد. وقد رأيت أننا صححنا كثيراً من الأخطاء بناءً على لزومياته. فهذا بناء منتظم؛ الزيادة فيه أو النقص منه يؤدي إلى خلخلةٍ لا يقبلها تماسكه الذي رسمه مهندسه رحمه الله وأحسن إليه ونفعنا بما قدَّم.

أوهام المادحين المؤدِّين:

أعني بالمادحين: المؤدين الذين يتغنون بالمدايح، هذه الفئة المهضومة الحقوق، ثبّت الله أجورهم. وقد كان أكثرهم يتلقى نصوص قصائد المديح بالسماع. ومعلوم أنّ الشعر عامة وشعر المديح بوصفه من الأشعار الجليلة المتعلقة برسولنا (ﷺ) وبديننا، يحتاج إلى التّلقي بالتلقين ومراجعة الأصول المكتوبة. لأنّ السمع يخونه تداخل الحروف وعدم إبانة بعض الناطقين فيتناقل الناس بعض الأشعار بما فيها من أخطاء تُغلق معاني النصوص وربما حملت بعض فساد الاعتقاد دون قصد. وأولى دواوين شعراء المديح النّبوي بتنقيته مما وقع فيه هو ديوان الشيخ حياتي وذلك لدقة صياغاته كما تقدم في هذا الباب، وأسوق هنا طرفاً من الأوهام، وأولها قولهم (٣٥):

الـــــــــصَّلاه الغابْطَـــــــــــه تمحـــا أوزاري اللّـــي العمـــل حَابْطَـــه
لـــيْ حيَـــاتي تَـــسَوْ كُـــلْ يـــوم رابْطَـــه مِـــنْ مَواهـــب الخـــير والحَـــسُودْ (ناطـــه)

هكذا ينشدونها (نَاطّه) أي تتجاوز الحسود، وهو معنى جيد لكن الأجود قول الشاعر (نَابْطَه) لأنها يفرضها علينا التزام الباء قبل الطاء في جميع الأشطار ولأنّ (النبط) أقوى من (النط) والنبط هو الركل والضرب والإبعاد.

وسمعت بعض المؤدين يقولون (١٦٨):

أمـــــدح مـــــدحاً حـــــسن (يـــــزن) الـــــدر الحـــــسَن

وهو معنى لا بأس به، ولكن الشاعر قال: (يُزْري الدر) أي يستخف به ولا يساوي معه شيئاً وهذا أمدح لتفوّقه على الدر.

ويقولون في أختها(١٧١):

فــوق مـــن أمَّـــن لـــي الجــدر آمـــــن وأتـــــى البـــــدر

لم يرد في السيرة أن الجدار أو البدر (آمن) أحدهما، وإنّما الرّواية كما في الديوان:

فـــوق مَـــنْ مَـــنْ لـــي الجــدر أَمَّـــــن، وأتـــــى البـــــدر

غاية الدقة واستقامة المعنى، كرر اسم الموصول (من) وهذا أسلوب عنده يَتِدُ به الكلام ويقويه، فهو يقول الأمداح النفيسة فوق مَنْ (أَمَّن) له جدار الكعبة وبذلك يستقيم الكلام ويصحُّ الاعتقاد.

واقرأ معي هذا المقطع وتذكَّر ما سمعته من المنشدين، أعني قوله (٣١٦):

هـــــاني الــــذِّنُوبْ أرْدَنّنِـــــي مِـــــنْ الْعَمَــــلْ أَبْطَننِّـــــي

جَاهِـــــلْ حَقِيقَتِـــــي يَظُنَّنِـــــي عَلـــي شِـــي، وخَلـــي، لَكِنَّنِـــى

مَـــــــادْحَ الْمُكّـــــــــرَّمْ إنَّنِـــــــي

ينشدها بعضهم (جاهل حقيقتي أظنني) وحاشا الشيخ فإنه من المرحومين الذين يعرفون قدر نفوسهم. وتلخيص معنى البيت: ها أنا أردتني ذنوبي وأخرتني عن العمل الصالح. فالذي يجهل حقيقتي يراني فيظنني على شي أي يظن في الخير. وأنا في حقيقة الأمر خالي من الخير. لكنني أعتمد على (الشِعبة القوية) وهي مدح الرسول (ﷺ) أكرم به وأنعم. وليس ذلك إلاَّ من باب هضم النفس.

ويقول الشيخ في بقية القصيدة (٣١٧):

فـــكَّ الغَـــزَالْ واللِّنْعَطَـــبْ عَـــاد الــــشَّمِس واللِّنْـــشَطَبْ

والْمُنْقَبِــــــرْ واللِّحْتَطَـــــبْ ثُـــمَّ العِيـــونْ والْمبلـــي طَـــبْ

بعـــــدْ الكتـــــاب قلمِـــــي انــــشطبْ

وسمعتها من بعضهم: (ثم العيون المايله طب) وإنما أراد أن الرسول (ﷺ) طَبَّ وشفى المبلي أي المريض المبتلى. وقد يكون أراد اسم الصوت، فاطلبه في مبحث الأصوات.

وفي مقطع الافتخار الحق بخدمة الجناب يقول الشيخ عليه رحمة الله، (٤٦٤):

والجَـــاه العَمِـــيمْ فُـــوق سِـــيدُو بتْخْتَّـــرْ إنْ كَـــان طايْعَـــاً أوْ عاصِـــيَاً أَشْـــتَرْ

مِـــنْ شَـــانْ انْحَـــسَبْ غَنَّـــايُو يَـــاهَ، انْتَـــرْ مِـــنْ حَـــالْ البَطَـــرْ والله مَـــا بنْتَـــرْ

غَنَّـــاي الْمِلـــوكْ فيْ الـــدُّنيا مَـــا ادَّعتَـــرْ   جَلُّـوا وأَكْرَمُـوا كرَمـاً ولـو أَبْتَـرْ

إيـــشْ حَـــالِي أنَـــا الْمِـــنْ قُمْـــتَ مـــا فَتّـــرْ   مِـــنْ عَـــالي الجِنَـــابْ خَـــدَّامُو اتْكَنْتَـــرْ

اللهم إنَّا على دربه (متكنترون) في خدمة الجناب فضمُنا في سلكهم! والشاهد هنا قوله (ياهَـا، هـويْ، أختـاني، انـتر مـن طريقـي، أبعـد) أنـا والله لا أتراجـع ولا (أنْـترّ) مـن حـال البطـر والفخر بالنبي العظيم. وربما قال بعضهم (بتبختر) وحذف الباء الثانية أدقُّ وأوفق.

والمنشدون يظنونها (هَنْتَـر) ولـيس ههنـا هـنتر ولا عـنتر. إنمـا هـو زجـر وتحـذير مـن اعتراض طريقه الذي لا يثنيه عنه شيء.

ويقول المنشدون في هذه القصيدة أيضاً:

والحـــوضْ ابْ كـــؤوس عـــدد النجـــومْ لـــيكُمْ

وتبدو رواية المادحين أوقع في الحقيقة، ولكني لا أدري كيف هي في أصل الديوان؟

وربمـا توقَّـف بعـض المنـشدين مـن لفظـة (الفَـرَق) الـتي عنـى بهـا الـشيخ سـيدنا عمـر ويظنـون أنهـا (الفـاروق) ولكـن عبـارة الـشيخ سـليمة صـحيحة فهـو الـذي (فَـرَق) بـين الحـق والباطل؛ وذلك في قول الشيخ (٤٦٧):

قُـلْ يَـا فَمِّـي لـيهُمْ بَـشكّرْ الأحْـرَارْ   صِـــدِّيقْ والفَـــرَقْ عُثمـــانْ عَلِـــي الْكَـــرَّار

وهي كثيرة جداً عنده، كما في قوله (٤٨١):

صـــــدِّيقْ والْفَـــــرَقْ عثمـــــان وكـــــرارُم

وفي قصيدة (قل يا فمي ليهم وشكر السادات) وهـي مـن روائـع القلاقـل، سـائرة مـسموعة جاء فيها قول الشيخ كما في الديوان (٤٨١):

واب ســـم والحـــصى والـــضب بكَـــى جَزَعـــاً

وهذا لا يستقيم، وإنما الصواب (بُكَا جِذْعاً) لأنّ الضّب أقرَّ برسالة النّبي (ﷺ) ولم يُؤثْر عنه بكاء، وإنّما الذي بكى هو الجذع.

وفي (الجيـدين) وهـي مـن أسـير القلاقـل بعـض الملاحـظ، منهـا قـول الـشيخ كمـا في الديوان (٤٨٨):

بحبـــوح الخُلُـــق لـــي الأيمـــا والمـــالكين

والمسموع (بحبوح الفخار) ولا غبار، فرسولنا بحبوحة كل شيء (ﷺ) وإنمـا الوقفـة هنـا في قوله (الأيما والمالكين) التي ينطقها بعض المادحين (الأئمة والمالكين) ولا معنـى للأئمـة هنـا

مطلقاً وإنما أراد (السِّيد والبي سيدو) والمملوك والمالك وقد يكون مراده المُمْلِك وغير المُمْلِك، أي المتزوج والعَزَب.

وفي القصيدة أيضاً قوله (٤٨٨):

يومْ بَدْرٍ كَمَانْ في يُومْ أُحُدْ حَارِينْ   ما يحيرْ العِقُولْ، يَا مُنْصِتِينْ قَاصْرِينْ

تسمعها عند بعض المؤدين (حايرين)، أولاً: اللزوم يمنع من ذلك لأنَّ المقطع على طوله ملتزم فيه المقطع (رين) غير مسبوقة بياء في قوافيه الثلاث عشرة. ولا يقول الشيخ (حايرين ما يحير) وإنما هو (حارين ما يحير) أي متوقعين وعارفين وخابرين أشياء تحّير العقول. والحاري مُتعَشِّي.

وقال قبله (٤٨٨):

وأنْبَا الْمُصطفَى ابْ سمَّاً في مَخْبِي دَفِينْ

ومعناه: أن أب سماً مدفون ومخبأ أنبأ المصطفى بهذا المخبأ فيه.

وبعض المادحين يقول (أنبا المصطفى بي اب سم في مخفي دفين) والبلاغة والمعجزة أن ينبئ الذراعُ المصطفى، لا أن يخبر المصطفى بما في الذراع، لأنه (ﷺ) قال (إن هذه الذراع تخبرني أنَّها مسمومة) في واحدة من روايات الحديث صلى الله (على من نطق ليه الذراع) لأنَّ نطق الذراع هو المعجزة وإنْ كان إخبار النّبي بأنها مسمومة قبل أن يذوقها أيضاً إعجاز. ولكن المعوّل على الرّواية واللَّفْت إلى دقَّة الشيخ في الأداء اللّفظي والمعنوي.

ومن قصائد الشيخ السيارة قصيدته (نعم الحدا وبابا) وفيها (٤٩٦):

ارْجَعْ يَا بَطِي يَا وَلْدَة التَّابَه   أعْيَا سيئاك الصُّحْف كُتَّابَا

وهذا لعمري أسلوب عربي فصيح بليغ معرب، يريد أعيا قولك وعملك السيئان كُتَّاب الصُّحف وهم الملائكة، وجاء بها على البدل. ويحلو لعامة الناس أن يقولوا: (أعيت سيئاتك) ولا غبار عليها ولكن الرواية والأسلوب البليغ أولى.

وفي القصيدة نفسها قول الشيخ (٤٩٦):

سَوّى الصَّالحاتْ ما فَازْ لَهَا اليَابَا

وهذا على التقديم والتأخير، أي سوي الصالحات التي ما فاز من يأبى لها أي مَنْ يأباها.

والمسموع (فازوا بها الآبا) ولا غبار عليه في المعنى ولكنه يخل بالتزام هذا الرجل الملتزم، فالأشطار الأربعة أتت على (يابا) وقولهم (آبا) فيه خروج عليها.

وفي رائعته (من مكة ليل ناجيت) يقول الشيخ (٥١٥):

زَوْرَة كَـــــسَا والبيـــــــتْ		هَـــــبْ لِـــــيّ والتَّثْبيـــــتْ

وقد مرَّ بنا هذا البيت، وأردنا أنْ نذكر أنَّ قول المادحين (زورة كساء البيت) ضعيفة من حيث حصر الزيارة على مكة وحدها. ثم لا أحد يزور كساء البيت إلا أن يحمل على المجاز المرسل وهو بعيد. والوجه هو (زورة كسا) (والبيت) أي زورة قبره وكساءه وذلك بالمدينة، وزورة البيت بمكة فتكون رواية الشيخ قد جمعت الحُسنيين زيارة المدينة ومكة.

وفيها أيضاً قوله (٥١٦):

وأحيالــــــك الميـــــــت		والــــديك يــــا الــــسميت

وهذا في خبر إحياء المولى عزّ وجل لوالديه وإيمانهما برسالته كما حكاه وألف فيه بعض الفضلاء من آل دحلان. غير أن المادحين يقولون: (أحيولك المميت) وإنّما المحي المميت هو الله تعالى، فالمميت جل وعزّ هو الذي أحيا للنبي أبويه. فالرواية (أحيالك المُمِيت والديك).

وهنالك أشياء عديدة يتعب تقصيها، أعرض عنها مكتفياً بما مرّ هنا والعبرة فيه أن رواية الشعر تحتاج إلى التلقين والمشافهة ثم مراجعة الأصول المكتوبة. وأن الاعتماد على السماع فقط يوقع في الوهم وكذلك الاعتماد على المكتوب وحده لايؤمن فيه التصحيف والتحريف. وسقنا كل ذلك تمثيلاً واستشهاداً على دقة الشيخ في مبانيه ومعانيه رحمه الله ونفع به.

الضرورات

الشعر موهبة وملكة وهو فن لا يحسنه كلُّ من يركبه ولذلك قال أحدهم:

الشّعر صعب وطويل سُلَّمُهْ
إذا ارتقى فيه الّذي لا يعلمُهْ
زلَّتْ به إلى الحضيض قدمُهْ

والشعراء أبصر بمزالق هذا الفن من الهدهد بمواقع المياه. ومع ذلك تنغلق عليهم مسالكه وتضيق دروبه حتى يضج أحدهم كما قال الفرزدق (لخلع ضرس أهون عليَّ من وضع كلمة في قافية). ومن هنا قالوا: (يجوز للناظم والشاعر ما لا يجوز للكاتب والناثر) وأصل الضرورة أن يحتاج الشاعر فيضيف ويحذف ويغيِّر ويبدل ولكن بمقدار، وقد صنفوا في ذلك المصنّفات كضرائر ابن عصفور ونحوها. والضرورة في الشعر كالرُّخصة في الفقه لا يقدم عليها إلا فقيه. وارتكاب الضرورة دليل على قوة ملكة الشاعر واكتمال أدواته. ولا يخفى على الناقد ما يأتيه الشاعر اضطراراً أو ما يقع فيه خطأً.

والمتتبع لديوان الشيخ حياتي يلحظ قدرة فائقة وتفنناً مذهلاً وضبطاً كاملاً ومع ذلك اضطره النظم فركب أشياء لم يخرج بها عن سنن العربية ولا تُعدّ ضعفاً في ديوانه ولا نقصاً في ميزانه. بل ربما أعجبك مجيئها على الصورة التي أتى بها على الرغم من مخالفتها لمعهود الكلام ولكنها لم تخرج عما تقدم.

ومن ضرائر الشيخ حياتي مدّ المقصور وقصر الممدود وفك التضعيف وحذف حرف وإضافة حرف وغير ذلك مما هو مألوف في كلام العرب.

أما مدّ المقصور فقد وقعت منه في الديوان ألفاظ، نحو قوله (٤٠):

أَرْضَا بي قِرَاهُ قَرَّ عينو وسِرُّو المخبي أوراهُ
عزَّ علياهُ مَا لفخراهُ منتهاءً لا كيف ندراهُ

فقوله (منتهاءً) أصلُه (منتهى) بالقصر ولكنه احتاج فمدَّ الألف المقصورة وزاد همزة حتى يستقيم الوزن. وقال في أخرى (٥٥):

في الدُّجَاء نَبَلْ البريق قَلْبي والدمع أسبل
واضرم النيران في حشاي بلبلْ لو سقوني التَّلْ كبدي مَا بْتَنْبَلْ

فقوله (الدجاءِ) كما نسمعها عند المادحين – أصلها (الدجى) وهو رسم الديوان وهو خطأ كما سنبينه في موضعه إن شاء الله. ويؤكده ويصححه تكراره في قوله (٢٩٣):

جُـــنْح الــدُّجاء ضَــوَاحِكاً		لامَحَــــتَهن عَينَـــي بَكَـــنْ

أراد (الدُّجى)، والوزن يقتضي أن يضع الممدود مكان المقصور كما مرَّ، وأشباهه كثير؛ ولكن قبل الاستفاضة فيه، وقعت في هذا المقطع ظاهرة أخرى هي أشبه بالضرورة ولكنها أدخل في باب الأصوات وهي قوله (التَّلْ) يريد به: (الثَّلج) فحذف الجيم، وضَمَّ هذا إلى (القُطْعةِ) كما بينته في باب الأصوات أولى لأنَّ من عادة العرب أن يحذفوا من الكلمة حرفاً أو حروفاً في غير مواضع الاضطرار ومنه في السودان (الشم خوَّخت) والمراد (الشمس) ومنه قول بعض عرب الحاضر (سم) وهم يريدون (سمع). وقالت العرب (يا أبا الحكا ويا حار) يريدون (يا أبا الحكم، ويا حارث) ووجه عليها ابن جني في المحتسب قراءة من قرأ (يا مالِ ليقض علينا ربك) وأصلها (يا مالك) وهو خازن النار. وهذا عند الجعليين والرباطاب شائع.

وقال في قصيدة أخرى (١٣١):

ولاكـــين فـــوق قـــادتي الأُمَنَـــاءِ		حَطَطْـــت أحمـــالي ونلـــت مُنَـــائي

أراد (مُنَايَ) وأصله (منى) أضيفت إليها ياء المتكلم كما قال تعالى (هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا...) [طه: ١٨] ولكن الشاعر احتاج فجعلها اسماً ممدوداً (مناء) ثم أضاف إليها الياء.

وجمع في قصيدة واحدة نحو ستة ألفاظ من هذا الوادي في مقطعين وذلك قوله (٥٣٥):

بـــدر الـــسماءِ وهمُـــو المـــاءِ		ونَبْـــع الـــيَمِّ لاهَـــلْ الظَّمـــاءِ

شُـــــوف ذُو العمـــــاءِ وذوي الـــــصماءِ

طُهـــر الثـــراءِ وشـــوف الـــسراءِ		مَـــوْلى الخلائِـــق بـــالعين رائـــي

غَيْـــــر افـــــتراءِ نَـــــال القـــــراءِ

فالظماء والعماء والصماء والثراء والسراء والقراء كلها مما اعتراها التبديل والتغيير، فالظماء أصلها (الظمأ) مهموز بحركة قصيرة فطوّلها الشيخ. وأصل (العماء) هو (العمى) وأصل (الثراء) هو (الثرى) وهو التراب والأرض. وأصل (القراء) هو (القرى) وهو ما يقدم للضيف من زاد. أمَّا (الصماء) فهو (الصمم) وهو فقد السمع يأتي دائماً مرافقاً للعمى (فَعَمُوا وَصَمُّوا). وأما (السراء) فهو (الإسراء) فوقع التغيير في أوله ولكن المعنى واضح لأنَّ المادة كلها تقوم على السير ليلاً فيكون (إسراءً وسُرىً).

أمَّا عكس ذلك وهو قصر الممدود فقد وردت منه أيضاً ألفاظ أكثرها قصر كلمة (الماء) لتصبح (ألما) ومنها قوله (٥٩):

نَــــــــــاهِي الأَمْــــــــــــــرِ قُوتُــو كــان شــهرين المَــا والتمــر

لم يَعــب زيــداً قــط ولا عَمْــرِو والطعــام، لم يغـضب وحــاة عُمْــري

(المـا والتمر)، الماء والتمر وهو من الحديث الصحيح. ومنه أيضاً أنه (ﷺ) ما كان عياباً لأحد ولا لطعام، إذا اشتهى الشيء أكله وإن لم يشتهه تركه كما هو، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

وورد لفظ الماء مقصوراً أو بالاستغناء عن همزته كثيراً في الديوان كقوله:

والقــدر والــصاع والمَ حــل والنخــل واخــصاب المحــل

أراد قِدْر جابر الأنصاري وصاع الشعير، وتحليته لماء البير وهو كثير.

وقصر الممدود ومدَّ المقصور كثير في كلام العرب منه قول الشاعر وأظنه حساناً:

بكــت عــيني وحُــقّ لهــا بُكاهــا ومــا يغــني البكــاء ولا العويــل

فقصر البكاء في الشطر الأول (بكاها) ومدَّه في الشطر الثاني على وجهه. وأما مدّ المقصور فشاهد أهل اللغة عليه:

كـــــان الزنــــــاء فريـــــــضة الــــــرجم

وأصله (الزنى) بالقصر فمدَّه اضطراراً بل اضطر فقدم وأخر في الكلام لأن أصله (الرجم فريضة الزنى) أي عقوبته المفروضة فيه.

وقريب من قصر الممدود ومدّ المقصور إطالة الحركة أو تقصيرها في وسط الكلمة فالعرب تقول (الطلل) و (الطلال) بمعنى واحد. ووقع منه في الديوان شيء كثير منه قوله (٤٠٧):

لــين كفــو فــاق لــين العلــج وابــرا المــريض مــن غــير علــج

فـ(العلج) الأولى نوع من ثياب الحرير كان معروفاً في السودان، أمَّا (العلج) الثانية فأراد بها (العِلاج) فاضطرته القافية إلى حذف الألف.

وفي هذه القصيدة شيء كثير مما نحن فيه منه قوله (٤٠٧):

أدْعَــــجْ كَحِيـــــلْ مُــــنِح الـــــزَّجَجْ نَــــــافِي الغَــــضَبْ نَــــافِى الْلَجَــــجْ

رَامُــــو النفُــــور يَطْــــوِي الفَجَــــجْ عَــــافَى الكــــسير حَــــلَّ الأَجَــــجْ

فقوله (نافي اللجج) يعني نافي (اللجاج) وهو الخصومة والجدال. ويطوي (الفجج) أراد (الفجاج) وهي جمع (فج) و(حلَّ الأجج) أي جعل (الأجاج) المالح حالياً عذباً.

ومنه أيضاً ما أتى بعكس ما تقدم أي بإطالة الفتحة حتى تصير ألفاً محضة كما قال (٦٣):

تفلْـــــــــو مرهـــــــــامِ   واعـــذب المالحـــات قَـــرَّ بـــي الهـــامي

أراد تفله (مرهم) وهو ما يوضع على الجرح من دواء معروف، احتاج فزاد فيه ألفاً فقال (مرهام).

وربما قلب الشيخ الألف المقصورة تاءً وقد ورد عن العرب (الأَوَّلَة) في مكان (الأُولَى) وعليها قول الشيخ (٤٠٠):

جِـــدْ لـــيّ أضْـــعَافْ كَـــرَّة   بِـــأبِي البَتُـــول والزَّهْـــرَةِ

فِـــــي الدُّنْيَـــــة والأخْـــــرَةِ

وقال في مقطع لاحق (٤٠٠):

وتَـــشْيِيع جَنَـــازْتِي بِبُكْـــرَةِ   الجُمْعَـــة يُـــوم عَاشُـــورَةِ

فالزهرة هي (الزهراء) و(الدنية) أصلها (الدنيا) و (عاشورة) هي (عاشوراء) فجعلها كلها بالتاء مسايرة للقافية إذ التزم في القصيدة كلها التاء المكسورة.

ومما يدخل في باب حذف الحرف أو إضافته، حذف الياء من الكلمة أو إضافتها إليها اضطراراً، ومثال الأول الفعل (ليس) الذي يأتي عند الشاعر محذوف الياء كثيراً على الرغم من أن إثبات الياء على الإمالة ما كان يضير الوزن ولا المعنى ولكنه أَلِف حذف الياء في مواضع كثيرة جداً منها قوله (١٧٣):

وبِمَـــــاءٍ لَـــسْ ربُـــوبْ   أرْوَى أصـــحابُو الغِبُـــوبْ

يعني (بماء ليس كدِراً أروى أصحابه الغابّين أي الذين لم يشربوا منذ مدة. وقوله (١٤٠):

النُّـــــــــــوابْ   صـــحبُو الـــسَّيفا لَـــسْ هـــوابْ

أصحابه الذين ينوبون عنه، سيفهم ليس هيَّاباً للأعداء.

وقال(١٤٨):

الكَـــــــــــشَّافِ   كَـــرْب الأُمَّـــه، لَـــسْ كَـــشَّافِ

لـــي عيوبـــا، ولهـــا نَـــشَّاف   يـــا زيـــد، وكَرْبَـــكْ شـــافِ

وتأمل التداخل العجيب هنا ..وانظر أثر الفواصل في توضيحه. فالرسول (ﷺ) هو الكشاف لكرب الأمة وهو ليس كشَّافاً لعيوبها، بل ينشّفها بمعنى يمحوها من قولهم: (الإناء ناشف) أي ليس فيه شيء.

وتكررت في قوله (٣٩٢):

قَـلَّ الـصَّلاه ابْ جاهًـا عَمِـيمُ   سَـقَى قُومـو مَـاءً لَـسْ حَمِـيمُ

فأنت تراه حذف الياء من (ليس) في كل النماذج السابقة ولو ترك الياء وأمال كسرة اللام لما اختل نظامه ولكنه استحلى الحذف واطرد عنده.

ومما حذف منه الياء وهي في أصل بناء الكلمة قوله (٣٥٤):

مَـا حَـلَّ بِالغَـارِينْ طَبْعـاً رسَـخْتُ   مَـا فِـي الحُدَيْبِـة تَبُـوكْ عَـنْ سَـادَة شِـخْتُو

يعني ما كان في غار حراء وغار ثور أثبتُّ لكم حقيقته، وما رويته لكم عن الحديبية وتبوك أخذته عن السادة من شيوخي، فقال (الحديبة) وحذف ياءها وأصلها (الحديبية) بياء قبل الباء وبعدها. اضطره النظم إلى ذلك.

وحذفها أيضاً من قوله (٤٠٠)

وأَعْطَـــاهُ مِـــنْ غِـــيرْ كَمَّـــةِ

فهذه إما من (الكميَّة) فحذف ياءها المضعفة أو أنه زاد التاء إلى كلمة (كم) فصارت (كَمَّه): أي أعطاه من غير (كَمٍّ) ولا حساب، وكلاهما متّجه فتأمَّلْه.

وفي الميمية التي استشهدنا ببيت منها آنفاً عَكَسَ فزاد الياء في بعض الكلمات منها قوله (٣٩٢):

يَبْـرَا الغَمَـامْ والـصِّيدْ يَـرِيمُ   ذَاتْ الرَّسُـول، مَلَـكْ الغـرِيمُ

اسْـــتَأذَنَا وأَتَـــى مُحْتَـــرِيمُ

فذات الرسول (ﷺ) استأذنها ملك الموت حينما جاء ليقبض روحه (ﷺ) فقد ورد في الآثار أن من خصائصه أن ملك الموت خيره في البقاء أو الانتقال فاختار الرفيق الأعلى وهذا ما لم يعرف عن رسول غيره (ﷺ).

والشاهد هنا قوله (محتريم) وأصلها (محترِم) بكسر الراء أي أتى مُحْتَرِماً لها مستأذناً منها. فلما كانت القصيدة كلها مبنية على لزوم الياء والميم أضاف الياء في (محترِم) ليصبح (محتريم). ولو تركها لأطالها المؤدون في الترنيم ومطل الحركات الذي يكون مع الإيقاع واللحن والتغني والتطريب.

ومن الضرورات الملحوظة في الديوان فكّ التضعيف، أي أن يكون الحرف مشدداً فنعيده إلى الأصل فقد كان حرفين أولهما ساكن مثل (حَجَّ) فنقول فيها (حَجَجْ) ومثلها شدّ ومدّ ونحوها. ومن ذلك قوله (٣١٧):

النَاسْـخَة مِلّثُـو لِـي المِلَـلْ — الـشَرْعُو خَـالِي مِـنَ الخَلَـلْ

عَلَـى صِـرَاطْ الحَـقْ دَلَـلْ — حِلْمُـو بيَـسَعْ أهَـلْ الزَّلَـلْ

نَـالُوا بِـهِ النَجَـا والحَلَـلْ

وقوله (٣٩٩):

مَهْـدِي وهَـدَى مَـنْ قَـدْ ضَـلَلْ

فقوله (دلل) و (الحلل) و (ضَلَل) هي ما نريده هنا إذ أصل الأولى (دَلَّ) وهو فعل ماض، وأصل الثانية (الحلُّ) وهو الخلاص، وأصل الثالثة (ضَلَّ) ففك تضعيفها كما ترى وأعادها إلى أصلها الصريح الأوّل.

وعليه قوله في صفة الصديق رضوان الله عليه (٤٥٠):

قَـدْ قَـالْ الرَّسُـولْ مَـنْ لِـي الوجُـود سَـبَبْ — مـا انْـصَبْ فِـيَّ شَـيْ إلاّ فِـي صَـدْرُو صَـبَبْ

نِعَـم أبَـا بَكِـرْ فَـازْ مَـنْ إليـه حَبَـبْ — وَيْـل اْليَبْغَـضُو رُمِـي فِـي جَهَـنَّم بَـبْ

وههنا ثلاثة شواهد في (صَبَبْ) و(حبب) و(بَبْ). أما الأولى (صَبَبْ) فسيأتي الحديث عنها وإن كانت تشبه ما نحن فيه، وأما الأخيرة (بب) فهي مفصّلة في باب الأصوات، وأمّا اللفظة المرادة هنا فقوله (مَنْ إليه حَبَبْ) أي من (حَبّ له) أي أحبَّه، فلم يقل (حَبَّ) ولكنه فك تشديدها فقال (حَبَبْ). ومثلها قوله (٣٠٧):

اْللَيلَـه لاَحْ بَرْقَـاً خَبَـبْ — رَمَـى قَلْبِـي بِـي نَبْلاتُـو بَـبْ

فقوله (خَبَبْ) أي (خَبَّ) يشبه البرق في حركة لمعانه بسير الإبل تعلو وتهبط.

أما إذا عدنا إلى (صَبَبْ) في قوله السابق أعلاه: (إلا في صدرو صَبَبْ) فهذا ليس فكّاً للتضعيف كما يتراءى، فالفعل مفكوك التضعيف على أصله لاقترانه بالضمير مثلما تقول (شددت) و (مررت) إلاّ أنَّ اللطيفة هنا هي أن (تاء المتكلم) الواردة في (شددت) و (مررت) قد حذفت هنا من (صَبَبْ) إلا وفيه (صَبَبْتُ). فحذف التاء على جاري عادة أهل السودان في ذلك فإنهم يقولون (رَجَعْ وذَهَبْ ونزلْ) يريدون (رجعتُ وذهبتُ ونزلتُ) فيحذفون التاء كما قال حاج الماحي:

يَـا الناسِـي فَرْضَـكْ وانْـسَدَحْ — المـوتْ وَرَاكْ إنْ طِـرْ سَـبَح

أراد (انسدحت، وطرت، وسبحت) ولكنه احتاج فحذفها وعليها قول الشيخ حياتي (٣٩٨):

أسْـعِدْنِي فِـي حِمَـاكْ قَـدْ نَـزَلْ

أي قد (نزلتُ). فاحتاج وحذف. فمن اللغة المطردة عندنا حذف هذه التاء في كلامنا. وهم إذا تجرأوا على هذه التاء وهي اسم وحذفوها، كانوا أجرأ على حذف الحروف الأخرى التي ليست بأسماء كما قالوا (الشَّم والتَّلْ) يريدون (الشمس والتلْج).

وقد يحذف الشيخ حياتي حرف العطف وهذا كثير لا يكاد يحصى في ديوانه أترك ملاحظته لفطنة القارئ ولكني أذكِّره بموضعين، قال في أحدهما (١١٧):

البَعيْـــــــــــــر والحَـــــــــــــنْ الغـــلامْ والــضَّبْ والعــضو الــرَّحَّنْ
والخــــشوف والـــصيد البـــدن فِـــرْحَنْ الهَمـــى العجفـــه الـــبير والمطحَـــنْ

هذا الرجل دقيق في أوزانه بحيث أن الحرف الواحد يخل بها ويربك وزنها، وحتى يحافظ على الوزن بهذه الدقة أسقط حرف العطف هنا أربع مرات وكان من حقه أن يقول: (العضو والرَّحَّن) فهما شيئان، وأن يقول (الصيد والبُدن) وأن يقول (الهمى والعجفة والبير) ولكنه أسقط هذه الواوات الأربعة لدلالة السياق عليها ومحافظة على الوزن.

أما الموضع الثاني فقوله (٣٠٧):

بيهـــــا حَيَـــــاتِي بَنِــــــي الأمَـــــانْ

أراد (حياتي وبنيه) ولكنه لو قالها اختلَّ عروض الأبيات فحذف الواو كغيرها من الواوات التي لا تكاد تحصى كما قدمت.

وقد يضطر الشيخ إلى ركوب أشياء أخرى كثيرة غير ما قدمنا نذكر منها هنا بعض المتفرقات منها استخدام الصيغ المتروكة أو المهملة نحو قوله (٣٤٩):

أَذَرُوا العِنَـــادْ وألْقُـــوا لِله زُمَـــامكُم وارْضُـــوا بِمَـــا يُجـــري الْيَعْلِـــي سِـــهَامْكُم

وهذا في مواعظه التي يستهل بها قصائده كما تابعناه في مقدمات القصائد. والشاهد هنا في الفعل (أذروا) والأصل (ذروا) ولو قالها لكان صواباً وإن كان فيه تقصير طفيف للحركة ولكنه كأنما قابل به (اتركوا) وهو بمعناه. وهذا الفعل في الأصل متروك الاستخدام إلاَّ في الأمر (ذَرْ) بمعنى (اترك). ولكن الشيخ كما شبهه هنا بقوله (اتركوا) شبهه في موضع آخر بالفعل (ترك) فقال (٤٠٣):

لا تَعُــود لنــا طُــولْ الــسِّنينْ مِــنْ كَوْنهــا ذَرَتْ البــنينْ ضَــيْ أَو مَــسَا تَبْكِــي وتَــنِينْ

أي هذه الحُمَّى (ذرت) أي (تركت) البنين يبكون ويئنون صباحاً ومساءً. فاستخدام الأصل المتروك هنا ضرورة يسوغه حمله على الأصل المستخدم.

وقد حذف جملة حروف في كلمة واحدة لما اضطره الوزن إلى ذلك فقال (٢٠٩):

مَــــــا لِـــــــذَاكْ ســــــلمانْ　　　عِــــــدْ وابُــــــو الغلمـــــانْ

تَكْفِـــــــــي أمْ عثمـــــــانْ　　　وامّ عَــــــــبْ رَحْمَـــــــانْ

أراد (أم عبدالرحمن) فحذف الدال والألف واللام فقال (عَبْ رحمان). وذلك لثقل الاسم بصيغته الأصلية.

ومن المتفرقات أيضاً قوله:

عـــــرّج علـــى ســـيد أبَّنـــا　　　وســـيد أمّنـــا الـــشاف ريَّنـــا

فقوله (أبّنا) أراد به (أبانا) ولكنها تخل بالوزن، فمال إلى (أبَّنا) والتي تبدوكأنها ضرورة لكن ورد في كلام العرب أنهم يشددون الباء من (أبْ) ويخففونها. فالأبُّ والأب واردان. ومع أن الخفيف الباء أشهر لكنه لما احتاج راجع الأصل الآخر فاستخدمه وهو مسوِّغ.

والعرب والشعراء خاصة يكرهون قطع البيت قبل أن يتم معناه فيحتاج الشاعر إلى إكمال المعنى في البيت التالي وهو ما يعرف عندهم بالتضمين، وقليله معْفُوّ عنه. ولدقة أذن الشيخ وحفاظه على الإيقاع لم يقطع المعنى فقط بل قطع اللفظة في القافية وأكملها في أول البيت الذي يليه وهذه مهارة فائقة، قال (٣٩٨):

اَمْــــدَحْ كَمَــــا مَـــــدَحُوا الأُوُلْ　　　خَـــــاتْمَ الرُّسُـــلْ مِـــصْبَاحًا وَالْ

مفْتَــــاح إِلى البِـــرْ يـــــاخُوَلْ　　　بَــــــابْ المـــــرَاحِمْ والنُّـــــوَلْ

مِـــــــيلادُو بَكَّــــــــى أَهْــــــلَ الــــــدُّوَلْ

فقال (مصباحا وَالْ) ثم حكمته القافية فوقف عند (ال التعريف) ونَقَل بقية الاسم المعرّف إلى بداية البيت التالي فقال (مفتاح) أراد (مصباحا والمفتاح) ولكنه احتاج ففصل وقطع، وهذه براعة قلَّ من حاولها.

ومعروف أنَّ الذي يريد التثنية أو الجمع إنَّما يعمد إلى المفرد ثم يثني هذا المفرد أو يجمعه، إذ لا يجمع المثنى ولا يثنَّى الجمع، ولكن شاعرنا احتاج ففعل وذلك قوله (٤٧١):

والْمَـــاء الـــنَّمِيرْ والّنخَـــلِ والـــدَّيْنِ　　　الفَحَـــلْ الـــشَّكَى وأمْ الخـــشوفيْنِ

فقوله (الخشوفين) جاء على صورة المثنى ولكنك إذا أتيت بالمفرد فهو (خشف) وجمعه (خشوف) فالتثنية (خشفان) والجمع (خشوف) فإذا أردت التثنية أتيت بالمفرد ثم ثنيته فقلت (خشفان) و (خشفين) وإذا أردت الجمع أتيت بالمفرد وهو (خشف) فجمعته على (خشوف) أو (أَخشاف) ولكن الشاعر ثنى المجموع وهو (خشوف) وجعلها (خشوفين) كأنما الواحد منها (خشوف) وليس كذلك، إنَّما هو اضطرار.

ومعروف أن (كلا وكلتا) إنما تستخدمان لتوكيد المثنى بنوعيه المذكر والمؤنث فتقول في الأول (كلا الرجلين) وفي الثاني (كلتا المرأتين) وهذا هو صواب الاستخدام ولكن شاعرنا أضاف (كلتا) إلى الجمع لا إلى المثنى فيما لا يكاد يحصى فقال (٤٦٠):

فِـــي كِلْتَـــا الـــديارْ أبلُـــغْ لكـــل مَـــرادْ

وقال (٤٧٨):

فِـــي كِلْتَـــا الـــدِّيَارْ النِّعْمَـــه أوْليهَـــا

وقال (٤٦٩):

فِـــي كلتـــا الـــديارْ قامـــت بِمَوْفَـــاهُ

وقال (٤٣١):

كِلْتَـــا الـــديار بـــه تكرمُـــوا

فكثرت عنده حتى يخيَّل إليك أنه يعتقد أنها الصواب، مع أن الديار جمع والجمع لا يؤكد بكلتا على الرغم من أنها استوفت شرط الاستخدام وهو التأنيث ولكنها ليست مثناة.

وهكذا يطول الأمر، وإنَّما المراد إشعار القارئ بأن الشيخ سار على سنن العرب ونهجهم في ما يستثنون ويسنّون للشاعر، ومع ذلك فإن الضرورات التي استخدمها جاءت خفيفة على النفس ووقعت مواقعها ودلت على تمكن الرجل في النظم والإيقاع والعروض كتمكنه في اللغة والنحو والصرف الذي يسبقه تمكنه من سيرة الممدوح ويعقبه تمكّن حب الممدوح منه؛ رحمه الله.

التداخل

قد يبدر في أسلوب الشيخ حياتي شيء من التداخل وتقاطع التراكيب حتى تبدو بعض أشعاره عويصة لمن لم ينعم النظر فيها ويعيد التأمل الفينة بين الفينة، وما قيمة الشعر وما الفرق بينه وبين عادي الكلام إذا جاء مرصوصاً رصَّ البنيان، وإنما الشعر روح وأخيلة وصور تحملها لغة غنية طيِّعة وحس مرهف موطّأ. والشعر إذا لم تقطع شيئاً من الوقت في تأمّله كان كغيره من سائر ضروب الكلام. وديوان الشيخ حياتي يحتاج إلى شيء من الصبر والفحولة لركوب وعره حتى ينزلك في سهله. وربما عادت بعض الصعوبة المزعومة في أشعاره إلى افتنانه في تطويع التراكيب وتوليد القوافي بما يضطرُّه إلى التقديم والتأخير والتضمين والإيجاز فيحتاج الناظر فيها إلى شيء من الرويَّة والدربة حتى يأنس غريبُها ويسلس قيادُها. وفي هذا المبحث أقف وقفات قصيرة عند التداخل الذي يظهر في هذا الديوان بسبب تقديم بعض الألفاظ وتأخيرها وتضمين بعض الجمل في بعض وما إليه.

التقديم والتأخير:

التقديم والتأخير أسلوب جائز في لغة العرب إذا لم يلتبس الكلام. وإنما يعاب التقديم والتأخير على الناظم والناثر إذا أفضى إلى تعقيد يغمض معه المعنى. كقول الفرزدق:

وما مثله في الناس إلاَّ مُملَّك   أبو أمه حي أبوه يقاربه

وربما دلَّ التقديم والتأخير على تمكن الشاعر واكتمال أدواته إذ هو كالرخصة لا يقدم عليها إلا فقيه. وقد يقع التقديم والتأخير في ديوان الشيخ حياتي بصورة ملحوظة يمكن حصرها في ثلاثة أقسام: قسم تقدمت وتأخرت فيه بعض الحروف مثل: ما، ولا، وكي ونحوها.

وقسم وقع فيه التقديم والتأخير في الألفاظ والجمل ودخل بعضها في بعض.

وقسم ثالث وقع التقديم والتأخير فيه في المشبه والمشبه به.

ولن أطيل الوقوف في هذا المبحث إلاَّ بمقدار ما أورد النَّص ثم أضعه على ما ينبغي أن يكون عليه وما تراءى لي.

ومن أمثلة القسم الأول تقديم (ما) و (لا) النافية على ما جرت العادة أن يكونا بعده. قال الشيخ (٥٤٠):

عنــــا زال الـــــشوم والنــــصب   لــولا مــا مُــزْن الرحمــة صَــبْ

ولعل الوجه والترتيب أن يكون: لولاه (ﷺ) ما صبَّ مزن الرحمة.

وقال في موضع آخر(٧٤):

تــــاجر تعــــاطى أجـــــر   شــــرعاً، مالبــــابو حجـــــر

وتوجيه قراءة الشطر: ما حجر لبابه، أو ما حجر بابه أي لم يحجب ولم يضع عليه حارساً.

أما كلمة شرعاً كما تدل الفاصلة فهي من بقية الشطر الأول وهذا ما سميته التضمين وسأمر به بعد قليل.

وقال في موضع ثالث (٢٨٦):

الليلــــــة لاح برقـــــاً جـــــسف   قلـــبي الولـــوع والنـــوم نـــسف

والـــدمع جـــوف عـــيني رســـف   صـــار منحـــدر آه بالأســـــف

إن لم أرَ الماتـــــــــــب كــــــــــــسف

فترتيب معنى الشطر الأخير هو (إن لم أرَ ألماً أحرج أحداً بتاتاً) أي (إن لم أر الذي ما كسف أحداً مطلقاً)، ولعلك إن دققت تلاحظ تقديماً وتأخيراً في أكثر من موضع من هذا المقطع ولكنه طفيف مثل (النوم نسف) والوجه تقديم الفعل على الفاعل. وقوله (والدمع جوف عيني رسف) وكان ينبغي أن يتقدم الفعل رسف قبل الظرف، بل قبل المبتدأ ولكن القافية أجْبرته على ذلك وتقديره (رسف الدمع في جوف عيني). وهذا كثير مَعْفَوٌّ عنه.

و (لا) النافية مثل (ما) يتوقع أن يتلوها الفعل، ولكن الشاعر احتاج فقدمها على الفعل في مواضع منها قوله (٢٩٢):

يـــوت في نوالُـــو اطَّمَّعَـــنْ   لا مِنُّـــو صِـــفْرَاً يَـــرْجِعَنْ

وترتيبه (لا يرجعن صفراً منه) أي لا ترجع جوارحي خالية من رحمته ونواله.

وزاد في تقديم (لا) أكثر لما قال (٤٤٦):

صـــــفراً لا أرد مـــــا دام قرعـــــت البــــاب

أراد (لا أردُّ صفراً ما دمت قد قرعت بابك ياربي).

وقد بالغ وجمع (لا وما) وقدمهما معاً في قوله (٢٩٥):

لا، مَـــا الوحُـــوش مِنُّـــو بتفِـــرْ   كَامِــل الحَيَــا جُــودُو الــوفرْ

وكان الوجه أن نضع فاصلة بعد لا كما ترى.. فيكون نفياً مع سكتة ثم يؤكِّد النفي بإدخال (ما) (ما الوحوش منو بتفر) أي (ما تفِرُّ منه الوحوش، لا، هذا لا يحدث).

والشيخ كلّما ضايقه النّظم خرج بمثل هذه البراعة، فهي وإن خالفت وجه الكلام ولكن الكلام ظل واضحاً، والسبب هو مضايقة النظم.

وربما سلك مع (كي) نفس المسلك، إذ الوجه فيها أن يتبعها الفعل ويليها، ولكنه يحتاج فيقدم ويؤخر كما في قوله (٤٥١):

مـــن ذا النَّـــشْكرابْ حفـــصه الفَـــرَق بـــالحَقْ

كَـــيْ بـــي لحظتُـــو ألقَـــى الرِّضَـــا وألحَـــقْ

فصل بين كي والفعل ووجه الكلام (كي ألقى الرضا وألحق بمن تقدم بلحظة الفاروق ونظرته).

ودعا الله تعالى لصلاح حال نفسه في موضع آخر فقال (١٠٩):

بلحظـــــات الرِّضـــــا والَ   لكـــــي إيمانـــــاً يقـــــوالا

أي أسألك أن توالي نفسي بلحظات الرضا (لكي يقوى لها إيمانها) فوقع الفصل بين كي والفعل أيضاً. وزاد في التقديم والفصل بين (كي) وفعلها في قوله (٥٠٢):

كـــــي مـــــنكم يـــــصير إبعـــــاد دواهـــــيكم

في كلتـــــا الـــــديار ويزيـــــد مـــــواهيكم

وتوجيه الكلام (كي يصير إبعاد الدواهي منكم) باتباع قول الله تعالى.

ولحروف الجر أيضاً تأثير، فهي من روابط الكلام وتقديمها وتأخيرها قد يؤدي إلى شيء من الالتباس إلا أن يحتاط له الشاعر كما قال صاحبنا (٤٢٠):

خُلقُـــو بـــالقرآن تخلَّـــق   والوجُـــود مِـــنْ جُـــودُو طلَّـــقْ

أم جَحِـــيم أبْوابَـــا غلَّـــقْ   مَـــا رُمـــي بـــه مَـــنْ تعلَّـــقْ

وفي جميع الشطرات هنا تقديم وتأخير إلاَّ أن بعضه مَعْفُوّ عنه إذا تأوَّلنا وجود المبتدأ وخبره الجملة الفعلية التي تليه وإلا فترتيب الكلام هو:

تخلّق خلقه بالقرآن   وطلق الوجود من فرط جوده   وغلّق أبواب الجحيم

أما الشطر الأخير وهو موضع الاستشهاد حيث قدم الجار والمجرور (به) وترتيبه (ما رمي من تعلق به) أي (ما رمي ولا أهمل من تعلق بالرسول (ﷺ)).

وقريب منه قوله أيضاً (٢١٢):

كـــريم بلـــغ نـــيتي الغاويـــا قبـــل بـــي مـــا تنطـــوي الطاويـــة

يسأل الله تعالى أن يبلغ نيته ما تريده (الغاوياه) أي ما تحبه. قبل أن يموت وتطويه المقادير. فقال (قبل بي ما تنطوي الطاوية)، وترتيبه (قبل ما تنطوي بي الطاوية)

ومما وقع فيه التقديم والتأخير قوله (٥٠١):

صَـــبَّاراً قنـــوع اللُّقمـــهْ تكفيـــه شـــهرين لم تقـــد حـــق بيتـــو نـــار فيـــه

أراد (لم توقد نارٌ في بيته حقاً مدة شهرين) فوقع التقديم والتأخير في أكثر من لفظ.

وقال في موضع آخر وكاد يُغْمِض(٣١٧):

مَـــا مِـــنْ شِـــي إلاَّ منّـــه عينـــا البَـــراه رَأَنَّـــهُ

أدْنَـــاه بَـــادا بمنَّـــه لامِـــنْ عطايَـــا أرضـــنَّه

مـــن نـــورو نـــورو لأنَّـــهُ

في كل الأشطار تقديم وتأخير إلا القليل (لا شيء في الوجود إلا من رسولنا (ﷺ)، والله تعالى (أَدنَاهُ بَادَا بِمَنَّهُ) أي (أدناه المولى وبدأه بالعطاء قبل أن يسأل). ورأت عيناه الذي خلقه جلَّ وعلا الذي أعطاه حتى أرضته عطاياه. لماذا كل هذا؟ لأن نور هذا الرسول من نور الله (من نورو نورو لأنه) أردا: (لأنَّ نوره من نوره) فانظر كيف تأخّرت (لأنه) مع أنها للتعليل والواجب أن تكون في أول الكلام.

ومما قدَّم فيه وأخَّر وضَمَّن أيضاً قوله (٢٤١):

مـــابلغ النهـــاة لـــه حـــدَّاً آيـــو، أشـــبع بمُـــدّ جنـــداً

والأقـــراص كمثلـــه غـــدَّن والبـــدن الأتـــن يطَّـــردَنْ

ما بلغ أهل النهى والعقول حداً لآياته التي منها إشباع الجيش بمُدَّ من الطعام وأقراص أنس التي كفت قوماً نحو ثمانين والبدنات التي أتت تتسابق للذبح.

وتقدير الكلام (ما بلغ النهاة حداً لآياته ومعجزاته). وترتيبه (آيُه لم يبْلُغْ حدَّه النُّهَاةُ).

وفي دعوة طيبة استهل بها بعض قصائده يقول (٣٢٩):

إلاهـــي أمَّـــارَتِي أَسْـــحَق ذنُـــوبي بالفَـــضُلْ امْحَـــقْ

ولـــو مُـــرَّا أقـــول الحـــق عـــسى عـــلْ بالرجـــال ألحـــق

وفي كل الأشطار تقديم وتأخير: إلاهي: اسحق نفسي الأمارة، وامحق ذنوبي بفضلك (أقول الحقَّ ولو كان مُرَّاً)، فعسى أن ألْحَقْ بالرجال. ومعظمه تأخير معفو عنه. ولكن الواضح التقديم والتأخير هو قوله (ولو مراً أقول الحق).

والناس يقولون (الله يأجركم في فلان) ولكن الشيخ احتاج فقدم وأَخَّر في موضعين قال في أحدهما (٣٤٥):

هــل لــيَّ مــن راقِــي يَقُــوم بــي مهــاجر إنْ لم أر المحبُـــــوب في الله يــــــاجر

فالشطر الأول من الكلام الفصيح والشاهد في آخر العجز وهو قوله (في الله يـاجر) ووجهه (الله يأجر فيَّ). وهذا كقوله في الموضع الآخر (٧٤):

أهْلِــــي وعِيَــــالِي هَجَــــرْ هَــــلْ فيَّ مَــــنْ يُــــؤجر

هجر أهله وعياله فهل يجد أحداً ينال أجره فيخرج به إلى الحجاز. (هل فيَّ من يؤجر) قدم الجار والمجرور ووجهه (هل يوجد من يؤجر فيَّ) وهذا القسم أكثر من أن يحصى وأوسع من أن يتابع، لأن الديوان في معظمه بني على هذا الأسلوب الذي لا أراه إلا تمكناً وإبداعاً وفنَّاً طوَّع به القوافي وقاد به التراكيب العصية. فلم يأت معقداً ولا كزاً بل ظهر فيه حسن الصناعة والتأتي لها، وهو ما لا يتوافر إلا لمن امتلك ناصية اللغة فملَّكته قيادها.

التضمين:

أردت بالتضمين هنا أن يتم الشطر أو البيت كله قبل أن يكتمل المعنى، فيحتاج البيت حاجة شديدة إلى علامات الترقيم لتتبين حدود جمله وتراكيبه، وليس ذلك عيباً في الشعر ولا في الشاعر وإنما هو إحكام صنعة وقوة طبع جبل عليها الشيخ حياتي وكان لابد لنا من تأمل ذلك والوقوف عنده لنجتني الثمار التي تاق الشيخ إلى نكون جانين لها مستمتعين بها..وقد مرَّ بك طرف من ذلك في الفقرة المتقدمة أيسره قوله (٧٤):

الطِّبْعُــــــــو خَــــــــالِي ضَــــــــجَرْ

تَــــــــاجر تَعَــــــــاطَى أُجَــــــــرْ

شَــــــرْعَاً، مَــــــا لِبَــــــابُو حجَــــــرْ

يَطْــــــــوِي وعَــــــــصَبْ لجــــــــرْ

زار جَــــــــارُو مَــــــــالِي هَجَــــــــرْ

ووضع الفاصلة بعد (شرعاً) أمرٌ لابد منه حتى تنضم إلى الشطر الثاني وتكمل معناه بأن رسولنا لم يتاجر حاجة وإنما تشريعاً من المولى عز وجلَّ لتقتدي به أمته في العمل.

ولاحظ التقديم والتأخير في قوله (مالي جارو هجر) أي (ما هجر لجاره).

ومن أوائل الأبيات المشكلة التي تطالعك في مستهل الديوان قوله (٣٥):

يــــــــا مهــــــــــــيمن، عَــــــــــنْ

صَــحْبُو أرض، بهــم أهــدِ قلبــي، ظعــنْ		في المعَاصِــي خُطَــاي طَــاوعني ســعنْ
والـيـــــد والعـــــين والّلـــــي لَـــــيْ سمعـــــنْ

وترتيبه:

يا مهيمن، عن صحبو أرض، بهم أهد قلبي، ظعن في المعاصي، خطاي طاوعني سعن، واليد والعين واللي لي سمعن.

وتوضيحه: يا مهيمن ارض عن صحبه، واهد بهم قلبي الذي ظعن في المعاصي، وكذلك خطاي مع يديَّ وعينيَّ وأذنيَّ التي طاوعتني وسعت في المعاصي.

وهذا تداخل لا يزيله إلا ضبط الترقيم وحسن التأنّي لمعرفة أجزاء الكلام.

ونحوه قوله أيضاً (٣٧):

عَـــــنْ صَـــــحَابْتُو ارضَ		يــا كــريم، واســتر عرضــي، والمرضَــه
زيــلا عــن قلــبي، ارْضِــينِي لــمَّا ارْضَــى		والنَّكُــونْ آمِــنْ في ذي والعرضَــه

لابدَّ أن تنسى القوافي وحدود الأشطار وليكن همّك المعنى وهو المقصد الأوّل و إنّما الألفاظ خدم له. وعليك بالتزام علامات الترقيم التي لو حرص المحقق على وضعها لقدمت خدمة جليلة يقول: (عن صحابته ارض يا كريم، واستر عرضي، وزيل المرضه عن قلبي، وأرضني حتى أرضى وأكون آمناً في الدُّنيا والآخرة).

ثم انظر إلى قيمة علامات الترقيم في توضيح معالم البيت ورسم حدوده في قوله وهو يتحدث عن ذات الحبيب (ﷺ) (٣٦٧):

الغمَـــــام يَبْـــــرَا		هَامتَــا، الــسارحاتْ زيُّــو، يَــا حْــبرَا
اعــذَبْ المَالحــاتْ تَفْلَهَــا، وأبْــرَا		الجِــرُوح، وأحْيَــتْ مَيِّــتْ القَبْــرَا

لن تصل إلى المرام ما لم تلتزم بعلامات الترقيم خصوصاً الفواصل، وتوجيه الكلام: هذه الذات الشريفة يبرا الغمام هامتها. والسارحات مثله أيضاً تبراها (تتبعها) يا عالم يا فطن. هذه الذات الشريفة تفلها جعل المالحات عِذاباً، وأبرأ الجروح، وهذه الذات أحيت الميت في قبره.

وهذه القصيدة مما أكثر فيها الشاعر من مثل هذا الأسلوب الذي لا ينكشف حجابه إلاَّ بالرويَّة والتمهُّل.

ومن نماذج التضمين والتداخل قوله (١٤٨):

الكَـــــشَّافْ		كَــرْب الأمَّــه، لَــسْ كَــشَّاف

لـــي عيوبَـــا، ولَهَـــا نَـــشَّافْ   يَـــا زِيـــدْ، وكَرْبَـــكْ شَـــافِ

وتوضيحه: الكشاف لكرب الأمة، ليس كشافاً لعيوبها، وهو نشّاف لهذه العيوب يجففها يا زيد وشافٍ لكربك. وما وجدت شعراً أحوج للترقيم ولا يستوي فهمه إلا بوضعه في مواضعه إلاَّ في هذا الديوان، وهذه النماذج تقوم شاهداً على ذلك. والأمر كذلك في معظم الديوان وأختم منه بقوله في مناجاة الشريف يوسف الهندي (٤٨٧):

إنْ لم تَـــرْتَ لَـــيْ، طَـــوِّقْنِي بِـــي ذِمَّـــاتْ   أهْـــل العِـــشْق، وانـــت بـــذِمَّتَكْ ذِمَّـــاتْ

كيـفْ يَبْقَـى الخَـلاصْ يَـا الْهِنْـدِي فِي مَـنْ مَـاتْ   بـي سَـبَبَكْ، إذَا مَـا الأُمَّـة فِي خَـصُومَاتْ

أعد قراءة المقطع باعتماد الفواصل دون النظر إلى نهايات الأشطار يستَقمْ لك المعنى ولا يستقيم بغير ذلك. وهذا بحر لا ساحل له أكتفي منه بهذه الرشفة تكون مفتاحاً لمن أراد إعادة قراءته.

تقديم المشبه به:

أما القسم الثالث والأخير وهو أيسرها وأكثرها وروداً في الديوان فهو تقديم المشبه به على المشبه، والأصل في الكلام أن يأتي المشبه أولاً بأداة وبغير أداة، كقولك (فلان كالأسد وفلان أسد) ولكن النظم والإيقاع والقوافي أجبرت الشاعر في مواضع كثيرة على تقديم المشبه به على المشبه، وهو وإن أكثر منه إلاَّ أنَّه لم يخرج به عن سنن الكلام ولا جاء عَصِيًّا على فهم المتأني وأمثلته كثيرة منها هذه النماذج التي أوردها وأورد توضيحها رأساً حذر الإطالة نحو قوله (١٠٠):

- عاد كاليد الأعْوَرا – أعاد الأعور مثلما أعاد اليد.

أراد بالأعور قتادة، وأراد باليد يد مُعَوِّذ بن عفراء، فقد أعادهما كلتيهما.

وقوله (١٢٤):

كالرجل عافى يمينو ودعافره – عافى يمين ودعافره كمعافاته رجل بن عتيك.

وقوله (١٥٧):

رَسُـــولاً مُوسَـــى رَامْ قُرْبُـــوْ   ويُوســـفْ نَـــالْ بِـــه أَرِبُـــو

كاسْـــمَاعِيل أغَـــاثْ كَرْبُـــو   أبُـــو ابْـــرَاهِيم فَيَـــا عُـــرْبُ

أغاث كرب أبيه إبراهيم مثلما أغاث كرب إسماعيل.

وقوله (٣٧٦):

كالـــسُّحب الـــضرُوع جَـــادتْ لُـــو بـــي لَبَنَـــا

جادت الضروع مثلما جادت السحب.

وقوله (٤٢٥):

كَـــزي مَـــا أمُّـــو بـــتْ وهْـــبِ   حَيَـــا والـــدُو وحَيَـــا الـــشُّهْبِ

أحيا والده كإحيائه لأمِّه.

وقوله (٤٩٦):

كَــــــالعِير والــــــبَعِير جَريــــــدة أنْبَابَــــــا

أنبأ بجريدة كإنبائه بالعير والبعير. أراد جرادة صاحبة ابن أبي بلتعة.

وربما اتضح لك الأمر إذا قارنت ما مضى بقوله (٢١٢):

نفــــور الــــصَّي كالغمــــام باريــــه

وقوله في القصيدة نفسها:

أحَـــانْ ضـــرع العَجْفَـــةِ البَاليَـــه   كَمَـــلء الـــبِيرْ القِبيـــلْ خَالْيَـــه

فقد جاء به في هذين الموضعين على وجهه حيث وضع المشبه أولاً ثم المشبه به المقترن بالكاف بعده وتقديره هنا واضح، فنفور الصي تتبعه مثل الغمام الذي يتبعه. والضروع أحانها وملأها مثل البئر التي ملأها.

وهذا الباب من الأبواب التي بلغ فيها شاعرنا الغاية. ومع احتياط الناس وحذرهم من ركوب مثل هذه المراكب الصعبة لم يكن الشيخ حياتي هيَّاباً لها، ولا أعوزته ملكته ولا قصرت به أدواته، فقد أعانه على كل ذلك مخزون ضخم وصفاء فطري وطبع أصيل ومحبة خالصة لخدمة هذا الجناب الكريم الذي انقطع له وصنَّف نفسه من خُدَّامه، أجزل الله مثوبته.

دعائم

مرَّ بنا في مبحث (قدر المديح عند الشيخ حياتي) أنَّ هذا الفن هو كاره وبضاعته وشغله الشاغل ومفخرته الوحيدة، وقد امتلأ حباً وإعجاباً بما بلغه فيها وما وفق إليه حتى قال متحدياً (٢٠٢):

في عزيـــــــزْ آيَــــــــاتُو   يَـــا نَـــاسْ قُولُـــولِي العَـــايزنو يَـــاتو

وقال:

يَــــا مْـــــضَارِبْ شِـــيلُو   وضَـــارِبْ أهَـــلْ الزِّنْـــكِ

فهذا كلام العارف ببضاعته الواثق بجودتها.. ثم صفت نفسه من كَدَر المنافسة وعاد متواضعاً يزجر تلك النفس المعجبة فيقول:

مَـــاذا العجـــب لله رِجَـــالْ   جَالـــتْ كَـــثير في ذا المجـــال

يَـــا حَيَـــاتِي حُبَـــا وارْتِجَـــال   كَـــاس المـــدام بيناتَـــا جَـــالْ

❖❖❖

مِـــنْ ههُنَـــا انـــتر وراكْ   كَـــمْ الرّجَـــال قَالـــتْ بَـــرَاك

في المـــصْطَفَى الـــشّافْ البَـــراكْ   لـــولا الخَـــزينْ إت مِـــنْ طِـــراك؟

وبين هذين الموقفين وانطلاقاً من هاتين الحالتين تقع في الديوان أساليب من قاع العامية يفزع إليها الشاعر كلما احتاج إلى دعامة يستند إليها النظم أو وتد يتِد به الكلام. فالشايع عندنا وعند النساء خاصّة استخدام كلمة (كَدِي) في حالات الامتلاء بالإعجاب (كَدِي يا يمة) و(قال كَدِي قام عليهم) و(قالت كدي السما انبهلت) وما أشبه هذا. ولعل لفظة (كَدِي) لها في كلام العامة وجوه متشعبة؛ فقد تطلق للإعجاب كما مرّ (كَدِي يا يُمَّه) وقد تأتي بمعنى (هكذا) كما تقول (يا كَدِي يا بلاش). أو تكون في معنى (كهذه) أو (كذي) كما تقول (سوّيهُ كدي). وقد تكون استنكاراً كما يقال (الجماعة فاتوا) فيقول غير المصدّق (كَدِي). وقد تكون للاتجاه (مشى كدي) أو (ابعد كَدي) وقد تستعمل ممالة (كِدي انت حاوِل) وقد تكون طلبية أعني هذه الممالة: (كِدي؛ أي أرني). وقد تكون (كَدِي) بمعنى (كِدَه) (كدي كويس، أو كِدًا كويس). وعلى العموم هي لفظة يحكمها السياق الذي ترد فيه، وأنا هنا أركز فقط على التي تأتي تعبيراً عن الإعجاب والفخر والثناء والاستحسان، وهي كثيرة في الديوان يدعم بها الشيخ حالة الفخر والإعجاب التي تفعم النفس كما قال (٤٨٢):

مُنْـشِيهَا حَيَــاتِي الْفِــي مَــدَايحُو لَحَــنْ   لاقِــي بِهَــا القَبُــولْ كَــدِي وازديــادْ فَرَحَــاً

ولمن شـاء حـذفها أن يحـذفها فلـن يـضار تركيـب الكلام ولا ترتيبـه ولكنـه سيـصبح مغسولاً من الطعم الذي أراده الشاعر ويخلو من دعامة الوزن التي ارتكز عليها . ويمكنـك تتبـع ذلك في أبياته (٢٢٩):

صَـــلواتْ حَيَـــاتِي اتْعَـــاقَبنْ   خَيْرَاتَـــا بـــالعيشْ واللَّـــبنْ

كَـــــــــدِي والإدام الماصـــــــــبنْ

هـي هنـا دعامـة للـوزن يختـل إذا حـذفت ولكنهـا أيـضاً أضـافت شيئاً مـن الفـرح النبيـل والشعور الجميل.

وقوله (٩٢):

مَـــــا مَـــــزَجْ بالكِـــــذْبِ   طَبْعُـــــو حِلُّـــــو وَعَـــــذْب

الغريـــــق ينقـــــذ بـــــي   مـــن سَـعَد كَـدِي لُـوذ بــي

والاحتمـاء بالرسـول (ﷺ) مـن أسـباب الـسعد لأنـه يجلـب فرحـة النجـاة ولـن يفوتـك الاستخدام الخاص للاسم (حِلُّو) بكسر الحاء وتشديد اللام مع مَطّها ومَدّها حتى تستشعر طعم الحلاوة وهو استخدام سوداني لاشك. وفي حديثه عن ضياء الرسول وسناه يقول(٣٦٠):

أطَّ الـــسّمَا والأرْض كَـــدِي مِـــنْ سَـــنَاهُ   ولَنَــا الــسّرُورْ عَمَّــمْ بِنَــا حَــاطْ بنَــاهُ

امتلأت السموات والأراضي من نوره (ﷺ) حتى أطَّت، أي أصدرت صوتاً كالأنين وامتلأ الشاعر أيضاً اعتزازاً بذلك شرحته لفظة (كَدي) بما لا مزيد عليه. ولـن يفوتـك أيضاً قوله (عَمّمْ) ولو أراد (عَمَّ) كالمعتاد لقالها ولاحتملها المعنى والوزن، ولكنه حاول معنى آخر إذ صار السرور عنده تاجاً وعمامة وهذا أمدح وأفخر من العموم.

وكما يعجبه حاله وما ناله، يعجبه أيضاً مآل الكافرين كما في قوله (٣٨٣):

بِــه والأرضْ مُلئــتْ بركَــه وسِــرُورْ   كَــدِى والعــدا عِيُــونُمْ كَــالا الــضَّرُور

وهـي كأخواتهـا، حـذفها قـد يـضير الـوزن ولكـن وجودهـا يـضفي معنـى الافتخـار والاعتزاز.

وقريـب منهـا لفظـة (سَـيْ) الـتي قـال عنهـا صـاحب قـاموس اللَّهجـة العاميَّـة (٥٠٣) إنَّهـا كلمـة استحسان وإطـراء ، وهـي كـذلك في معظـم المواضـع الـتي وردت فيهـا في الـديوان وهـي كأختها (كدي) حذفها لا يضير تركيب الكلام ولكن وجودها يضفي نكهة ويضيف إحساساً

وشعوراً. وهي لا تكاد تحصى في الديوان، مذكورة عند السابقين للشيخ، ولكنه أفاض في استخدامها كما في قوله (٤٧٦):

سَيْ والله العَظيمْ نَنْكَعْ بلا شَكَكَاً فوقْ والدَ البَتُولْ فَكَانَا مِنْ شِبَكَاً

وبإمكانك أن تضع مكانها أي لفظ آخر لتملأ به فراغ الوزن ولكنه لن يسدَّ مكانها، نحو (قُولْ) وسيضيع الشعور الذي مسحت به البيت. وهنا قد يتبادر إلى الذّهِن أنَّها من (say) الإنجليزية بمعنى (قُلْ) ولا صلة لها بها البتة بل هي أقدم من ذلك بكثير وردت في أشعار القدماء وأقربهم حاج الماحي في قوله:

يَا أَهلْ المعَارِفْ قُولُوا سَيْ الرَّحْمَة وَسِعَتْ كُل شَي

فدل هذا على قدمها، وفي الوقت نفسه نفى أن تكون بمعنى (قُلْ) لأنّ الشاعر قال (قولوا سي) ولا يستقيم أن يكون أراد (قولوا قُول) بل هو محال لا يقبله السياق.

ومن أمثلتها المستفيضة:

- **زان الكيان سَيْ حفَّلا (٣١٦)**
- **وحش الفلاة سَيْ رامتك (٢٨٨)**
- **وسَيْ إن عشنا عز فخارنا (٢٣٥)**
- **والعزّ سَيْ والاحترام (٣١١)**
- **نعم سَيْ خلفاك (٩٤)**
- **أفْنُوا الْمُشْركينْ سَيْ جَنْدَلُوا أحْبَارُمْ (٤٨٢)**
- **سَيْ زوج البَتُول وين البقَالُوا تنين (٤٥٧)**
- **أوصاف الجمال سَيْ والكمال كَملَنْ (٣٧٦)**
- **جاء بالخير ووضع الإصْرا سَيْ والملة المنتصرا (٤١٩)**
- **سَامِي الطلعَة البَدرية سَيْ والبسمَة الدرية (١٩٠)**

والذي يدل على أنَّ (سَيْ) مثل (كَدي) في أداء وظيفة الاستحسان ونقل الإحساس به أنّ بإمكانك وضع (كدي) مكانها في كل النماذج السابقة. كما يمكنك حذفها جميعاً ولكن السياقات التي وردت فيها ستفتقد كثيراً من بهائها وشعور الإطراء الذي تضفيه. ومثلما هي دعامة للمعنى هي أيضاً دعامة للوزن في كثير مما تقدم.

ويستخدم الشيخ لفظة ثالثة لا تكاد تخرج من هذا الوادي تأتي لإتمام الكلام ولكنها لا تخلو من إحساس خاص تضفيه على السياق أعني لفظة (عاد) فنحن نقول (عاد أعمل

شنو) فتكون دعامة للكلام، ولكنها أحياناً تكون ثنائية الوظيفة يراد بها أن تكون سنداً ووتداً ودعامة مع تشبعها بإحساس الفخر والإعجاب والإطراء كما قال شاعرنا (٥٣١):

عَـــادْ الله مِـــنْ خُلْقــو　　　الــدَّارا مِـــنْ خَلْقُــو

فكأنها هنا بمعنى (يا الله من أخلاقه) وواعجبي منها.

وقد يكون فيها إحساس التوبيخ ولكنه مشوب بالإطراء كقوله (١٥٣):

لــيش أنْـسَى عَــادْ سَــلمانْ ولا الفَطَــر

وأَلْمَــا الأجــاج وإِبْــرَا اب دمًّـــاً قطــر

ويظهر لك استخدامها دعامة ووتداً في قوله (٣٧٣):

أبــداً لا أكُــونْ لــي مِثْلِــي عَــادْ مُحْتَــاجْ

وقوله عن الصلاة (٢٠٨):

ميـــه عـــاد في الميـــه　　　نجـت الأمـه واسمهـا الكيميـه

وللشيخ ألفاظ أخرى يستخدمها كالدعائم أيضاً منها (هَلُمَّ جرا) التي تكون بمعنى (وهكذا) أو (إلى آخره). يستخدمها إن أَوْجَزَ في السّرد والإحصاء أو إنْ أطال، كما قال في الموجز (١٥٥):

آيُـــــو التَّجَـــــرْ　　　شــرعاً، بــراهُ الغــيمْ، حَيَّــا الحَجَــرْ

يعْكُــفْ عــلاه الطــيرْ جَــاهُ الــشَّجَرْ　　　بَــدْر الــسَّمَا والــشُّم وهلُــمّ جَــرْ

فما زاد على سبع معجزات ثم أجمل.. أمَّا مثال المطوَّل فقصيدته التي يقول فيها (آياتو هاك منها أربعين (٣١٣) وقد وَفَّى وذكر الأربعين ولكنها لم تشبعه وأحس بأنَّ للكلام بقية فقال: بعد الأربعين (٣١٣):

والولَّـــــدن وهَلُــــــمَّ جَــــــرْ

وهذا أقرب ما إلى الإيغال عند البلاغيين ولكنه على كل حال دعامة للوزن استراح عليها الشاعر.

وقد يدعم الشّاعر وزنه ويقيمه أحياناً بفعل أو اسم فعل أو اسم إشارة أو موصول. فيدلك على أنه احتاج إلى إقامة الوزن فاجتلب أنك إذا حذفت ما سَنُمثّل به فإن الكلام لا يضار ولا يضطرب، ولكن وجود اللفظ المعني دعم التركيب والمعنى كما في قوله (٣٤٣):

طَلَعَــتْ هَــدِيكْ شَمْــسُو مِــنْ بعــد صُــبْحُو

ولو قال (طلعت شمسو) كان كافياً ولكن اسم الإشارة دَعَم الوزن وصححه وأضاف توكيداً لطلوع الشمس لأن الإشارة يتلوها النظر فيقع القطع والتأكيد.

كرر هذا الاستخدام في موضع آخر في قوله (٢١٠):

كَـــمْ نَـــامى لمـــسُو عَـــادْ الفِـــي رَمْـــسُو
وهَـــديكْ الـــشمْسُ والخَمْـــس والخُمْـــس

فليس المنتظر أن يرينا الشاعر الشمس هنا باستخدام اسم الإشارة ولكنه أراد أن يعدد معجزاته التي منها رد الشمس والأقراص الخمس وخمس الغنائم فأتى بها في هذا الأسلوب الذي وظف فيه الإشارة.

ومثال دعم الكلام باسم الفعل قوله (٢١٢):

نَخيـلْ سَـلمانْ يَـا زَمِيـلْ هَاكَيْـه وديـنُـو، النُّـوقْ الأتَـتْ باكَيَـه

أي (هاك إياه) لم يُرِدْ اسم الفعل ومعناه المتعارف عليه وإنَّما أراد (خذ في حسابك).

بل قد يستخدم الشاعر جملة كاملة من باب الإيغال، هي مما يمكن الاستغناء عنه لتمام الكلام ولكن الإتيان بها أضاف إحساس الفخر والاعتزاز وذلك قوله (٢٥٦):

أُولُـو العَـزم هـم كَمَـال بِـدايتُو سـرى رأى ربُّـو الكلام هَـدي غَـايتُو

انتهى كلامه في (رأى ربُّو) غير أن جملة (الكلام هدي غايتو) دعمت الوزن وكان سيختل بدونها، وفي الوقت نفسه دعمت المعنى لأنها أضافت مدحاً وفخراً ظاهراً.

ومن أساليب الشيخ التي استفاضت في الكتاب استخدام عبارة الاستدراك (مع ذا) يريد (مع ذلك). وهي لابد أن تكون مسبوقة بصفات تختلف مع ما يتلوها إن لم تكن ضدها قولاً واحداً، اسمع مثلاً قوله (٣٢٥):

مكـرم عَزيـزْ عِـنْ ذي الكَـرَمْ مَـع ذا اشـتكتْ قَـدَمَا الـوَرَمْ

هو كريم عزيز عند الكريم العزيز ولكنه مع ذلك لم يعتمد على ذلك وإنما عبد حتى تورمت قدماه.

ومنه قوله عن جبريل (٣٥٩):

يخدمـه والأمْـلاكْ لـي تظـل وتَتْبَـعْ مَـع ذا الـشهور يطـوي مـا بياكـل يَـشْبَعْ

وتتبع اطراد هذا الاستخدام في الأشعار التاليات:

- إن راملُـو شَـيْ تحت الطلب مَـعَ ذَا كَـنَسْ دَارُو وحلَـبْ (٢٨١)
- في المرسلين منّـو وكَفَـى مَـعَ ذَا الخِـدَم مَـا اسْـتَنْكَفَا (٢٧٦)

- كَمْ كَمْ أغَاثْ كَمْ منعطِب — مَـــعَ ذَا وعَـــى وكـــان يَحْتَطِـــبْ (٢٧٣)
- بالعينـــان للمُعْطِـــي شَـــايفْ — مَـــعَ ذَلـــك جيرانُـــو طَـــايف (٢٤٨)
- نبياً بالعيون رأى ربْنَا لا غُلات — مَـع ذَا جَـارُو يَفْقِـدْ فِي كـلا الحَـالاتْ (٣٧١)
- مـا الـرزق لَـوْلا للعبَـاد مَقْسُوم — مَـــعَ ذَا يَتَـــاجِر يَـــشْتَرِي ويـــسوم (٣٧٠)

ونختم بقوله (١٥٣):

كَامِـــــــــلْ الْوَصْـــــــــفْ — مِـنْ حُـسْنُو قِيـل يُوسِـف نَـال النِّـصفْ
كــان يَلْـبَس المرْقُـوع والمنْخَـصِفْ — مَــع ذَا الأذى يَرْضَــى مَــا بينتــصِفْ

فكأنه اعتمد هذا الأسلوب فاصلاً بين ضدين مفرقاً بينهما، وهو مما يمكن الاستغناء عنه في كل النماذج وغيرها مما ورد في الديوان ولكن وجوده دلَّ على براعة واستغلال وتفجير لطاقة اللُّغة ثم دعم الوزن وأكمله إذ بدونه سيختل ويضطرب، والأهم من كل ذلك أنّه أضاف إلى المعنى أبعاداً وأضفى عليه إحساس عظمة الجمع بين النقيضين كالغنى والتواضع، وأنَّ الرّسُول بيده مفاتيح الرزق ومع ذلك يتاجر تشريعاً، ومع أنه سيد المرسلين ما كان يستنكف أو يترفع عن الخدمة وما إلى ذلك.

التقريع

دَرَج الشيخ حَيَاتِي على استخدام بعض ألفاظ التقريع والزجر للمحبين مفردة ومجموعة وهو أسلوب عربي قديم جاءت به السنة المطهرة أيضاً، فالعربي إذا حضّ المخاطب على فعل قال له (ثكلتك أمك) أو (لا أمّ لك) أو (لا أبا لك) أو (ويحك) وكلّها لا يراد بها لازم معناها كما جاء في الحديث (فاظفر بذات الدين تربت يداك) فظاهر اللفظ التصقت يداك بالتراب، وهو دعاء على السامع ولكن معناه دعاءٌ له وحضٌّ. واستخدم الشيخ حياتي نحو أربعين لفظاً هي من هذا الوادي نحو (يا أبكم أو يا بجم أو يا نعيس أو جلف) وكلُّه تقريع وتوبيخ وتبكيت حين يرسله الشاعر لا يريد به أنَّ المتلقي متصف بذلك على الحقيقة وإنَّما يريد من المحب أن يتجنب الصفة المذكورة وأنْ يكون بكليته مع الشاعر حتى يعي الرسالة الموجهة إليه. وهو لعمري أسلوب مقبول من المرشد والمعلم والأب. وهو وإن كان مداعبة خشنة ولكن فيه روح التربية وهضم النفس والتنشيط وجذب الانتباه مع ما فيه من الاستهانة المستحقة لمن يتمتع بالصفة المستهجنة المذكورة في السياق... وقد تراوحت هذه الألفاظ بين الصفات المتعلقة بالفهم أو العقل أو السمع أو البصر وما إليه من الطباع والأخلاق ونحوها... وقد تكون الألفاظ مدحاً في بعض الأحايين، كما سترى.

خاطب الشيخ المحب المتلقي بالأبكم والمبكوم وجمع فاستخدم البُكم، ومن ذلك قوله (٥٢):

بعــــد مــــا المحكـــمْ

إن تقـــول في مـــدحو   أصـــغِ يـــا أبكـــم

ثم جمع الأبكم في قوله (٤٦):

إن نقـــول يـــا بُكـــمُ

ثم قال (٣٧):

بعـــدما المَحْكُـــوم

والوضُـوعْ مَـا فِـي الخـبء راقِـدْ كُـومْ   والثَّرِيـدْ مَـا اقُـولْ ثَـانِي يـا مَبْكُـومْ

في البـــرو الأمْـــلاكْ ظَلَّلُـــو المَرْكُـــوْم

كأنَّه يرى أنَّ صفة (البكَم) هنا واجبة مستحقة، وإلاَّ فما الذي يمكن أنْ يُقال في هذا الرّسُول الممدوح في محكم التنزيل صاحب العجائب منذ وضوعه وصاحب الأسرار المخبأة الكثيرة (راقده بالكيمان) الّذي بارك الثريد والطعام والذي تبعته الأملاك وظلّله السحاب.

أليس السكوت والصمت والإمساك والبكم واجباً على أمثالنا؟ أم ماذا سنضيف؟ واستخدم مع (البَكم) صفة قريبة منه وهو (البَلَم) وهو العيُّ وعدم الفصاحة وقلة الفهم يقول أهلنا (القَلَمْ مَا بْزِيلْ بَلَمْ). وأنت حين تسمع أوصاف الممدوح التي تسبق كلمة التقريع لا تملك إلا أنْ تُسلِّم بذلك التقريع لأنَّك ستجد نفسك عاجزاً تمام العجز عن إضافة جديد... قال في موضع آخر (٣٤٩):

عِلْم القَلَمْ واللُّوح مِنْ عِلْمُو فَاعْلَمْ   أَصْبَر أُولُي العَزْمِ وأزْهَدْ وأحْلَمْ

وارفع قَدُر وأرْجَح وأَعظَمْ يَا أبْلَم   طَاوُوس جِنُود الله فِي غَايْتُو مَا لَم

كيف لا أرضى أنا أو غيري بأن نوصف بالبلم في مثل هذا المقام؟ ماذا نقول، وماذا عسانا نضيف إلى من منه علم اللوح والقلم، أصبر الرسل حتى أولي العزم وهو أزهدهم وأحلمهم وأرفعهم قدراً وأرجحهم عقلاً ووزناً وأعظمهم عند الله، هذا الرسول الذي وقف جبريل (طاووس الملائكة) عند السدرة وتقدم هو (ﷺ) حتى رأى ربه وأكرم بما لم ينله بشر ولا نبي ولا ملك. البلم هنا إنصاف في حقِّنا.

وكرر لفظة الأبلم مفردة في موضع آخر فقال (٨٧):

مِنْ حُسنُو يَا أبْلَمْ   يُوسُف بَعِيدْ مَا لَمْ

فكما عجزت الملائكة عن مقامه عجز الرُّسل عن مقامه أيضاً. فما قولك؟

ثم وسَّع فجمع اللفظة قائلاً (١٩٨):

مِنْ بَعْد البُراق يَا بُلَّمْ   لِيشْ أنْسَى العرُوج بالسُّلَّمْ

وكررها في قوله (٨٠):

لخديجه مَا انْعَلَمَا   وحَلِيمَة الحُلَمَا

ولآمنه الرُّفِع عَلَمَا   ولعايشه وأمْ سَلَمَا

كَمْ فَيَا بُلَمَا

نحن حقاً بُلَمَا إذا لم نعرف ما رأته منه خديجة من نزول الملائكة عليه ومن تظليل السحاب وما حلَّ بوادي بني سعد لما حملته حليمة وما صار لأمّه من الرفعة والذكر وما رأته عائشة من نوره وما أكرم الله به كل واحدة من أمهات المؤمنين.

وكما نوّع في الإفراد والجمع، نوّع أيضاً في الصيغة والاشتقاق في الكلمة نفسها وذلك قوله (٣٩٢):

بَدْرَ السَّمَا انْشَقْ يَا بَلِيم   والصَّخْرَة كَرَماً لِي الحَلِيمُ

والعِـــذِقْ والعُـــوْد رَام فِـــي لِـــيمُ فَـــدَى مَـــن شَـــكَا ضُـــر الألِـــيمُ
والــــــــصِّيدَة وألــــــــصَقْ للقَلِـــــــيمُ

وهذه القصيدة (ربي يا حي يا عليم) مبنيَّة على التّفرُّد في صيغة (فعيل) بما لم تتعوده الأذن ولكنه غير خارج عن قياس العربية، ومنه (البليم) وهو فعيل بمعنى مفعول مثل (قليم) بمعنى (مقلوم) أي مكسور ومقسوم كما في كف ابن عفراء المشار إليه بالإلصاق هنا مع انشقاق البدر وانفطار الصخر ونزول العذق وحنين الجذع وإزالة شكوى البعير وعتق الصيدة.

وكما صحَّ لنا أنْ نجمع (أبْلَم) على (بُلُم) مثل (أبْكَم وبُكُم) كما تقدم، صحَّ لنا قياساً أنْ نجمع (بَلِيم) على (بُلُمَا) مثل (حَلِيم وحُلُمَا).

وقريب من البكم والبلم صفة (البعم) التي وردت في قوله (٣١٠):

تلـــــك وهنــــا قـــــول يـــــا بَعَـــمْ

والبعم الثقيل العي، جاءت مفردة كما ترى ومجموعة كما في قوله (٩٧):

شِـــــبْهُو ويـــــن يـــــا بُعَـــــامِ؟

أي يا قليلي الفهم.

واستخدم لفظة رابعة قريبة في مبناها ومعناها مما تقدم وهي (البجم) وهو أيضاً العي الثقيل الذي لا يعي أو لا يحسن التصرف، كما في قوله (٢٣٨):

مـــدح في الـــنجم يـــا بُجْـــمُ رســـول العُـــرْب والعجـــم

وجاء بها في صيغة الجمع كما ترى.

وقد يقرع بالصفات المتعلقة بالسمع والبصر ونحوه كما في قوله (١٦٦):

الأمِّـــــــي الأخْرَصَـــــا بالأُمَّـــــة يـــــا أخْرَصـــــا

أو قوله (١٢٦):

البعْـــــــــــدُو والأُوَلْ يَرْجُـــــوه أيـــــا حُـــــوَلْ

أي يا حول العيون جمع أحول، وذلك أنَّكم لم تحسنوا النظر إلى صفته.

أو قوله (٣٢٧):

فَمَـــا الكُرْسِـــيُّ والعَـــرْشُ ومَـــا الجَنَّـــاتْ فَيَـــا طُـــرْشُ
بِغَـــيرُو الكَـــان مَـــا بْيَرْشُـــو ولِـــي أصْـــحَابُو الــرِّدا يفرشُـــو

أي لولا أنكم طُرش، ما قيمة العرش والكرسي والجنّات بغير الرسول العفيف الزاهد المتواضع (ﷺ). هذه الثورة النفسية والفورة التي تمسح أسلوب الشيخ تذكرك بحال سلف

الأمة كالحسن البصري الذي كان يهيج ويبكي ويقول: (الخشبة تحن شوقاً إلى الرّسُول)، كأنّه يريد أن يقول لهم أنتم فوق الجمادات لقد حنَّ الجماد لرسول الله (ﷺ) فما بالكم لا تحنون شوقاً إليه؟

ويمضي بعد ذلك في تقريع المحب ويصفه بالحمق والخفة والطيش لأنَّه يمر بهذه الصفات العظيمة للممدوح فلا تحدث فيه أثراً، فيرميه بالنعاس مثلما رماه من قبل بالغفلة كما في قوله (٢٦٣):

بـــي الفـــايقْ الرُّســـل لا عِـيسْ   خِـــيرة الله الـــرَّءَا يَـــا نَعِـــيس

وقوله (نعيس)، في غاية التوفيق لأنَّها صفة مشبهة وهي أدوم من الصفة لأنَّ الأخيرة متغيرة عابرة غير ثابتة.

وقريب من الغافل والنعيس صفة (المطهَّم) وهوالمتردِّد المضطرب الحائر، جاءت في قوله (١٩٧):

المـــيلادو جَـــا في الطُّـــرْسِ   أعْـــدَمْ يـــا مُطَهَّـــمْ أرْسِ

النَّهْـــرِ ونَـــارْ الفُـــرْسِ   والـــسَّما بالـــشهبْ مُنْحَـــرْسِ

كأنه يقول: يا أيها المتردِّد المتلجلج المضطرب اثبت و(أرسي) فإنَّه قد جاء في الطُّرس وهي الكتب أنَّ رسولك (ﷺ) منذ أن ولد أعدم نار الفرس ونهرهم ومُنِعَتْ السماء من استراق السمع؛ ففيم الاضطراب والحيرة؟

وكثيراً ما يصف المحب بالأدور وهو قريب من المطهم، ولعله (المقلوب الرأس) غير المستقر كأن به لوثة أو دُواراً، فهو لا يرى الأمور كما ينبغي أو كما هي عليه كما قال (٤٤٠):

مَطْـــروح الجـــبينْ مـــنَّ البـــدُور أنْـــوَرْ   واسْـــع المقْلَـــتِينْ أدْعَـــج كَحِيـــلْ وأحَـــورْ

كـــالنُّون حـــاجْبُو أزَجْ أفْـــرَق أَيَـــا أدور   يُعـــرف بالـــسِّكَكْ ريـــحْ عرْفُـــو إنْ أدْوَرْ

فالأدور الأولى المقلوب الرأس والثانية من الدور وهو الأسبوع. وتكررت في قوله (١٦٨):

فِـــي الرســـل يـــا أدوَراً   أو مَـــنْ اسمُـــو انقـــرن

في كل الرسل من الذي قرن اسمه باسم المولى عزوجل غيره وذلك في الأذان والشهادة.

ومن الألفاظ الشبيهة بما مضى كلمة (الأَشَو) كما في قوله:

إن مـــرَّ علـــى الكـــشو   اخـــضرّ فيـــا أَشَـــوْ

الكشو: اليابس، والأشو: الساذج العامي.

وقد يتوجه بالتقريع والتوبيخ إلى عقولهم فيصفها بالبلادة والغفلة والانغلاق إذ كيف لا تحركها ولا تؤثر فيها صفات الممدوح، كما قال (٨١):

سـيِّدْ جَمِيـع ولـدا　　　آدَمْ أيَـا بُلَـدَا

أو قوله (٨٩):

فَـاقْ يَـا ذَا الأقْفَـالِ　　　كَافِـلْ الأطْفَـالِ

أي يا صاحب الأقفال التي منعت عقلك من الفهم إنَّ رسولك فاق إبراهيم عليه السلام. وتحس بالشاعر أحياناً يهزُّ المتلقي هزَّا عنيفاً حتى يحرك فيه الحس كما قال (٣٦٠):

الأنبا والأرسال حِسْ يا مُغَفَّلْ　　　يَرْجُوا شَفَاعَة المَقْبُول المَنَفَّلْ

إنَّ الأنبياء والمرسلين يرجون شفاعة صاحب القبول والعطاء، ألا تُحس ألا تشعر بهذه العظمة يا غافل؟

وقد تدعوه هذه الغفلة إلى أن يتهم المحب الغافل بأنّه طفل لا يفقه ولا يدرك عظمة الممدوح كما قال (١٩١):

بِه مَنْ عزَّ يَا طفيلُ　　　صَاح أبِي مِرَّة وَا ويلو

ويحضه على الوعي والتركيز والإدراك (٣٤٣):

نَيْل المائةْ ألْفٍ من جزء نيلُو　　　والأربعة وعشرين أعي يَا طُفَيل

إنَّ الرسل الذين بلغ عددهم مائة ألف وأربعة وعشرين رسولاً ما نالوا إلا جزءاً يسيراً مما ناله رسولك (ﷺ). فتفهم هذا يا قاصر الفهم!.

بل قد يشبه المحب والمتلقي الغافل بالبعير لأنَّه يحمل الأحمال الثقال ولكنه لا يدري ما هي كما قال (٥٣٠):

الْلِي الشَّفَاعة لزُوم　　　بَسْ بَعْدَ مَا فِي لزُومْ

القُومُو يَا مَخْزُوم　　　لا قْيَابُو كُبْر الزُّوم

هذا الرّسُول الذي لزم الشفاعة وقال: (أنا لها)... ليس لنا بعد الله سواه.. فإنّ أمته نالت به الحظ الوافر، لكن ذلك لا يدركه المخزوم وهو البعير الذي في أنفه خزامة وهي الحلقة التي يكون فيها السير أو الحبل الذي يقاد به.

وقد يرمي المحب بالبلاهة والغباء إذا لم يُحركه جلال المحبوب ولا جماله فيقول (٣٦٠):

الله أكْبَر يَا دِلاه　　　ذا الْوَحْدُو مَحْبُوب الإلَه

فالدلاه أو الدلاهة هو الأبله العبيط. ومثله المغبي في قوله (٤٢٥):

يَحْلِب وَيَرْعَى سِيدْ عُقْبِي ويَخْصِف ويرفا يا مَغْبِي

وقد يقرِّع المحب بما يوحي بأنَّه صورة لا تحمل معنى وأنَّه فارغ الجوف، كما قال (١٧٤):

مِنْ بعدِ ما السور ما نقول في أيا صور؟

من بعد القرآن ماذا ترانا قائلين أيُّها الأشباح التي لا أرواح فيها. وهذا أشبه بقوله (١٧٣):

بالرُّعْبِ والهبُوبْ نَصُروا الله فَيَا عَبُوبْ

والعبوب هو الفارغ الجوف، وهو صورة بلا روح كما مر في المقطع السابق. وأصل العبوب هو صغير البهائم إذا مات سلخوا جلده وحشوه تبْناً وعرضوه لأمه إذا خافوا أن تحبس الدر (اللبن) في ضرعها، فإذا شمَّته درت وجادت باللبن.

وكثيراً ما يرمي المحب بالجلافة وجفاء الطبع وإلا فكان أحرى أن تحدث فيه أوصاف الكمال أثراً يريح الشاعر من هذه الثورة المتقدة المستمرة وما أكثر ما ورد عنده لفظ (الجلف) كما في قوله (٣٠٦):

قاب قوسين وقلْ يا جِلْف والجمع الأغر سل خلْفِي

وقوله (١٨٢):

لا افتخاراً يا جِلف إني بمدحه قد كُلِفْ

وقوله (٢٠٧):

كلهم بالحلف يرتجونَ شفاعتُو الرجيح يا جلف

أي الرسل.

وقريب من (الجلف) لفظ (العِلْق) وكلاهما الغليظ، وربما نُطقت الأخيرة بالجيم وهي هي، والعلج حمار الوحش، وليس في ذوات الحافز أغلظ منه. ورد في قوله (٣٠٦):

جاهُو العَمِيمْ حاط يَا علق باللاق كمان والما بيَلق

صلى الله وسلم على صاحب الجاه الواسع الشّامل الذي يشمل الغليظ والجافي واللائق وغير اللائق.

وقد يبكِّت المحب ويصفه بالافتراء كما في قوله (١٦٥):

النَّـــــــــافِر دَسْـــــــــتَرَا حَوْلُـــو الـــسَّام واكْتَـــرَى

والـــشمس حِـــينْ تَـــرَى تَخْجَـــل يَـــا هَنْتَـــرَا

(النَّافر دستر) أي الصيد ألف الحبيب وأنس به وقال (دستور) وحام حول الذي باع وتأجَّر يا أيها المفتري (العامل فيها هنتر).

ومن الألفاظ التي يقرع بها قولهم (يا بعيد) وهي لفظة استنكار واطّراح، وردت عند الشاعر في قوله (٣٧٩):

كيـــــــف يـــــــا بعيـــــــدُ

لم لا وهـــو المقبـــول شـــافع الوعيـــدُ صـــاحب لـــوا الحمـــد نـــور المعيـــدُ

هِيلـــو الجنـــانْ والحـــوضْ لِـــي مَـــنْ سَـــعِيدُ

هذا وقد تقع هذه الألفاظ وأمثالها في سياق المدح والثناء لا الذم والتقريع وفيها أيضاً دعوة إلى التدبُّر والوقوف عند معاني ومغاني صاحب الجلال والكمال كقوله (١٧١):

مِـــــنْ آيـــــو أيَـــــا بُـــــصُر الرُّعـــــــبِ والنَّـــــــصُرْ

والعَـــــادتْ لِـــــي العـــــصُر والنـــــاي رضـــــى بالقـــــصُرْ

أي تأملوا يا أصحاب الأبصار أو البصاير هذه الآيات العظيمة؛ نصره بالرعب ورجوع الشمس وطي المسافات البعيدة.

أو قوله (٢٤٢):

أحْمَـــــد يَـــــا عُقَـــــلا أنْتَعَـــــلْ الـــــنَّقَلا

أي لبس النعل المخصوفة (ﷺ)... وفي القصيدة نفسها (٢٤٢):

عَـــوَّلْ يَـــا زُمَـــلا علـــى مَنْهِـــي الأمـــلا

يعني أنا عوَّلت واعتمدت أيها الزملاء على منتهى الآمال (ﷺ).

وقد يصف المحب بالنجيب ترغيباً كما في قوله (١٨٥):

أرْجَـــعْ يَـــا لِـــسانِي وجيـــب نَظْمَـــاً دُرْ جِنَاسُـــو عجيـــب

فـــوق ذُو العِـــزَّة والتوجيـــبْ عنْـــد الله المجيـــبْ يـــا نَجيـــبْ

ومثلما نفَّر المحب من غياب العقل والفكر عاد هنا فدعاه إلى حضورهما فقال (٦٠):

صَـــــحْبُو يـــــا فُكُـــــر أشْـــكُرُمْ في الآصَـــال والبُكـــر

والفُكُر، هم أصحاب الفِكر مثل الصُّبُر وهم أصحاب الصَّبر والبُصُر وهم أصحاب البَصَر. والمبحث طويل.

وعلى الجملة فإنَّ هذا من براعة الشيخ التي لا تخفى. فهو يعمد إلى الألفاظ المصنفة في ألفاظ الذم والسباب فيجعل منها أمراً مقبولاً وينشئ منها أوتاداً يقوي بها كلامه ويُمتِّن بها نظامه ولعلَّ المتابع يلحظ أنَّ التقريع يقع بعقب وصف عظيم وجليل يملأ المسامع والقلوب جلالاً وجمالاً، والشاعر يلفت إليه لفتاً لا يخلو من خشونة لأنَّه حين يمتلئ صدره بالمعاني الجليلة لصاحب النعم الجزيلة يحبَّ أن يُحرك المحب حتى يقع في قلبه ما وقع في قلب الشاعر ويفهم ما فهم لينال ما نال من تمام المُتْعةَ والأنس بجمال الممدوح وجلاله وجماله (ﷺ) ولا يخفى الترغيب في الصفات الحسنة والتنفير من ضِدّها ولا يكون ذلك إلا بدوام التنبُّه والتيقظ والتأمل الّذي يثيره مثل هذا الزجر والتقريع والتبكيت، الذي يصدر من المرشد المربي.

الأعداء

الدعاء مخ العبادة وهو مذهب الشيخ حياتي الذي لم تكد تخلو منه قصيدة في المقاطع والخواتيم، دعا للأمة ولأحبابه ولنفسه عملاً بالأثر: "من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم"، ولكن فئة واحدة لم تجد عند الشيخ عذراً ولا محملاً حسناً فلم يتسامح معها ولم يدعُ إلاَّ عليها وهي فئة الأعداء والمستهزئين والحُساد والباغضين والعُذال واللائمين. وكان الرّجل يحب ويبغض في الله. وكانت تجارته الرّابحة محبة رسول الله (ﷺ) وكانت سلعته النفيسة هي مدحه (ﷺ) متخذاً من ذلك وسيلة للدعوة. هذا هو رأسماله الّذي يعتمد عليه، لا يقبل في ذلك مساومة ولا مهادنة وعدوه الأول هو الذي يقف في طريقه هذا.

هذا وقد دعا الشيخ حياتي للمسلمين جميعاً ولأحبابه خصوصاً دعاءً لا يكاد يستقصى في صلب مدائحه أو في مطالعها وخواتيمها. وقد دعا للصالح والطالح (٤٩١):

الصّلاة مِنْ حَيَاتِي النَّامْيَة غَفَّارا ... لي ذَنْبُو ورَجَا تَبْقَالُو كَفَّارَه

تَنْجِي المُسْلِمِينْ مَا تْخَلِّي طَفَّارَا ... وتَكُف نَارْ لَظَى وتَبْعِدْ بِكُفَّارَه

وقال (٣٩٠):

مِنْ حَيَاتِي الصَّار بِهَا أغْنَى تَاجِرْ ... تَنْجِي تَنْجِي النَّاس بَارّاً وَفَاجِر

وقال في ثالثة (٣٣٠):

كِلا الدَّارِينْ تنِيلُو شَرَفْ ... وتَنْجِي الطَّاعْ ومَنْ اسْرَفْ

وفي رابعة (٥٥):

البَلِيد فِي النَّاس تَنَجِي والمُلْسِنْ

وفي خامسة (٤٥٦):

تَنْجِي المُسْلِمِين طُرّاً عبيد وأحرَارْ

فدعا للمسلمين جميعاً البار والفاجر والطائع والمسرف والبليد والملسن والمسيء والمحسن إلاَّ أهل العداوة لتجارته وهي المحبة والمديح فإنَّ هؤلاء قد كثر دعاؤه عليهم حتى أحصيت من ذلك أكثر من ستين موضعاً لم يرحمهم ولم يتسامح معهم ولم يصبر عليهم إلاّ مرتين فقط وله في ذلك أكثر من مسوِّغ، الموضع الأوّل في قوله (٥٥٢):

بِي حَقْ صَحَابْتُو أهْدينِي ... مَوْلاي واخْلِص دِينِي

وارْضَانِي خَلِّصْ دينِي ... واهْدِي النَّوَى يَعَادِينِي

فقوله (واهدِي النَّوَى يَعَادِينِي) دعاء بالهداية ولكنه احترز، فإنَّ هذا لم يصبح عدواً بعد، ولكنه نوى... والنيّة صالحة وقابلة للتبديل. وحين مررت بهذا الموضع بالديوان قديماً وجدتني علقت عليه بقولي (بكَّرْت والله!) لأنَّه إذا دخل في أهل العداوة فله الويل. أمَّا الموضع الثاني فقوله (٥٧):

رَبِّ وأكْرِمنِـــي وأكْـــرِمْ مُـــصَافينِي غَايَـــة الإكْـــرَامِ واهْـــدِ جَـــافِينِي

والجفاء قد يؤول إلى وصال ولين، وقد تقع الجفوة بين المتصافين ثم تزول. فيما عدا ذلك، لك أنْ تصول وتجول في ديوان الشيخ عرضاً وطولاً فإنَّك لن تجد تساهلاً أو تراخياً أو تهاوناً مع الأعداء؛ لن تجد إلا حرباً ضروساً ووجهاً عبوساً ودعاءً عليهم وظَّف فيه كل معارفه التراثية كما سيمر بك إن شاء الله.

وأوّل ذلك بل رأسه وأساسه عداوة المنكرين لمدح الجناب فهؤلاء قد هجموا عليه في غاره ونازعوه في كاره كما فصلته في مبحث (قدر المديح عنده)، أليس هو القائل (٢٨٢):

إيـــشْ حَـــالِي أنَـــا المِـــنْ قُـــم صَـــغِيرْ خَـــدَّامْ شَـــفِيعْ يـــومْ الـــوَقِيرْ

مَـــا صِـــرتَ خَـــدَّاماً لِغَـــيرْ عِـــنْ غِـــيرو مَـــا أسْـــوَى الـــنَّقِيرْ

والقائل (٢١٥):

حَيَّـــــــــــــر أفْكَــــــــــــارِي مَـــدْحُو مِـــن والْـــدِي الرَّسُـــول كَـــارِي

والقائل (١٦٠):

بـــي البحُبُّـــو كُلِـــفْ قَبْـــل مَـــا اتْكَلَّـــفْ

والقائل مفتخراً بحرفته (٣٣٢):

فَخَتِّيـــــتْ بـــــالعَجْزْ اسْـــــمِي ولا فَخْـــرَ المَـــدِيحْ قـــسْمِي

بقِيـــــتْ تَـــــاجِرْ بـــــه رَسْـــــمِي ويَـــا فَخْـــر اللِّـــي بَـــىْ مَـــسْمِي

والقائل (٤٩٠):

غِـــيرْ أمْـــدَاح نَبِيـــكْ لا حراتَـــه لا تِجَـــاره

فكيف لا يدافع عنه من كانت هذه حاله لذلك نراه يقول (٢٨٢):

لا شَـــكْ بِـــه نِلْـــتَ الـــشَّرَفْ عنْـــد العَـــوَامْ وأهَـــلْ العـــرَفْ

إلا العَـــدُو المِنُّـــو انـــصَرَفْ عَـــرف الـــسَّعَادة مَـــا كَـــرَفْ

مِـــنْ حَـــالُو كُـــرْ أخْـــدُو الهَـــرَف

صنّف المنصرف عن المديح في الأعداء بلا تردد؛ وهذا مبدأ لا يحيد عنه، لذلك استمر في وصف هذا العدو الشقي قائلاً (٢٨٢):

ويـــنْ إِمْـــشِي اسْـــودَّتْ عَلِـــي　　حيـــثْ إِنُّـــو غَـــضْبَانَاً عَلِـــي

والزَّهْـــــرَا والكَـــــرَّارْ عَلِـــــي　　والتِّـــــسْعَة والتُّبَـــــاعْ عَلِـــــي

والبَعْـــــــــــدَهُمْ عَلِـــــــــــي وآ عَلـــــــــــي

فالمنصرف عن المديح منحرف عن المحبة، تسودّ الدُّنيا في وجهه أينما اتجه، لأنَّه أغضب الرّسول وعترته وصحابته والتابعين وتابعيهم فيا ويله و(وا عليه).

وتجد مصير هذا المنصرف في كثير من مدائحه، يحرّض عليه الرسول (ﷺ) ويحرض عليه الصحابة حين يخصهم أو يخصُّ أحدهم بقصيدة، قال في مدح الإمام عثمان بن عفان (رضي الله عنه) (٤٥٦):

غَنَّايَـــكْ أيَـــا عُثْمَـــانْ بَـــدُورْ شَـــرَفُو　　عِنْـــدَكْ وامْتِهَـــان المِنُّـــو انْـــصَرَفُو

وإكْـــرَامْ الّـــذي مَاسْـــكِنُّو مِـــنْ طَرَفُـــو　　وارْفَـــعْ في الجِنَـــانْ غُـــرَفُمْ حِـــذَا غُرَفُـــو

يريد إهانة المنصرفين وإكرام (الماسكنو من طرفو) أي الحريصين عليه.

كرر ذلك في مدحه الكرار (٤٩٩):

غنايـــكْ أبَـــا الـــسِّبْطينْ هَازِيـــهُ　　سَـــوِّد ختْوتُـــو وكَـــازي البكَازِيـــهُ

فالهازئ كالمنصرف أيضاً يريد له إظلام الدنيا في وجهه ومعاكسته.

ويسأل الله ذلك بجاه الصحابة أجمعين (٧٤):

بـــــي جَـــــاه ليُـــــوث الكـــــر　　أمْكُـــــرْ بمَـــــنْ بِـــــي مَكَـــــرْ

مـــــــــــولاي واخْـــــــــــزِي مَـــــــــــنْ أنْكَـــــــــــرْ

ويشتد في الدعاء على هذه الفئة المنكرة قائلاً (٣٣٥):

مَـــدايحِي التّبْقَـــى مَقبُولَـــه　　وفيهـــا العِـــزّه مَجْبُولَـــه

أهَـــالِي الْحَـــبّ يحبُـــولا　　وفي كَـــسحه اللّـــي يَـــابولا

وقوله (في كسحة) أشبه بقولهم راح في داهية، والكسح والكشح الإزالة.

ويوصي المادحين بألا يكترثوا لهذا الصنف الضال الخائب بقوله (٣٠٦):

سَـــبَّابَتِي جُـــنْح الهَجَـــعْ　　لأهَـــلْ الغَـــرَامْ سَـــوُّوا الوَجَـــعْ

واْحْمُـــوا المَنَـــامْ للاضْـــطَجَعْ　　مَـــا بِـــيكُم ابْ صِـــيدا نَجَـــعْ

إنْ شَـــــــــا الله لا جَـــــــــا ولا رَجَـــــــــعْ

جعلهم سبابة لأنه تاجر جملة وهم يأخذون من بضاعته وينتشرون في الأرض يحيون بها الليالي يبثون الوجع النبيل في أهل المحبة حتى يمنعوهم المنام، أمَّا الّذي يأباكم ويرفض بضاعتكم فليس لهذا نصيب (في الطيِّب) لأنَّ الصيد هرب منه كناية عن سوء حظه وانعدام النصيب ويرجو لمثله أن يبقى على هذه الخيبة.

ولكنه كعادته في تجويد العرض يعمد إلى انتقاء البضاعة النفيسة التي لا سبيل إلى ردّها (٣٩٥):

مِـــنْ غـــير رِيَــاء أو تنتنـــهْ | أمْـــدَح مَـــدَايحُو مكَـــسْتَنَه
واعْمَـــل عَليهَـــا التَنْتَنَـــهْ | أدِّيهَـــا عَاشِـــقْ مُفْتَنَـــا

واليَـــــابَى إنْ شَـــــا لله مَـــــا تَنَـــــى

بعد الإخلاص والتجويد والتحسين واختيار أهل المحبة الحقيقية لا عليك من الرافضين (علّهم ما رجعوا) والحقيقة ربما كان القدح في المديح بسبب مسلك بعض المادحين مظهراً ومخبراً.

وبعد أن تبيَّن الأساس الذي يبغض بموجبه ويصافي، يريك تتبع الديوان أنَّه نوّع في الدعاء على هؤلاء المغضوب عليهم ونوّع في تسميتهم، وغالباً ما يسميهم أعداءً مطلقاً وقد يسميهم حساداً وهازئين وعائقين ولائمين وباغضين وصادّين وعُزّالاً وأنادل، كل ذلك وغيره وصفهم به ودعا عليهم بما يستحقونه.

أمَّا العداوة المطلقة لصنعته ولصاحب الصنعة وأحبابه فلا سبيل إلى تقصّيها في الديوان من فرط كثرتها ولكنا نأخذ منها أطرافا تبين طرائقها وأوّل ذلك قوله (٢٢٥):

خُـــذْ مَـــنْ عَـــادَى لـــيَّ بالأخْـــذِ الوَبِيـــلُ | في الـــسِّرْ والعَلَـــنْ إنْـــتَ إيّـــاك قبيلُـــو

والأخذ الوبيل هو المُهلك وهو من كلام القرآن.

وقد تكون الدعوة موجزة ولكنها وخزة دامية ووكزة قاضية كما قال (٣٢٩):

عِـــدَايْ كِيْـــدَا أطْعِـــمَ الزَّقُـــومْ | هُنَـــا ويُـــومْ القِيَامَـــه تّقُـــومْ

أو قوله (٤٣٣):

أرْشَـــــــحْ أحْبَـــــــابي | ولـــــي عِـــــدَاي أكْـــــشَح

وقد يدعو عليهم بالخزي والخذلان (١٧٩):

سَـــوْ سَـــاحَاتِي خِـــصْبَة نَديَّـــة | بـــالخَيْرَاتْ، وأخْـــزِي عَدَيَّـــه

وقد يدعو بتدميرهم (٢٧٠):

لـك يَـا كَـرِيم اجْعَـل سَـعِيْ بـــالفور، ودمِّـــر مُـــدَّعي

أو يدعو بإشغالهم عنه، كما قال الآخر (واشغل أعداي بأنفسهم) في قوله (٢٢٠):

عـــلْ هِمَتِـــي فيـــكْ واشـــغِلْ عِـــداي

أو يسأل الله أن يكفيه شرهم (٣١٤):

وَاكْفِينِـي شَـرْ مُـوتْ الغِـدَادْ والأعْـدَا والفَقْـر الكـدَادْ

وأن يهزمهم فرادى وجماعات (٥٥٧):

تلتـــزم حِمْلُـــو التـــزامُ جـــيش عِـــدا تهزمـــو انهـــزامُ

وأن يقيدهم ويلجمهم ويكفّهم عنه (٥٥):

الـــصّلاه تَحْـــسِنْ عاقبـة أمْـري ولـي عـداي ترسـن

جعلهم هنا كالإبل، يقادون بالرسن بعيداً عنه.

أمَّا تخليدهم في النَّار فهو الجزاء الأوفى الذي يريده لهم (٤٥٦):

تَنْجِـي المـسْلِمينْ طُـرا عَبِيـد واحْـرَارْ إلا العَـادى لـي النَّـار تَكـونْ لُـو قـرَار

وتشتد الوتيرة فيدعو عليهم قائلاً (٤٨٦):

تَنْجِـي احبتُـو واعـداهُ افترسـنْ والـنيران عُقُـب هرسـن لهـم هرسـنْ

فانظر إلى هذا الافتراس والهرس المضاعف.

وقد يدعو بإزالتهم من على وجه الأرض (٤٦٦):

لا يَنِيـلْ خَيْرَهَـا مَـنْ حَـبَّ تَنْفِيهَـا تَنْجِـي احِبَّتُـو واعـدَا التَّفَافِيهَـا

والمفافاة هي المحو والإزالة، أعادها في موضع آخر يدعو عليهم أيضاً (٤٥٩):

عَـادِي العَـــادَى لـــي وعَجّـــلْ مَفَافـــاتُو

وتخفُّ حِدة غضبه عليهم أحياناً ويدعو عليهم بالبعد والقلق؛ وليس هيّناً (٥١٣):

أعْـدَاي مِـنْ ديرتِـي زَازْ واجْعَـلْ نـومَهُم خَـزَاز

وزازاه إذا أبعده، والنوم الخزاز: المتقطع قلقاً أو ألماً.

ثم يدعو دعوات غاضبة لكنها طريفة فيقول (٥٢٦):

والعّـادَى لـي مَـا عَـادْ ياخْـدُو الأخَـدْ نَـاس عَـادْ

وناس عاد أخذتهم الصيحة فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم.

ثم يدعو عليهم بأنْ ينقطع نسلهم، استئصالاً لشأفتهم (٤٢):

عجّــل الرّاحَــه واكفِنَــا كَعَــبُنْ　　　العِــدا العَــادوكْ يَنْقَطِــع تَــرَبُنْ

والتنويع أسلوب حياتي الذي لا يحيد عنه، فهو وإنْ ذكر الأعداء عشرات المرات إلا أنك لا تشعر بالملل الذي يصيب القارئ من التكرار، لأنّه يعيد المعاني ولكنه لا يكرر الألفاظ بأعيانها ولا الأساليب بذواتها، ومن أمثلة التنويع هنا أنّه يصرح بالأعداء تارة فإذا أكثر عاد إلى ذكر ضِّد الحال أو عكس ذلك، كما في قوله (٤٨٢):

مِنْهَــا قلُــوبْ أحِبَّــا المقــبلاتْ لقَحَــنْ　　　وأنــوارَا العَلَــتْ فِي ألْبَابَهَــا قَــدَحَنْ

بالــضِّدْ لــي عِـدَا أريَــاحْ الغَـضَبْ كَـتَحَنْ　　　فُــوقُمْ مِنْهَــا والــنِّيرانْ لهُــمْ لَفَحَــنْ

وذكر لفظة (الضِّد) أي ضد حالة الأحباب في مواضع كثيرة منها (٤٧٤):

بالــضِّد للعِــدَا يَمْــسُوا ويَــصْبِحُوا هَبَــاً　　　عقبــانْ أُمْ جَحِــيمْ يبْقُــوا لَهَــا حَطَبَــاً

وفي موضع ثالث (٤٦٩):

كّــافَي احبَّتُــو النفوسَــا مالْفَــاهُ　　　والــضِّدْ بــالعكس الهاوْيَــة خَاتْفَــاهُ

فللأحبة المكافأة ولضدهم وهم الأعداء النار الهاوية التي تختطفهم.

واستخدم مرادف (الضِّد) وهو (العكس) في قوله (٢٣١):

الــصَّلوات حَيَــاتِي تَبَــاركُو　　　لا تخلّــي القَرِينَــة تَــشارْكُو

خــيرَا يَعُــمْ أَحيَّــا يوَارْكُــو　　　عَكْــساً بِالعِــدَا تَقُــوم كَــارْكُو

خير هذه الصلوات يعم الراوي وأحبابه ويواليهم، أمَّا الأعداء فبالعكس يريد لهم شحناً جوياً (cargo) كأنّه أراد (سفر البُنْ دقْ وحرق) كما نقول.

ومما يدخل في التنويع أنه لا يسمي هؤلاء التّعسَاء بالأعداء دائماً وإنَّما يفزع إلى كثير من المترادفات التي تؤدي معنى العداوة، أو هي من أسبابها، ومن ذلك الحُسّاد، فإنهم أعداء لا يحبون له الخير، فدعا عليهم وأكثر كقوله (٣٣٥):

إلهــي أرْقَــى المعَــالِي أســودْ　　　وأكْبِــتْ وأكــوِي كُــلَّ حَــسُودْ

وبِــيضْ أيَــامِي لا تَكُــونْ سُــودْ　　　وَلا يَمْــسَسْ تِجــارتِي كَــسُودْ

وما تجارته إلا المحبة والمديح وما جاءه الحسد والعداوة إلا من جرّائهما. وهذا شبيه بقوله (٥٣٤):

بِــي جَــاه صَــحْبُو الأسُــودْ　　　لا تّبْقَــى أيَامْنَــا سُــودْ

يَــا مَــنْ عَلــي النَّــسُودْ　　　نَــسْمُو ونكْــوِي الحَــسُودْ

(يا من علي) أي يا من أنت عليٌّ أو يا من تعاليت نسألك السيادة والسّمو وكي الحاسدين.

وبالغ في قوله (٤١٧):

بيـد أهَـلْ الحَـسَد في الجُمْلَـة وأفـواهُم عَقـاربْ أمْـلا
والحبَّانَـا بينـا اسْـتَمْلا أمْحَـا ذنُوبُـو لَـوْ بالجُمْلَـة

وهو دائم الاستتار وراء جُنّة صلواته على الحبيب (ﷺ) تحرسه وتقيه (٥١٠):

تَبْقَـالُو دَوْمَـاً خَفَـرْ تكْـوِي الحَـسُودْ والكَفَـرْ

ومثلها صلاته الأخرى وفيها يقول (٣٥):

الـصَّلاه الغابطـة تَمْحَـى أوْزَارِي اللّـي العمـل حابْطَـه
لـي حيَـاتِي تَـسَوْ كُـل يـوم رابطـه مـن مواهـب الخـير والحـسود نابطـه

والنَّبط هو الرفس والرَّكْل والإبعاد. وهو مصير مناسب بإبعادهم من مواهب الخير.

ويستمر التنويع في تسمية الأعداء والإبداع في الدعاء عليهم، فيسميهم الهازئين واللائمين العائقين والخشامة والعوازل، والأنادل كما قال (٣١٦):

مِـنْ سـابُو صَـار مـسيِّب يـا هـازئين يـا خُيِّـبْ

أو قوله (٣٠٢):

كَمَـداً يَمُوتُـوْ عَوَازلَـكْ

ويعـود إلى الحـض علـى مـدح الجنـاب والـضرب صـفحاً عـن كـلام اللائمـين والعُذَّال (٣٢٤):

يَـا حَيَـاتِي إنـت أَيَـا جَـدَعْ قـول فـوق نبيـك سـوِّي البـدع
واللائمـين للامـا دعْ الجنـه ليـك، ولمـن رَدَعْ
نـار أمْ جَحـيم فيهـا انْجَـدَعْ

يقين لا يتزعزع بشرف مهنته، وهي مدح الممدوح من فوق سبع سموات، ولا يريد مدحاً عادياً وإنَّما المبالغة والغاية في الاجتهاد و(سواة البدع) كما بيناها في مبحث التراث. افعل كل ذلك ولا عليك باللائمين والعواذل فإنّك على الحق المبين لك الجنة ولمن ردعك ومنعك نار ام جحيم يُلقى فيها بإهمال (انجدع).

وكما أراد أنْ تكون صلاته خفراً وحفظاً ورابطة، أراد أن تكف عنه ضرباً آخر من الأعداء ذكرهم في قوله (٤٩٣):

بيهَـا إنْ شـالله يَبْقَـى في البَلَـد شـامه وتكـف عاقـة العـايقين وخـشَّامه

يريد أن ينجو بجاه الصلاة من العائقين والثرثارين.

ولا يبرح يجعل من المديح المدار الذي يبغض فيه ويصافي، فهو غَنيٌّ بحب المرتضى وهو خادم جنابه بعكس الانذال الذين قال عنهم (٣٥٢):

لكـــنْ بعكـــس الحَـــال عنـــد الأنَـــادِل   المُفْلِـــسِينْ مِـــنْ حبُّـــو، الحبُّـــو بَـــادِلْ

المرْتَـــضَى الإنْـــسَانْ لَـــه مِـــنْ يعـــادل   يَـــا قُومُـــو كَـــان صَـــلّى قَـــابِض وسَـــادِلْ

انظر هذاالتوشيح والترصيع للآلئ بالدرر، فقد أدخل الفقه في المدح دون أن يشعرك بذلك فقد قبض الرسول وسدل في صلاته كأنه يقول لأحبابه هذه رخصة الفريقين دون تشدد أما الأنادل فواحدهم (ندل) وهو الحقير وأصله بالذال (نذل) وربما كان أثراً مصرياً، ولا يبعد. هؤلاء الأنذال الأراذل مفلسون من حُبِّ الرسول الذي يجعل حبّه أهل الصفاء أبدالاً؛ والحب البادل هو الّذي يغير حال صاحبه حتى لا يدري عما يفعل.

وقد يسميهم الباغضين ويدعو عليهم دعوة قاسية (٥١١):

والبَـــــاغِضْ عُمْـــــرِي   أطْعمـــــــه الجَمْـــــــرِ

كما أطعم بعضهم من قبل الزَّقوم... وكلُّه داخل جهنم فهنئياً مريئاً. وسمّاهم الساعين بالسوء فقال (٤٤١):

واجْعَلنِـــي قَرِيـــبْ في الـــسّادَة الأخْيَـــار   والـــسّعَى في بـــسُوءٍ ياخُـــذُو الهَيَـــارْ

والهيَّار هو جرف جهنّم وطرفها الذي تزل فيه القدم فينهار به في جهنّم.

ودعا على هذا الساعي بالسوء بدعوة أخرى في قوله (٥٥):

يَـــا كَـــرِيمْ واعْطَـــبْ مِـــنْ بـــسوء يـــتهِمْ   لـــيَّ والبلـــوات لـــيّ لا تـــدهم

(ليَّ) الأولى من تمام (يتهم ليَّ) أي يتهمني، والثانية (لا تدهم ليّ البلوات) أي لا تداهمني وتهجم عليَّ. والعطب هو الهلاك.

وتجد معنى العداوة غير الصريحة في مثل قوله (١٨١):

أقْهَـــــرْ وآبَـــــى لِـــــي المَـــــا بِينَـــــا

الذي يأباك هو عدو لك كالباغض ونحوه. وتكررت عنده كثيراً في مثل قوله عن الصحابة (٩٠):

صَـــــحْبُوا رَاحَـــــة بـــــالي   مُـــــونْتِي مُونْـــــة اشْـــــبَالِي

كـــــل شـــــيء واهبـــــالِي   مـــــن شـــــرور حَاجْبَـــــالِي

ونِكْلَـــــــه لِـــــــي اليَابَـــــــالِي

هم نكال لمن يأبى الراوي لأنَّ من يأبى الراوي يأباهم هُمْ أيضاً لأنّه يمدحهم. لذلك عوَّل عليهم في مرة أخرى في قوله (٦٣):

صُحْبُو أعْلامِ عَزُّوا وآووا دين الاسْلامِ
بيهمُو يَا بَرْ أشْفِي آلامِي سَوْ عِدَاي عنِّي الجُمْلَة بُلاَّمِ

أي: أسْكِتْهُم، وكُفّ عني ألسنتهم.

هذه قراءة سريعة لمسيرة الأعداء في ديوان الشيخ حياتي، فهو لا يتسامح معهم ولا يهادنهم، وأصل عداوته لهم نابع من عداوتهم للممدوح لأنَّهم لا يحبونه إذ لو كانوا يحبونه لأحبُّوا مديحه. وإنَّما المدح سيرة وسنة وأدب والذي يعادي ذلك فهو عدو الشاعر اللّدود. وقد ضرب مثلاً فريداً في الحب في الله ورسوله والبغض فيهما، رحمه الله وأحسن إليه.

المجاراة

المجاراة من الفعل (جارى) وهي أن يجري الشاعر على آثار شاعر آخر فيتبع أوزانه وقوافيه مع اتفاق الغرض. ونظر الشعراء بعضهم إلى بعض قديم، ويؤرخ له في المديح النّبوي بلاميّة كعب بن زهير الّذي كساه النبي (ﷺ) بردته لما سمعها وأولها:

بانــتْ سُــعَاد فقلــبي اليــوم متْبُــول مُتــيّم إثرهَــا لم يفــد مكبُــول

وهي التي نال صاحبها عفواً وجائزة وذكراً حميداً كما يقول البروفسير عبدالله الطيب لذلك فزع الناس إلى مجاراتها تبركاً حتى يكاد يعجزك إحصاء ذكر من جاراها. ثم جاءت ميمية الإمام البوصيري التي عرفت بالبردة أيضاً لرؤيا رآها ومطلعها الساير:

أَمِــنْ تَــذكر جــيران بــذي ســلم مزجــتُ دمعــاً جــرى مــن مقلــة بــدمي

ثم صار ذلك ديدناً للشعراء وسنة. فما تكاد تظهر قصيدة وتشتهر حتي يتصدى ويتصدر لمجاراتها من يهيئ الله له ذلك، فمنهم من يسمو ومنهم من يتوسط ومنهم من يَرِكّ، ويبقى الفضل للمتقدم. وهذا الأمر في ديوان المديح النّبوي في السُّودان مما أَلِفه النّاس وتعودوه وما على من يأتيه مأخذ ولا عتاب خصوصاً إذا كان مبدعاً ومجوداً ومتفرداً ومُضِيفاً. وقد كان للشيخ حياتي في ذلك نصيب وأي نصيب، فقد جارى مشاهير الفحول من مداح الرّسول فما قصر في الاقتفاء وإحياء السنة ولا تأخر في الإبداع والتفرُّد والذاتية والاستقلال.

أشار الشّيخ حياتي إلى القدماء من مادحي الجناب مثل حسان والبوصيري والبرعي اليماني والنابلسي وغيرهم فقال عن حسان (١٥٧):

حلــي الأطبــاع كــذا لــسانُ عَيَــــتْ أوْصَــــافُو حــــسانُ

فهو إمَّا أنْ يصفهم أو يذكر عجزهم عن وصف الجناب أو يتمنى مقامهم أو يقتبس من أقوالهم كما قال (١٢٨):

صَــــــــحابتُو النُّــــــــدّر كنبــت ربــا فــوق خيــولاً قُــدَّر

فهذا من قول الإمام البوصيري (النبهاني ٤/١٣):

كــأنَّهم في ظهــور الخيــل نبــت رُبَــا مِــنْ شِــدَّةِ الحَــزْم لا مِــنْ شَــدَّة الحُــزُمِ

وقد فصَّلت هذا في مبحث (أعلام المتصوفة) و(مصادر علم الشّيخ) بما أغنى عن الإعادة هنا. ولو نظم الشّيخ بالفصيح لما تأخر عن مجاراة هؤلاء الفحول.

أمَّا شعراء المديح النّبوي في السُّودان فقد كانوا أحد مصادر إلهام الشاعر قرأ لهم وسمع منهم واستمع إلى رواتهم ولم يترك أحداً من فحولهم إلا جاراه وباراه وتبرَّك بآثاره.. وضمّن جماعة منهم في أشعاره ولكني لم أجده مجارياً له في شيء فيما علمت، مثل الشّيخ قدورة الذي مرَّ به في قوله (٤٣٤):

أُكْـــرَم زي كَـــرَمْ قـــدوره وأبلـــغ لـــي القلـــيبي بـــدُورَا

وقد مرَّ هذا مفصلاً في مبحث أعلام التَّصوف، ثم ذكر طائفة أخرى لها أكبر الفضل في أوّلية المديح في السُّودان وهم (بنو حميل) رهط المادح الشّيخ على ود حليب (توفي ١١٩٨هـ - ١٧٨٤م) وهو أقدم المادحين الذين بلغنا شعرهم، قال عنهم (٣٢٢):

أمـــدح نَبـــيْ محـــداً جميـــل تَفْخْـــر بفخْـــرُو بنُـــو حُميـــل

ومرَّ بهم في قوله (١٩١):

وأفنـــى وأتـــرك التأميـــل وأفـــرط في بنـــوه حميـــل

وأراها بمعنى: اتقدم فيما تقدم فيه (بنوحميل) وهم أهل التقدمة في مدح الجناب وقد مرّ ذكرهم.

أما بقية شعراء المديح النّبوي الشّعبي في السُّودان فقد عمد الشّيخ حياتي إلى المتقدمين أو المعاصرين منهم، فما كاد يترك إيقاعاً طرقوه إلاّ طرقه ولا طريقاً سلكوه إلاَّ تبعهم فيه مع بصر وتفرُّد.

وأوّلهم أثراً فيه وتأثيراً عليه الشّيخ ود تميم الكبير وابنه، لتجويدهما قطعاً ولقرب الديار فهذا في تخوم رفاعة وأولئك في نواحي ود مدني منطقة حوش أبَّكُر، وكلتاهما في سُرة الجزيرة والسُّودان ومنبع الوعي الديني ومؤئل التصوف ومنار الثقافة والتراث.

اقتفى الشّيخ حياتي آثار ود تميم في مجموعة من مدائحه السيّارة منها:

الحَجـــيجْ يـــا نـــاس فـــوق مَطايَـــا فاتنـــا طالـــبْ مَـــاحِي الخَطَايَـــا

فجاراها ونظم عليها قصيدته (٢٦٦):

الحَجــيج يــا نَــاس فاتنــا زَايــرْ قَــالوا طالــبْ مَــاحي الكَبَــايرْ

ولا تحتاج إلى اجتهاد في تحديد ما اقتفاه الشّيخ حياتي من آثار ود تميم، إمَّا بالمجاراة الصريحة أو بالروح التي لا تخفى على أهل المعرفة بهذا الفن. فأنت لا تسمع قول الشّيخ حياتي (٤٠٩):

عــــرج المنجـــــي خاطينـــــا   بليلــــو النَّــــاجي معطينـــــا

إلاَّ تذكرت رائعة ود تميم:

عــــرج الهــــاشمي الـــــساري   بليلــــو نــــاجى للبــــاري

ولصالح الأمين (عرج الهاشمي الصافي) وهو معاصر ود تميم ولم أتحقق من أولية إحدهما على الآخر.

ولن تقرأ قصيدة الشّيخ حياتي (٤٣٤):

العـــشوق مـــن بـــدري   ســـافر لـــي سمـــي القـــدر   أنـــا بـــبرا

إلاَّ تبادرت لك قصيدة الشّيخ ود تميم:

العـــشوق مـــن حينـــو   شـــويم للرَّسُـــول يـــس   أنـــا بِبْـــرَا

وربَّما جارى الشّيخ حياتي المدحة الواحدة مرة أو مرتين أو ثلاثاً أو أربعاً إلى أن يصل إلى ثلاث عشرة مجاراة للإيقاع الواحد كما فعل في (العيب شبابيات).

وقد جارى قصيدتين لود تميم، جارى كل واحدة منهما مرتين، الأولى مجاراة واضحة صريحة كما في قصيدة ود تميم:

الهادي المنصَّر في الجهاد بالسّيف يا الشريف   سيد مداين الريف

وقد جاراها بقصيدتين، الأولى (٣٧٣):

المــاحي المخـــصص بـــاللوا والتـــاج   يـــا الخـــزين ملجـــأ المحتـــاج

والثانية (٣٧١):

المــاحي المـــشفَّع في اللَّحَـــيْ والمـــات يالـــسَّريت   جيتنـــا بالرحمـــات

وجارى قصيدة ود تميم:

أبـــتْ العـــين تنـــوم مجروحـــة   لـــي طيبـــهْ المنـــوّر ســـوحا

جاراها بقصيدتين، الأولى واضحة ملحوظة وهي قصيدته الرائعة (٤٢٨):

أبـــتْ العـــين تنـــوم محـــسورة   شـــوقاً لـــي المدينـــة وسُـــورا

أمَّا الأخرى فهي وإن لم تكن بوضوح هذه ولكنها غير خافية في ألفاظها وعباراتها أعني قصيدته (٢٤٩):

بكـــتْ العـــين للـــيم شـــفّاعا   سكسبريـــسنا قـــام يـــا رَفَاعَـــهْ

فقد جاءت على الإيقاع المخبوت وهو إيقاع أختها السابقة ولكن اختلفت في ألفاظ المطلع تماماً. غير أنك لن تقرأ المقطع الأول منها إلا أعادك إلى مادة (أبت العين تنوم مجروحة) وذلك قوله (٢٤٩):

يَا مولايَ هَبْ لي انْفاعا الدُّنا، وانجى من آفاعا

اهرب من جوارا رُفاعه لي كابْ الأمم شفاعا

وواضح فيه نظر الشّيخ حياتي إلى مقطع ود تميم السابق، وفيه:

هارب من جوار الدوحه لي طيبه المنور سوحا

والدوحة من قرى الجزيرة مجاورة لبلدة الحوش موطن الشاعر.

ومن علامات جودة المجاراة خفاؤها ودقتها وألا يسير الأخير خلف الأوّل حذو القذة بالقذة.

وجارى من الفحول الشّيخ الدقوني الكبير، أحمد بن علي، والد طيفور، والدقوني لم يدرك التركية بل توفي في عهد السّلطنة الزرقاء. جاراه الشّيخ حياتي في مجموعة قصائد منها:

نِعْمَ نِعْمَ القَامْ في رجَبْ زَارْ محمّد خير العَرَبْ

وعليها قصيدة الشّيخ حياتي (٥٤٠):

نِعْمَ نِعْمَ القَامْ في الأَصَبْ زار محمد مُبْري الوَصَبْ

والأصَب هو رجب الأصم.

كما جاراه في قصيدته: (ديوان الدقوناب: ٤٨)

باقي اسمو دال في طيبة يا سادات بدر الكمال النور يلوح فوقو

وللشيخ حياتي قصيدتان تجاريان هذا النمط أولاهما (٣٧٩):

باقي اسمو ميم في طيبة يا سادات ميم حاء وميم دال الدوام الساد

وثانيتهما (٣٨٢):

باقي اسمو با في طيبة ياسادات صاحب النبا الشافع المقبول

وإن يكن أراد بقوله (باقي اسمو با) الطيب أو العاقب فذلك والله أعلم.

وجارى ابنه طيفور الدَّقوني وكان معاصراً لحياتي وأقدم منه (ت ١٩٠٥م) وكان أحد المحسنين حتى اختلط مديحه بمديح الدقوني الكبير إلا لمن تدبَّر صلواتهما وطريقتهما في التوثيق؛ يقول الشّيخ طيفور (ديوان الدقوناب/٦٣):

مـــن برنـــو القوافـــل مـــدَّنْ   حجـــــن للوســـــيلة وعَـــــدَّن

ويقول الشّيخ حياتي (٢٤٠):

مـــن برنـــو القوافـــل مـــدَّن   طالبـــات الوســـيله اتعـــدَّن

مع فارق طفيف في المقطع إلا أنه ملأ مَتْنَها حتى ضَجَّتْ والتزم فيها الدال والنون لم يحد عنهما أبداً.

ولما قال الشّيخ طيفور (ديوان الدقوناب/٨٢):

للـــــنّبي شمـــــس التجلِّــــي   مـــــولاي بــــارك وَصَــــلِّ

قال الشّيخ حياتي (٢٢٣):

للـــــنّبي مـــا قـــال مـــصلي   مـــــولاي بــــارك وصَـــــلِّ

ومن المعاصرين للدقوني وود تميم الشّيخ حاج العاقب، وللشيخ حياتي نظر مستفيض في أشعاره، تبعه في:

شـــوقي لـــي الـــشفيع في المـــلا   كاشــــف الكـــرب والــــبلا

فنظم عليها الشّيخ حياتي (٥١٨):

شـــوقنا لـــي شـــفيع التعـــب   الرّسُـــول ود مـــرة وكعـــب

وأردفها بأختها (٥٢٠):

شـــوقنا لـــي الأمـــين المـــبين   الرّسُـــول شـــافع المـــذنين

والتزم فيهما معاً وتفنن في الالتزام. كما بَيَّنتُه في مبحثه.

وقد أكثر حاج العاقب من (العيب شبابيات) وله فيها أربع قصائد ولود تميم في هذا الوزن نصيب أيضاً وهو قَرِيٌّ تبعه كثير من القدماء ومن تلاهم مثل ود سعد وإخوانه، فلما رأى الشّيخ حياتي أكثارهم فيه نظم في هذا الإيقاع المخبوت ثلاث عشرة قصيدة كلها تبدأ بـ(عيب شبابي) اصطلحتُ على تسميتها بـ(العيب شبابيات) ولو تأملها متأمل أمكنه أن يرجع كل قصيدة إلى أصلها الذي جارته وبنيت عليه.

ومن المعاصرين للشيخ الدقوني وود تميم وحاج العاقب، الشّيخ صالح الأمين وهو من كبار مداح السافل ومن أهل التجويد.. ومما جارى فيه الشّيخ صالح قول الأخير(ديوانه المخطوط):

بكَـــتْ العـــين لـــي حبيبَـــا الغـــالي في أم سُـــور العجيبَـــه

جاراها الشّيخ حياتي بقصيدته (٤٢٣):

بَكَــــتْ العـــينْ لـــي نبيهَــــا   شـــوقِي ﰲ أم سُـــور الوجيهَــــا

ونوّع شيخ صالح ﰲ قوافيه ﰲ حين التزم الشّيخ حياتي كعادته.

وللشّيخ صالح قصائد (العشرتالاف) يشاركه فيها معاصره ود تميم، وقد جاراهما حاج الماحي، وتبعهم الشّيخ حياتي بقصيدتين. وأشهر قصائد الشّيخ صالح الأمين (ديوانه المخطوط):

عَـشَرتالاف صَــلاه وميّــه والــسّلام مطبُــوقْ   لــي النّبِــي الجَــاهُو بَــاهِي يَحــوُقْ

وللشيخ حياتي: (٣٧٧/٣٧٥):

(عشرتالاف لكُوكَا فُوقَا مليونينْ) و(عشرتالاف بحوراً لي صلاتي مِدَاد).

وجارى الشّيخ عبدالقادر اب كساوي وهو ربيع والده وزميله ﰲ التلمذة للشيخ ود بدر وقد تنبأ له بمستقبل ﰲ المديح لا يضاهى وقد صدقت نبوءته. وجدت أثر اقتفائه للشيخ عبدالقادر ﰲ قول الأخير:

مِــنْ زَوْرَة ســيد أبَــاي يَــا زَميلِــي   اتْلَوَّمَــــتَ وطَـــال بطَــاي

وهي التي نظم عليها الشّيخ حياتي قصيدته (٢٦٠):

مِــنْ زَوْرَة سَــيِّد شُــعيبْ يَــا زميلِــي   القُعَــــادْ لــــومْ وعِيــــبْ

ولابد أنَّه جارى قدامى الكسواب خصوصاً الشّيخ أحمد لوشائج الطريق والقربى، وإنَّما اقتصرت على ما اقتصرت للتمثيل.

وجارى الشّيخ أحمد ود عبدالملك (١٩٠٣م) الّذي يقول:

مــنْ المتعــال الــصّلاة الفَــاخرَه   علــى شَــافع الــدُّنيا والآخــرَه

جاراها الشّيخ حياتي بقصيدتين (٢٣٦/٢١١):

(من المتعال الصّلاه الهاميه) و (من المتعال الصّلاه تعلا).

وكان الشّيخ أحمد ود سعد من الّذين شهدوا بعبقرية الشّيخ حياتي لما سمع بداياته ﰲ مدح الرسول وذلك ﰲ العبارة التي وجهها لود اب شريعة وهي قوله (قولوا لولدنا أحمد اجاك مزاحم). جاراه ﰲ قصائد كثيرة منها: (اللّهم صَلِّ على النّبي المصباح) وأخواتها وهن خمس، و(الله الله ربنا) و (ربنا يا ربنا زيد ﰲ المكرم حبنا) فنظم على نمط الخمس (٥٠٤/٥٠٦): (اللّهم صلِّ على النّبي المصباح) (واللّهم صلِّ على النّبي الأوّاب). أمّا الأخريين فبقي على ألفاظ ود سعد ﰲ الأولى (٤٣٧)، وغير مطلع الثانية فقال (٣٩٥):

ربَّنَــــــا لا تَرُدَّنَـــــــا   زيـــــدْ ﰲ الْمُكـــــرَّمْ وُدَّنَــــا

وبقي ثلاثة من الفحول العشرة الّذين عاصرهم الشّاعر، تظهر فيما شاركهم فيه روح المنافسة التي قد يشوبها التَّحدي أحياناً كما يتراءى لي، يدلك على ذلك أنَّ له في كل قصيدة من قصائدهم عدة قصائد على نمطها - وهم الشّيخ محمد ود صالح والشّيخ أحمد اب شريعة والشريف يوسف الهندي. كان ود اب شريعة أوَّلهم وفاة (١٩١٩م) وتوفي الشريف سنة (١٩٤٢م) وتوفي حياتي (١٩٤٣م) وكانت وفاة ودصالح نحو سنة (١٩٥٥م).

أمَّا وداب شريعة فقد جاراه في (الصادق المامون) (ديوانه ١٢٢) برزن شموسو (٢٦) وعلى الرَّسول يا قوم (٢١٠) والشوق علينا ازداد (١٨٨) وغيرها، وقد جاراه في الأولى مرة واحدة بقصيدته (سمي السامون ٢١٨) وجارى الثانية بقصيدته (ظهرت ربوحو ٢٠١). أما الثالثة فقد جاراها بأربع قصائد (٣٤٠ . ٣٥١):

(على الرّسول يا قوم صلُّوا لتصلو) و(صلُّوا المأصَّل) و(ما دام بقاكم) و(ما الرب أدامكم) - وأما الرابعة فجاراها بأربع أيضاً (٣٥٢ -):

(الشوق علينا ازداد وازداد لومنا) و(كبرت جروحنا) و(الدمع أجرى) و(القعده آفله). وجاراه في أخريات. وقد عمدت إلى الإشارات الموجزة لأن الديوانين متاحان لمن أراد المقارنة.

أمَّا الشريف يوسف الهندي فلست معتذراً عنه، ولكني أعرف أنه كان صاحب طريقة ضخمة ومسيد وأتباع ووفود وحشود وحمالات وأعباء مجتمع وتآليف ضخمة في العبادات والأدب والتراث والسيرة - هذا سوى المديح - وما كان الإنجليز يُخْلُونَه من الولوج أحياناً في السياسة والإدارة، ولم ينقطع انقطاع الشيخ حياتي للفن الواحد حتى تتفتح أمامه آفاقه كما انفتحت أمام الشيخ حياتي، لكنه مع ذلك كان له في المديح نصيب كبير وقد اشترك مع الشيخ حياتي في كثير من المطالع ولا أدري أيهما أسبق ولكن للشريف (برق العقيق من قبا) و(برق العقيق من منى) وللشيخ حياتي أربعة بروق على هذا المنوال (جرجرا - عبعبا - ولولا - لاح كحل) (٩٩ - ١٠٦). وللشريف بعض القصائد التي جاءت على (قل يا فمي ليهم) و(نم يا فمي ليهم) وللشيخ حياتي ثماني قصائد من هذا الضرب هي التي سميناها القلاقل لأنها تبدأ بالأمر (قُلْ) وهي من المدائح الفريدة وثمانيتها يمكن أن تكوِّن ديواناً مستقلاً لتجويدها وقوة سبكها واشتمالها على الكثير من مفردات السيرة. وللشريف (نعم الحدا وقام) وللشيخ حياتي أربع قصائد على هذا الوزن. ونظم الشريف (مين بصاليه) و(مين بعاليه) وزاد حياتي ثالثة في هذا الوزن فقال (٤٩٨ - (مَنْ بكافيه) و(مَنْ بساويه) و(من يباهيكم). ويمكن أيضاً متابعة ديوانيهما فهما متاحان.

وأمَّا ود صالح، وهو آخرهم وفاة، فله أكثر من قصيدة يشترك فيها مع الشيخ حياتي منها قصائده التي تبدأ (بطيبة) وهي (زاد غرامي) و(جاني إيرادي) و(أضنى أساك) وللشيخ حياتي خمس قصائد على منوالها ولا أدري أيهما الْمُفْتَرِع ، هي (طيبة فيك أنا بالي) و(آه واغلبي) و(أضنى هواك) و(رامِ نبالك) و(فيك هيامي)(٨٩- ٩٨).

ولود صالح قصيدتان تبدآن بـ(لامتين) أي: (إلى متى؟) هما (حبيب البر) و(حبيب الروح) صاغ الشيخ حياتي ست (لامتينيات) هي: (حبيب الروح) و(حبيب البر) و(حبيب الحق) و(جمال عيني) و(وحيد الجود) و(الفضل نوحا) (٣٢٧ وما بعدها).

وكما صاغ ود صالح (صل يا ذوي العزة) صاغ الشيخ حياتي تسع قصائد على هذا المنوال هي (صل يا ذوي القدرة) وأخواتها (٦٨ - ٨٣) وبينهما اشتراك في كثير من هذا القَرِيّ.

وعلى العموم فإنَّ هذا الباب أراه من أكثر أبواب الكتاب حاجة إلى مزيد مراجعة وتحقيق لأنَّ دواوين هؤلاء الفحول ليست متاحة كلها وتواريخ حيواتهم فيها تداخل. وفي غياب الشاهد الوثيق الذي يدلك على السابق من اللاحق يبقى كثير من قولنا رجماً بالغيب. ولكنا تتبعنا ما أمكن من القرائن وبعض الروايات . لكن المحصلة أنَّ الرجل مع إكثاره من النظر في قصائد من سبقوه كان عزيراً متمكناً متفرداً يشرئب دائماً إلى التفوق والريادة والإضافة والتجويد، وقد قطف ثمارها في كثير مما وقفنا عليه من شعره، ثم أصبح هو نفسه مدرسة جاراها وتبعها وسار على نهجها من جاءوا بعده وأوضح أمثلتهم الشيخ عبدالرحيم البرعي الكردفاني، الذي تخصص في مجاراة الشيخ حياتي وأفاض، وفي كتابنا (السّهل الممتنع) توضيح وتفصيل يغني عن الإعادة هنا لمن أراد الاستزادة.

فوائت واستدراكات

بذل المحققان جهدا عظيما في خدمة هذا الديوان النفيس الدقيق، ومع ذلك وقعت فيه هفوات كأيّ عمل جليل لا تقلل من شأنه الفوائت اليسيرة، التي أحببت أن أثبتها لعل من يأتي بعدنا يتلافاها في الطبعة المقبلة إن شاء الله نشداناً للصورة المثلى للديوان. بعض هذه الملاحظات أخطاء في شرح بعض مفردات الديوان – وما تزال في الديوان غوامض – وبعضها يتعلق بالرسم الإملائي والضبط وترتيب القصائد ونحوه؛ وفيما يلي قطوف موجزة منها دون تطويل:

أ/ أخطاء في شرح بعض المفردات:

١. صفحة ٤٥: حاشية ٢:

قال: عرز بمعنى ثبت.

قلت: والصحيح عرز: ندر وقل نظيره وصعب الحصول عليه، قال الشيخ (المعدوم رَقَدْ كان عازِر).

٢. صفحة ٤٧: حاشية ٤:

قال: تشوّن: من شأن بمعنى القدرة والمكانة.

قلت: الصحيح أن (تشوِّن) بمعنى تَجْمع وتكوِّم، ومنها شونة الغلال كالذرة والفول ونحوهما كناية عن الكثرة.

٣. صفحة ٦٦: حاشية ٤:

قال: مِنْوالِي: أي أجعله ملازما لي.

قلت: لا يبعد، غير أن المنوال هو الطريقة والمنهج.

٤. صفحة ٧٣: حاشية ١:

قال: أجفر: أي أتباهى وأفخر.

قلت: الجُفار مرض يصيب الإبل، وهو يدعو الله ألا يمرض، ويؤكده قوله (أصحبني بالصّحة).

٥. صفحة ٩١: حاشية ١:

قال: الإشارة هنا إلى العذق الذي بكى.

قلت: الصحيح أن الذي بكى هو الجذع، وليس العذق.

٦. صفحة ١٠٣: حاشية ١:

قال: العقيق اسم مكان بشرق السودان.

قلت: الصحيح أنّ العقيق هو أحد أودية المدينة المنورة فيه بئر رومة وبئر عروة وهو مشهور جداً.

٧. صفحة ١٠٥: حاشية ١:

قال: الدنيا لا نرقلا: رقل بمعنى أسرع والمقصود...

قلت: الصحيح: (لا نرغلا) بالغين وليست من (رقل): أراد لا نرضعها ولا نميل إليها. أما (ترغلا) التي بعدها أي لا يخالطها الخطأ (راجع: لسان العرب/ رغل).

٨. صفحة ١١٧: حاشية ٣:

قال: تلدة: أي الولود والمقصود هنا الكثرة والوفرة.

قلت: التلدة: التالدة العتيقة الأصيلة من (التالد والطريف).

٩. صفحة ١٣٦: حاشية ٦:

المكك: جمع مكاوية وهي نوع من القلانس..

قلت: المكاكي والمكك والمكيات هي القيود التي يقيد بها صاحب الجُرم.

أمَّا المكاوية فجمعها مكاويات وهي الطواقي والقلانس.

١٠. صفحة ١٩٦: حاشية ٢٥٩:

- دكدك هرب والدكداكة هي وقع الأقدام على الأرض.
- نعم هكذا في قاموس عون الشريف، ولكن المراد هنا الإحجام والتردُّد.

١١. صفحة ٢٤٢: حاشية ٢:

- الطفلاء: جمع طفيلي..
- الصحيح: الطفلا: الأطفال، أراد أذى أطفال ثقيف الذين رموه بالحجارة.

١٢. صفحة ١٤١: حاشية ٧:

- البسطامي: هو أبوزيد.
- الصحيح: أبو يزيد.

١٣. صفحة ١٥٤: حاشية ٢:

- ادرجولو النوق: أي أسرجوها وأعدوها.

- الصحيح: سوقوها وسيروا بها (الدرجن بي فوق). والنوق تُرحَل وإنّما تسرج الخيول وذوات الحافر.

١٤. صفحة ١٥٨: حاشية ١:

- لبج: ربما اشتقت من لبج بمعنى صرع..

- والصحيح: اتلبج: بمعنى اضطرب وتحرك، و(الدنيا بِتَدُورْلَهَا اتلباجة).

١٥. صفحة ١٧٤: حاشية ١:

- الوقر: الحمل الثقيل.

- لا يبعد ولكن المقصود هنا الحَرُّ والعَرَق الذي يلجم الناس (وَقَر كتلاني).

١٦. صفحة ٢١٠: حاشية ١:

- تالن: قاصدن وقابلن. والمنار قبر الرسول...

- والصحيح: تَالَا المنار: أي جهة المنار وهو المئذنة ونحوها وليس القبر بأي حال.

١٧. صفحة ٣٢١: حاشية ٤:

- حقص بمعنى حزن ويعني هنا...

- هذا خطأ، والصحيح: حقص إذا تحرك ودار في مكانه ومنها الحقاصة والعكالة؛ للتراب الذي تسفيه الريح ويدور في مكانه.

١٨. صفحة ٣٤١: حاشيةة ٢:

- تمزن: أي امتلأ بالسحب المُمْطرة.

- المراد هنا من (تمزن) أي صارت لهنَّ مزِيّة، من قولهم تَمزَّى، والنون لجماعة الإناث.

١٩. صفحة ٣٥٥: حاشية ١:

- ١/ بروحنا: شفاؤنا وبرؤنا من الجرح.

- الصحيح: بروحنا: مغادرتنا وسفرنا إلى سوح الحبيب.

٢.٢٠/ انعنتفنا: أي امتلكنا حبه.

- الصحيح: امتلأنا بحبه (ﷺ).

٢١. صفحة ٣٩١: حاشية ٣:

- القسيم: هو جميل قسمات الوجه وضاحها ويعني رسول الله...

- هذا المعنى غير مراد هنا. والصحيح أنّ القسيم هو المقاسم والمشارك.

٢٢. صفحة ٣٩٣: حاشية ٤:

- ركركوا: من (ركرك) بمعنى تحرك في غير نظام. وضاق صدره ولم يتجلد من الخوف.
- والصحيح: ما رَكُّو كَوْ هكذا أحسبها في الديوان: مارَكُّو كو: لم يحطُّوا ولم يثبتوا. و(كو) حرف نفي. (راجع مبحث الأصوات).

٢٣. صفحة ٣٩٦: حاشية ٥:

- مجونه: أي الذي فضائله كثيرة لا تحصى.
- الصحيح: أن مُجَوَّنة: مكنونة ونفيسة وأصيلة من (الجُوَّاني).

٢٤. صفحة ٤٥١: حاشية ١:

- العوق: جمع عوقه وهو الأبله الأحمق.
- هذا خطأ واضح، وأي فخر في قتل الأبله الأحمق. وإنّما العوق هو الجيش. وهي كثيرة في الشعر ولا تكاد تحصى في الديوان.

٢٥. صفحة ٣٦٦: حاشية ٢:

- أضرا: من الضاري وهو القوي.
- الصحيح: أضرا من الضراء والستر، ولا يشبه الرسول (ﷺ) بالضاري وإنّما هو المضاري والسَّاتر لنا والدليل قوله (كُمَّها أضرا).

٢٦. صفحة ٣٨١: حاشية ٣:

- الكَبَس: من كبس بمعنى هجم غرة وربما يكون المقصود هنا المصائب...
- هذا غير صحيح والصحيح: الظلمات، مفردها كُبسة وقُبسة وغُبْسة.

٢٧. صفجة ٤١٦: حاشية ٤:

- البَتَات: جمع البت وهو النبت...
- الصحيح: البَتَات هو المتاع، يريد صلاح الحال.

٢٨. صفحة ٤٢٩: حاشية ٤:

- تابوره: أي طابور ويعني صفاً صفا.
- هذا لا يصح، ولو أرادها لقالها ولا تأباها القافية. إنَّما التابور هو الكثير.

٢٩. صفحة ٤٢٨: حاشية ١:

- الباجور: أي البابور الذي يروي الزرع.
- المشهور عندنا في الجزيرة أن الباجور هو الحواشات.

٣٠.صفحة ٤٧٢: حاشية ٥:

- صُبر: أي أسرى واقعين في الحبس.

- هذا غير صحيح. صُبَر واحدتها صُبْرة وهي الكوم والحديث عن قتلى مكومين كأكوام القش، أما حديث الأسرى فبدأ بقوله (والمأسور كتير)

٣١.صفحة ٤٧٩: حاشية ١٤:

- علاقيها: جمع (علوقها) وهو عَلَف البهايم.

- وما للجنة وعلوق البهائم وإنّما العلاقي هي كل ما له عروق (مشرورة) على الأرض كالبطيخ ونحوه.

٣٢.صفحة ٥١٨: حاشية ٤:

- حقب: حقب الرجل العنز إذا وضع رجله (الخليفة) [هكذا – والصحيح الخلفية] بين ساقه وفخذه، ويعني هنا أنّ رسول الله (ﷺ) كان يحلب بنفسه.

- هذا خطأ والصحيح أن حقب معناه أردف راكباً خلفه.

٣٣.صفحة ٥٣٠: حاشية ١:

- ١/ تدبك: أي تتلاحم وتتشابك في حلقات المديح.

- والوجه أن يقول: تتزاحم أو تزدحم.

- ٢/ المخزوم: المقيد من أنفه.

- الصحيح: المشدود من أنفه لأنّ القيد يكون في اليد والساق.

٣٤. صفحة ٥٣٢: حاشية ٨:

- العلا الرفرف: أي الذي علته الزينة والزخارف.

- الصحيح: أنّ العلا الرفرف هو الرسول (ص) وتقدير الكلام (ما أحلا وما أظرف فنّ الرسول الذي علا الرفارف وخرق حجب النور).

٣٥.صفحة ٥٣٣: حاشية ٣:

- الهلل: قطعة نقدية متداولة في الحجاز.

- الهللة أصغر وحدة عملة في الحجاز والرُّبُّ واحدتها (رُبيه) وهي عملة شرق آسيا – الهند وباكستان.

٣٦.صفحة ٥٣٥: حاشية ٢:

- الحاشية لم تشرح.

- طهر الثراء: أي صارت الأرض له طهوراً.

٣٧. صفحة ٥٤٢: حاشية ٩:

- اب هجب: لعلها أب هدب وهي كلمة عربية...
- الصحيح: أب هجب وأب هبج وهو الكثيف شعر الرأس تشبيهاً له بالنبات الكثيف كما قال في وصف البطانة (يا أم هبجاً مترقن).

٣٨. صفحة ٥٣١: ٧:

- نفله: أي ذكر محاسنه.
- الصحيح: نَفْلُه: أي حركَتُه المُقلقه. والنفل ضرب رؤوس حزمة القش لتستوي، والآلة هي المُنْفَالَة.

٣٩. صفحة ٥٣٢: حاشية ٤:

- الدار من خلقو: أي الذي حمى أمته من العذاب.
- الصحيح: الذي وقّاه وداراه وحماه من خلقه وشرورهم تصديقاً لوعده (فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ).

٤٠. صفحة ٥٦٣: حاشية (١):

- ايتمن: أي أعدمن وأفقدن.
- الصحيح: أنها من اليمن والبركة أي تيامن أو تأمَّن من المحل والجفاف.

٤١. صفحة ٥٥٦: حاشية ٢:

- السِّلام بكسر السين المشددة نوع من الشجر...
- هذا غير صحيح، وإنَّما السِّلام: الحجارة. أمَّا الشجر فهو السَّلَم والشجرة المعروفة في معجزاته (ﷺ) من السَّمُر.

ب/أخطاء في الحواشي:

وقبل أن نفارق أخطاء الشرح إلى الأخطاء التي وقعت في متن الديوان، وقعت في الحواشي أغلاط في الرسم والنحو – نوردها بتصحيحاتها:

الصفحة	الحاشية	الخطأ	التصويب
٣٦	١	انبهد الضلال	انهبد الضلال
٤٣	٢	يظلانه ملكان	يظله ملكان
٤٥	١	دار الاخراج	دار الأفراح
٤٩	١	الحديبة/ الحديبة	الحديبية/ الحديبية
٨٢		زينب بن الحارث	زينب بنت الحارث
٩٦	٢	أمالك	أملالك
١١٩	٢	الخليقة	الحُلَيْفَة
١٢٨		استهذاءا	استهزاءً
٢٣٦	١	لم يكن به لبناً	لم يكن به لبنٌ
٢٩٠	١٠	قل ماله	قل ماؤه
٣٣٥	١	الكريخ	الكرخي
٣٤٦	٢	صورة الضحى	سورة الضحى
٣٥٦	٥	لون الرماح	لون السِّهام
٣٩٨	١	ذوي الشأن	ذوو الشأن
٥٥٤	١	لم يرتشي	لم يرتشِ
٥٥٤	٢	أسمدي/ أسمد	إثمد/ إثمد

ج/ أخطاء الرسم الإملائي:

يحتاج رسم الديوان إلى إعادة نظر فقد كتب بصورة فيها تسامح وحتى لو كانت بخط المؤلف عليه رحمة الله فإنَّ المعاني كانت واضحة لديه لأنه منشئها. أمَّا غيره من المطالعين للديوان فإنّهم يحتاجون إلى تبسيط أكثر واتفاق على طريقة مُطّردة. ولا تدخل الأخطاء التالية فيما دعونا له، لأنَّه خطأ صريح ومخالفة للرسم الإملائي المتفق عليه سهواً أو تطبيعاً.

الصفحة	الخطأ	الصواب
٣٧	نشأ	نشأة
٤٩	اللَّهُمْ مَصَرْف	ألْ لَهُم
٥٤	فتفت	فَتْ فَتْ – اسم صوت
٥٤	السما	السماءِ – الوزن
٩٨	من ذو	مُنْذُ
١٣٦	أهجو	أهجر
١٣٧	النصري	النصر
١٤٨	اعترن	اعترنّي
١٤٨	كِثْرَاً	كِثْرن – نون نسوة
١٥٢	الدَّان	إدّانى
١٦٩	شؤ	شأو
١٨٣	النصري/ الثغري	النصر/ الثغر
١٩٨	الله علم	ألْ لَهُ علّم

الصفحة	الخطأ	الصواب
١٩٨	لِيَاتُ	لي ياتُو
١٩٩	عزائيل	عزرائيل
٢٠١	الغمايس	المغايس
٢٠٥	المعشر	المحشر
٢١٢	الدائين	الدّاءين
٢٢٦	اضطرادَ	اطّرادا
٢٢٧	الهدى	الهداء (الوزن)
٢٤٣	الأُوكلا	الأُكلا
٢٤٧	وطوءُ	وطْأُ/ وطيو
٢٤٧	الشرافات	الشُّرُفَات
٢٥٠	البورِكَةْ	البُورِكتْ
٢٥٤	ابن خالت	ابن خَالَةْ
٢٦٦	اكْتَمَلْ	اِتْكَمَّلْ
٢٨١	طور الرسل	طُرْ الرسل
٢٨٦	بتنهف	بِتْنْهَنِف
٢٧٠	لَيْلَى	لَيْ (ليْل)
٢٧٠	رءُوفا	رؤُفاً (حركة قصيرة)
٢٩٣	الرِّحال	الرِّمال

الصفحة	الخطأ	الصواب
٣٠٣	امتدّت	امتدْ
٣٠٥	لا أرى	لأرى
٣١٥	صوت	سوط
٣٢٥	الجناب	الجنان
٣٤٦	وساءكم	وساكمُ
٣٦٠	أطأ السماء	أطَّ السماء
٣٧٩	الرءوف	الرَّؤُف
٣٩٩	الضرورع	الضروع
٤١٩	رى الروم	رؤيا الروم
٤١٩	الملت	الملّة
٤٢٢	العمري	العمرِ
٤٢٨	الطبقة	الطبعة
٤٣١	اليدي	اليدِ
٤٣٩	الرؤوف	الرؤف (حركة قصيرة)
٤٤٧	وبين	وَبِيت
٤٨٢	وَطْئُ	وَطْيُو/ وَطْؤُ
٥٢٨	براء	برا (الوزن)
٥٣٥	راحة	راحاتو

الصفحة	الخطأ	الصواب
٥٣٥	الأجّنّة	الأجنَّ
٥٤١	واللّي أبي هرة	واللِّي لي أبي هرة
٥٥٤	أسمدي	إثمد
٥٥٤	الجلمدي	الجلمدِ

د/ التَّصحيح بناءً على اللزم: (انظر ص ١٥١-١٥٦)

هـ/ اختلاط رسم القاف والغين والذال والزاي:

وقع خلط كبير وشيء من عدم الدقة في التفريق في الرسم بين القاف والغين والذال والزاي على ما هو معروف من نطق السودانيين لهذه الحروف، وهذا وإن تسامح الناس فيه في الخطاب الشفهي فإن وقوعه في المكتوب يُلْبِسُ على السوداني وغير السوداني وينبغي أن يرسم الحرف على صورته حتى لا تضيع قيمته الصوتية. وقد أحصيت في الديوان عشرات المواضع التي كان بعضها مربكاً جداً وترتب عليه ضياع للمعنى تماماً، كما في (إزاء) بمعنى (محاذاة) التي رسمت بالذال (إذا) ص(٣٦١) فضاع المعنى واستغلق تماماً. وأورد هنا بعضها:

الصفحة	الخطأ	الصواب
٤٥	قرز	غرز: إذا جفّ من اللبن
٩٠	غرّة الأمقال	قرة: بَرْد
١١٣	حَرَّه غالي	حَرُّه قالي (يقلى الأجسام)
١٢١	قرز	غرز: ماء السحاب
١٩٦	قاششني	غاششني من الغش
٢١٣	فارق أبُوبي	فارغ أبوبي: يُرَى ما خلفه
٢٢٢	القرائز	الغرائز، جمع غارزة لا لبن فيها
٢٤٦	انقاظوا	انغاظوا من الغيظ (الغضب)

مُغْبَرَّ: عليه غبار وغبرة	مُقْبَرُّ	٢٥٦
ما غِلِب: لم يعجز	ما قِلِب	٢٧٢
لا غادي: غدا بعيداً	لا قادي (أكثر من مرة)	٣٤٣
الفارغة: العطالة	الفارقة	٤٠٧
سد الثُّقب: الخُرم - الفتحة	الثغب	٤٤٨
النغلب: إبليس ونتغلّب عليه	النقلب الصدام	٤٧٥
مَغَسا: وجع البطن	مَقَساً	٤٨٦
قذارة: أوساخ	غذارة	٥٠٢
زرن: من الزراية وهي الاستخفاف	ذرن	٣٣
يزل: ينزلق	يذل	٨٧
الذراع	الزراع (١٢٤/٣٨٦)	٩٤
أذعن (خضع)	أزعن	١٩١
يزهوبا من الزهاء وهو الحسن	يذهوبا	٢٣٥
آذوا: من الأذى	آزوا	٢٤٢
زي: مثل	ذَي	٢٥٩
عواذلك: جمع عاذل	عوازلك	٣٠٢
الزّلل: الخطأ	الذلل (٣١٠/٣١٧/٣٩٩)	٣٠٧
إزا: إزاء: بمحاذاة	إذا	٣٦١

آزروا: آزره: سانده	آذروا	٤٥٧
تزري: تستَخِفْ	تذري	٣٦٦
. برذون: بَغَل، أو فرس غير أصيل	برزون	٥٤٦

و/ أخطاء الضَّبط:

الضبط في هذا الديوان الدقيق فرض وواجب، لمتانة سبك الشاعر وعتاقة لغته ودقة تعبيره..وقد ضبط الديوان في معظمه ضبطاً جيداً ما كانت تستقيم قراءته لولاه. ومع ذلك وقعت فيه أشياء تخل بالمعنى إن كانت في أصوله أو من عمل الناسخين، وهي كثيرة يُعْجِزُ استقصاؤها وحصرها، وسأمثل بشيء منها كان وَضْعُه ملبِساً ومربكاً:

الصواب	الخطأ	الصفحة
الرُّغْف (الرغائف)	الرَّغْف	٤٩
سلمان دَيْنُو	سلمان دِيْنُ	٥٥
زَيْ: مثل	زِيْ	٩٧
الصُّلَّبْ	الصُّلَبْ	١٣١
ما لُتْنَا (ما نطقنا)	ما لَتْنَ	١٦١
الدَّين	الدِّين	١٦٣
المَغْفِرا (المَغْفِرَةُ)	المِغْفَرا	١٦٥
حَرْوَ مُظْلِم	حَرٌّ مُظْلِم	٢٢٤
عَيْن (من الأعيان)	عِين	٢٢٩
العَبْرَة = الدَّمعة	العِبْرَه	٢٥٣
وُما اتماجن: لم يصبحن ممجوجات	أُمًّا تماجن	٢٦٥

الصواب	الخطأ	الصفحة
نُهَّد	نُهَدْ	٢٦٧
نَوِّمُمْ	نَوَمُمْ	٢٦٧
بي نارُو ذي	بي نارْذي	٣١١
عَنِّي	عَنَى ارْضَى	٣٧١
الصَّيده	الصِّيده	٣١٤

ز/ترتيب القصائد وأشياء أخرى:

رتبت قصائد الديوان ترتيباً جيداً حسب الإيقاع غير أن قصيدة (سمح المحي ١٢٥) و(سمح الكحل ١٢٦) كان ينبغي وَضْعُهما بعد (ص١٦٤) مع سبع قصائد من وزنها وإن كان إيقاع القصائد التسع من الهمباتي. كما أنَّ قصيدة (الحجيج يا ناس بالسلامة ٣٨٨) تأخرت كثيراً وموضعها المتوقع هو مع أختها (الحجيج يا ناس فاتنا زاير ٢٦٦).

وسقط بيت من قصيدة (ناهي النَّهو) (ص١٦٩) وهو قوله:

فـــاق الرُّسُـــل المَـــشَوا الرّكْـــب المـــا انرَشَـــوا

كما سقط شطر من قصيدة (قل يا فمي ليهم بشكِّر النُّدَّر) (٤٦٥) وهو قوله:

أب ســـم والغـــلام والـــصيدة الـــشايل

واختل ترتيب أحد مقاطع قصيدة (ربنا لا تردّنا ٣٩٥) حيث تقدمت أربعة أشطار في (ص٣٩٥)، وجاء الشطر الخامس في (ص ٣٩٧) وهو قوله:

(لولا الجنان ما بنسكنا)

هذا وقد نقصت بعض المقاطع من بعض القصايد كقصيدة (الجيدين) وفيها مقطع مهم وهو الذي يدعو فيه لأهل بلدة الهلالية وغيره، وإثبات مثل هذه المحذوفات هو من صميم الأمانة العلمية والوفاء للراوي وحفظ حق المذكورين في ديوانه.

ح/أشياء أَعْيَتْني:

على الرغم من كثرة الكَرّ والمعاودة وطول النظر وَقَفَتْ عليّ أشياء لم أتبيّن مراد الشاعر منها. وربما كان ذلك ناجماً عن عدم نظري في الديوان المخطوط الذي كان من الممكن الرجوع إليه والمقارنة، هي:

١/ قوله (١٠٣):

الكـــل أيـــا مـــن عقـــل ... مـــا نـــالوا إلاّ الأقَـــل

مِنّـــو أخـــا المـــستَغَل ... الـــشاف ريُّـــو بالمقـــل

هل أراد (أخا الضعيف المحتقر المستغل)؟ الله أعلم.

٢/ قوله (١١٨):

جـــاء بـــاليمن خـــيرة المفـــرد ... والأمـــان والخـــير (المَوْءنّـــا) ورد

هكذا وردت الكلمة المحصورة ولم أفهمها.

٣/ وقوله (ص١٦٧):

لـــيش أنـــسى يريـــصا ... الأغـــصان مهبـــصا

مالمراد بـ (يريصا)؟

٤/قوله (١٩٢):

هـــب لـــي زورة بـــالقفريف ... أو بالداخلـــة أو بـــالريف

لم أقف على معنى (القفريف).

٥/ وقوله (٤٢٩):

كـــم آيـــات لـــه مخبـــورة ... رد العـــين والمقبـــورة

والتـــيس والبـــويرا بتـــورا ... والأمـــلاك ورا تـــابوره

أحتاج إلى الديوان للتدقيق والتمقيق والتحقيق في الشطرة الثالثة هذه.

٦/وقوله في مدح سيدنا أبي بكر رضي الله عنه (٤٤٩):

هيلـو الورديـاتْ وألكـاك ألـوف يـا اخـوان ... في الخُـرَّد وفي قـصوراً لهـا ألـوان

لم أقف على معنى (الورديات).

٧/وقوله (٤٧٠):

واعطينـــا مقامـــاً فَـــرْدَه لا حرفـــان

ولم أفهم هذه أيضاً. والله أعلم.

وبعد فإنَّ هذا الديوان مما يستحق ما يبذل فيه من جهد وينتظر المزيد لأنه فرع أصيل من دوحة المديح النبوي الوارفة، ولهذا الديوان خصوصية وهي دقة صاحبه واحترافه في كتابة القصيدة المادحة وتمسكه باللغة التي ليس بينها وبين العربية الفصيحة فرق يذكر. لكل هذا ولغيره يحتاج هذا الديوان إلى عناية خاصة من أهل المحبة وأهل الاهتمام حتى يخرج بالصورة المنتظرة لمثله.

وبعد، فهذا غيض من فيض الإبداع في ديوان هذا الشاعر الفريد، فرغت مما علّقتُه منه ولم أفرغ مما في نفسي ولو قُيِّض لهذه السياحة أن تقارن بغيرها وتطبخ على نار هادئة لبانت للمطلع عليها ضروب من الإبداع مذهلة ولكن يكفيك من الزاد البُلْغة ومن القلادة ما أحاط بالعنق. ومع ذلك فإنَّ ما قُدّم في المباحث السابقة، على اقتضابه، ينمّ عن محبّ متيَّم وشاعر متمكن وناظم موهوب وعالم متبحر ورجل يعرف ماذا يقول وفيمن يقول وكيف يقول ومتى يقول ولمن يقول. وهو إسهام مقدرٌ في خدمة الأدب النّبوي يضرب بسهم وافر في إثراء هذا الأدب النّبيل الذي كان وما يزال واحداً من وسائل الدعوة التي تتقاصر عنها كل وسيلة. حفظ التُّراث وأغنى اللُّغة ورفد الأدب وقدّم السيرة النّبويّة العطرة في ثوب قشيب ومأخذ قريب. فجزى الله منشئه وإخوانه خيراً، ووفقنا إلى حمل الرسالة من بعدهم إنَّه على ما يشاء قدير.

وصلى الله وسلم على الحبيب الممدوح وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين.

المصادر والمراجع

اعتمدت هذه الدراسة على تحليل أشعار الديوان فقط ومعظم المصادر المذكورة هنا وردت في المتن ولم تورد مصادر إلاّ لماماً.

١. القرآن الكريم.

٢. كتب صحاح الحديث.

٣. ديوان الشيخ حياتي. ١٩٩٣م.

٤. سيرة ابن هشام الأنصاري.

٥. السيرة الحلبية، نور الدين الحلبي، ط٢، ٢٠٠٦م.

٦. لسان العرب، دار صادر، بيروت.

٧. الأعلام للزركلي، ط دار العلم للملايين.

٨. المجموعة النّبهانية للشيخ يوسف النّبهاني.

٩. عادات سودانية أصولها عربية، إبراهيم القرشي، الرياض ١٩٩٩م.

١٠. عفو الخاطر، إبراهيم القرشي، ٢٠١٥م.

١١. السهل الممتنع، إبراهيم القرشي، مطابع العملة، ٢٠١٤م.

١٢. مدح الرسول (ﷺ) للبروفسير عبد الله الطيب، حققه وقدم له إبراهيم القرشي ٢٠١٤م.

١٣. ديوان ود حليب، ٢٠١٤م.

١٤. ديوان الشريف يوسف الهندي.

١٥. ديوان ود سعد.

١٦. ديوان وداب شريعة.

١٧. ديوان الحاردلو.

١٨. كتاب الاعتبار لأسامة بن منقد.

١٩. المحتسب في شواذ القراءات لابن جني.

٢٠. ديوان الدقوناب.

رقم الإيداع (٢٠١٥/٩٢٣)